إدوارد سعيد

خارج المكان

ترجمة
فوّاز طرابلسي

مذكرات

دار الآداب

إدوارد سعيد

خارج المكان

(مذكرات)

نقلها إلى العربيّة: فوّاز طرابلسي

دار الآداب - بيروت

خارج المكان ـ مذكرات
ادوارد سعيد/مؤلف فلسطيني
ترجمة فواز طرابلسي
الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠

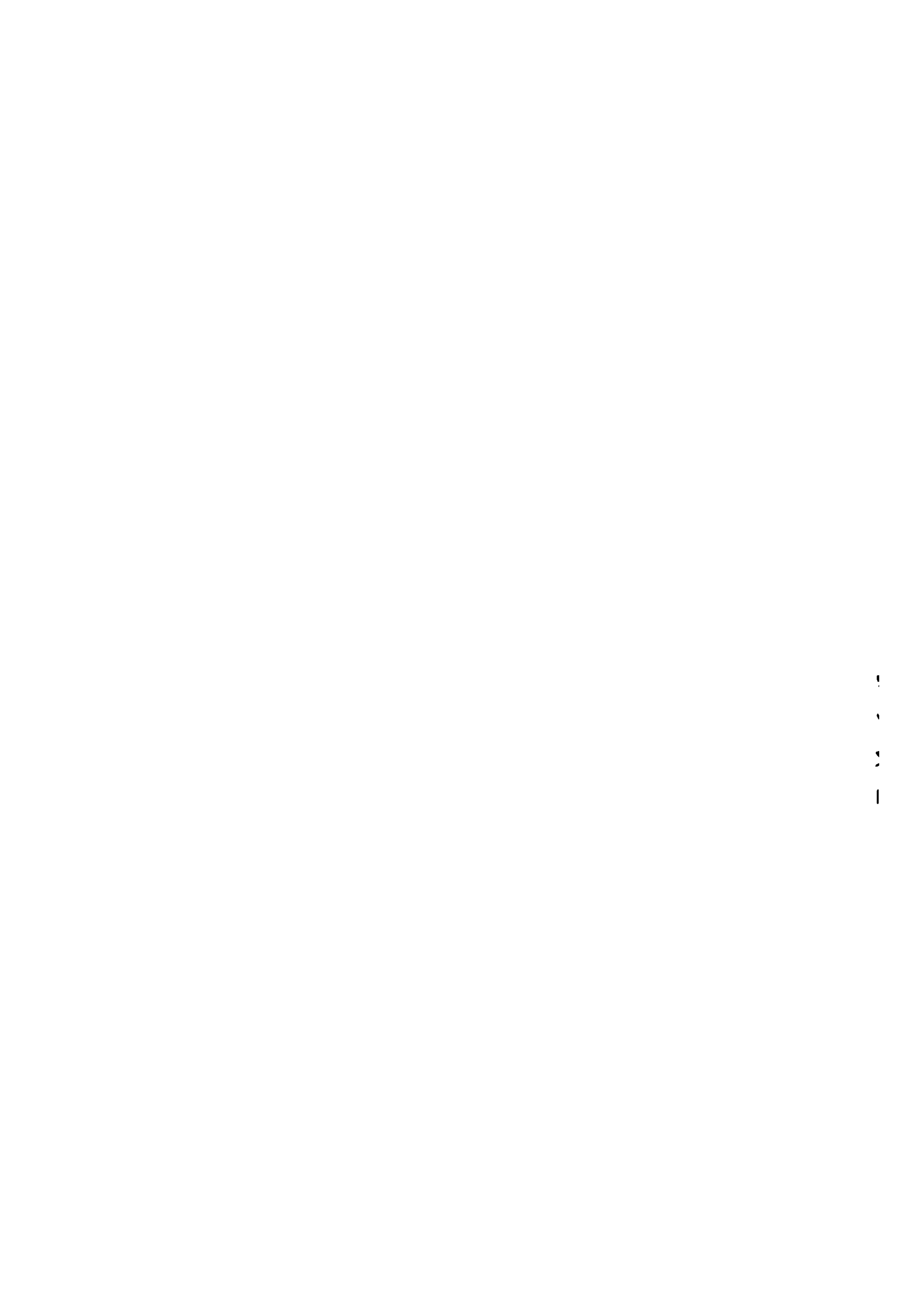
صدر هذا الكتاب أصلاً باللغة الانكليزية
Edward W. Said, **Out of Place,** A. Knoff 1998.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 11-4123
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - (03)861632
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إهداء

إلى الدكتور كانتي راي

وإلى مريم قرطاس سعيد



مقدمة المؤلف للطبعة العربية

صدر أولُ كتاب لي في العام ١٩٦٦. كان عن جوزف كونراد، الروائيّ البولونيّ الكبير الذي غادر وطنه عام ١٨٧٤ وهو في السابعة عشرة من العمر. عاش كونراد في فرنسا وعمل قرابةَ أربع سنوات في البحرية التجارية الفرنسية. وفي عام ١٨٧٨، جدّد حياته فجأةً فعمل بحّارًا في البحرية البريطانية إلى العام ١٨٩٥ عندما نشر روايته الأولى، **جنون آلماير**. سحرني في الرجل أنه كتب باللغة الإنكليزية أعماله العديدة من روايات وقصص ومذكرات، وكلها يغرف من حياته الغنية على نحو مستبعد التصديق بوصفه بحّارًا ومكتشفًا ومغامرًا. ومع ذلك كانت الإنكليزية لغته الثالثة بعد البولونية والفرنسية. في كتابي عن هذا الكاتب الذي ظل يثيرني، بل إني بالتأكيد مهووس به من نواحٍ عديدة، أحاجج أنه عاش تجاربه في اللغة البولونية لكنه وجد نفسه مَسُوقًا إلى الكتابة عن تلك التجارب في لغة ليست هي لغته. فإذا النتيجة كاتبٌ متفردٌ في الأدب العالميّ من حيث الأسلوب والمحتوى معًا. فما من أحد له نبرة كونراد، وما من أحد مِثْله يكتب عن أوضاع غريبة ومتطرفة، وما من أحد حقق تلك الآثار الكابوسية والمقلقة كالتي حققتها كتبه. وأعتقد أنّ السبب في ذلك يعود إلى شعور كونراد بوجود تفارق دائم بين تجاربه وبين اللغة التي استخدمها لوصف تلك التجارب. فكأنه عاش في لغة وكَتَبَ في لغة أخرى. وإذا إدراكه لذلك الاختلال المربك هو في الصميم من كل أعماله.

لست أريد أن أضع نفسي في مصاف كونراد، وإنما أن أقارن فقط بيني وبينه من حيث استخدام اللغة الإنكليزية. غير أنّ الفارق بين لغتي العربية الأم،

والإنكليزية التي نشأتُ عليها واستخدمتُها في كل ما كتبتُه تقريبًا، أكبرُ من ذلك الفارق بين البولونية والإنكليزية الذي وسم أدبَ كونراد. وحتى لو اعترفنا بأنّ بولونيا بلد سلافيّ، فيما إنكلترا بلد أوروبيّ غربيّ، يبقى أنّ العالم الذي نشأ فيه كونراد واللغةَ التي استخدمها في أعماله ظلا محصوريْن ضمن أوروبا بوصفهما وجهَيْن لمنطقة واحدة. وأما في حالتي أنا، فالفارق بين الإنكليزية والعربية يتّخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كليًا بل متعاديَيْن: العالم الذي تنتمي إليه عائلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولية الحميمية – وهي كلها عربية – من جهة، وعالم تربيتي الكولونياليّ وأذواقي وحساسياتي المكتسبة ومجمل حياتي المهنية معلِّمًا وكاتبًا من جهة أخرى. لم يُعْفني هذا النزاعُ منه يومًا واحدًا، ولم أحظَ بلحظةِ راحةٍ واحدةٍ من ضغط واحدة من هاتين اللغتين على الأخرى، ولا نعمتُ مرةً بشعور من التناغم بين ماهيتي على صعيد أول وصيرورتي على صعيد آخر. وهكذا فالكتابة عندي فعلُ استذكارٍ، وهي، إلى ذلك، فعلُ نسيانٍ، أو هي عمليةُ استبدالِ اللغة القديمة باللغة الجديدة.

لذا ساورني شعور عظيم بالارتياب عندما أقدمتُ على تأليف هذا الكتاب عن حياتي المبكرة وقد عشتُها في معظمها في القدس والقاهرة وضهور الشوير. إذ إدركتُ أنني مقدم على عمل متناقض جذريًا هو إعادة بناء عالم في مصطلحات عالم آخر. كان ليّ أن أستخدم اللغة الإنكليزية، ولكنْ كان عليّ أن أستذكر التجارب وأعبّر عنها بالعربية. طبعًا، كان من العبث إنكارُ التغاير والتباعد الكاملين بين هذين العالمين. ولكنْ لا يُعقل أن يكونا منفصلين وحدهما عن الآخر، كأنما نتيجةً لعملية بترٍ جراحية، ما داما قد تعايشا سنواتٍ وسنوات داخل شخص واحد. الأحرى أنهما كانا جسميْن متوازييْن، بل توأمين، يتحسّس واحدهما ايديولوجيًا وروحانيًا كلَّ عنصر غريب يتعذّر استيعابُه عند الآخر وينفعل إزاءه. لقد اختبرتُ دومًا ذلك الشعور بالغربة المزدوجة. فلا أنا تمكنتُ كليًا من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الإنكليزية، ولا أنا حققتُ كليًا في العربية ما قد توصلتُ إلى تحقيقه في الإنكليزية. هكذا طغى على كتاباتي كمٌّ من الانزياحات والتغايرات والضياع والتشوّه، ولكني كنتُ مدركًا في الأقلّ لكل ذلك وقد حاولتُ استظهاره في مؤلفاتي. فالذي عشتُه صبيّاً في البيت مع شقيقاتي وأهلي، مثلاً، اختلف كليًا عمّا قرأتُه

وتعلّمتُه في المدرسة. تلك الانزلاقات والانزياحات هي قوام هذا الكتاب، وهي السبب التي يحدوني إلى القول إنّ هويتي ذاتها تتكوّن من تيارات وحركات لا من عناصر ثابتة جامدة.

على أنّ الفكرة التي أحاول التعبير عنها هنا هي أنّ السبب الوحيد الذي مكّنني من خوض غمار هذا المشروع المتناقض الذي هو كتابة مذكراتي، هو أني، بعد سنوات من حياتي خارج العالم العربيّ، هي سنوات دراسة وتعليم وعيش وكتابةٍ كلها باللغة الإنكليزية، اتخذتُ قراري، بُعَيد حرب ١٩٦٧، بأن أعود سياسيًا إلى العالم العربيّ الذي كنتُ قد أغفلتُه خلال سنوات التعليم والنضج الطويلة تلك. ولكنّ ما عدتُ إليه لم يكن له أن يكون عالم طفولتي، تلك الطفولة التي دمّرَتْها أحداثُ العام ١٩٤٨ والثورة المصرية والاضطرابات الأهلية اللبنانية التي بدأتْ عام ١٩٥٨.

كان العالم العربيّ الجديد عالمًا سياسيًا وثقافيًا – على الصعيديْن الشخصيّ والعام – يتكوّن من عناصر عديدة، لكنّ علاماته الفارقة عندي كانت الهزيمةَ العربية وانبثاقَ الحركة الفلسطينية والدروسَ الخصوصية في اللغة والأدب العربيين التي كنتُ أتلقاها يوميًا خلال عام بأكمله على يد الأستاذ أنيس فريحة، وهو معلّم رائع، ومَعِينٌ لا يَنْضب من الحكمة اللغوية في اللغات الساميّة كلها. إلى ذلك نما لديّ شعور متزايد بأنه إذا كنتُ أشعر بوجود هوّة من سوء التفاهم تَفْصل بين عالميّ الاثنين، عالمِ بيئتي الأصلية وعالمِ تربيتي، فإنّ مهمة تجسير تلك الهوّة إنما تقع عليّ وحدي دون سِواي. فلم يكن لي مِن خيار غيرُ السعي إلى هويتي العربية وتمثُّلِها تمثلاً، على الرغم من المحاولات الحثيثة التي بُذلتْ لإقناعي بالتخلي عنها خلال فترة تربيتي (وبواسطة أهلي، وإنْ يكن بدرجة أقل). بعبارة أخرى، كان عليّ أن أعيد توجيه حياتي لتسلك حركة دائرية تعيدني إلى نقطة البداية مع أني كنتُ قد بلغتُ نهاية الثلاثين من عمري. اخترتُ أن أستعيد هويتي العربية، ولكني عربيّ لا يتلاءم تاريخُه تمامًا مع تقدمه في العمر. ومن منظاري الجديد بوصفي عربيًا بالاختيار، أعدتُ قراءةَ حياتي المبكرة بما هي حياة من البحث عن الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة والدين والقومية واللغة أيضًا – قراءةً تعيد إليّ ما كنتُ أرغب فيه من تكيّفٍ أفضل وأكثر تناغمًا بين ذاتي العربية وذاتي الأميركية. وكلما أوغلتُ في ذلك الجهد ازددتُ اقتناعًا بأني إنما أسعى إلى تحقيق فكرة طوباوية.

ذلك أنه لم يعد يوجد في حياتنا المعاصرة دعم كبير للفكرة القائلة بأنّ الانتماء العربيّ لا يزال يقتضي، بحكم العادة والتقليد، إقامة علاقة متنافرة مع الغرب. وأعتقد أنّ هذا الكتاب، فيما يؤول إليه، هو صورةٌ شخصية غير تقليدية لتلك العلاقة التي تنطوي على مقدار من التوتر، نعم، ولكنها لا تقتصر على العداء وحده. وآمل أن لا أبدو متبجِّحًا إنْ قلتُ إنّ الجديد في «إدوارد سعيد» المركّب الذي يظهر في خلال هذه الصفحات، هو عربيٌّ أدّت ثقافتُه الغربية، ويا لسخرية الأمر، إلى توكيد أصوله العربية، وإنّ تلك الثقافة، إذ تلقي ظلال الشكّ على الفكرة القائلة بالهوية الأحادية، تَفْتح الآفاقَ الرحبة أمام الحوار بين الثقافات.

ولكنْ إذا كان تأليف الكتاب قد اقتضى المراوحة بين عالم وآخر، فإنّ استقباله في العالم الناطق بالإنكليزية كان مراوحةً أكثر تعقيدًا وتدويخًا. فقبل شهر من صدور هذا الكتاب في أيلول/سبتمبر ١٩٩٩، كانت الحياة التي يصفها موضوعَ هجوم مذهل في مجلة **كومنتري**، الشهرية الأميركية اليهودية اليمينية المتطرفة. فقد زعم الكاتب، وهو مُحامٍ أميركيّ - إسرائيليّ مغمور، أنه أمضى ثلاث سنوات بكاملها ينقِّب عن حياتي المبكرة، مُجْرياً مقابلاتٍ مع عشرات من الأشخاص (وقد عمد إلى تشويه شهاداتهم أو إغفالها كليًا)، ومنصرفًا إلى قراءة الوثائق في القارات الأربع. وقد مَوَّل دراستَه نصّابٌ عالميّ أميركيّ - يهوديّ معروف أمضى وقتًا في السجن لتعاطيه الإجراميّ بما سمّي «سندات خزينة مزوّرة». وكانت خلاصةَ تلك التحريات المزيفة في معظمها هي «إثباتُ» أني لستُ فلسطينيًا حقًا، مع أنّ الكاتب بدا عاجزًا عن تحديد هويتي الفعلية. إنّ هجوم ذلك الكاتب هو هجومٌ مكشوف للطعن في مصداقيتي. وكانت عملية التزوير كلها معدّةً بهدف سياسيّ محدد هو إظهارُ أنه لا يمكن الوثوق بالفلسطينيين عندما يتحدثون عن حق العودة. فإذا كان مثقف بارز يكذب، فما بالك بما قد يُقْدم عليه الناسُ العاديون من أجل «استعادة» أرضهم، تلك الأرض التي لم تكن لهم أصلاً؟

ولكنْ إلى جانب سَيلٍ من المراجعات، كانت ردود الفعل الأكثر إثارةً على الكتاب هي تلك التي صدرتْ عن أناس مذكورين في الكتاب ذاته، والعديد منهم لم أره ولا سمعتُ عنه منذ خمسين سنة. اكتشفتُ ألفرد كورونيل، الصبيّ الإسبانيّ اليهوديّ الذي كان يركب الباص معي إلى المدرسة الأميركية في المعادي، وهو الآن

يعيش في البرازيل، منكفئًا على ذاته، ولا يزال يعتبرني أفضل صديق عرفه إطلاقًا، منذ إحدى وخمسين سنة تمامًا. قال في رسالة كتبها لي إنه لا يذكر أيّ ظل لعداوة نشبتْ بيننا، على الرغم من قصة فلسطين التالية. واكتشافي الآخر هو آدا، أرملة الدكتور فريد حداد، التي تعيش الآن في اوستراليا مع ابنيها (الابن البكر طبيب سمّي على اسم جده النادر المثال، وديع) وابنتها. قبل أن تغادر الشرق الأوسط نهائيًا، عام ١٩٦٤، عملتْ آدا معلّمةً عند مسز بولِن (المديرة العجوز لمدرسة «إعدادية الجزيرة») في بيروت، حيث أنشأتْ هذه الإنكليزية العاصية مدرسةً على مثال المدرسة التي كانت لها ولزوجها في القاهرة. والأشد مفارقةً في الأمر أنّ آدا أبلغتني على الهاتف من منزلها في سيدني أنّ فريد كان طبيب مستر بولِن أيضًا. فإذا فكرةُ أنّ معذِّبي الرئيسيّ وأنا طفل قد كان في عناية نموذجي البطوليّ الرئيسيّ مفاجأةٌ لا توصف. وأخيرًا، بعد أسابيع قليلة من صدور كتابي في إنكلترا، تلقيتُ رسالة من مادلين دابل، التي تعيش الآن في لشبونة، والتي كانت في «مدرسة القاهرة للأولاد الأميركيين»، فملأت الفراغات عندي في ما يتعلق بالعديد من زملائنا. والأكثر إثارةً للمشاعر أنها أرسلتْ صورةً لي وقّعتُ لها عليها عام ١٩٤٨ (لم يتغيّر خطي كثيرًا منذ ذلك الوقت) بصفتي «بابا غوميز»، الجنتلمان الإسبانيّ العجوز الذي مثّلتُ شخصيته في المسرحية المدرسية عن شوپان التي أصفها في هذا الكتاب. ولعلّ المفاجأة الأكثر إشباعًا هي التي وردتْ من ميشلين ليندل، الصبية التي طالما سحرتني وأنا صبيّ عندما كنتُ أشاهدها ليلةً بعد ليلة في دور أليس في مسرحية «أليس في بلاد العجائب» منذ أربع وخمسين سنة في القاهرة، وقد منعني خجلي الشديدُ حينها من أن أتحدث إليها. وها نحن نتراسل بسهولة عبر البريد الإلكترونيّ، هي المحامية الساكنة في أوستراليا أيضًا وأنا البروفسور الساكن في نيويورك.

ربما توجد عناصر لتأليف كتاب جديد يسجّل ردود الفعل هذه على الكتاب وسواها. والعديد منها وَرَدَ من قراء عرب، لا من مجرد فلسطينيين يشاطرونني الشعور بأنّ نشأتهم وهويتهم التالية هما بمثل ارتباك الهوية التي أصفها في مذكراتي أو بمثل تعقّدها على الأقل. وقريبًا تصدر ترجمة عبرية من الكتاب، وسوف أراقب ردود الفعل عليها بافتتان عظيم. كذلك أنتظر بشغفٍ كبير ردودَ فعل القراء

العرب على ترجمة فواز طرابلسي الأنيقة. لقد سبق لزميل عربيّ أنْ قال إنّ بعض ما ورد في كتابي لا يُسِرّ به المرءُ إلا لطبيبه النفسانيّ. وأنا طبعًا مدرك أنّ الكتابة الصريحة عن الذات نادرة في تراثنا. وإني لآمل أن يُسْهم هذا الكتابُ في تنمية هذا التقليد. فإذا تحقق ذلك، بلغتُ الغايةَ في الرضى. وربما عليّ أن أضيف أنّ هذا الكتاب ليس الجزء الأول من مذكراتٍ متسلسلة. بل إنه كلُّ ما نويتُ أن أكتبه في هذا النوع الأدبيّ.

إدوارد وديع سعيد

نيويورك، تموز/يوليو ٢٠٠٠

ملاحظة عن التعريب

بقلم: فوّاز طرابلسي

لا تحتاج الترجمة إلى تقديم. إما أن تنجح في أن تُقرِئك النص المترجَمَ وكأنه مكتوب في اللغة المترجَمِ إليها، وإما أن لا تنجح. والباقي أعذار.

أريد فيما يلي تسجيل ملاحظةٍ عن حرفة الترجمة مستوحاةٍ من ممارستها منذ أن كنتُ على مقاعد الدراسة الجامعية، إلى أنْ واجهتُ تحدي تعريب هذا الكتاب، وتخلَّل ذلك فترةُ انقطاع خلال الحرب.

درج القول إنّ الترجمة فعل خيانة. ينطوي هذا الاستشهاد المتكرّر بالمَثَل الإيطاليّ الشهير على مقدار كبير من الاستكانة والتبرير. فالأحرى أنّ عملية الترجمة عملية صراعية بامتياز، يجري خلالها تطويعُ لغة لكي تحمل معاني وتراكيب لغة أخرى. وتتوسل عمليةُ التطويع هذه مجموعةً واسعةً من الحِيَلِ على اللغة لكي تؤدي معاني وتراكيب واستعارات وأقوالاً مأثورة ومناخات ليست لها ولا هي منها. ناهيك عن الحيل المطلوبة لتأدية لغة الكاتب المخصوصة. ومن هنا فإنّ الترجمة عِلم من علوم الحيَل أكثر مما هي فعلُ خيانة.

هذا النص بالعربية سجلٌّ لعملياتِ تحايلٍ عديدة. كانت المعركة مع إنكليزية إدوارد سعيد عسيرة متطلِّبة لأدق دقائق المعاني والأحاسيس والمشاعر والأفكار والأوصاف. فأسلوب إدوارد ممتنع، كما يعترف هو نفسه في تقديمه لهذه المذكّرات، وقد جهدتُ لجعله سهلاً ممتنعًا. أحيانًا، كنتُ أتغلّب عليه، وأحيانًا أخرى أعترف بأنّه تغلّب عليّ. ومع ذلك، انصبّ كلّ جهدي على جعل إدوارد يتكلم العربية.

تتعلّق أولى مجموعات الحِيَل بالزمن. ففي تعريب مذكّرات عن الماضي، يكون التحديّ الأكبر، في العربية، هو التحايل على «كان» ناهيك عن أخواتها. ومن جهة ثانية، سعيتُ إلى الابتعاد عن نحت التعابير والمصطلحات والمفردات الجديدة قدر الإمكان، وإلى اختيارِ ما هو دارج ومألوف منها. وبالجملة، فاذا كان لي أن أستلهم من إدوارد استعارته الموسيقية العديدة، أقول إنّ المطلوب، في الترجمة، هو تحاشي السقوط في النغم النشاز، نشاز النقل. أيكون المطلوب إذن إعادة تأليف؟ ليس تمامًا. الأحرى القول إنّ الترجمة تنطوي على عملية إعادة توزيع، كما في إعادة توزيع المقطوعات الموسيقية. لن تَلْقى المقطوعةَ ذاتَها في محصّلة العملية. لكنّ المؤكّد أنّ التنويع والتقسيم أو التفريد وإدخال الآلات مستحدثة وحتى التغيير في الإيقاع - هذه كلها لن تضيّع عليك النغم الرئيسيّ، أقلاً، وهي سوف تترك لديك مشاعر مشابهة للمشاعر التي تثيرها المقطوعة «الأصلية». ومهما يكن، فالاكتشاف المتكرّر هو أنّ كل حِيَلنا محدودة حيال عظمة اللغة العربية غير المحدودة الحِيَل. هذا ما أزداد به اقتناعًا، ترجمةً بعد أخرى. يبقى أنّ القصور الأكبر هو قصورنا نحن تجاه غنى لغتنا العربية، بل عبقريتها، لأنّه إذا كان فيها من قصور، فإنّ معظمنا لم يستنفد بعدُ كامل إمكاناتها وطاقاتها لكي يستطيع إنباءنا بمكامن القصور.

خلال تعريبي مذكّرات إدوارد سعيد، تابعتُ بعض أوجه الحملة التي شُنّت على الكتاب والكاتب، فور نشر صفحات منه في الصحافة الأدبية الغربية، وعلى الأخصّ منها ما يتعلّق بإنكار انتماء إدوارد سعيد إلى فلسطين ومِلْكيته لبيت عائليّ في القدس. لستُ أريد الخوض في سجال مع هذه الحملة. أكتفي بالكشف عما تعنيه، وتذكّرنا به، هذه الحملةُ عن الصهيونية، فكرًا وممارسة. ردة الفعل الأولى هي القول إنّ الحملة تنطوي على عملية اغتيال رمزية لجماعة بصيغة فرد: الإمعان في إنكار حق الفلسطينيين في فلسطين من خلال إنكار حق أحد أبرز وألمع مثقفيها في وطنه. لكنني أجد في تلك الحملة ما هو أبعد من ذلك. تنطوي الصهيونية على مضمر أساسيّ، بل وجوديّ، بما هي استعمار استيطانيّ. وهذا المضمر هو السرقة. حدِّثْ ولا حرج عن سرقة الأرض (والتراب أحيانًا، كما في جنوب لبنان) والمياه، والآثار التاريخية، والتاريخ ذاته، والذاكرة، والمأكولات (من الفول والحمّص إلى التبّولة والفلافل)، والعمارة، والعادات، والتقاليد الشعبية. وتستطيع أن تضيف

إلى ذلك كله لونًا آخر من ألوان السرقة، هو احتكار المآسي والعذاب، وسرقة «حق» الآخرين في الادعاء بأنهم، هم أيضًا، قد تعرّضوا للظلم والمآسي والتنكيل والتشريد والعذاب عبر تاريخهم. لكنّ الأدهى هو سرقة البيت، التي هي بحق أعلى مراتب السرقة. وبالبيت أعني ذلك المدى العموديّ ـ الأفقيّ، الذي يمدّ جذورَه في الأرض من جهة، وينفتح، من جهة ثانية، على كافة المسارات الممكنة. تبدأ منه كل الرحلات وإليه تعود. بهذا المعنى لا تزال الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، بل هي أعلى مراحل التمييز العنصريّ، اعترفت الأممُ المتحدةُ بذلك أم سحبتِ اعترافَها. وبهذا المعنى، فإنّ مَنْ يجرؤ على سرقة البيوت (ناهيك عن نسفها) فلا حدّ لما يستطيع اقترافه من جرائم.

ومع أني قرّرتُ منذ البداية الإحجام عن استثمار صداقة إدوارد سعيد لمساعدتي في هذه الترجمة، لاقتناعي بأنّ المترجم وحيد دومًا مع نصه، وبأنه لا يُفترض به أصلاً معرفة المؤلف، فقد اضطررتُ إلى كسر هذا القاعدة، استثنائيًا، من أجل التدقيق في عدد محدود من المصطلحات والإشارات الأميركية جدًا أو تلاوين المعاني. ومهما يكن، أشكر ادوارد على ثقته بي وحماسه لتوليّ مهمةَ تعريبِ نصّه. ولستُ أفشي سرًا إنْ قلتُ إنّ معايشتي القريبة لمكابدة إدوارد المرضَ ونضالِه ضده واستمراره في التدريس وإلقاء المحاضرات والتأليف والكتابة الصحفية والمراسلة والتنقّل بوتيرة مذهلة والعيش مع عائلته واستقبال أصدقائه جعلتني أشعر أحيانًا كأنّ «حياته» بين يديّ بكل ما تثيره التباساتُ الحياة الحقيقية والحياة السردية من مشاعر الإعجاب والألم والمحاكاة والفرح والحماس والاستعجال.

شجّعني الصديق الياس خوري على خوض هذه المغامرة مثلما شجعني على سابقاتها في التأليف في الثقافة والأدب. قرأ إلياس المخطوطة واقترح العديد من التصحيحات والتعديلات. وهذه هي المناسبة لشكره على كل هذا التشجيع والمساعدة. لكني أسارع إلى القول إني وحدي المسؤول عن الأخطاء والقصور في هذا الجهد الذي أردناه، نحن أصدقاء إدوارد، تعبيرًا عن إعجاب وفعلَ صداقةٍ وتضامن.

ف.ط.

بيروت، حزيران ٢٠٠٠

من قبيل الشكر

كتبتُ معظم هذا الكتاب خلال فترات من المرض أوالعلاج، أحيانًا في منزلي في نيويورك وأحيانًا أخرى حين كنتُ أنعم بضيافة أصدقاء أو مؤسسات في فرنسا ومصر. بدأتُ العمل عليه في أيار ١٩٩٤ خلال فترة نقاهة على أثر ثلاث وجبات أولية من العلاج الكيميائيّ لمرض سرطان الدم. بعطف وصبر مبذولين بلا حساب، اعتنى بي دايل جونسون والممرّضاتُ الرائعات في «وحدة العلاج الكيميائي ونقل الدم» التابعة لمستشفى لونغ آيلاند اليهوديّ خلال الأيام والأسابيع والشهور التي أمضيتُها في عنايتهم.

وخلال السنوات الخمس التي استغرقها تأليفُ هذا الكتاب، تحمّل معي أفراد عائلتي – مريم ووديع ونجلا – نوبات المرض والغيابات والعلاجات بالإضافة إلى تحمّلهم حالتي العامة الصعبة الاحتمال أصلاً. وقد سهّلتْ فكاهتُهم ودعمُهم غير المشروط وقوّتُهم عيشتي في تلك الأثناء إلى حد كبير، مع أنّ الأمر لم يكن دائمًا بمثل تلك السهولة بالنسبة إليهم هم. وأنا عميق الامتنان لهم على ذلك.

منحني صديقي ريتشارد پوارييه، وهو خيرةُ نقّاد الأدب الأميركيين تأكيدًا، التشجيعَ منذ وقت مبكر، وقرأ مسوّدات مختلفة من هذا الكتاب، وكذلك فعل ديردري وآلان برغسون. وأنا مَدين لهم حقًا. ويجب منح زينب استرابادي، مساعِدتي الممتازة في جامعة كولمبيا، جائزةً تقديرية لمقدرتها على فكّ ألغاز خطّي وطبعه في شكل مقروء والمساعدة في عدة مسودّات، وذلك كله دائمًا بصبر ومن دون تذمّر. وقد منحني سوني ميهتا صداقته ودعمه، وهو الناشر والرفيق النادر. وأود أن أشكر أندرو وَايلي مرةً أخرى لمتابعته هذا العمل من البداية حتى النهاية.

إنه لأمر تقليديّ، بل روتينيّ، أن يشكر الكاتب محرِّري كتبه. ولكنْ في حالتي أنا، لا تنطوي مشاعرُ المودة والإعجاب والامتنان التي أحملها للصديقتَين فرانسِس كودي، من دار «غرانتا»، وشيللي وانغر، من دار «كنوپف»، على أية مجاملة. فلقد ساعدتني فرانسِس على أن أتبيّن بوضوح ما أحاول القيام به وقدّمتْ مقترحات ثاقبة من أجل نَحْت مخطوطةٍ مثقلة ومضطربة لتتخذ الشكل المناسب. أما شيللي فقد جلستْ معي بصبر وفكاهة دائمين، وقدّمت النصح خلال مراجعتنا معًا لمئات الصفحات من النثر الخام المكتوبة غالبًا بطريقة متكلّفة.

أما الدكتور كانتي راي فقد أعانني، بعظيم خبرته الطبية وإنسانيته الرائعة، على أن أستمر في الكتابة وأن أنجز الكتاب أخيرًا. ومنذ بداية مرضي، تعاونَ هو ومريم، بانسجام، على منعي عمليًا من الانهيار. بامتنان، أهدي هذا الكتاب إلى مريم لدعمها المحِبّ، وإلى كانتي لمهارته الإنسانية وصداقته.

إدوارد وديع سعيد

نيويورك، ايار/مايو ١٩٩٩

تقديم

هذا الكتـاب هو سِجِلّ لعـالم مـفـقـود أو منسيّ. منذ عـدة سنوات، تلقـيّتُ تشخيصًا طبّيًا بدا مُبْرَمًا، فشعرتُ بأهمية أن أخلّف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربيّ، حيث ولدتُ وأمضـيتُ سنواتي التكوينية، كما في الولايات المتحدة حـيث ارتدتُ المدرسـة والكليـة والجـامـعـة. العـديد من الأمكنة والأشـخـاص التي أستذكرها هنا لم تـعد موجودة، على الرغم من أني أندهش باستمرار لاكتشافي إلى أيّ مدى أستبطنها، وغالبًا بأدق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروّعة.

لعـبتْ ذاكرتي دورًا حـاسـمًا في تمكيني من المقـاومة خـلال فـترات المرض والعلاج والقلق الموهِنة. ففي كل يوم تقريبًا، وأيضًا فيما أنا أؤلف نصوصًا أخرى، كانت مواعيدي مع هذه المخطوطة تمدّني بتماسك وانضباط ممتعين ومتطلِّبين معًا. ومع أنّ كتاباتي الأخرى وتدريسي أبعدتني كثيرًا عن العوالم والتجـارب المختلفة التي ينطوي عليها هذا الكتاب، فالأكيد أنّ الذاكرة تشتغل بطريقة أفضل وبحرّية أكبر عندما لا تُفرَض عليها الأساليبُ أوالنشاطات المعَدّة أصلاً لتشغيلها. فلا شك في أنّ كتـاباتي السـيـاسـيـة عن الوضـع الفلسطينيّ، ودراسـاتي عن العـلاقـة بين السياسة والجماليات، وخصوصًا الأوبرا والنثر المتخيّل، وافتتاني بموضوع كتابٍ أكتبه عن الأسلوب المتأخر (بدءًا ببِتهوفن وأدورنو) قد غذّتْ هذه المذكرات بروافد خفية.

عندما انتهيتُ من تأليف هذه المخطوطة، قمتُ برحلة إلى القدس ومنها إلى القاهرة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨. في الأولى، حضرتُ ندوة عن المشهد الطبيعيّ الفلسطينيّ في بيرزيت ثم سافرتُ إلى مصر للمشاركة في أطروحة دكتوراه قدمها طالبٌ من طلابي الموهوبين يدرِّس في جامعة طنطا، خمسين ميلاً إلى الشمال من القاهرة. في فلسطين، اكتشفتُ مجددًا أنّ ما كان شبكةً من البلدات والقرى عاش فيها أبناءُ عائلتي الموسعة ذات يوم – القدس وحيفا وطبريا والناصرة وعكا – أضحت الآن مطارح إسرائيلية تعيش فيها الأقلية الفلسطينية تحت السيادة الإسرائيلية. صحيح أنّ الفلسطينيين يتمتعون بالحكم الذاتيّ، أو الاستقلال الذاتيّ، على أجزاء من الضفة الغربية وغزة، لكنّ الجيش الإسرائيليّ يحتفظ فيها بالسيطرة الأمنية الشاملة، وهي سيطرة تبدو أشد نفورًا على الحدود وعند نقاط التفتيش والمطارات. وكان أحد الاسئلة الروتينية التي وجهها إليّ الموظفون الإسرائيليون (لمّا كان جواز سفري الأميركيّ يشير إلى أني ولدتُ في القدس) هو الموعد المحدّد الذي غادرتُ فيه إسرائيل بعد الولادة. فكنتُ أجيب أني غادرت فلسطين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، مشدِّدًا على كلمة «فلسطين». «هل لديك أنسباء هنا؟» كان السؤال التالي الذي أجبتُ عليه بـ «لا أحد» وقد امتلكني شعورٌ من الحزن والخسران لم أكن أتصوّر أني سوف أختبره. ذلك أنه مع حلول ربيع ١٩٤٨ كانت عائلتي الموسعة كلها قد أُجليَتْ عن المكان وعاشت في المنفى منذ ذلك الحين. على أني في عام ١٩٩٢ تمكنتُ، للمرة الأولى منذ مغادرتنا عام ١٩٤٧، من زيارة المنزل الذي تملكه عائلتي في القدس الغربية والمنزل الذي نشأتْ فيه أمي في الناصرة ومنزل خالي في صفد وغيرِها من المنازل. وإذا هي في زيارتي الثانية، يسكنها جميعَها ساكنون جدد تذرّعوا بأسباب عاطفية كابحة جدًا ومبهمة جدًا لعرقلة دخولي إليها مرةً ثانية، بل لمنعي عمليًا من الدخول، ولو من أجل إلقاء نظرة خاطفة.

خلال زيارتي القاهرة في نوفمبر ١٩٩٨، زرت جاراتنا السابقات، نادية وهيلدا وأمهما، السيدة جندي، اللواتي عشن لسنوات عديدة تحتنا بثلاثة طوابق، في الطابق الثاني من البناية الواقعة في رقم ١ شارع عزيز عثمان. فأبلغنني أنّ شقتنا القديمة، ذات الرقم ٢٠، لا تزال شاغرة ومعروضة للبيع. بعد التفكير لبرهة باقتراحهنّ إعادة شرائها، لم أشعر بأيّ حماس لإعادة امتلاك مكانٍ تركناه منذ نحو

أربعين سنة. قبل تناول الغذاء، أبلغتني نادية وهيلدا أنه يوجد شخص ينتظرني في المطبخ. فهل أرغب في لقائه؟ دلف إلى الغرفة رجلٌ صغير نحيل وصلب العود يرتدي الثوب الداكن واللفّة، وهما اللباس التقليديّ للفلاح الصعيديّ. وعندما قالت له المرأتان إنّ هذا هو إدوارد الذي كنتَ تنتظر رؤيته بفارغ الصبر، تراجع مطأطئًا رأسَه: «لا. كان إدوارد طويلاً ويضع نظارتَين. هذا ليس إدوارد». وبسرعة تعرفتُ إلى أحمد حامد، الفرّاش الذي عمل عندنا خلال ما يقارب ثلاثة عقود، وهو رجل ساخر ومتزمّت في صدقه وإخلاصه وكنا جميعًا نعتبره بمنزلة فرد من أفراد العائلة. حاولتُ إقناعه بأني أنا إدوارد حقًا، ولكنْ بدّلني المرض والعمر بعد غياب ٣٨ سنة. فجأةً وقع كلٌّ منا في حضن الآخر نجهش بدموع الفرح للقاء المتجدد والحزن على زمن لن يستعاد. روى لي أحمد كيف كان يحملني على كتفيه وعن أحاديثنا في المطبخ وكيف كانت العائلة تحتفل بعيد الميلاد ورأس السنة وما إلى ذلك. فصعقتُ كيف أنه لا يتذكر كلُّ واحد منا نحن السبعة -الوالديْن والأبناء الخمسة - فحسب، وإنما يتذكر أيضًا كلَّ واحد من عمومتي وعماتي وأبناء عمومتي وجدّتي بالإضافة إلى البعض من أصدقاء العائلة. وبعد أن انتهى العجوز، المتقاعد في بلدة إدفو البعيدة قرب أسوان، من تفريغ الماضي الذي في داخله، أدركتُ مجددًا مدى هشاشة وقيمة وزوالية التاريخ والظروف التي تمضي إلى غير رجعة ولا تجد مَنْ يستعيدها ويدوّنها، اللهم إلا على شكل ذكريات عرضية أو أحاديث متقطعة.

زاد هذا اللقاء بالمصادفة من اقتناعي بجدوى هذا الكتاب الذي يَكْشف ـ قدرَ ما أستطيع ـ من حياتي، خصوصًا بين العام ١٩٣٥، عام مولدي، والعام ١٩٦٢، الذي كنتُ فيه على أهبة نيل شهادة الدكتوراه. وهو سجلٌّ شَخصيّ غير رسميّ عن تلك السنوات المضطربة التي عاشتها منطقةُ الشرق الأوسط. فوجدتُني أروي قصة حياتي على خلفية الحرب العالمية الثانية وضياع فلسطين وقيام دولة إسرائيل وسقوط المَلَكية في مصر والسنوات الناصرية وحرب عام ١٩٦٧ وانطلاقة حركة المقاومة الفلسطينية والحرب الأهلية اللبنانية واتفاقية أوسلو. كل هذه الأحداث موجودة ضمنًا في مذكراتي، ويمكن تبيُّن حضورها العرضيّ هنا وهناك.

والأكثر إثارة بالنسبة إليّ ككاتب هو إحساسي بأنّي أحاول دائمًا ترجمة التجارب التي عشتها لا في بيئة نائية فحسب وإنما أيضًا في لغة مختلفة. ذلك أنّ كُلاً منا يعيش

حياته في لغة معينة، ومن هنا فإنّ الكل يختبر تجاربه ويستوعبها ويستعيدها في تلك اللغة بالذات. والانفصام الكبير في حياتي هو ذلك الانفصام بين اللغة العربية، لغتي الأم، وبين اللغة الإنكليزية، وهي اللغة التي بها تعلّمتُ وعبّرتُ تاليًا بما أنا باحث ومعلّم. لذا كانت محاولتي سردَ التجارب التي عشتُها في اللغة الأولى بواسطة اللغة الأخرى مهمة معقّدة، ناهيك عن الطرائق المختلفة التي بها تختلط عليّ اللغتان وتعبُران من حقل إلى آخر. وهكذا صَعُبَ عليّ التعبير في الإنكليزية عن الفروقات اللفظية (والوشائج العينية) التي تستخدمها العربية، للتمييز مثلاً بين العم/ـة والخال/ـة، ولكني اضطررتُ إلى محاولة التعبير عن تلك التلاوين لأهمية الدور الذي لعبته في حياتي المبكرة.

إلى جانب اللغة، كانت الجغرافية في مركز ذكرياتي عن تلك السنوات الأولى، خصوصًا جغرافية الارتحال، من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن وانتماء، ناهيك عن السفر ذاته. فكل واحد من الأمكنة التي عشتُ فيها – القدس والقاهرة ولبنان والولايات المتحدة – يَمْلك شبكة كثيفة ومركبة من العناصر الجاذبة، شكلتْ جزءًا عضويًا من عملية نموي واكتسابي هويتي وتكوين وعيي لنفسي وللآخرين. وفي جميع تلك الأمكنة، احتلّت المدارس مكانًا مميزًا في قصتي، وهي صورٌ مصغّرة عن المدن أو البلدات حيث عثر لي أهلي على مدارس وسجلوني فيها. ولما كنتُ أعمل في حقل التربية، فطبيعيّ أن أرى أنّ البيئة المدرسية تستحق الوصف والسرد بنوع خاص. لكني لم أكن متأكدًا من جهوزية ذاكرتي عن المؤسسات الأولى التي درستُ فيها، وعن أهمية الدور الذي لعبه الأصدقاء والمعارف في حياتي قياسًا إلى الأصدقاء والمعارف أيامَ الجامعة أوالمدرسة الداخلية في الولايات المتحدة. ومن الأمور التي حاولتُ استكشافها ضمنًا السطوةُ التي مارستْها تلك التجاربُ المدرسيةُ المبكرة جدًا عليّ، وسبب استمرار تلك السطوة، ولماذا لا أزال أنبهر وأهتمّ بها إلى درجة الكتابة عنها للقراء بعد مضيّ خمسين سنة.

غير أنّ الدافع الرئيسيّ لكتابة هذه المذكّرات هو طبعًا حاجتي إلى أن أجسّر المسافة، في الزمان والمكان، بين حياتي اليوم وحياتي بالأمس. أرغب فقط في تسجيل ذلك بما هو واقع بدهيّ دون أن أعالجه أو أناقشه، علاوة على أنّ انكبابي على مهمة إعادة تركيب زمن قديم وتجربة قديمة قد استدعى شيئًا من البُعاد ومن السخرية في الموقف والنبرة.

لا يزال العديد من الأشخاص الوارد وصفهم هنا على قيد الحياة، ولعلهم سوف يخالفونني تشخيصي لهم وللآخرين بل قد يستاؤون منه. أؤكد أني لا أحمل أية رغبة في الإساءة إلى مشاعر أحد، ولكني بالمقدار ذاته أرى أنّ واجبي الأول ليس أن أكون لطيفًا وإنما أن أكون وفيًا لذكرياتي وتجاربي وأحاسيسي، ولعلها غريبة بعض الشيء. فأنا وحدي مسؤول عما أستذكر وأتصوّر، لا أفرادٌ من الماضي قد يَجْهلون الأثر الذي مارسوه عليّ. وأرجو أن يكون واضحًا أيضًا أني، بصفتي راوي هذه السيرة وواحدًا من شخصياتها، لم أُعفِ نفسي قصدًا من السخرية ولا من الروايات المحْرِجة.

الفصل الأول

تَخترع جميعُ العائلات آباءها وأبناءها وتَمنح كلٌّ واحدٍ منهم قصةً وشخصيةً ومصيرًا، بل إنها تمنحه لغته الخاصة.

وقع خطأٌ في الطريقة التي تمّ بها اختراعي وتركيبي في عالم والديّ وشقيقاتي الأربع. فخلال القسط الأوفر من حياتي المبكرة، لم أستطع أن أتبيّن ما إذا كان ذلك ناجمًا عن خطإي المستمر في تمثيل دوري أو عن عطب كبير في كياني ذاته. وقد تصرّفتُ أحيانًا تجاه الأمر بمعاندة وفخر. وأحيانًا أخرى وجدتُ نفسي كائنًا يكاد أن يكون عديم الشخصية وخجولاً ومترددًا وفاقدًا للإرادة. غير أنّ الغالب كان شعوري الدائم أنّي في غير مكاني.

هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على «ادوارد» وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسمُ الإنكليزيُّ الأخرق الذي وُضع كالنير على عاتق «سعيد»، اسمِ العائلة العربيّ القحّ. صحيح أنّ أمي أبلغتني أنّي سُمّيتُ ادوارد على اسم أمير بلادَ الغال (وارثِ العرش البريطانيّ) الذي كان نجمُه لامعًا عام ١٩٣٥، وهو عام مولدي، وأنّ سعيد هو اسم عدد من العمومة وأبناء العم. غير أنّ تبرير تسميتي تَهافَتَ كليًا عندما اكتشفتُ أنْ لا أجداد لي يحملون اسم سعيد. وخلال سنوات من محاولاتي المزاوجةَ بين اسمي الإنكليزيّ المفخّم وشريكه العربيّ، كنتُ أتجاوز «إدوارد» وأؤكّد على «سعيد»، تبعًا للظروف، وأحيانًا أفعل العكس، أو كنتُ أعمد إلى لفظ الاسمين معًا بسرعة فائقة بحيث يختلط الأمرُ على السامع. والأمر

الوحيد الذي لم أكن أطيقه، مع اضطراري إلى تحمله، هو ردود الفعل المتشككة والمدمِّرة التي كنت أتلقّاها: ادوارد؟ سعيد؟

اندغم عندي تحمّلُ مشقّات مثل هذا الاسم مع ورطةٍ لم تكن أقل إقلاقًا، تتعلّق باللغة. فأنا لم أعرف أبدًا أية لغةٍ لهجتُ بها أولاً: أهي العربية أم الإنكليزية، ولا أيًا منهما هي يقينًا لغتي الأولى. ما أعرفه هو أنّ اللغتين كانتا موجودتين دومًا في حياتي، الواحدة منهما ترجِّع صدى الأخرى، وتستطيع كلٌّ منهما ادعاءَ الأولوية المطلقة، من دون أن تكون هي فعلاً اللغة الأولى. وأنا أعزو مصدر هذا الاضطراب الأوّليّ إلى أمي التي أذْكر أنها كانت تحدّثني بالإنكليزية والعربية معًا على رغم أنها كانت تراسلني بالإنكليزية على مدى حياتها، وبمعدّل مرّةٍ في الأسبوع، وكنتُ بدوري أعاملها بالمثل، إلى أن طواها الموت. كانت بعض عباراتها المحكية عربية، مثل «تِسْلَمْ لي» و«مش عارفة شو بدّي أعمل» و«رُوحها [اللماما]» والعشرات غيرها، ولم أضطرّ مرّة إلى ترجمتها أو حتى إلى أن أفقه معناها تمامًا، كما في حال «تِسْلَمْ لي». وكانت تلك العبارات جزءًا من مناخ الأمومة الغامر الذي أحنّ إليه في الأوقات العصيبة، وتضفي عليه رقّةُ عبارة «يا ماما» مناخًا يغري كالحلم وإذا به يُنتزع فجأةً منك انتزاعًا بعد أن يكون قد وعدكَ بأشياء لم يفِ بها أبدًا.

على أنّ أمي كانت توشّح لغتها العربية بالكلمات الإنكليزية، مثل naughty boy («يا شيطان») وتوشِّحه طبعًا باسمي ذاته الذي تلفظه Edwaad («إدوآاد»). ولا تزال تراودني ذاكرةُ جَرْسِ صوتها، في المكان والزمان عينهما، وهو يناديني «إدوآاد» منزلقًا على نسيم الغسق عند موعد إقفال «حديقة الأسماك» (الحديقة الصغيرة في الزمالك المزوّدة بحوض للأسماك)، وشخصي يتردّد بين أن أجيبها وبين أن أبقى مختبئًا برهةً قليلةً أطولَ مستمتعًا بلذةِ أنني المنادى وأنني المطلوب، بينما الجزءُ غيرُ الإدواردي من شخصي يَنْعم بترف التمهّل في الإجابة، إلى إن يضيق كياني بصمته. كانت لغتها الإنكليزية محمّلةً ببلاغة تعبير وقاعدةِ سلوكٍ لم تغادرني أبدًا. وما إن تنتقل أمي من العربية إلى الإنكليزية حتى تصير نبرتُها أكثر موضوعيةً وجديةً، فتكاد تَطرد نهائيًا الحميميةَ المتسامحة والموسقة للغتها الأولى، العربية.

في الخامسة أو السادسة من عمري، أدركتُ أني «شيطان» ميؤوس من إصلاحه، تنطبق عليّ في المدرسة كلُّ الأوصاف التي تُطْلَق على أفعال غير حميدة مثل «fibber» (كذّاب) و«loiterer» (متسكّع). وما إنْ أدركتُ تمامًا أني أجيد الإنكليزية بطلاقة، من دون أن يعني ذلك أني كنتُ أتكلّمها دومًا على نحو سليم، حتى صرتُ أشير إلى نفسي بصفتي «هو» بدلاً من «أنا». كانت تقول لي: «ماما لا تحبك، يا شيطان» فأردّ مؤكّدًا في مزيج من الإلحاح الشاكي والتحدي: «ماما لا تحبك، لكن آنطي ميليا تحبك». وآنطي ميليا هي خالتها العانس التي شغفتْ بي وأنا بعدُ طفلٌ يحبو. «لا، إنها لا تحبك»، تصرّ أمي. فكنتُ أختم بالقول: «لا بأس، صالح (سائق آنطي ميليا السوداني) يحبُّك»، مبدّدًا شيئًا من الوجوم المخيّم.

لم أكن أعرف من أين جاءت أمي بلغتها الإنكليزية، أو أيَّ شيء عن هويتها القومية. وقد استمرتْ تلك الحال الغريبة من الجهل إلى فترة متأخرة نسبيًا من حياتي، عندما بلغتُ المدرسة الثانوية. في القاهرة، وهي أحد الأمكنة التي نشأتُ فيها، كانت عربيّتها المحكية تبدو مصرية طليقة. على أنها، لأذنيّ الأكثرَ رهافةً وللعديد من معارفها من المصريين، بدت لهجة شاميّة صرفة أو على الأقل شديدة التأثر بهذه اللهجة. وحقيقة الأمر أنّ أمي كانت متمكّنة على نحو ممتاز من العربية الفصحى، كما من المحكية، وكانت في ذلك أفضل بكثيرٍ من أبي الذي تبدو مؤهّلاته اللغوية بدائيةً إذا ما قورنت بمؤهلاتها. على أنها لم تكن تملك من المحكية ما يكفي لكي تُقْنع بأنها مصرية. وهي لم تكن مصرية أصلاً. فقد وُلدتْ في الناصرة ثم أُرسِلتْ إلى مدرسة داخلية ومنها إلى «الجونيور كوليج» في بيروت، أي أنها فلسطينية مع أنَّ أمها منيرة لبنانية. لم أعرف أباها قطّ، ولكني اكتشفتُ أنه كان القسيس المعمدانيّ في الناصرة، بعد أن أقام فترةً في تكساس، وهو أصلاً من صفد.

ولم يقتصر الأمر على عجزي عن استيعاب كل مراوحات ومقاطعات تلك التفاصيل، ناهيك عن التحكم بها، التي تبتر سياقًا سلاليًا بسيطًا، واستعصى عليّ أيضًا إدراكُ لماذا لم تكن أمي أمًّا إنكليزية بكل بساطة. ولقد امتلكني هذا الشعورُ المقلق بتعدّد الهويات - ومعظمُها متضارب - طوال حياتي، ورافقته ذاكرةٌ حادة أني كنت أتمنى بشكلٍ محموم لو أننا جميعًا عرب كاملون أو أوروبيون أو أميركيون

كاملون أو مسيحيون أرثوذكسيون كاملون أو مسلمون كاملون أو مصريون كاملون وما إلى ذلك. واكتشفتُ أني أمام خيارين أُجابهُ بهما اسئلةً أو ملاحظات شكّلتْ بالفعل سياقَ تحدٍّ واعترافٍ وهتكٍ، من نوع «ما أنت؟»؛ «لكن سعيد اسم عربي...»؛ «هل أنت أميركي؟»؛ «تقول إنك أميركي مع أنّ اسمك ليس أميركيًا وأنت لم تزر أميركا قط»؛ «لا يبدو شكلك أميركيًا!»؛ «كيف يُعقل أن تكون ولدتَ في القدس وأنت تعيش هنا؟»؛ «أنت عربيّ، في نهاية المطاف، ولكنْ مِنْ أيّ نوع؟ هل أنت بروتسطانتي؟»

لا أذكر أنّ أيًا من الأجوبة التي جاهرتُ بها ردًا على تلك الاستجوابات كانت مقنعة أو حتى جديرةً بأن تَعْلق في الذاكرة. وكان عليّ أن ابتكر خياراتي بمفردي: فأحدها قد يصلح في المدرسة مثلاً، ولا يَصلُح في الكنيسة أو في الشارع مع الأصدقاء. الخيار الأول كان أن أتبنّى نبرة أبي التوكيدية الوقحة فأقول لنفسي «أنا مواطن أميركي»، وهذا كل ما في الأمر. وقد اكتسب أبي المواطنية الأميركية لأنه عاش في الولايات المتحدة الأميركية وخدم في الجيش خلال الحرب العالمية الأولى. ولكنْ لمّا كان مثل ذلك الخيار سيجعل مني كائنًا خرافيًا، فقد ألفيتُه الخيارَ الأقلّ إقناعًا. فالإعلان عن نفسي بـ«أنّي مواطن أميركيّ» في مدرسة إنكليزية في القاهرة زمنَ الحرب، [وهي عاصمةٌ] يسيطر عليها الجنود البريطانيون ويعيش فيها مصريون بَدَوا لي شديدي التجانس، كان مغامرةً خرقاء لم أجازف بها علنًا إلا جوابًا على التحدي الرسميّ بأن أعرّف بمواطنيتي. أمّا في الجلسات الخاصة فلم أستطع التمسك بذلك الجواب طويلاً، لسرعة تهافُتِ التوكيد أمام التمحيص الوجوديّ.

على أنّ خياري الثاني كان أقل توفيقًا من الأول. ويتلخص في أن أنكبّ على فوضى تاريخي الحقيقيّ وأصولي، منتقيًا عناصرها نتفةً نتفةً لأحاول من ثم إعادة تركيبها بشيء من الانتظام. غير أني كنت بعيدًا جدًا عن امتلاك ما يكفي من المعلومات، ولم أعثر على ما يكفي من الوشائج الفعالة لوصل الأجزاء التي أعرفها أو التي توصّلتُ إلى نبشها. لم تكن الصورة الكاملة واضحة تمامًا. وبدا لي أنّ الإشكال يبدأ مع ماضي والديّ واسميْهما. فوالدي وديع ما لبث أن تكنّى بوليام (وهي مفارقة مبكرة افترضتُ لمدة طويلة أنها مجرد ترجمة إنكليزية لاسمه العربيّ،

ولكني سرعان ما توجسّتُ من أنها أشبه بانتحال شخصيّة، إذ أسقطَ اسم وديع، واقتصر استخدامه على زوجته وشقيقته، لأسباب ليست مشرِّفة تماماً).

وُلد أبي في القدس عام ١٨٩٥ – وترجّح أمي أنّ ذلك كان في العام ١٨٩٣– ولم يَبُحْ لي بأكثر من دزينة من الأشياء عن ماضيه، هي سلسلة من العبارات المدروسة التي لا تكاد تعني شيئًا. وكان قد جاوز الأربعين عند ولادتي.

كان يكره القدس. وعلى الرغم من أني ولدتُ فيها وأمضينا فيها فترات طويلة من الوقت، فقد كان كل ما يقوله عنها أنها تذكّره بالموت. عمل والده لفترة ترجمانًا، ولأنه كان يجيد اللغة الألمانية فقد رافق القيصر وليام خلال زيارته لفلسطين، أو هكذا قيل. وكان جدّي من آل ابراهيم. ولم يكن أحد يَذْكره بالاسم باستثناء أمي، التي لم تعرفه أصلاً لكنها كانت تسمّيه «ابو أسعد»، ومن هنا عُرِف أبي في المدرسة باسم وديع ابراهيم. لم أكتشف إلى الآن من أين جاء اسم «سعيد» ولم يستطع أحد أن يحلّ لي هذا اللغز. أما التفصيل الوحيد الذي ارتأى أبي إعلامي به عن أبيه فهو أنّ جَلْدات سَوط أبي أسعد له كانت أقسى من جَلداته هو لي. وقد سألْتُه: «وكيف كنتَ تتحملها؟»، فأجاب بضحكةٍ مكبوتة: «كنتُ أهرب معظم الأوقات». وهذا ما لم أحاوله مرةً، بل إنّ الفكرة لم تخطر لي على بال.

تُخَيِّمُ الظلالُ نفسُها على أصل جدتي لأبي. اسمها حنّة، وهي من عائلة الشمّاس. ويروي أبي أنها أَقْنعتْه – وقد غادر فلسطين العام ١٩١١ – بالعودة من الولايات المتحدة عام ١٩٢٠ لأنها تريده أن يبقى إلى جانبها. وكان أبي يعلن باستمرار أسفه للعودة إلى الوطن، على أنه يستطرد قائلاً، بدرجة مماثلة من التوكيد، إنّ سرّ نجاحه المدهش في الأعمال يعود إلى أنه «كان يعتني» بوالدته. وهي في المقابل كانت تصلّي باستمرار لكي تنفرش الطرقاتُ ذهبًا تحت قدميْه. لم أشاهد ملامحها في أيّ صورة فوتوغرافية، غير أنّها – في النظام التربويّ الذي طبّقه أبي عليّ – كانت تمثِّل أمثولتيْن متناقضتيْن لم أنجح مرّةً في المصالحة بينهما. فهو يقول لي إنه يتوجّب علينا أن نحبّ أمهاتنا ونعتني بهنّ دون قيدٍ أو شرطٍ، ولكنْ لما كان حبُّهنّ لنا أنانيًا فذلك قد يَحْرف الأبناء عن خياراتهم المهنية (كان والدي يؤْثر البقاء في الولايات المتحدة وممارسةَ المحاماة)؛ وعليه لا ينبغي السماحُ للأمهات بأن يتدخلن أكثر مما يجب في حياة الأبناء. وكان ذلك كلّ ما أعرفه عن جدتي لأبي.

افترضتُ وجود تاريخ عريق لعائلتي في القدس. وبنيتُ افتراضي على الطريقة التي كانت عمتي نبيهة وأولادُها يحتلون فيها المكان، كأنهم، وبخاصّة هي، يجسّدون روحَ المدينة المميّز، كي لا أقول المتقشف والمضغوط. بعد ذلك، سمعتُ أبي يتحدث عنا بصفتنا من «الخليفاوية»، وقيل لي إنّ هذا هو أصلُ حمولتنا. على أنّ الخليفاوية أصلهم من الناصرة. وقد تلقيتُ في منتصف الثمانينيّات تاريخًا منشورًا للناصرة عثرتُ فيه على شجرة عائلة لأحد الخليفاويين لعله جدّي الأكبر. ولما كان ذلك النبأ الفجائيّ المدهش - الذي منحني مجموعةً جديدةً من أبناء العمومة - لا يقابِل تجربةً معيشةً ولا ما يوحي بها ولو إيحاءً، فإنّي لم أُعِرْه كبيرَ اهتمام.

عن أبي أَعْلم أنه دَرَسَ في مدرسة سان جورج في القدس وبَرَعَ في كرة القدم والكريكت، فكان لاعبًا في فريق الدرجة الأولى في الرياضتيْن خلال سنوات، بوصفه لاعبَ وسط متقدّمًا وحارسَ مرمى على التوالي. لم يَذْكر مرةً ما الذي تعلّمه في سان جورج، كما لم يفصح الكثير عن المكان ذاته. كل ما أفصح عنه أنّ صيته ذاع لأنه كان يستولي على الكرة من طرف الملعب ويظلّ يلاعبها إلى أن يبلغ الطرفَ الآخر ويسجّلَ الهدفَ. ويبدو أنّ والده حثّه على مغادرة فلسطين للهرب من التجنيد الإجباري في الجيش العثمانيّ. ثم قرأتُ في مكانٍ ما نبأ اندلاع حرب في بلغاريا حوالى العام ١٩١١، وقد استدعت تلك الحرب إرسالَ قواتٍ عثمانيةٍ إليها، فتخيّلتُ أبي وقد نَجَحَ في أن يُفلت من مصيرٍ مخيف يصبح فيه حشوةَ مدفعٍ فلسطينيةً مُكرِبةً للجيش العثمانيّ في بلغاريا.

غير أنّ أيًا مما تقدّم لم يعطَ لي وفق سياقه الزمنيّ. فكأنما أبي آثر التعتيم على سنواته قبل الأميركية معتبرًا إياها نافلةً، قياسًا إلى هويته الحالية بوصفه أبي وزوجَ هيلدا ومواطنًا أميركيًا. ومن بين القصص المفخّمة والمعلّبة التي رُويَتْ لي المرةَ تلوَ الأخرى خلال نشأتي قصةُ مجيئه إلى الولايات المتحدة. كانت هذه أشبه برواية رسمية، على طريقة قصص هوراشيو آلجر، الغرضُ منها إعلامُ المستمعين وتربيتُهم، والمستمعون هم في الغالب أولادُه وزوجتُه. لكنها - أي الرواية الرسمية - كانت تَجْمع وتكرّس ما كان والدي يَرْغب في أن يُعرَف عنه قبل زواجه من أمّي، وما هو مسموحُ الجهرُ به لاحقًا للملإ. ولا أزال معجبًا بكيفية تمسّكه بالقصة ذات الحقبات المختصرة والتفاصيل الشحيحة خلال السنوات الست والثلاثين التي كان فيها أبًا

لي، إلى حين وفاته عام ١٩٧١، ومدى نجاحه في استبعاد كافة الجوانب الأخرى المنسية أو الممنوع تداولها من القصة. وبعد عشرين سنة على وفاته، أدركتُ أننا كنا في السنّ ذاتها تَقريبًا عند قدومنا إلى الولايات المتحدة، مع فارق أربعين سنةً بالضبط بين الواحد والآخر. ولكنّه جاء ليشقّ طريقه في الحياة، وجئتُ أنا لألعب الدورَ الذي رَسَمَه لي، إلى أنْ تحررتُ من الدور المرسوم وبدأتُ أحاول أن أعيش الدور الذي رسمتُه لنفسي.

غادر أبي وصديقٌ له يدعى بالوُرا (لم نعطَ اسمُه الأول) مرفأ حيفا إلى بور سعيد عام ١٩١١، حيث استقلا باخرةَ شحنٍ إنكليزيةً إلى ليڤربول. وقد أمضيا على ظهرها ستة أشهر قبل أن يجدا عملاً كخادمين على باخرة ركاب متجهة إلى نيويورك. كانت أول مهمة كُلِّفا بها هي تنظيفُ القمرات. ولما لم يكونا يعرفان ما هي القمرة، على رغم ادعائهما «باعًا طويلةً في حياة البحر» ليحصلا على الوظيفة، فقد قاما بتنظيف كل شيء على الباخرة إلا القَمَرات. «توتَّر» الوكيل (والتوتُّرُ هي الكلمة التي يستخدمها أبي باستمرارٍ للدلالة على الغضب أو الانزعاج بشكلٍ عام) وطَرَحَ سطلَ الماء أرضًا وكلّفهما مسحَ أرضية الباخرة. ثم عيّن وديع نادلاً في المطعم، والأمرُ الوحيدُ الذي يَذْكره بهذا الخصوص أنه كان يقدِّم الوجبةَ الأولى ثم يهرع خارجًا ليتقيأ، فيما الباخرةُ تتقاذفها الأنواء، ثم يعود متعثِّرَ الخطى ليقدِّم الوجبة التالية، وهكذا دواليك. وقد وصل وديع وبالورا الغامض إلى نيويورك من دون أوراق شرعية، فكان عليهما الانتظار على الباخرة، فتذرّعا لمغادرتها بالرغبة في ارتياد إحدى الحانات القريبة واستقلا حافلة عامة «ذاهبةً إلى حيث لا ندري» وبقيا فيها إلى آخر الخط.

القصة الأخرى التي كان أبي يكررها باستمرار تتعلق بسباق سباحة نظّمته «جمعيةُ الشبان المسيحيين» في بحيرة في ظاهر ولاية نيويورك. وقد زَوّدتْه تلك التجربةُ بحكمة مثيرة: إذْ كان آخرَ مَنْ وصل من المتسابقين، إلا أنّه أصرّ على الاستمرار إلى نهاية الشوط (وشعارُه هنا «لا تستسلمْ أبدًا»)، بل استمرّ في السباحة إلى حين بداية السباق التالي. لم أضع مرةً الأمثولةَ المعلّبة – «لا تستسلم أبدًا» – موضعَ تساؤل، وإنما رضختُ لها كما ينبغي. ولكنْ عندما بلغتُ مطلع الثلاثينيّات لاح لي فجأةً أنّ وديعًا كان من البطء والعناد بحيث أخّر سائر

النشاطات، وهذا أمر لا يستحق الثناء. فقلتُ لأبي، بعجرفةِ مواطنٍ تحرّر حديثًا لكنه لا يزال ضعيفَ القدرات: «إنّ شعار "لا تستسلم أبدًا" قد يعني أيضًا أنك "آفة اجتماعية" تعرقل نشاطَ الآخرين وتؤخّر البرنامج وربما تبيح للمشاهدين النافدي الصبر فرصةَ التهويش على السبّاح المؤذي في بطئه والمستهتر في عناده»، فحدجني بنظرة مفاجئة لا تخفي انزعاجه كأنني حشرتُه في الزاوية أخيرًا، وإنْ بطريقة وضيعة، ثم أشاح بنظره من دون أن ينبس ببنتِ شفة. وكانت تلك آخر مرة رُوِيتْ فيها تلك القصة.

عمل أبي بائعًا عند «آركو»، وهي شركةُ دهاناتٍ في كليڤلاند، ودرس في جامعة «وسترن ريزورڤ». ولما سمع ذاتَ مرةٍ أنّ الكَنَديّين عازمون على إرسال فوجٍ «لمقاتلة الأتراك في فلسطين»، عَبَر الحدود وتطوّع في الجيش الكَنَديّ. لكنه سرعان ما اكتشف أنْ ليس ثمة نيةٌ لإنشاء الفوج العتيد، ففرّ من الجيش الكنديّ بكل بساطة. ثم انضم إلى «قوة التدخل الأميركية» وأُرسِل ليعاني الأمرَّيْن في كامپ غوردون في جورجيا حيث كانت ردة فعله على وابل اللقاحات الذي انهمر عليه أنه أمضى القسم الأكبر من تدريبه مريضًا طريحَ الفراش. ثم ينتقل المشهدُ إلى فرنسا حيث قاتل فترةً في الخنادق. وكانت أمّي تحتفظ بصورتين له مرتديًا البزةَ العسكريةَ لذلك الزمن، ويتدلى من عنقه «صليبُ اللورين» برهانًا على خدمته العسكرية في فرنسا. وروى أنه تعرّض لهجوم بالغازات السامة فأصيب، فوُضِعَ في الحَجْر الصحّي، ثم نُقِل إلى مستشفى في مانتوني (كان دومًا يستخدم اللفظة الإيطالية لاسم البلدة الفرنسية). وذات مرةٍ سألتُه كيف كانت تجربةُ الحرب، فروى لي قصةً عن إقدامه على قتل جنديّ ألماني من مسافة قريبة وكان «رافعًا يديه، وأَطْلق صرخة عظيمة قبل أن أُطلق عليه النار». وقد ظلت الكوابيس عن تلك الحادثة تراوده وتقضّ مضجعه خلال سنوات عدة. وبعد وفاته، عندما اضطُررنا لسببٍ ما إلى سحب أوراق تسريحه من الجيش (وقد ظلّت مفقودةً طوال خمسين سنة)، ذُهلتُ لاكتشافي أنه، كعضو في فريق التموين، لم تسجَّل له أيةُ مشاركةٍ في حملةٍ عسكريةٍ معروفة. ولعل في الأمر خطأً ما لأني ما أزال أصدّق رواية أبي.

عاد إلى كليڤلاند بعد الحرب وأنشأ فيها مصنعًا للدهانات خاصًا به. وكان أخوه الأكبر، أسعد («آل») يعمل آنذاك بحّارًا على «البُحيرات الكبرى». وحتى في

ذلك الوقت المبكّر، كان الأخ الأصغر – وقد غيّر اسمَه في الجيش إلى «بيل» – يزوّد أخاه الأكبر بالمال ويرسل نصف أَجْره إلى والديه. وذات مرة هدّده أسعد بسكين لأنه كان بحاجة إلى مال أخيه الأصغر الميسور ليتزوج من امرأة يهودية. وقد خمّن أبي أنه هجرها من دون أن يطلّقها عندما عاد فجأةً إلى فلسطين في العشرينيّات.

والغريب في الأمر أنه لم يبقَ من السنوات العشر التي أمضاها أبي في أميركا غيرُ رواياته المكرورة العجفاء عنها، ونتفٍ غريبة عن ولعه بالـ«آپل پاي آلا مُود»، وعباراتٍ كان يحلو له تردادُها مثل «هانكي-دوري» و«بيغ بوي». ومع الوقت، تبيّن لي أنّ إقامته في الولايات المتحدة كانت، قياسًا إلى حياته اللاحقة، بمثابة عملية تحقيقٍ هادفٍ للذات، مالبث أن استغلّها في كل ما أنجزه وفي ما كان يَدْفع الآخرين من حوله إلى إنجازه، ولاسيّما أنا. وكان يعلن دومًا أنّ أميركا هي وطنه، وعندما يحتدم الخلافُ بيننا بصدد حرب فيتنام، يلجأ إلى الشعار المُريح «وطني، أمحقًّا كان أم مخطئًا». على أني لم ألتقِ أحدًا من أصدقائه أو معارفه من تلك الفترة ولا سمعتُ بأحدٍ منهم. كلُّ ما عثرتُ عليه صورةٌ صغيرةٌ لوديع في مخيم لـ«جمعية الشبّان المسيحيين»، ونبذاتٌ مقتضبة لا تنبئ بالكثير مدوّنةٌ سنةَ الحرب ١٩١٧-١٩١٨ في دفتر يومياته حين كان مجنّدًا. وهذا كل ما في الأمر. بعد وفاته، تساءلتُ ما إذا كانت له، مثل أخيه أسعد، هو أيضًا، زوجةٌ أو ربما عائلةٌ بأكملها خلّفها وراءه في أميركا. ومهما يكن، فقد كان لقصته دورٌ تعليميٌّ في تكويني كيافع في ظل قيادته، وهي قصة بلغتْ درجةً من التماسك بحيث لا أَذْكر أني وَجّهتُ إليه مرةً أيَّ شيء يشبه السؤال النقديّ.

بعد أميركا، تكتسب القصة وتيرةً متسارعة وتبتعد كليًا عن التشبّه بروايات هوراشيو آلجر الرومانسية. فكأنّ وليام أ. سعيد (وديع إبراهيم سابقًا)، حين عاد إلى فلسطين عام ١٩٢٠ متسلّحًا بالجنسية الأميركية، تحوّل فجأةً إلى رجل أعمالٍ رائد وعاقل وعظيم النشاط وبروتستانتيّ من سكان القدس ثم القاهرة. ذلك هو الرجل الذي عرفتُه. لم أَسْبر أغوار طبيعة علاقته المبكرة بابن عمه البكر بولس سعيد – الذي كان أيضًا زوج شقيقته نبيهة – مع أنه تأكد لي أنّ بولس هو مؤسس «شركة فلسطين للتعليم» التي مالبث أن انضم إليها وديع ووَظّف فيها بعضَ المال عند عودته إلى البلاد. فصار الرجلان شريكين متساويين، مع أنّ وديعًا هو الذي

تولى تفريع الشركة عام ١٩٢٩ من القدس إلى مصر، حيث تمكّن، في أقل من ثلاث سنوات، من تأسيس «شركة الراية للقرطاسيات»، وهي شركةٌ تملك محلّيْن لبيع التجزئة في القاهرة وواحدًا في الإسكندرية ووكالاتٍ عدة ووكالاتٍ فرعية في منطقة قناة السويس.

وكان في القاهرة جاليةٌ شاميةٌ متكاثرة، ولكنْ يبدو أنه ابتعد عنها مؤْثرًا العملَ لساعات طويلة ولعبَ كرةِ المضرب مع صديقه وليام أبو فاضل. وقد أبلغني أنهما كانا يلعبان في الثانية بعد الظهر، عندما تكون حرارةُ الشمسِ في ذروتها، فخلصتُ إلى أنّ الانضباط الحديديّ الاقتصاصيّ في قساوته كان دأبَه في كلِّ ما فعله، بما في ذلك الرياضة.

نادرًا ما كان أبي يشير إلى السنوات التي سبقتْ زواجَه عام ١٩٣٢، ولكنْ يبدو أنّ تجارب الجسد - حياة القاهرة الليلية المبهرجة ومواخيرها واستعراضاتها الجنسية وفُرَص البذخ العام التي كانت توفرها للأثرياء من الأجانب - لم تُثِرْ أيَّ اهتمامٍ لديه. كانت عزوبيته عفيفة وخلوًا من أيّ أثرٍ للفسق. وروت لي أمّي - التي لم تكن تعرفه آنذاك طبعًا - أنه كان يأوي إلى شقته المتواضعة في باب اللوق ويتناول وجبة طعام بمفرده ثم يقضي ليله في الاستماع إلى الأسطوانات الكلاسيكية ومطالعة الأعمال الخالدة التي تنشرها دارا «هوم لايبراري» و«إفريمانز لايبراري»، بما فيها العديد من روايات ويڤرلي، إضافة إلى «أخلاقيات» جي. إي. مور وأرسطو (على أنه، زمنَ مراهقتي وما تلاها، اقتصرتْ قراءاته على مؤلّفات في الحرب والسياسة والديبلوماسية).

عام ١٩٣٢، بلغ أبي مستوى من اليُسر مكّنه من أن يتزوج وأن يصطحب زوجته الأصغر منه بكثير - كانت في الثامنة عشرة وهو في السابعة والثلاثين - لقضاء «شهر عسل» استغرق ثلاثة أشهر في أوروبا. تمّ الزواجُ بتدبير من عمتي نبيهة من خلال علاقاتها في الناصرة، وأسهمتْ في التدبير، ولو بدرجةٍ أدنى، خالةُ أمّي في القاهرة، ميليا بدر، العانسُ المذهلةُ التي لعبتْ، وسائقَها الودودَ «صالح»، دورًا هامًا في مشهد طفولتي. وكانت أمّي هي التي زوّدتني بهذه التفاصيل كافةً، وقد استمعتْ إليها كنوعٍ من التمهيد لدخولها القفصَ الذهبيَّ مع رجلٍ يكبرها سنًا لم تشاهده من قبل ويعيش في مكانٍ لا تعرف عمليًا عنه شيئًا. والحال أنّ ذلك

الرجل تحوّل زوجًا نموذجيًا وأبًا أسهمتْ أفكاره وقيمُه، ناهيك عن أساليبه، في تكوين شخصيتي.

مهما تكن الوقائع التاريخية الفعلية، يبقى أنّ أبي كان مزيجًا طاغيًا من القوة والسلطان ومن الانضباط العقلانيّ والعواطف المكتومة. وقد أدركتُ لاحقًا أنّ هذه جميعًا قد طبعتْ حياتي ببعض الآثار الإيجابية، ولكنها لم تعفني من الكوابح والمعوِّقات. ومع تقدمي في العمر، توصلتُ إلى تحقيق التوازن بينها، على أني عشتُ محكومًا بها من الطفولة حتى سن العشرين. فقد بنى لنا أبي، بمساعدة أمّي، عالمًا كان أشبه بشرنقة جبارة أُدخِلتُ إليها وحُبِسْتُ فيها بكلفة باهظة، أو هكذا أرى الآن إلى تلك التجربة إذ أستعيدُها بعد نصف قرن. وما يثير دهشتي الآن، إضافة إلى صمودي، هو نجاحي، بطريقةٍ ما، خلال أداء عقوبتي داخل ذلك النظام، في أنْ أَرْبط بين مصادر القوة الكامنة في تعاليم أبي الأساسية وبين قدراتي الشخصية التي عجز هو عن التأثير فيها وربما عجز أيضًا عن إدراكها. ولسوء الحظ، فقد أورثني أيضًا إصرارَه الذي لا يكلّ على أداء العمل المفيد وإنجازِ ما يجب إنجازُه «دون أن يستسلم أبدًا» وذلك على نحو دائم تقريبًا. فأنا لا أعرف معنًى للترفيه أو الاسترخاء، وأفتقر على التخصيص إلى أيِّ شعور بالإنجاز التراكميّ. فكل يومٍ عندي أشبهُ ببداية فصل جديد في المدرسة يأتي بعد صيفٍ طويلٍ مملٍّ وينتظره غدٌ مجهول. ومع الوقت، صار «ادوارد» وكيلَ أعمال متطلبًا، يسجِّل لوائحَ من النواقص والإخفاقات، بمثل الزخم الذي يسجِّل فيه الواجبات المتراكمة والالتزامات، فتتوازن اللائحتان وتلغي إحداهما الأخرى. ولا يزال «إدوارد» يبدأ يومه كأنه اليوم الأول من عمره، ولا يجد أية غضاضةٍ في أن يَشْعر في نهايته أنّ النَّزْر القليل مما حققه خلاله كان يستحق العناء.

المؤكد أنّ أمّي كانت الرفيق الأقرب إليّ والأكثرَ حميميةً خلال ربع قرن من حياتي. وإني أشعر أني مطبوعٌ بالعديد من وجهات نظرها وعاداتها التي لا تزال تسيِّر حياتي: من قلقٍ يشلّ إرادتها إزاء تعدد احتمالات التصرّف، إلى أرقٍ مزمنٍ، معظمُه فرضتْه على نفسها فرضًا، وعدمِ استقرارٍ عميقِ الجذور يضارعه مخزونٌ لا ينضب من الحيوية الذهنية والجسدية، واهتمامٍ عميقٍ بالموسيقى واللغة وبجماليات المظهر والأسلوب والشكل، وربما أيضًا من ميلٍ متضخِّم إلى الحياة الاجتماعية

بتياراتها وملذّاتها وما تَحْمله من طاقة على السعادة والحزن، ونزوعٍ لا يرتوي - ومتعددِ الأساليب إلى حدٍّ لا يصدّق - إلى تنمية الوحدة بما هي شكلٌ من أشكال الحرية والعذاب في آن معًا. ولو أنّ أمّي كانت مجرد ملجإ، أو مأوى آمنٍ، أفيء إليه بين حين وآخر هربًا من مرور الأيّام، لما استطعتُ التكهنَ بالنتائج. إلا أنها كانت تحمل أعمقَ الالتباسات التي عرفتُها وأكثرَها إشكالاً تجاه العالم وتجاهي أنا شخصيًا. فعلى الرغم من الأُلفة بيننا، كانت تطالبني بالحب والتفاني وتعيدهما إليّ أضعافًا مضاعفة. على أنها قد تصدّ مشاعري فجأةً، باعثة رعبًا ميتافيزيقيًا في أوصالي لا أزال أتمثله بانزعاجٍ شديد، بل برهبةٍ قوية. فبين ابتسامة أمّي المقوّية وعبوسِها البارِدِ أو تكشيرتها المتعالية المديدة، وُجِدتُ طفلاً سعيدًا وعظيمَ اليأس في آن معًا؛ فلم أكن هذا أو ذاك على نحوٍ كاملٍ.

تراءتْ لي أمي امرأةً في مقتبل العمر، غيرَ معقّدة، موهوبةً، محِبّة، جميلةً. وإلى حين بلوغي سنّي العشرين، وقد بلغتْ هي الأربعين، كنتُ أراها في تلك الصورة، فلا ألومن إلاّ نفسي إنْ هي انقلبتْ شخصًا آخر. بعد ذلك، ارتسمتْ ظلالٌ داكنة على علاقتنا. ولكنّي، وأنا في مقتبل العمر، غمرتني حالٌ من الحبور بسبب التناغم الهش والموقت جدًا القائمِ بيني وبين أمّي، إلى درجة أنّه لم يكن لي فعلاً أصدقاء من عمري. وكانت علاقاتيَ بشقيقاتي الأصغر مني سنًا - روزماري وجين وجويس وغريس - علاقاتٍ واهنةً، بل إنها لم تكن مُرضِية كثيرًا، بالنسبة إليّ على الأقل. إلى أمّي حصرًا كنتُ أتوجه للرفقة الفكرية والعاطفية. وهي تقول إنها مذ فقدتْ طفلَها الأول في المستشفى بُعيد ولادته، أخذتْ تُغْدق عليّ جرعاتٍ زائدة من العناية والاهتمام. على أنّ هذه المبالغة لم تكن لتحجب تشاؤمها الداخليّ الشديد الذي كان يموّه غالبًا إعلاناتها الإيجابيةَ عني.

خلال نشأتي لم تفصحْ أمي إلاّ القليل عن أصلها وماضيها، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ أبي ولكنْ مع اختلاف كلّيّ في الدوافع. ولدتْ عام ١٩١٤، وكانت البنت الوسطى في أسرة من خمسة أولاد، والباقون هم أخوالي الأربعة الذين كانت لي علاقاتٌ إشكاليةٌ معهم جميعًا. وكلُّ مَنْ عرف أمي في الناصرة يصادِق على زعمها أنها كانت الأثيرة لدى أبيها. ومع أنها تصفِه بأنّه رجل «طيّب»، فقد بدا لي قسيسًا معمدانيًا عديمَ الجاذبية وبطريركًا قاسيًا وزوجًا قامعًا. أُرسلتْ هيلدا، وهذا اسمُ

والدتي، إلى مدرسة داخلية في بيروت، هي المدرسة الأميركية للبنات، وهي مؤسسةٌ إرسالية أحكمتْ صلتها بالعاصمة اللبنانية أولاً وأخيرًا، فأضحتِ القاهرةُ مجردَ استراحة مطوّلة بين إقامتين فيها. في المدرسة الداخلية، كما في الـ«جونيور كوليدج» (الجامعة اللبنانية الأميركية حاليًا)، سطع نجمها، فكانت متفوّقة – بل الأولى في صفها – في معظم الأمور وتتمتّع بشعبية كبيرة. ومع ذلك، لم يكن من رجال في حياتها لشدّة عذرية وجودها في المدرستين الدينيتين. وعلى عكس أبي، الذي بدا متحررًا من كافة ارتباطاته الأولى عدا العائلية، حافظتْ أمي على صداقات وثيقة مع زميلاتها في الصف ومجايلاتِها في الكلّية إلى حين وفاتها. وكانت السنواتُ الخمس من حياتها كطالبةٍ في بيروت أسعد فترات حياتها قاطبةً، وقد وَسَمَتْ كلُّ مَنْ عرفته وكلُّ ما فعلته خلالها بشعور من المتعة الدائمة. فتجدها تتحدث بخيبةٍ، وتقول لي بغضبٍ، عن شخص استمتعتْ بصحبته بعد ترمّلها: «وداد ليست صديقتي حقًّا، لأنها لم تكن في المدرسة معي».

عام ١٩٣٢، اقتُلِعَتْ أمي من حياة بيروت الرائعة ونجاحاتها، أو هكذا جرى تجميلُ تلك الحياة لاحقًا، وأعيدتْ إلى الناصرة الصارمة لتُزَفَّ إلى أبي في زواجٍ مُعَدٍّ سلفًا. لن يستطيع أحد الآن أن يحيط تمامًا بما كانه ذلك الزواج أو إلامَ أفضى. ولكنْ جرى تدريبي من طرفها – وكان أبي يلتزم الصمتَ عمومًا حول هذه النقطة – على أن أرى أنّ الزواج المذكور بدأ صعبًا إلا أنها ما لبثتْ أن تكيّفتْ معه تدريجيًا على مدى أربعين سنةً محوِّلةً إياه إلى الحدث الأهم في حياتها. لم تعمل ولم تواصل دراستها بعد زواجها، باستثناء أخذِها دروسًا في اللغة الفرنسية في القاهرة وحضورِها، بعد ذلك بسنوات، أحدَ دروس الإنسانيات في كليتها البيروتية السابقة. وكانت تروي حكاياتٍ عن إصابتها بفقر الدم ودوار البحر خلال رحلة شهر العسل، تتخللها تعليقاتٌ عن صبر أبي وحدبه على الزوجة العذراء الشابة البالغة الهشاشة والسذاجة. وهي لم تكن تأتي على ذكر الجنس إلا مُرْفَقًا برعدةِ نفورٍ وانزعاج، على الرغم من أنّ إشارات أبي المتكررة إلى أنّ الرجل خَيّالٌ ماهر والمرأة فرسٌ مروَّضة تشير إلى شراكةٍ جنسيةٍ مترددةٍ أساسًا، وإنْ تكُ شديدةَ الخصوبة مادامت قد أنجبتْ ستةَ أطفالٍ (عاش منهم خمسةٌ).

على أني لم أشكّ لحظةً في أنها أصيبتْ بصدمة كبيرة عند اقترانها من ذلك الأربعينيّ الصامت والجبّار. فقد انتُزعَتْ من حياة سعيدة في بيروت وسُلِّمَتْ إلى زوج يَكْبرها بكثير – ربما لقاءَ مبلغٍ معين من المال دفعه إلى أمها – زوجٍ ما لبث أن أخذها فورًا إلى ديار غريبة ثم استقرّ بها في القاهرة، الحاضرة الضخمة الحجم والمربكة، وفي بلدٍ عربيٍّ غيرِ مألوف، مع خالتها العانس إميليا بدر («ميليا»). وكانت ميليا قد حطّت رحالها في مصر مطلعَ القرن، وشَقّتْ طريقها في أرض غريبة، مثلما ستفعل أمّي بأسلوبها الخاص في ما بعد. وكان والد ميليا (أيْ جدّ أمي) يوسف بدر هو أول قسيس إنجيليّ مقيم في لبنان، ولعله توسَّطَ لإيجاد عمل لميليا كمدرّسة محلية للغة العربية في الكلية الأميركية للبنات في القاهرة، وهي مؤسسةٌ إرساليةٌ أساسًا.

كانت ميليا امرأة منمنمة، ولكنّها تتمتع بإرادة أقوى من إرادة أيّ شخصٍ آخر عرفتُه في حياتي. فقد أَجبرتِ الأميركيين على مناداتها «مسّ بدر» (في مقابل اللقب الاستعلائيّ المخصَّص للمدرِّسين المحليينَ، وهو «المعلّمة بدر») وانتزعتِ استقلالها الناجز منذ وقت مبكر إذ قاطعت الخدمة الكنسيّة وهي جزء عضويّ من حياة المدرسة والإرسالية. سألتُها عام ١٩٥٦ قبل فترة وجيزة من وفاتها: «هل الله موجود؟»، فأجابتني: «أشكّ في ذلك كثيرًا»، صارفةً إيايّ بسأم وبنبرةٍ قاطعةٍ غريبة كانت تلجأ إليها عندما لا ترغب في إعمال فكرها طويلاً في موضوع من الموضوعات.

كان حضورُ ميليا في حياة آل سعيد، قبل ولادتي وبعدها، مركزيّ الأهمية. لم نجاور أيًا من أنسبائنا ولا شاركناهم السكنَ. كنا نعيش وحيدين في القاهرة، باستثناء رفقة ميليا، ورفقة شقيقتها، جدتي منيرة، بعد ذلك، حين انتقلتْ جدتي للإقامة عندنا في الأربعينيّات. وكانت ميليا تساعد أمّي على اكتناه نظام القاهرة الاجتماعيّ المعقد، الذي كان مختلفًا في فورانه عن أيّ شيء آخر سبق لهيلدا اختبارُه بما هي فتاة مصون في الناصرة وبيروت. وقد قدّمتْ ميليا الزوجيْن إلى عدد من أصدقائها، ومعظمهم من الأقباط و«الشوام» من أهالي تلميذاتها. لم تفصحْ ميليا عن اهتمامٍ زائد بشقيقاتي، بل شغفتْ بي، لكنّها لم تكن تطلق العنان لعواطفها كما هي عادة نساء العائلة الأخريات: فلا إسراف في التعبير ولا عناقات مطولة أو

إعلانات عاطفية مبالَغٌ فيها ذات وظيفة طقوسية. وقد أُعطي لي الحقُّ فقط في أن أسألها أسئلةً من مثل: «هل أنتِ متزوجة من صالح؟»، وهو السائق السودانيّ الذي كان يبدو أنه يساكنها، أو أن أنقّب بين الحين والآخر في حقيبة يدها الصغيرة المعقدة.

بين سنتيْ ١٩٤٥ و١٩٥٠، تسنّى لي أن أشاهدها خلال العمل مرات عدة في الكلية: إنها امرأة نحيلة لا تتجاوز الأقدام الخمس طولاً، متدثرة بالأسود دائمًا، تلفّ عمامة سوداء حول رأسها، ولا تنتعل غير حذاء أسود عاديّ منخفضِ الكعب. وكانت شديدة الاقتضاب في حركاتها، خفيضة الصوت، ولا تنمّ عن أدنى تردّد أو أيّ مظهرٍ من مظاهر ضعف الثقة بالنفس. لها أساليبها الخاصة في التعامل مع أفراد كل طبقة من الطبقات الاجتماعية المختلفة أو مع أفراد كل شريحة من تلك الطبقات، وينطوي كلُّ أسلوب على جملة لياقات غير قابلة للخَرق وعلى بُعاد تتشبث به في صرامةٍ وبرود، فلا تسمح لأيٍّ كان أن يتجاوز حدًّا معينًا من الألفة بل تظل وحدَها ممسكةً بزمام المبادرة. كانت تُرْهب الخدم والتلميذات إرهابًا، وتُجْبر أولياء التلميذات المرموقين أنفسهم - وبينهم رئيسا وزراء على الأقل - على الرضوخ لقيودها وأحكامها المبرمة والنهائية. وبسبب مثابرتها وأقدميتها وهالةِ العصمة التي تحيط بها، كانت تُجْبر المدرِّسات الأميركيات (وهنّ عوانسُ مثلها) على الانصياع لطريقتها بدلاً من أن تنصاع هي لطريقتهنّ. وخلال نصف قرن أمضته في الكلية - وتتسلطن على الطابق الذي تسكن فيه من المبنى- لم يستطع أحد أن يتغلّب عليها. ثم توقفتْ عن التدريس قبل ولادتي وعُيِّنتْ «مديرةً» للكلية، وهي وظيفةٌ أُنشئتْ تقديرًا لمقدرتها على حُكم التلميذات المصريات والمدرِّسات على حد سواء كما لم تستطعه أية مديرة أميركية.

أخذتْ آنطي ميليا أمّي هيلدا من يدها وأَرْشدتْها أين تتسوّق وإلى أين ترسل أولادها وإلى مَنْ تلجأ عند الحاجة. وأمدّتها بالخادمات ومدرِّسي البيانو ومعلّمي الدروس الخصوصية وبأسماء مدارس الباليه والخياطين، ناهيك عن تزويدها - بطبيعة الحال - بنصائح لامتناهية تدلِّسها لها تدليسًا. وكانت تأتي لتناول الغداء معنا كلَّ يوم ثلاثاء، وهي عادةٌ درَجتْ عليها قبل ولادتي وواظبتْ عليها إلى أن غادرتِ القاهرة عام ١٩٥٣ لإقامةٍ قصيرة في لبنان حيث توفيتْ عام ١٩٥٦. وكنتُ

مبهورًا بأمرين فيها. الأول، طريقتها في تناول الطعام. فربما بسببٍ من عطبٍ في أضراسها، كانت نتفٌ من الطعام تَعْلق بين لثتها وأسنانها الأمامية فلا تجد طريقها إلى حيث تُهرَس هرسًا ثم تُبلع. وبدلَ ذلك كانت تلوك الطعام في مقدم الفم، ضاغطةً إياه إلى أسفل بلسانها، ثم تمتصّ منه مقدارًا زهيدًا من العصير، أو ربما حبة أرزّ أو نتفة لحم تلتقمها فجأةً وبطريقة غيرِ مرئية. ثم تستعمل الشوكةَ لاقتلاع ما بقي من طعامٍ في فمها – وكان يبدو لي دومًا كأنه لم يُذَقْ إطلاقًا – لتضعه بدقةٍ على حافة الصحن. وفي نهاية الوجبة، وكانت دومًا آخرَ مَنْ ينتهي من الأكل، كنتَ تجد صحنها مزيّنًا بسبع كومات من الطعام أو ثمانٍ، تتحلق حوله بعناية، كأنّ يد طبّاخٍ حاذق وضعتْها هناك.

أما الأمر الثاني الذي كان يذهلني فيها فهو يداها المكسوّتان دومًا بكفّيْنِ مخرّمين، سوداوين أو بيضاوين، بحسب المواسم. وكانت تضع الأساور حولهما، ولكنّها لا تزيّن أصابعها بالخواتم. وكانت تمسك يدها اليسرى على الدوام بمنديلٍ يلتفّ حول كفّها من جهة الإبهام، تُحِلّه ثم تعيد عَقْدَه طوال النهار. وكانت كلما قدّمتْ لي قطعة من الحلوى – تسميها «پاستيليا» – تُخْرجها من المنديل مضمّخَةً دائمًا بعطر الخزامى، ملفوفةً دائمًا بورق «السيلوفان»، ولها دائمًا طعم مخفّفٌ ومتواضعٌ كطعم السفرجل أو الثمر الهنديّ. أما يدها اليمنى فممسكة بالحقيبة أو متكئة عليها.

كانت العلاقة بين آنطي ميليا وأبي لائقةً إلى أبعد حد وتتسم بالاحترام، بل إنها كانت وديّةً أحيانًا، ولكنها مختلفةٌ عن موقفه من شقيقتها منيرة، اللطيفة والصبورة والمحبّة إلى أبعد الحدود، والتي كان يناديها «امرأةَ عمي» ويعاملها بنوعٍ من الاستعلاء اللعوب. أما بالنسبة إلى أبناء عمه الأربعة، فقد كان يكنّ لهم عاطفةً مشروطةً والكثيرَ من النقد. كان أشقاء هيلدا – منير وأليف ورائق وإميل – يعيشون جميعًا في فلسطين، نزورهم هناك بشيء من الانتظام. وبعد العام ١٩٤٨ أخذوا يتوافدون إلى القاهرة ويغادرونها ومعظمُهم لاجئ و«في وضع صعب» يحتاج إلى مساعدة، على حد تعبير أبي. كانوا أوفر عددًا من أنسباء أبي، ولاسيّما إذا أضفنا إلى العديد الفلسطينيّ جوقّة أنسباء هيلدا من اللبنانيين. ومع أنّ أبي كان يرفض الخوض في شؤونِ آل سعيد رفضًا قاطعًا – وهذه قاعدة من القواعد الحديدية التي

التزم بها، مؤكدًا لي مرارتٍ عديدة أنّ عائلة الرجل هي شرفه - فإنّه لم يتردد إطلاقًا في التدخل في شؤون عائلة زوجته وبخاصّةٍ أنه كان دائنهم الدائم، حسبما اعترف لي (ولا بد أنّ ذلك شكّل مصدرَ إحراجٍ كبيرٍ لأمي). كان أبي ثريًا باستمرار، في حين لم يكن أشقاءُ هيلدا من ذوي اليسار: فقد اقترض أحدهم المالَ منه ليتزوج، واستلف الآخرون مبالغ من المال لتمويل شتى المشاريع التجارية التي ما لبثتْ أن باءت بالفشل - وأفهمني أنّ تلك الديون لم يسدِّد أيٌّ منها أبدًا. وقد ساق إليّ أبي كل هذه المعلومات بشيءٍ من القرف، ولا شك أنها أثارت لديّ شعورًا غيرَ واعٍ بالانزعاج والنفور الخفيف جعلاني أتعامل معهم، خلال مراهقتي، بطريقةٍ تعوزها اللباقة والدماثة.

على أنّ اعتراضه الاساسيّ عليهم، عبر السنين، بدأ بكيفية زواجه من هيلدا. وأنا لا أملك كافة التفاصيل عن هذا الأمر، ولكنه يتصل بكون شقيق والدتي الأكبر، وهو المحظيّ عند منيرة، باع قطعة أرض للعائلة ليتزوج، فأَوقع منيرة المترمّلة، ومعها هيلدا والأشقاءُ الثلاثة، في ضائقةٍ مالية. ولقد افترضتُ طويلاً، وربما عن غير وجه حق، أنّ ترتيبات الزواج التي أَجْرتها عائلةُ هيلدا مع أبي تضمَّنَتْ شروطًا ماليةً لتأمين معيشة منيرة. وانتهى الأمر أَنْ أَمْضَتْ منيرة سنواتٍ طويلة معنا، فاعتدنا على سماع القصص عن سوء معاملتها في منزل ابنها البكر أو عن عجز أبنائها الآخرين - بل عدم رغبتهم، حسبما كان يقول أبي دائمًا - عن الإسهام في إعالتها. وقد اعتبر أبي أنه أَنْجَزَ إِنجازًا فاضلاً إذ أَقنع أحد أبنائها أن يصطحب جدّتي لتناول «البوظة» عند «غروبي» مرةً في الأسبوع.

كان ذلك كله في عين أبي مثالاً تقليديًا، كي لا نقول حاسمًا، على الطريقة السلبية لمعاملة الأبناء لأمهم، مضيفًا أنه أيضًا مثالٌ سلبيّ على معاملة الأشقاء لـ«شقيقتهم»، بعد العام ١٩٤٨. وقد طغى هذا النوع من الحديث، المعبَّر عنه بأسلوب أبي المقتضب، على المناخ العائليّ عمومًا، وطغى عليّ أنا شخصيًا بحدةٍ أكبر. ولم تكن نتيجةُ ذلك وضعَ عائلة أمّي في خانة الاستنكار والحُكْم المبرمِ عليها بعدم الأهلية فحسب، وإنما أورثتني أيضًا، كشقيقٍ وابنٍ، حالاً من الإحراج الحاد. فالمعادَلة الضمنية التي نشأتُ في ظلها هي أنّ «إدوارد» يشبه أخواله («طالِعْ مِخْوِل»، بحسب التعبير المحكيّ، وهو ما يوحي أيضًا أني كلّما تقدمتُ في السن

ازددتُ شبهًا بهم). ولما كان أخوالُ «إدوارد» أبناء وأشقّاء عاقين، فالأرجح أنّه سوف ينتهي مثلهم، وهو ما يستوجب بترَ هذا المسار وإعادةَ تربيةِ الولد وإصلاحه إلى أن يصير أقلَّ شبهًا بهم.

طبعًا، كان لذلك وقعٌ مروِّع على أمي. ذلك أنّ وصم ابنها وأمها (التي كانت تعاملها في حضوري بما يشبه الكُرهَ الباردَ المتعالي) وأشقائها بمثل هذا المصير الداروينيّ المحتوم حوّلها إلى مزيج من وكيلٍ ومُدافعٍ عن عائلتها الأصلية، ومن منفِّذٍ لأوامر أبي في عائلتها الجديدة، ومدّعٍ عام ومحاميٍ دفاع عني في آن معًا. فكانت كل تصرفاتها تنتظم في تلك الفئاتِ الثلاث من الأحكام التي لا تلبث أن تنتهي معقودةً جميعُها في داخلها، مع ما يستتبعه ذلك من عواقب محيِّرةٍ بالنسبة إليّ، أنا ابنَها المثيرَ لإعجابها والعاثرَ في آن معًا، الذي يكرّس مع الأسف أسوأ ما في ذريتها. فكان حبُّها لي جميلاً ومكبوتًا في الوقت نفسه، لكنه صبورٌ إلى أقصى حدود الصبر أيضاً.

هكذا نشأتُ متأرجِحًا بين أن أكون ابنًا جانحًا – في عين والدي – أو ابن أخت أخوالي الكلّي الطاعة. وقد ظللتُ أنادي أبي «دادي» Daddy إلى حين وفاته، على أني كنتُ أشعر دائمًا أنها تسمية عَرَضية وأتساءل ما إذا كان يجوز أصلاً أن أَعتبر نفسي ابنه. فأنا لم أطلب منه طلبًا دون توجس كبير وساعاتٍ من الإعداد المحموم. وأبشعُ ما قاله لي إطلاقًا – وكنتُ في الثانية عشرة – هو: «إنك لن تَرِث مني شيئًا. أنتَ لستَ ابن رجل ثريٍّ»، مع أني كنتُ فعلاً ابنَ رجلٍ ثريّ. وعند وفاته، تبيّن أنه أوصى أمي بكل ثروته. ومنذ أن بدأ وعيي بذاتي وأنا بَعدُ طفلٌ، استحال عليّ التفكيرُ بذاتي إلا بوصفي طفلاً يملك ماضيًا مشينًا ويتوعده غدٌ لاأخلاقيٌّ. فكان أنِ اختبرتُ كلَّ وعيي الذاتيّ خلال السنوات التكوينية بصيغة الحاضر، مجاهِدًا كي لا أنقلب إلى الوراء فأقعَ في قالبٍ معدٍّ سلفًا أو أن أتهاوى إلى أمام فأسقطَ في هاوية الضياع المؤكّد. أن اكون أنا ذاتي كان يعني أن لا أكون تمامًا في موقعي الصحيح، ولكنّ الأمر لم يقتصر على ذلك، وإنما كان يعني أيضًا أني لم أنعم مرةً براحةِ بالٍ، بل أتوقع باستمرار أن يأتي مَن يقاطعني أو يصوِّب لي أفعالي أو يجتاح حميميتي أو يعتدي على شخصي الضعيفِ الثقةِ بالنفس. كنتُ دومًا في غير مكاني. لم يَتْرك لي نظامُ الضبطِ والتربيةِ المنزلية الجامدِ الصارمِ، الذي حبسني

فيه أبي منذ سن التاسعة، أيُّ متنفَّسٍ أو أيّ مجالٍ للإحساس بالذات في ما يتجاوز قواعده وترسيماته.

هكذا أصبحتُ «إدوارد»، مخلوقَ والديّ، تراقِبُه في عذاباته اليومية ذاتٌ داخليةٌ مختلفةٌ كليًا عنه لكنها على درجةٍ من فتور الهمّة بحيث تعجز، في معظم الأحيان، عن مساعدته. وكان «إدوارد»، أساسًا، هو الابنَ ثم الشقيقَ وأخيرًا الصبيَّ الذي يرتاد المدرسةَ ويفشل في محاولاته التقيُّدَ بالأصول (أو يتجاهلها ويتحايل عليها). وقد كانت عمليةُ خلقه واجبةَ الوجوب لأنّ والديه كانا هما أيضًا نتاجَ عملية خلقٍ للذات بالذات، فلسطينييْن ينتميان إلى بيئتيْن مختلفتيْن ومزاجيْن متغايريْن جذريًا، يعيشان في القاهرة الكولونيالية ابنَيْ أقليةٍ مسيحيةٍ تعيش هي نفسها ضمن حومة من الأقليات ليس لأيٍّ منهما سندٌ سوى الآخر، وهما يفتقدان، فوق ذلك كله، إلى أية أعرافٍ يهتديان بها في سلوكهما، باستثناء مزيج غريب: من عادات فلسطينية من فترةٍ ما قبل الحرب، وحِكَمٍ أميركيةٍ مجمّعةٍ على نحو انتقائيّ من الكتب والمجلات ومن السنوات العشر الذي أمضاها أبي في الولايات المتحدة (التي لم تزرها أمّي إلا العام ١٩٤٨)، ومن تأثيرِ الإرساليات والتعليم المدرسيّ المتقطع ومن ثَمّ الهامشيّ، ومن مواقف بريطانيةٍ كولونيالية تمثِّل الأسيادَ وسوادَ «البشرية» التي يحكمها هؤلاء الأسيادُ في آن معًا، وأخيرًا، من نمط حياةٍ عاينه والداي حولهما في القاهرة وحاولا تكييفه مع ظروفهما الخاصة. فهل يمكن لـ«إدوارد»، والحالُ هذه، أن يكون إلا في غير مكانه؟

الفصل الثاني

مع أنَّ والديّ كانا يعيشان في القاهرة عام ١٩٣٥، فقد خَطَّطا لكي أُولد في القدس لأسبابٍ تكررتْ على مسامعي خلال الطفولة. كانت هيلدا قد وَلدتْ، في أحد مستشفيات القاهرة، طفلاً ذكرًا، تقرّرتْ تسميتُه «جيرالد»، إلاَّ أنَّه أصيب بالتهابٍ قضى من جرّائه بعيْد ولادته. وكبديلٍ جذريّ من كارثةٍ استشفائيّةٍ أخرى، سافر والداي إلى القدس خلال الصيف. وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر وُلِدتُ في المنزل على يد قابلةٍ يهودية، السيدة باير. وهي امرأة ألمانية الأصل، كبيرة، تَجْمع بين صراحةٍ حدَّ الفظاظة وطيبةِ قلبٍ، لا تتكلّم الإنكليزيّة بل تَرْطن بالعربيّة بلهجةٍ أجنبية ثقيلة ومعجمةٍ إلى درجةٍ مثيرةٍ للضحك. كانت تزورنا بانتظام لتراقِبَ نموّي، وتُكْثر من العناقات والقرصات والصفعات الحُبِّيّة. وهذا هو كلُّ ما أذكره عنها.

إلى العام ١٩٤٧، كانت إقاماتُنا المتقطِّعة في فلسطين ذاتَ طبيعةٍ عائليّةٍ صرفة، أيْ أنَّنا لم نكن نأتي أيَّ نشاطٍ كعائلة مصغَّرة وإنَّما يلازمنا دائمًا سائرُ أفراد العشيرة... وذلك على العكس تمامًا ممّا كان يحدث في القاهرة، حيث كنا متوحِّدين في بيئةٍ نَفْتقد فيها العلاقاتِ الفعليةَ، الأمرُ الذي زاد إحساسَنا بالتماسك الداخليّ. ذكرياتي الأولى عن فلسطين ذكرياتٌ عادية، والغريب أنَّها غير لافتة، قياسًا إلى عميق انشغالي اللاحق بالشؤون الفلسطينيّة. كانت فلسطين مكانًا أُسَلِّم به تسليمًا، بما هو الوطنُ الذي أنتمي إليه، يعيش فيه أقرباءُ وأصدقاءُ بطمأنينةٍ لا تحتاج إلى تفكّر (أو هكذا يبدو الأمرُ اليومَ في نظرةٍ استرجاعيّة).

يقع منزلُنا العائليُّ في الطالبيّة، وهو حيّ من القدس الغربية قليلُ السكّان، بناه وسَكَن فيه حصرًا فلسطينيُّون مسيحيُّون من أمثالنا. والمنزل كنايةٌ عن ڤيللا حَجَريّة مهيبة من طبقتيْن، كثيرةِ الغرف، تُحْدِق بها حديقةٌ جميلةٌ نَلْعب فيها أنا وابنا عمّي الأصغران وشقيقاتي. ويَصْعب الحديثُ عن جيرة فعلية، مع أنّنا كنّا نَعْرف جميع ساكني الحيّ الذي لم تكن معالمُه قد تبلورتْ بعدُ. أمام المنزل بورةٌ مستطيلة خالية، كنت أَلعبُ فيها أو أَرْكب درّاجتي. ولم يكن لنا جيرانٌ مباشرِون، مع أنك تَلْقى على مسافة خمسمئة ذراع تقريبًا صفًّا من الڤيللات المشابهة يَسْكنها أصدقاءُ أبناء عمّي. اليوم، أَضحتِ البورةُ حديقةً عامةً، والمنطقةُ المجاورة للبيت حيًّا فخمًا يَسْكنه أغنياءُ اليهود.

عندما كنا نقطن مع عمتي نبيهة المترمّلة، وأبنائها الخمسةِ البالغين، كنتُ دائمًا ألْهث لحاقًا بالتوأمَيْن روبرت وألبرت اللذيْن يكبرانني بنحو سبع سنوات؛ فلا استقلالٌ لي ولا دورٌ ألعبه، إلا دورَ ابنِ العم الأصغر، يستخدمانني بين الحين والآخر مكبِّرًا للصوت، عديمَ التفكير، كاملَ الطاعة، يُطْلِق الشتائمَ والكلماتِ البذيئةَ على أصدقائهما والأعداءِ من خلف الجدار، أو مستمِعًا مستكينًا إلى حكاياتهم التي لا نهاية لها. وكان ألبرت، بسحنته الفاسقة وفكاهته اللاهية، أقربَ مقاربةٍ عرفتُها لأخٍ أكبرَ أو صديقٍ حميم.

وكنّا غالبًا ما نذهب إلى صَفَد نقضي الأسبوع بطوله مع الخال منير، الطبيب، وزوجتِه لطيفة، ولهما ابنان وابنةٌ في عمري تقريبًا. كانت صَفَد تنتمي إلى عالمٍ آخر أقلّ تطورًا: فلا كهرباء داخل البيوت، وكانت الطرقاتُ الخاليةُ من السيارات والمنحدراتُ السحيقةُ تَصْلح ملاعبَ رائعةً نَرْتع فيها. أما طبخُ امرأة خالي فلذيذُ المذاق إلى أبعد الحدود. بعد الحرب العالميّة الثانية، شكّلتْ زياراتُنا إلى القدس، وإلى صَفَد خصوصًا، فرصةً للإفلات من النظام الآخذِ بالإطباق عليّ في القاهرة بفضل تعزيزات يوميّة. ففي صفد أمضيتُ في الغالب أوقاتًا هانئةً تَقْطعها المدرسةُ أحيانًا أو أحدُ الدروس الخصوصيّة، ولكنْ ليس لفترة طويلة.

وإذ استطالتِ الفتراتُ التي نقضيها في القاهرة، اكتسبتْ فلسطين طابعًا ناعِسًا بل حُلُميًا. هناك كنتُ أتحرّر من ذلك الشعور الحادّ بالوحدة الذي أخذ يَقضّ مضجعي فيما بعد، حين بلغتُ الثامنةَ أو التاسعة. وعلى الرغم من أنّي كنتُ أشعر

بانحسار وطأةِ التنظيم المُحْكَم للمكان والزمان، وهو تنظيمٌ كان محورَ حياتي في مصر، فإنِّي لم أستطع الاستمتاع كليًا بذلك التحرر النسبيّ منه الذي عشتُه في القدس. كنتُ أرى إقامتي المقدسيّة سارّةً، لكنْ يعذِّبني فيها أنَّها طليقةٌ ومؤقَّتةٌ بل وزائلة. وقد تبيّن لاحقًا أنَّها فعلاً كذلك.

أما جغرافية القاهرة وبيئتُها الأغنى دلالةً والأشدُّ كثافةً فكانتا تتركّزان بالنسبة إلينا في الزمالك، وهي الجزيرة التي تتوسّط النيلَ بين المدينة القديمة إلى الشرق والجيزةِ جهةَ الغرب، يَسْكنها الأجانبُ والأغنياءُ المحليون. وقد انتقل أهلي إلى الزمالك سنة ١٩٣٧ عندما كنتُ لا أزال في الثانية. وخلافًا للطالبية المتجانسةِ السكّان من تجّارٍ ومهنيِّين ميسورين، لم تكن الزمالكُ تشكّل جماعةً موحَّدةً وإنَّما كانت أشبهَ بالمركز الكولونياليّ الأماميّ يتحكّم فيه الأوروبيُّون الذين لم يكن لنا ـ أو لم يكد يكون لنا ـ اتصالٌ بهم. وقد أنشأْنا عالَمنا الخاصّ داخل الزمالك. وكان بيتُنا شقةً فسيحةً في الطبقة الخامسة من ١، شارع عزيز عثمان، تُطلّ على ما يسمَّى «حديقة الأسماك» وهي منتَزَهٌ صغيرٌ مسوَّرٌ ذو تلة اصطناعيّة (الـ «جبليّة») وحوضٍ صغيرٍ ومغارةٍ، تخترقه مرجاتٌ خضراءُ ومسالكُ متعرِّجةٌ وتحفّ به أشجارٌ كبيرة. وفي «الجبليّة» تشكيلاتٌ صخريّة ومنحدراتٌ، اصطناعيَّةٌ هي أيضًا، نعدو عليها صعودًا أو نزولاً بلا انقطاع. وكنتُ أقضي جُلَّ أوقات اللعب في «الحديقة»، كما كنا نسمّيها، خلا أيامَ الآحاد والأعياد، دائمًا قيدَ المراقبة، تحت مرمى صوتِ أمي يترامى إلينا، أنا وشقيقاتي، دائمَ الوضوح في غنائيَّته.

هناك أمثِّل أدوار «روبنسون كروزو» أو «طرزان» وألعب «الاستغمّاية»، عندما تنضمّ أمي إليّ، فأختفي عنها ثم أعود إليها. وكانت أمي تلازمنا باستمرارٍ تقريبًا في أركان عالمنا الصغير، جزيرةً صغيرةً تُحْدِق بها جزيرةٌ أخرى. في تلك السنوات الأولى، كنتُ أرتاد مدرسةً تَبْعد بضعةَ صفوف من البنايات عن منزلنا، هي «مدرسة الجزيرة الإعداديّة». وللرياضة، كنّا نقصد «نادي الجزيرة الرياضيّ»، وفي عطل نهاية الأسبوع، «نادي المعادي الرياضيّ» حيث تعلّمتُ السباحة. ولسنواتٍ، كان يومُ الأحد يعني لنا «مدرسةَ الأحد»، تلك المحنةَ العبثيّةَ الواقعةَ بين التاسعة والعاشرة صباحًا في «إعداديّة الجزيرة» يليها القدّاسُ الصباحيُّ في «كاتدرائيَّة جميع القدّيسين». أما في أماسيِّ الآحاد، فكنتَ تجدنا في كنيسة الإرساليّة الأميركيّة في

الأزبكيّة، نَتْلو ـ كلُّ أحديْن من ثلاثة آحاد ـ صلاةَ المساء في الكاتدرائيّة ذاتها. المدرسة، الكنيسة، النادي، الحديقة، البيت ـ كان هذا الحيّزُ المحصورُ والمحدَّدُ بدقةٍ من هذه المدينة الجبارة يختصر عالمي كلَّه حتى سنواتٍ متأخِّرةٍ من مراهقتي. وإذْ أضحى جدولُ أعمال حياتي أكثر تطلبًا، فقد كانت الانحرافاتُ المؤقتةُ عنه بمثابة استراحاتٍ تَخْضع لإجازاتٍ صارمةٍ تعزِّز من سطوته عليّ.

من الطقوس الترفيهيّة الأساسيّة لسنواتي القاهريّة «مشوارُ السيارة»، حَسبَ تعبير أبي، تمييزًا له عن السَّوْق اليوميّ بالسيارة إلى العمل. خلال أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، كان أبي يملك مجموعةً من السيارات الأميركيّة السوداء، كلُّ واحدةٍ منها أكبرُ من سابقاتها: سيارة فورد، وسيارة بليموث «سيدان» ممتازة، ثم اقتنى عامَ ١٩٤٨ سيارة كرايزلر «ليموزين» ضخمة. وكان دائمَ الاستخدام للسّائقين، وقد أجاز لي التحدُّثَ مع اثنيْن منهم، فارس وعزيز، حين لا يكون معنا في السيارة. أما خلال رواحه إلى العمل وإيابه منه، فيصرّ على الصمت الكامل. وعندما أرافقه، يبدأ الرحلةَ من البيت في مزاجٍ بيتيٍّ، إذا جاز التعبير، مستجيبًا لحديثي، إلى حدٍّ ما، بل قد يتكرَّم عليَّ بابتسامة، إلى أن نبلغ «جسر البولاق» الذي يَصِلُ الزمالكَ باليابسة؛ وإذّاك ينكمش تدريجيًا ويَصْمت، ثم يتناول أوراقًا من حقيبته ويأخذ يراجعها. ومع وصولنا إلى تقاطع «الإسعاف» و«المحاكم المختلطة»، على تخوم المركز التجاريّ الأوروبيّ، يكون قد انغلق دوني كليًا، فلا يجيب على أسئلتي بل لا يكاد يَعْترف بوجودي. هكذا يتحوّل أبي إلى ربِّ عملٍ مهيب، أيْ إلى شخصيةٍ ما لبثتُ أن كرهتُها وخشيتُها، لأنَّه كان يبدو فيها مثلَ نسخةٍ أضخمَ وأقلَّ آدميَّةً عن الرجل الذي يُشْرِف على حياتي.

في الأماسيِّ والأعياد، كان يستغني عن السائق ويأخذنا في «مشاوير سيارة» يقضيها هذا البطريركُ المضيافُ في الثرثرة والنكات، فأُدرك بطريقةٍ نصفِ واعيةٍ أنّ تلك المشاوير هي بمثابة انعتاقٍ له قبل أيّ شيء آخر. كان يَنْزع عنه السترةَ وربطةَ العنق، مقتصرًا على القمصان ذاتِ الأكمام القصيرة أو سترات الشتاء الرياضية، ويتّجه إلى واحدٍ من أمكنة ترفيهٍ معيَّنةٍ سلَفًا: الـ «مينا هاوس»، بعد ظهر الأحد، لاحتساء الشاي والاستماع إلى حفلةٍ موسيقيّة متواضعة؛ وإلى «السدود» بعد ظهر أيام السبت، وهو كناية عن سدٍّ منمنمٍ بناه البريطانيون على دلتا

النيل، تُحْدِق به المتنزهاتُ الخضراء وتخترقه سكّةٌ للعربات كانت وظيفتُها الغامضةُ تثير استيهاماتِ الهربِ لديّ (واستحالتَه كذلك)، نتجوّل فيها كما يحلو لنا، نأكل السندويتش هنا أو نَقْضم تفاحةً هناك، على مدى ساعتيْن أو ثلاث ساعات. أيامَ الأعياد كان محتومًا أن نعرِّج على الأهرام في طريقنا إلى الصحراء الغربية، حيث نتوقّف عند نقطةٍ غير معيّنة، فنَفْرش بطانياتنا أرضًا ونُخْرج وجبةَ طعامٍ سخيةً، ثم نتسلّى بقذف حجارةٍ على أهدافٍ ما، والقفزِ على الحبل، واللعبِ بالكرة. وحدنا كنا، خمسةً أو ستةً أو سبعةً، بحسبِ درجة نموّ العائلة. لم نَرْتَدْ مرةً مكانًا عامًا كمقهى أو مطعم، باستثناء الـ «مينا هاوس»، ولم نذهبْ مرةً برفقة أحد. ولم نقصدْ مرةً مكانًا معروفًا، بل نتوقّف عشوائيًا في بقعةٍ ما متفرعةٍ من الطريق الصحراوية. وفي أماسيِّ الأعياد، كنا نتجوّل جنوبيَّ «باب اللوق» حيث الأبنية الحكوميّة تتلألأ بألوف الأنوار الكهربائيّة ذاتِ الألوان الصفراء الرمليّة وبأضواء الـ «نيون» الخضراء الفاقعة. وكانت تلك الأبنية تشكّل «الإنارات»، كما يسمّيها أبي، نزورها بمناسبة عيد ميلاد الملك أو افتتاح دورات البرلمان.

لِشِدَّةِ ما كنتُ محميًا ومحْتَجَزًا داخلَ ذلك العالَم الصغيرِ الذي بناه أهلي، لازمني شعورٌ بأنّ وراء حدود العادات والرحلات المبرمَجَةِ بدقةٍ متناهية، عالمًا كاملاً يتأهّب لاختراق السدود ليغمرَنا بلْ ليجرفَنا جرفًا تحت لُجَجِه. مطلعَ الأربعينيّات، كانت القاهرةُ مدينةً مكتظّةً بالسكّان إلى حدٍّ كبير، تمركَزَ فيها ألوفُ الجنود من جيوش الحلفاء خلال الحرب العالميّة الثانيّة، أَضِفْ إليهم عدةَ جالياتٍ أجنبيّة كبيرة من إيطاليين وفرنسيين وإنكليز، ناهيك عن الأقليات القاطنة فيها أصلاً مثل اليهود والأرمن والسوريين ـ اللبنانيّين (الشوام) واليونانيِّين. وقد تُطالِعك بالمصادفة في القاهرة مسيرةٌ للجنود هنا، أو استعراضٌ عسكريٌّ هناك. ومع أنّ أبي وعدني مرارًا بأن يأخذني إلى أحد المهرجانات العسكريّة الترفيهيّة، فقد أَخْلَف بوعوده في كل مرة. في القدس، كما في القاهرة، شاهدتُ مسيرات الجنود البريطانيين وجنود الـ «أنزاك»[1] يَنْفخون في الأبواق ويَقْرعون الطبول، على أنّي لم أَفْهم لِمَ كان يتمّ ذلك ولأجل مَنْ؟ فافترضتُ أنّ هدف أولئك الجنود في الحياة أسمى من هدفي أنا، وأنّه ـ مِن ثَمَّ ـ أعمقُ من أنْ أدركه.

---

١ ـ «القوات الأوسترالية النيوزيلاندية المشتركة». (المترجم)

ومن عـاداتـي في ذلك الـزمـان المعـاينةُ الدائمـةُ لواجـهـات المطاعم والملاهي المحظورة عليّ، تزيِّنهـا يافطاتٌ تعلن: «نرحِّب بكافـة الرُتب»، فلم أفـقـه مـعناها هي أيضًـا. وصَـدَفَ أنَّ أحـد هذه الأمكنة المحظورة ـ مطعم «سـولدز» ـ يقع في بناية «إيموبيليا» قُرْبَ «شركة السَّهم للقرطاسية» Arrow Stationary Company لصاحبها عمي أسعد (وهي هِبَةٌ له من أبي) وكان كثيرًا ما يأخذني إليه. «أَطعِمِ الصبيَّ»، يَنْهر عـمي الموظَّفَ الناعسَ القـابعَ وراء المنضـدة المستطيلة، فـأروح أَلْتَـهِمُ سندويتـشـات الجبن واللفت المخلَّل حتى أُتْخَم. في البدء، ظننتُ أنّ عبـارة «كافة الرتب» تعني أنّ المدنيِّين من أمثـالي مسموحٌ لهم بالدخول، على أنِّي سُرعان مـا أدركتُ أني لا أملك أيّ رتبة. وكان مطعم «سولدز» والعم «آل»، كما كنا نسمّيه، يرمزان إلى برهةِ حريةٍ، مؤقتةٍ، قصيرةٍ جدًا، بل زائلةٍ، نظرًا إلى قوانين الغذاء الصـارمة التي كانت تَفْرضها عليَّ أمي.

بحلول العـام ١٩٤٣، بدأ والداي يَفْرضـان عليّ نظامَهما الانضـباطيَّ بصـرامةٍ كاملة، بحيث أنّ عبارة العم «آل» الصادرةَ من القلب ـ «أَطْعِمِ الصبيَّ» ـ قد اكتسبتْ عندي، حين مـغـادرتي مصـر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥١، عذوبةَ حنينٍ سـخيفٍ وسـعـيدٍ مـعًـا هيـهاتَ أن تُسـتـعـاد. وعندمـا توفي العـم «آل» في يافـا بعـد ذلك بأربع سنوات، كان مطعم «سولدز» قد أَغلق أبوابه هو أيضًا.

خـلال النصف الأول من الحـرب أَخَذْنا نقضـي أوقـاتًا أطول من المعـتـاد في فلسطين. عـام ١٩٤٢ اسـتـأجَـرْنا منزلاً لقـضـاء عطلة الصـيف في رام الله، شـمـال القدس، ولم نعدْ إلى القاهرة إلا فـي تشرين الثاني/نوفمبر. ذلك الصيفُ غيّر مجرى حياة عائلتنا على نحوٍ دراماتيكيّ، إذْ طرأ تحوّلٌ على تحركاتنا بين القاهرة والقدس، وقد كانت قَبْلاً فجائيةً ومرتبكةً. كنا نسافر عـادةً في القطار من القاهرة إلى اللِدّ مع اثنيْن من طاقم الخدم على الأقل، وكميةٍ كبيرةٍ من الأمتعة، ويُخيِّم علينا جوٌّ محموم، في حين أنّ العـودة كانت دائمًا أيسـرَ وأقلَّ هيـاجًا. ولكنَّنا في ذلك العـام ١٩٤٢ لم نسـتقلَّ القطارَ، أنا وأمي وشـقـيقـتـاي روز مـاري وجين وأبي، بل ارتحلنا بالسـيـارة. وبدلاً من ركوب قطار «الحافلات السريريّة» الفخم من محطة «باب الحديد» القاهريّة، للقيام برحلة السـاعات الاثنتيْ عشـرة إلى القدس، اضطررنا في أيار/مـايو من ذلك العـام إلى الفـرار أمـام زحف الجـيش الألمانيّ المداهِم في سـيـارة أبي البِليـموث

السوداء، وقد طُلِيَتْ مصابيحُها باللون الأزرق للتعتيم، وتكدَّستْ حقائبُنا الجلدية التي وضّبناها على عجلٍ فوق رفّ الأمتعة وداخل صندوق السيارة. استغرقتِ الرحلةُ إلى قناة السويس ساعاتٍ عديدةً التقيْنا خلالها عدة قوافل عسكريةٍ بريطانيّةٍ تتّجه صوب القاهرة، وهو ما اضطرنا إلى مجانبة الطريق والانتظار ريثما تمرّ الدباباتُ والشاحناتُ وناقلاتُ الجنود من أمامنا متجهةً إلى معركةٍ أسفرتْ عن هزيمةٍ لقوات الحلفاء سوف يَعْقبها هجومٌ بريطانيٌّ مضادٌّ تُوِّج بمعركة «العلمَيْن» في تشرين الثاني/نوفمبر.

اجتزنا الرحلة الطويلة ليلاً وفي صمت مُطْبق. وكان أبي يتعامل مع طرقات سيناء غيرِ المحددةِ المعالم، بعد أن عَبَرْنا قناةَ السويس عند جسر القنطرة دون احتفالٍ ولا جلبة، إذ ألفيْنا مركزَ الجمارك مهجورًا عندما بلغناه بُعيْدَ منتصف الليل. هناك التقينا السيارةَ المدنيةَ الوحيدةَ السائرةَ في الاتجاه نفسه، وكانت سيارةً مكشوفةً يقودها رجل أعمالٍ يهوديٌّ من القاهرة لا يصطحب معه أيَّ راكبٍ ولا يَحمل من الحوائج غيرَ زجاجاتِ المياه المثلجة ومسدَّس. تَعَرَّفَ الرجلُ إلى أبي، واقترح أن نخفِّف عن البليموث بعضًا من حمولتها ـ فنقلنا عدةَ حقائبَ ضخمةٍ إلى سيارته ـ وطَلَبَ، في المقابل، أن نَسْمح له بأن يسير في أعقابنا. أَذْكر جيدًا التعبيرَ الذاهلَ المتْعَبَ على وجه أبي وهو يوافِقُ على هذا الترتيب الأعرج. وهكذا مضينا بصمتٍ خلال الليل، السيارةُ الثانية تحثّ السيرَ وراء الأولى، ووالدي يتولّى بمفرده رفعَ الرمال عن الطريق الضيّقة الملتوية في تلك الليلة الليلاء ويتحمّل، فوق ذلك، ضغطَ عائلته الصغيرة داخل السيارة، فيما رجلُ الأعمال اليهوديُّ المصريُّ في الخارج يستعجله من الخلف، موقنًا أنّه يفرّ إنقاذًا لحياته.

في مَطْلع ذلك الشتاء سمعتُ صفّارات الإنذار تَزْعق إنذاراتِ الـ «الخطر» ثم تعود لتُطْلق إعلاناتِ الـ «أمان». وخلال غارةٍ ألمانيةٍ ليلية، بينما كنتُ فوق ذراعيْ أبي، مُلْتحفًا ببطانية، يحملني إلى المرأب ـ الملجإ، دَهَمَني شعورٌ استباقيٌّ غامضٌ بـ «أننا» في خطر. ومن الطبيعي أنّ المغزى السياسيّ، ناهيك عن العسكريّ، لِوَضْعنا، كان يتعدّى مداركَ الطفل ذي السنوات الست ونصف السنة الذي كنتُه. على أنّ أبي، بصفته مواطنًا أميركيًا في مصر، التي تنتظر إنزالاً للقوات الألمانيّة بقيادة رومل على الإسكندريّةِ فالقاهرةِ، لا بد أنّه فكر بأنّه مستهدَفٌ بمصيرٍ لا يُحسَد عليه.

وكان قد غطّى جدارًا كاملاً من مدخل المنزل بخرائط ضخمةٍ لآسيا وإفريقيا الشمالية وأوروبا. وكان كلَّ يومٍ يحرِّك الدبابيسَ الحمراء (قواتِ الحلفاء) والسوداءَ (قوات دول المحور) من موقعٍ إلى آخر لقياس التقدم والتراجع الذي يحقِّقه كلٌّ من المعسكريْن المتنازعيْن. بَدَتْ لي الخرائطُ مثيرةً للقلق أكثرَ منها غزيرةَ المعلومات، فكنتُ أطالبه، بين وقتٍ وآخر، بأنْ يَشْرح لي مجريات الأمور، فيُعْضِله الأمرُ؛ وقد كان مشتَّتَ الذهن ومهمومًا وشاردًا. ثم غادَرْنا فجأةً إلى القدس في تلك الرحلة الليليّة الصعبة. يومَ تقرَّرَ الرحيلُ، جاء إلى البيت لتناول الغداء وطلب من أمّي ببساطةٍ أن توضِّب الأمتعة وتتهيَّأ للسفر، وانطلقنا عند الخامسة من بعد الظهر، تتهادى بنا السيارةُ في شوارع القاهرة شبهِ الخاوية. كان زمنًا موحشًا ومحيِّرًا، نَهْجر فيه عالمي الأليفَ دون سبب، متَّجهين نحو الغسق الكئيب.

ظلّت صُوَر أبي في انغلاقه وصمته، وهي صُوَرٌ توالت خلال ذلك الصيف الطويل والمربكِ والغريبِ في رام الله، تراودني مدى سنوات: جالسًا على الشرفة، محدِّقًا إلى البعيد، يدخِّن بلا انقطاع. «بلا ضجة، يا ادوارد»، تَنْهَرني أمي، «ألا ترى أنّ أباك يحاول أخذَ قسطٍ من الراحة؟». ثم نذهب في نزهةٍ في البلدة الوَرِيقة الأنيسة ذاتِ الأكثريّة المسيحيّة، شمالَ القدس، وأنا متشبِّثٌ بتلابيبها بعصبيةٍ بالغة. لم يَرُقْني منزلُ رام الله، مع أنّه شكّلَ الإطارَ المثاليَّ لذهول أبي وكآبته في محنته الغامضة. وكان هناك درجٌ خارجيٌّ شديدُ الانحدار، يَصْعد مواربًا من حديقةٍ يَفْصل بين أرجائها ممرٌّ حجريٌّ على جانبيْه أثلامٌ من التراب البُنّي لا يَنْبت فيها غيرُ بعضِ العلّيق، وثمة شجرتا سفرجلٍ هزيلتان تَحْرسان البيتَ بمحاذاة شرفة الطبقة الأولى حيث يقضي أبي جلَّ وقته. أما الطبقة الأرضيّة فمقفلة وخالية. ولما كنتُ قد مُنعتُ من الدَّوْس على الأثلام، فإنّه لم يبقَ لي من ملعبٍ غيرُ الممرّ الحجريّ الضيّق بين البوّابة والدَّرَج.

لم أَفقهْ ما الخطب، لكنّ رام الله كانت المكانَ الأوّلَ الذي سمعتُ فيه عبارةَ «انهيار عصبيّ» مصحوبةً بضرورة الحرص على «راحة بال» أبي، وهي عبارةٌ اقتَبَسَها من كتاب بالعنوان نفسه كان موضوعَ أحاديث عديدةٍ له مع أصدقائه. حَرَمَتْني صيفيّةُ رام الله، بكسلها المضني، مما أحتاج إليه بداهةً من تمحيصٍ وتفسيرٍ، أنا الطفلَ اللامعَ ذا السنوات الستّ والنصف. هل كان أبي يخشى شيئًا

ما ـ أول سؤال وددتُ طرحه ـ: لماذا يَجْلس هنا تلك الفتراتِ المطوَّلةَ ولا يتفوّه بكلمة؟ وجوابًا على سؤالي، كانوا يَصْرفونني إلى نشاطٍ مفيدٍ، أو يَفْرضون عليّ عقوبةً ما، أو يرمونني بإشاراتٍ ملغزةٍ وناقصةٍ لا تَشْفي الغليل. سمعتُهم يُعْربون عن قلقهم المتزايد من الارتفاع المباغت في ضغط دمه. وقيل أيضًا إنّه أرسل ابنَيْ عمي أسعد، آبي (إبراهيم) وشارلي، إلى أَسْمَرا، فانشغل بالُه ـ حتى المرض ـ من أن يتعرَّضا للقتل هناك. وقيل أيضًا إنَّ رجل أعمالٍ قاهريًا مشبوهًا حاول عَبَثًا إغراءَ أبي بصفقةٍ تجاريةٍ من صفقات الانتفاع من الحرب (وعرفتُ أنَّ أبي رَفَضَ العرض). ولكنْ، هل تشكّل تلك الأحداثُ سببًا كافيًا لانهيارٍ عصبيّ؟

مهما يكن السبب، فما إنْ عدتُ إلى القاهرة، حتى بدأ مسارُ تحوّلٍ في حياتي، بل شجّعتني أمي خصوصًا على الاعتقاد أنّ المرحلة الأَوْفر سعادةً والأقلَّ إشكالاً من حياتنا قد ولّتْ إلى غير رجعة. فانتكستُ أكثرَ فأكثرَ في حالة عمومية من التسيُّب. «أنت شاطر جدًا»، كانت تقول المرَّةَ تلو الأخرى، «لكنَّكَ بلا شخصيّة وكسول وشيطان»، الخ. وقد حَدَّثَتْني أيضًا عن إدواردٍ سابقٍ، يسمُّونه أحيانًا «إدواردو بيانكو»، وَرَوَتْ لي مآثره ومواهبَه وإنجازاتِه بما هي إرهاصاتُ وَعْدٍ مبكّرٍ لفترةٍ ما قبلَ ١٩٤٢ ما لبثتُ أن خُنْتُه. ومنها علمتُ أنّ إدوارد ذاك حَفظَ عن ظهرِ قلبٍ ٣٨ أغنيةً وترنيمةً لتنويم الأطفال، يغنّيها أو يلقيها إلقاءً ببراعة كاملة، وهو لم يتجاوز السنةَ والنصفَ من العمر. وقصّت عليّ أيضًا أنّ ابن عمي آبي، عازفَ الـ «هارمونيكا» الماهر، دَسَّ، عن قصدٍ، نوطةً نشازًا في أدائه لأغنية «جون بيل»، فأَطْبق إدوارد قبضتَيْه وأَغْمَضَ عينيْه وزَعق انزعاجَه من النشاز ثم غنّى الجملةَ الموسيقيةَ الصحيحة... وأنّ إدوارد كان يَنْطق بجُملٍ كاملةٍ في الإنكليزية والعربية وهو لم يتجاوز خمسة عشر شهرًا، باستثناء استخدامه الهجينِ لـ «أنتَ»، بدلاً من «أنا»... وأنّ مَقْدرته على قراءة البسيط من النثر كانت ناميةً جدًا وهو بعدُ في الثانية والنصف أو الثالثة... وأنّه أجاد الحسابَ والموسيقى في الثالثة أو الرابعة بمثل ما يجيدها ابنُ ثماني سنوات أو تسع. وقالت إنَّ هذا الإدوارد السابق، المتقدِّم على عمره، كان وسيمًا، لعوبًا، سريعَ الخاطر، حاذقًا، يستمتع باللعب الصاخب مع أبيه السعيد. لم أستذكر أيًا من كل ذلك بنفسي، لكنّ نسْجَ أمي الدائمَ على هذا المنوال، معزِّزًا ببضعة «ألبومات» من الصور الفوتوغرافية

لتلك السنوات ـ بما فيها صورٌ عن صيفٍ رومانسيّ في الإسكندريّة ـ أكدّتْ مزاعمها.

غير أنّ كُلَّ تلك الذكريات، خلا الأَسفَ على ما مضى، تبدَّدتْ بعد أيام ١٩٤٢ الكئيبة. فقد عُدْنا إلى القاهرة في تشرين الثاني/نوفمبر بعد «معركة العَلَمَيْن»، وَعُدْتُ أنا إلى «إعداديّة الجزيرة» صبيًا كثيرَ المشاكل يَبْتَكرون له علاجًا مزعِجًا تلوَ الآخر. فإذا أنا، من سنّ التاسعة إلى حين عيد ميلادي الخامس عشر، منشغلٌ أبدًا بممارسة علاجاتٍ شفائيّةٍ شخصيّةٍ، بعد انتهاء الدروس وخلال عطل نهايات الأسبوع: من عزفٍ على البيانو، إلى القيام بالتمارين الرياضيّة، فالذهابِ إلى مدرسة الأحد، وركوبِ الخيل، والملاكمةِ... أضفْ إليها معاناةَ عُطَلِ الصيف في ضهور الشوير، المخدِّرةِ للعقل والمُحْكَمَةِ البرْمَجة. فبعد العام ١٩٤٣، أَخَذْنا نقضي كلَّ صيف في تلك القرية المُمِلَّةِ من قرى جبل لبنان التي تعلَّقَ بها أبي أكثرَ من أيّ مكانٍ آخر على وجه الأرض. وكان والداي محورَ نظام إداريٍّ متكاملٍ يتحكّم بوقتي دقيقةً بدقيقة ويحدِّد، بناءً عليه، موقفُ أبي حتى نهايةِ أيامه؛ وهو نظامٌ لم يَتْرك غيرَ فسحاتِ انفراجٍ نادرةٍ أَسْتمتع بها وتَمْنحني الإحساسَ بأني منفلتٌ من قبضته.

مَزَجَ أبي في شخصه القسوةَ والصمتَ المُطْبق والعاطفةَ العجيبة، يَرْبط بينها جميعِها كَرَمٌ مفاجئٌ لم يُشْفِ غليلي، لسببٍ ما، وظللتُ، إلى فترةٍ جدّ متأخّرةٍ، عاجزًا عن صرفِ النظر عنها (كأنّ خطرها زال عنّي) أو عن فَهْمِها فهمًا كليًا. ولكنْ، لمّا كانت قاعدةُ تلك البنيةِ الانضباطيّةِ المصمَّمةِ لتسيير حياتي قد انبثقتْ من مصائب العام ١٩٤٢، فإنّ خطر عدم الالتزام بوصفاتها المختلفة أَوْرثني فزعًا من الانتكاس إلى حالة رهيبة من الفوضى الكاملة والضياع، وهو فزعٌ لا يزال يلازمني.

وسُرعانَ ما تجسَّدتْ تلك الحالةُ الخَطِرَةُ في إغراءات القاهرة، الجسديةِ منها والمعنوية، تناديني من خلف أسوار ذلك الروتين الحياتيّ المبرمَج بعناية والمُدارِ بصرامةٍ شديدة. فلم أخرجْ مرةً مع فتاةٍ، بل لم يُسمَحْ لي بأن أزورَ أماكنَ اللهو العامة أو المطاعم، ناهيك عن ارتيادها. وكان والداي يتناوبان على تحذيري دائمًا من الاقتراب منَ الناس في الباص أو الحافلة، ومِنْ تناول المشروبات أو الأطعمة من محلٍ أو بسطة، والأهم أنّهما صوّرا لي بيتَنا والعائلةَ على أنّهما الملجأُ الوحيدُ في زريبة الرذائلِ المحيطةِ بنا تلك.

أنْ أُنقِذ نفسي مما كان يحدث آنذاك: تلك هي المفارقةُ التي عشتُها. وتصوّرتُ أن الأسوأ منها هو الانهيارُ الكامل، ربّما كذاكَ الذي عاناه أبي في صيف العام ١٩٤٢. والواقع أنّ أبي انكبّ بعدَها جدّيًا على إعادة بناء تجارته وتنظيمِ أوقات لَهْوه، مركّزًا تركيزًا مستجدًا على هذا الأخير مع تنامي ثروته المتسارع. وبحلول العام ١٩٥١، أَقْلَع عن الذهاب إلى مكتبه بعد الغداء، وبدأ يلعب «البريدج»، وقد تحوّلَ هذا إلى هَوَسه الأكبر، سبعةَ أيامٍ في الأسبوع، كلَّ أسبوعٍ من أسابيع السنة، إلاّ حين يكون على سفر. كان يأتي إلى البيت لتناول الغَدَاء في الواحدة والنصف، ثم يستسلم لقيلولةٍ تستمرّ حتى الرابعة، يأْخذه بَعْدَها السائقُ إلى النادي ليَلعب الورقَ حتى السابعة والنصف أو الثامنة. وقد يعود إلى لعب الورق بعد العشاء.

بعد عطلتنا الصيفيّة في رام الله، ظهرتْ مؤلّفاتٌ عديدةٌ لـ «إيلي كولبرتون» في أماكن مختلفة من شقتنا القاهريّة، ومعها أدواتُ لعب «البريدج» للاّعبِين المنفردين[1]. كما ظَهَرَ غطاءٌ جديدٌ من اللبّاد الأخضر لطاولتَيْ لعب الورق القابلتيْن للطيّ اللتيْن كانتا عندنا. وكان أبي في أماسيّ الثلاثاء يَقْصد منزلَ فيليپ سُوقي قربَ الأهرام للعب «البريدج». وعندما بَدَأْنا نقضي عُطلَ الصيف في ضهور الشوير، أخذ يلعب «البريدج» صباحًا في أحد المقاهي، ويُثنّي بعد الظهر، وأخيرًا، يترأس، مساءً، طاولةَ اللعب في منزلنا أو عند أحدِ الأصدقاء. وقد ازدادتِ الهوةُ اتساعًا بيني وبينه بعد أن اكتشفتُ، واكتشفَ هو مع الأسف، أني مُفْتَقِر إلى أية موهبةٍ في لعبة «البريدج». كان ذا طاقةٍ خارقةٍ على الألعاب التي تمارَس داخل البيوت، في حين لم أكن أُجيد أيًا منها. حاوَلَ أن يعلّمني لعب «الطاولة»، وكانت النتائجُ كارثيّةً. فبعد أن كان يراقبني وأنا أَعُدّ الخاناتِ بعناءٍ، يَنْتزع حجرَ «الطاولة» من تحت إصبعي بنزقٍ وينقله بسرعة إلى الخانة الصحيحة قائلاً: «لماذا تَعُدّ الخاناتِ هكذا» ـ وهنا يأخذ بتقليدِ طريقةِ عَدّي للخانات، راسمًا تكشيرةً بلهاءَ على وجهه، فكأنّني متخلّف عقليًا يسعى يائسًا للانتقال من الخانةِ الثالثةِ إلى الخانة الرابعة ـ «عندما تكون هذه هي الطريقةَ الصحيحةَ للعدّ»؟. ثم يدعوني إلى اللّعِبِ مجددًا، إلا أنّه ينتهي إلى لعب

---

١ ـ إيلي كولبرتون هو أحدُ كبارِ معلّمي «البريدج» في تلك الفترة. والمعلوم أنّ لعبة «البريدج» مباراة بين زوجَيْن من اللاعبين. (م)

المباراة كلَّها بمفرده قائلاً: «إنَّها أسرعُ هكذا!» ـ وأنا قابع قبالته لا أحرِّك ساكنًا: فقد لعب دوري ودوره معًا!

ما من لعبةِ ورقٍ لم يَعْرفها، أو طقسٍ من طقوس ملاهي الميْسر لم يسعَ لتعليمي إياه، ولكنْ بلا جدوى. ورغم أنَّه شَرَحَ لي أكثر من ثلاثين مرةً كيفيةَ لعب البوكر والباكاراه، فإنِّي لم أنجحْ في لعب هذا ولا ذاك.

خلال صيف ١٩٥٣، أيْ بعد عامٍ على تعلُّمي لعبَ الـ «پُول» في المدرسة الأميركية الداخليّة، ظننتُني قادرًا على استدراجه بخبثٍ للعبِ مباراةِ «الكرة رقم ٨» في مقهى صغيرٍ في ضهور الشوير، قبالةَ «مقهى السيرك»[١]. نَسَبْتُ تردُّدَه إلى تخوّفه من الهزيمة، لكنّ ذلك كان مجردَ حيلة. فقد أدركتُ لاحقًا أنَّه اصْطَنع الترددُّدَ، وربما بعضَ الإعجابَ بي، لكي يشجِّعني على المضيّ في الأمر حتى النهاية. «هكذا نَلْعب البلياردَ في الولايات المتحدّة»، صِحْتُ صيحتي المظفَّرة شأنَ محترفٍ يتحدّث إلى مبتدئ، «أمّا إذا ضربتَ الكرةَ جانبيًا، فتلك هي الطريقةُ الإنكليزيّة». أَسْقطتُ كرتيْن في الجيْب وأخطأتُ الثالثة. فتناولَ أبي عصا البليارد، وقد تحوَّل فجأةً من هاوٍ متواضعٍ ومُحابٍ إلى لاعب محترفٍ مرهوبِ الجانب. لم تكن مباراتُنا تلك بالمباراة على الإطلاق، حتى عندما انتقلنا إلى طاولة البليارد ذي الكرات الثلاث حيث ظننتُ أني سأكون أوفرَ حظًا. فقد رماني في حالة من الارتباكِ الكليّ والعجزِ دفعاني إلى التأتأة، فأخذتُ أُلقي باللائمة على العصا حينًا وعلى النادل الساخر حينًا آخر وعلى قلّة التمارين أحيانًا. «إذًا، يسمونها الطريقةَ الإنكليزيّةَ!»، قال في طريقِ العودة إلى البيت، بلهجةٍ لاذعةٍ صادرةٍ عن لاعبٍ يسيطر سيطرةً مُحْكمةً على كل ضربةٍ ولفّة.

لقد أَعْفته الألعابُ من هَذَرِ الكلام، ومن بَذْلِ ما يتعدَّى الحدَّ الأدنى من المشاعر. وربما لهذيْن السببيْن أدمن لعبَ الورق وقد بات عنده مبرِّرَ وجود. بل كان وسيلةً لتحرّره من الهواجس الرازحة عليه في قطاعٍ من الحياة رُسِمَتْ فيه القواعدُ

---

١ ـ «اليول»: لعبة بليارد ذي ستة جيوب، و١٥ كرةً مرقّمةً، وكرة واحدة غير مرقّمة. يستخدم اللاعبُ عصاه لضرب سائر الكرات، بواسطة الكرة غير المرقّمة، مستهدفاً إنزالَها في الجيوب. في لعبة الـ «كرة رقم ٨»، كرةٌ سوداء تحمل الرقم ٨ يجب أن تكون آخرَ كرةٍ يُسقطها اللاعبُ في الجيْب. (م)

سلَفًا ويسيطر عليه نظامٌ روتينيٌّ، ومَهْربًا من مواجهة البشر أو الأعمال أو المشكلات.

كان «البريدج» وألعابُ الورق عمومًا جزءًا من استعادته لعافيته بعد أزمة العام ١٩٤٢. «إنَّها وسيلةٌ للاسترخاء»، على نحوِ ما قال مرةً أو مرتين، واصفًا تسليةً تَشْغله ما لا يقلّ عن اثنتيْ عشرة ساعةً يوميًا خلال عطل الصيف، وأربعِ ساعاتٍ يوميًا خلال أيام العمل. ولستُ أَذْكر فراغًا باعثًا على اليأس كتلك الأوقاتِ التي أُضطرُّ فيها، وأنا بَعْدُ صبيٌّ، إلى مراقبته وهو يلعب الورق. حين أكون جالسًا إلى جانبه، كانت كلُّ ورقةٍ يَنْقفها على الطاولة، وكلُّ رهان، وكلُّ تشريحٍ مقتضبٍ يمارسه للدورة المنقضية، تُكرِّس خضوعي العقليَّ والمعنويَّ له وتُفاقم من إحساسي بسطوته عليّ. كان لا يوجِّه إليَّ كلمةً واحدة، ولا يَلفت نظري إلى ما قد يكون مثيرًا في الأوراق التي بيده؛ لا شيء غيرُ الرتابة اللامتناهية لمباراة لعب الورق، ورغبتِهِ الواضحةِ في أن أَحْضرها لأسبابٍ لم أتبيَّنْها بعدُ.

كان الوقوفُ أو الجلوسُ قربه خلال السنوات الأولى بعد حادثة العام ١٩٤٢ بمثابة عقوبةٍ لي على إساءة التصرُّف، وفكرةٍ بدائيَّة تفتَّق عنها ذهنُ والديَّ لإبعادي عن المشاكل عندما لا أكون في المدرسة أَوْ (وهو أمر أسوأ) خلال عطل الصيف في لبنان. وكان إجباري على مشاهدته يلعب الطاولةَ أو البريدج لساعاتٍ متواليةٍ تجربةً مخدِّرةً للذهن. بل إنَّ تلك الفترات من الملل الإلزاميّ كانت مطالعَ خطةٍ أشملَ للحدِّ من طاقتي على الشيطنة: «وديع، أرجوك، خُذِ الصبيَّ معك»، تقول أمي يائسةً، «إنَّه يسبِّب لي مشاكلَ كثيرةً». وحين لا تكون خدماتُ وديع متوافرةً، تُرْسلني أمي في مهمّةٍ طويلةٍ وعبثيةٍ، أو تأمرني: «اِخْلَعْ ثيابَك واذْهبْ فورًا إلى السرير». ومعلومٌ أنَّ الكتب والموسيقى وسائرَ أنواع التسلية ممنوعةٌ في السرير، ومثلُها الطعامُ والشراب. وممنوعٌ أيضًا إقفالُ باب غرفة نومي، وهو ما يَسْمح لأمي باقتحامها دون معوّقات ودون سابقِ إنذارٍ لتتأكد من أنّي متقيِّد بالتعليمات. أما الفائدة الوحيدة من تلك العقوبات القاتلة فهي أنِّي اكتشفتُ ثلاثة أحجار شطرنج في مؤخرة أحد الأدراج، فأخذتُ أتمرّن على رميها والتقاطها، حتى تعلّمتُ بمفردي فنَّ التلاعب البهلوانيّ بالكرات الثلاث.

ظننتُ أول الأمر أنّ ممارسات والديّ التأديبية ترتبط بالعُطَل المديدة، عندما تُغري فتراتُ الفراغ المطوّلة شخصي الفضوليُّ والمتشيطِنَ بأن يَخْرق المحرّمات. على أنها مالبثت أنِ امتدت إلى حياتي في القاهرة أيضًا. والحال أني كنت أملك مَعِينًا لا ينضب من الفضول نحو البشر والأشياء على حدٍ سواء. فتنزل بي العقوبات لقراءتي الكتبَ الممنوعة، والأدهى عندما يُلقى القبضُ عليّ مطالعًا في ألبُومات التواقيع ودفاتر الملاحظات والكرّاسات والأشرطة المصوّرة والعجالات والمدوّنات العائدة لشقيقاتي وزميلاتهن ووالديّ. وكان الحُكْم الصادرُ عليّ باستمرار هو «الفضول قتّال»، على أنّي كنتُ بذلك أسعى للانعتاق من الأقفاص المختلفة التي حُبِستُ فيها، وهو ما أورثني شعورًا دائمًا بالتذمر، إلى أن صِرتُ أجدني كريهًا إلى حد كبير. ولما كنتُ مجبرًا على أداء فروضي المدرسية وممارسةِ الألعاب الرياضيةِ ككرة القدم مثلاً – وقد سجلتُ فيها إخفاقات مدوّية – ومجبرًا على أن أكون في الآن ذاته الابنَ والشقيقَ المطيع والمتمِّمَ لواجباته الدينية، فقد بدأتُ أستمدّ لذةً سرية من ممارسةِ (أو قول) كلِّ ما من شأنه مخالفةُ القواعد او تجاوُزُ الحدود التي يَفْرضها أهلي. كنتُ دائمًا أتناوص من خلف الأبواب المشقوقة، وأطالع الكتبَ باحثًا عما أُخْفِيَ عني، وأُنقِّبُ في الأدراج والخزائن ورفوف الكتب والأظرف البريدية وقصاصات الورق علّني أجد شخصياتٍ تتلاءم خلاعتُها الآثمةُ مع شهواتي.

وسرعان ما شُغفتُ بفعل الاستكشاف الذي توفِّره القراءةُ. وقد كان نصفُ نشاط العائلة التجاريّ في فلسطين – «شركة التعليم الفلسطينية» – يتعلق ببيع الكتب، وقسمٌ صغيرٌ منه يتعلق بنشرها. على أنّ أبي أدار في مصر، بالشراكة مع ابن عمه بولس وأولاده، شركة مكرّسة كليًا للتجهيزات المكتبية والقرطاسيات، يبيعون قسمًا منها في القدس وحيفا أيضًا. وفي كل زيارة يقوم بها أحدُ أفراد عائلتنا إلى القدس، كنتُ أتلقّى هدايا من الكتب المناسِبة مستلّةً مباشرةً من على الرفوف، وهي لا تزال تحمل ملصق الأسعار وبطاقات التعريف. وقد انقسمتْ تلك الكتب المناسِبة إلى فئتين عامتين: كتب الأطفال من نمطِ ما هو صادرٌ عن أ. أ. ميلنه وإنيد بلايتون، وكتب معلومات مفيدة مثل **كتاب كولِنز لمعارف الشباب** الذي أُهدي إلي وأنا بين التاسعة والعاشرة. وقد وفّر لي ساعات طويلة من التسلية وأنا أحاول هتك أسرار تلك المسمّاة «كاليتا»، وهي «فقيرة» هندية تجترح المعجزات من حيث استعراضُ

القوة ومعاقبةُ الذات في «سيرك بِرترام ميلز». لم أكن قد زرت السيرك بعد - إذْ لم يظهر «سيرك تونيي» في القاهرة إلا بعد أربع سنوات - ولا كنتُ أدري كيف تكون الحياةُ في سِيركٍ أوروبيّ، باستثناء ما ورد عنه من إشارات مقتضبة في مؤلفات السيد غاليانو، الصادرة عن دار بلايتون. كان حسبي أنّ «كاليتا» غامضة الأصل وأنها - في الصور المنمنمة والمحبحبةِ السطح والمشوّشة التي ترافق النص - ترتدي ما بدا أنه ثوبٌ من قطعتين لم أشاهدْ مثيله من قبل، وهي قادرة على تطويع جسدها للقيام بحركاتٍ مذهلةٍ تفوق الخيال.

شكّل كل ذلك خرقًا أكيدًا لقواعد الأدب والحشمة الصارمة التي كنتُ أرْزح تحتها. ثم إنّ التواءات جسدها كانت متفارقةً مع قوانين الطبيعة؛ وهذا ما زادها إثارةً. فالكتاب يصفها مستلقيةً على ظهرها تحمل كتلةً حجرية ضخمةً على بطنها العاري، ويقف خلفها رجلٌ نصف عارٍ يعتمر عمامةً ويحمل مطرقةً جبارة يهوي بها على الحجر. وإذا بصورةٍ كاملةٍ للمشهد، مع المطرقة متوقفةً في منتصف الطريق إلى بطنها، تؤكد المأثرة. وكانت «كاليتا» قادرة أيضًا على السير حافية على الزجاج المكسور، والاستلقاءِ على سرير من المسامير. على أنّ مغامرتها الكبرى كانت أن تُدْفن تحت الأرض دقائقَ عدة. وها هي صورةٌ أخرى تمثّلها مرتديةً ثوبَ السباحة، ترتسم على وجهها ابتسامةُ الارتواء الشهوانيّ، فيما هي تحمل تمساحًا ضخم الجثة ومخيفًا إلى أبعد حد.

قرأتُ وأعدتُ قراءة الصفحات الثلاث المطبوعة على ورق محبحب عن «كاليتا»، وتفحصتُ وأعدتُ تفحصَ الصورتين اللتيَن كانتا تنتزعان إعجابي كلما فتحتُ الكتاب. والمفارقة أنّ نواقص الصورتين - حجمَهما المنمنم، واستحالةَ تمييز جسد المرأة فيهما بوضوح، والبُعادَ المنفّر بينهما وبيني- سيطرتْ عليّ، بل فتنتني لأسابيع وأسابيع. فحلمتُ بأني عرفتُ «كاليتا»، وأنها أخذتني الى مقطورتها وأرتني مزيدًا من مآثرها المروّعة (مناعتها تجاه أشكالٍ أخرى من الألم الحادّ، وأنماطٍ مجهولة من اللذة، بل ربما استمتاعها بالألم واللذة معًا، واحتقارها الحياةَ المنزليّةَ، ومقدرتها على الغوص إلى أعماق غير مألوفة، والتهامها الحيوانات الحيّة وامتصاصها الفواكه بطريقة مستنكَرة أخلاقيًا)، وأنها كلّمتني عن تحررها من الأحاديث المجامِلة ومن مسؤوليات الحياة اليومية. ومن خلال تجاربي مع كاليتا،

نَمَتْ عندي عادةُ التطويل الذهنيّ للحكايات الموجودة في الكتب، موسِّعًا حدودَها بحيث أصير داخلها، فأدركتُ تدريجيًا أني بذلك أستطيع أن أكون مؤلِّف ملذاتي، ولاسيّما تلك التي تنأى بي أبعدَ ما يمكن عن تسلّط العائلة والمدرسة الخانقتَيْن. فأصبحتْ قابليتي لأن أتظاهر بأني أدرس أو أقرأ أو أتمرن على البيانو فيما أنا، في الوقت ذاته، أفكر في أشياء مغايرة تمامًا وحميمية جدًا، مثل «كاليتا»، من مميّزات حياتي، وتزعج أساتذتي وأهلي، ولكنها تثير فيّ الإعجابَ بالنفس.

كان ثمة مصدران للحكايات التي أمكنني الشطحُ فيها: الكتُب والأفلام. حكايات الجنّ والقصص التوراتيّ، قرأتْها لي أمي وجدتي، لكني تلقيتُ، هديةً لعيد ميلادي السابع، كتابًا عن الأساطير الإغريقية فَتَحَ أمامي عالمًا بأكمله. ولم يقتصر الأمر على الحكايات ذاتها، وإنما تعدّاها إلى العلاقات التي يمكن إقامتها بينها. «جيسون» و«الارغونوط»، «پيرسيوس» و«عقدة الغورغون»، «ميدوزا» و«هرقل» ومغامراته الاثنتا عشرة[1]: هؤلاء كانوا أصدقائي وشركائي وأنسبائي وأبناء عمومتي وأبناء خؤولتي وأساتذتي («شيرون» مثلاً[2]). عشتُ برفقتهم، وتخيّلتُ بدقةٍ متناهيةٍ قصورَهم وعرباتهم والسفنَ ذوات صفوف المجاذيف الثلاثة. وتصوّرتُهم وقد فرغوا من قتل الأسُود والمُسوخ. حَرَّرتُهم ليعيشوا في نعمةٍ وفيرة منعتقين من الأساتذة البغيضين والأهل المستبدين، فإذا «پيرسيوس» و«جيسون»، يتحادثان في رواق خيالي: «پيرسيوس» يعبّر لـ«جيسون» عن مشاعره إزاء مشاهدة «ميدوزا» على درعه، و«جيسون» يخبره عن ملذّات «كولشيس» وكلاهما يَعْجب كيف قَتَلَ هرقل الأفاعي وهو بعدُ في المهد.

أما المصدر الثاني للحكايات فكان الأفلام، ولاسيّما مغامراتُ ألف ليلة وليلة التي يمثِّل فيها بانتظام جون هول وماريا مونتيز وطورهان بيك وسابو، ومسلسلُ

---

١ - **الغورغون**، ثلاث شتيتات لهن افاعٍ بدلاً من شَعر الراس، الناظر اليمن يتحوّل إلى حجر. **ميدُوزا** إحدى تلك الشقيقات التي صرعها **پيرسيوس**. وهذا الأخير هو ابن زَفْس ودانيا، تزوّج من اندرومادا بعد أن انقذها من الوحش البحري. **جيسون** أمير قاد بحّارة **الأرغونوط** بمساعدة ميديا، للعثور على **النَعْجة الذهبية** التي كانت معلّقة في مغارة مقدّسة يحرسها تنّين في بلاد **كولشيس** الواقعة في جبال القفقاس على البحر الأحمر. **وهرقل** هو ابن زَفْس والِكْمان المشهور بقوّته الجسديّة. (م)

٢ - **شيرون** هو الأوفر حكمة بين **الصانطورات**، وهي كائنات اسطورية نصفها الأعلى ادمي ونصفها الأسفل حصان. اشتهر ببراعته في الطب وكان معلِّم هرقل وأخيل. (م)

«طرزان» لجوني ويسمولر. عندما يرضى عني الأهل، تشتمل متعُ يوم السبت على حضور حفلة سينما بعد الظهر، ... شرط أن تتولى أمي المتطلّبةُ اختيارَ الفيلم، طبعًا. الأفلام الفرنسية والإيطالية محظورة، بطبيعة الحال، وأما المسموحُ من أفلام هوليوود فهو ما تُفتي أمي أنه «مناسِب للأطفال». وهذا يشمل أفلامَ لوريل وهاردي، والعديدَ من أفلام آبوت وكوستيللو وبيتي غرابل وجين كلي ولوريتا يونغ، وغيرَها من الأفلام الموسيقية والكوميديات العائلية، التي يمثِّل فيها كليفتون وِبّ وكلوديت كلوبير وجينيفر جونز (ذاتُ الأداء المقبول في «أغنية برناديت» والرديء جدًا في «الخارج عن القانون»)، وتخييلاتِ والت ديزني، وأفلامَ ألف ليلة وليلة التي كانت تحوز الرضى إذا مثَّل فيها جون هول وسابو (وتثير العبوسَ إذا كانت من تمثيل ماريا مونتيز)، ناهيك عن أفلام الحرب وبعض أفلام رعاة البقر. وكان الجلوسُ في مقاعد السينما الوثيرة أكثر منه مشاهدة أفلام هوليوود بذاتها - التي أجدها لونًا هجينًا من قصص الخيال العلميّ لا يقابلها شيءٌ في الحياة الحقيقية - هو مصدر استمتاعي المترف بحريتي المكرّسة في أن أرى الناس من دون أن يراني أحد. لاحقًا، شغفتُ بكل عالم طرزان كما جسّده جوني ويسمولر، ولكني شغفتُ بنوعٍ خاصٍ بزوجته جين، بشهوانيتها العذرية، في فيلم «طرزان وزوجته» على الأقل، وهما يَثِبان مرحًا في عشّهما الحميم المبنيّ على أغصان الشجر، حيث تبدو أسبابُ الراحة الحِرفية فيه كأنها تقطيرٌ مبسّطٌ وصافٍ لحياتنا كعائلة متوحدة في مصر. وما إنْ تظهر كلمة «النهاية» على الشاشة، في «ابن طرزان» أو «كنز طرزان السرّي»، حتى يشطح بي الخيالُ، فأروح أروي ما تلا ذلك من أحداث للعائلة الصغيرة في عشّها على الأشجار وكيف تولوا تربية «السكان المحليين» وصادقوهم، ومَن زارهم من أقارب جين والحيَل التي علّمها طرزان للصبيّ «بوي»، وهلمّ جرًا. ومنتهى الغرابة في الأمر، أنه لم يخطر في بالي قط أنّ علاء الدين وعلي بابا وسندباد السينمائيين - الذين حاكيتُ محاكاةً كاملةً الجنَّ الذي يراودهم وأصدقاءهم من أهل بغداد إضافةً إلى السلاطين في الاستيهامات التي الجأ إليها هربًا من دروسي- لم يكونوا يجيدون العربية بل يتكلمون الإنكليزية بلكنةٍ أميركية ويتناولون أطعمة غامضة، ولعلها من صنف الـ«سويت ميتس»... أم تراها أشبه بيخنات الأرزّ وشرائح لحم الضأن؟ هذا ما لم أستطع أن أتبيّنه قط.

اختبرتُ خلال السنة الأولى من دراستي في «مدرسة الأطفال الأميركيين» في القاهرة، وأنا بعدُ في العاشرة والنصف، إحدى برهات الحبور النادرة قبل بلوغي الثامنة عشرة: كنتُ أقف عند أول محطة على السلّم الكبير، مشْرفًا على غرفة مليئة بالوجوه، أروي بمهارة فائقة حكايات «جيسون» و«پيرسيوس» مستمتعًا بتفاصيلها النيّقة اللامتناهية – هوية «الأرغونوط» و«النعجة الذهبية» وأسباب المصيبة التي حلّت بـ«ميدوزا» وتكملة قصة «پيرسيوس» و«آندرومادا» – متنعمًا لأول مرة بأفراح الإبداع الأدبيّ والانعتاق وقد حُرِمتُهما في دروس الفرنسية والانكليزية والتاريخ وأنا الضعيف فيها جميعًا إلى أبعد حدٍّ. وكان لي من الطلاقة والتركيز في رواية تلك الحكايات والتفكّر فيها ما منحني لذّة فريدة لم أكن لأعثر عليها في أيّ مكانٍ آخر في القاهرة.

وكنتُ قد بدأت أيضًا في تذوّق الموسيقى الكلاسيكيّة بجدية كبيرة. على أنّه في تعلّمي دروسَ البيانو، وقد بدأتُها في السادسة، اختُزِلَتْ مَلَكَتَا الذاكرة والميلوديا عندي إلى التدرّب على السلالم الموسيقية وممارسة تمارين «سزيرني»[1]، وأمي حادبة عليّ أو جالسة إلى جانبي. فكانت النتيجة شعوري المتزايد أنّ ثمة ما يعوق تنمية شخصيتي الموسيقية. لم أشترِ الأسطوانات، ولم أستمتع بحفلات أوبرا أختارها بنفسي قبل بلوغي الثامنة عشرة. ولما كان موسمُ القاهرة الموسيقيّ للأوبرا والباليه محظورًا عليّ، فقد لجأتُ إلى ما تقدمه الـ«بي بي سي» والإذاعةُ الحكومية المصرية من برامج، وكانت متعتي الكبرى الاستماع إلى برنامج للإذاعة البريطانية من خمس وأربعين دقيقة يذاع بعد ظهر يوم الأحد بعنوان «ليالٍ في الأوبرا». وقد اكتشفتُ باكرًا جدًا، من خلال **الكامل في الأوبرا** لغوستاف كوبيه، أني أكره ڤيردي وپوتشيني، لكني أهوى القليل مما أعرفه عن شتراوس وڤاغنر اللذيْن لم أشاهد أعمالهما الأوبرالية إلا حين شارفتُ على نهاية المراهقة.

١ ـ كارل سزيرني (١٧٨١ ـ ١٨٥٨) موسيقيّ نمساويّ. (م)

الفصل الثالث

يُفترض بالأساتذة أن يكونوا إنكليزًا، أو ذلك ما كنتُ أظنه. وقد يكون التلامذة إنكليزًا هم أيضًا إنْ كانوا محظوظين؛ وإنْ لم يكونوا محظوظين، كما هو حالي، فلن يكونوا من الإنكليز. درستُ في «مدرسة الجزيرة الإعدادية» من خريف ١٩٤١ إلى حين مغادرتنا القاهرة في أيار ١٩٤٢، وعدتُ إليها مجددًا من أوائل ١٩٤٣ إلى ١٩٤٦ وبينهما فترة أو فترتا انقطاع طويلتان بعضَ الشيء في فلسطين. في تلك الأيام، لم يكن في المدرسة أيّ أستاذ مصريّ، كما لم أَعِ أيّ حضورٍ عربيٍّ مُسلم: فالتلامذة أرمن ويونانيون ويهود مصريون وأقباط، إضافة إلى عدد غير قليل من أولاد الإنكليز، بمن فيهم كثرةٌ من أبناء الأسرة التعليمية. ومن أبرز المعلِّمين اثنان: مِسِز بولين، رئيسة المدرسة، ومِسِز وِلسون، كبيرةُ المعلمات، المتعددةُ المهمات والكليةُ الحضور. والمدرسة كناية عن ڤيللا كبيرة من ڤيللات الزمالك، كانت معدّةً سابقًا للسكن الرخيّ، فحُوِّلَتْ طبقتُها الرئيسية إلى قاعات عدة للدراسة، ندخلها كلُّها من بهوٍ مركزيّ يفضي إلى منصةٍ في أحد طرفيه، وإلى بوابةِ دخولٍ مهيبةٍ في الطرف الاخر. يرتفع البهو الزجاجيُّ علوَّ طابقيْن، وهو مزنّرٌ بدرابزون تحيط به مجموعةُ غرفٍ تقع مباشرةً فوق قاعات الدرس المخصصة لنا. لم أغامر بالدخول إلى تلك الغرف إلا مرةً واحدة، ولم تكن النتيجة سعيدة. فقد صدمتني الغرفُ العلوية لكونها أماكن سرية تنعقد فيها اجتماعاتٌ إنكليزية غامضة. هناك تجد المِستر بولين المرهوبَ الجانبِ، وهو رجل أحمر الوجه، وقلما تصادفه في الطبقة الأرضية.

لم يكن لي أن أعرف آنذاك أنّ الرئيسة مسز بولين، التي كانت ابنتُها في الصف الذي يعلو صفّي مباشرةً، لم تكن في مصر بصفتها مربّية وإنما بصفتها صاحبةَ امتيازٍ مدرسيّ وتَمْلك رخصةً لإدارة «مدرسة الجزيرة الإعدادية» لحساب «المجلس الثقافيّ البريطانيّ». وبعد ثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢، فقدتِ المدرسةُ تدريجيًا طابعها الأوروبيّ. وعندما انفجرتْ أزمة السويس عام ١٩٥٦ كانت قد تحولتْ إلى شيء آخر تمامًا. وهي اليوم مَدْرَسةُ تدريبٍ مهنية تعلِّم اللغات للبالغين وقد زال كل أثر لماضيها الإنكليزيّ. بعد ذلك، ظهرتْ مسز بولين وابنتها في بيروت رئيستيْ مدرسة إنكليزية أخرى، ولكنْ يبدو أنهما أصابتا نجاحًا أقل من نجاحها في القاهرة، فصُرِفتا من العمل لانعدام الكفاية وصُرِف مستر بولين بدوره لإدمانه الكحول.

كان لـ«إعدادية الجزيرة» موقعٌ مناسبٌ في شارع عزيز عثمان، شارعِنا القصير نسبيًا في الزمالك، الذي لا يتعدى مسيرةَ ثلاثة صفوف من الأبنية تحديدًا. وكان الزمن الذي يستغرقني للذهاب إليها والعودة إلى البيت منها يثير دومًا إشكالاً مع أساتذتي وأهلي، وهو إشكالٌ ارتبط في ذهني ارتباطًا لا ينفصم بكلمتين هما: «التسكُّع» و«الكذب»، وقد أدركتُ معناهما لارتباطهما باجتيازي المتعرج والمليء بالتخييل لتلك المسافة القصيرة. جزء من تلكُّئي كان بسبب تأخير وصولي إلى أيّ من طرفي الشارع. وجزؤه الآخر كان بسبب افتتاني بالبشر الذين قد ألتقيهم على الطريق، أو بلمحاتٍ من الحياة يتكشف عنها بابٌ مفتوح هنا وسيارةٌ مارّة هناك أو مشهدٌ قصير على شرفة هنالك. ولمّا كان يومي يبدأ في السابعة والنصف، فقد كانت مشاهداتي موسومةً لا محالةَ بنهاية الليل ومطلع النهار: الغَفَر المتدثّرون بزيّهم الأسود وهم ينزعون عنهم ببطء الأغطيةَ والمعاطف الثقيلة، والسُفْرَجيِّة الناعسون يحثّون إلى السوق لشراء الخبز والحليب، والسوّاقون يجهّزون السيارات العائلية. نادرًا ما شاهدتُ بالغِين من نوع آخر في تلك الساعة، خلا والدًا يواكب طفله، بين حين وآخر، إلى «إعدادية الجزيرة» مرتديًا الزيّ المكوّن من قبعة وسروال وسترة رياضية كلُّها رماديةُ اللون مع حواشٍ مزيّنةٍ بطيّات زرقاء فاهية. وأكثر ما كان يستهويني في تسكعي أنه يمكّنني من تطوير تلك المادة الشحيحة من المشاهدات الماثلة أمامي. فثمة امرأة صهباء، شاهدتُها بعد

ظهر أحد الأيام، أَقْنَعتني، بمجرد عبورها إلى جانبي، بأنها قاتلةٌ بواسطة السُمّ ومطلّقة (وكنتُ قد سمعتُ الكلمة مؤخّرًا من دون أن أفقه معناها تمامًا). والرجلان اللذان التقيتهما يمشيان الهوينى ذاتَ صباح لا شك أنهما من جهاز التحرّي. وتخيّلتُ أنّ الزوجين الواقفين على الشرفة فوقي ويتكلمان الفرنسية قد انتهيا للتوّ من تناول فطور سخيّ مع الشامبانيا. وكان تخييلي عن حيوات الآخرين وخصوصًا بيوتهم مبعثُه انحباسي الضيّقُ في حياتي وبيتي. فأنا أستطيع أن أعدّ على أصابع اليد الواحدة عددَ المرات التي دخلتُ فيها شقة زميل أو بيتَه فترةَ نشأتي. ولا أتذكر مناسبةً واحدة زارني فيها في بيتي صديقٌ من المدرسة أو النادي، ولعلّ كلمة «صديق» مبالغٌ فيها لوصف الأطفال الأرباب الذين عاشرتُهم. ومن هنا كان شغفي المبكر والأكثر استغراقًا يتجسّد في رغبةٍ لا تقاوَم لتخيّلِ ما قد يكون في داخل بيوت الآخرين: هل تشبه غرفُهم غرفَنا؟ وهل تعمل مطابخهم بالطريقة التي يعمل بها مطبخنا؟ وماذا تحتويه خزائنُهم وأمتعتُهم وكيف هي مرتّبة؟ وما إلى ذلك، وصولاً إلى أدق التفاصيل - مناضد الليل، الراديو، المصابيح، رفوف الكتب، البُسُط، إلخ... وإلى حين مغادرتي مصرَ عام ١٩٥١، ظللتُ أفترضُ أنّ ارتهاني البيتيّ هذا كان «لصالحي» وإنْ بطريقة مبهمة جدًا. ثم أدركتُ أنّ نمط الانضباط الذي فرضه أهلي عليّ كان يستوجب أن أرى إلى حياتنا وبيتنا بوصفهما القاعدةَ، بمعنى ما، لا كما كانا فعلاً: حياةً وبيتًا معزولَيْن على نحوٍ لا يصدّق، بل يكادان أن يكونا اختباريَيْن.

ومن المهارب النادرة التي سنحتْ لي أحيانًا الذهابُ إلى التزلج صباحَ السبت في حلبة تدعى الـ«ريالتو» قرب «الفرع ب»، وهو محل صغير يديره أبي في شارع فؤاد الأول مخصَّصٌ أساسًا لبيع أقلام الحبر والهدايا الجلدية الثمينة. وكانت تلك منطقة مكتظة تعجّ بالمحالّ والمخازن الكبرى: هنا «شملا» و«شيكوريل» عبر الشارع، وهناك «بول فابر»، محل بيع الأحذية الكبير، محاذيًا «الفرع ب»، حيث نشتري أحذيتنا الصيفية (صنادل وأخفافًا) والشتوية (أحذيةً مزرّرة أو ذاتَ أربطةٍ سَوْداءَ أو بُنّيةً غامقة) من موظفٍ أرمنيّ في منتصف العمر، متعبٍ ومشورَبٍ يرتدي صدرةً ويتكحّل بالكحل الأخضر. أما أحذية التنِس و«الموكاسان» فكانت «سيئة»، ومن ثم محظورةً على الدوام.

تبدأ المدرسة دائمًا في البهو الكبير بإنشاد التراتيل - وكان الترتيلان الأكثر شيوعًا بينها هما «كل الأشياء المشرقة والجميلة» و«من أعالي جبال غرينلاند المجلّدة» - ترافقنا على البيانو مِسِزّ ولسن، الكليّةُ الكفايات، بإشراف مِسزّ بولين، ذاتِ العِظات اليومية المتعالية والمتخمة، أسنانُها البريطانية المسوّسة وشفتاها المزمومتان تكوِّن الكلماتِ بنفورٍ أكيد وتلقيها على مجموعة هجينة من الأطفال الشاخصين أمامها. ثم نسير في أرتال إلى قاعات الدرس لتلقّي دروس الصباح الطويلة. أُولى معلماتي في «إعدادية الجزيرة» مسزّ ويتفيلد، التي كنت أشك في أنها إنكليزية مع أنها كانت بارعةً في تمثيل ذلك الدور. ثم إني حسدتها على اسمها. ابنها روني، مثله مثل أبناء ولسن، كان مسجّلاً في الإعدادية (لمسزّ ولسن ابن، هو ديكي، وابنة، هي اليزابيث، ولمسز بولين ابنتها آن طبعًا)، وجميعهم أكبر مني سنًا، وهذا ما عزّز من امتيازات الأنَفَة والتعالي لديهم. الدروس والكتب إنكليزية على نحو ملغز، نتعلّم فيها عن المروج الخضر والقصور وعن الملوك جون وألفرد وكانوت، بالجلال الذي يستحقونه، حسبما يذكّرنا معلمونا بلا انقطاع. لم يكن عالمهم يعني لي الشيء الكثير عدا إعجابي بإنتاجهم اللغةَ التي يستخدمونها، وقد بدأتُ أنا العربيُّ الصغير أتعلّم عنها بعضَ الأشياء. تجدهم يولون أهميةً مبالغًا فيها لمعركة هايستنغز ولشروح مستفيضة عن الأنْغِلْز والساكسون والنورمان. وإنْ انسَ لن أنسى إدوارد المعترِف، ذلك الشيخَ النبيلَ الملتحي المستلقي على ظهره ملتحِفاً عباءةً بيضاء، ربما لأنه اعترف بما لم يكن يجدر الاعترافُ به. ورغم تماثل الاسميْن، لم تنشأ صلةٌ منظورة من أيّ نوعٍ بيني وبينه.

تخللتْ دروسَ الأمجاد الإنكليزية تلك تمارينُ متكررة في الكتابة والحساب والإلقاء. ولأني كنتُ، آنذاك كما أنا الآن، منجذِبًا على نحوٍ متهوّرٍ إلى الكتابة بقلم حبرٍ يُنتج خربشة بشعة إضافةً إلى إحداثه العديدَ من اللطخات والبُقع، فقد كنتُ متّسخ الأنامل على الدوام. وكانت مسز ويتفيلد خصوصًا تنبّهني بنبرةٍ حادّةٍ إلى تجاوزاتي اللامتناهية: «اِجلسْ مستقيمًا وقمْ بواجبك على نحو صحيح»، «لا تتململ»، ثم تضيف فورًا «واصِلْ عملك». ومن ملاحظاتها الحاسمة المألوفة :«لا تتكاسل». فإلى يساري تجلس التلميذة النموذجية آرليت، وإلى اليمين ناكي ريغوبولوس المطيع النجيب. وحولي أبناء غرينفيل وكوپر وپيلليه، وهم صبيان وبنات

إنكليز مهفهفون ذوو أسماء يُحْسَدون عليها وعيونٌ زرق ولَكْنات فطنة بتّارة. لا أذْكر كيف كانت لكنتي في تلك الأيام، لكن الأكيد أنها لم تكن إنكليزية. والغريب في الأمر أنهم كانوا يعاملوننا جميعًا على اعتبار أنه يجب أن نكون - أو أننا نرغب في أن نكون - إنكليزًا، وهو برنامج لم يُثِرْ أيّ اعتراضٍ من ريك ورالف وديريك، وبدرجة أقل من المحليين من أمثال ميشلين ليندل وديڤيد عدس ونادْيا الجندي والداعي.

وكنا نقضي جلّ وقتنا خارج الصفوف في باحة صغيرة مسوَّرة منعزلةٍ عزلةً تامةً عن شارع فؤاد الأول، وهو الشارعُ الرئيسيّ الضاجّ الذي يصبّ فيه شارع عزيز عثمان، حيث يقع بيتُنا في الأسفل إلى اليسار. وكان شارع فؤاد الأول مرصوفًا بالمحال التجارية وبسطات الخُضَر ويعجّ بحركةِ سيرٍ قويةٍ، يخترقه خطُّ تراموای ضاجّ وتَعْبره حافلاتُ النقل العام بين حين وآخر. ولم يكن ذلك الشارع مدينيًا صرفًا ومزدحمًا وحسب بل كان ينطلق أيضًا من أحياء القاهرة القديمة ويَعْبر إلى الزمالك من البولاق، ثم يجتاز الـ«جزيرة» الأنيقة، الهانئةَ في ثرائها، حيث نَسْكن، ليختفي أخيرًا عبر النيل في إمبابا، وهي نقيض مزدحم آخر للزمالك ذاتِ السكان الأجانب والشوارعِ الهادئة المرصوفة بالأشجار والمصمّمة بعناية والخالية من المحلات التجارية، من مثل شارع عزيز عثمان. في «إعدادية الجزيرة»، كان «الملعب»، كما يسمونه، يشكّل الحدُّ الفاصل بين العالم المدينيّ المحليّ وبين الضاحية الكولونيالية المصطنعة حيث نعيش وندرس ونلعب. وقبل بدء الدروس، ننتظم في طوابير في الباحة، كلٌّ بحسب صفّه، ثم نعود إلى الاصطفاف عند الاستراحات والغداء والانصراف. والدليل على عمق الانطباع الذي خلَّفتْه تلك التمارينُ في نفسي أني لا أزال أذكر إلى الآن أنّ اليسار هو الجهة الأقرب إلى مبنى المدرسة، وأنّ اليمين هو جهة شارع فؤاد الأول.

نصطف في «الملعب» بانتظارِ أن يتم عدُّنا واستقبالُنا ثم صَرْفُنا: «صباح الخير، يا أولاد» أو «مع السلامة، يا أولاد». على أنّ ذلك الطقس المهذّب كان يخفي مشقّات الوقوف في الطابور، حيث تجري كافةُ الأمور الكريهة. ومع أننا كنا ممنوعين من التفوّه بكلمة في الطابور، اللهم إلا جوابًا عن أسئلة المعلّمة، فقد كان أشبه ببازار ومزاد علنيّ ومَحكمة يجري فيها تبادلُ أصناف العروض والوعود الأكثر تهوّرًا حيث يتنمّر الكبارُ على الصغار ويتهددونهم بأقسى العقوبات. وكان

مُعَذِّبي بنوعٍ خاصٍ هو دايڤيد عدس، وهو صبيٌّ أسمر مفتول العضلات، يَكْبرني بسنتين أو ثلاثِ سنوات، ويستهدف بشراسةٍ أقلامي الحبرَ ومقلمتي وسندويتشاتي والحلوياتِ التي يريدها لنفسه، ويتحدى على نحوٍ مخيفٍ كلَّ شيء يخصني وكلَّ ما أفعله. فكنزاتي لا تروق له، وجواربي أقصرُ مما يجب، وهو يكره سحنتي ويعترض على طريقتي في الحكي. وهكذا كان الرواحُ إلى المدرسة والإيابُ منها بمثابة تحدٍّ يوميّ لي كي أُفلت من قبضة دايڤيد أو من الكمائن التي يَنْصبها لي، وقد نجحتُ في المهمتين كلتيهما طوال سنوات دراستي في «إعدادية الجزيرة». على أني لم أستطع التملّص منه في الطابور، حيث يُغَضّ النظرُ عن السلوك الفظّ، على رغم حضور الناظرة، فيَهْمس عدس ويغمغم تهديداتِه لي وتبرُّمَهُ العامّ مني عبر صفٍّ من الأولاد المتململِين يَفْصل بيننا لحسن حظي.

استبقيتُ عبارتين من عدس في ذاكرتي: واحدةً ظللتُ أرددها ببغائيًا سنواتٍ في ما بعد – «إني أعِدُكَ» –، والثانيةَ لم أنسها لأنها كانت تثير فيّ خوفًا عظيمًا عندما يتفوّه بها: «سوف أهشّم وجهك بعد المدرسة». وكان يَلْفظ العبارتين، منفردتيْن أو مجتمعتيْن، بحماسٍ صادقٍ، كي لا أقول بلهجة الوعيد، مع أنه مضى شهرٌ على الأقل على أول مرة رماني بهما قبل أن ألاحظ فراغَ العبارتين وعدمَ قابليتهما للتحقيق. والحال أنّ «المدرسة» التي هدّد عدس أن يهشّم وجهي «بعدها» قد حَمَتْني منه، على رغم مناخها الطبقيّ الناعس والقمعيّ أحيانًا. وكان لدايڤيد أخ أكبر منه هو ڤيكتور، السبّاح والغطّاس المشهور الذي يرتاد «الكلية الإرسالية الإنكليزية» في مصر الجديدة؛ وكنتُ معجبًا أشدَّ الإعجاب بإنجازاته خلال المباريات المنعقدة في أماكن مختلفة من القاهرة كانت «إعداديةُ الجزيرة» تأخذنا إليها. ولكنْ لم يَرُقْ لي شكلُه مثلما لم يهفّ قلبي لأخيه دايڤيد الذي كان يَعْرض عليّ بين الحين والآخر أن ألعب معه بـ«الكِلِل».

جرّبتُ العبارتين في البيت – جرّبتُ عبارة «إني أعِدُكِ» على شقيقاتي، واما عبارة «سوف أهشّم وجهكَ بعد المدرسة» فقد جرّبتها أمام المرآة لأني جبنتُ من تجربتها على كائنٍ حقيقيّ. في المناوشات بيني وبين شقيقتيّ الكبْريين، كان «الوعد» يعني محاولةَ استقراضِ شيءٍ ما منهما («أعدك بأني سوف أعيده») أو بَذْلَ مجهودٍ لإقناعهما بـ«كذبة» مستحيلة التصديق أرويها لهما («أُقْسِمِ لكما بأني شاهدتُ اليومَ

المرأة الصهباء المجنونة التي تَقْتل بواسطة السمّ »!) . على أن أنطي ميليا منعتني من التلفظ بتلك العبارة قدرَ ما أرغب في ذلك، قائلةً إني يجب أن أتجاوز رتابتَها والنفاقَ الأبله الذي تنطوي عليه وأن أستعيض عنها بعبارة «أنّي أؤكد لك».

عندما كنتُ في الثامنة، طردتني إحدى المعلمات من الصفّ (لم يكن هناك معلِّمون ذكور في المدرسة) بسبب مخالفةٍ ما، وهي لم تكن تلجأ إلى العقاب الجسديّ عدا بعض القرعات الخفيفة بواسطة المسطرة على سلاميات اليد. تركتني المعلمةُ خارج الباب ثم استدعت مِسَزْ بولين، التي جرّتني جرًا، وهي متجهمةُ الوجه، نحو السلّم المؤدي إلى البهو الرئيسيّ. «إمشِ، إدوارد، عليكَ أن تقابل مستر بولين في الطبقة العليا!». مشت أمامي ثم توقفتْ عند أعلى السلّم وأمسكتني من كتفي اليسرى وقادتني إلى الباب المغلق قائلةً: «انتظِرْ هنا» ثم دخلتْ. ولم تمضِ برهة حتى عادت مؤشّرةً إليّ بالدخول، ثم أوصدت البابَ خلفي، وإذا أنا، لأول وآخر مرةٍ في حياتي، في حضرة المِستر بولين.

انتابني فزع مباغت من هذا الإنكليزيّ الضخم، الأحمرِ الوجهِ ذي الشعر الرمليّ اللون، وهو يشير إليّ بأن أتقدم نحوه. لم نتبادل كلمة، فيما رحتُ أقترب ببطء إلى حيث يقف قرب النافذة. أذْكر سترة زرقاء، وقميصًا أبيض، وحذاء من الجلد المزأبر، وخيزرانةً قصيرةً تقع في منزلة وسطى بين مهماز الخيل والعصا القصيرة. كنت متوجسًا، لكني أدركتُ، وقد بلغتُ ذروة الرعب، أنه لا يجوز أن أنهار أو أبكي. جذبني من قذالي ثم دفعني نحو الأسفل بحيث بتّ منحنيًا نصف انحناءة. ثم رفع الخيزرانة باليد الأخرى وهوى بها على مؤخرتي ثلاث مرات، فتعالى صفير الخيزرانة تشقّ الهواء أعقبتْها فرقعةٌ مكتومة حين أصابتني. كان الألم الذي شعرتُ به أقلّ من الغضب الذي سرى في أوصالي مع كل ضربة من الضربات التي سددها لي بولين وهو لا يزال ملتزمًا الصمتَ. مَنْ هو هذا الوحش البشع ليضربني على هذا النحو المهين؟ وكيف أمكنني أن أكون بلا حَيل إلى هذا الحد و«ضعيفًا» كل هذا الضعف – وقد بدأتْ هذه الكلمةُ تكتسب دلالة هامة في حياتي – بحيث تركتُه يعتدي عليّ ويفلت من العقاب؟

كانت تجربة الدقائق الخمس تلك لقائي الوحيد مع بولين. لم أعرف اسمه الأول ولا أيَّ شيء آخر عنه سوى أنه جَسَّد أول تجربة علنية لي في «القصاص»

الموضوعيّ. وعندما أبلغتْ إحدى المعلمات والديّ بالحادثة، قال لي أبي: «أترى، أترى كم أنت شيطان؟ متى تتعلم؟». ولم يبدر في نبرة صوته أو صوت أمي أيُّ اعتراض على بذاءة العقوبة ذاتها. أبي: «ندفع أموالاً طائلة لتذهب إلى أفضل المدارس، فلماذا تضيّع الفرصة على نفسك هكذا؟» فكأنه يتغاضى عن حقيقة أنه يدفع أمواله الطائلة للمستر والمسز بولين لكي يعاملاني على هذا النحو. أمي: «إدوارد، لماذا توقِع نفسك في كل هذه المشاكل؟».

هكذا أمسيتُ جانحًا، أنا إدوارد مرتكبَ المخالفات التي تستحق العقاب، من خمول وتسكّع، والذي يتوقّع دائمًا أن يُقبض عليه متلبّسًا بفعل محظور يستدعي الاحتجاز بعد الدروس أو، بعد ذلك حين كبرتُ، صفعةً قويةً من المعلّم. وقد منحتني «إعدادية الجزيرة» اختباري الأول لنظام مُحكَم أنشأه البريطانيون كمهمة كولونيالية. كان الجوّ جوَّ طاعة عمياء يؤطِّرها إذعانٌ بغيض عند المعلمين والتلامذة على حد سواء. ولم تكن المدرسة مثيرة بما هي مكان للعلم، ولكنّها زوّدتني بأول اتصال مديد مع السلطة الكولونيالية من خلال الإنكليزية القحة لأساتذتها وللعديد من التلامذة. ولم تكن لي علاقات متصلة بأولاد الإنكليز خارج المدرسة، ذلك أنّ حَبل سُرّة سُرّيًا كان يجمعهم ويخفيهم في عالم آخر مغلق عليّ. فأدركتُ تمام الإدراك كيف أن أسماءهم صحيحة تمامًا، وملابسهم ولكناتهم ومعاشراتهم مختلفة كليًا عن ملابسي ولكنتي ومعاشراتي. ولا أذكر أني سمعتُ أيًا منهم يشير مرة إلى «الوطن»، غير أني ربطتُ فكرة «الوطن» بهم، وإذا «الوطن»، بمعناه العميق، هو ما أنا مستبعد عنه. وعلى الرغم من أني لم أكن أحبّ الإنكليز أساتذةً أو نماذجَ أخلاقيةً، فإني لم أرَ في وجودهم في طرف الشارع أمرًا غريبًا أو باعثًا على القلق. كان ذلك ببساطة سمةً غيرَ مميزة من سمات القاهرة، المدينةِ التي أحببتها على الدوام دون أن أشعر مرةً بانتمائي إليها. ولقد اكتشفتُ أنّ شقّتنا كانت مستأجرة وأنه على الرغم من أنّ بعض أولاد «إعدادية الجزيرة» ظنوا أننا مصريون فقد كان ثمة ما هو «نشاز» وفي غير مكانه في أمرنا (وفي أمري أنا خصوصًا) دون أن أدرك تمامًا ما هو.

ظل بولين ساكنًا ذاكرتي، لا ينمو ولا يتحول، مثلَ الغُول في حكايات الأطفال. وهو بلا شك شخصية من شخصيات طفولتي لا دور له فيها سوى أنه

ضربني بالسوط بتلك البساطة. بعد خمسين سنة تمامًا، وخلال زيارة للقاهرة، كنتُ أتصفح كتابًا لباحث مصريّ عن مئتيْ عام من الاهتمام الثقافيّ البريطانيّ بمصر، فقفز اسمُ بولين في وجهي من إحدى الصفحات. كانت الإشارة إليه هذه المرة بوصفه كيث بولين، العضو في فريق من كتّاب بريطانيين ثانويين سكنوا القاهرة أيامَ الحرب وعُرِفوا باسم «شعراء السمندل». و«السمندل» هو عنوانُ مجلةٍ أدبية استوحت اسمها من ملاحظة تافهة لأناطول فرانس يقول فيها: «يجب أن يكون المرء فيلسوفًا لكي يستطيع رؤية السمندل». وفي مرحلة لاحقة، أرسل لي صديقٌ قاهريّ خَدُومٌ صورةً عن عدد آذار/مارس ١٩٤٣ من المجلة، وهو العدد الذي ظهر في الأسواق في الوقت الذي كان فيه المستر بولين يَجْلدني بالسوط، أو ربما كان يَجْلد صبيًا آخر. ولما تأكدتُ من أنّ مستر بولين الذي أعرف هو نفسُه كيث بولين، الكاتبُ في **السمندل**، فقد أخذتُ أقرأ ترجمته الإنكليزية، بالشعر الحرّ، لقصيدةٍ بعنوان «ساعات الصيف» لشاعرٍ يُدعى ألبرت سامين. وهاك مطلع القصيدة:

هاتِ الكأسَ الذهبية،

البلّور بلون الحُلم،

وحبّنا سوف يتفتّح

مفرِطاً، عنيفَ الأريج ...

وتلك هي الخاتمة:

معصورٌ خمرُ الصيف المذهّب

فليلطِّخِ الدراقنُ القرمزيّ المذبوحُ

بهاءَ نهدكِ الأبيض.

داكنةٌ الغاباتُ، خاويةٌ وعبثية ...

وهذا القلب الفارغ الذي لن يجد الراحة

يتوجّع بنشوة الألم.

ما أشد تكلُّف، بل حذلقةَ، هذا الشِعر، بكلامه وتركيبه المزخرفيْن («دراقنٌ قرمزيّ») ومشاعرِه المغالية وغير الواقعية بل والتافهة («يتوجّع بنشوة الألم»). وقد

أوحى إليَّ البيتُ الأول – «هاتِ الكأس الذهبية» – بأنه استعادةٌ كاريكاتورية لتجربةِ جَلْدي بالسوط على يد المستر بولين. فهل يُعقل أن يكون كيث قد باح بالكلمات التالية لزوجته حين كانت تَفْتح البابَ لإدخالي إلى الفَلَقة: «سوف يتفتّح حبُّنا، عنيفَ الأريج»؟. مهما حاولتُ، فلن أستطيع التوفيق بين الخضوع الصامت المرهوب الذي أُجبِرتُ جسديًا عليه، وهو يَجْلدني، وبين ذلك الشُوَيعِر المتكلّف الذي أَدّبني في الصباح وراح يَنْظم «ساعات الصيف» المقززة تلك بعدَ الظهر؛ وهو، إلى ذلك، شخصٌ رائعٌ ولا شك، يشنّف أذنيه بمقطوعات موسيقية لـ«شاميناد»[1] ليلاً.

بعد الفَلَقَة بوقت قصير، تعرضتُ لمواجهة كولونيالية أشدّ حدةً وسفورًا. ففي طريق العودة إلى البيت عند الغسق عَبْر أحد الحقول المترامية الأطراف لنادي الجزيرة، اعترضني إنكليزيٌّ يرتدي بذلةً بنيّةً، ويعتمر خوذةً قماشية، وتتدلى حقيبةٌ صغيرة سوداء من مقود درّاجته. كنتُ أعرف المستر بيلليه بسبب توقيعه «سعادة الأمين العام» للنادي ولأنّه والد رالف، زميلي في المدرسة. «ماذا تفعل هنا، يا ولد؟»، نهرني بصوتٍ بارد هزيل. «أنا راجع إلى البيت»، قلتُ، محاولاً التزامَ الهدوء، فيما أخذ يترجّل من على دراجته ويتقدم باتجاهي. «ألا تعلم أنه ممنوع عليك أن تكون هنا؟» سأل مؤنّبًا. فبدأتُ أُغمغِم شيئًا عن كوني عضوًا في النادي، لكنه قاطعني بلا رحمة: «لا تجاوبْ، يا ولد. غادرِ المكانَ فقط، وغادرْه بسرعة. ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربيّ!». وحتى لو لم يسبقْ أن فكرّتُ بنفسي بوصفي عربيًا، فقد أدركتُ مباشرةً آنذاك أنّ معنى النعت مُفْقِدٌ للأهلية حقًا. لم يَقْلق أبي كثيرًا عندما أبلغتُه ما قاله لي المستر بيلليه، واستطردتُ في مرافعتي قائلاً: «لم يقتنع أننا أعضاء [في النادي]». فقد جاء جواب أبي غير المُلْزِم: «سوف أتحدث إلى بيلليه في الأمر». ولم يُطْرَح الموضوعُ على بساط البحث ثانيةً: لقد فعل بيلليه فِعْلَته وأفْلَتَ من الحساب.

وشدّ ما يحزّ في نفسي الآن، بعد مضيّ خمسين سنةً، أنه على الرغم من أنّ الحادثة لازمتْني مدة طويلة جدًا وكانت مؤلمةً حينها، مثلما هي الآن، فقد بدا وكأنه يوجد عقدٌ استسلاميٌّ بيني وبين أبي توافَقْنا فيه على أننا ننتمي بالضرورة إلى

---

١ ـ مؤلفة موسيقية فرنسية من الدرجة الثانية. (م)

مرتبةٍ دنيا. كان هو يعرف ذلك، أما أنا فقد اكتشفته لأول مرة عندما جابهتُ بيلليه. غير أنّ أيًا منا، آنذاك، لم يجد أنّ الأمر يستحق نضالاً من أيّ نوع، ولا يزال ذلك الإدراكُ يُشْعرني بالخجل.

لم تتكشف لي تلك التفارقاتُ في المنظور والواقع إلا بعد عقودٍ من الزمن على مغادرتي «إعدادية الجزيرة». والحقيقة أنّ القليل القليل مما كان يحيط بي في المدرسة – من دروس وأساتذة وتلامذة ومناخ – قد وفّر لي أيَّ دعم أو مساندة. وأجملُ ذكرياتي عن سنوات «إعدادية الجزيرة» هي نهاية اليوم الدراسيّ عندما أجد أمي دائمًا في انتظاري لنتجاذب أطراف الحديث، فيما هي تغلّف ما تبقّى من نهاري بتفسيرٍ لكلِّ ما قد حدث. كانت تفسّر لي سلوك الأساتذة، مثلما تفسّر لي مطالعاتي، بل تفسّرني أنا نفسي لنفسي. كنتُ [بحسبها] تلميذًا شاطرًا، إذا استثنينا دروس الخطّ والرسم، سريعَ الاستيعاب ونافذَ البصيرة، ولكنني متفاوت العطاء. على أنّ أمي كانت تبدو وكأنها تسلبني إنجازاتي، بطريقةٍ لاواعية، بعد أن تمتدحها بقولها «طبعًا، أنتَ شاطر، بل فائق الذكاء، ولكنْ» – هنا توقفني فجأة – «... ولكنْ ليس هذا إنجازًا حقيقيًا من صنعك، ما دام اللهُ هو مَنْ وهبك تلك المواهب». وخلافًا لوالدي، كانت أمي تبثّ فيّ عذوبةً سائغة وشعورًا بالدعم يقوّي من عزيمتي. كنتُ أرى نفسي في عينيها كائنًا مباركًا وكاملاً ورائعًا. إطراءٌ واحد منها عن ذكائي المتفوق أو عن موهبتي الموسيقية أو عن وسامة ملامحي، يشيلني شيلاً، ويمنحني شعورًا، ولو موقتًا، بالانتماء إلى عالمٍ خيّرٍ واسع. على أني، مع الأسف، لا ألبث أن أُدرك مدى قِصَرِ هذا الشعور. فأغتمُّ للتوّ متسائلاً ما إذا كان يحق لي أن أكون مستقرًا، وسرعان ما تتزعزع ثقتي مجددًا ويعاودني القلقُ والهواجس القديمة. لم أشك مرةً في أنّ أمي تحبني، وقد كانت تَجْهر بذلك، ولكنْ ما إنْ بلغتُ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، حتى اكتشفتُ كذلك أنها نقدية جذريًا تجاهي وإنْ بطريقة غامضة لا يُفصح عنها الكلام. كانت ذات طاقةٍ مذهلة على استدراجك، تُقْنعك بالتزامها الكلّي تجاهك ثم، دون سابق إنذار، تُشْعرك أنها حاكمتْكَ ووجدتْكَ مقصِّرًا. وعلى الرغم من حميمية العلاقة بيننا، فقد كانت قادرة على الدوام أن تنمّ عن تحفّظٍ غامض وعن موضوعيةٍ لا تفسير كاملاً لها مع أنها تطلق عليّ أحكامًا جائرة تحبطني وتثير غضبي في آن.

عند عودتي إلى البيت بعد الظهر، كان الخطر الذي يتهدّدني دومًا هو وصولُ إبلاغٍ عبر الهاتف عن أذى ارتكبتُه أو عن درسٍ لم أُعِدَّ له يسممّان الاستراحة التي أصبو إليها بمنأى عن رقابة المدرسة. هكذا فقدتُ تدريجيًا الثقةَ بالنفس، وحلّتْ محلّها هشاشةُ شعوري بالأمان تجاه الذات والمحيط، وهو ما زاد من اتكالي، أكثرَ من أيّ وقت آخر، على رضى أمي وحبّها. كان أبي بعيدًا جدًا عنا خلال أيام الأسبوع، كأنه مستقيل من كافة المسؤوليات المنزلية، خلا شراء الفواكه والخضار بكميات هائلة، يَحْملها إلى البيت خَدَمُ تسليم البضائع، وهو ما كان يثير مَندبةَ أمي الروتينية: «إنك تُغْرقنا بالبرتقال والموز والخِيار والبندورة، يا وديع لماذا اشتريتَ خمسة كيلوات إضافية اليوم؟ أنت مجنون!». وقد يردّ عليها ببرود ثم يعود إلى دفن رأسه في جريدة المساء، إلا إذا كان قد وصل «إبلاغٌ» عني من المدرسة، أو إذا كان دفترُ علاماتي الشهريّ يَحْمل التحفظ المألوف تجاه سوء سلوكي وتسيّبي أو تسكعي أو تململي، فإذّاك كان أبي يجابهني بشراسة لبرهة رهيبة أو اثنتين، ثم ينسحب. وقد ازدادت المجابهاتُ سوءًا في ما بعد، خصوصًا عندما دخلتُ ڤكتوريا كولدج.

والحق أنّي اختبرتُ لحظات سعادة متواصلة وإنْ تكن غير متوقعة في «إعدادية الجزيرة»، أَبْرَزُها تعرّفي إلى المسرح، مطلعَ عام ١٩٤٤. كان أمرًا غريبًا أن أعود إلى المدرسة، أولَ المساء، فإذا قاعاتُ الدرس معتمة وخالية، والبهو المركزيُّ خافتُ الإنارة وقد بدأ يكتظّ بأناس يملأون الكراسي المصفوفة بذوقٍ متطلِّب. وإذا المنصة القليلة الارتفاع التي تطل منها مسز بولين لإعلاناتها الصباحية قد تحولتْ مسرحًا متكاملاً، بما فيه الستارة البيضاء المُغضّنة المنسدلة في مقدّمه، تُعْرَض عليه «مغامرات أليس في بلاد العجائب»، وهي الرواية التي أعطتني إياها أمي في ذلك الوقت تقريبًا، فوجدتُها عتيقةً بشكل متعب وعصيّةً على الفهم إجمالاً... هذا إذا استثنينا ما يزيّنها من رسوم ولاسيّما رسمٌ أثار حيرتي بطريقة مبهمة، وكان كنايةً عن فأرة تسبح عكس التيار في النهر ومنخرُها يطوف فوق سطح الماء بصعوبة. أما توصية أمي الغامضة والمخيّبة حين لم أكن أتقدّم في قراءة الكتاب - «ولكنه للأطفال، يا إدوارد!» - فلم تبدِّل رأيي فيه، مع أنّ ما أثار فضولي هو أنني توقّعتُ أن أكتشف شيئًا مختلفًا في الكتاب بعد أن جرى إخراجُه وتمثيلُه على المسرح. «هل يُشْبه السينما قليلاً؟» - أذكر أني طرحتُ هذا السؤال على أحد الصبية الأكبر سنًا وهو يدفعني إلى أحد الصفوف الأمامية.

مـا أزال أسـتطيع أن أرى وأسـمع نتـفًـا من الإخـراج المدرسـيّ لـ **أليس**، وبخـاصـةٍ حفلة تناول الشـاي، و«الملكةُ الحـمراء» تلعب «الكروكيت» زاعقةً: «اقطعوا رؤوسـهم!». ولكنني أذكر أوضحَ مـا أذكر أليس وهي تَخْرج من مـغامرةٍ لتدخل في مغامرةٍ وجدناها نحن باعثةً على الضحك مع أنها كانت تَبْعث فيها الذعرَ والضياع. لم أستوعب مجريات الأمـور كلها سوى أنها حَوّلت الممثلين تحويلاً كليًا وأضفتْ عليهم هالةً من الجاذبية والغرابة الأكيدتيْن، وقد كانوا، خلال النهار، أولادًا مثلي من تلامذة «الإعدادية». ولم يكن هذا الحكْمُ ينطبق على أحدٍ قَدْرَ انطباقه على ميشلين ليندل، وهي الفتاة التي مثّلتْ دور أليس. أما الآخرون – «صـانع القبّعات المجنون» و«أرنب المستنقع البرّي»، و«مَلِكَةُ الكُبَّة [القلوب]» – فكانوا تلامذةً أكبر سنًا ولذا لم يكن لي تعاملٌ كبيرٌ معهم: كوليت أَميبل، وهي فتاة ضخمة، نضجتْ قبل الأوان كأنها خُلقتْ لتمثِّل دورَ الملكة، وهي شقيقة جان پيار أميبل، زميل دايڤيد عدس وجاره، أَعْرفها بالواسطة دون أن يكون بيننا كبيرُ ألفة. أما الباقون من «الأولاد الكبار»، فتيانًا وفتيات، فقد كنتُ ألمحهم فقط في أرجاء المدرسة. وخلافًا لهم، لم تكن ميشلين تكبرني بأكثر من سنة واحدة، وقد جلستْ مرةً أو مرتين على مسافة صفٍّ مقاعد واحدٍ مني في درس اللغة الفرنسية عندما جرى دمجُ الصفوف المختلفة لأسباب مجهولة. لها شامة إلى يسار فمها، وهي في مثل طولي، وذاتُ صوتٍ هو أجمل ما سمعتُ من الأصوات من حيث النقاء، وتتحدث بإنكليزية صحيحة وفرنسية قاهرية.

في دور أليس، ارتدتْ ميشلين ثوبًا أبيض وجواربَ بيضاءَ طويلة وحذاءَ الباليه الأبيض. وكان من المفترض أن توحي بالعفّة، ولكنها لم تبدُ كذلك إطلاقًا. ذلك أنّ رسالتها الإغرائية الضمنية كانت تتفجّر من خلل ثوبها الضيق المحتشم ببراعة فائقة وهي تخاطب مباشرةً صبيًا في التاسعة فتجذبه جذبًا، بل تَخْلبه. لم أشعرْ تجاهها بانجذاب جنسيّ محدّد لأني ببساطة لم أكن أفهم ما هو الجنس، لكنّ النظر إلى ميشلين ولّد عندي إحساسًا أكيدًا بالهياج والإثارة مبعثُهما تحوُّلُها الكليّ. والأكثر إثارةً من ذلك كله هو انتقالها، خلال الأيام الثلاثة من العروض المسرحية، من زميلةٍ لنا عاديةٍ وباهتةٍ ورتيبةٍ، إلى كائن تحيط به هالةٌ مؤكّدةٌ من الغواية والسموّ. خلال النهار، كنتُ أراقب ميشلين تعيش حياتها العادية وأَعْجب كيف أنها

تتكلم مثلَنا وتتحمل نقدَ المعلمة وتعاني الصعوبات في دروسها، دون أن يراعي أحدٌ نجاحَها كممثلة. وإذا هي في الليل الصبيّةُ المميّزةُ الموهوبةُ المتوهجةُ قوةً ومهارةً. شاهدتُ جميع عروض المسرحية، رغم أنّ أهلي كانوا يعاندونني في كل مرة، ثم يستسلمون على اعتبار أنّ ذلك «جزء من تربية الولد»، حسبما شخّص أبي الأمرَ. ثم كان يحلو لي الوقوف صامتًا، دون أن يَشْعر بي أحد، خارج بوّابة المدرسة لأشاهدها تغادر، عيناها تبرقان بإثارةِ مَن استأثر بالأمسية بمفرده، وثوبُها الأبيض نصفُ متوارٍ تحت المعطف الأسود الذي يلفّه والدها على كتفيها. كنت أحسّ بشيء من الذنب لأني «أتلصلص»، ولكنْ ما لبثتْ أن تغلبتْ عليه رعشةُ التخفي ورؤية ميشلين تَخْرج من حياةٍ لتدخل في حياة أخرى.

لم يكن لي أنْ أختبر انتقالاً كمثل هذا الانتقال. كان ثمة بالتأكيد خللٌ ما في حياتي ابتُكِرتْ له علاجاتٌ منتظمةٌ تقع كلُّها خارجْ المدرسة، مع أنّ العديد منها مجردُ امتداد لها. عام ١٩٤٦، في سنتي الأخيرة في «إعدادية الجزيرة»، أودعوني بعد ظهر يومين من كل أسبوع منزلَ آل غرينوود، عبر خط سكة الترامواي، لتمارين رياضية إضافية. وكسائر الأولاد الإنكليز في المدرسة الذين لم يكن آباؤهم معلِّمين، كان جيريمي غرينوود ابنًا لموظف كبير في إحدى الشركات، تحيط بفيللته في الزمالك، التي لم أدخلها قط، حديقةٌ كبيرةٌ وسورٌ عالٍ. وكان مدرّب مصريّ نحيل، ويرتدي الزيّ الأبيض المهفهف للاعبي الكريكيت، يقود حفنةً من الأولاد لساعة من التمارين السويدية على المرج، يليها الركضُ وتقاذُفُ الكرات واحدنا للآخر. لم أتعلم أية مهارات في الدروس عند آل غرينوود، ولكنني بصفتي الولدَ الوحيدَ غيرَ الإنكليزيّ تعلمتُ شيئًا عن «اللعب حسب الأصول» و«الروح الرياضية» [«الرجولة الرياضية» بالإنكليزية]، وهي كلمةٌ أذكر جيدًا أنّ مدرِّبنا كان يلفظها مشدِّدًا على «رجولة» وهو يلثغ بحرف الراء. وأدركتُ أنّ العبارتين كلتيهما تتعلقان بالمظهر: فـ«اللعب حسب الأصول» يعني أنْ تعترض بصوتٍ مرتفع لدى أحد البالغين بأنّ ما فعله خصمُك لم يكن «حسب الأصول»، و«الروح الرياضيةً» تعني عدم الإفصاح عن مشاعر الغضب والحقد الحقيقية [التي تَكنّها لخصمك]. ولأني الولد غير الإنكليزيّ الوحيد في حصص بعد الظهر عند آل غرينوود فقد امتلكني شعورٌ عميقٌ بالحرج والهجران.

بعد بضعة أسابيع تعيسة وعديمة الجدوى من التمارين، نُقِلتُ إلى فرقة جراميز كشفية، كانت بقاياها الممرّغة بالأوحال - إذْ لم تلتئم الفرقةُ مرةً بكامل أعضائها - تجتمع بقائديها خلف سقيفةٍ في أراضي «نادي الجزيرة». كنا نجلس القرفصاء كثيرًا ونزعق أكثر في وجه الريح «آكي-اي-لا، سوف نبذل جهدنا». وكنتُ فخورًا تحديدًا بطقس الولاء هذا لأنه وضعني علنًا، ولأول مرة، في الصفوف الأمامية مع الأولاد الإنكليز ومع دايڤيد عدس الكريه الذي اكتسبتُ مناعةً ضد تهديداته التي كان يوشوش بها في طوابير الجراميز أيضًا. كنا نجتمع بعد ظهر كل أربعاء وسَبت، وأنا أزهو بالقميص والشُورت الخاكييْن، والفولار الأحمر ذي العقدة الجلدية البنّية، والجواربِ الخضراء الأنيقة، ورباطِ الجوارب الأحمرِ. ولَم يَرُق الأمر لأمي إذ رأت فيه عمليةَ عسكرةٍ لشخصيتي؛ ولما كانت قد شاركتني القراءة عن «موغلي» و«كاآ» و«آكيلا» بل عن «ريكي-تيكي- تافي»، فإنها لم تكن راضيةً عما يَفْرضه الإنكليزُ من تراتب وسلطة على ولدها، وكانت تكاد لا تكترث بزيّي. أما شقيقتاي روزميري وجين، ولهما من العمر سبعُ سنوات وأربعُ سنواتٍ على التوالي، فقد روَّعتْهما لحظاتٌ من الفزع خلال هتافاتي والصيحات التحميسية.

لم يقل أبي شيئًا يُذْكر عن هذا الموضوع، إلى أنْ جاء اليومُ الذي سمعني فيه أتدرب على القَسَم، وتحديدًا المقطع المتعلق بالله والملك. «لماذا تقول ذلك؟»، سألني وكأني أنا مؤلِّفُ الكلمات. «أنت أميركيّ، ونحنُ ليس لدينا مَلِكٌ، بل رئيسُ جمهورية. أنت مـخلِصٌ للرئيس. لله والرئيس.» صُدِمتُ للحظة (فلم تكن لي فكرةٌ عمّن يكون ذلك الرئيس ولا عن الدور الذي يلعبه في حياتي. أما الملك فكان بالنتيجة آخرَ من درستُ عنهم ضمن سلالة طويلة، من إدوارد المعترِف إلى البلانتانيني وآل ستيوارت ومَنْ أَعْقبهم) فنأنأتُ ببعض كلمات الاحتجاج الخفيفة: «"الله والرئيس" لا تصلح»، على نحو ما بادرتُ بالقول. ثم رحتُ أنوح شاكيًا: «لا أستطيع أن أقول ذلك، دادي، لا أستطيع». فارتبك لرفضي المثير للشفقة أولَ الأمر، وهو لم يكن يتصوّر ما الذي يعنيه لولدٍ ابنِ تسع سنوات أن يتحدى سلطاتَ جراميز الكشافة في نقطةٍ دقيقةٍ من نقاط التعبير عن الولاء التام. فالتفتَ إلى أمّي وقد كانت على مقربة منا، كما هو الحال دومًا، وقال لها بالعربية «هيلدا، تعالي، شوفي شو بو إبنك».

لأول مرة استوعبتُ معنى تقصيري عن توقعاته عني. ثم كانت حادثة ثانية، ارتبطتْ هي أيضًا بالجراميز. ففي أصيلِ يومِ سبتٍ رائع، أُخِذتْ مجموعةٌ من الجراميز إلى ملعب كرة القدم القريب الواقع على الطرف الآخر، الأكثرِ انكشافًا، من سقيفة نادي الجزيرة. وكانوا قد أعلنوا عن مباراتنا ضد جراميز نادي هليوپوليس قبل ذلك بأسبوع. وبسذاجةٍ، دعوتُ أبي - وكان لاعبَ خط هجوم عظيمًا منذ ثلاثين سنة في القدس - لحضور المباراة ومشاهدتي أواصل التقليد العائليّ. وكان ابنُ عمي ألبرت، عضوُ فريق الدرجة الأولى في مدرسة سان جورج، يُشْبه أبي شَبَهًا كبيرًا من حيث المظهرُ والاهتمامُ بالألعاب الرياضية، رشيقًا وسريع الجري، مثلما كان عمّه وديع. وكنت أتمنى أن أكون مثل ابن عمي. ومهما يكن من أمر، فقد ماهيتُ بين ابن عمي وأبي عندما كان في عمره، وافترضتُ، بتشجيعٍ ليس بالقليل من ابن عمي اللامبالي، أنّ أبي لاعبٌ عظيمٌ سوف يقدّر لعبي. «أرجوك أن تأتي لتشاهدني ألعب»، قلتُ. وهو بدوره، لم يفاجئني سلباً، فأتى.

أغفلتُ التزوّد بحذاء كرة القدم، وأغفل الأمرَ مثلي رئيسُ فريق الجراميز، فإذا أنا اللاعبُ الوحيد في الملعب يركض في حذاء بُنيّ فخم من محلات پول فابر. عُيّنتُ في أحد مواقع نصف المؤخرة، فوجدتُني فجأةً في ضياعٍ كامل حول ما يترتّب عليّ أن أفعله. وكانت مفاجأتي الكبرى عندما أدركتُ، كأنما للمرة الاولى، أني لم ألعب ضمن فريق كرة قدم من قبلُ، وأنّ أبي، الواقف ملهوجًا على مسافة خمسين قدمًا تقريبًا مني، يشاهد ابنًا ليس عديم الكفاءة وحسب بل هو أيضًا أخرقُ بطريقة مُهينة، ويلْعب في موقعٍ لا شأن له به. بدت قدماي ضخمتين وثقيلتين جدًا في آن. رَفَستُ في اتجاه أولِ كرةٍ توجهتْ صوبي فأخطأتُها كليًا. باختصار، كانت تلك بدايةً رائعة للعبٍ يفتقر إلى ميزةٍ على الإطلاق. «سعيد» (لَفَظَها «سايد»)، نَبَر أحدُ المعلّمين، «تحرّكْ أكثر. لا يجوز أن تبقى واقفًا هكذا لا تأتي حراكًا!» ورأيتُه لاحقًا يرمقني بنظرةٍ لائمة لأني أكلتُ ثلاث حصص برتقال أو أربعًا خلال الاستراحة بدلاً من واحدة أو اثنتين. وكنتُ في الشوط الثاني، بمثل ما كنته في الأول، يشلّني الجبْنُ والتردد. وخسرنا.

بعد القدّاس، في اليوم التالي، اعترضني أبي في الممر المؤدي إلى غرفة الطعام وكنا على أهبة تناول الغداء. وكان ذلك من المرات النادرة التي يشاركنا فيها

أناسٌ آخرون، أَيْ أفرادٌ من العائلة، وجبةَ الأحد الرئيسية، وهو ما أضفى بعضَ الحيوية على يوم من التقوى الإجبارية عادةً ما يكون رتيبًا. فخمّنتُ أنّ المواجهة مع أبي لن تكون سارّةً. أمسكني من كتفي بعد أن أدارني أمامه، فإذا كلانا يواجه الممر. وفيما هو يسدّد ضربةً بقدمه تقليدًا لرفسةِ كرةِ القدم، بدأ يقول: «شاهدتُك بالأمس». برهة صمت. «أنت ترفس الكرة ثم تلازم مكانك. يجب أن تَلحق الكرة. أنْ تتحرك، تتحرك، تتحرك. لماذا تلازم مكانك؟ لماذا لا تهجم وراء الكرة؟» وأرفَقَ السؤالَ الأخير بدفعةٍ قوية قذفتْ بي إلى الطرف الآخر من الممر في ملاحقة افتراضية لكرة قدمٍ غيرِ موجودة. فما كان مني إلاّ أن تعثّرتُ بقوةٍ استعدتُ بعدها توازني بطريقة تخلو كليًا من الأناقة. ولم يكن لي ما أقوله على الإطلاق.

لا أدري إنْ كان إحساسي بعدم اللياقة البدنية – الصادرُ عن شعور بأنّ جسمي وشخصي لا يسكنان على نحوٍ طبيعيٍّ الفسحاتِ المعيّنةَ لي في الحياة – قد نَجَمَ عن تلك المصيبة الرهيبة التي رماني بها أبي، ولكني أجدني دائمًا أعزو ذاك الإحساسَ إلى ذلك الحدث. فقد بدأتُ أكتشف أنّ الجسم والشخصية متلازمان في تفحّص أبي لسلوكي. وإذا الموضوع المستدام لتعليقاته، منذ اليفاعة حتى نهاية دراستي الجامعية، هو ميلي إلى عدم الذهاب بعيدًا بما فيه الكفاية، واكتفائي بملامسة السطوح، وعدم «بذل قصارى جهدي». وفي كل تنبيهٍ إلى إحدى تلك النواقص كان يؤدي إشارةً معينة بيديه: القبضة المضمومة المشدودة إلى كتفه للحال الاولى، ورفرفة اليديَن من اليسار إلى اليمين للحال الثانية، وهزّ الإصبع للثالثة. وغالبًا ما يَسْتشهد بمباراة جراميز الكشافة في كرة القدم تدليلاً على ما يعنيه، فأستنتجُ من ذلك أني لا أتمتع بالقوة المعنوية اللازمة لبذل «قصارى جهدي». كنتُ ضعيفًا بكل معاني الكلمة، ولاسيّما بالقياس إليه (وقد اكتشفتُ بنفسي هذه المقارنة غيرَ المفصَحِ عنها).

بعد فترة وجيزة في ذلك العام (١٩٤٤) الذي أسَرَتني فيه ميشلين ليندل في دور أليس، اختبرتُ تجربةً مسرحيةً استثنائيةً أخرى. فقد أعلنتْ أمي أنّ جون جيلغود سوف يزور القاهرة لتمثيل دور «هاملت» في دار الأوبرا. «يجب أن نحضر»، قالت بتصميمٍ سرعان ما انتقلتْ عدواه إليّ، وسرعان ما اتخذتُ الإجراءات المناسبة، مع أني لم أكنْ أعرف من هو جون جيلغود أصلاً. كنتُ في التاسعة آنذاك وقد بدأتُ

للتو في التعرّف إلى نتف من تلك المسرحية في مجلّد القصص الشكسپيرية من تأليف شارلز وماري لامب، وكنتُ قد تلقيتُه هديةَ عيد الميلاد لبضعة شهور خَلَتْ. وكانت فكرة أمي تتلخّص في أن نقرأ المسرحية تدريجيًا معًا، من أولها إلى آخرها. ولهذا الغرض أُنزِلَ من فوق الرفّ كتابُ **الأعمال الكاملة لشكسپير** المجموعةِ في مجلدٍ واحد. وكان تجليدُه بالجلد المغربيّ الأحمر، والورقُ الرقيق المعرّق الذي طُبع عليه الكتابُ، يجسِّدان بالنسبة إليّ كلّ ما هو فخمٌ ومثير في أيّ كتاب. وقد زادت من فخامته الرسومُ (بالقلم الرصاصِ أو الفحم) التي تزيّن المسرحيات، وقد زُيّنَتْ مسرحية «هاملت» برسمٍ بالغِ التوترِ لهنري فوزيلي يبدو فيها أميرُ الدنمارك وهوراشيو والشبح كأنهم يتصارعون في دوّامةِ الوقع المسرحيّ لنبإِ الاغتيال وفي ردود فعلهم الهائجة عليه.

جلسنا أنا وأمي في مقدمة غرفة الاستقبال نقرأ في «هاملت» معًا، هي في كرسيّ كبير ذي ذراعين وأنا على متّكإٍ إلى جانبها، وإلى يسارها نارٌ خفيفة يتعالى دخانها في الموقدة. هي مثّلتْ دور جيرترود وأوفيليا، وأنا مثّلتُ إدوار هاملت وهوراشيو وكلاوديوس. ولعلها اختارت أن تمثّل أيضًا دور پولونيوس تضامنًا مع أبي الذي غالبًا ما كان يَسْتشهد واعظًا: «لا تكن مَديناً ولا دائنًا»، تذكيرًا لي بمدى خطورةِ أنْ أُعطَى المال لإنفاقه على هواي. قررنا حذفَ كل مقطع «المسرحية داخل المسرحية» لبالغ تنميقه وتعقيده. ولعلنا عقدنا أربع جلسات على الأقل، أو ربما خمسًا أو ستًا، نتشارك في كتاب واحد، نقرأ محاولين اكتناه معاني المسرحية، متوحِّدَيْن كليًا خلال أربعة أصائل بعد المدرسة، مستبعديْن القاهرةَ وشقيقاتي وأبي استبعادًا تامًا.

فهمتُ الحوارات بطريقة شبه واعية فقط، مع أني استوعبتُ وضع هاملت الأساسيّ: ثورَته على مقتل والده، وزواجَ أمه من جديد، ومراوحاته الكلاميةَ اللامتناهية. ورغم أنني لم أكن أدري معنى لنكاح المحارم والخيانة الزوجية، فإني لم أجرؤ على أن أسأل أمي عنهما، ذلك أنّ تركيزها الشديد على المسرحية جعلها تنكفئ على نفسها وتنأى عني بعيدًا. وأكثر ما أذكره تغيُّرُ صوتها العادي إلى صوتٍ مسرحيّ جديد عندما كانت تمثّل دور جيرترود: يعلو صوتُها ويرقّ ويتدفق منها الكلامُ على نحوٍ استثنائيّ. والأهم من ذلك أنها تكتسب نبرةً ساحرة، مغريةً

ومهدِّئة: «عزيزي هاملت»، وكانت تخاطبني أنا بالتأكيد لا هاملت: «اِطرحْ عنك اللونَ اللَيليَّ ولتنظرْ عيناك إلى الدانمارك كصديق». فأشعر إذذاك أنها تخاطب ذاتي الفضلى، الأقلُّ إعاقةً، ذاتي التي لا تزال نضرةً، ربما على أمل أن تنتشلني من جنوح حياتي المدمن، وقد أثقلتْها الهمومُ والهواجسُ التي بتّ متيقِّنًا من أنها تتهدد مستقبلي.

كانت قراءةُ مسرحية «هاملت» بما هي تأكيد على مكانتي عندها - لا بما أنا كائن فاقد القيمة، كما كنتُ أرى إلى نفسي - واحدًا من أروع أوقات طفولتي. كنا صوتيَن، واحدنا للآخر، روحيْن متحالفتيْن بسعادةٍ من خلال اللغة. لم أكن واعيًا للديناميات الداخلية التي ربطتِ الأميرَ اليائسَ بالملكة الخائنة في متن المسرحية، ولا أنا استوعبتُ الغضب الذي يتملّكهما في المشهد الحواريّ بينهما إثر مقتل پولونيوس عندما تولى هاملت عمليًا سلخَ جلْدِ جيرترود. تجاوزنا معًا، في القراءة، هذه اللحظات كلها؛ فقد كان كلُّ همّي، في طريقةٍ غير هاملتية على نحوٍ غريب، أن أستطيع الاعتماد عليها لتكون كائنًا تجذب مشاعرُه وعواطفُه مشاعري وعواطفي دون أن تكون أكثر من أمٍ حنون تهدئ من روعي بعذوبة فاتنة. لقد خلّفتْ ورائي الإحساس بأنها كانت تقصِّر في واجباتها تجاه ابنها، وأخذتُ أشعر أنّ تلك القراءات إنما تؤكِّد عمقَ الأواصر التي تشدنا واحدنا إلى الآخر. ولسنوات احتفظتُ في ذاكرتي بجَرْس صوتها الأعلى من المعتاد، وبالاتزان الواثق في سلوكها، وبحضورها المبلسِمِ والصابرِ على نحو حاسم بوصفها متاعاً يتعيّن عليّ التشبّثُ به مهما كلّف الثمن. غير أنّ تلك الذكريات ما لبثتْ أنْ تقلّصتْ مع تزايد حوادث الجنوح عندي وتعاظُمِ تهديدها لي بطاقاتها على التدمير والتعطيل.

وعندما شاهدتُ المسرحية في دار الأوبرا، كدتُ أقفز من مقعدي عندما أَعلن جيلغود: «يا ملائكة النعيم ويا أيها الرسل الإلهية، هُبّوا إلى نجدتنا»، لإحساسي أنه تكريسٌ عجائبيٌّ لما قرأناه قبلاً وحدنا أنا وأمي. رَجْعُ الصدى الراعش لصوته، والمسرحُ المُعتم تَعْصف به الرياحُ، وحضورُ الشبح يلتمع من بعيد، بَدَتْ كلُّها وكأنها قد بَعَثت الحياةَ في رسم فوزيلي الذي درسته مطولاً، وإذا بها تَرْفع مداركي الحسيّة إلى ذروة لا أعتقد أني اختبرتُ واحدةً بمثل كثافتها في ما بعد. على أنّ الذي ثبّط همتي هو المفارقات الجسمانية بيني وبين شخصيات الرجال في

المسرحية، وقد استظهرتْ سراويلُهم المزنّقة، الخضراءُ والقرمزيةُ، سيقانَهم المجدولةَ والتامةَ التقاطيع، فبَدَتْ كأنها تَسْخر من ساقيّ الطويلتين الهزيلتين الفاقدتي الشكل ومن مشيتي العديمة الرشاقةِ وحركاتي الخرقاء. فكل شيء في جيلغود والرجل الأشقر الذي مثّل دورَ لايرتيس يوحي باليُسر والثقة - وهما بطلان إنكليزيان، في نهاية المطاف -، وهذا ما خَفضني إلى موقعٍ دونيّ وعطّل قدراتي على الاستمتاع بالمسرحية. بعد بضعة أيام، عندما لبّيتُ دعوةً زميل الدراسة الانكلو-أميركيّ طوني هاوارد للقاء جيلغود في منزله، كان كلُّ ما استطعته هو أن أمدّ إليه يدًا رخوة في مصافحة صامتة. واكتفى جيلغود، الذي كان يرتدي سترة رمادية، بأن شدّ على يدي الصغيرة مع شبه ابتسامة ملوكية، ولم يتفوّه بكلمة.

لا بد أنّ ذكرى تلك الأصائل التي قرأنا فيها «هاملت» في القاهرة هي التي أثارت حماس أمي مجددًا للذهاب إلى المسرح معي، خلال السنتيْن أو السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها. والحدث الأشدّ انطباعًا في ذاكرتي هو ما جرى عند وصولها إلى لندن من بيروت في طريقها إلى الولايات المتحدة لاستشارة أحد الأخصّائيين، وقد باتت إصابتُها بالسرطان في طورٍ متقدم، فاستقبلتُها على المطار ورافقتُها إلى فندق «براون» لتقضي فيه ليلتها. ومع أنها لم تكن تملك أكثر من ساعتين لتتهيأ وتتناولَ وجبة عشاء مبكرة، فقد وافقتْ بلا تردد على اقتراحي أن نشاهد ڤانيسّا ريدغريف وتيموثي دالتون يمثّلان انطوني وكليوباترا على مسرح هايماركت. كانت المسرحية الطويلة ضعيفةَ الوقع ومتواضعةَ الإنتاج، ومع ذلك فقد سمّرَتْها في مكانها بطريقةٍ أدهشتني. فالحال أنها، بعد أن مرّت عليها سنواتُ الحرب اللبنانية والغزو الإسرائيليّ، أضحت سريعةَ التشتت الذهنيّ، وغالبًا ما كانت مشاغبة ومهمومةً بصحتها ومصيرها. غير أنّ كل ذلك اختفى حين كانت تشاهد وتسمع أبيات شيكسبير ـ «كانت الأبدية في شفتَينا والعينين، والنعيمُ في حواجبنا المقوّسة» -، كأنّ الممثلين كانوا يَلْهَجون بتلك الأبيات بلهجة القاهرة زمنَ الحرب، وقد عُدنا إلى شرنقتنا الحميمة، صامتيْن مركَّزَيْن، نتشارك اللغةَ والاتصالَ رغم الفارق في السنّ، ورغم أننا أمٌّ وولدُها لآخر مرة. فبعد ثمانية شهور، بدأتِ انحدارَها النهائيَّ في المرض الذي قتلها. لقد غزا الورمُ السرطانيُّ دماغَها، وقبل أن يُفقِدها النطقَ، قبل شهرين من وفاتها، سبّب لها الهلوسةَ عن مؤامرات تحاك حولها،

ودَفَعَها من ثم إلى أن توجِّه إليّ آخر قول حميم واعٍ: «يا طفلي الصغير المسكين»، وهي عبارة لفظَتْها باستسلامٍ حزين أمٌ تُلْقي تحيةَ الوداع الأخيرة على ابنها.

حين كنت يافعًا تمنيتُ دائمًا لو كانت هي التي تشاهدني ألعب كرة القدم أو التنِس، أو لو كانت هي التي تتكلم إلى أساتذتي، متخلّيةً بذلك عن شراكتها لأبي في برنامجهما المشترك الهادف إلى إصلاحي وتحسيني. وبعد وفاتها، وتوقفي عن كتابة رسالتي الأسبوعية إليها وعن اتصالي الهاتفيّ اليوميّ (عندما كانت في نيويورك تعالج مرضها)، احتفظتُ بها، في كل الأحوالِ، رفيقًا ولو صامتًا. أن تَحْملني في ذراعيها عندما ترغب في هدهدتي وملامستي، أنا الطفلَ الصغيرَ: كان ذلك هو النعيم الحقيقيّ. على أنه لم يكن لي أن أسعى إلى مثل هذا الاهتمام سعيًا ولا أن أطالِبَ به مطالبة؛ فأمزجتُها هي التي كانت تتحكم بأمزجتي. وأَذْكر أنّ أحد الأمزجة الأكثر هجسًا في طفولتي ومراهقتي المبكرة كان يدور حول محاولتي، دونما دليلٍ ولا نجاحٍ على الإطلاق، حَرْفَها عن لعب دور وكيلة الأعمال وتحدِّيها لكي تمنحني التأييدً والدعم. ومهما يكن، فإنّ عملاً أَجَدْتُه، ومقطعًا عَزَفْتُه عزفًا متقنًا على البيانو، قد يولِّدان تحولاً فجائيًا في ملامحها وارتفاعًا دراميًا في نبرة صوتها، فتفتح ذراعيْها واسعتيْن، فأحبس أنفاسي فيما هي تغمرني قائلة: «براڤو، إدوارد، يا ولدي الحبيب، براڤو، براڤو. دعني أقبِّلك». ولكنها في معظم الأحيان، كان يحدوها الشعورُ بالواجب كأم وربّةِ بيت، بحيث كان صوتُها العادي في تلك السنوات الذي أحتفظُ به في الذاكرة أيضًا هو الصوتَ الآمرَ الناهي: «تمرّنْ على البيانو يا إدوارد!»؛ «عُدْ إلى فَرضك»؛ «كفى مضيعةً للوقت: باشِرْ كتابة موضوع الإنشاء»؛ «هل شربتَ كأس الحليب، وعصيرَ البندورة، وزيتَ السمك؟»؛ «أَنْهِ أكلَ ما في صحنك»؛ «مَنْ أكل الشوكولاته؟ علبة كاملة اختفت. إدوارد!».

الفصل الرابع

هيمنتْ قوةُ أبي المعنوية والجسدية على طفولتي ونشأتي. كان له ظَهرٌ ضخم وصدرٌ برميليٌّ نافر، يوحي بالعصيان، رغم قصر قامته، ويوحي بالثقة الطاغية، بالنسبة إليَّ على الأقل. على أنّ أبرز صفاته الجسدية مشيتُه المتيبّسةُ كقضيب والمنتصبةُ على نحوٍ يكاد أن يكون كاريكاتوريًا. إلى هذا، وبالمقارنة مع جُبني وخجلي الانكماشييْن والعصابيّيْن، كان يتمتع بنوع من التيه يناقضني تناقضًا صارخًا، إذ لا يبدو أنه يخشى اقتحام أيّ مكان أو الإقدامَ على أيّ فعل - وهما أكثرُ ما أخشاه. ولم يقتصر الأمر على أني لم أكن مقدامًا، كما كان عليّ أن أكون في لعبة كرة القدم المشؤومة، وإنما كنتُ أتحاشى جدّيًا نظرَ الناس لشدة تحسّسي لنواقصي الجسمانية اللامتناهية وأنا مقتنع تمامَ الاقتناع بأنها جميعًا انعكاسٌ لنواقصي الجوانية. وكان أصعب الصعاب عندي أن يَنظر إليّ الناسُ وأن أقابل نظراتهم بمثلها. وقد ذكرتُ ذلك لأبي وأنا في حوالى العاشرة فقال: «لا تنظرهم عينًا في عين، بل إلى أنوفهم أُنظرْ»، فسلّمني بذلك تقنيةً سرّيةً استخدمتُها عقودًا من الزمن. وعندما بدأتُ التدريس، بُعَيد تخرجي في أواخر الخمسينيّات، وجدتُني مضطرًا إلى خلع نظارتَيَّ لكي يتحوّل الصّفُ كتلةً ضبابيةً يتعذّر عليَّ تمييزُ أيّ شيءٍ فيها. ولا أزال إلى الآن أجد صعوبةً لا تطاق في أن أشاهد ذاتي على شاشة التلفزة، بل حتى أن أقرأ ما يُكتَب عني.

عندما كنتُ في الحادية عشرة حالَ هذا الخوفُ من نظر الناس دون إقدامي على أمرٍ كنتُ أرغب فيه بكل جوارحي. فقد كنتُ أَحْضر حفلتي الثانية أو الثالثة في

دار الأوبرا القاهرية، التي هي نسخةٌ مصغّرةٌ عن العمارة المهيبة التي بناها «غارنييه» في باريس وتكرّستْ فيها أوبرا «عايدة». وقد أثارتني الطقوسيةُ الرسمية للمسرح وللبشر المتهندمين، كما أثارتني الموسيقى ذاتُها من حيث الأداء والانضباط الشكلانيّ. على أنّ ما أثار فضولي بنوع خاصّ هو حلبةُ الفرقة الموسيقية، تتوسطها منصّةُ القائد وعليها دفترُ المقطوعات الموسيقية الكبيرُ المفتوحُ وعصا القائد الطويلة. فأردتُ إلقاء نظرةٍ مقرّبةٍ عليها خلال الاستراحة، نظرةٍ لا تتيحها مقاعدُنا الواقعة في المقصورة الوسطى. استأذنتُ أبي: «هل لي أن ألقي نظرة عليها؟»، فأجاب «هلمّ. انزلْ إلى هناك». فجأةً، دهمتْني فكرةُ أنّ اجتيازي الصالة منفردًا مهمةٌ مستحيلة. كنتُ أشدّ خجلاً من أن أفعل ذلك، فقد كانت هشاشتي الجسمانية إزاء النظرات المتفحّصة، بل الشاجبة، عظيمةً جدًا. «حسنًا» قال، وقد ضاق ذرعًا بي، «أنا ذاهب». وإذا به يقتحم الممرَّ ويختال اختيالاً في طريقه إلى المنصّة التي بلغها ببطء شديد ومتقصّد. ثم، لزيادة إزعاجي، أخذ يتظاهر بأنه يقلّب صفحات دفتر المقطوعات الموسيقية، وتعلو وجهَه علاماتُ الفضول والتحدي. فغُصت أكثرَ فأكثرَ في مقعدي ولم أسمح لنفسي بأكثر من التلصّص من فوق الدرابزون، عاجزًا عن تحمّل الإحراجِ، بل الخوفِ، المزدوجِ: من استعراضية أبي، ومن خجلي الانكماشيّ.

وفّر لي دفءُ أمي السائغ الفرصةَ النادرةَ لأكون الشخصَ الذي كنتُ أشعر حقيقةً أنني إيّاه، بالمقارنة مع «إدوارد» الفاشلِ في المدرسة والرياضة والعاجزِ عن مجاراة الرجولة التي يجسّدها أبوه. على أنّ علاقتي بها ما لبثت أن ازدادت التباسًا مع الوقت، وصارت إدانتُها لي أشدُّ تدميرًا من الناحية العاطفية من تنمُّر أبي وتأنيبه. ذاتَ أصيل من يومِ صيفٍ في لبنان، وأنا في السادسة عشرة، أيْ في سنٍ كنت أحتاج فيها إلى عطفها أكثر من أيّ سنّ أخرى، أطلقتْ حُكْمًا على جميع أولادها لن أنساه ما حييتُ. كنتُ عائدًا من سنتين تاعستين أمضيتُهما في «ماونت هيرمون» [جبل حرمون]، وهي المدرسةُ الداخلية القمعية في «نيو إنغلاند»، وقد اكتسب ذلك الصيفُ، صيفُ ١٩٥٢، أهميةً استثنائيةً بالنسبة إليّ لأنه سوف يسمح لي بقضاء بعض الوقت برفقتها. وقد اعتدنا الجلوسَ معًا بعد الظهر، نتجاذب أطراف الحديث بحميمية، ونتبادل الأخبار والآراء. وفجأةً قالت: «أولادي خيّبوا أملي جميعًا. كلّهم بلا استثناء». لم أستطع، لسببٍ ما، أن أحمّل نفسي على القول: «هذا

لا ينطبق عليّ بالتأكيد»، أنا المكرَّسَ بصفتي ابنَها المفضَّلَ إلى درجة أنها خلال السنة الأولى من غيابي عن البيت كانت – على ما أبلغتني شقيقاتي – تترك مكانًا لي إلى المائدة في المناسبات الهامّة، مثلِ عيد الميلاد، ولا تسمح لأحدٍ بأن يستمع إلى سيمفونية بتهوفن التاسعة، قطعتي الموسيقيةِ الأثيرة.

«لماذا؟» سألتُ، «لماذا تَحْملين هذا الشعور تجاهنا؟». فزمّتْ شفتيها وازدادت انكماشًا، جسمًا وروحًا. «رجاءً، قولي لي لماذا»، ألححتُ في السؤال، «ما الذي فعلتُه [لأستحقّ ذلك]؟».

«ربما ستعرف السببَ يومًا ما، ربما بعد مماتي. ولكن من المؤكّد أنكم جميعًا بمثابة خيبة كبيرة». ولسنواتٍ كررتُ السؤال دون جدوى: فقد ظلت أسبابُ خيبتها فينا، ومن ثَمَّ فيَّ أنا شخصيًا، سرَّها الدفينَ، وسلاحًا في ترسانتها تُشْهِره للتلاعب بنا وإفقادِنا التوازنَ وبذرِ الشقاق بيني وبين شقيقاتي وبيننا وسائرِ العالم. هل كان الأمرُ دومًا على هذا النحو؟ فما معنى ظني السابق، والحال هذه، بأنّ حميميتنا راسخةٌ إلى حدٍ أنها تحتمل بعض الشكوك ولكنها لا يُعقل أن تنسف مكانتي لديها؟ والآن، إذ أستعيد علاقتي الصريحةَ والعميقةَ بأمي، رغم فارق السن، أُدرك أنّ تلك المراوحة النقدية قد لازمتْها على الدوام.

خلال أيام «إعدادية الجزيرة»، نَمَتْ بيني وبين شقيقتيَّ الكبريَيْن، روزي وجين، ببطء، بل بطريقة خفية، علاقةٌ تنافسيةٌ سخّرتْها أمي بمهارة للتحكّم والتلاعب بنا. كنتُ أكنّ شعورًا حانيًا تجاه روزي، الأصغر مني سنًا والأقل لياقةً بدنية، فأساعدها وأدلِّلها وأعانقها بانتظام فيما نحن نلعب معًا على الشرفة، وأعرّضها لثرثرتي المتواصلة، التي تردّ عليها بالبسمات والضحكات المكتومة. وكنا نسير معًا إلى «إعدادية الجزيرة»، ثم ننفصل عند الوصول لأنها في صف أدنى من صفي. وكان لروزي العديدُ من الصديقات الصغيرات المقهقهات – شهيرة وناظلي ناديا وڤيڤيت – وأنا لي زملائي «المحاربون» أمثال ديكي كوپر أو غِي موسيري. غير أنها بسرعةٍ فرضتْ على الآخرين الاعترافَ بها فتاةً «عاقلة»، وأما أنا فرُحتُ أهيم على وجهي في أرجاء المدرسة حاملاً شعورًا متزايدًا بالغمّ والتمرّد والشرود والتوحّد.

تبدأ الخلافاتُ بيننا بعد العودة من المدرسة، مترافقةً مع انفصالنا الجسمانيّ القسريّ: لا استحمام معًا، ولا معاركة أو معانقة، السكنى في غرف منفصلة، والخضوع لأنظمة متباينة، علمًا أنّ النظام الساري عليّ كان الأشد من حيث الوَقْعُ الجِسمانيُّ والانضباط. وإذ تعود أمي إلى البيت، تأخذ في مناقشة سلوكي بالمقارنة مع سلوك أختي الصغيرة: «أنظر إلى روزي. أساتذتُها مجمِعون على أنها تبلي بلاءً حسنًا». وسرعان ما تحولّتْ جين نفسُها – الفائقةُ الجمال في ضفائرها الصهباء الكثّة – من نسخة مصغرّة ومستتبعة لروزي إلى فتاة «عاقلة» هي الأخرى، لها حلقتُها الخاصة من الصديقات الشبيهات بها. وقد استحقّتْ هي أيضًا ثناءَ إدارة «إعدادية الجزيرة»، في الوقت الذي واصلتُ فيه انحداري في «التعبير» المستدام، وهو المصطلح الإنكليزيّ الذي لازمني منذ سن السابعة. تقاسمتْ روزي وجين غرفة واحدة، تَفْصل غرفةُ الوالديْن بينها وبين وغرفتي المنزوية في نهاية الممر. وانتقلتْ جويس وغريس (اللتان تصغرانني بثمانية أعوامٍ وأحد عشر عامًا على التوالي) من السكنى في الشرفة المزجّجة إلى إحدى الغرف المستَحدثة، بعد أن أُعيد تصميمُ الشقة لتتسع لنموّ الأولاد.

كان الباب المغلق لغرفة روزي وجين يَرْمز إلى الهوة الجسمانية كما العاطفية الآخذةِ في الاتساع تدريجيًا بيننا. حتى إنّ أمرًا جازمًا صدر بمنعي منعًا باتًا من دخول غرفتهما، وأذاعه أبي بحزم، وأخذ يُشْرف على تنفيذه بين الحين والآخر، وقد بات منحازًا انحيازًا سافرًا إلى شقيقاتي، حاميًا وراعيًا، فيما رحتُ أنا أتلبّس تدريجيًا دورَ الأخ ذي النوايا المريبة، وهو دور ورِثْتُه من أخوالي، على ما كان الوالدُ يظن. وكان يقال لي دائمًا: «يتوجب عليك حمايتهنّ»، ولكنْ بلا نتيجة تذكر. فأنا في عين روزي خصوصًا وحشٌ مفترس وفريسة في آن، تستدرجني أو تستفزّني لدخول غرفتها لتقذفني هي وجين بالماحي ولتضرباني على رأسي بالمخدّات ولتصرخا في وجهي برعبٍ واستمتاعٍ خطير. وكانت شقيقتاي شغوفتيْن بالدراسة والمذاكرة، في المدرسة كما في البيت، في حين كنت أؤجل تلك النشاطات باستمرار، لتعذيبهما، أو أهدر الوقتَ إلى أن تعود أمي لتواجه جعجعةً من التُهم والتهم المضادة مدعّمةً بالكشف عن كَمْدات فعليةٍ أو التباكي على عضّات حقيقية.

ومع ذلك لم يقع الانفصالُ بيننا قط، ذلك أننا استمتعنا نحن الثلاثةَ، على مستوًى ما، بالتفاعل المتبادل الناجم عن المزاحمة بين الأشقاء، مزاحمة نادرًا ما

بلغتْ حدّ العداء. فكانت شقيقتاي تستعرضان سرعة الخاطر أو المهارة المميّزة في لعبة «الإكس» فأجاريهما فيها. أما في ألعابٍ لا تُنسى مثل «الغمّيضة» أو «عسكر وحرامية» أو لعبة كرة قدم خرقاء في حيّزٍ ضيّق جدًا، فقد كنتُ أستغلّ فيها طولَ قامتي أو قوتي البدنية النسبية. وبعد أنْ حضرنا معًا «سيركو تونيي»، وقد ترك مروّضُ الأُسُود فيه انطباعًا قويًا لديَّ لسلطويته وتفاحله، رحتُ أقلّد وصلتَه في غرفة الفتيات، صارخًا في وجهيْهما بأوامر من نوع: «إلى مكانكِ، كاميليا!»، ملوِّحًا بسوطٍ وهميّ، دافعًا الكرسيَّ بقوةٍ في اتجاههما. وقد سُرّتا أشدّ السرور للمزحة التمثيلية، بل صدر عنهما زئيرٌ عذب وهما تتسلقان السرير أو المِزْيَنةَ برشاقةٍ لا كبيرَ صلةٍ لها برشاقة فصيلة السنّوريات.

على أننا لم نتعانق مرةً كما هي عادةُ الأشقاء والشقيقات. فعلى مستوًى ما دون الوعي هذا، كنتُ أشعر بانكماش متبادل، مني تجاههنّ ومنهنّ تجاهي. ولا تزال تلك الهوّة الجسدانية قائمةً بيننا إلى الآن، ولعلها اتسعت عبر السنين بسبب أمي. فقد كانت عند عودتهما بعد الظهر من «نادي القاهرة للنساء»، تتدخل بيننا لا محالة. فيعرّضني جنوحي للتقريع المتزايد: «ألا أستطيع أبدًا أن أتركك مع شقيقاتك دون أن تشاغب؟». تلك هي اللازمة، وعادةً ما يتبعها الملحَقُ المرهوبُ: «انتظرْ حتى يعود أبوك». فبسببٍ من ذلك الحرم الضمنيّ المفروض على أيّ اتصالٍ جسدانيّ بيننا، اتخذ خرقي لذاك الحرم شكلاً عدوانيًا يتضمن اللكمَ وشَدَّ الشعر والقرصةَ الشريرةَ بين الحين والآخر. وكان لا بدّ أن يتبرّع أحدهم بالـ«إبلاغ» عني فيتم من ثم «تعييري» -disgraced- بالإنكليزية – وفَرْضُ العقوبات الصارمة عليّ: منعًا إضافيًا من الذهاب إلى السينما، أو تخفيضًا كبيرًا في خَرجِيّتي، أو كان أبي في الحالات القصوى يضربني.

عظَّم كلُّ هذا من إحساسنا بمكانة الجسد المميَّزة والإشكالية. كانت ثمة هوةٌ تَفْصل بين الصبيّ والبنت حُرِّم علينا نقاشُها أو سبرُ أغوارها أو حتى الإفصاحُ عنها طوال فترة المراهقة الحرجة. وإلى حين بلوغي الثانية عشرة، لم تكن لديّ فكرةٌ إطلاقًا عما تتضمّنه العملية الجنسية بين الرجل والمرأة ولا كنتُ أعرف الكثير عن تكوين جسدِ هذا أو تلك. ولكنْ فجأةً نفرتْ عباراتٌ مثل «سروالكَ الداخليّ» و«سروالكِ الداخليّ». «نستطيع أن نرى سروالكَ الداخليّ»، تعيّرني شقيقاتي، فأردّ

بتهوّر أكيد: «بل أنا أستطيع أن أرى سراويلكنّ الداخلية». وأَذْكر بوضوح تام أننا أُمِرنا بإغلاق أبواب الحمّام ضد المتطفلين من الجنس الآخر، علمًا أنّ أمي كانت تحضر دومًا عند تبديلي ثيابي، أو عند تبديل شقيقاتي ثيابهنّ. وأظنها كانت تدرك إدراكًا تامًا المزاحمةَ بين الأشقّاء وإغراءاتِ الشذوذ المتعددِ الأشكال المحْدقة بنا. على أنني كنتُ دومًا أشتبه في أنها كانت تلعب على تلك الغرائز والنوازع وتستخدمها لبذر الشقاق بيننا بتشديدها على الفوارق وتضخيمها نواقصَ واحدنا للآخر على نحوٍ دراميّ، بحيث تُشعِرنا أنها وحدَها مرجعُ كلٍّ منا وصديقُه الصدوق وحبُّه الأغلى. والمفارقة في الأمر أني ما أزال أصدّق أنها كانت ذلك كله. وكان على كلّ شيء بيني وبين شقيقاتي أن يمرّ عبرها، وكلّ ما أقوله لهنّ يجب أن ينبع من أفكارها هي ومشاعرها هي ومعاييرها هي لما هو الصوابُ والخطأ.

وبالطبع لم يكن أحدٌ منا يعرف تمامًا رأيها فيه، اللهم إلا على نحوٍ عَرَضيٍّ أو ملغزٍ أو منفِّرٍ (كما هو الأمر عندما أبلغتنا أننا قد خيّبناها جميعًا). فلم أدرك إلا في فترة متأخرة مدى شعورها بالنقصان والغضب تجاه حياتنا في القاهرة، إذ أستعيد تقليديتَها المحمومة وصرامتَها القسرية وغيابَ الصراحة (عندها وعند أولادها) ومناوراتِها اللامتناهية وانعدامَ الأصالة المتأصل فيها. ويعود معظمُ ذلك الجهل إلى طاقة أمي الأسطورية على جعلك تثق بها وتؤمن بها، مع علمك أنها إما أن ترتدّ عليك، بين لحظةٍ وأخرى، بحنقٍ وتقريعٍ لا مثيل لهما، وإما أن تستدرجك استدراجًا إلى دائرة سحرها المتألق. «تعال اجلِسْ بقربي، يا إدوارد»، تقول، فإذا أنت قد بتّ موضعَ ثقتها، يساورك إحساس مدهش بالأمان وشعورٌ أكيد أنها في مبادرتها تلك إنما تستبعد روزي وجين بل تستبعد أبي هو أيضًا. فهي تنمّ عن نزعةِ تملّكٍ شيطانية وتنمّ، في الوقت ذاته، عن منتهى الطواعية السمحة التي تتقبّلك لا بوصفك ابنًا بل بوصفك أميرًا من الأمراء. ذاتَ مرة، اعترفتُ لها بأني أجدني موهوبًا وخارقًا معًا، على الرغم من سلسلة مضحكة من الإخفاقات والمشكلات اللامتناهية التي أقع فيها في المدرسة وفي سائر الأمكنة. تبرّعتُ بذلك الاعتراف بوَجَلٍ شديد للتوكيد على وجود عزيمةٍ أخرى، بل ربما شخصيةٍ أخرى، كامنةٍ تحت «إدوارد». «أنا أعلم ذلك»، قالت لي برفق، في بوحٍ خفيض هو الأشد سرّيةً وتطمينًا.

ولكنْ ما هي أمي فعلاً؟ خلافًا لأبي، الذي كان رسوخُه العامُّ وإعلاناته الأنيقة كمًا مستقرًا ومعروفًا سلفًا، جسّدتْ أمي الحيويةَ في كل شيء، في كافة أرجاء البيت وفي حيواتنا ذاتها، تتدخل فيها بلا كلل، مُطْلقةً الأحكامَ، جارفةً إيانا جميعًا – بما في ذلك الثيابُ والغرفُ والخطايا المستورة والإنجازاتُ والمشكلاتُ المكشوفة – إلى مدارها المتوسع باستمرار. ولكنها حرمتنا بذلك تكوينَ حيّزٍ مشتركٍ في ما بيننا، مستبدلةً إياه بعلاقات ثنائية معها، كمِثْل علاقة المستعمَرات بالحاضرة الاستعمارية، وشكّلتْنا كمجرّةٍ تنفرد بالإحاطة بكامل أجرامها ومداراتها. فما تقوله لي عن حالها، مثلاً، تكون قد قالته أيضًا لشقيقاتي– وهذه هي الخصيصةُ الأساس في شخصيتها العملانية – من أنها امرأة بسيطة وإنسانة طيّبة لا تأتي إلا الأفعال الصالحة وتكنّ لنا جميعًا حبًا متساميًا وترغب في أن يخبرها كلٌّ واحد منا بكل شيء، في حين أنّها تحتفظ بالحق في إخفاء كلّ شيءٍ عن الجميع. وقد صدّقتُ ذلك كله بلا سؤال. فلم يكن في العالم الخارجيّ ما يبعث على الرضى: من دوامة تغيير المدارس (وما يستتبعه من تبديل الأصدقاء والمعارف)، والحيواتِ المختلفة التي عشناها، إلى هويتي غير المصرية المركبة، الملتبسة، بل والمريبة، وكوني عادةً في غير مكاني، أُمثّل شخصًا بلا ملامح محددة ولا وجهةٍ معروفة يتّجه إليها. فبدت أمي كأنها تتمثّل محنتي العمومية وتتعاطف معي. وكان هذا يكفيني دعمًا موقتًا أعتزّ به كبيرَ اعتزاز.

من أمي أحسستُ بجسدي جسدًا مثقلاً وإشكاليًا إلى حدّ لا يصدَّق، أوّلاً بسبب معرفتها الحميمة به، لأنها الأقدر على إدراك طاقته على ارتكاب الشرّ؛ وثانيًا لأنها حَرَمَتْ نفسَها الحديثَ علنًا عنه، فلم تقارب الموضوع إلا تلميحًا أو هي تستنطق أبي وأخوالي، فتتكلم عنه – أيْ جسدي – عَبْرهم، مثل الناطق من بطنه. وكان هذا هو الأكثر إرباكًا لي. وعندما كنتُ في حوالى الرابعة عشرة، قلتُ شيئًا أثار ضحكها المجلجل، ولم أكن مدركًا حينها مبلغَ الدهاء غير المتقصد في ما قلتُه. كنتُ تاركًا بابَ الحمّام مفتوحًا، وهي زلّة دالّة، ذلك أني حُزتُ في مراهقتي شيئًا من العزلة، ولكني، لسببٍ ما، كنتُ، في الآن ذاته، أبحث عمن يقتحمها بين الحين والآخر. فدخلتْ أمي فجأةً، وللحظة تركتِ الباب مفتوحًا ووقفتْ تتفحّص جسدَ ابنها العاري وهو يجفّف نفسه بسرعةٍ بمنشفة صغيرة. «أرجوكِ أن تغادري»، قلتُ

مشاكسًا، «وكفّي عن مواصلةِ التحرّي من حيث توقفتِ المرةَ الاخيرة». سجّلتُ بذلك الفوزَ المُبين، فانفجرتْ ضاحكةً، وأغلقتِ الباب للتوّ وغادرتْ على الفور. ولكنْ، هل غادرتْ فعلاً عادةَ التدخّل في شؤوننا؟

أدركتُ قبل ذلك بوقت طويل أنّ جسدي وأجساد شقيقاتي تقع في دائرة المحظور لسبب حرتُ في تفسيره. ذلك أنّ مراوحات أمي بين النقيض ونقيضه كانت تعبّر عن نفسها في احتضانها الاستثنائيّ لأولادها - فهي تَغْمرنا بالقُبَل، واللمسات، والعناقات، والهديل، مغدِقةً علينا ابتهالات البهجة بجمالنا ومؤهلاتنا الجسدية - لكنها لا تعفينا في الوقت ذاته من التعليقات السلبية المدمّرة على مظهرنا. عندما كنتُ في التاسعة وروزي في السابعة، أضحت السمنةُ موضوعًا خطيرًا ودائمَ الحضور في حياتنا. ومع تزايد وزن شقيقتي، صارت السمنة مدارَ بحث على امتداد طفولتنا ومراهقتنا والمرحلة المبكرة من شبابنا، يرافقه وعي تفصيليّ مذهل للمأكولات «الباعثة على السمنة» وما تستدعيه من محظورات لامتناهية. كنتُ نحيل الجسد إلى حد كبير، طويلاً، متناسق الكسم، وهذا ما لم تكنه روزي. وإذا أضيفتْ إلى هذه المفارَقَةُ بين اجتهادها في المدرسة وبين أدائي الرثّ، وبين العاطفة الخاصة التي يكنّها أبي لها وبين تعلّق أمي بي (علمًا أنّ كليهما كان يُنْكر المفاضلةَ بيننا على الدوام) ناهيك عن مديح فائق لدربتها في تنظيم الوقت وطاقتها على إبراز مؤهلاتها - وهي مواهب أفتقدها كليًا - فإنّ الفجوة بيننا كانت تتعمّق، ومعها يتفاقم تبرّمي من جسدي ومن جسد شقيقاتي.

كان أبي هو الذي بادر تدريجيًا إلى محاولة إصلاح جسدي، بل وإعادة تكوينه من الأساس. على أنّ أمي نادرًا ما اعترضتْ على ذلك، بل أخذتْ تدور بجسدي بانتظام من طبيب إلى آخر. وإذ أستذكر وعيي لجسدي منذ سن الثامنة فصاعدًا، أراه منحبسًا في نظام صارم من التصحيحات المتكررة، تمّتْ كلُّها بأمرٍ من أهلي، وأدى معظمُها إلى تفاقم نقمتي على ذاتي. ذلك أنّ «إدوارد» كان قد حلّ في كيان بشع مشوّه يشكو من كل العلل أو يكاد. إلى نهاية العام ١٩٤٧، عندما غادرنا فلسطين للمرة الأخيرة، كان طبيبُ الأطفال الذي يعتني بنا هو الدكتور غرونفلدر، اليهوديُّ الألمانيُّ، مثله مثل السيدة باير، المعروف بأنه أفضل أطباء فلسطين قاطبةً. تقع عيادته في حيّ هادئ ونظيف ومنظّم ووَرِيق من أحياء المدينة

الحارة الجافة التي كانت تبدو أجنبيةً على نحو نافرٍ لعينيّ الفتيّتيْن. وكان يخاطبنا بالإنكليزية مع أنه يُكثر من الوشوشة مع أمي، ونادرًا ما نجحتُ في استراق السمع إلى ما يقولان. وعليه أُحيلتْ ثلاثُ علل عضال، فقدّم لها علاجاته المزاجية المتميّزة. ويكفي تعداد تلك العلل لتبيان مبلغ المراقبة شبهِ المجهرية والكثيفةِ وغيرِ المبرّرة التي تعرّض لها بعضُ أعضاء جسدي.

العلة الأولى تخصّ قدميّ، وقد جاء التشخيص المبكر أنهما مَسْحَاوان. فوصف لي غرونفلدر قوسيْن معدنيتيْن انتعلتُهما مع أول زَوج أَحذيةٍ ولم أتخلّ عنهما نهائيًا إلا في عام ١٩٤٨ عندما تمكّن موظفٌ جسور، في محل «الدكتور شول» في «مانهاتان»، من إقناع أمي بعدم حاجتي إليهما.

أما علتي الثانية فهي رعشة غير إرادية كانت تمتلكني لبرهة وجيزة كلما هممتُ بأن أبول. طبعًا، طُلِبَ مني أداءُ الرعشة في حضرة الدكتور، وغنيٌّ عن القول إنه استعصى عليّ الارتعاشُ كما التبوّل. راقبتني أمي خلال أسبوعين وأكثر، ثم نقلت الأمر إلى «أخصائيّ طب الأطفال» ذي الشهرة العالمية. فهزّ غرونفلدر كتفيْه وأعلن «لا شيء. لعلها ذات أصل نفسانيّ» - وهي عبارةٌ لم أفقه لها معنى، غير أني لاحظتُ أنها زادت أمي همًا، والمؤكد أنها ظلّت تثير قلقي إلى أن تقدمتْ بي سنونُ المراهقة وطويت المسألة بعدها.

وأما ثالثة العلل فتتعلق بمعدتي، وهي مصدرُ أمراض وآلام جمّة لازمتني طوال حياتي. بدأ الأمر عندما شكّك غرونفلدر في ما درجتْ عليه أمي من عادةِ لفٍّ بطّانيةِ صوفٍ صغيرة وتدبيسها بشدّة حول بطني، صيفًا شتاءً، وفي ظنها أنها تحميني بذلك من الأمراض وبَرْدِ الليل وربما أيضًا من الإصابة بالعَين، وفيما بعد، أبلغني أصدقاء كُثُر أنها عادة دارجة في فلسطين وسورية. ذاتَ مرة، أبلغتْ أمي غرونفلدر بعلاجها الوقائيّ الغريب هذا في حضوري، فكان ردُّه، الذي أذكره بوضوح تام، تقطيبةَ حاجبَيْن متشكّكةً وقال: «لا أرى حاجةً إلى ذلك»، فاندفعتْ تُعدِّد له منوّعاتٍ من المنافع تعود عليّ منه (ومعظمُها حمائيّ). وكنتُ حينها في التاسعة أو العاشرة. ثم نوقش الأمرُ أيضًا مع وديع باز حداد، طبيب الأُسرة في القاهرة، فحاول هو أيضًا ثنيَها عن الاستمرار في ممارسة تلك العادة. واقتضى الأمرُ سنةً إضافية قبل أن أتخلّص نهائيًا من ذلك الشيء السخيف. وقد أبلغتني هيلدا لاحقًا

أنّ طبيبًا آخر حذّرها من أنّ تلك الممارسة سوف تزيد كثيرًا من حساسية وَسَطي، وهو ما يُفْقده المناعةَ أمام كل أنواع المتاعب.

هزُلَ نظري بسبب ما عانيتُه من التهابات في قناة العين ونَوبات التراخوما. ولسنتين، كان عليّ أن أضع النظّارات السوداء في زمنٍ لم يكن يضعها فيه أحدٌ. ثم وجدتُني، وأنا في السادسة أو السابعة، محكومًا بأَنْ أستلقي كلَّ يوم في غرفة مُعتِمة والكمّاداتُ تغطي عينيّ لمدة ساعة. وإذ نما قصرُ النظر، ازدادت صعوبة تمييز الأشياء، فيما كان أهلي يرون أنّ النظارات ليست «صالحة» لي بل إنها تصير «مُضرّة» بالتأكيد إذا اعتدتُ عليها. في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٩، وأنا في الرابعة عشرة من العمر، ذهبتُ لمشاهدة مسرحية «الأسلحة والإنسان» في قاعة إيوارت في الجامعة الأميركية في القاهرة، فلم أستطع أن أميّز شيئًا مما يجري على المسرح، إلى أن أعارني صديقي مصطفى حمدالله نظارتيْه. بعد ذلك بشهور ستة، وعلى أثر شكوى من أحد الأساتذة، حصلتُ على نظارةٍ مُرْفقةٍ بتعليمات صارمة من أهلي بأن لا أضعها كلَّ الوقت. وقيل لي إنّ نظري ضعيفٌ بما فيه الكفاية، وإنه سوف يزداد ضعفًا.

في الثانية عشرة، قيل لي إنّ الشَعْر النامي بين فخذيّ لم يكن «طبيعيًا»، وهو ما زاد من حرجي الذاتيّ المتضخم أصلاً. على أنّ أقسى النقد هو ما طاول وجهي ولساني وظهري وصدري ويديّ وبطني. لم أدرك حينها أني متعرِّض لهجومٍ معيّن، ولا اختبرتُ تلك الإصلاحات والقيود بوصفها حملات منظّمة – وهو ما كانته فعلاً. بل افترضتُها جميعًا مقوّماتِ عمليةِ تهذيب لا بد أن يمر بها المرءُ كجزء من مرحلة النمو. فإذا النتيجة الصافية لتلك الإصلاحات تعمِّقُ ارتباكي وخجلي من ذاتي.

على أنّ أطولَ عملية إصلاحٍ وأكثرَها إخفاقًا كانت تلك التي تتعلّق بقامتي، وقد أضحت هَوَسَ أبي وموضوعَه الأثير، عند بلوغي المراهقة. وفي حزيران/يونيو ١٩٥٧، عندما تخرجتُ من جامعة برينستون، بلغ الأمر ذروته عندما أصرّ أبي على أخذي إلى صانع حمّالات ومشدّات في نيويورك ليشتري لي نِيرًا أرتديه تحت قميصي. وأكثر ما أحبطني في تلك التجربة هو أني، وقد بلغتُ الحادية والعشرين، لم أعترض على كون أبي قد خَوَّلَ نفسَه أن يحزّمني مثلَ طفلٍ شقيّ ترمز قامتُه الملتوية إلى ماهيةٍ ذميمةٍ تستحق عقابًا عِلميًا. خلا وجهُ الموظف الذي باعنا القماط

من أيّ تعبير، فيما كان أبي يقول بودّ: «ألم أقل لك؟ إنه [القماط] يعمل بطريقة رائعة. لن تكون لك متاعب معه».

توّج النيِّر الأبيضُ، المصنوع من القطن والـ«لاتكس» الأبيضين، ذو الرباطات المتصالبة عبر الصدر وفوق الكتفين سنواتٍ بذلها أبي من المحاولات لجعلي «أقف مستقيمَ القامة». «الكتفان إلى الخلف»، كان يقول، «الكتفان إلى الخلف»، فتضيف أمي بالعربية: «لا تسترخ»، علمًا أنها ملتوية القامة مثلها مثل أمها. ولما استمرت المعصية، استسلمتْ للاَعتقاد أنّ قامتي موروثة من آل بدر، أسرةِ أمها، فكانت تتفلّت منها بين الحين والآخر آهةٌ قَدَريةٌ واستنكاريةٌ في آن معًا، تُرْفقها بعبارة «حردبّة بيت بدر»، وهي عبارةٌ ليست موجَّهةً إلى أحد بالتخصيص ولكنها تتقصد بالتأكيد إلقاءَ اللائمة على نَسَبي إنْ لم يكن عليها هي أيضًا.

ومهما يكن من أمرِ وراثتي حدبةَ بيت بدر، فقد ثابر أبي على مساعيه. وتضمنتْ تاليًا عددًا من «التمرينات» كأنْ يمرِّر عصًا تحت إبطيّ ويجعلني أُبقي عليها ساعتين على التوالي؛ أو أن أقف أمامه وأنفّذ، خلال ما لا يقل من نصف ساعة، أمرَه: «واحد»، فأشدّ مرفقيّ إلى الخلف بأقوى وأَسرعَ ما أستطيع، على افتراض أنّ التمرين من شأنه تقويمُ اعوجاج ظهري. وكان كلما وقعتُ في مرمى نظره، يهيب بي: «الكتفان، إلى الخلف». وغنيّ عن القول مدى الإحراج الذي كان يسبّبه لي عندما نكون برفقة أناس آخرين. ورغم ذلك، مرت أسابيعُ عديدة قبل أن أتجرأ على مطالبته بالكفّ عن إصدار تلك الأوامر في الشارع والنادي وحتى ونحن داخلان إلى الكنيسة. فتعاطى مع اعتراضي بحكمة: «هاك ما سوف أفعل»، قال مُطَمْئِنًا، «سوف أكتفي بقول "ظهر"، فلا يَفْهم المقصودَ إلا أنا وأنت». وهكذا ظللتُ أعاني «ظَهْر» لسنوات وسنوات، إلى أن ابتُليتُ بنيري.

ومن ملحقات الصراع حول قامتي أنها أثّرتْ في صدري، وقد ورثتُ عن أبي ضخامةَ الصدر ونفورَه البالغيْن. في مطلع مراهقتي أُعطيتُ جهازًا معدنيًا لتوسيع الصدر، مرفَقًا بتعليمات لاستخدامه من أجل تنمية حجم مقدّم جسمي وتقويمه، وقد عانى ما عاناه من اعوجاج قامتي المستمر. لم أتمكنَ من السيطرة على نوابض الجهاز التي تقفز مجنونةً في وجهك متهدِّدةً متوعِّدةً، إنْ كنتَ لا تملك القوة الكافية للإبقاء عليها مشدودةً. وحقيقةُ المشكلة، كما شرحتُ مرةً لأمي التي لم تُخفِ

تعاطفها معي، أنّ صدري أكبر بكثير من الحجم الطبيعيّ ؛ فإنْ أنا دَفَعتُه إلى أمام بعدوانية ووسّعته أكثر مما هو واسع، تحولتُ إلى صورة كاريكاتورية فظّة عن رجلٍ برميليّ الصدر مكتمل النمو. تفهمتْ أمي الأمر وحاولتْ إقناع أبي به، دون نتائج تُذكر. فالحال أنه عندما كان في الولايات المتحدة تأثّر أيّما تأثر بغريغوري سانداو، بطل كمال الأجسام الأسطوريّ ذي الصدر المتضخم النموّ والظهرِ المستقيم، الذي مثّل في فيلم «عوليس». فقال لي أبي ذات مرة إنّ ما يَصْلح لسانداو «يجب أن يكون صالحًا لك».

على أنّ مقاومتي المتكررة كانت تدفع أبي إلى حدود اليأس فيلطمني لطمات موجعةً حول كتفيّ، بل إنّه سدّد مرةً قبضةً عنيفةً إلى ظهري. وكان بمقدوره أن يكون عنيفًا من الناحية الجسدانية فيصفعني صفعات قوية على وجهي وعنقي، فأنكمش عنها أو أتجنّبها بطريقةٍ تشعرني بمَذَلّة كبيرة. أسفتُ لقوته وضعفي أسفًا لا تستطيع الكلماتُ التعبيرَ عنه، ولكنْ لم يَصْدر عني ردّ أو احتجاج حتى عندما اعتدى عليّ بالضرب المبرِّح على نحو مُهين وأنا طالبُ دراساتٍ عليا في هارڤارد، عقاباً على وقاحتي، كما صرّح لأمي. فتعلمتُ أن أتحسس مجيء الصفعة من طريقته الغريبة في مصٍّ شفته السفلى إلى داخل فمه وأَخْذِه نَفَسًا عميقًا فجأةً. وكنتُ أؤْثِر العناية المدروسة التي يَجْلدني بها - مستخدمًا مهمازَ الخيل - على العنف الغريزيّ الحانق والمخيف لصفعاته ولكماته التي تنهال على وجهي. وكانت أمي تصفعني هي أيضًا عندما تتملكها سورةُ الغضب، ولكنّ صفعاتها كانت أقل تواترًا وأضعف وقعًا من صفعاته.

الكتابة عن هذا الأمر الآن، وأنا في طورٍ متقدم من حياتي، مناسبةٌ لتدوين تلك التجارب بوصفها كلاً متكاملاً. والغريب أنها لم تخلِّف عندي أيَّ غضب، وإن تكن خلّفتْ بعضَ الحزن. وما يفاجئني أنها رسّختْ فيَّ حبًا لأهلي مترسِّبًا وعجيبًا في قوته. فقد تعايشتْ كلُّ الإجراءات الإصلاحية التي مارسها أبي عليّ مع تصميم غريب لديه على تركي أَسْلك طريقي بنفسي في ما بعد، وقد كان بالغَ السخاء خلال دراستي في پرينستون وهارڤارد ودائمَ التشجيع لي على السفر ومواصلة دروس البيانو والعيش عيشًا رخيًا، هذا إلى استعداده الدائم لتسديد ديوني (على طريقته الخاصة، طبعًا). غير أنّ ذلك أبعدني عنه بوصفي ابنه الوحيد والوريثَ المحتملَ

الوحيد للتجارة العائلية، تلك التي باعها بهدوء في السنة التي نلتُ فيها شهادة الدكتوراه في الآداب. ولكني لن أستطيع أن أغفر له أنّ ذلك التنازع على جسدي، وفرضَه الإصلاحاتِ والعقوباتِ الجسدانيةَ عليه، رَسَّخا لديّ شعورًا عميقًا بالخوف العميم الذي قضيتُ معظم حياتي أحاول التغلّب عليه. وما أزال أفكر أحيانًا أني جبان، تتوعدني كارثةٌ جبارة ضامرة تتحفز للانقضاض عليّ بسبب ذنوبٍ ارتكبتُها وسوف أُعاقَب عليها لا محالة في القريب العاجل.

ما لبث خوفُ أهلي من جسدي الناقص والمعيب أخلاقيًا أن انسحب على مظهري. فعندما كنتُ ما أزال في حوالى الخامسة، جزّوا شعري المجعّد الطويل في قَصّة قصيرة عادية. ولما كنتُ أتمتع بصوت «سوبرانو» لا بأس به وتجدني أمي المولعة بي «حلْوًا»، فقد شعرتُ باستنكار أبي لذلك بل بجزعه من أن أكون «مخنّثًا»، وهي كلمة قضّت مضجعي إلى أن بلغتُ العاشرة. ومن الأمور الغريبة في مراهقتي المبكرة تهجُّمُه على «رخاوة» وجهي، وخصوصًا فمي. كانت أمي تروي قصتين أثيرتين: الأولى عن ليوناردو دا ڤينشي وكيف أنه استخدم رجلاً كنموذج لصورة يسوع، وبعد سنوات مضت على تهتّك الرجل ذاته، استخدمه مجددًا ولكنْ كنموذج لتصوير يهوذا الاسخريوطي. والقصة الثانية هي استشهادها بلنكولن الذي دان شخصًا لبشاعته فتحدّاه أحدُ أصدقائه بقوله إنّ أحدًا ليس مسؤولاً عن بشاعته، ويروى أنّ لنكولن قال له: «كل امرئ مسؤول عن وجهه». وعندما كنتُ أوَبَّخُ لجنوحي ضد شقيقاتي أو لكذبي بصدد التهامي كلَّ قطع الحلوى أو لإنفاقي كلَّ المال الذي أُعطيتُه، يمدّ أبي يده فجأةً إلى أمام، واضعًا إبهمه والسبّابة على جانبَيْ فمي ضاغطًا عليه قارصًا المنطقة كلها في عدد من النخعات القصيرة القوية إلى اليسار والى اليمين وهو يُصدر همهمةً كريهة – «مممممممممممم» – يَعْقبها فورًا قولُه: «هذا الفم الرخو الذي لك». وأَذْكر وقفاتي المطوّلة أمام المرآة أرى إلى نفسي بقرفٍ إلى أن جاوزتُ سنِّي العشرين، أُمارس التمارين، كإبراز فمي إلى أمام، والكزِّ على أسناني رافعًا ذقني إلى أعلى عشرين أو ثلاثين مرة، في محاولة جاهدة لـ«شدّ» ما تهدّل من وجهي. وكان نموذجي الأول طريقة غلين فورد في الشدّ على عضلات فكّيْه تعبيرًا عن الجبروت المعنويّ وعن المشقّات التي كُتِبَ على «الأقوياء» أن يعانوها، فحاولتُ تقليده في ردود أفعالي على اتهامات أهلي. واستتباعًا لرخاوة وجهي وفمي، منعني

أهلي من وضع النظارات، وقد أفتتْ أمي، الدائمةُ الاستعدادِ لخلط الإدانة بالإطراء، في أنّ النظارات إنما تعتّم على «وجهك الحلوِ هذا».

أما جذعي فلم يُثِرْ أيَّ تعليق يُذكَر إلى أن بلغتُ الثالثة عشرة، أيْ قبل سنة من انتسابي إلى «ڤكتوريا كوليدج» عام ١٩٤٩. تعرّف أبي إلى رجل في نادي الجزيرة يدعى السيّد مراد كان قد فتح للتوّ ناديًا للتمارين الرياضية في شقة بشارع فؤاد الأول في الزمالك، لا تبعد أكثر من نصف ميلٍ عن بيتنا. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى وجدتني مسجَّلاً عنده لثلاثة دروس في الأسبوع مع نصف دستة من الكويتيين أَمّوا القاهرة للدراسة. تضمنت التمارينُ ثنيَ الرُّكبتَيْن وتقاذُفَ «الكرات الطبّية» ورفعَ الأثقال وتنميةَ عضلات البطن والهرولةَ والقفزَ (وكل ذلك في حجرة مربّعة منمنمة). وسرعان ما صرتُ كبش المحرقة لمعلّمنا النحيل، السيد رجب، الذي كان يصيح بي بإنكليزية متغطرسة: «مزيدًا من الجهد»، «فوق، تحت، فوق، تحت»، إلخ. ووقعتِ الواقعةُ بعد مضيّ أسابيع معدودة: «هلمّ إدوارد»، قال مزدريًا تمارينَ تقوية عضلات البطن التي أقوم بها، «يجب أن نعيد إلى بطنك هذا شكله». وعندما قلتُ إني ظننتُ أنّ ظهري هو الهدف من وجودي في ناديه الرياضيّ، وافقني لكنه أردف قائلاً إنّ جذعي ليس صلبًا بما فيه الكفاية، «في كل الأحوال، هذا ما يريدنا والداك أن نفعله». لم أُثِرِ الموضوعَ قطّ مع أهلي، لحرجي الكبير الناجم عن معرفتي رأيَهم في جذعي. وهكذا تولّد شَرخٌ آخر في علاقتي بجسدي. وإذ ارتضيتُ الحكمَ الصادر عليّ، استبطنتُ النقد وازداد حرجي وانعدامُ ثقتي بهويتي الجسدانية.

أصبحتْ يداي الإشكاليتان الميدانَ المميَّزَ لاهتمام أمي النقديّ. وعلى الرغم من أني كنتُ أدرك، ولو بطريقةٍ غامضة، أني لا أشبه آل سعيد (وهم قصار وجسامٌ وشديدو السمرة) ولا أَقاربَها من آل موسى (وهم بِيضُ البشرة، متوسطو القامة والبنية، ولهم أصابع وأطراف أطول من المعتاد)، فقد اتضح لي أني أَملك طاقاتٍ من القوة الجسدية ومن المؤهّلات الرياضية حُرِمَها سواي. فعند بلوغي الثانية عشرة، كنتُ أطول بكثير من أيّ فرد آخر من أفراد العائلة، وبفضل إلحاح أبي المستغرَب، جمّعتُ عِلْمًا وخبرةً في ألعاب رياضية عدة، بما فيها كرةُ المضرب والسباحةُ وكرةُ القدم (على الرغم من إخفاقي الملحوظ فيها) وركوبُ الخيل وألعابُ الميدان

والكريكيت وكرةُ الطاولة والملاحةُ البحرية والملاكمة. ولئن كنتُ لم أُبرِّز في أيّ منها فلأنّ خجلي الشديد عطّل قدرتي على السيطرة على الخصم، على أنه نَمَتْ عندي مهارةٌ طبيعية كبيرة فيها جميعًا. وهذا ما سمح لي أن أنمّي، عبر السنين، قوتي البدنية وبعضَ العضلات وزخمًا ونَفَسًا خارقيْن، وما أزال أتمتع بهاتين الميزتين الأخيرتين. كانت يداي كبيرتين بنوع خاص، ومعروقتيْن بطريقة استثنائية ورشيقتيْن، فإذا بهما في عين أمي تارةً موضعَ إعجاب حدُّ العبادة (الأنامل المطاولة النحيلة، أشكالها المتناسقة، ورشاقتها الرائعة) وطورًا موضعَ إدانةٍ شبهِ هستيرية («يداك هاتان أدوات قاتلة»؛ «سوف تُوديان بك إلى التهلكة»؛ «حذارِ»).

رأت أمي في يديّ كل شيء سوى أنهما يدان. رأت فيهما مطرقتيْن وكلاّبتيْن وهراوتيْن وأسلاكًا فولاذية وأظافرَ ومقصّاتٍ. وحين يهدأ روعُها ويسكن هياجُها، تراهما أرفَع أنواع الأدوات وأكثرها رقةً. أما مصدر اهتمام أبي بيديّ فكان أظافري التي كنتُ أقضمها باستمرار، فحاول لعقود من الزمن ثنيي عن فعلتي إلى درجة أنه خَضَّبهما بمحلولٍ طبّي كريه المذاق ووعدني بحفلة مانيكور فاخرة عند «شي جورج»، الحلاق الفخم الذي يقصّ له شعره في شارع قصر النيل. لكنه عبثًا حاول، مع أني كنتُ أحيانًا كثيرة أخفي يديّ في جيوبي وأنا أتفادى تحديقه حتى لا َيلْفت «ظهري» نظرَه أو نظرَ أيٍّ سواه.

وقد تمازج المعنويُّ مع الجسديّ أكثرَ ما تمازجا عندما كان الأمر يتعلّق بلساني الذي حظي بسلسلة كثيفة من الاستعارات والتشبيهات في العربية، معظمُها سلبيّ، تتكرر، في حالي، بوتيرة متسارعة. في الإنكليزية، كنتَ تسمع فقط عن «لسان مُقْذع» أو «لسان سليط» في مقابل «اللسان العذب». وعندما تنفلت مني عبارةٌ نابية، يُلقى اللومُ فيها على لساني «الطويل» والعدوانيّ والمنفّر والمنفلت من عقاله. وهذا النعت شائع في العربية لتعيير مَنْ يفتقر إلى الدماثة والبلاغة، وكلاهما من الخصال الحميدة في معظم المجتمعات العربية. والحقيقة أنّ كبتي هو سبب سوراتي الدورية، ذلك أني بالغتُ في التعويض عن ذلك الكبت – في الاتجاه المعاكس. أضِفْ إلى ذلك استهتاري بكل اللياقات في مخاطبة الأهل والأقارب والشيوخ والأساتذة والأشقّاء والشقيقات على حد سواء. وهذا ما لاحَظَتْه أمي التي كانت تصعِّد الذَّنْب إلى مصاف النذير بعواقب وخيمة آتية. يضاف إلى هذا، عجزي

المطلقُ عن كتم الأسرار أو مجاراة الآخرين في انتقاء ما يجوز أو لا يجوز قولُه من الكلام. من هنا، اعتُبِرتُ، في إطار اللغة العربية، شاذاً عن السلوك القويم وكائنًا فظًا يجدر بالآخرين تجنّبه.

ولعلّ المسألة الأساسية كانت الجنس، أو بالأحرى الحظرَ الذي ألقاه أهلي على تدخُّله في حياتي، وتعطيلِهم لمفاعيله حين لم يكن في مقدروهم طردُه منها. تصوَّرْ أني عندما غادرتُ الولايات المتحدة عام ١٩٥١، وأنا في الخامسة عشرة من العمر، كنتُ ما أزال متبتلاً كليًا ومعاشرتي الفتيات معدومةً. حتى إنّ أفلامًا مثل «قُطّاع الطُرُق» و«مبارزة تحت الشمس» وحتى «فابيولا»، المسرحية ذات الازياء التاريخية التي تمثّل فيها ميشيل مورغان، وقد رغبتُ رغبةً شديدةً في مشاهدتها، كانت محظورةً عليّ بحجة أنها «غير مناسِبة للأطفال». وقد استمرتْ تلك المحظورات ساريةَ المفعول إلى حين بلوغي الرابعة عشرة. ولم يكن يوجد مجلاتٌ جنسية أو أفلامُ ڤيديو إباحية متوافرة علنًا في تلك الأيام. ثم إنّ المدارس التي ارتَدْتها في مصر والولايات المتحدة إلى حين بلوغي السابعة عشرة والنصف كانت تُوَلدِنُ كلَّ شيء وتنزع عنه كلَّ صفة جنسية. وينطبق الأمر ذاتُه على جامعة برينستون حيث درستُ إلى حين بلوغي الحادية والعشرين. كان الجنس ممنوعًا في كل مكان، بما في ذلك الكتب، على الرغم من أنّ فضولي وتوافُرَ الكتب في مكتبتنا حالا دون تطبيق المنع الكامل في هذا الميدان. فقد قرأتُ وصفًا يتضمّن التفاصيل الوافية عن العملية الجنسية في مذكرات ويلفرد ده سانت ماندي عن الحرب العالمية الأولى. والكاتب ضابط بريطانيّ لم أكن أعرف عنه شيئًا سوى أنه ينتقل من ساحة الوغى إلى المواقعة الجنسية وبالعكس خلال ما يزيد على ستمئة صفحة. وحقيقة الأمر أنّ سانت ماندي صار واحدًا من رفقاء مراهقتي الصامتين السريين. ولم يكن ذلك العسكريّ المتهتّك، والهمجيُّ المتعطش إلى الدم، ابنُ الارستقراطية البريطانية، بالقدوة الحسنة، ولكني لم آبه للأمر، بل زاد من تعلّقي به. وهكذا أُبعدتُ بعناية في حياتي العلنية عن كلِّ ما من شأنه إثارةُ الغريزة الجنسية، دون أن يؤتى على ذكر الأمر إطلاقًا. لكنّ حاجتي العارمة إلى المعرفة والاختبار هي التي خرقتْ قيود الأهل، إلى أنْ حدثتْ مواجهة علنية ما أزال أرتعد لذكراها بعد مضيّ ست وأربعين سنة عليها.

فبعد ظهر يوم أحدٍ قارسِ البرد في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٤٩، وفي تمام الساعة الثالثة، وبعد أسابيع معدودةٍ من بلوغي الرابعة عشرة، حدث طرقٌ قويّ على باب غرفة نومي أعقبه على الفور لويٌ متسلِّطٌ وصارم لمقبض الباب. وإذا هي زيارةٌ للأهل بعيدةٌ كلَّ البعد من أن تكون وديّة. بل هي كبسةٌ شرسةٌ بامتياز على شخصي، جرى الإعدادُ لها خلال ما لا يقلّ عن ثلاث سنوات إلى حين بلوغها تلك الذروة، ونُفِّذتْ باستقامة لا يأتيها الباطلُ من أمام أو وراء، وكلُّ ذلك «لصالحكَ»، كما قالوا. وقف أبي قرب الباب للحظة ممسكًا بقرفٍ القطعةَ السفليةَ من منامتي بيده اليمنى، وقد تذكرتُ يائسًا أني تركتُها في الحمام ذلك الصباح. فمددتُ يديّ لالتقاط الأداة الجُرْمية، متوقعًا أنْ يؤنّبني، كما فَعَلَ مرةً أو مرتين من قبل، لتركي أشيائي متناثرةً خلفي («رجاءً، ضُبَّها في مكانها؛ لا تتركْ أغراضك ليلمّها عنك شخص آخر»)، مضيفًا أنّ الخدم ليسوا موجودين من أجل راحتي الشخصية.

ولكنّي أيقنتُ أنّ الأمر أكثر خطورةً مما ظننتُ للوهلة الاولى، حين ظلّ ممسكًا بقطعة الثياب في يده. فغُصْتُ في السرير متحيِّنًا الهجومَ بقلق. وعندما بلغ وسط الغرفة، وفيما هو يهمّ بالكلام، شاهدتُ وجه أمي المتقع يؤطِّره البابُ على مبعدةِ خطواتٍ منه. لم تنبسْ ببنت شفة، بل حضرتْ لإضفاء ثقل عاطفيٍّ على ادعائه عليّ في تلك القضية. «أنا وأمك لاحظنا» – قال ملوِّحًا بالمنامة – «أنك لم تستحلم. وهذا يعني أنك تَعْبث بجسدك». ولم يكن قد أَطْلق العبارة على نحوٍ اتهاميّ من قبل، على رغم أنّ مخاطر «العبث بالجسد» وفضائلَ الاستحلام كانت موضوعَ محاضراتٍ وشروحٍ جمّة أُلقِيَتْ عليّ خلال نزهة على ظهر الباخرة «ساتورنيا» خلال إبحارنا إلى نيويورك في تموز/يوليو ١٩٤٨.

جاءت المحاضرات والشروح ردًا على سؤال كنتُ قد وجّهتُه إلى أمي عن زوجين صغيرين قويي البنية من مغنّي الأوبرا الإيطاليين أبحرا معنا على متن الباخرة «ساتورنيا». كانت ترتدي كعبًا عاليًا جدًا وثوبًا أبيض يهصر جسدها هصرًا، وشفتاها مثقلتيْن بأحمر الشفاه، وكان هو يزهو في بذلة بنّية برّاقة منتعلاً حذاءً عالي الكعب وقد ملّس شعَره إلى الخلف بعناية. وكان ينبعث منهما شَبَقٌ طافح لم أستطع الربط بينه وبين أية ممارسات جنسية محددة. وعلى حين غفلة،

سـألتُ أمي بارتبـاك وتلعـثم كيف «يفعلـها» هؤلاء القـوم، إذ لم أكن أعـرف الكلمـات المناسبة لذاك «الفعل»، ولا الكلمة المناسبة للقضيب أو الفرج أو الملاعبة، فكلُّ ما استطعتُه هو إيراد التبوّل والتبرّز في سؤالي وقد خطر لي، لسببٍ ما، أنهما يدلان على اللذة أيضًا. فإذا بنظرة جزعٍ وقرفٍ على وجه أمي ترمي بي إلى حوار «من رجل إلى رجل» مع أبي. والحال أنَّ القسم الأكبر من سلطانه الطاغي ومن قوته القاهرة عليّ كان يكمن في تلك التوليفة الغريبة من الصمت ومن تكراره لكليشيهات التقطها من أماكن متنوعة: من كتاب **أيام طوم براون في المدرسة** ومن «جمعية الشبان المسيحيين» ومن دروس فن التسويق ومن التوراة والمواعظ الإنجيلية ومسرحيات شيكسبير وما إليها.

«فكِّرْ بكأس تمتلئ رويدًا رويدًا بسائلٍ ما»، هكذا استهلَّ أبي حديثه، «وما إنْ تطفح الكأس» – وهنا كَوَّرَ يدًا وباليد الثانية قَشَطَ السائل الافتراضيّ الفائض [من اليد الأولى] – «حتى يكون من الطبيعي أن يفيض السائل منها، فإذا أنت تستحلِم». صمتَ لبرهة. ثم واصل حديثَه المجازيّ: «هل شاهدتَ مرةً فرسًا تكسب السباق دون أن تواظب على خَطْوٍ ثابت؟ لا، بالطبع. فإنْ هي بدأتِ السباقَ متقدمةً على الآخرين، فإنها لن تلبث أن تتعب وتتخلّف عن الرَّكْب. الأمر نفسه ينطبق عليك. إذا أخذت «تعبث بجسدك»، لن تمتلئ كأسُك ولن تفيض ولن تكسب سباقًا، بل لن تصل إلى نهاية الشوط». وفي مناسبة مماثلة، أضاف التحذيرَ من إصابتي بالصلع أو الجنون، أو بكليهما معًا، جرّاء «العبث بالجسد» الذي نادرًا ما كان يشير إليه بـ «الاستمناء» وهي كلمة كان يَلْفظها بنبرة لومٍ مخيفة.

لم يتكلم أبي مـرةً عن ممارسـة الحب، ناهيك عن النـّ..... وعندمـا طرحتُ السؤال عن كيفية ولادة الأطفال، كان الجواب أقرب إلى ترسيمة جاهزة. حتى إنّ حَمْل أمي المتكرر، وخصوصًا انتفاخ بطنها بطريقةٍ تُنْذر بالخطر خلاله، لم يُسهم في حسم المسألة. كانت تعتمد الجواب نفسَه دائمًا: «كتبنا رسالةً إلى يسوع فَبَعَثَ إلينا بطفل!». أما ما قاله أبي بعد تحذيره الصارم على ظهر الباخرة من «العبث بالجسد» فكلماتٌ شحيحة، كأنه يُقفل بها البحث، عن كيفية وضع الرجل «أعضاءه الحميمة» في «الأعضاء الحميمة» الخاصة بالمرأة. فلا شيء عن النشوة أو القذف، أو عن موضع تلك «الأعضاء الحميمة» من الجسم. وهو لم يأتِ مرةً على ذِكْر اللذة.

أما التقبيل، فقد أشار إليه مرة واحدة فقط خلال السنوات التي كنا فيها معًا. «يجب أن تتزوج امرأة»، قال لي عندما كنتُ في الكلية، «ما باس فمها إلاّ أمها». ولم يؤتَ حتى على ذِكر العذرية، وهو المفهوم المبهم الذي سمعتُ به في مدرسة الأحد ثم خلال دروس التعليم الدينيّ، فلم يكتسب عندي معنًى محددًا إلا عند بلوغي العشرين.

بعد أن عدنا إلى الولايات المتحدة، في خريف ١٩٤٨، سنحتْ مناسبتان أو ثلاث مناسبات لنتحادث من رجل إلى رجل، يساورني فيها كلَّ مرة شعورٌ متنامٍ بالانتهاك والذَّنْب. سألتُه ذات مرة كيف يَعْلم المرءُ أنه قد استحلم. «تَعْلم ذلك في الصباح»، كان جوابَه الأول. وكما العادة، ترددتُ في الاستزادة من الأسئلة. على أني ما لبثتُ أن أقدمتُ عندما أثار الموضوعَ مجددًا، مرفِقًا إياه برواية أكثر تزويقًا عن شرور «العبث بالجسد» (وَرَدَ فيها أنّ الرجل يُضْحي «عديمَ النفع» و«فاشلاً» إذ يتمكن منه الانحطاطُ نهائيًا). «الاستحلام إفرازٌ ليليّ»، قال كأنه يقرأ في كتاب. «هل هو مثل البيبي؟» سألتُه مستخدمًا التعبير المخفّف الذي نستخدمه جميعًا للتبوّل (كان لفظ «بيبي» البديلَ الأقلَّ مجازفةً بالتأكيد، تنهاني أمي دائمًا عن استخدامه فلا أتفوّه به إلا عندما «أتشيطن»، مثل قولي لإحدى شقيقاتي «أستطيع أن أرى سراويلكِ الداخلي!!»، بما هو فعلٌ إضافيٌّ من أفعال العصيان والعناد).

«نعم، إنه يشبه التبوّل، إلى حد ما، لكنه دبِقٌ أكثر من البَول ويَعْلَق على منامتك»، قال إذذاك. ففهمتُ لماذا كان يحمل منامتي بطريقة مخبرية في يده اليسرى، فيما هو يقف على مبعدة خطوات من سريري. «لا أرى أيَّ شيء عالقًا على هذه المنامة إطلاقًا»، قال لي بعبوس ونظرةِ قرف، «لا شيء. كم مرةً حذّرتُكَ من مخاطر العبث بجسدك؟ ماذا دهاك؟». ثم رنا صمتٌ، فيما رحتُ ألقي نظرةً خاطفة تتجاوز أبي نحو أمي. ورغم معرفتي أنها تتعاطف معي في قرارة نفسها معظمَ الأحيان، فإنها نادرًا ما تنشقّ عن معسكر أبي. في تلك اللحظة، لم ألقَ منها أيَّ تعاطفٍ على الإطلاق. كلّ ما رأيتُه نظرةٌ متسائلة وَجِلة، كأنها تقول: «صحيح، إدوارد، ما الذي أنتَ فاعله؟» وقد أضافتْ إليها القليلَ منْ «لماذا ترتكب هذه الأفعال الشريرة التي تؤذينا؟».

امتلكتْني للفور حالٌ من الرعب والذنب والعيب والهشاشة، إلى درجة أني لن أنسى ذلك المشهد ما حييتُ. وأهمُّ ما في تلك المشاعر كيفيةُ تركّزها على أبي الذي

سامتني إدانتُه الباردةُ لي، وأنا في سريري، الإفحامَ والهزيمةَ. لم يكن لي ما أعترف له به مما لم يكن يعرفه أصلاً. لم يكن لي أيُّ عذر. فحقيقة الأمر أني لم أستحلم، مع أني خلال العام المنصرم كثيرًا ما كنتُ أستيقظ من النوم متوجِّسًا، أُنقِّب في السرير وفي منامتي عن دليلٍ يدلّ على حصوله. فلقد قطعتُ أشواطًا في انحداري إلى التهلكة، وربما إلى الصلع أيضًا. (وقد فزعتُ ذاتَ مرةٍ بعد الحمّام إذ لاحظتُ أن شعري المبلّل، وهو كثّ جدًا في العادة، قد ظهرتْ عليه بقعٌ دالّة على الصلع. وقد توجستُ أيضًا من أن يكون إصرارُ أبي على قصّ شعري تكرارًا يراد منه قطعُ الطريق على ظهور تلك الآثار المبكّرة للعبث بالجسد. «قُصّ شعرَك تكرارًا وقُصّه قصيرًا مثل قَصّة شَعر أبيك»، كان يقول، «يبقَ قويًا وكثًا»). هكذا انكشف سرّي. وكلُّ ما خطر في بالي هو أنه لا مكان ألجأ إليه هربًا من العقاب الرهيب الذي سوف يحلّ بي لا محالة. وبطريقةٍ ما، بعث فيّ القلقُ الغامضُ والطاغي الذي عانيتُه شعورًا محددًا جدًا بالخطر، وللحظةٍ شعرتُ وكأني أتشبث بـ«إدوارد» إنقاذًا له من الانقراض.

«ليس لديكَ ما تقوله، أليس كذلك؟»، أخذ أبي نفسًا سريعًا ثم كانت الذروة، إذ قذف بالقطعة السفلية من منامتي نحوي بعنف وبما بدا لي أنه منتهى القرف اليائس: «حسنًا، إذًا، استحلِمْ!». صدمني الأمر القاطع – فهل يستطيع المرء فعلاً أن يستحلم بهذه البساطة متى يشاء؟ – فغصتُ أكثر فأكثر في سريري. ثم حين ظننتُه يهمّ بالمغادرة، عاد والتفتَ إليّ مجددًا:

«أين تعلمتَ العبث بجسدك؟» فكأن أعجوبة وقعتْ فأعطتني مخرجًا لأَنْفذ بجلدي من تلك الورطة. تذكرتُ في ومضةِ ذهنٍ أني منذ أسابيع معدودة، قرابةَ نهاية الصيف، وقبل بداية الفصل الدراسيّ، كنتُ أتسكع في غرفة تبديل الشباب لملابسهم في نادي المعادي. وكان في ذلك الحين ناديَ أبي الأثيرَ للعب الغولف والبريدج إلا أنّ معارفي فيه كانوا قلائل نسبيًا. وكنتُ، بخجلي المعهود، أَدْخل غرفةَ تبديل الملابس لارتداء المايوه فأتلكأ فيها على أمل عقدِ صداقة جديدة أو مصادفةِ أحدِ المعارف القدامى. ولكنْ ما من شيء كان يخفِّف من شعوري بالتوحّد. في تلك المرة، اقتحم الغرفةَ عصبةٌ من الفتيان يكبرونني سنًا، يَرْشحون ماءً من السباحة، يتقدمهم إيهاب، الفتى الطويل جدًا والنحيل جدًا الذي يشي صوتُه العميق بالثقة

بالنفس: كان ثريًا ومطمئنًا ومستقرًا وفي مكانه. «هيّا إيهاب، اِفْعَلْها»، ألحّ عليه الآخرون. كنتُ قد شاهدتُه من قبل ولكننا لم نتعارف، فلم يكن أبَوَانا على معرفةٍ واحدهما بالآخر، وكنتُ ما أزال متّكلاً على مثل هذا النوع من التعريف الأبويّ. أنزل إيهاب سرواله، واعتلى المقعد، وفيما هو يتلصص من فوق الجدار على منطقة التشمّس حول حوض السباحة، بدأ يستمني. سمعتُني تتفلّت مني كلمات «افعلْها على نيّة كوليت». وكوليت فتاة عشرينية جذابة جنسيًا ترتدي دائمًا مايوهًا أسود، وكانت تَنْعم عليّ بحضور طيفها استيهاماتي الجنسية. لم يسمعني أحد، فحسبتُني جحشًا فاحمرّ وجهي خجلاً على غير إرادة مني، ولكنْ بدا أنّ أحدًا لم يلاحظ ذلك أيضًا. فالجميع يراقب إيهاب وهو يشوص فرخه ببطء، إلى أن قَذَفَ أخيرًا، وببطءٍ أيضًا، مُطْلقًا ضحكةً مغرورة وهو يَعْرض علينا أصابعه الدبقة كأنه فاز للتوّ بكأس في مباراة رياضية.

«كان ذلك في النادي. فَعَلَها إيهاب»، أفشيتُ ذلك لأبي وهو لا يدري مَنْ هو إيهاب ولا ما كنتُ أحاول قوله. فأدركتُ أنه لم يسألني سؤالاً محددًا، بل كان يطرح سؤالاً مجازيًا. كنتُ مُذْنبًا، بالطبع. وهو يَعرف ذلك قطعًا. ثم إنّ ذنوبي قد انكشفتْ أمام أمي التي لم تنبس بكلمة وإنما ظهرتْ على محيّاها علاماتُ رعبٍ لا يكاد يَفْقه ما يجري حوله، بل قُلْ تفجُّعَ أمٍ ثكلى.

لم يبدُ أنّ أبي كان مهتمًا كثيرًا بالشرح الذي قدّمتُ، ولا كان يصغي خلال الثواني التالية التي تفوهتُ فيها بإعلاناتي الخرقاء عن التصميم على أن تكون أفعالي التاليةُ هي لغرض الإصلاح الذاتيّ. لقد كَشَفَ أمري فوجدني مقصرًا، وكان يدري أيّ ضرر أُحدثه لنفسي، فحَكَمَ عليّ بأني ضعيف وغيرُ أهلٍ للثقة على الإطلاق. وهذا كلّ ما في الأمر. فقد سَبَقَ أن حدّثني عن الكأس وفرس السباق، وعن الصلع والجنون. وكَرَزَ عليّ مواعظه ما لا يقلّ عن ثماني مرات، وكلُّ ما يستطيعه الآن هو أن يكرّرها مجددًا أو يكتفي بتسجيل الجريمة «بحكمة» (وهي كلمة يحلو له استخدامُها) ويمضي في حال سبيله، موقنًا أنّ سلطته وحُكْمه الأخلاقيّ صامدان على نحوٍ خارق ولم يصابا بخدش. فلم أعاقَب على رذيلتي السرّية، ولم يجرِ تذكيري بها. لكني لم أقتنع بأنّي أفلتُّ بخفة. فلقد أُضيفَ هذا الإخفاقُ المؤكد الذي سجّلتُه على نفسي، كما تجسّد في ذلك المشهد المسرحيّ

بامتيان، مثلَ شرخٍ جديدٍ ذي طاقة تدميرية عظيمة، إلى بنية «إدوارد» الهشة والمتخلخلةِ أصلاً.

خلال السنوات العديدة التي قضيناها في القاهرة، مارس أبي رقابةً من نوع أكثر علانية لأنه كان أحد الأوائل في مصر الذين امتلكوا بفخرٍ آلةَ تصويرٍ سينمائيةً من عيار ٨ ميليمترات. وكان بالغ الانشغال بتسجيل مشهد متكررٍ تلو مشهد لـ«إدوارد» وأمِه وأبناءِ عمومته وعماته وعمومته (لا أحد خارج العائلة) يلعبون أو يرتاحون بسعادة وهناءة الرعوية متحررين من المتاعب. بهرتني الآلة المسطحة المستطيلة التي تنبعث منها رائحةُ البلاستيك، بدواخلها المعقدة ومسالكها المتماوجة التي يمرّ الفيلمُ من خلالها، وما يستدعيه ذلك من صبر خلال التعبئة والتسليك وإخراج الفيلم. ولم يكن أيٌّ من والديّ على مقدار كبير من المهارة، وهي إعاقة يبدو أني ورثتُها منهما في ما يتعلق بالشؤون العملية، بل إنّ أبي كان أخرقَ بالتأكيد. فقد كان يشتري الأفلامَ في بَكَرات صغيرة ويعبِّئها في الكاميرا بطريقة مستهترة إلى حد أنها تستعصي، فيستخرج فيلمًا آخر، وينتزع الفيلم القديم بغضب من الآلة ويرميه جانبًا، ثم يعبئ الكاميرا بالفيلم الجديد ويباشر التصوير أخيرًا. وكان يسير كلَّ بضعة أسابيع إلى محل «كوداك» في شارع عدلي باشا لتسليم الأفلام للتظهير، وبدأتُ أُرافقه عندما بلغتُ الثامنة، فكنتُ أراه يجمّع الأفلام في أربع بكرات كبيرة أو خمس، والحجمُ الكبيرُ أكثر ملاءمةً لأنه يتيح ثلاثينَ دقيقةً من العرض المتواصل على آلة العرض.

مرة أو مرتين في الشهر، كنا نمارس طقس إسدال ستائر غرفة الجلوس الشاسعة وتركيز آلة العرض المتطوّرة، الدائمةِ البريقِ، على منضدة القهوة الصغيرة الحديثة ونَنْصب الشاشة المركزة على سِيبة ثلاثية. وإذ تَعْبق رائحة الطزاجة الميكانيكية المصقولة في أرجاء الغرفة، نطفئ الأنوار ونستقرّ في كنكنةٍ على مقاعد الدار الكبيرة المزدحمة والكراسيّ، نشاهد أنفسنا في حديقة الحيوان وفي «سيران» على طريق الصحراء أو عند الهرم.

بعد شهور ستة على وفاة أمي عام ١٩٩٠، عثرنا في قعر إحدى خزائنها في بيروت على كدسة كبيرة من الأفلام معلّبةً بعناية في علب بيضاء وزرقاء صنعها أبي خصيصًا لها بواسطة موظفي محلّه للقرطاسيات والتجليد. بلغ عددها نحوًا من

خمس وثلاثين علبةً تحوي ما مجموعه ١٢٠ فيلمًا صُوِّرت بين عاميْ ١٩٣٩ و١٩٥٢، وقد عَنْون أبي البعض منها بخطه الرديء - «القاهرة ١٩٤٤»، «القدس ١٩٤٥»، «زواج يوسف» - وتنبعث منها رائحةٌ، بل ملمسُ، أمسيات العروض السينمائية أيامَ زمان. حملتُها معي إلى منزلي في نيويورك حيث قبعتْ سنواتٍ في صندوقٍ كرتونيّ غريب، وأنا أتساءل بفضول بين حين وآخر أيةُ حقبة من حياتنا القديمة محفوظةٌ فيها، فيما راحت هي تنحدر ببطء في النسيان والإهمال.

وتشاء الصّدَفُ أن يجري تأهيلُ تلك الأفلام من جديد. فقد طَلَبَ مني مُخرجان شابان من البي. بي. سي.، يُعدّان فيلمًا تسجيليًا عن تأليفي كتاب **الثقافة والامبريالية**، بعضَ الصور العائلية القديمة، فدفعتْني غريزةٌ غامضة إلى التفكير في الصندوق الذي يحوي الأفلام القابعة في عُلَبها تنتظر بصبر. وقد أخذَ الشابان الأفلام إلى لُندن حيث حُوِّلتْ إلى أفلام ڤيديو.

لم يخب أملي فحسب من رداءة التصوير ومن كثرة الاهتزاز فيه والمشاهد غير المُقنِعة، ولا اقتصر الأمر على أنّ طبع الأفلام جاء إما فاتحًا جدًا وإما مُعتمًا جدًا. بل كانت الأفلام، إلى هذا كله، تستثني الكثيرَ الكثيرَ، فبدت اختزاليةً وجامدةً بإقصائها كلَّ أثر للجهد والقلق من حيواتنا. فالبسمات التي تعلو وجوه الجميع، والحبورُ المستحيل التصديق، وأمي التي تبدو فيها بدينةً أحيانًا (وأنا أذكرها أكثرَ نحولاً وأشدّ مزاجيةً)... كلُّ ذلك أبرزَ النوعيةَ الاصطناعيةَ لماهيتنا: أسرةٌ تُصرّ على افتعال تصوير نفسها جماعةً أوروبيةً صغيرة، على الرغم من بيئتها المصرية والعربية، وهي بيئة تكتفي الأفلامُ بالتلميح إليها تلميحًا من خلال جَمَلٍ وبستانيّ وخادمٍ وشجرةِ نخيلٍ وهرمٍ وسائقٍ مُتطربِش تمرّ عليهم مرورَ الكرام عينٌ كاميرا تركِّز خلا ذلك تركيزًا حَصْريًا على الأطفال والأقارب المتنوعين. في الأفلام الأولى مشاهدُ لي ولروزي نلعب: أضعها في كفة «يا طالعة يا نازلة» وأعود مسرعًا إلى الكفة المقابلة، أعتليها نازلاً طالعًا، ثم أتوقف فجأةً وأعود إليها راكضًا لأقبّل خصلات شعرها المعقوصة. وثمة أيضًا مسلسلاتٌ من الأفلام المصوّرة تحت بيتنا في شارع جباليا، الذي يلتقي شارعَ عزيز عثمان سمتًا، بمحاذاة حديقة الأسماك التي لم يتغيّر سُورُها لأكثر من خمسين سنة. وفي شارعٍ خالٍ أساسًا، لا يكاد يَعْبره إنسانٌ - تَلْقى اليوم أرصفتَه ذاتَها تعجّ بالسيارات المتوقفة عليها والشارعَ

ذاته مَرْكزًا لزحمة سير دائمة - تشاهد إدوارد وروزي، ولهما من العمر ست سنوات وأربعُ سنواتٍ على التوالي، واقفيْن على مسافة ثلاثين ذراعًا من الكاميرا، كائنيْن صغيريْن متحمسيْن، ينطنطان بانتظار إشارة غير مرئية تأتيهما من خلف الكاميرا، التي تلتقط وجهيهما المتضخميْن على نحو غرائبيّ بشع، تعلوهما ابتساماتٌ متنوعة اصطُنِعتْ لأغراضٍ مسرحيةٍ محض.

يعاد تمثيلُ المشهد ذاته عشرات المرات: في الزمالك وفي القدس، وفي حديقة الحيوانات والصحراء والنادي، وفي شوارع أخرى في القاهرة: هناك دائمًا تلك الركضةُ اللهوفة والوجوهُ السعيدة ونهايةُ الفيلم غيرُ النهائية. اعتقدتُ أول الأمر، وتذكرتُ بالتأكيد، أنّ تلك وسيلة بدائية لاستظهار الفارق بين الصورة الفوتوغرافية الساكنة والفيلم السينمائيّ المتحرّك. وثمة مسلسلات عدة يَظْهر فيها إدوارد، في العاشرة من عمره، وهو يدفُرُ أبناء عمومته الأكبر منه سنًا خارج صمدةٍ جامدة مبهورة أمام الكاميرا. وكانت الأفلام، في تكراريتها التي تبدو بلا نهاية، أو هي بدت لأبي على الأقل، أشبهَ بمشهد مسرحيّ جرى التمرين عليه سلفًا، نمثّله أمامه فيما هو يسجّل اللقطات بلا كلل. أرادنا أبي أن نظهر وجاهيًا دائمًا، فإذا الأفلام خلو من اللقطات الجانبية، فلا خَطَرَ من أَنْ يَظْهر أحدنا في لقطة من اللقطات عن غير قصد، يرنو بنظرة خاطفة على غفلة أو يَسْلك مسارًا غير مرسوم سلفًا. كانت الكاميرا ترافقنا دومًا عندما نغادر البيت لمسيرةٍ أو نزهةٍ في السيارة. ولعلها كانت أيضًا وسيلة توسّلها أبي لإلقاء القبض على الحيّز العائليّ المنظّم وتكريسه، وهو الحيّز الذي صنعه وبات يتسلطن عليه الآن.

أذكر أني، وقد تقدمتُ في السنّ - أيْ عند بلوغي الحادية عشرة أو الثانية عشرة على وجه التأكيد - صرت أضيق ذرعًا بطقس تكرار المشاهد ذاتها، المرة تلو المرة، أمام كاميرا أبي. وقد ترافق ذلك الشعورُ مع رغبتي في أن أتحرر من جسدي بشكل أو بآخر. ومن تخييلاتي المتكررة في هذا المضمار، وهي أيضًا موضوعُ إنشاءٍ مدرسيّ كتبتُه عندما كنتُ في الثانية عشرة، أني تخيّلتُني وقد أضحيتُ كِتابًا، ظنًا مني أنّ الكتاب ذو مصير سعيد لانعتاقه من التغيّرات غير المستحبّة، ومن التشويهات في الشكل، ومن النقد لمظهره. وكان الكلام المطبوع يتكون في رأيي من مزيجٍ نادرٍ من التعبير، من حيث أسلوبه ومضامينه، ومن الثبات المطلق والكمال من

حيث المظهر. وإذ انتقلُ من يد إلى يد ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، أستطيع المحافظة على كياني الذاتيّ الحقيقيّ (بما أنا كتاب) على الرغم من احتمال أن يرميني أحدُهُم من السيارة أو أن ينساني في قعر درج من الأدراج.

ومع ذلك، تفلّتتْ من خلل شبكة أبي البصرية التي لا تَرْحم بعضُ اللمحات الشاذة عن حياتنا. فهناك مشهدٌ لصِبيةٍ هائمين على وجوههم (وأنا بينهم) يشاهدون تمرينًا لعريس وعروس ينزلان الدرج الأماميّ لبيتنا المقدسيّ عام ١٩٤٧. فكأنّ كاميرا أبي السينمائية أرادت بذلك أن تبزّ، في تَطَلُّبها، آلةَ التصوير الفوتوغرافية، المنقّبةَ والمنصوبةَ على سِيبة، وأن تبزّ على وجه التخصيص خليل رعد الذي تستدعيه عمتي وأبناؤها دومًا في كل مناسبة عائلية مهمة. وكان رعد النحيلُ الأبيضُ الشعر يستغرق وقتًا طويلاً جدًا في تنظيم المجموعة العائلية الكبيرة، ومعها الضيوف، في ترتيب مقبول. وخلال تلك اللحظات، التي يمطّها إلى ما لا نهاية بطريقته النيّقة واستهتاره بالذين يصوّرهم، تكوّن إجماعٌ على أنّ الصمدة أمام آلة التصوير محنةٌ ضروريةٌ من الضرورات التي تَفْرضها المناسباتُ العائلية الرسمية. ولم يَخْطر في بال أحدٍ آنذاك أنّ صور رعد الفوتوغرافية قد تصير أغنى مورد أرشيفيّ لحيوات الفلسطينيين إلى العام ١٩٤٨، أيْ «قبل شتاتهم»، بحسب تعبير وليد الخالدي. والحال أنّ اهتمام أبي بالحركة، ولعلّ ذلك جاء ردًا على نفاد صبره من «رعد»، يشكّل، ربما عن غير قصد، جزءًا آخر من ذلك الأرشيف غير الرسميّ.

وثمة أيضًا مشاهد لعمي بولس، زوجِ عمتي نبيهة (وابنِ عمها في آن)، وهيلينة بدر صبرا، وعمي منير وزوجته لطيفةَ، وابن عمي البير، يَعْبرون أفلامَ أبي باسمين. وبسبب من استباق الموت الذي يضيفه الناظرُ لاحقًا على المشهد، يَبْدون في أشكالهم المغبّشة، وكأنّهم يتحركون جانبيًا، بعيدًا عن الكاميرا، أو يسيرون وفق إيقاعٍ وقصدٍ مغايريْن كليًا للمتوقَّع.

لا أحد يرتدي في هذه الأفلام ثيابًا غير رسمية أو خفيفة، ربما لأنّ أبي كان يصوّر خلال الشتاء ولا يصوّر قطّ في شمس الشرق الأوسط ذات البريق المرعب. النساء يرتدين فساطين ثقيلة من الساتان الأسود أو الصوف، وأما الرجال فيبدون دومًا في أطقم داكنة اللون، والأطفالُ يرتدون الكنزات ويعتمرون القبعات ويلبسون الجوارب الطويلة. وحدها أمي تَظْهر، لسببٍ ما، في فساطين منقّطة وبلا أكمام

وأحيانًا تعلن ذراعاها المكتنزتان وابتسامتُها الخالبة احتجاجًا باسمًا أَذْكر جيدًا من طفولتي أنها كانت تبوح به بلطف ضد تركيز أبي المغالي عليها بواسطة كاميرته ذاتِ الطنين المتواصل. لم تظهر جدتي ("تيتا") في الأفلام قط، التزامًا بصرامة رغبتها في أن لا تُلتقط لها أيةُ صورة فوتوغرافية. لستُ أدري لماذا كانت تحمل ذاك الشعورَ، ولماذا كانت تصرّ على عدم أكل الشوكولاطة أو احتساء الشاي إلا إذا سُكِبَ الحليبُ في الفنجان أولاً، ولماذا كان على كُلِّ مجموعة من حاجياتها الشخصية (من مناديل ودفاتر ومنامات وأقلام وورق لعب، الخ) أن تُسْكَنَ، بحسب تعبيرها، في حقيبة قماشية صغيرة صَنَعَتْها بنفسها وزوّقتها بنقوش من قطب الـ«پيتي پوان» أو المطرّزات المعقدة. ومهما يكن من أمرٍ، فقد كانت «تيتا» تتمسك بقوة بتلك العادات، وظلت تعاند أبي إلى نهاية حياتها.

وأما أنا، فعلى عكس جدتي، لم أكن أقاوم على الإطلاق. وكيف لي أن أقاوم ووطأةُ الفشل الجسمانيّ والمعنويّ ترزح عليّ؟ هل يُفترَض بالأهل أن يكونوا قدوةً للأبناء، أو أن يوفِّروا لهم على الأقل فكرةً محددةً عن مآل عملية العجن والخلط والقولبة التي يتعرضون لها، في نهاية المطاف، أو متى وأين تتوقف؟ ثمة مشهد محيِّر واحد في الساعات الكثيرة الكثيرة من أفلام الڤيديو تريني صورةً أخرى لـ«إدوارد»، هي صورة ذاتي الطفلة. فقد التُقط الفيلمُ في بركة المعادي، ربما في وقتٍ متأخر من صباح أحد الآحاد من حزيران/يونيو، ويُري مشهدًا فوضويًا مزدحمًا يتقاطع فيه سابحون وغاطسون وأهلٌ يراقبون [أولادهم]، يَجُوزون جميعهم كاميرا أبي وقد أربكه الصخبُ أمامه، فأخذ يَنْخع الكاميرا قافزًا بسرعة من شخصٍ إلى آخر، رافعًا إياها إلى السماء ليعيدها من ثم إلى أسفل، فإذا هو يَنْسج ذلك الشغبَ الكبير القائمَ أصلاً عند البركة على شاكلة بساطٍ مبقّع مربك ومذهل من الأضواء والأجساد والحيّزات التي لا معنى لها (من أرضية وجدران وغمام) ضاربًا عرضَ الحائط بالصور النظامية التي كنا نتمرن عليها سلفًا وطالما اعتدنا عليها في إقبالنا نحو الكاميرا. وإذ رحتُ أشاهد تلك الزوبعة، ألفيتُني فجأةً صبيًا صغيرًا يرتدي ثوبَ سباحة غامق اللون وحزامًا أبيض، يتسلل وسط فيلق من الأجسام التي تفوقه حجمًا، ثم يَغْطس في البركة ولا يكاد يخلِّف وراءه رذاذَ ماء. فكأنني أخذتُ أبي على حين غرّة، فتعقّبتني الكاميرا للتوّ، وقد حددتْ مكاني فجأةً، إلا أني سرعان ما

سبحتُ متواريًا عن إطارها. فعادت هي إلى الفوضى العامة، وعدتُ أنا إلى الظهور في مرماها، في زاوية تصوير غير متوقعة، راكضًا نحو أبي، مطأطئاً الرأسَ، لأعود فأختفي مجددًا في البركة. لقد أخطأني أبي كليًا في المشهد الثاني، وإنْ كنت ظهرتُ فيه لهُنَيهة.

سحرني ذلك المشهدُ القصير والتافه فعلاً، وأنا أشاهده بعد مضيّ نصف قرن محاولاً رسَم التخوم ووضعَ التفاصيل الهامة لقصةٍ انغمستُ فيها مع أبي وتوقعاته، وتدريباته وأمثولاته، يقولبني ويوجّهني - ومعي شقيقاتي وأمي - بطريقةٍ تُشْبه إلى أبعد حد طريقَتَه في تسجيل الأفلام وإرادتَه التي لا تكلّ في تحريكنا جميعنا نحوه، إلى الأمام سائرين، حاذفًا كلَّ ما سوى ذلك باعتباره من النوافل. والمفارقة الكبرى في الأمر أنه كان قوة دعم جبارةً لنا في حيواتنا - فما من أحد منا انشغل يومًا بأيّ شاغل ماديّ، وكانت خزائننا دائمًا ملأى بالأطعمة، وقد حصلنا على أفضل أنواع التعليم، وكنا نرتدي الثيابَ اللائقة، وبيوتُنا دائمًا مدارة ومخدومة بطريقة تامة، ونسافر دومًا في الدرجة الاولى - بحيث لم أعتبره يومًا رجلاً قمعيًا في ذلك الزمان. كان يَضْغط عليّ باستمرار بطريقته النيّقة المميزة، وقد شاهدتُ ذلك مجددًا في غرابة نوعية أفلامه العَرَضية والتكرارية والاختزالية. على أنّ نجاحي في التفلّت أحيانًا من قوته المرعبة، كما في المشهد القصير عند بركة السباحة، أَعْلمني بشيءٍ لم أُدركه إلا بعد سنوات عندما سلكتُ طريقي بنفسي: أَعْلمني أنّ «إدوارد» أكثرُ من مجرد ابنٍ جانحٍ وإنْ يك صاغرًا، ينصاع لترسيمات أبيه المتزمتة أخلاقيًا.

كانت أمي هي مَنْ يتولى غالبًا توفيرَ الشروح التبريرية لمظهره الخارجيّ البارد والعنيد. فكأني به تمثال من رخام أخذتْ على نفسها أن تَسْتنطقه وتجعله يعبّر بطلاقة. كانت هي كلامَ أبي إليّ، تقلّد كلَّ المشاعر التي كَتَمَ هو التعبير عنها، وتبالغ في مطّه مطًا بحيث يصير رجلاً محبًا حانيًا يختلف كليًا عن الشخص القاسي المعانِد الذي مارس سلطانه عليّ إلى حين وفاته. «ليتَكَ تسمعه يتحدث عن "ابني أنا" أمام أصدقائه»، تقول، «إنه فخور بك إلى أبعد حدّ». ومع ذلك، لم أستطع مرةً أن أستدعي دعمه لي، فما بالك بالحصول عليه. لم أكن قد تجاوزتُ الرابعة من العمر عندما أخذني في نزهة قرب حديقة الأسماك في القاهرة (لا أذكر أنه دخل المكان الذي بدا كأنه الامتياز الحصريّ لأمي). كنتُ أهرول خلفه، وهو يحث الخطى،

ويداه معقودتان خلف ظهره. فتعثرتُ ووقعتُ أرضًا، خادشًا يدي وركبتي بخدوش عميقة، فصرخت إليه غريزيًا: «دادي... أرجوك» فتوقف والتفت ببطء إليَّ. ظلَّ هكذا ثانيتين لا أكثر، ثم استدار وواصل سيره دون كلمة. وكان هذا كلّ ما في الأمر. مات هكذا، مشيحًا بوجهه نحو الجدار، دون أن يَصْدر عنه أيُّ صوت. وإني لأتساءل ما إذا أراد مرةً أن يقول حقًا أكثر مما قال.

الفصل الخامس

انتسبتُ إلى «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» في خريف العام ١٩٤٦ بصفتي ابن رجل أعمال أميركيًا، وأنا لا أملك أدنى شعور بالانتماء إلى أميركا. ولقد سَهُّل عليّ اليومُ الأول لدخولي المدرسة لأنّ سائق الباص اليونانيّ كان يعمل أيضًا سائقًا في كلية أنطي ميليا، وقد تعرّف إليّ على الفور وعاملني دائمًا - كما لم يعاملني أحدٌ من قبل - بكياسة لا تخلو من الأُلفة. أقلّني من الزمالك في الصباح الباكر من يوم تشرينيٍّ مُشمِسٍ مع سرب من الأطفال الأميركيين الغريبين تمامًا الضاجّين واللامبالين، يرتدون القمصان الملوّنة الزاهية والتنانير والـ«شورطات». لم يسبق لي أنْ شاهدتُ أميركيين بمثل ذلك التنوّع والكثرة. اختفت البزّات الرمادية والهمساتُ الخفيضة التآمرية التي كنتَ تجدها في أطفال «إعدادية الجزيرة»، الإنكليز منهم والمشرقيين خصوصًا، ومعها اختفتِ الأسماءُ الإنكليزية، مثل ديكي وديريك وجيريمي، وكذلك الأسماءُ الفرانكو-عربية، مثل ميشلين وناديا وڤيڤيت. وبتّ تلقى الآن مارلين ومارلين وآنكجيه، وفتياتٍ عدة يسمَّين مارجييس ونانسي، وصبيانًا عدة يسمَّون إرنست وتشاك، وكثرةً يحملون اسم بوب. ولكنْ لم يأبه أحدٌ بي.

ومع ذلك، اجتاز «إدوارد سِغِيد» الامتحان، وسرعان ما تكيّفتُ مع المحيط الجديد إلى هذا الحد أو ذاك. على أني في كل يوم ألج فيه الباص، أصابُ بذعر عظيم، إذ أشاهد قمصان الـ«تي شيرت» والجواربَ المقلّمة التي يلبسون وأحذيةَ «المُوكاسان» التي ينتعلون، فيما أنا متهندمٌ في شُورطٍ رماديٍّ لائق أنيق وقميصٍ

أبيض رسـميّ وحذاءٍ أوروبيّ تقليـديّ ذي أشرطة. أمـا في الصفّ، فكنت أهدِّئ من روعي الداخلـيّ بالاستنجاد بهـويتي الفعّالة، وإنْ تكن موقتـةً، هويةِ الطالب اللامع الصـعبِ المراس غالبًا. وعند الغداء، إذ يُخرجون سـانتدويتشات الخبـز الأبيض المقصوص بأناقة وعليها زبدةُ الفُول السودانيّ وهُلام الـ«دجيلي» – ولم أكن قد ذقتُ هذا ولا تلك – فيما أنا أحمل الجبنة والجانبون المدخّن في الخبز الشاميّ، أَسْقطُ في حـال شكّ وخـجلٍ من أني، أنا الطفلَ الأميركيَّ، آكل طعامًا مـختلفًا عنهم ولا يَطْلب مني أحدٌ تذوقه بل ولا يسألني أن أشرحه له.

وذات مساء، ونحن على الشرفة، دسّ أبي يدَه في جَيب سترته واستخرج زوجًا من الجـوارب المقلّمـة: «أعطاني إياها طيّـار أمـيـركيّ»، قـال، «مـا رأيك في ارتدائها؟»، فكأنه رمى إليّ بطوق نجاة نحو أيام أفضل. ارتديتُ الجوارب المقلّمة في اليوم التـالي وفي اليوم الذي يليه، مع ارتفـاع بَيِّن في معنويّاتي. على أنّ أحدًا في البـاص لم يلاحظهـا، وكـان لا بد من غسل الجـوارب. ولما كنتُ لا أملك غـيـر زوج جوارب واحـد يَمْنح زعمـي أنني أميركيٌّ شيئًا من الصدقـيـة، فقد شعرتُ فـجأةً بالخذلان. ثم حـاولتُ إقناع أمي بأنه يفضّل أن آخذ ساندويتشـات مقصوصـة على شكل مستطيلات مطليّة بالمربّى والزبدة، إلا أنها صَرَفتني بقولها: «لا نستخدم خبز الـ"توست" مع المُربّى إلا على الفطور. أريدك أن تتغـذى. ما العَيبُ في طعامنا على كل حال؟».

تأسستْ «مدرسـة القاهرة لـلأطفال الأميركيين» بُعَيد الحرب لاستيعاب أبناء مـوظّفي شركـات النفط والأعـمال والسلك الديبلوماسيّ الأمـيركيين في جـاليتـهم المتوسعة حديثًا في القاهرة. تقع المدرسة في المحيط الغربيّ الخارجيّ لـ«المعادي» في موازاة محطة سكة الحديد، وعلى مسافة حوالى الميل من النهر العظيم. وتحتل ڤيللا كبيرةً من طبقتين، مثلها مثل «إعدادية الجزيرة»، علمًا أنّ هذه الأخيرة مجرد مدرسة ابتدائية، وتحيط بها، إلى ذلك، حديقةٌ من أكْريَن اثنين[1] وسقيفةٌ للحدائقيّ وفسحةٌ مُغبرة جنوبيّ الڤيللا توازي مساحتُها نصفَ مساحة ملعب لكرة القدم، جرى تعبيدُ نصفها بالأسفلت خلال عامِي الأول في المدرسة ، ١٩٤٦ – ١٩٤٧

---

١ ـ حوالى ثمانية آلاف مترٍ مربّع. (م)

(الذي قَطَعَتْه إقامةُ ربيعية مديدة في القدس) فأضحت ملعبًا لكرة السلّة. ولما كانت «إعدادية الجزيرة» مدرسةً للأطفال الأصغر سنًا، فقد اكتفتْ بكُرَة الشبكة، وهي المعادل الرقيق العَطِر لكرة السلّة، ولكنها مخصّصة أساسًا للبنات، واقتصر احتفالُها في المناسبات، مثل عيد ميلاد الملك، على رقصة «المايپول»، وهي تسلية ألفيتُها غريبةً (لماذا كل هذا العدد من الأشرطة؟ وما الذي تمثّله؟) وسخيفةً في آن معًا (فالدَوَران في حلقة مفرغة على وقع تصفيق يدَيْ مِسز ويلسن وتسجيلٍ زاعقٍ للموسيقى الريفية الإنكليزية إنما هو استظهار ركيك للحركة الجسمانية المنضبطة). أما في «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» فلم أتعرف إلى كرة السلّة وحسبُ وإنما إلى «السُوفت بُول» أيضًا، وهما رياضتان لا يَعْرف أبي عنهما أيَّ شيء. وكان أبي، بصفته الرئيسَ الفخريَّ لـ«جمعية الشبّان المسيحيين»، التي تنظِّم المباريات بين فرق القاهرة، مثل الهومنتمن الأرمنيّ والماكابي اليهوديّ، أو بينها وبين فريقٍ زائر ممتاز مثل فريق الجيش الأميركيّ، يأخذنا لمشاهدة ألعاب رياضية لم يمارسها هو نفسُه. وقد أثارت لعبة السُوفت بول اهتمامي بحيث حوّلتني إلى رامٍ ماهر وضاربٍ حرّيف. وكان أبي يصرّ على تسميتها «راوندرز[1]» ولكنه لحسن الحظ لم يهتم بها جدّيًا ولا شاهدني مرةً أضرب الكرة الرخوة بمضرب من طراز «لويڤيل صلاغر».

أثارتْ فيّ قاهرةُ ما بعد الحرب لأول مرة شعورًا بالتمايز الشديد من حيث التراتب الاجتماعيّ. وكان التبدّل الكبير هو حلول الأميركيين المنتصرين محلَّ البريطانيين، مؤسساتٍ وأفرادًا، وقد أَخْلَت الإمبراطوريةُ القديمة المكانَ للإمبراطورية الجديدة، فيما راح أبي يَنْعم بالمزيد من النجاحات في حلبة الأعمال. في احتفالات «إعدادية الجزيرة»، كانت الهَيصة تتعالى عند ظهور اللَيْدي بادِن پاول أو روي تشاپمان أندروز[2]، رمزَي السلطان البريطانيّ اللذيْن لا يحتاجان إلى أيّ ندّ مصريّ أو عربيّ يَفْضح أجنبيتَهما إذ يعتليان منصّة الخطابة. آنذاك، كانت بريطانيا تَحْكم البلد متفوّقةً، وجميعُنا يسلّم بذلك تسليمًا. فإذا بظهور شفيق غربال، المؤرِّخ المصريّ المرموق والموظّف في وزارة التربية، في أول احتفال أتذكره لـ«مدرسة القاهرة للأولاد

---

١ ـ صيغة بدائية من لعبة الـ «بيزبول».

٢ ـ زوجة اللورد بادن پاول، مؤسس الحركة الكشفيّة، وموظف كبير في الخارجيّة البريطانيّة في ذلك الزمان.

الأميركيين»، يسجِّل الفارقَ بين المقاربتين الإمبرياليتين، الأميركية والبريطانية. فلما كنا، نحن الأميركيين، شركاءَ للمصريين، فأيُّ شيءٍ أنسب من أن نعطيهم الكلام في مناسبات مثل افتتاح البرلمان أو عيد ميلاد الملك فاروق، وهي مناسبات لا تكترث لها «إعداديةُ الجزيرة»؟ ذلك أنّ مطلع نشيد «كلُّ الأشياء البرّاقة والجميلة» يعني إنكلترا البرّاقة الجميلة، نجمَ السَعد البعيد الذي يُشعّ علينا جميعًا. لقد انتهى ذلك الزمن إلى غير رجعة، وحَذَفتُ النشيد من برنامج أغانيّ المفضّلة. على أني دُهشتُ عند اكتشافي أنّ تعليم العربية لجميع الأطفال يشكّل جزءًا من البرنامج الأميركيّ. ولما كنتُ قد ادّعيتُ أنّ «سِغيد» هو اسمي الأميركيّ، فقد عانيتُ الأمرّيْن في درس العربية. إذ اضطررتُ إلى أن أخفي مَلَكَتي الممتازة للُغَتي الأم انسجامًا مع الصيغ الفارغة التي تُوزَّع وتُمَرُّ على الشباب الأميركيّ بوصفها العربية المحكية (وهي إلى عربية المطبخ أقرب). لم أتطوع لأية مهمة، ولم أتكلم إلا نادرًا، وغالبًا ما كنت متقوقِعًا على نفسي في مؤخّر الصف. ولكنّ الأمر لم يَخْلُ من الاستفزاز، من مثل استفزازات معلِّمة اللغة العربية الشابة الجميلة، التي في معرض وصفها لمغامراتها في مدينة الملاهي، المُفتَتَحةِ حديثًا في «الجزيرة»، أصرّتْ على رواية رحلةٍ جويّةٍ سُمِّيتْ «سعيدة» على اسم شركة الطيران المصرية المنشأة حديثًا. وفي صفٍّ مُنمنمٍ من أربعة تلامذة، انتصبتْ قبالتي وشرعتْ تفصِّل ما أثارته فيها «سعيدة» من مشاعر، مكرّرةً الاسمَ المرةَ تلوَ الأخرى كأنما لتؤكد الصفة العربية الضامرة لاسمي، وقد جهدتُ لتخفيض ذلك الاسم إلى مستوى معايير اللفظ الأميركية الدارجة. «لا، يا إدوارد»، قالت بتشديد، «لن تستطيع الادعاء أنك اختبرتَ أروع تحليق في الجوّ إنْ أنتَ لم تجرّب «سعيدة». هل تدري كم مرةً ركبتُ «سعيدة»؟ أربعَ مرات، على الأقل. «سعيدة» هي الطيران. «سعيدة» رائعة». بعبارة أخرى: كفاكَ ادّعاء أنّ اسمك «سِغيد»، أنتَ اسمُك «سَعيد» كما في «سعيدة». ولن تستطيع إنكار الصلة بين الاثنين.

عُيِّنتُ في الصف السادس في قاعة تقع في الطبقة الثانية، مَنَحَها النباتُ وأصصُ الزهور على النافذة جوَّ الغرفة البيتية. تتسلطن على الصف جلوازةٌ ساديّة هي أولى الجلوازات والساديّات في حياتي: مِسّ كلارك، التي ادى اضطهادُها الحثيثُ لي إلى ثلم كبريائي المزعزَعِ أصلاً. كانت في منتصف الثلاثين، شديدةَ

التحفظ في سلوكها، هادئةً جدًا ورابطةَ الجأش إلى درجة بغيضة. وإذ فكّرتُ فيها عبر السنوات، ألفيتُ تلك «البيضاء الانكلو-سكسونية البروتستانتية» WASPمن شمال غربيّ الولايات المتحدة نموذجًا عن أهالي تلك المنطقة المُكتفين ماديًا والمستقيمين أخلاقيًا والواثقين من أنفسهم والمتعالين على سائر البشر. لستُ أدري ما الذي سلّطها عليّ، على أنه لم يكد يمرّ أسبوع أو عشرة أيام على بدء العام الدراسيّ، حتى شَهَرَتْ عليّ العداءَ الصريحَ في صفٍّ لا يحتوي على أكثر من دستةٍ من الصبيان والبنات.

بعد اختباري النظامَ الإنكليزيَ التراتبيّ الجامد، بدت المدرسة الأميركية تعيش في حال من رفع الكلفة بكل ما للكلمة من معنى. فالكراسي والطاولات مبعثرة عبر قاعة الدرس، بينما كنا في «إعدادية الجزيرة» نجلس في صفوف عسكرية مرصوصة من المقرئات والمقاعد. وباستثناء معلِّمي الفرنسية والعربية والفن، يتولى التعليمَ هنا معلّماتٌ أميركياتٌ (كثيفاتُ الأصباغ يرتدين الفساطين المبهرجة الألوان ويختلفن كليًا عن الوجوه العادية الكالحة والتنانير المحتشمة لِمِسِز ويلسن وأَضرابها) ومعلّمٌ أميركيٌّ وحيد هو مارك وانِك، الذي يقوم أيضًا مقام مدرِّب الـ«سُوفت بُول» وكرة السلة. وفي إحدى المناسبات، ارتدى مارك زيَّ لاعبي كرة السلّة في ولاية أوهايو، الأصفرَ اللمّاعَ، ليلعب معنا. وفي ظهيرة القاهرة القائظة، وعلى خلفية من حقولٍ غبراء وفلاحين سُمرٍ يرتدون الجلابيات ويسوقون الحمير أو الثيران كما كان دأبهم منذ آلاف السنين، بدا منظرُ السيّد وانِك سورياليًا إلى أبعد حدّ في بذلته الفاقعة الألوان وذراعيْه ورجليْه المكسوّةِ بالشَعر وقَصَّةِ شَعره العسكرية وحذائه القماشيّ والمطاطيّ الأسود ونظارتيْه الرقيقتيَن اللتين لا إطار لهما.

وجدتُ التعليم الأميركيّ نظامًا تربويًا صُمِّم ليكون جذابًا وبيتيًا ومفصَّلاً على مقاس أطفال في طور النمو. في «إعدادية الجزيرة»، كانت الكتب متماثلةً من حيث حروفها الطباعية الصغيرة وخاليةً من التزيينات وصارمةً في جفاف أسلوبها. فمادة التاريخ ومادة الأدب مثلاً يجرى تقديمهما بطريقة أكثر ما تكون بداهةً، وهو ما يجعل من قراءة كل صفحة في أيّ منهما تحدّيًا قائمًا بذاته. وكانت دروس الحساب تفتقر إلى أيّ تنازل لعالم التجارب المعيشة. وكنّا نُعطَى مسلسلاتٍ من الأرقام

لنَجْمعها ونَطْرحها ونَقْسمها ونَضْربها، إضافةً إلى عدد كبير من القواعد والجداول لنحفظها عن ظهر قلب (كجداول الضرب والأوزان والمقاسات والمسافات والأمتار والياردات والإنشات). والهدف من كل هذا هو حلّ مسائل حسابية، وهي مهمة لا يضاهي صعوبتَها إلا مللُها المنهَج. وأما في المدرسة الأميركية، فقد وزّعوا علينا دفاتر تمارين تختلف كليًا عن دفاتر الخط في «الإعدادية»، وذلك أنّ الثانية كراريسُ خطٍّ مُسَطَّرةٌ مثل بطاقات الباص المُغفَلَة، في حين أنّ الأولى تتضمّن أسئلة جذابة ومشجعة على الحوار إضافةً إلى رسوم وصور معدّة لأن نتذوقها ونستمتعَ بها أو نكملها عند الحاجة. وفي الوقت الذي كانت فيه الكتابة على كتاب مدرسيّ في «إعدادية الجزيرة» تشكّل جنحة خطيرة، إذا بدفاتر التمارين الأميركيةِ مُعَدّةٌ أصلاً لأن يُكْتَب عليها.

وكانت الكرّاسات المدرسية التي توزّعها مِسّ كلارك في بداية اليوم هي أكثرها جاذبيةً. ومحورُ كلّ درسٍ عائلةٌ يتعرّف إليها التلميذُ منذ البداية، وتتكوّن دومًا من شقيقة وأب وأم إضافةً إلى الأقارب المتنوعين وحاشيةِ البيت بمن فيها مدبّرتُه السوداءُ السمينة التي تتضخم أساريرُها على نحوٍ كاريكاتوريٍّ في حالَي الحزن والفرح. ومن خلال تلك العائلة، يتعلم التلميذُ الجمعَ والطرحَ أو التربيةَ المدنيةَ أو التاريخَ الأميركيّ (كنا نتعلّم الأدب على حِدة). والمقصود بها جعلُ التعلّم عمليةً ميسّرة، مثلها مثل قضاء يومٍ في مزرعة أو في إحدى ضواحي سانت لويس أو لوس آنجيليس. وقد حيّرتني تمامًا الإشاراتُ إلى الـ«دراغستور» والـ«هارد وير ستور» والـ«دايم ستور[1]»، مع أنها لم تكن تحتاج إلى شرح لزملائي وجميعُهم عاش في أماكن مثل سانت لويس ولوس آنجيليس في حين أن لا صلة لتلك المواقع بتجربتي الخالية من نافورة الصودا أو المشروبات المخلوطة بالمياه الغازيّة، وهما كانا الأشدّ إثارةً لفضولي.

كان المفترض أن أجد ذلك مسليًا، وقد وجدتُه بالفعل خلال الشهر الأول. على أنّ مِسّ كلارك لم تتركني لحالي، ولم يفعل ذلك الأطفال الآخرون أيضًا، فسرعان ما

١ - «الدراغتور» مزيج من صيدلية ومن حانوت متعدّد الخدمات بما فيها بيع المشروبات الخفيفة. «الهاردوير ستور» محل لبيع الأدوات والأواني المعدنية. و«الدايم ستور»، محلّ لبيع سلع متنوّعة جداً بسعر رخيص وموحّد.

دبّ التنافر بيني وبينهم. وإذا بي، بعد ذلك الشهر الممتع، يعاودني الحنين إلى «إعدادية الجزيرة»، بخطوط انضباطها الواضحة ودروسِها الروتينية وقواعدِ سلوكها الشديدة الصرامة. ولم يكن المعلمون في المدرسة الأميركية يلجؤون إلى العنف أو حتى يهدِّدون باللجوء إليه، ولكنّ التلامذة الذكور كانوا بالغي الفظاظة واحدهم تجاه الآخر، ولاسيما أنّ الصبيان على شيء من ضخامة البنية والاستعداد لاستعمال العنف بعضهم ضد بعض في مباريات صمود أو سباق. وما إنْ حلّ عيد الميلاد حتى صار كلُّ يوم من أيام المدرسة يومَ محنةٍ يتطلب منّي الخوض في غِمار الأذرع الملوِّحة والقَبضاتِ المتطايرة في الباص، يَعْقبها القمعُ الرهيب والتأنيبُ القاسي من مِسّ كلارك في قاعة الدرس.

جاءت اللحظة الأكثر إذلالاً في عامي الأول بعد أن عاد الصف من «رحلة ميدانية»، وهي مفهوم جديد كلُّ الجدّة بالنسبة إليّ، إلى مصنعِ سُكّرٍ ضخم عبر النيل قبالة «المعادي». أعترفُ أنه بعد مضيّ الدقائق العشرين الأولى، صارت الزيارة مملةً إلى درجة لا تستحق معها أيّ اهتمام. ولكنْ لم يكن لي خيار غير أن أبقى مع الجماعة، نُقاد معًا من راقود الغلي إلى المخزن فغرفة التقطيع، على إيقاع شروح دليلنا المستمتع بهذره لتهوين الأمر علينا، شارحًا خلال نصف ساعة أمرًا لا يحتاج إلى أكثر من دقيقة واحدة، في فيض من المصطلحات التقنية وفي غمرة جوّ عجيب من الرضى الذاتيّ. ودليلنا هذا رجلٌ مُتطربِش في منتصف العمر، عيّنتْه إحدى الوزارات لمرافقتنا في تلك الزيارة. وكانت مِس كلارك هناك طبعًا. ولكني لم أُعرها أو لم أكد أعرها أيّ اهتمام، وتلك غلطتي الكبرى. أجدها تطأطئ الرأس كلما دخلتْ مرمى نظري (أهو دليل موافقة أَمْ فهم أَمْ رضى تجاه طوفان المعلومات عن قصب السكّر وتاريخه وتكوينه والتركيب الكيماويّ للسكّر، الخ.؟) ولكنّي لم أكترث لها. كانت الرحلة كلها مختلفة كليًا، وعلى نحوٍ عجيب، عن أيّ نشاط قد تنظِّمه مدرستي الكولونيالية السابقة، إلى درجة أنه لم تستوقفني مجردُ المقارنةِ بين البريطانيين الاستبداديين والأميركيين العطوفين، والأكثر رغبةً في أن يوفِّروا للمصريين الفرصةَ الديمقراطيةَ ليحققوا ذواتهم.

اجتمعنا في اليوم التالي في قاعة الدرس كالعادة، ومِسّ كلارك جالسة خلف مكتبها تبدو متماسكةً وغامضةً كحالها دائمًا. شرعتْ تقول «لنُمضِ بعض الوقت في

الحديث عن رحلة الأمس الميدانية» ثم التفتتْ فجأةً إلى ب. ج.، الفتاة القصيرة الشَعر التي أعطتها نبرتُها السريعة وطريقتُها التِجارية صفةَ لولب الصف. فقدمتْ ب. ج. تقويمًا مفصَّلاً لأحداث ذلك اليوم. «وما قولُكَ، يا أرنست؟» سألت المعلّمةُ أرنست براندت، وهو الأضخم جثةً بين الصبيان وأقواهم بنيةً وإنْ يكن أقلهم تعبيرًا. لم يكن هناك الكثيرُ يضاف إلى تلاوة ب. ج. المرهِقة، ولم يكد أرنست يَبذل أيّ جهد أصلاً. «لا بأس»، كان ذلك كلَّ ما صَدَرَ عنه. كنتُ قابعًا في مكاني أَشْرد شيئًا فشيئًا في حلمِ يقظةٍ ولا أعير غرائز مِس كلارك الافتراسية الاهتمامَ الكافي. «لقد تصرفتم بتهذيب شديد أمس وأنا فخورة بكم»، قالت، وظننتُها سوف تنتقل من ثم إلى تسميع درس الإنكليزية. «أعني: كلكم، خلا واحدًا منكم. واحدًا لم يكترث لشروح إبراهيم أفندي الساحرة والعظيمةِ الفائدة. واحدًا تخلّف على الدوام عن باقي المجموعة. واحدًا كان يتململ كل الوقت. واحدًا لم يلقِ نظرةً واحدة على الآلات والمراجل. واحدًا لا غيره كان يَقْضم أظافره. واحدًا وحده أخزى الصف كله». وصمتتْ لبرهة، فيما أنا أتساءل من يكون ذلك الواحد.

«أنتَ، يا إدوارد، أنت تصرفتَ بطريقة فظيعة. لم أعرف في حياتي كلها من هو مثلك: فاقدًا القدرة على التركيز، وعديمَ المراعاة للآخرين، وكسولاً، ومتقاعسًا إلى هذا الحد. راقبتُك دقيقةً بدقيقة، فلم تأتِ عملاً واحدًا يَشْفع لك. سوف أُبلغ عنك مِس ويليس (مديرة المدرسة) وأَطْلب منها استدعاءَ أهلك». توقفتْ وهي ترمقني بنظرة كراهية ظاهرة، ثم أردفتْ قائلة: «لو كنتَ من التلامذة المجتهدين في هذا الصف، لربما غفرتُ لك سلوكك. لو كنتَ مثل ب. ج. مثلاً. ولكنْ لأنك أسوأ تلاميذ هذا الصف بلا منازع، فما أقدمتَ عليه يومَ أمس لا يُغتفر». وكانت تشدّد على كلماتها بحياد تام.

لقد حدّدتني مِس كلارك، عن قصد وسابق تصوّر وتصميم وبطريقة نيّقة، ونفذتْ إلى دواخلي، إذا جاز التعبير، فرأتني كما لا أستطيع أو لا أريد أن أرى نفسي، وأذاعتْ مكتشفاتها على الملإ. فتسمّرتُ في مكاني، لا ألوي على شيء، أحمرَ الوجه، أتظاهر بالأسف والقوة معًا، وقد بدأتُ أكره أفراد الصفّ الشاخصين، ويتملّكني شعورٌ بأنّ كل واحد منهم يحدّق إليّ باستهجان وفضول غير مبرَّرَيْن. «من هو هذا الشخص؟»، تخيلتهم يتساءلون، «إنه مجرد صبيّ عربيّ مسكين. فما الذي

جاء به إلى مدرسةٍ للأطفال الأميركيين؟ ومِنْ أين جاء؟». في تلك الأثناء كانت مِس كلارك تحرّك كتبها وأقلامها على المكتب ثم عادت إلى تسميع الدرس كأنّ شيئًا لم يكن. ألقيتُ عليها نظرة عجلى بعد عشر دقائق لأتبيّن احتمال أن تَبْدر منها نظرةُ لِين تجاهي، فألفيتُها باردةً وعصيّةً على الصَفح كما هي على الدوام.

كَمَن مصدرُ القوة في ما قالته مِس كلارك عني في أنها جمّعتْ كل الملاحظات السلبية والنقدية المحيطة بي بشكل عام، في البيت كما في «إعدادية الجزيرة»، وركّزتْها كلَّها في حاوية فولاذية مَقيتة وكبَّتْني فيها كَبًّا مثلما يُكبّ هُلام الـ«جيلو» في القالب. فشعرتُ أني بلا تاريخ يقيني ذلك الحُكمَ الذي أصدرتْه بحقي مِس كلارك أو يقاوم الخزيَ العلنيّ. على أن الأفدح وقعًا عليّ من ذلك الفضح الساكن، هو خشيتي الدائمة، بل كرهي، لإعلان الأخبار السيئة على نحو مباغت، بما لا يتيح لي فرصة الردّ عليها والتمييز بين «إدوارد»، في جماع إعاقاته وخطاياه المعروفة، وبين الكائن الجوّاني الذي أَعتبره ذاتي الحقيقيةَ والفضلى (وهي ذاتٌ غامضةُ التخوم، حرّة، فضولية، سريعة، شابة وحسّاسة، بل ومحبوبة). والآن لم يعد في مستطاعي استظهارُ تلك الذات إذ تواجهني ذاتٌ وحيدة لا مناص منها، منقوصةٌ بل محكومٌ عليها بالإخفاق، لا تستقيم مرةً، بل إنها بالتأكيد شاذة وفي غير مكانها.

بَلَغ بي الأمرُ حدّ كراهية تلك الهوية، ولكني لم أكن أملك بديلاً عنها. وقد بتّ موضع استهجان إلى درجةٍ أني اضطررتُ، طبعًا، إلى مقابلة مِس ويليس، وهي امرأة من الغرب الاوسط الأميركيّ، شيباءُ الشعر، ضعيفةُ الشكيمة، في المنقلب الثاني من العمر، بدتْ حائرة أكثر منها غاضبةً أمام ارتكاباتي. لم تحضر مِس كلارك المقابَلَةَ. ولكنْ لا مجال للمقارنة إطلاقًا بين إدانة مِس كلارك الوجودية لي وبين محاضرة مِس ويليس الغامضةِ المتعلثمةِ عن فضائل المواطنية الصحيحة. وهذه العبارة الأخيرة لم تكن لتخطر على البال في الإطار الكولونياليّ البريطانيّ الذي غادرتُه للتوّ، إذ نحن جميعًا في مرتبة الرعايا، في أحسن تقدير، نكتفي بواجب الطاعة من غير سؤال. وفي نهاية المطاف، جاء أهلي هم أيضًا لمقابلة مِس كلارك ومِس ويليس. فتركتِ الأولى انطباعًا بيّنًا على أمي التي سمعتْ، في نبرة المرأة الثاقبة، سردًا متماسكًا وبليغًا لنقاط ضعف ابنها يفوق أيَّ سردٍ آخر. لن أعرف أبدًا ما قيل عني في ذلك اللقاء، ولكنّ صداه ظل يتردّد في مواعظ أمي عبر السنوات. «تذكّرْ ماذا قالت مِس كلارك»،

كانت اللازمةَ المستخدمةَ لتفسير ضعفِ التعيين والتركيز لديّ وعجزي المزمنِ عن إتيان الأعمال الصالحة في آن معًا. هكذا طوّرتْ أمي رأي مِس كلارك المستفظع ووسَّعتْ مداه. ولم يخطر في بالي أن أسألها لماذا تحالفتْ بهذه الطريقة العمياء مع شخصٍ لا تحركه الاعتباراتُ التربوية وإنما تحرّكه النوازعُ الغريزية والسادية؟

كان يُفترض بي أن أكون بين أبناء جِلدتي في المدرسة الأميركية، على أنه قُدِّر لي أن أصير غريبًا فيها أكثر مما كنتُه في «إعدادية الجزيرة». لقد ساد المدرسةَ الأميركيةَ الكثيرُ من رفع الكلفة - حيث تحيات «غود مورنِنغ» و«هاي» هي الدارجة، خلافًا لما كان عليه الأمرُ في «الإعدادية» - والكثيرُ من التشديد على مَنْ يجلس قرب مَنْ في الباص أو في قاعة الدرس أو المطعم. ومع ذلك، قامت تراتبية خفية بين الصبيان، ولكنها موضع إجماع، لا ترتكز إلى الأقدمية أو الموقع الاجتماعيّ وإنما إلى القوة والإرادة والبراعة الرياضية. زعيم المدرسة يدعى ستان هنري، وهو تلميذ في الصف التاسع، وشقيقته پادي أدنى مني بصف واحد، ووالدهما موظف كبير في شركة «ستاندرد أويل». وستان، الذي يتجاوز ست أقدام طولاً، سبّاح ماهر ورياضيّ مكتمل تشعّ منه الثقةُ بالنفس والذكاءُ، وله ضحكة مثل صهيل الحصان تشي بدهاء تنافسيّ حادّ يهيمن بواسطته على استراحاتنا المعتادة في الحديقة. خصمه الوحيد من حيث الضخامة هو أرنست براندت، وقد شاهدتُ ستان يذلّه ذاتَ مرة فأمسك به من يديه لاويًا سلامياته، وهو ما أجبره على الركوع أرضًا. ولما نهض أرنست أخيرًا، ظل جامدًا في مكانه لا يتحرك، فيما الدموع تنهمر على وجهه. ولما كان ستان هو «القائد» أيضًا (وهي مفردة تعلّمتُها في المدرسة الأميركية) فسرعان ما أخذْنا نتحلّق حوله. ظل المدى المحيط به موضع نزاع حاد بيننا. وفي حين لم يكن أحد ينازع ستان موقعَه المتفوقَ، كنا، نحن البقيةَ، في حالٍ من التقلّب الدائم قربًا منه وبعدًا عنه.

كنتُ في عراك دائم مع صبيَّين بنوع خاص، هما ألِكس ميلر (ابن موظف سفارة، على ما أظن) وكلُود براندكارت، البلجيكيّ - الأميركيّ الذي يعمل أبوه وكيلاً لشركة «كالتكس» في مصر. ولكل منهما شقيقةٌ جذابة - آماريلليس السمراء ومونيك الشقراء - تبدوان أقرب إلى امرأتين مكتملتي النضج منهما إلى ابنَتَيْ ست عشرة أو سَبع عشرة سنة. أحيانًا كانت آماريلليس تجلس قربي في الباص

وتتصرّف بودّ، بل بصداقة، وقد صعقتْني عندما شاهدتُها ترتدي ثوب سباحة من قطعتين خلال رحلة مدرسية إلى بركة السباحة في «المعادي». فلم أكن، في حياتي المنعزلة، قد شاهدتُ من قبل تلك المساحة من الجسد الأنثويّ مكشوفةً للعين. والمفارقة في الأمر أني شعرتُ أنّ الحادثة باعدت المسافة بيننا بدل أن تقرّبها. أما مونيك فكان يحيط بها مناخٌ حُلميّ غامض، إذ تطوف في أرجاء المدرسة بطريقة جدّ آسرة. ولم يكن للفتاتين من عميق صلة بأخويهما الأصغرين، ولا كان هذان في عداد أصدقائي، بل كانا خصميْن لدوديْن في جولات لامتناهية من المصارعة وحفلات التبجّح موضوعُها غامض وغيرُ قابل للنقاش في آن. وأذكر أني أعجبتُ بالطريقة التي بادلَني بها ألِكس اللكمات على الباص، واقفًا عند الطرف الآخر من المقعد، مسدِّدًا اللكمات إلى رأسي والبطن، بصبر ومنهجية، بل ببطء، فيما أنا، المقاتلَ النزقَ والضعيفَ السيطرةِ على ذاته، أكيل له لكمةً متصالبة من هنا وضربةً فوقانية دوّارة من هناك، ومعظمها طائش، وقد تعلّمتُها على سايد، مدرّبِ الملاكمة في «جمعية الشبّان المسيحيين». والغريب حقًّا أنّ ذلك المشهد، التافه والزاخم في آن، ظل عالقًا في ذاكرتي على امتداد تلك الفترة الطويلة مثل مسلسل متحرّك من صُوَر «مويبريدج» الفوتوغرافية[1]: «فما الذي كُنته آنذاك؟»، أظل أسائل نفسي: ولماذا كنتُ مدفوعًا إلى مثل تلك العداوات الحادة وميالاً إلى الخوض فيها إلى ذلك الحد؟

وخلافًا للحال في إعدادية الجزيرة، حيث لا أمل في أن يستمر عراكٌ لأكثر من عشر ثوان قبل أن يهرع معلّمون عدة للفصل بين المتعاركين، تبنّت المدرسةُ الأميركية فلسفةً مختلفة جذريًا، هي توفير حلبة مكرّسة للعراك ولأشكال أخرى من تنفيس الصبيان عن فائض الطاقة المخزونة لديهم. ولذا، فإنّي لا أذكر لحظةَ أمانٍ واحدةً خلال استراحات الغداء، ولا أنا تنعّمتُ برفقة ممتعة ولو للحظة واحدة.

نشبتْ خصومةٌ بيني وبين كلود براندكارت - لأيّ سبب؟ لستُ أدري - وكنا مستعديْن أبدًا للمشاجرة أو لمبارزةٍ في البَصْق أو في قذف الحجارة أو لحفلة

---

١ - إدوارد مويبردج (١٨٣٠ - ١٩٠٤) رائد من روّاد التصوير الفوتوغرافيّ والسينمائيّ. اشتُهر بتجاربه الناجحة في تصوير كامل حركات الأجسام (جسم الحصان وجسم الإنسان بنوع خاص) خلال العدْو. ففتح بذلك المجال امام التصوير المتحرّك، اي السينمائيّ.

مفاخرة نواجه فيها بين أبوينا في مباريات وَهمية في كرة المضرب والمصارعة أو التجديف، وكلاهما لا يجيد أيًا منها في الحياة الحقيقية. وإذ بلغنا أنا وكلود ذروةَ العداوة، فقد اقتضى الأمر خوض معركة شاملة فاصلة في الحقل المغبّر، كلٌّ يشدّ بالآخر ويبادله اللكمات، فإذا بنا نهوي معًا على الأرض متقابضيْن في عناق عنيف. وقد تمكن من أن يعتليني، وناضل بشراسة ليسمّرني أرضًا وليجبرني أخيرًا على أن أقول «إني أستسلم».

وكان جان – پيير سابيت في عداد المشاهدين، وهو من سكان «المعادي» غير الأميركيين، وقد قُبِل في المدرسة الأميركية لاستثناءٍ غيرِ مفهوم الأسباب، فقال عني بنبرة بدهية: «إنه يقاوم. ألا ترون انه يقاوم؟ لم تنته المبارزة». وكان على حق. فقد شعرتُ أني هُزِمتُ، بمعنى ما، لأنّ «إدوارد» تخلى عن العراك وأَسْلم أمره وبات الآن تحت سيطرةِ مَن هو خليقٌ بأن يسيطر عليه. على أنّ الغريب في الأمر أنّ ذاتًا أخرى بدأتْ تفور في داخلي، عندما كان «إدوارد» يتخلى عن العراك ويصبح أسير كلود براندكارت، وهي ذاتٌ صادرة عن منطقة جوّانية أعلم بوجودها دون أن أستطيع إليها وصولاً إلا نادرًا. وهكذا فإنّ جسمي بدلاً من أن يبقى منبطحًا بإذلال تحت براندكارت، بدأ يدفع إلى أعلى، فحررتُ يديّ أولاً، ثم أخذتُ أضربه على صدره والرأس، إلى أن أجبرتُه على أن يدافع عن نفسه ويفكّ قبضته عني، وأخيرًا دحرجتُه جانبًا ونهضتُ وأنا أواصل تسديد اللكمات إليه. وبعد دقيقة ظهر المستر وانِك، ففصل بيننا وأعادنا إلى مبنى المدرسة بعبارةِ ازدراءٍ مفادها: «ما أَمْرُكما أنتما؟».

قبل سنة من ذلك، عرفتُ تجربة مماثلة من الهزيمة والنهوض. وإني أدرك الآن فقط أنّ الحادثتين تدلان على تلك الإرادة المباغتة لتجاوز القواعد القديمة والمُهَلِ المحددة التي كان «إدوارد» قد ارتضاها. فخلال عطلة نهاية الأسبوع، التقيتُ غي موسيري في بركة السباحة في نادي «المعادي»، وهو فتى نحيل قصير القامة من سكان «المعادي» وتلامذةِ المدرسة الأميركية. بدأنا لعبة مطاردة فكان عليّ أن أغطس في البركة وأسبح ثم أنتشل نفسي من الماء لأعاود الغطس والسباحة ثانيةً إلى أن يَقبض عليّ، إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. انطلقتُ في حال حبور، أشق طريقي بين السابحين، وغي يغذّ في أعقابي. إلا أني سرعان ما بدأتُ أتلاشى، وتملّكني ذعرٌ شديد إذ أدركتُ أنّ غي لا يزال يطاردني بلا كلل ووجهُه خالٍ من أيّ تعبير. فإذا

شعوري بالإخفاق الكاسح يزيد المطاردة كتامة وتضخيمًا. وأخذ غِي يُطبِق عليّ فيما أنا أتباطأ، دليلاً على أنّ «إدوارد» قد استسلم، فإذا بي أكتشفُ طاقة مستجدة تحرِّك قدميّ وذراعيّ وتدفعني بعيدًا عن موسيري، الذي أربكه التغيّرُ الفجائيّ الذي طرأ على العلاقة بين الصيّاد والطريدة. فما كان منه إلا أن توقف عاجزًا عن الاستمرار بعد دقائق معدودة.

على أنّ مثل تلك المناسبات كانت نادرة. ذلك أنّ المدرسة الأميركية أجبرتني على أخذ «إدوارد» على محمل الجدّ أكثر من ذي قبل بما هو كائن معطوب وفَزِعٌ وضعيف الثقة بالنفس. وكان الشعور العام المسيطر عليّ هو شعوري بامتلاك هوية مُضطربة، أنا الأميركيُّ الذي يُبطِن هويةً عربية أخرى لا أستمدّ منها أية قوة بل تورثني الخجل والانزعاج. ورأيتُ عند ستان هنري وأَلِكس ميلر هويةً أكثر اشتهاءً، صلّدة كالصخر ومتطابقة مع الواقع. بل إنّ جان پيير ثابت ومَلَك أبو العزّ وحتى ألبير كورونيل - رغم كونهم يهودًا مصريين يحملون جوازات سفر إسبانية - يستطيعون أن يحققوا ذواتهم، فلا شيء عندهم يحتاج إلى إخفاء ولا هم مضطرون إلى تمثيل دور المواطنين الأميركيين. ومرةً خلال سنتي الثانية في تلك المدرسة، ظهر صبيٌّ جديد أكبر مني سنًا، هو بوب سيمحا، فظننتُ أني وجدتُ رفيقًا لي عندما شرح لي والداي أن سيمحا اسم يهوديّ وعربيّ معًا. فحاولتُ استكشاف شَبَهٍ خفيّ بيني وبينه، ولكنّي حيّرتُه بأسئلتي عما إذا كان له أقرباء في حلب أو بغداد. «لا»، صرفني بنزقٍ قائلاً، «أنا من نيو روشيل». ومنه تعلّمتُ تعبير «تُفٍّ على شارب أبيك».

يومًا بعد يوم في المدرسة أخذتُ أشعر بالتفارق بين حياتي الشخصية، أنا «إدوارد» ذا الهوية المزوّرة بل والإيديولوجية، وحياتي في البيت، حيث تعاظمتْ ثروةُ أبي بعد الحرب، لكونه رجل أعمال أميركيًا. وبعد العام ١٩٤٦، باشر هو وأمي رحلاتهما الأوروبية التي سوف تَعْقبها رحلاتٌ آسيوية وأميركية، مرتين في السنة على الأقل. ولما كنت ولده الوحيد وكان لا يزال المالك والمدير لمصالحه التجارية المترامية الأطراف، فقد كان لا بدّ من أن أبدأ بالاهتمام بمشاريعه التجارية. هكذا دخلتْ حياتَنا وبيتَنا ولغتَنا اليومية لائحةٌ طويلةٌ من أسماء الشركات التي كان وكيلاً لها (أو «عميلاً» بحسب المصطلح السائد آنذاك). وقد وجدتْ معظمُ منتجات تلك الشركات طريقَها إلى رقم واحد، شارع عزيز عثمان، الشقة ٢٠، الطبقة الخامسة:

أقلام «شيفرز» ومحابر «سكريپ»، والأثاث الفولاذيّ لشركة «آرت ميتال»، وكراسٍ وطاولات «سيبيل»، وخزنات «شُوب»، و«رويال» للآلات الكاتبة، وحاسبات «مونرو»، وسكاكين ومقصّات الفولاذ المقاوم للصدإ من صنع «سولِنجن»، وآلات النسخ بواسطة الحبر أو الكحول من عند «إيلام» و«آي. بي. ديك»، والأدوات المكتبية من ماركة «مارورِن» ومفكّرات «ليتس» وأشرطة تسجيل وناسخات ودهانات «ثري إمّ»، وآلات التسجيل الصوتيّ والتفريغ «ديكتافون»، أضفْ إليها آلات الدَمْغ البريديّ الإنكليزية وآلة حاسبة سويدية و«طابعة شيكاغو الأوتوماتيكية» وآخر إصدارات شركة «فيبر – كوستيللو» لإنتاج مجسّمات الكرة الأرضية للأغراض التعليمية.

ولم يقتصر الأمر على منتجات تلك الشركات بل طاول مسافريها الذين صاروا من معارفنا، وخصوصًا المدعوّ ألِكس كالدور، وهو مَجَريّ ثقيلُ اللكنة (ولعله رومانيّ، وفي كل الأحوال، كان ذا أصل غامض أثار جملة تأويلات) وعازبٌ في مثل عمر أبي تقريبًا، يسافر لحساب شركة «رويال» للآلات الكاتبة ويتنقل بين فنادق الدرجات الأولى عبر العالم. يزور القاهرة مرّتين في السنة على الأقل ويتردد على بيتنا لاحتساء الكحول ولدعوة والديّ، ودعوتي أنا بعد أن بلغتُ الرابعة عشرة، إلى العشاء. وكان كالدور أول مَنْ قابلتُ مِن الأتباع الجذريين لمذهب الكلبيّة وأولَ المتعيّشين على كرم الآخرين. على أني أحببتُ طريقته في التظاهر بأن ما من عمل إلا وقد أتاه (خلا الزواج) وبأن لا شيء يعجبه بمن في ذلك أبي الذي كان يعامله بأبوية مسلّية. وكان سمينًا ومُدمنًا تُوست «الميلبا». وأعتقد أنه سحرني لأنّ صوته يشبه صوت بيلا لوغوسي، الذي مُنِعتُ من مشاهدة أفلامه (بحجة أنها «غير مناسبة للأطفال») مع أني توصلتُ إلى معرفة القليل عنه من خلال مقتطفات «قريبًا على هذه الشاشة» التي ترافِقُ أفلامَ الأطفال في صالات السينما المحلية.

بعد الحرب، بدأ أبي يجول بانتظام على مختلف المكاتب والمعامل العائدة للشركات الرئيسية التي يتعامل معها والموزعين والمتعاونين. وقد سعى دائمًا للحصول على وكالات تجارية حصرية، وقد حصل عليها بالفعل، بحيث استطاع أن يبيع بدوره منتجات تلك الشركات لموزّعين آخرين وللزبائن بصفته الوكيل المحليّ الرئيسيّ. وعندما غادرتُ القاهرة، كانت شركته لبيع التجهيزات المكتبية والقرطاسيات قد أضحتْ أكبر الشركات في الشرق الأوسط قاطبةً وتَسْبق مثيلاتها

بأشواط. وقد نما عندي أيضًا حِسُّه التنافسيُّ الحاد تجاه المنتجات المزاحِمة، فبتنا نعاملها وكأنها أعداء شخصيون: أُوليفِتّي، رُونيو، پاركر، جِسْتِتْنِر، أدلر، وغيرها، نناقش دونيتها قياسًا إلى «أصنافنا» بشغف لا يُستهان به. وعلى الغرار ذاته، نشأتْ ألفة أيضًا بيننا وبين الباعة الرئيسيين ومديري الأقسام في «المحل» وهم، وإنْ لم يصيروا جزءًا من العائلة، فالمؤكد أنهم كانوا أكثر من مجرد موظفين. وإذ أنظر إلى الوراء الآن، ألاحظ أنّ معظمهم قد طال به الأمد على نحو لافت، إلا واحدًا هو السيد پانيكيان، المُحاسِب الذي غادر إلى أوستراليا عام ١٩٤٦ مع ولديه وزوجته – ذاتِ الأسنان الناتئة التي كانت تستعرض مواهبها الموسيقية، خلال زيارتهما السنوية إلى منزلنا، بالعزف على البيانو بواسطة برتقالات – فإذا كمية كبيرة من أموال الشركة قد اختفت بعد مغادرتهما؛ والقولُ على ذمّة الموظف الذي خَلَفَه في مكتب أبي.

أما باقي الموظفين فقد لازموا الشركة سنواتٍ وسنوات، وهم مزيج غريب من الأقليات المشرقية والمصريين، مسلمين وأقباطًا، وأُضيف إليهم، بعد العام ١٩٤٨، عددٌ متزايد من اللاجئين الفلسطينيين الذين كانت تَضْغط عمتي نبيهة على والدي لتشغيلهم فيستجيب بلا تردد. لاحقًا، قدّرتُ أنّ ما حققه أبي في مجال التنظيم العقلانيّ للعمل ومَنْحِ الحوافز لكل واحد من موظفيه المتكاثرين باستمرار كان عملاً فريدًا، لا بالقياس إليه وحسب وإنما قياسًا أيضًا إلى منطقة الشرق الأوسط برمّتها. وكان لامپاس، اليونانيّ البدين وأقدمُ الموظفين عند أبي، يدير المحل، وپيتر الأرمنيّ يدير قسمَ الناقلات والناسخات، وهاغوب ونيقولا سليم، قسمَ الحاسبات، وليون كريستشيفسكي، قسمَ الآلات الكاتبة، وصبحي القبطي، الأثاثَ، وفريد طبجي، المفكراتِ والأقلامَ، وشيمي المخزنَ، وأحمد أمانةَ الصندوق. ولكل واحدٍ منهم فوجٌ من المساعدين يأتمر بأمره.

كان لأبي، في مكتبه عبر الشارع، سكرتيرةٌ شخصية وسكرتيرٌ للغة العربية، اسمه محمد أبو العوف، وهو رجل قصير القامة ذو نظارات ويتميّز بصبر أيوب وبانقباضيةٍ نيّقة تجعله أشبه بطالِب دائم الكدّ لكنه عديم الموهبة بحيث لا ينجح في إكمال دراسته. خلال طفولتي، كانت السكرتيرة هي الآنسة آنّا ماندِل، الأنيقة الملبس، التي تزورنا بين الحين والآخر لتناول الشاي، وقد اختفتْ فجأة بعد معركة

العَلَمَين. بدأتْ آنّا العمل عند أبي قبل زواجه بسنة، عام ١٩٣٢، وأذكر أنّ أحاديثه في سنواتي الأولى كانت تتخللها إشاراتٌ متكررة إلى «مِسّ ماندِل». وقد اكتشفتُ فيما بعد أنّ أمي هي التي جعلته يتخلى عن خدماتها، لاعتقادها، كما أسرّتْ إليَّ بهدوء بعد سنوات عديدة، أنّ آنّا ماندِل «كانت ترغب في الزواج من أبيك». هل كانا على علاقة؟ سألتُها. فجاء الردّ: «لا شك أنها كانت تودّ ذلك. ولكنْ، لا، طبعًا، لا». غير أنّي لم أستطع التثبت من الأمر تأكيدًا أو نفيًا. وأما معظم النساء اللواتي خَلَفْن آنّا ماندِل في ذلك المنصب (وقد شغله أيضًا بعضُ الرجال)، بموافقة أمي أو رضوخًا منها للأمر الواقع، فكنّ إمّا شابات صغيرات السن وخرقاوات وإما نساء في منتصف العمر جسيمات ومتثاقلات وبطيئات الحركة، لا يُشْبِهن في شيء الآنسَة ماندِل، التي أَذْكرها، على نحوٍ غامض، امرأةً رشيقةً ومتناسقةَ الكسم.

قسمان إضافيان يكمّلان الجيش الصغير من الموظفّين العاملين عند أبي. القسم الأول هو «المحاسبة»، ويديره أسعد كوكباني الذي شدّه أبي من شركة محاسبة بريطانية وجعله ساعده الأيمن. على أنّ هذا لم يمنع أبي من أن يعامله كآخر المغفّلين عندما ينسى أمرًا ما أو يضيع فاتورة أو يخطئ في احتسابها. ويُشْرف أسعد أيضًا على مجموعة موظفين يتّبعون جميعهم القواعد المحاسبية الدقيقة التي وضعها «المستر سعيد»، وهو الاسم الذي يناديه به الجميع. والقسم الثاني هو قسم «التصليحات»، ويرأسه مجايِلٌ للامپاس، هو هراتش الأرمنيّ الصموت الذي لم أشاهده مرةً إلا متأزّرًا بمئزر جِلديّ. وكان أبي يعتقد أنّ هراتش عبقريّ يستطيع إصلاح أيّ شيء، بما في ذلك ألعابنا وأدوات مطبخ أمي والأثاث. وكان أبي هو أيضًا رائدًا في مجال التصليحات وخدماتِ ما بعد البيع، وقد صمّم عَقد خدمةٍ لكل آلة يبيعها، وهو ما يسمح له ببيعها بسعرٍ أرخص من أسعار منافسيه، ثم يعوّض الفارقَ بإقناع الزبائن بشراء عقد الخدمة لسنوات عدة. ويرأس هراتش ما يزيد عن ثلاثين ميكانيكيًا مزوَّدين بدرّاجات نارية أو هوائية يقودونها بسرعةٍ عبر شوارع المدينة كلها لإصلاح كلِّ ما تبيعه تقريبًا «شركةُ الراية للقرطاسيات»، أو «إس. إس. كو» كما كنا نسمّيها.

وكانت الشركة تَسْتخدم أيضًا طابورًا من «الخدم» كما يسمّيهم أبي، أو «الفرّاشين»، كما في العربية المصرية، يَعْملون في تسليم البضائع وصنع القهوة أو

يعملون حمّالين وعمّالَ تنظيفات، والبعضُ منهم يدور أيضًا عبر شوارع القاهرة على دراجات ذات ثلاث عجلات وتاليًا في شاحناتِ تسليم صغيرة. على هذه المملكة الشاسعة والمتوسعة باستمرار، يتسلطن أبي، ملِكًا مطلَقَ الصلاحيات وشخصيةً أبويةً كما في روايات شارلز ديكنز، مستبِدًا إذا غضب، كريمًا إذا رَضِيَ. وهو يعرف أكثر من أيّ واحدٍ آخر أدق دقائق مملكته، ملمّاً بكل شاردة وواردة فيها، لا يطيق اغتيابَ الناس (ولا يَدخل في نقاش شخصيّ مع أحد في «موقع العمل»، كما كان يسمّي ذلك المكان، ولا حتى مع أفراد عائلته)، يحوز احترامَ موظفيه، إنْ لم نقل محبَّتَهم، بفضل تعدّد مواهبه وكفاءته التي لا تخطئ في عموم المهارات الإدارية والتجارية. ومن إنجازاته أنه حوّل البيروقراطية الحكومية المصرية تحويلاً شاملاً بإدخاله الآلات الكاتبة والناسخات والناقلات وخزائنَ الأرشفة إليها، لتحلّ محلّ الوسائل الاعتباطية السابقة من ورق الكاربون وأقلام الكوبيا والأوراق المُستَّفة على حوافِّ النوافذ وفوق الطاولات. وطوّر بمساعدة أمي، والأحرى القول إنه «اخترع»، الآلةَ الكاتبةَ بالحروف العربية بالتعاون مع شركة «رويال» التي نَمَتْ علاقةٌ وثيقة بيننا وبين أصحابها الأرستقراطيين الأميركيين، آل جون باري رايان. وكان أبي يتميّز بطاقتين جبارتين لا تخطئان لم يجمع بينهما أيٌّ سواه في تجربتي الشخصية: وهما تنفيذُه عملياتٍ حسابيةً بالغةَ التعقيد في رأسه وبسرعة الضوء من جهة، وتمتُّعُه، من جهة ثانية، بذاكرة ممتازة لتاريخ ابتياع كل سلعة من سلع تجارته وثمنها (وكان منها الألوف). وكم كان مُحرِجًا أن تشاهده وراء مكتبه، يحيط به أسعد وعدد من السكرتيريين والسكرتيرات ومديري الأقسام، وكلُّهم يفتّشون في الملفات والأوراق. فيما هو يستخرج من الذاكرة كلَّ تاريخ شراءٍ وتسويقِ ملفِّ سلعٍ يعاني تسويقُها حالَ ركودٍ، مثلاً، أو صنفٍ من الحاسبات أو مجموعٍ نماذج قلمٍ حبر «شيفرز».

لم يَجْعل منه هذا كلُّه ربَّ عملٍ صبورًا أو حتى مراعيًا للآخرين، ولكنّي أعتقد أنه كان دائم الاستقامة والإنصاف بقدرِ ما كان دائم السخاء. وقد ابتكر فكرة منح المكافآت لجميع موظفيه في أعياد الميلاد أو الأضحى أو روش هاشاناه (رأس السنة العبرية)، ناهيك عن مشاريعه للضمان الصحيّ والمعاش التقاعديّ. لم يَترك أيٌّ من هذا كله أثرًا يُذكر عليّ آنذاك، وأنا منهمك في الرضوخ لسلطته أو في معاناة

الشعور بالاضطهاد، فلم أقدِّر عبقريتَه الاستثنائيَة في ميدان الأعمال حقَّ قدرها، وقد طوّرها بذاته في عاصمة طَرْفية من عواصم العالم الثالث غارقةٍ في الاقتصادات الكولونيالية ومِلْكيّات الأرض الإقطاعية والمكاراة الفوضوية كبيرِها وصغيرِها (وإن تكن ناجحة أحيانًا). الآن فقط، إذ أعدّد كل هذه الإنجازات، أدرك كم هي مذهلة وأنّها، للأسف، لم تسجَّل له ولم يَنَلْ عليها ما يستحقه من الثناء. وحقيقة الأمر أنّ أبي كان، في الأساس، رأسماليًا حديثًا ذا قدرة هائلة على التفكير المنتظِم والمؤسساتيّ، لا يخشى خوضَ المغامرات أو دفعَ الأثمان اللازمة لتحقيق الأرباح الطويلة المدى، وكان يستغلّ الإعلانَ والعلاقات العامة بطريقة لامعة، وكان فوق ذلك كله منظِّمًا ومدبِّرًا لمصالح زبائنه التجارية، يزوّدهم أولاً بالقدرة على التعبير عن حاجاتهم والأهداف، ويمدّهم، من ثم، بالمنتجات والخدمات اللازمة لتحقيقها.

ومن تجديداته إصدارُ دليل منتجات سنويٍّ لكل تقديماته، وهو أمر لم يُقْدم عليه أحد في مجال عمله في مصر. وقد قال لي مرةً إنّ ابن عمه وشريكه المقدسيّ بولس لامَه على الكلفة المرتفعة لذلك الإصدار. بيد أنه، مع تطوّر أعماله، أَقْلع عن تلك الممارسة بملء إرادته واستعاضَ عنها بنشر لوائح «الزبائن الراضين» من كل صنف من الأصناف الرئيسية التي يتعاطاها. وهكذا، لقاءَ كلفة زهيدة، بات زبائنه، بسبب تلك اللوائح، يعملون معه ومن أجله، بمعنًى ما. فنمتْ أعمالُه وتوسعتْ، رغم بعض الانتكاسات الكارثية أحيانًا، ووفّر من ثَمَّ لأسرته، على طريقته المميزة، منافعَ ذلك التوسع في الثروة والنفوذ كاملةً.

قبل مغادرتي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥١، لم يكن والداي قد دخلا المجتمع القاهريّ على نطاق واسع. فعلى الرغم من ثرائهما، ظلت حلقةُ معارفهما وأصدقائهما محصورة إلى حد كبير في المعاونين وأفراد العائلة، مثل إيزاك غولدنبرغ، جوهريّ العائلة؛ والأُسطا إبراهيم، النجّار الودود ذي الشارب المعكوف المتدلّي مثل مِقود درّاجة، والذي يُنتج مشغلُه قطعَ الأثاث لمنزلنا مثلما ينتجها، على نطاق أوسع، لأعمال أبي؛ ومحمود، صهر الأُسطا إبراهيم (وصهره الثاني هو محمد أبو العوف)؛ وخالي الأصغر، إميل، الذي انتقل للعمل عند أبي؛ ومراد عصفور، الموظف الشاب الصاعد في «جمعية الشبان المسيحيين» الذي ورّط أبي لاحقًا بألوف الجنيهات من الديون عندما أفلس محلُّه لبيع الأدوات الرياضية وأخذ الدائنون

يطالبون بديونهم التي كان أبي قد كفلها؛ ونجيب قلاده، القبطيّ اللامع، والسكرتير العام لـ«جمعية الشبان المسيحيين» وأحد شركاء والدي الأساسيين. وكانت ابنة قلادة، إيزيس، تملك صوتَ «آلتو» استثنائيًا وترتّل القدّاس في كنيسة الإرسالية الأميركية. وتكتمل الحلقة بعددٍ يسير من الأقارب أمثال آنطي ميليا، والعم آل وزوجته الغريبة المضحاك، إميلي، وولديهما وابنتهما، إضافةً إلى هذا القريب أو ذاك من أهالي فلسطين يزور القاهرة بين الحين والآخر لغرض التسوّق أو الأعمال. وكان هؤلاء الأصدقاء والمعارف يأتون لتناول وجبات الطعام في أوقات وأيام معينة (مثلاً، يحضر النجّار لتناول الفطور يوم السبت) فصرتُ أميّزهم من خلال عاداتهم الطعامية: فالأُسطا إبراهيم، مثلاً، يرفض تناول الخبز الأبيض ويحبّ الثوم ويؤثِر الفُول على اللحم. وكنتُ دقيق المراقبة لأدنى التفاصيل السطحية. وقد تمكنتْ مني تلك العادةُ إذ بدأتُ أعيش المفارقة بين البيئة الأميركية والبيئة المحلية بقوةٍ أشدّ بعد عامي الأول في «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين»: لماذا يرتدي الأميركيون الجوارب الملّونة، والمصريون والعرب لا يرتدونها؟ ولماذا «لديهم» قمصان «تي شيرت» وليس لدينا «نحن» مثلُ تلك القمصان؟

وما لبث أن طاردني كرهُ مِس كلارك البارد واستهجانُها إلى البيت أيضًا، حيث كانت تنهال عليّ النصائح المكرورة عن شرودي وقلة الجدّية ووَهَن العزيمة وضُعف الشخصية. لم تعلّمني تلك النصائحُ شيئًا، وقد دربّتُ نفسي على مقاومتها بأن حوّلْتُها في ذهني إلى مجرد جعجعة أصوات. وكانت كل الملذات مَحُوطة بالسماح الرسميّ حتى استحال عليّ الاستمتاعُ بها، ما عدا تلك الممهورة بموافقة الأهل، مثل اللعب بقطار «ليونيل» الكهربائيّ – وقد حمله أبي من الولايات المتحدة عام ١٩٤٦– وهو جهازٌ بالغ التعقيد يتطلب تركيبُه إخلاءَ طاولة السُفرة والاستعانةَ بكهربائيٍّ لأنّ الوصلات بين الحافلات لم تكن على ما يرام. وقد سُمِح لي بالاستماع إلى برنامجيْن إذاعييْن، زيدا إلى ثلاثة برامج، في الأسبوع الواحد، هما برنامجان من «زاوية الأطفال» التي تذاع بعد ظهر الأحد ومساء الأربعاء، وتضم مجموعةً «محترَمة» من العمّات والأعمام المنافقين على نحو مروّع، كانوا بريطانيين خلال الحرب وما لبثوا أن تمصّروا بعدها (وجميعهم يرطن بلهجات تقلّد اللهجة البريطانية على نحو شنيع ولهم أسماء مقززة مثل آنطي لولو وأنكل فؤاد) وبرنامجٌ واحد هو «أمسيات في الأوبرا»،

يذاع على الـ«بي. بي. سي.» في الواحدة والربع من بعد ظهر الأحد، حيث أصغيتُ إلى أوبرا كاملة لأول مرة. وحين أذيعتْ أوبرا «مقايضة زوجة» لسميتانا، دخلتُ في جذبة فيما راح ذهني يَجْهد ليتخيّل مشهد احتفالات الزواج التشيكية وما تعنيه كلماتٌ تترامى إليّ عبر الأثير ولا أفقه منها شيئًا مع أنها منحتني متعةً فائقة.

كانت الموسيقى، من جهة أولى، تدريبًا غير مُرضٍ ومملاً على تمارين البيانو، قيّدتني بكتب بورغمولر وسزرني وهانون في تكرارات آليةٍ لم تزدني مهارةً على لوحة المفاتيح. وكانت، من جهة أخرى، عالمًا زاخرًا وعشوائيًا من الأصوات والمشاهد الرائعة لا تقتصر على ما أصغي إليه من ألحان وإنما تتضمن أيضًا نسخًا مجمّلة من الصُوَر الفوتوغرافية والرسوم الشخصية يَزْدان بها كتابُ غوستاف كوبيه **الكامل في الأوبرا** وكتابُ أرنست نيومان **ليالي الأوبرا**، وكلاهما في مكتبة الوالدين. وكانت تلك الصور تمتزج بمشاهد متخيّلة للفرقة الموسيقية يُدَوْزِن أفرادُها آلاتهم قبل بدء العزف، وقد تعلّمتُ أن أستسيغ سماعها في البرامج الإذاعية. وبدون أيّ منطق أو نظام واضحيْن، وفَرتْ لي مجموعةُ الأسطوانات العائلية خبيصةً غريبةً من أعمال جانيت ماكدونالد ونلسون إدي وريتشارد شتراوس وباديريفسكي وپول روبسون وباخ، بالإضافة إلى بعض الغرابات من مثل تأدية ديانا دوربن لـ«هللويا» من أعمال موتزارت. وإذ كرّستُ نفسي لتجربة الموسيقي الشخصية، تراءى لي مسرح ضخم تكثر فيه ربطاتُ العنق السوداء والأزياء النسائية المكشوفة الكتفين (وقد اعتاد أبي ارتداء زيّ الـ«تاكسيدو» في الأماسيّ التي يذهب فيها إلى اجتماعات المحفل الماسونيّ البالغة السرّية، فيما أخذتْ أمي ترتدي فساطين السهرة التي تزيد من بروز صدرها العارم وكتفَيْها البيضاويْن، وقد باشرا حضور الأمسيات الدورية الخاصة بالمشتركين في موسم الأوبرا والباليه القاهريّ). أَوْحى كلُّ هذا لمخيّلتي الضالة باستعراضات جِنسيّة منمّقة تنميقًا رائعًا حيث الأداءُ الموسيقيّ لامعٌ إلى حد المحال، يكون أحيانًا أوركستراليًا على طريقة أفلام «إم.جي.إم.» (حيث جوزي إيتوري، في ذروة تألّقه، يقود الأوركسترا بواسطة عصًا ضخمة يعلوها ضوء أحمر وامضٌ، يحرّكها يمنةً ويُسرةً بنتائج باهرة) أو يكون، أحيانًا أخرى، أوپراليًا، تلمِّح إليه تلميحًا الصورُ المثيرةُ جنسيًا التي أقتنصُها مِن كُتُب كوبيه ونيومان. وقد استحوذتْ على استيهاماتي واحدةٌ من تلك الصور بنوعٍ خاص، هي صورة جُوبا ڤيليتش في دور «صالومي»، ترتدي ثوبَ سباحة معدّلا، فحوّلتِ الأوبرا إلى تجسيد لعالَم إيروتيكيّ شدّ ما أثارتني

لُغـاتُه غيـرُ المفـهومـة وحَبكاتُه المتوحّشـة ومـشـاعرُه المنفلتة من عُـقُلِهـا ومـوسـيقـاه المدوّخة[1].

وظل ڤاغنر اللغز الأكبر والأكثر تحديًا بين المؤلّفين الموسيقيين قاطبةً. وقد تعرّفتُ إلى أوبرا «الخاتم» وأنا في حوالى العاشرة بواسطة أسطوانة شديدة الإلغاز من ٧٨ دورة في الدقيقة سُجّلَتْ عليها «حراسةُ هاغن» من جهة و«نداءُ هاغن» من جهة ثانية. ولم يتسنَّ لي أن أشاهد أو أسمع أيًا منهما إلا عام ١٩٥٨، عندما قمت بزيارتي الأولى إلى بايروث. وأدّى «هاغن» مـؤدٍّ إنكليـزيّ - أظنه ألبـرت كـوتس - أخذ يجأر ويهدر ويزمجر أصواتًا فرضتْ نفسَها بطريقة مناسِبة من حيث تمثيلها لعالمٍ ضبابيٍّ رائع من الأشرار الحاملي الرماح الذي يتعاقدون على عهود رهيبة ويرتكبون الجرائم الدموية، وهذا أبعد ما يكون عن عالم الأطفال الأميركيين المحتشِم وعن حياتي في البيت تحت سيطرة الأهل. فلولا المدى الواسع والعشوائيّ الذي وفّرتْه تلك المجموعةُ المتنوعة من الأسطوانات - التي لم تُفْصح لي أبدًا عن السرّ الخفيّ الجامع بينها ولا كشفتْ عن منطوق تاريخ الموسيقى الغربية بمدارسها وحقباتها المختلفة وأنواعها المتطورة - ولولا حفلةٌ موسيقية عَرَضية هنا أو هناك، لاختنقتُ كليًا تحت وطأة التدريبات العقيمة ومقطوعات البيانو المعدّة «للأطفال» والمعلّمين الحسني النوايا الذين وقعتُ، للأسف، تحت سطوتهم.

في المدرسة الأميركية، درستُ البيانو على يد مِس شيريدجيان (وقد حلّتْ محلّ معلمتي الأولى، ليلى برباري اللطيفة والصبورة). وكان مجيئُها الأسبوعيّ لتعليمنا دروسنا (جين أولاً ثم روزي وأخيرًا أنا) بمثابة مجابهات كريهة تدور مدار عجزي عن الانقياد لها وهي تزعق أوامرها - عُدُّ معي: «تا» «فا» «تي» «في»، فورتي [قويّ]، پيانو [رقيق]، ستاكاتو [متقطّع] - تتخللها رشفاتُ قهوة تُحْدِثُ أزيزًا مدوّيًا، وقضماتٌ عفيّةٌ في الكعكة التي يقدّمها إليها أحمد، كبيرُ السُفرجيين عندنا، بإجلال لا يخلو من السخرية. لم تنجح شيري، كما كنا نسميها، إلا في إقناعي بأني تلميذ مهمِل وعازفُ

---

١ ـ «صالومي»، أوبرا لريتشارد شتراوس، و«رقصة صالومي» هي رقصة الغلالات السبع في الفصل الأخير منها، تنزع صالومي خلالها الغلالات السبع عن جسدها غلالة غلالة، إلى أن تتعرّى بالكامل، لإقناع ميرودوتس الملك بتسليمها رأس يوحنا المعمدان. (م)

بيانو فاشل، فيما أنا، بمعية أسطواناتي والكتب، صبيٌّ عَليم بحبكات الأوبرات يعرف بعضًا من المؤدّين أمثال إدوين فيشر وفيلهلم كَمْبف وبرونسلاف هوبرمان (وقد تعرفتُ إلى هذا الأخير من خلال تسجيله لكونشِرتو بتهوفْن على الكمان يرافقه جورج سْزيل) ولي تخييلات شديدة البهرجة عن حياة الحفلات الموسيقية.

في أواخر الأربعينيّات تمكنتُ أخيرًا من حضور الحفلات الأوبرالية - أو «الموسم الغنائيّ الإيطاليّ» كما كان يُسمَّى - في دار الأوبرا القاهرية، التي بناها في الأصل الخديوي إسماعيل لمناسبة افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩. وكان اشتراك والدي يشتمل على حضور باليه الـ«شان-ز- إيليزيه» الفرنسيّ، بقيادة جان بابيليه وناتالي فيليبار التي لا تُنسى، وهي عندي، إلى الآن، مؤسِّسةُ نوعٍ باهرٍ فتّانٍ من الرقص هو النوع الذي تنتمي إليه سِيْد شاريس المذهلة التي شاهدتُ أفلامها جميعًا. فالرقص عندي نوع مشهديّ من التجربة الجنسية التي لا تؤخذ إلا استبدالاً واختلاسًا. والقاهرة آنذاك مدينة كوزموبوليتية يسيطر الأوروبيون - الذين يعرف أبي بعضهم من خلال عمله - على حياتها الثقافية، أو هكذا بدا لي الأمر. وكنتُ دائم الشعور بأني بعيد جدًا عما هو الأكثر إثارةً فيها، مع أني شديد الامتنان لأخذي نصيبي منها وخصوصًا ما يندرج تحت عنوان «الفن». أما المدرسة الأميركية التي مكثتُ فيها خلال العام الدراسيّ ١٩٤٨-١٩٤٩، فصارت أضيق مدى وأقل تحديًا عندما انتقلتُ إلى الصف التاسع، بل قُلْ أقلُّ تحفيزًا من الناحية الفكرية وأكثرَ فأكثرَ انغلاقًا وتكبيلاً وهمودًا وبلادة. فإذا ارتيادُ دار الأوبرا في شهور الشتاء إثراءٌ عظيم لمعارفي الموسيقية عن المؤلِّفين والبرامج والعازفين والتقاليد الموسيقية. ويعود إلى تلك السنوات نفادُ صبري من سيغموند سپايث، «تحرّي الأنغام» الأميركيّ، وكتبهِ السقيمةِ عن «كواليس الموسيقي العالمية العظيمة»، كما ضقتُ ذرعًا بكتب الأطفال عن «كبار المؤلِّفين الموسيقيين» وكان لدينا منها الكثير. وحده ڤاغنر ظل بعيد المنال. وأذكر أنّ الحفلة التي أحياها لوهنغرين باللغة الإيطالية خلال «الموسم الغنائيّ» أدهشتني، بيد أنها خيَّبتني أيضًا بسبب حركتها المبهمة وغموض النصّ الأدبيّ في المشهد الثاني الذي يتطاول إلى ما لا نهاية، وبسبب الجَوّ العام من الكآبة والضياع المخيّم عليها. وصُدِمتُ إذ اكتشفتُ أنّ لوهنغرين، المغنّي النابوليتانيّ القصير البدين، هو النقيض تمامًا لما توسمتُه فيه من شهامة وفروسية.

أول أوبرا شاهدتُها (ولم أعاود الكرَّة) هي «أندريه شينييه» لجيوردنو، وكنتُ حينها في الثانية عشرة. وأذكر أني سألتُ أبي ما إذا «كانوا يغنّون خلال الأوبرا كلها أم أنه توجد فواصل للكلام (كما في أفلام وأسطوانات نِلسون إدّي وجانيت ماكدونالد المألوفة لديّ)». «كل الوقت»، كان جوابه النزق. على أنّ الجواب جاء بعد عدة أسابيع، عقب أمسية موجعِة في «سينما دنيا» حضرنا خلالها حفلةً موسيقية للمطربة أم كلثوم لم تبدأ إلا في التاسعة والنصف وانتهت بعد انتصاف الليل: حفلةً بلا فواصل، سادها نسقٌ غنائيّ وجدتُه رتيبًا إلى حد مروِّع في اتساق كآبته اللامتناهية ونَدْبِه اليائس، فإذا هو أشبه بالتأوه والنحيب المتواصلَيْن لأمرئ يعاني نوبةً حادة من الألم المَعَويّ. ولم يقتصر الأمر على أني لم أفقه أية كلمة مما غنّتْ، وإنما لم أستطع أن أميّز أيّ قوام أو شكل لتدفقاتها الرتيبة، فوجدتُها، والتَخْتَ الموسيقيُّ الكبيرَ الذي يرافقها في جعجعةِ ألحانٍ أحاديةِ الصوت، موجِعةً ومملّةً في آن. وفي المقابل، كان لأوبرا «أندريه شينييه» حيوية درامية وحبكة مسرحية تكفّلتا بأن أستَغْرِقَ فيها كليًا. ومن أسطوانات الـ٧٨ دورة في الدقيقة في بيتنا «نيميكو ديلا باتريا[1]»، وكنتُ أصغي إليها وأنتظرُ وصلات الغناء المنفرد إذ تتطور الدراما، فلم أفلح مرةً في تعيينها. جينو بيتشي، العضو الدائم في الفرقة الزائرة المجمَّعة أعضاؤها من فرقتَيْ «سان كارلو» في روما وناپولي، مثّل دور جيرار بسموّ وكثافة حاولتُ تقليدهما لاحقًا وأنا أقفز وأتزلق في حميمية غرفتي. ومع أني لم أستوعب لِمَ تُغنّي الشخصيات الأوبرالية أصلاً، فقد أسَرَني ذلك اللغزُ منذ أول اكتشافي له على المسرح القاهريّ.

بيد أني أستطيع، في المقابل، تعيينَ تواريخ مكتشفاتي الموسيقية الهامة، وصولاً إلى الدقيقة التي تمّ فيها الاكتشاف. وقد وقعتْ تلك الاكتشافاتُ كلها وأنا في حال من التوحُّد، بعيدًا عن فروض البيانو الضاغطة التي عيّنها لي أبي والمعلّمون من أمثال شيري. ويخيّل إليّ أنّ هذا الانشقاق بين شعوري تجاه الموسيقى وبين ممارستي الفعلية لها قد شَحَذَ ذاكرتي إلى حد بعيد، وهو ما سمح لي بأن أحفظ، ثم أن أؤدي على السمع، عددًا كبيرًا من المؤلَفات الموسيقية المعدّة

---

١ ـ وَصْلة الغناء المنفرد يؤديها جيرار في أوبرا «اندريه شينيه» لجيوردانو.

للأوركسترا والأدوات والغناء وأن أفقه الكثير عن فترة تأليفها أو مميزات أسلوبها. وقد عذبتني على الدوام ندرةُ تجربتي الموسيقية الـ«حيّة»، وما تنطوي عليه من قيمة يصعب استيعابُها بالكامل، وكنتُ دائم البحث عن وسائل للتشبث بها. فعندما شاهدتُ «حلاّق إشبيلية» لأول مرة، وأنا في الثالثة عشرة، فَتَنَني الأداء وتركني في حالٍ من الحرمان العجيب في الآن ذاته، إذ أدركتُ أنّ ما أشاهده - مَرَحَ روسينيّ وقحّته، وفكاهةَ تيتو غوبي وسطوتَه، وأداءَ إيتّوري باستيانيني ذي الوَقَار الخادع لـ«لا كالُمنيا[1]» - لن يتكرّر قريبًا في أيّ شكل من الأشكال، مع أني أملتُ أن يذيع برنامجُ «ليالٍ في الأوبرا» وَصْلةً أو أكثر من وَصْلات الغناء المنفرد، وهذا ما لم يحصل لفترة من الزمن. ولكني، بعد عام من ذلك تمامًا، حين كنتُ أنا المتسكّعَ اليقظَ، بل المتلصِّصَ، أحوم حول غرفة الأهل خلال عطلة الميلاد، اشتبهتُ في أني قد أتلقى منهم هدية من الأسطوانات الموسيقية. وفي حوالى الرابعة من فجر يوم الميلاد، تسللتُ إلى غرفة الجلوس المعتمة، متلمِّسًا طريقي إلى الشجرة الاصطناعية ذات اللون الأخضر غير الطبيعيّ - التي تُنزلها أمي من السقيفة وتزيّنها ثم تعيدها إلى مكانها، عامًا بعد عام - حيث اكتشفتُ علبة تحوي ثماني أسطوانات من مختارات «حلاّق إشبيلية» ملقاة عند كعبها. وكان في عداد المغنين ريكاردو ستراكشياري ودينو بورجيولي وميرسيدس كاپسير وسلڤاتوري باكالوني. فتحتُ العلبة بعناية وأدرتُ الأسطونات على الآلة فورًا، من أولها إلى آخرها، والأبوابُ مقفلةٌ ودرجةُ الصوت مخفّضةٌ جدًا في الغرفة الداكنة التي أخذتْ تضيء تدريجيًا بنور الصُبح الطالع. فإذا امتلاكي الأداءَ المسرحيَّ كما أتذكره، وقد تكرّس في مثل ذلك الإطار الحميم جدًا والخاص جدًا، شكّل ذروة المتعة. بيد أنّ تلك النوعية المميزة جدًا أسَرَتني أيضًا في عالم من الصمت وفي ذاتية مستحيلة لم أكن أملك القوة الكافية للمحافظة على أيّ منهما.

أَغْنى بتهوفن، أكثرَ من أيّ موسيقي آخر، تربيتي الذاتية الموسيقية على نحو هو الأكثر انتظامًا. لم يعتقد المعلّمون أني جدير بأداء سُوناتاته على البيانو (كان موتزارت معذّبي في هذا المجال) مع أني بذلتُ محاولات سرّية عدة لعزف سُوناتا

١ - وصلة الغناء المنفرد لدون باسيليو في «حَلاّق إشبيلية» لروسّيني.

«باتيتيك» ونَمَتْ عندي خلالها شهيةٌ للاستيعاب البصريّ تَفُوق بكثيرٍ طاقاتي على الأداء الإصبعيّ. وعندما يجري تأنيبي لأني لا أتمرن على فروض هانون وسزيرني التي كلّفتُ بها، رغم حضور أمي مراقِبًا دائمًا، كنتُ ألجأ إلى الأسطوانات فأفكّ ألغاز مقطوعات البيانو المحظورة «المعدّة للكبار» من تأليف ماندلسون وفوريه وهاندل وقد أسقطِتْ من برنامجي الموسيقيّ لصالح الحثالة التي فُرِض عليّ المواظبةُ عليها لساعات لا تنتهي.

أخذني الأهل ذاتَ مرة إلى قاعة إيوارت (داخل حرم الجامعة الأميركية في القاهرة، وهي أكبر قاعات الاحتفالات الموسيقية من نوعها، وكانت ولا تزال تُستخدَم للكونشرتات الهامة) لحضور حفلة لفرقة «موزيكا ڤيڤا» بقيادة هانس هيكمان، وهو ضابطُ إيقاع يَدْفن رأسه في النوطة كما في مخدّة. أدّت العزفَ المنفردَ في كونشرتو البيانو الأول لبتهوفن – أم تراه الثاني؟ – موريال هاوارد، زوجةُ عميد الجامعة الأميركية في القاهرة، وأمُّ كاثي، زميلتي في المدرسة الأميركية. وكان أبي مقرَّبًا من العميد وَارْث هاوارد (وكنتُ أرى في الرنّة القويّة لاسمه الأول تجسيدًا لكل جبروت القارة الأميركية) فأَصَرّ على أن يصطحبني وأمي إليه وإلى زوجته المنطوية على ذاتها على نحوٍ غريبٍ، حسبما اكتشفتُ، وقد أتمّتْ للتوّ أداء الكونشرتو بطريقة سريعة خاطفة للأنفاس. «براڤو»، قال أبي، والتفتَ مباشرةً إلى أمي طلبًا للدعم. «رائع»، أنجدته أمي، قبل أن تلتفتْ إليَّ فجأة بنظرة تحذير. وأنا طبعًا معقود اللسان، ألازم مكاني، يفضحني شعوري بالحَرَج العميق. «أترى؟»، قالت أمي بنبرة ظفراوية مع أنها كانت تخاطب موريال في الآن ذاته، «أترى أهمية التمرين على السلالم الموسيقية، يا إدوارد؟ السلالم وهانون. أليس كذلك، يا سيدة هاوارد؟». أومأتِ السيدة هاوارد برأسها موافقةً، ولكنْ بإحساسٍ واضحٍ أنّ التمرّن على السلالم هو آخرُ ما يهمها الحديثُ عنه في تلك اللحظات.

وبالمقارنة، فإنّ تسجيل ستوكوفسكي لسمفونية بتهوفن التاسعة (التي أَنشدتْ فيها الجوقةُ قصيدةَ شيللر «نشيدُ للفرح» بالإنكليزية («افرحي، أنتِ، يا ابنة النعيم») قد أبهجني بتفسيره للحرية وباللُّغز المرعب للفواصل الخماسية الطليقة، فأصغيتُ والحسدُ يتآكلني إلى السهولة الروتينية التي ترقى بها الأوركسترا

السلالمَ الموسيقية وتؤدّي التنويعات الشائكة، بلا أدنى خطإ، محاولاً، بطريقة لاشعورية، أن أترجمها إلى مواقع إصبعية ذهنية تَعْجز أصابعي غيرُ الدَربة عن عزفها على البيانو. واستمتعتُ استمتاعًا بالغًا بـ«رقصة صالومي»، كما تعلن عنها الرقعةُ على الأسطوانة البُنّية، وبتسجيل پاديريفسكي لسائية بتهوفن على مقام «إف» الحاد، وبالثالس على مقام «سي» الصغير الحاد التي اعتبرتُها ذروةَ العزف على البيانو والنقيضَ من أدائي البائس.

على أنّ أعظم تجاربي الموسيقية قاطبةً، خلال أيام المراهقة القاهرية، هي الزيارات التي قام بها كليمِنس كراوس وفِلهلم فورتڤانغلر عامَيْ ١٩٥٠ و١٩٥١ مع فرقة ڤيينا الفلهارمونية وفرقة برلين الفلهارمونية على التوالي. ومع أني أُخِذتُ في الحالين إلى حفلتَيْ بعد ظهر يوم الأحد، وقد غلبتْ عليها، في حال كراوس، «طقطوقاتٌ» من نمط افتتاحية «دونّا ديانا» و«پولكا پيتزيكاتو» لشتراوس، فقد حررني النغمُ الرائع الجمال والحضورُ المتسلطن على المنصة وحتى سحرُ الكلمات الألمانية (من مثل «ڤيينَر فيلهارمونيكر») من الابتذال. ولأني لم أستمع مباشرةً من قبلُ إلى أيّ شيء يبلغ ذلك المستوى من البراعة الغزيرة المباشرة، فلا يزال يَحْضرني مدى الحبور الذي انتابني وكيف حاولتُ بشتى الوسائل أن أمدّد الساعتين الهزيلتين اللتين أُعطيتُهما في سينما ريڤولي (ولم أفهم قط لماذا لم تُختَر لكراوس وفورتڤانغلر قاعةُ إيوارت الأنسبُ والأرصنُ، واختيرت بدلاً منها صالةُ سينما فاحشةُ الزخرفة، تكتمل عدّتُها بأُرغنٍ رنّان يُشعشع بأنوار النيون السُكّرية النابضة، وبعازفِ أُرغن إنكليزيٍّ، هو جيرالد پيل، الاستعراضيّ القرمزيّ الوجه الذي أدت قفزاتُه البهلوانية صعودًا إلى الآلة المدرّجة المهيبة ونزولاً منها، إلى تسليتي بأكثر مما أداه عزفُه الذي لا ينتهي لأعمال كيتِلبي[1] وللباهت من الإيقاعات اللاتينية الراقصة. وفحوى محاولاتي تلك أني سعيتُ للاحتفاظ بالموسيقى في أذني، وقيادةِ أوركسترا وهمية، والبحثِ بلا نجاح يُذكر عن تسجيلات (أغلى ثمنًا بكثير مما تتحمله إمكاناتي المادية) للمقطوعات ذاتها تؤديها الأوركسترا ذاتُها بقيادة

---

١ ـ ألبرت كيتلبي (١٨٧٥ ـ ١٩٩٥) موسيقيّ وقائد أوركسترا بريطانيّ ذاعت شهرته بسبب تأليفه مقطوعات من الموسيقى الخفيفة على الأُرغُن.

القائد ذاته. وكنت أُحبَط بالتأكيد، وأكتئِب، في غالب الأحيان، للسرعة التي تأتي بها مثلُ تلك الغبطة النادرة وتروح، وللوقت الذي قضيته لاحقًا ساعيًا لاستعادتها بل ولتكريسها بالبحث عن كتب ومقالات وبشر تحدَّثني عنها، وتؤكِّد لي حقيقتها ومتعتها، وتُحْيي فيّ ما بدا أنه على شفير الزوال.

بعد سنة على مشاهدتي كراوس، اعتلى فورتڤانغلر هو أيضًا منصّة «سينما ريڤولي» في أصيل ذات يوم أحد . فكانت الحفلة الموسيقية التي طغت على السنوات الحادية والعشرين الأولى من حياتي، لم يضارعها غيرُ سماعي، عامَ ١٩٥٨، الإيقاعاتِ الافتتاحيةَ لـ«ذهب نهر الراين»[1] تتعالى من حلبة الأوركسترا المُعتمة في بايروث. لم أكن أعرف عن فورتڤانغلر شيئًا باستثناء أنّ اسمه يَظْهر على الرُقعات الحمر لأسطوانات HMV في تسجيله لسِمفونية بتهوڤن الخامسة. ولخمس سنوات على الأقل، ظلّ ذاك التسجيل هو التسجيلَ الأثير لديّ والمحكّ الذي به أَحْكم على الأداءات الموسيقية كافةً، بل كان الذروةَ في قوة لا توصف يخيّل إليّ أنها تخرج لتخاطبني مباشرةً من الراديو - غرامافون الطولاني، ماركة «ستيورت-وارنز». أولَ الأمر، بدا لي أنّ اسم فورتڤانغلر هو مصدر تلك القوة، أردده غالبًا بيني وبين نفسي (على جهلي باللغة الألمانية) وأتخيّله كائنًا ممشوق القوام، فائقَ التهذيب، كُتِبَتْ موسيقى بتهوڤن خصيصًا له. وأَذْكر كيف أني تحلّيتُ بصبر عظيم وأنا أُناقِضُ ذات مرة تأملات ابن عمي القليلةَ الخبرة حين ادعى أنّ شعار السِمفونية الخامسة هو «القَدَر يدقّ الباب». فما اكتشفتُه في المقطوعة، بفضل فورتڤانغلر، عرفتُ بالغريزة أنه لا يحتمل مثلَ ذلك التأويل. «الموسيقى هي الموسيقى»، أذكر أني أجبتُه، من نفاد صبري ومن عجزي أيضًا عن التعبير عما يهزّني في الموسيقى بطريقةٍ جدّ فريدةٍ وإلى درجة العَيّ عن الكلام.

جلسنا في مقاعد البلكون كالتي حجزناها لحفل كراوس - وكانت محجوزة، في تلك الأيام، لمن يسمّيهم أبي «طبقةٌ أرقى من الناس». ويبدو لي، في نظرة استرجاعية، أنّ كراوس شخصية جامدة وأشبهُ برجل أعمال. ثم إنّ برنامج فورتڤانغلر، مثله مثل الرجل نفسه، كان أكثر تحديًا، إذ ضمّ سِمفونية شوبرت «غير

---

١ - Das Rheingold (١٨٦٩): اوبرا لڤاغنر. (م)

المكتملة» وسِمفونية موتزارت في مقام «جي» الصغير، والسِمفونية الخامسة لبتهوفن. وفي برنامجه الآخر، الذي لم أُوْخذ إليه، عَزَف سمفونية تشايكوفسكي السادسة والسابعة لبروكنر. وقد خلص والداي بداهةً إلى أنّ البرنامج الأول هو وحده المناسب لي، ولعلّ بروكنر المجهول هو سبب نفورهم من ذاك البرنامج. أطلّ فورتڤانغلر ببُنيته النحيلة، الطويلة، الخرقاء والحادة الملامح، يتوِّجها رأسٌ أقرع مهيب. فأدى ذلك إلى خلق الانطباع المناسِب لديّ: هوذا موسيقيٌ متقشف كأنه قادمٌ من عالم أُخرويّ، رأيتُ في مظهره رمزًا للتجلّيات التي تستدعيها بالضرورة موسيقى بِتهوفن. بيد أني صدمتُ لأنّ فورتڤانغلر، خلافًا لكراوس السَلِس، لم يكن يقود الأوركسترا (بعصًا صغيرة إلى درجة أنها أثارت استغرابي) بقدر ما كان يحرّك الموسيقى تحريكًا بمنكبيه وذراعيه الطويلين غير المتناسِبَين. فلا يستعين بالنوطات الموسيقية ولا يقلّب الصفحات ولا هو ضابط إيقاعات، بحسب الطريقة المدّعية لهانز هيكمان، قائِد الأوركسترا المحلية. بدلاً من ذلك، خُيِّل إليّ أنّ الموسيقى تنمو عنده وتترعرع وفقًا لمنطق عنيد هو غايةٌ في الغبطة والكمال، وإذا هي تتدفق أمامي، على نحو لم يكن لي أن أختبره من قبل، خلْوًا من أيّ من «الأغلاط» التي تشلّني حَرَجاً في حضرة شيري، فلا حاجة للتوقف ريثما يجري تبديل الأسطوانة وما من صوت يُسمَع غير صوت موسيقى بتهوفن. وشعرتُ أيضًا أنّ هذه التجربة أفضل، ومن ثمّ أندر، من أية تجربة قد تمنحني إياها أسطوانةٌ ما، مع أنه غمرني، طبعاً، أسفٌ لذيذ بعد انتهائها وقد بتّ عاجزًا عن استعادتها إلا من خلال المقاربات المتوافرة لديّ بواسطة الآلات الموسيقية أو الذاكرة المعطوبة. عندما أصغيتُ إلى تسجيل فورتڤانغلر للسِمفونية الخامسة، أمتعني لكنه لم يمنحني حالة الرضى التي حلّت عليّ في المسرح. إنّها الموسيقى الحقيقية تزيح النسخة المسجّلة وتأخذ مكانها، مرةً وإلى الأبد. ومع ذلك، ظللتُ أستسيغ تسجيل فورتڤانغلر بما هو مقطوعة أثيرة أُصغي إليها وأستزيد.

اصطدمتْ محاولاتي اللاحقة للعثور على المزيد من المعلومات عن فورتڤانغلر بالمعوّقات الموجودة في القاهرة زمنَ مراهقتي. فلم تكن توجد حلقة ثقافية ألمانية في قاهرةِ ما بعد الحرب تضارع المؤسسات الثقافية التي أشادها المنتصرون من إنكليز وفرنسيين وأميركيين. فأخذتُ أنقّب في الصحف اليومية – **الأهرام** والـ **إيدجبشان**

غازيت والـ **پروغريه إيجِبسيان** - والمجلات - **روزا اليوسف والهلال** - بحثًا عن معلومات عنه، فلم أعثر على شيء. وكانت المدينة قد بدأتْ تستقبل طوفان مجلات هواة السينما الأميركية مثل **فوتوپلاي وسيلڤر سكرين**. ومع أنك كنتَ تجد كل شيء يخصّ جانيت لِي وطوني كورتِس، فلم تكن لتعثر على شيء يخصّ الشخصيات الغريبة التي تهمّني (وتثير استغراب اصدقائي). ورغم أنّ الحرب وضعتْ أوزارها، لم يتوافر أيّ توثيق عن مجريات الأمور داخل ألمانيا (حيث برز فورتڤانغلر على نحو مرموق). وفي عيد ميلادي الخامس عشر، عام ١٩٥٠، أهداني والداي كتاب پيرسي شول **دليل اكسفورد للموسيقى** الذي ما أزال أحتفظ به، فعثرتُ فيه على نبذة مختصرة جدًا عن فورتڤانغلر («قائد أوركسترا ألمانيّ ولد عام ١٨٦٦؛ راجِع: "ألمانيا والنمسا"»). على أنها تتوسع قليلاً في الحديث عن الرجل من خلال بحث عام وجدّ موارِب عن الموسيقى في ظل الرايخ الثالث والدَّوْر الذي لعبه فورتڤانغلر في قضية «ماثيس دِر مالر»[1]. ولكنّ تلك النبذة لم تفسّر لماذا أضحى فورتڤانغلر شخصية مثيرة للجدل إلى ذلك الحدّ بعد الحرب، ولا لماذا أثّرتْ فيه المسألةُ الأخلاقية ومسألةُ التعاون [مع النازيين] ذلك التأثيرَ القويَّ.

ومن الأسباب التي عوّقتْ نسبيًا تعرّفي إلى فورتڤانغلر إحساسي بالوقت أمرًا بدائيًا ومعوِّقًا في الأساس. إذ يخيَّل إليّ أنّ الوقت يعاندني على الدوام. وباستثناء فترة وجيزة في الصباح أتطلّع فيها إلى النهار الضاجّ بالاحتمالات، أجدُني محشورًا حشرًا بجداول الأعمال والمهمّات الروتينية والتكليفات، وما من لحظة للتمتع بوقت فراغ أو لمجرد التأمل. أُعطيتُ ساعتي اليدوية الأولى وأنا في الحادية عشرة أو الثانية عشرة. وكانت ساعةً تافهةَ المظهر من صنع «تيسّو». ولأيام عديدة كنتُ أقضي الساعات الطوال أحدّق إليها في استغراقٍ يحيّرني فيه عجزي عن مشاهدة حركة آلاتها، وتُقلقني على الدوام خشيتي من أنْ تتوقف الساعة عن الحركة. ظننتُها مستعملةً، أولَ الأمر، لأنّ ثمة ما بدا باليًا فيها على نحو مثير للريبة. ولكنّ والديّ طمأناني أنها جديدة كلَّ الجدّة وأنّ مظهرها المُصفرّ (والمَشُوب باللون البرتقاليّ) هو من خصائص طراز تلك الساعات. ومهما يكن، فقد ظللتُ مهووسًا بساعتي. قارنتُها أولَ الأمر بما يستخدمه زملائي في

---

١ ـ «ماثيس الدّهّان»: أوبرا لپول هايديميث منعتها الرقابة النازيّة. (م)

المدرسة الأميركية، فبدت لي ساعاتُهم أدنى نوعيةً من ساعتي، خلا النماذج المرسومة عليها صورُ «ميكي مَاوس» و«پوپاي» والتي ترمز إلى أميركا التي لا أشعر بالانتماء إليها. ثم أخذتُ، منذ فترة مبكرة، أجرِّب الطرق المختلفة لحَملها: ميناؤها نحو داخل اليد، فوق كُمّ القميص، تحت كُمّ القميص، مشدودةً، رخوةً، عند أعلى المعصم، وأخيرًا، محمولةً على اليد اليمنى. واستقرّ بي الأمر أن حملتُها في معصمي الأيسر، فمنحتني لفترة طويلة الشعور الإيجابيّ بأني متأنق.

على أنّ ساعتي لم تنفك تثير دهشتي بحركاتها المندفعة إلى أمام من غير مقاومة. وهذا ما زاد، بأشكال مختلفة، من شعوري بأنني متأخر عن مواعيدي ومقصِّر عن واجباتي والتزاماتي. لستُ أذكر أني كنتُ نوّاماً بأيّ حال، ولكنني لن أنسى دقة مواعيد الاستيقاظ في الصباح الباكر وذلك الشعورَ المباشر بالإلحاح القلِق ينتابني لحظةَ مغادرة السرير. فلا وقت لتضييع الوقت أو التكاسل، مع أني كنتُ ميّالاً إلى هذا وذاك. ونَمَتْ عندي عادةٌ سوف تلازمني مدى الحياة هي اختباري الوقتَ بما هو مهدورٌ، ومقاومتُه من طريق تمديد الوقت المتوافر لديّ بإتيان المزيد والمزيد من الأعمال (كاختلاس قراءات سريعة أو التحديق عبر النافذة أو البحث عن غرض تافه مثل سكّينِ جَيْب أو قميصٍ ارتديتُه بالأمس) خلال اللحظات القليلة المتبقية لي قبل أن يحين موعدٌ نهائيٌّ لا يرحم. أحيانًا، كانت ساعتي اليدوية عنصرًا مساعدًا، عندما تعلن أنّ ثمة ما تبقى من وقت، على أنها كانت غالبَ الأحيان تَحْرس حياتي مثل ناطورٍ منحازٍ إلى نظامٍ برّاني فَرَضَه الأهلُ والمعلمون والمواعيدُ غيرُ القابلة للتأجيل.

في مراهقتي المُبكِرة، وقعتُ كليًا في قبضة الوقت الذي ينقضي بما هو سلسلة من المواعيد النهائية، يلتبس فيه المُبْهجُ والمزعجُ معًا، وهي تجربة لازمتني منذ ذلك الحين. وقد وُضِعتْ علاماتُ الاستدلال لنهاري في مطلع تلك الفترة ولم تتبدّل تبديلاً. فموعدُ اليقظة هو السادسة والنصف (أو السادسة، في حالات الحشر العظيم، وما أزال أستخدم عبارة «أستيقظ في السادسة وأتمّم هذا العمل»). وفي السابعة والنصف تكون الآلة قد بدأتْ تدور، فأَدْخل في نظامٍ مرصوصٍ من الساعات وأنصافِ الساعات تتحكم فيها حصصُ الدراسة وقداديسُ الكنيسة والدروسُ الخصوصية والفروضُ المدرسية المنزلية والتمارينُ على البيانو والألعاب الرياضية إلى أن يحين موعد الإخلاد للنوم. لم يغادرني قط ذلك الإحساسُ بالنهار مقسّمًا إلى فترات من

الجهد المبرمج، بل أخذ يتفاقم مع الوقت. ولا تزال الحادية عشرة تبثّ فيّ الإدراكَ المُذنِبَ أنّ الصباح قد انقضى ولمّا أُنجِز ما يكفي من المهمات – وأنا الآن أكتبُ هذه الكلمات في الحادية عشرة وعشرين دقيقة. ولا تزال التاسعةُ مساءً تمثّل «التأخر»، أي اللحظاتِ التي تعلن نهاية النهار، والحاجةَ الملحّة للبدء بالتفكير في الإيواء إلى السرير، والوقتَ الذي يعني العملُ بعده أنك تعمل في الوقت غير المناسب.. وتعني أيضًا أنّ الإرهاقَ والإحساسَ بالإخفاق يزحفان عليك... بل تعني أنّ الوقت قد تجاوز وقته ببطء.. وهي تعني، في نهاية المطاف، التأخُّرَ، بكل ما للكلمة من معنى.

شكلّتْ ساعتي اليدوية الموضوع الرئيسيّ الكامن وراء ذلك كله، فارضةً نوعًا من الانضباط الموضوعيّ الذي يحافظ على تشغيل نظام حياتي بطريقة أو بأخرى. لا وقت للراحة. وأذكر بوضوح مذهل أوامر أبي المبكرة التي نَهَتنا عن ارتداء المنامة و«الروب دو شامبر» بعد انقضاء ساعات الصباح الباكرة، غير أنّ المَشّاية كانت تستحوذ على ازدرائه أكثر من أيّ شيء آخر. وما أزال عاجزًا عن أن أقضي أيّ وقت متكاسلاً في «الروب دو شامبر»: ذلك أنّ مزيجًا من الشعور بالذنب لتضييع الوقت، ومن النظر إلى الكسل عيبًا من العيوب، يَسْحقني سحقًا. وللتحايل على هذا الانضباط الصارم، كان المرض (وأحيانًا التمارُض، وأحيانًا أخرى، تضخيمُ المرض) يسوِّغ تخلّفي عن المدرسة. فصرتُ مَضْحكةَ العائلة لشدّة توسُّلي الضمادات وامتناني لمن يتكرّم عليّ بضمادة غير ضرورية لأصبعي أو ركبتي أو ذراعي.

والآن، تشاء مفارقةٌ شيطانية أن أُصاب بسرطان الدم العنيد الغادر، فأحاول طرده من ذهني كليًا على طريقة النَعَامة، ساعيًا، بنسبة معقولة من النجاح، إلى أن أعيش حياتي وفق نظامي الميقاتيّ، فإذا أنا أَكدّ، ويطاردني التأخُّرُ، وترزح عليّ وطأةُ المواعيد النهائية، ويسيطر ذلك الإحساسُ بالإنجاز غير الكافي الذي تعلمتُّه منذ خمسين سنة واستبطنتُه منذ ذاك الوقت على نحو لافت. ولكنْ في انقلابٍ غريبٍ للأمور، أجدني أتساءل في سرّي ما إذا كان نظامُ الواجبات والمواعيد النهائية سوف ينقذني الآن، مع أني أدرك، طبعًا، أنّ مرضي يَزْحف زحفًا على نحو غير منظور، وبسرّية أكبرَ وغدرٍ أعظمَ من سريان الوقت الذي كانت تعلنه ساعتي اليدويةُ الأولى... وقد حملتُها وأنا غافل آنذاك عن حقيقةِ أنها ترقِّم فَنائيّتي ترقيمًا، وتقسِّمها إلى فواصل تامّة وغيرِ متبدّلةٍ من المواقيت غيرِ المتحقّقة إلى أبد الآبدين.

الفصل السادس

أذكر الحِدّة المستغربة التي نعى بها ابنا عمّي المَقْدِسيان الأكبران، يوسف وجورج، يومَ الأول من تشرين الثاني ١٩٤٧، وهو عيد ميلادي الثاني عشر، عشية ذكرى وعد بلفور. فقد وصفاه بـ«اليوم الاشد إظلامًا في تاريخنا». لم أفقه الإشارة، لكني أدركتُ أنّ الأمر لا بد أن يكون على جانب عظيم من الأهمية. ولعلهما افترضا، ومعهما والداي، وجميعهم جلوسٌ حول مائدةٍ تتوسطها كعكةُ عيد ميلادي، أنه لا يجدر إعلامي بأمر بمثل تعقيد صراعنا مع الصهاينة والبريطانيين.

أمضيتُ ووالديَّ وشقيقاتي معظم العام ١٩٤٧ في فلسطين التي غادرناها لآخر مرة في كانون الاول/ديسمبر من ذلك العام. وهكذا فاتتني عدة شهور من المدرسة الأميركية فسُجّلتُ في مدرسة سان جورج في القدس.

كانت كل معالم الأزمة الزاحفة تُحْدق بنا. المدينة منقسمة إلى مناطق متعددة يسيطر عليها الجيش البريطانيّ وحواجزُ الشرطة التي كان لزامًا على السيارات والمشاة وراكبي الدراجات المرورُ عبرها. وكان البالغون من أُسْرتي يحملون جميعًا أذونات مرور سُجّل عليها اسمُ المنطقة أو المناطق التي يُسمح لهم بالتجوّل فيها. حمل أبي ويوسف إذنَ مرور متعدد المناطق (المناطق ألف وباء وجيم وتاء) فيما اقتصرتْ أذوناتُ الباقين على منطقة واحدة أو ربما منطقتين اثنتين فقط. لم أكن في حاجة إلى إذن مرور إلى حين بلوغي الثانية عشرة، وهو ما سمح لي بأن أتجول بحريةٍ مع ابنيْ عمي ألبرت وروبرت. وكانت القدس الرمادية الساكنة مدينة متوترة بسبب سياسات

ذلك الزمان والمنافسات الدينية بين مختلف المذاهب المسيحية كما بين المسيحيين واليهود والمسلمين. وذاتَ مرة، تلقيتُ تأنيبًا عنيفًا من عمتي نبيهة لأني ارتَدْتُ الـ«ريجنت»، دارَ السينما اليهودية (لماذا لا تبقى مع العرب؟ ألم تعد الـ«ريكس» تليق بك؟ سألتْ بصوت مرتفع، ثم أردفتْ: «في كل الأحوال، هُم لا يرتادون صالاتنا السينمائية!»). ومع أنّ إغراء ارتياد الـ«ريجنت» كان كبيرًا جدًا، فقد امتنعنا عنه بعد ذلك الحين. وكان حديثنا اليوميّ في المدرسة والبيت هو بالعربية وحدها، خلافًا لما كانت الحال في القاهرة، حيث كانوا يشجّعونا على التكلم بالإنكليزية. وذلك لأنّ عائلتي «تنتمي» إلى القدس، ولغتنا الأم سائدة أينما كان، حتى عندما نتحدث عن أفلام هوليوود: فإذا «تارزَن» يصير «طَرَزَان»، ولوريل وهاردي «البَنْصَ والرفيع».

كنتُ أَمضي كلَّ صباح إلى مدرسة القديس جورج، معظمَ الأحيان برفقة ابنَيْ عمّي التوأميْن، روبرت وألبرت. وكانت القيادة معقودة اللواء لألبرت. فهو رئيس الفريق الرياضيّ والنجم اللامع في المدرسة، يسبق توأمَه روبرت بصف واحد (وهذا الأخير لم يكن رياضيًا)، ثم إنه اجتماعيّ جدًا وواحدٌ من «شلّة الشباب». أما أنا فكنتُ الأصغر سنّاً، مسجّلاً في السابع الابتدائيّ، في مدرسة الصغار التي تقع عبر الشارع من مدرسة الكبار المتربِّعة على موقع أكثر ارتفاعًا حيث يَدْرس ابنا عمي. ومدرسة القديس جورج هي أول مدرسة ذكور أنتسب إليها وأول مدرسة عَقَدتُ فيها علاقات أوثق من علاقات المدارس القاهرية، حيث كنتُ مجرد غريب يدفع الأقساط المدرسية. وكان أبي قد ارتاد تلك المدرسة، وأظنّ أنّ جدي دَرَسَ فيها هو أيضًا، ومثلهما فعل معظمُ الأفراد الذكور من عائلتي باستثناء العم أسعد («آل») الذي دَرَسَ عند المطران غُبَاط. خلال اليومين الأوليْن، شعرتُ أنّ غياب البنات والمعلِّمات مَحَضَ المدرسة طابعًا أكثر قساوةً وخشونةً وجسدانيةً وجعلها أقلّ أُنساً من مدارس القاهرة. على أني سرعان ما تكيفتُ مع الجوّ الجديد، إذ وجدتُ نفسي للمرة الأولى والأخيرة في حياتي الدراسية بين صبيان يشبهونني؛ فكل فرد من أفراد صفي تقريبًا تعرفه أسرتي. ولأسابيع تَلَتْ بدء الدراسة، ظل والداي وعماتي وابنُ عمي يوسف يسألونني أسئلة عن «أولاد الصفّوري في صفّك» أو يعلّقون تعليقات عرضية ولكنها عليمة عن زميلٍ من آل دجاني أو آل جمال كان والداه أو أعمامه أو عماته في عداد أصدقائهم.

كان معظم المعلّمين من البريطانيين، خلا اثنين هما ميشيل مرمورة، المجايلُ لألبرت وابنُ القسّيس الأنغليكانيّ، والسيد بويدجيان، الأرمنيُّ المقدسيُّ، الذي كان يافعاً عندما كان أبي في المدرسة. وكانت المرأة الوحيدة في المكان هي مِسّ فِنتون، التي تُعلّمنا اللغة الإنكليزية بين حين وآخر بديلاً من المعلّمة الأصلية. وقد وَجَدْتُها جذّابة بشكل صاعق، بشعرها الأسود وقامتها النحيلة، تنتعل الصندل وترتدي قميصًا أبيض وتنّورة زرقاء بَحْرية. وكان تعاملي معها محدودًا جدًا، لندرة الفرص المتاحة بعيداً عن عالم الصبيان والأساتذة الخَشِن حيث أعيش. فظلّتْ طيفاً رومانسياً وكائناً يمنحني حضورُه الأنيقُ لذةً شخصية، إذ أُشاهدها تطوف عبر أروقة المدرسة الابتدائية أو ألمحها من خلل نافذة غرفة الشاي الخاصة بالأساتذة. وبعد مضيّ سنوات عديدة، اكتشفتُ أنها عمة الشاعر جيمس فِنتون. وعلى النقيض تمامًا منها، كان المستر صُغ، الإنكليزيّ ذو العرجة الفادحة، وكان مجردُ لفظ اسمه يثير عواصفَ من الضحك الساخر لمظهره والتأتأة التي يعانيها. وهو من أوائل الهامشيين الإنكليز الذين قابلتُهم، وقد بدا منقطعاً عن وقائع المدرسة المعقّدة (بل الشديدة التعقيد) حيث يعلّم، وعن التلامذة الذين يحاول تربيتهم دون كبير فَلاح. لم أكن أنا وزملائي نصغي إلى دروسه المملّة في الجغرافية أو ننجذب إليها. وكان، في ياقته المنشّاة وبذلته البنّية الفاهية التي لا تتبدّل، أشبه بكائن من عالم آخر يعجّ بأنهر الدانوب والثيمز وجبال الآپيناين وأصقاع القطب المتجمّد، لا يثير انتباه أحدٍ من الصبيان اللامبالين والمستغرقين أشدَّ الاستغراق في شؤونهم الذاتية.

ينقسم الصف بالتساوي إلى مسيحيين ومسلمين، وتلامذة الداخليّ وتلامذة الخارجيّ. ينتمي معلّم الحساب، ميشال مرمورة، إلى عالمٍ لن يلبث أن يواجه الاضمحلالَ والمنفى في كوارث العام ١٩٤٨. وهو معلّم دمث وحاد الذكاء، وعلى الرغم من توتره العصبيّ لأنه صديقٌ لمعظم أهل تلامذته (وابنُ أرشمندريت الكاتدرائية الذي عمّدني) فقد نجح في تعليمنا أوليات الكُسور بمهارة كبيرة. وقد التقيتُه عبر السنوات في ماديسون وويسكونسين وپرينستون وفي ما بعد في تورونتو حيث لا يزال يعيش، ولم يبارحه حنينُه إلى ماضيه المبدَّد. أما باقي تقديمات المدرسة في سان جورج فلم تترك أيَّ أثر فيّ. كانت تجمع التعليم اللامبالي وإلى

المناخ الانتقاليّ، وفي نظرة استرجاعية بعد مضيّ خمسين عامًا، أرى أنها توحي عمومًا برُوتين عبثيّ يسعى للحفاظ على نفسه في الوقت الذي تعاني فيه هوّيةُ البلد تبدلاً لا عودة عنه. ولما كنتُ أطوَل قامةً وأسرع نمواً قياسًا إلى عمري، بعد أن بلغتُ الثانية عشرة وصرتُ بحاجة إلى إذن مرور للذهاب إلى المدرسة، فقد كان الجنود البريطانيون، عند حواجز الأسلاك الشائكة، يفتّشون حقيبتي ويدققون في إذن المرور بريبة فيما أَعْيُنُهم الأجنبية المعادية تتفحصني طولاً وعرضًا بصفتي مصدرَ شغب محتمَلاً.

ومع أنّ إذن المرور حَصَرَ حركتي في المنطقة التي تقع فيها مدرستي، فإنّ أسرة عمتي كانت تملك سيارة ستوديبيكر خضراء فاهية يُسمَح لألبرت وروبرت بسَوقها. فكنا نحن الثلاثةَ نتجول في الطالبية، داخلين خارجين بتكاسل من بيوت أصدقائهما. وعندما أكون بمفردي، أقود دراجتي حول الساحة الصغيرة إلى الغرب من بيتنا. وعلى مبعدة صفين من الأبنية خلف البيت، كان فيلق الآلات الهوائية في الجيش البريطانيّ يُجري تدريباته تحت شمس الظهيرة القاسية، وأذكر أني، في أيام العطل الأسبوعية، كنت أقعي خلف الصخور لمشاهدتهم، مشدوهاً من صيحاتهم الأعجمية وأحذيتهم السوداء المسمّرة تَخْبط الأسمنت الأسود الذي يكاد أن يذوب من شدّة الحرّ ومن نفير أبواقهم الهجين الوحشيّ.

تولّع ابنُ عمي ألبرت بالشِعر الإنكليزيّ، فهو يلقيه ويُكْثر من تقليب بؤبؤ العين في حركة دائرية، في تقليد ساخر لمعلّم اللغة الإنكليزية ولممثلٍ مسرحيّ في ذروة انطلاقه في آن معًا: «نصف فرسخ، نصف فرسخ، نصف فرسخ قُدُماً إلى الأمام / في وادي الموت، يكرّ السِتمئة خيّال، جميعًا»، وكان يلقي الأبيات ويدُه اليمنى ترتفع رويدًا رويدًا مع ارتفاع نبرة صوته. «لا شأن لهم في أن يعطوا الجواب. لا شأن لهم في أن يسألوا لماذا،/ دأبهم فقط أن ينفّذوا وأن يموتوا. إلى وادي الموت/ يكرّ الخيّالة السِتمئة». وفهمتُ من ذلك أنه يُفترض بنا نحن كذلك أن نكون جنودًا مقدامين نهجم دومًا إلى أمام، تحدونا فكرةٌ واحدة فقط هي تأدية الواجب. ويعلو صوتُ ألبرت إذ يعلن: «العالم كلّه مشدوهٌ بهم، العالم كله. مَجِّدوا هجومهم/ مَجِّدوا هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة، الخيالة البواسل الستمئة». لم أكن أعرف شيئًا عن

«فرقة الخيّالة الخفيفة»[1]. وقد مرّ وقت طويل قبل أن أحفظ القصيدة تدريجيًا عن ظهر قلب. وحين كنتُ ألقيها برفقة ابن عمي، خطر لي أنّ كلماتها قادرة على محو كل تفكّر أو شعور. فعبارة «لا شأن لهم أن يسألوا لماذا» نبوءة مريعة في دقّتها عن موقف لم أخبره مباشرةً وإنما تعرّفتُ إليه واستحوذ عليّ بعد عشرين سنة حين كنتُ أشاهد الجموع المصرية العريضة تحيي جمال عبد الناصر وتصفّق له في حرّ القاهرة.

أُجْلِيَتْ أسرة عمتي نبيهة عن القدس على مراحل بحيث لم يبقَ منها، مطلعَ ربيع العام ١٩٤٨، غيرُ ابن عمتي الأكبر يوسف وقد هَجَرَ بيت الطالبية عند سقوط الحيّ بأكمله بيد الهاغاناه [الصهيونية]. فانتقل للسكن في شقة صغيرة في البَقْعة الفوقى، وهو حيّ مجاور من أحياء القدس الغربية. ثم ما لبث أن غادر موطئ القدم الأخير هذا في آذار/مارس دونما عودة هو أيضًا. ومنذ أيامي الأولى في القدس إلى آخرها فيها، أذكر بوضوح أنّ الطالبية والقَطَمُون والبقعة الفوقى والتحتا كانت مأهولةً بالفلسطينيين دون سواهم، وينتمي معظمُهم إلى عائلات نعرفها ولا يزال لأسمائها وقعُ أليف في أذني – سلامة، دجّاني، عوّاد، خُضر، بدّور، داقيد، جَمال، برامكي، شمّاس، طنّوس، قُبَيْن – وقد أمسوا جميعهم لاجئين. لم أشاهد أياً من المهاجرين اليهود الساكنين حديثًا في القدس إلا في أحياء أخرى من القدس الغربية. فعندما أسمعُ الآن إشارات إلى القدس الغربية، فإنّها تعني دومًا بالنسبة إليّ الأحياءَ العربيةَ لمرابع طفولتي. ولا يزال يصعب عليّ أن أتقبّل حقيقةَ أنّ أحياء المدينة تلك، حيث ولِدتُ وعشتُ وشعرتُ بأني بين أهلي، قد احتلها مهاجرون بولونيون وألمان وأميركيون غزوا المدينة وحوّلوها رمزًا أوحَدَ لسيادتهم، حيث لا مكان للحياة الفلسطينية التي انحسرتْ إلى المدينة الشرقية التي أكاد لا أعرفها. فلقد أَضْحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل، وطُرِدَ منها سكانها السابقون نهائيًا في أواسط العام ١٩٤٨.

---

١ ـ استوحى الشاعر الانكليزي لورد تنيسون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٢) قصيدته الشهيرة «هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة» من الهجوم شبه الانتحاريّ الذي شنّته الفرقة المذكورة من الجيش البريطانيّ على موقع روسيّ خلال حرب القرم. وسقط منها ٢٥٠ قتيلاً من أصل عديدها البالغ ٦٠٠ خَيّال. والقصيدة تمجّد طاعة الجنود العمياء للأوامر العسكريّة.

القدس التي عرفتُها أنا وعائلتي في تلك الأيام كانت أصغر وأبسط وأكثر تنظيمًا بكثير من القاهرة. وكان البريطانيون، أصحابُ الانتداب عليها، قد قرروا الجلاء عنها فجأةً عام ١٩٤٨، قبل حوالى ستة أشهر من مغادرة عائلتي المدينةَ لآخر مرة. وكان الجنود البريطانيون يحتلون المدى المدينيَّ كله، فيما اختفى معظمُهم من أحياء القاهرة. وكان الانطباع العام عن القدس أنها مدينة يَغْلب عليها الطابع الإنكليزيّ إلى حد كبير، نظيفةُ المساكن، منظّمةُ السَير، يُكْثر أهلُها من شرب الشاي، وسكانُها عربٌ من ذوي الثقافة الإنكليزية، كما هو حال عائلتي وعائلات أصدقائنا. والحقيقة أني لم أفقه أيّ معنى فعليّ للانتداب ولا للحكومة الفلسطينية اللذيْن يظهر اسمُهما على العُملة والطوابع البريدية. كانت القدس أكثر هدوءاً من القاهرة، ولكنها تفتقر إلى العظمة والثراء اللذين يُحْدقان بنا في القاهرة؛ من بيوت فخمة ومتاجر ثمينة وسيارات كبيرة وجموع كثيفة ضاجّة. ثم إنّ سكان القدس بدوا أكثر تجانسًا من سكان القاهرة، فهم بالدرجة الأولى من الفلسطينيين، مع أني أذْكر لمحات وجيزة لليهود المتديّنين وزيارةً واحدة قمتُ بها إلى «ميا شاريم»، أو إلى مقربة منها، حيث شعرتُ بمزيج من الفضول والجفاء، دون أن أستوعب أو أفقهَ معنى الحضور المغاير والمجفّل لليهود المتديّنين ببذلاتهم وقبعاتهم ومعاطفهم المغمّسة كلها بالأسود.

تحتفظ ذاكرتي بذكرى واضحة عن أحد زملائي في الصف. وأحسبُ أنّ دافيد عزرا، الذي كان أبوه سمكريًا، قد كان اليهوديّ الوحيد في الصف الابتدائيّ السابع (وكان اليهود كثرة في المدرسة) ولا يزال التفكير به يستحوذ عليّ ويحيّرني، نظراً إلى التغيّرات اللاحقة التي طرأتْ على حياتي وحياة فلسطين. كان قويّ البنية، أسود الشعر ويحدثني بالإنكليزية. وبدا لي أكثر تفرّدًا وكبرياء وأقلَّ شفافيةً وأدنى مرتبةً اجتماعيةً من أيّ تلميذ آخر في الصف. وهذا كله هو ما جذبني إليه. ومع أنه لم يكن يشبه اليهود المشرقيين الذين عرفتهم في «إعدادية الجزيرة» أو في النادي القاهريّ، فإنّني لم أفقه تمامًا معنى يهوديته بالنسبة إلينا، رغم أني أَذْكر بوضوح أنّ وجوده بيننا لم يُثِر فيَّ أيّ شعور غريب. كان رياضيًا ممتازًا بَهَرَني بكتفيه وقدميه القويّة، وبلعبه العدوانيّ. ولم يرافقنا عزرا مرةً حين كنا نغادر المدرسة في مجموعات صغيرة بعد انتهاء الدروس في الأصائل، لنجتاز حواجز التفتيش، مستأمنين بكثرة عددنا. وفي آخر مرة شاهدتُه فيها، كان عزرا يقف في ناصية

الشارع يتطلّع نحوي فيما ثلاثة أو أربعة منا نسير متمهلين نحو الطالبية. وعندما قرّر أهلي فجأةً العودة إلى القاهرة، قبل عيد الميلاد، تحوّل انقطاعُ صلتي بعزرا إلى رمز للفجوة غير القابلة للتجسير بين العرب الفلسطينيين واليهود، وهي فجوةٌ قُمِعَ الحديثُ عنها لغياب المفردات أو المفاهيم التي تسمح بمناقشتها، كما تحوّل إلى رمز للصمت الرهيب الذي سوف يُطبِق على تاريخنا المشترك منذ ذلك الحين فصاعدًا.

وفي الوقت الذي كان الخريف ينحسر فيه عن القدس، ارتدّ كلٌ منا أكثر فأكثر إلى عائلته وإلى حلقة ضيّقة من أبناء العمومة والأعمام والعمات. قمنا بزيارة واحدة إلى خالي منير موسى في بيته الجديد في يافا، بعد أن انتقل إليها من صفد، وكان يقع في شارع رمليّ كئيب لا يملك أياً من سِحر غموضِ مسكنه المتكهّف في صفد أو غموضه وقد وجدتُه مسليًا للغاية. ولما كان هو وعائلته حديثي الوفود إلى المدينة، فإنّه لم يكن لهم أصدقاء في الجوار. في القدس كنا نلتقي كثيرًا العم شفيق، ابنَ عم أبي من الدرجة الثانية، والعمّةَ لُور، الألمانيةَ الحلوة من أهالي شتوغارت، وتتكلم العربية بطلاقة مقلقة ولكنْ بلَكنة ألمانية شديدة، وكان يرافقهما ابناهما، نبيل وإريكا راندا، وهما في مثل عمري وعمر روزي تقريبًا. وكان شفيق مديرًا لفرع الصبيان في «جمعية الشبان المسيحية» («الواي») YMCA، ولور تعمل مساعدةً له، وهو شديد الحماس لعمله في الـ«واي» الواقعة على مبعدة بضعة صفوف من الأبنية عن بيتنا، وتساعده أيضاً في تنفيذ برامج الألعاب الرياضية والحِرَف وتعليمِ اللُغات والتدبير المنزليّ.

مثّلتْ «جمعيةُ الشبان المسيحية» المؤسسةَ الاجتماعيةَ الكبرى خلال سنواتي الأخيرة في القدس، وعلى نحوٍ يفوق الكنيسة التي صرتُ أنفر منها لقداديسها القاتمة العصيّة على الفهم. وكان للجمعية حوضُ سباحة داخليّ وملاعبُ تنس ومجموعةُ أجراس رائعة في أعلى البُرج، وأنا احسبُ ــ بطريقة لاواعية ــ أنها جميعها ملكٌ «لنا». فلكل فرد من أفراد العائلة صلةٌ ما بـ«الواي»، مساهمًا في برامجها أو مستخدِمًا تسهيلاتها (وما أزال أستطيع أن أشاهد ابنَ عمي جورج يلعب التنس هناك بعد ظهر يومٍ مشمس) أو عضوًا في مجلس إدارتها. على أنّ «الواي» أضحت جزءًا من القدس الإسرائيلية وحُرِمَ عمي شفيق وعائلته نهائيًا من العودة إليها، وقد سافروا إلى الولايات المتحدة مطلعَ العام ١٩٤٨ بناءً على منحة من «جمعية الشبان المسيحية».

رمت بهم الأقدار أولَ الأمر في شيكاغو، ثم في وِسكُنْسِن الريفية في ظروف بائسة. ولفترة، عمل الرئيسُ الأنيقُ لفرع الفتيان في «جمعية الشبان المسيحية» مُساعداً في غرفة تعليق الملابس في مركز «الواي» بشيكاغو، ثم أخذ يجول في شمال وِسكُنْسن بصفته منظِّمَ نشاطات أندية «الليَونز». وبشق النفس هَمَدَ غضبُه لِما جرى في فلسطين ولأيامه الأولى في أميركا مع مرّ السنين، مع أنه نجح في أن يستمد بعض الرضى، بل الفرح، من إقامته الأميركية المتأخرة أكثر من أيّ فرد آخر من أفراد عائلتي. ومع ذلك لم ينجح عمي شفيق في أن يصالح بين شطرَيْ حياته.

في تلك السنوات المقدسية الأولى، بَهَرَني شخصٌ متفرّد، لم أكوّن فكرة واضحة عنه إلا بعد وقت طويل. فقد كان نَهَمُ أبي لِلعب «الطاولة» يُشْبعه غالباً كهلٌ كثُّ الشاربيَن يرتدي دائمًا بذلة سوداء ويعتمر الطربوش ويدخن السجائر بلا انقطاع من خلال مَبْسَم عاجيّ ويقحّ بوتيرة مقلقة وسط غمامة من دخان السجائر تشكل هالةً حول رأسه. إنه خليل بيدس، ابنُ خال أبي ومدرِّسُ اللغة العربية للصفوف العليا في مدرسة سان جورج. على أني لم أشاهده قط في المدرسة ولا دريتُ بصلته المهنية بها إلا بعد أربعة عقود من الزمن، عندما أبلغني ابنُ عمي يوسف أنّ خليل بيدس قد درّسه اللغة العربية. أما الواقعة الثانية التي علمتُ بها لاحقًا عن بيدس فهي أنه والد يوسف بيدس، الذي عمل فترةً في «شركة التعليم الفلسطينية» وكان شاهد زواج أبي ثم حلّ في بيروت لاجئًا، بعد أن عمل لفترة قصيرة في «البنك العربيّ». وفي غضون عشر سنوات، أو يكاد، تحوّل يوسف بيدس إلى واحد من أكبر رجال المال في لبنان. فصار صاحب بنك انترا، المالك حصصًا كبيرةً في شركات الطيران وأحواض بناء السفن والعقارات التجارية (بما في ذلك بناية في روكفلر سَنْتِر). ومارس يوسف نفوذًا قويًا في لبنان، إلى أن أشهر إفلاسه وانهار بنكُ انترا عام ١٩٦٦. وتوفي يوسف معدَماً إثر إصابته بمرض السرطان في لوسيرن في سويسرا، وكانت تعتني به العمة نبيهة التي انتقلت للاقامة في سويسرا قبيْل وفاته. وقد رأى البعض إلى الصعود والانهيار المذهليْن ليوسف بيدس نذيرَ النزاعات اللبنانية – الفلسطينية الرهيبة التي سوف تنفجر في السبعينيّات، ولكني أُوْثر اعتبارهما رمزًا للمسار المبتور الذي فرضتْه أحداثُ العام ١٩٤٨ على العديد منا.

اكتشفتُ بعد وقت طويل أنّ خليل بيدس كان أكثر بكثير من مجرد أستاذ للغة العربية. تلقى دروسه الأولى في مدرسة الجالية الروسية («الموسكوبية»، وهي الآن مركز احتجاز واستجواب إسرائيليّ للفلسطينيين خصوصًا) ثم في روسية نفسها برعاية أبرشية الكنيسة الأرثوذكسية فيها. وعندما عاد إلى فلسطين مطلعَ القرن، شارك في «الندوة الادبية» التي كانت تَعْقد جلساتها في «موسكوبية» الناصرة وهي بدورها الآن مركز للشرطة الإسرائيلية في المدينة. ثم انتقل إلى القدس، مُشْبعاً بأفكار القوميين الثقافيين المسيحيين الروس في القرن التاسع عشر، من دوستويِفسكي إلى بِردايِف، فبدأ يكتسب الاعتراف، بل الشهرةَ، كروائيّ وناقد أدبيّ. وخلال العشرينيّات والثلاثينيّات، أسهم خليل بيدس في بناء الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصًا في مجابهتها مع المستوطنين الصهيونيين الوافدين. ومن الأدلة على مدى عزلي المحْكم عن الوضع السياسيّ الفلسطينيّ بل وجهلي به، عندما كنتُ صبيًا، أني لم أفقه شيئًا عن مكانة بيدس الحقيقية في فلسطين. فلم أرَ إليه إلا كهلاً جذّابًا تَصْدر عنه قحّةُ سجائر جارحةُ وله أسلوبٌ مرح جدًا في لعب «الطاولة» مع أبي. وقد اكتشفتُ بعد بضع سنوات أنّ تلك الخصال لم تدم بعد خسارته لوطنه. وخلافاً لأولاده، توفي خليل بيدس قبل أن يكابد مصير اللاجئين.

يغمرني الآن إدراكٌ لهَول التفكك الذي عانته عائلتُنا وأصدقاؤنا، وقد كنتُ بالجهد واعيًا له، أنا الشاهدَ الذي لم يشاهد شيئًا في العام ١٩٤٨. وحين كنت صبيًا في الثانية عشرة والنصف في القاهرة، غالبًا ما كنتُ ألاحظ أَمارات الحزن والحرمان على وجوه وفي حيوات أناس عرفتهُم سابقًا بما هم أبناء الطبقة الوسطى العاديون في فلسطين. على أنه لم يكن لي أن أستوعب كامل أبعاد النكبة التي حلّتْ بهم، ولم أستطع تجميع الشذرات السَردية المختلفة لأكوِّن منها روايةً متكاملةً لما جرى فعلاً في فلسطين. ذات مرة، فيما نحن جالسون حول مائدة الطعام في القاهرة، تحدثت ابنةُ عمي إڤلين، شقيقةُ يوسف التوأم، بشغف عن إيمانها بالقاوقجي، وهو اسم لم يعنِ لي شيئًا عندما سمعتُ به أول مرة: «سوف يأتي القاوقجي ويطردهم جميعًا»، قالت بعزم أكيد. التفتُّ إلى أبي طلبًا للمعلومات، فوصف الرجل بشيء من الارتياب، بل عدم الاحترام، على أنه «جنِرال عربيّ». وغالباً ما كانت عمتي نبيهة تتحدث بكآبة واستفظاع وهي تصف أهوال أحداث دَير

ياسين – «نقلوا الفتيات عاريات إلى معسكر (هم) على ظهور الشاحنات». فافترضتُ أنها تصف العار الذي لَحِق بكشف النساء أمام أعين الذكور، أكثر مما تصف رُعب مجزرة مروّعة ارتُكِبَتْ عن سابق تصوّر وتصميم في حق مدنيين أبرياء. ولم أتخيّل حينها عيونَ مَنْ تقصد، ولا كان في استطاعتي تخيّل ذلك أصلاً.

لاحقًا، في القاهرة، حافظ مقدارٌ من الرسميات على التماسك السابق للعلاقات بين أفراد الأسرة الموسعة. على أني أذكر اكتشافي شروخًا وتباينات وانتكاسات لم تكن موجودةً من قبل. وبدا وكأننا جميعًا قد تخلّينا عن فلسطين بما هي مكان لا عودة اليه، لا يكاد يرد ذكرُه في الأحاديث، ولكننا نفتقده بصمت وبلوعة باعثة على الشفقة. وكنت قد بلغتُ من العمر ما يسمح لي بأن ألاحظ أنّ ابن خال أبي، شبْير الشمّاس، الشيخ ذا السطوة والجاه في القدس، ظهر الآن في القاهرة وقد شاخ وازداد هزالاً، يرتدي بذلة رمادية لا تتبدّل وكنزةً خضراء وتنوء عصاه الملتوية تحت وطأة قامته الضخمة وهو يقعي بألم وتمهّل على كرسيّ يلازمه بصمت. وله ابنتان عزباوان جذّابتان، أليس وتينا، تعمل واحدتُهما سكرتيرةً في منطقة قناة السويس والأخرى في القاهرة. أحببتُ ابنيْه الصاخبين النكدين، اللذيْن يعبّر قلقُهما المستجدُّ عن نفسه في هجمات متبجحة ضد المصريين والبريطانيين واليونانيين واليهود والأرمن. أما الأم فتحولتْ إلى نوّاحة دائمة تصرخ محتجةً على مصاعب دفع الفواتير والعثور على سكن لائق والتفتيش عن عمل. وكنا نزورهم في بناية معتمة متعددة الطبقات في هيليوپوليس، لا مصعد فيها، وقد تقشّر الدهانُ عن جدرانها. وأذكر مدى هلعي من فراغ الشقة ومن مناخ الهجران الذي توحي به.

لم تأتِ أمي مرةً على ذكرِ ما حلّ بهم جميعًا. ولا أنا سألتُ أبي عن الأمر لافتقاري إلى الأبجدية اللازمة لصياغة السؤال، مع أني كنتُ أستشعر أنّ خطباً عظيمًا قد حلّ. مرةً واحدة، شرح أبي الوضع الفلسطينيّ العام، على طريقته التعميمية المميّزة، عندما لاحظ أنّ شبير وعائلته «خسرا كل شيء» ثم أضاف بعد برهة «ونحن أيضًا خسرنا كل شيء». وإذ عبّرتُ له عن ارتباكي من قَصْدِه ما دامت أعماله ومنزله ونمط حياتنا في القاهرة لا تبدو أنها تغيَّرتْ، أجاب ببساطة: «فلسطين». صحيح أنه لم يكن يحبّ ذلك المكان كثيرًا، غير أنّ اعترافه السريع، الأحاديّ المقاطع الصوتية [بخسارة فلسطين]، ومسارعَته إلى دفن الماضي، كانا

الأمرَيْن الأشدّ تعبيرًا عن جبلّته المميزة. وغالبًا ما ردّد: «ما مضى مضى وانقضى، يكفي الرجل الحكيم أن ينشغل بالحاضر وبالآتي» ويضيف فورًا: «اللورد بيكون»، كأنما ليضفي على قوله ختمَ التكريس وليقفل موضوعًا لا يرغب في مناقشته. وكنتُ دائم الدهشة أمام إدارته الظهرَ للماضي على ذلك النحو الجلود والصارم حتى عندما تكون آثاره لا تزال مستمرة في الحاضر. فهو لم يبكِ مرةً ولا عبّر عن المشاعر التي لا بدّ أنها كانت تنتابه في اللحظات الحرجة. وأذكر أني وصلتُ حدّ التوسل إلى أمي لتخبرني ما إذا كان بكى في جنازة أخيه أسعد في يافا. «لا»، قالت أمي بحزم، «بل اكتفى بوضع نظارته السوداء، وعَلَتْ وجهَه حمرةٌ شديدة. لكنه لم يذرف دمعة واحدة». ولمّا كنتُ أعتقد أنّ سخاء دمعتي هو في عِداد مثالبي الكثيرة، فقد اعتبرتُ فعلة أبي مظهرَ قوةٍ يُحسَدُ عليها.

حلّ اثنان من إخوة أمي في القاهرة في النصف الثاني من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧. إمِيل، الأخ الاصغر، عمل في طنطا، البلدة الريفية الكبيرة والمغبرة على دلتا النيل، في مصنع زجاج تملكه إحدى النسيبات البعيدات لجدتي واسمُها ميلڤينا فارس التي كانت تحيّرنا بالرقعة السوداء على عينها وبسلوكها شبه المخبّل. اما أليف، الشقيق الآخر الذي يَكْبر أمي ببضع سنوات، فكائنٌ لطيف على شيء من الاستكانة، متزوج وأب لأربعة أولاد، لا يهوى شيئًا أكثر من تركيب أحجيات خشبية مصوّرة ضخمة وفهرسةِ كتبِ مكتبته الخاصة الصغيرة وإعادة فهرستها. في نابلس، عمل في «البنك العربيّ»، ولكنّه في مصر استحصل على وظيفة في منظمة الأونيسكو في القاهرة ثم في الاسكندرية. غادر إلى بغداد ثم انتقل إلى بيروت، ويعيش الآن في سِيَاتِل [في الولايات المتحدة]. له من العمر خمسة وثمانون عامًا، وهو ضحية للثورتين العراقية والمصرية، ثم تلقّى الضربة القاضية التي هي الحرب الأهلية اللبنانية. في القاهرة، كان ألِيف وزوجته سَلْوى يعبّران عن استهجانٍ عاجز واستكانة ضارعة لم أشهد مثيلاً لهما من قبل.

أما حياة إمِيل المضطربة وتنقلاتُه العديدة ومنازلُه الكثيرة وتذمراتُه المتكررة من قساوة شروط العمل وكثرةِ المصاعب فقد زعزعتْ عزلتنا البرجعاجية ونمطَ الحياة المستقر والمريح الذي كنا نظن أننا ننعم به. كان عازبًا بائسًا يسعى لشق طريقه في مصر بعد سقوط فلسطين. وبعد سنوات عديدة، علمتُ أنه تزوج مُسلمةً مصرية

وأنجب منها ابنتين أخفاهنّ جميعاً عنا خلال نشأتنا. لم نتطرق علنًا إلى موضوع فلسطين إلا نادراً، على أنّ إشارات طائشة من أبي كانت توحي إيحاءً بالانهيار الكارثيّ لمجتمع وبتغييب وطن. مرةً قال عن آل الشمّاس إنهم كانوا يستهلكون عشر خوابٍ من زيت الزيتون سنويًا - «وهذا في بلادنا دليل يَسار»، قال، ذلك أنّ وفرة الزيت تعني وفرة أشجار الزيتون والأراضي. وقد اختفى كل هذا الآن.

ومن العائلات اللاجئة آل الحلبي، ميرا وسامي، جيرانُنا في الزمالك، نقارن بين شقتهم الضيقة وظروف معيشتهم العسيرة جدًا وبين ثرائهم السابق في يافا. وحسبتُ أنّ ميرا ابنة مدللة جدًا لأهل ميسورين ومرموقين، تجيد الفرنسية (وهو أمر غير مألوف في محيطنا، ويدلّ على تعليمٍ نخبويٍّ وعلى الكثير من التجوال في فرنسا) وتتمتع بأنفة طبيعية أثارت إعجابناً جميعًا بصبرها الأيوبيّ، مع أن والديّ كانا يقولان بين الحين والآخر إنها أضحت تعيسة ومُحبَطة وعرضةً للضغوط الدائمة. ومن العائلات أيضًا تلك التي انتهى آباؤها وأمهاتُها إلى العمل عندنا في البيت أو في محلات أبي. ماريكا، اللاجئة البسيطة، التي شجّعتْها عمتي على حضور القداديس باللغة العربية في كاتدرائية جميع القديسين ـ وهي المؤسسة الإنكليزية القحة التي كنا نرتادها بصفتنا منتمين إلى المذهب الأنغليكانيّ ـ أصبحتْ خادمةَ أمي الشخصية.

على أنّ عمتي نبيهة هي التي عَصَمَتنا أكثر من أيٍّ كان عن نسيان مأساة فلسطين. تجيئنا للغداء كل يوم جمعة - فيطغى حضورها الحيويّ على حضور آنطي ميليا، التي تكبرها سنًا وقد هزلتْ إلى حد كبير - وتأخذ في وصف مشقّات أسبوعٍ قضته في زيارة عائلات اللاجئين في شُبرا، وفي حثّ السلطات الحكومية القاسيةِ القلب على توفير أذونات عملٍ وسكنٍ لعائلات اللاجئين التي ترعاها، وفي التنقل بلا كلل بين جمعية خيرية وأخرى طلباً للمساعدات المالية.

وما يستعصي عليّ تفسيره الآن هو كيف اتفق أنّ مسألة فلسطين وخسارتها الفاجعة، التي هيمنتْ على حياتنا أجيالاً، وأثّرتْ عمليًا في جميع معارفنا، محْدثةً تغييرات عميقة في عالمنا، تعرضتْ لقمع نسبيّ من قبل والديّ: فلا هي مدارُ نقاشٍ ولا تستحق منهما تعليقًا. ففي فلسطين ولِدا ونشأا مع أنّ حياتهما في مصر (وغالبًا، في لبنان) وفّرتْ لهما إطارَ عيش جديدًا. أطفالاً، عُزِلنا أنا وشقيقاتي، عن

«الشريرين» كما عن أيّ شيء قد يُوقع الاضطرابَ في «رؤوسنا الصغيرة»، على حدّ تعبير أمي الأثير. على أنّ قمع فلسطين في حياتنا تمّ كجزء من عمليةٍ لاتسييسٍ واسعةِ النطاق من قِبل والديْن لا يثقان بالسياسة، بل يكرهانها، لشعورٍ بأنّ وضعهما في مصر على مقدار من الهشاشة لم يكن يسمح لهما بالمشاركة في السياسة ولا بمجرّد النقاش فيها. فبدت السياسة دومًا شأنًا يخصّ سوانا. وعندما بدأتُ أتعاطى السياسة بعد عشرين سنة، عارضني والداي معارضة شديدة. قالت أمي: «سوف ينخرب بيتك». «أنتَ أستاذ أدب» قال أبي، «اِلزمْ وظيفتَك». وكانت آخر كلماته لي قبل وفاته بساعات قليلة: «أنا متخوّف مما قد يفعله بك الصهاينة. إحذرْ!». على أنّ جوازات السفر الأميركية التي يحملها أبي ونَحْملها نحن الأطفال حَمَتنا، مثل تعويذات، من سياسات فلسطين، فيما نحن نجوز موظفي الهجرة [الأمن] والجمرك بسهولة مسلّية قياسًا إلى الصعوبات التي كان يكابدها الأناسُ الأقلُّ إمتيازًا وحظاً في سنوات الحرب تلك وما بعدها. أما أمي فلم تكن تحمل جواز سفر اميركيًا.

بعد سقوط فلسطين، سعى والدي سعيًا حثيثًا، إلى آخر ايامه، ليستحصل لأمي على وثيقة أميركية من أيّ نوع كان، فأَخفق. ولأنّها أرملتُه، فقد كررتِ المحاولة الى آخر حياتها وأَخفقتْ هي أيضًا. ولما كانت متورّطة بجواز سفرٍ فلسطينيّ، ما لبث أنِ استُبدل بوثيقة سفر، فقد أضحت مصدرَ إحراج لطيف ومسلٍّ عندما تسافر معنا. يروي أبي (وتُردِّد هي مِنْ بعده) كيف كان يَدُسّ وثيقةَ سفرها تحت سُتفة جوازاتنا الأميركية الأنيقة الخضراء اللون على أملٍ خائبٍ أن يُجيز لها الموظفُ الدخولَ على اعتبارِ أنها واحدٌ منا. ولكنّ هذا لم يحدث قط: ففي كل مرة، كان يستدعيها موظفٌ أعلى رتبةً، وينتحي بوالديّ جانبًا متجهّمَ الوجه، حذرَ النبرة، لشروح ومواعظ، بل لإنذارات، فيما أنا وشقيقاتي ننتظر واقفين، ضجرين، لا نفهم ما يجري. وعندما يؤذَن لنا أخيراً بالدخول، لم يكن أحد يتجشّم عناءَ أن يَشْرح لنا أنّ وجود أمي الشاذ بيننا كما تدلّ عليه وثيقةُ سفرٍ محرجةٌ إنما هو ناجم عن تجربة اقتلاعٍ جماعيةٍ صاعقة. فلا نلبث أن ننسى مسألة جنسية أمي في غضون ساعات قلائل من دخولنا لبنانَ أو اليونانَ أو الولايات المتحدة نفسَها، وتستأنف الحياة العادية مجراها.

بعد العام ١٩٤٨، سكنتْ عمتي نبيهة الزمالكَ على مبعدة ثلاثة صفوف من الأبنية من منزلنا، وباشرتْ عملها الخيريّ المستوحد والمضني لصالح اللاجئين الفلسطينيين في مصر. فبدأتْ بالاتصال بالجمعيات الخيرية والبعثات الناطقة بالإنكليزية العائدة للكنائس البروتستانتية، بما فيها «جمعية الرسالة الكنسية» والإرساليات الأنغليكانية والبرِسبيتيرية. وأعطت الأولوية في عملها للأطفال والمشكلات الطبية. غير أنها سعت تاليًا لإيجاد عمل للرجال، وللنساء أحيانًا، في بيوت أصدقائها أو متاجرهم. وأَوضَحُ ذكرياتي عن العمة نبيهة هو وجهها المتعَب وصوتُها الشاكي المثير للشفقة يروي مشقّات لاجئيـ«ـها» (كما نسمّيهم) والأفدح منها مشقّات انتزاع التنازلات من الحكومة المصرية التي ترفض منح الإقامات لأكثر من شهر واحد. فأضحت هذه المضايقات المبرمَجة لفلسطينيين مقتلَعين، وبلا حماية ومدقعين غالبًا، هاجسَ عمتي الأكبر، تروي عنها بلا توقف، وتضمِّنها تقاريرَ تمزِّق القلب عن سوء التغذية وإصابات الأطفال بالزنطاري وسرطان الدم، وعن عائلات من عشرة أفراد متكردسة في غرفة واحدة، ونساءٍ مفصولات عن أزواجهنّ، وأطفالٍ بائسين يتسوّلون (وهو مصدر غيظها فوق ما يتصوّره العقل) ورجالٍ مصابين بتشمُّع الكبد والبلهرسيا وسوى ذلك من أمراض الكبد والرئتيْن. هذا ما روته لنا أسبوعًا بعد أسبوع على مدارِ ما لا يقلّ عن عشر سنوات.

وكان أبي، إلى كونه أخاها، هو صديقها وحافظَ أسرارها الأكثر حميميةً. أما علاقتها بأمي فلائقة دائمًا ولا أقول إنها علاقة محبة («كانت تغار مني في بداية زواجنا»، تقول أمي). ويبدو أنّ المرأتين اللتيْن لعبتا الدور الأكبر في حياة أبي تعاقدتا بعد زواجه على ما يتيح التعاون والضيافة والمشاركة بينهما، لا الحميمية. ونشأتْ بيني وبين عمتي علاقةٌ مميزة – وهي أيضًا عرّابتي – تَظْهر في التعبير عن العاطفة المتبادلة على نحوٍ يكاد أن يكون محرجًا، وفي شعوري بأنّ مشاهدتها والاستماعَ إلى حديثها ومراقبتها تعمل إنما هي تَجربةٌ ينبغي أن أسعى إليها سعيًا وأتعلّق بها تعلّقًا.

بفضل عمتي نبيهة، اختبرتُ فلسطين أولَ الأمر تاريخًا وقضيةً من خلال الغضب والاستنكار اللذيْن أثارهما فيّ عذابُ اللاجئين، هؤلاء «الآخرين» الذين أدخلَتْهم هي إلى حياتي. وهي أيضًا أول مَنْ نقل إليَّ مشقات أنْ يكون المرء بلا

وطن أو مكان يعود إليه، محرومًا من حماية سلطة أو مؤسسات وطنية، عاجزًا عن *أن يعطي ماضيه أيَّ معنى غيرَ الأسف المرير العاجز، وعن أن يعطي أيَّ معنى* لحاضره غيرَ الوقوف في الصف يوميًا والبحثِ القلق عن العمل ومعاناةِ الفقر والجوع والمذلّة. أحسستُ إحساسًا حادًا جدًا بكل هذا من خلال الاستماع إلى أحاديثها ومراقبة تنظيم عملها اليوميّ المحموم. كانت على مقدار من اليُسر بما يسمح لها بأن تمتلك سيارة وتستخدم سائقًا صبورًا إلى حدٍ استثنائيٍّ هو الأُسطى إبراهيم المتهندم في بذلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق داكنة إضافة إلى طربوش أحمر، كان يعتمره المصريون المحترمون من الطبقة الوسطى إلى أن حظرته ثورةُ ١٩٥٢. وكان إبراهيم يبدأ يوم عمله في الثامنة ويعود بها إلى البيت في الثانية بعد الظهر، ثم يقلّها مجددًا إلى عملها في الرابعة حيث يلازمها حتى الثامنة أو التاسعة. ومقاصدها اليومية هي البيوت والمستوصفات والمدارس والمكاتب الحكومية.

أيامَ الجمعة، تُلازم عمتي البيت لاستقبال الناس الذين سمعوا أنها مصدر عون ودعم. وقد أُصِبتُ بصدمة كبيرة عندما زرتها ذاتَ يوم جمعة وبصعوبةٍ استطعتُ الوصول إلى الباب. تقع شقتُها في الطبقة الثانية من بناية في شارع فؤاد الأول عند تقاطع من تقاطعاته الأكثر زحمةً وضجيجًا، في زاويةٍ منه محطةٌ لشركة «شل»، وتحت الشقة محل ڤالسيلاكيس، البقّال اليونانيّ المشهور، الذي يحتل الطبقة الأرضية بكاملها. كان محله مزدحمًا دومًا بالزبائن، الذين تسدّ سياراتُهم المتوقفة السيرَ وتُنتج جلبةً شبهَ متصلة من الصراخ الأجش والتعنيف. ولسببٍ ما، لم تكن عمتي تكترث لهذا الضجيج اللعين، بل تتصرّف في اللحظات النادرة عندما تكون في البيت وكأنها في منتجع. «كأننا في كازينو»، كان تعليقها على الجلبة المسائية. و«الكازينو» لا يعني لها مربع القمار وإنما يعني، لسببٍ لم أجد له أيّ تفسير، مقهى على قمة خيالية يسودها الهدوء والبرودة. وإذ أحاول ولوج بنايتها، ينضاف إلى أصوات الشارع، الباعثةِ على الصمم، صراخُ، بل نحيبُ، العشرات والعشرات من الفلسطينيين المحتشدين على السلالم صعودًا إلى باب شقتها بعد أن يكون البوّابُ السودانيّ المتجهّم الوجه قد قطع التيار عن المصعد احتجاجًا. ويسود ذلك البحرَ المتلاطمَ من البشر ما يشبه النظام. فهي ترفض استقبال أكثر من عارضِ حالٍ

واحد، وهو ما يعني أنّ الحشد لا يكاد يتناقص حجمًا أو تململاً على امتداد يوم طويل جدًا.

وإذ ألجُ غرفة الجلوس أخيرًا، أجدها جالسةً بهدوء على كرسيّ مستقيم دون طاولة أو أوراق ظاهرة، تصغي إلى امرأة في منتصف العمر يروي وجهُها المخطّط بالدمع حكايةً بائسة عن الفقر والمرض، حكايةً تحفّز عمتي على المزيد من الفاعلية والتصميم. «قلتُ لكِ أن تكفّي عن تناول تلك الحبوب»، تقول حانقة، «لا مفعول لها غير إصابتك بالدوخة. اِفعلي ما أقوله لكِ. وأنا من جهتي سوف آتي بخمسة جنيهات إضافية من الكنيسة إذا وعدتِني بالكفّ عن تناول الحبوب والمداومة المنتظمة على عملك غسّالةً». وحين تعترض المرأة، تقاطعها آمرةً: «هذا كل ما في الأمر. عودي إلى البيت ولا تنسي أن تبلغي زوجك أن يذهب لمقابلة الدكتور حداد مجددًا هذا الأسبوع. سوف أتدبر أمرَ وَصْفته. ولكنْ شدِّدي عليه أن يذهب». فتغادر المرأة بإشارة من عمتي، وتدخل أخرى تجرّ وراءها ولديْن.

قبعتُ صامتاً هناك ما يقارب الساعتين، والاستعراضُ الحزين يتوالى فصولاً. وبين حين وآخر، تقصد عمتي المطبخ لتناول كوبٍ من الماء. عدا ذلك، كانت تجلس هادئة تصرّف حالاً حزينة بعد أخرى، فتوزّع المال تارةً والأدوية والنصائح الإدارية تارةً أخرى وتساعد، أطواراً، على إيجاد أمكنة للأطفال في المدارس التي تملَّقَتْها لقبول هؤلاء المشردين البائسين الذاهلين، ولتشغيل النساء خادماتٍ في المنازل ومساعداتٍ في المكاتب، ولتشغيل الرجالِ حمّالين ومراسلين وحراساً ليليين وعمالَ مصانع وممرِّضين في المستشفيات. كنتُ في الثالثة عشرة والنصف حينها، وما أزال أذكر عشرات التفاصيل والوجوه والخطابات المقتضبة الباعثة على الشفقة ونبرةَ عمتي التنفيذية. على أني لا أذكر أبدًا أني أدركتُ بوضوح أنّ هذا المشهد المحزِن إنما هو النتيجة المباشرة لسياسةٍ ولحربٍ كانت لهما كلُّ تلك العواقب الوخيمة على عمتي وعلى عائلتنا نحن بالذات. وكانت تلك تجربتي الأولى في محاولة التخفيف من عذابات الهوية الفلسطينية بواسطة عمتي وبناءً على التعرّف إلى بؤسِ وضعفِ هؤلاء اللاجئين الفلسطينيين الذين تستدعي حالتُهم المساعدةَ والعطفَ والمالَ بقدرِ ما تستثير الغضب.

الانطباع الإجماليّ العالق في ذاكرتي عن ذلك الزمن هو حالة طوارئ صحيّة مستمرة. ولما كانت عمتي تفتقر إلى مكتب أو مؤسسة علنية تَدْعمها، فقد كان

حضـورها عند أولئك الناس الذين تعـهـدتْهم طوعًا يقـتصـر على حضـور أصـحـاب «أبوقراط»، أعني حضـورها بما هي طبيبة متوحدة مع مرضـاها يحدوها انضـباطٌ مذهل ورسـالةٌ أخـلاقيـة. والـحـال أنّ العديد من أولئك اللاجئين الفلسطينيين فقدوا صحّتهم مع فَقْدهم وطنهم. واذا المناخ المصريّ الجديد بدلاً من أن يحتضنهم، يزيد في اسـتنزافـهم، حـتى في وقتٍ تعلن فـيـه الحكومـاتُ، قـبل الثـورة وبعـدهـا، الدعم لفلسطين وتُقْسم الأَيمان الغليظة على إبادة العدو الصهيونيّ. ولا تزال تطنّ في أذني البـيـانـاتُ الإذاعـيـة وتتـراءى لي عناوينُ الصـحـف المتـحـدية بالعـربيـة والفـرنسـيـة والإنكليزية، تذيـع تلك الشـعـارات على جموع صمّاء أسـاسـًا. في ذلك الحين، كانت التفاصيل والتعاسة المعيشة لشعبٍ تائهٍ مريض هي ما يثير اهتمامي أكثرَ من أيّ شيء آخر. ولذلك كان العلاج الوحيد هـو الالتزام الشـخصيّ ونمطًا من الاسـتقلالية الفكرية مكّنا امرأةً منمنمة متوسطة العمر من أن تناضل ضد شتى العقبات دون أن تخور عزيمتها أو تفقد ثقتها بالنفس. وكائنًا ما كانت آراؤها السياسية، فإنها لم تفصح عنها في حضـوري مرةً، أو كادت ألا تفـعل ذلك قط، لأنها لم تجـد ضـرورةً لذلك. فالحاسم عندها هو اللحم الحيّ، بل الوحشيّ، للعذاب الفلسطينيّ، الذي دأبتْ على التعامل معه صبحًا وظهرًا وعشية. لم تبشّر مرةً تبشيرًا ولا هي حاولتْ أن تَكْسب أحداً إلى جانب قضيتها. تعمل ببساطة وحيدةً ودون مُعين، ترتجل الأمور ارتجالاً أو تتصرّف بوحي مما يصدر مباشرةً عن إرادتها. وبعد ثلاث سنوات أو أربع على مباشـرتها خدمـاتها، ظهر شـابٌ غـامض خيّل إلينا أنه يَشْغل منصب سكرتيرها الشخصيّ، لكنها ما لبثتْ أن تخلّت عنه وعادت إلى توحّدها. وذلك أنّه لم يستطع أحدٌ أن يجاريها في عملها.

من شركائها الطبّيين الدكتور وديع باز حداد، طبيبُ العائلة، وهو رجل قصير القامة، قويّ البنية، أشيب الشعر، مقدسيّ الأصل، يعيش في شبرا، أحدِ أفقر أحياء القاهرة منذ أن نال شهادة الطب من بيروت. وبعد وفاته في آب/اوغسطس ١٩٤٨، حل محله فورًا ابنُه فريد. وقد اعتمدتْ عمتي أيضًا على أخي وديع الأصغر، كامل، صاحبِ صيدليةٍ عبر الشارع، لتزويدِ المشمولين برعاية عمتي نبيهة بكمياتٍ لا يستهان بها من الأدوية المجانية أو شبه المجانية. ولقد أَغفل تأريخُ تلك الفترة ذِكْرَ الدكتور وديع، مع أنه لعب دورًا مثيرًا للإعجاب بين فقراء القاهرة من خلال مهمته

الخيرية المذهلة في عمقها والتي لم تلقَ ما تستحقه من التقدير، مَثَلها كمَثَل عبقريته في التشخيص (على ما تَشْهد بذلك أمي والعمة نبيهة). عمل متعاقدًا مع مستشفى «مدرسة القاهرة الطبية»، المدرسة الطبية والمجمع الاستشفائيّ الكبير الخاضعيْن لإشراف الدولة، والواقعة آنذاك على طريق المعادي فيما يتجاوز قصر العيني بقليل. وقد استطاعت عمتي من خلاله إدخال المرضى إلى ذلك المستشفى مجانًا أو بأكلاف زهيدة. وما أزال أذكر عزوفه عن هذر الكلام وهو يغلي الإبر الطبية والحقن الزجاجية في عبوة معدنية صغيرة فوق مصباح قابل للطوي يعمل على الكحول، ممتنعًا عن تناول رشفة قهوةٍ واحدةٍ أو جرعة ليموناضة تقدَّم له، رافضاً على الدوام تقاضي أيّ أجر لقاء أتعابه، أو هو «ناسيًا» تقديمَ فاتورته للتحصيل.

والدكتور حداد دائم التنقل وكليّ الحضور، لا تستطيع إليه وصولاً عبر الهاتف إلا بشق النفس. على أنه، مثله مثل عمتي، عُرِف عنه وجودُه في منزله بعد ظهر يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع. ولما كان منزله والعيادة يقعان في شقة واحدة، فقد كنتَ تشاهد العشرات، وجميعهم من فقراء المصريين، يتجمعون خارج بابه دون مواعيد مسبّقة، ينتظرون مشاهدته. وهو رجل صموت، يمتنع عن هذر الكلام، فلا يمكث في مكان واحد وقتًا يضطره إلى ذلك. وأما زوجته إيدا، السويدية الألمانية النحيلة، فهي صيغة مُبكرة عمن نسميّهم الآن «المهووسين بالمسيح»، إذ تستغل فرصة وجود مرضى زوجها، ومعظمُهم من المعوزين ينتظرون بقلقٍ دورَهم للمعاينة، لتحدّثهم عن مريم العذراء ويوسف وطفلِهما يسوع. وكانت فريدا قربان، المغتربة اللبنانية المسنّة المعروفة من الجميع باسم «أنطي فريدا» أو «مِسّ فريدا»، تعمل ناظرةً في المدرسة المحلية، وتَعْرف السيدة حداد عن قرب. ولم تكن تكلّ عن إبلاغنا بالمحاولات المخبّلة التي تبذلها السويدية العجوز لهَدْي العديد من فقراء شُبرا، وجلُّهم من المسلمين، إلى المسيحية. فقد كانت تدعوهم من قارعة الطريق إلى غرفة الجلوس ثم تطفئ الأنوار وتُتحفهم بعرضٍ للشرائح الفوتوغرافية الملوّنة، وتروح تحكي لهم برتابة لامتناهية عن العائلة المقدسة والخلاص والفضائل المسيحية. وإذ يكتشف الغرباء الضجرون والمرتبكون أنّ الأجنبية العجوز منشغلة عنهم، يلتقط كلُّ واحد منهم قطعةَ أثاث منقولة – مزهريةً أو بساطًا أو علبة – وينسلّ خارجًا من غرفة الجلوس المتواضعة للدكتور حداد. وفي أقل من ساعة تكون الغرفة قد جُرّدتْ

من محتوياتها، في الوقت الذي يجول الطبيب فيه على مرضاه، والزوجةُ تلقي مواعظها الملهَمة.

خلال زيارتنا الأولى للولايات المتحدة، في أواخر صيف عام ١٩٤٨، تلقّى أبي برقيةً تنعى وفاة الطبيب الكريم وتطالبه بمبلغ من المال لتغطية نفقات الدفن. لم يترك وديع حداد لعائلته قرشًا واحدًا، وإيدا، بالطبع، عديمة الكفاءة حين يتعلّق الأمر بتحصيل المعاش. اما ابنه البكر، فريد، فكان حينها نزيلَ السجن بتهمة الشيوعية. فقد ألقي القبضُ عليه فور تخرجه من كلية الطب، ولكنْ أُخلي سبيلُه بعد بضعة شهور، وما إنْ سنحتْ له الفرصة، حتى تحوّل إلى مساعدٍ طبيّ لعمتي، فسار على خطى أبيه من حيث نمط العيش غير المبالي بالذات، لا يأبه البتة للمال أو للترقي، خلا أنه، خلافًا لأبيه، ظل إلى حَين مصرعه في السجن، أواخرَ العام ١٩٥٩، عميقَ الالتزام السياسيّ. ثمة أُلفة كاملة جمعتْ فريدًا بعمتي. وكانت تحيل عليه الفلسطينيين فيعالجهم مجانًا، لا يزعزعه العذابُ اليوميّ الذي يواجهه، بل يقوّي من عزيمته. وبعد أربعين سنة سوف أكتشف أنّ رفاقه الشيوعيين أنفسهم كانوا يَعدُّونه قدّيسًا، لخدماته الاستثنائية كما لمزاجه الوَدود منتهى الودّ.

التقيتُ فريدًا مرات عديدة خلال سنوات الكلية الأخيرة في أواسط الخمسينيات (وهو مثلي خريج المدارس الكولونيالية البريطانية). إلا أنه كان مقتّرًا إلى حدّ مُغيظ في الحديث عن سياسته أو عن نشاطاته غير الطبية. لم يردْ ذِكْرُ فلسطين مرةً في أحاديثنا على امتداد عقد من الزمن تقريبًا. كان يكبرني بما بين اثنتيْ عشرة وخمس عشرة سنة، تزوّج في سنّ مبكرة من آدا ورُزقا ولديْن (أو ربما ثلاثة أولاد). واستطاع، بطريقةٍ ما، أن يوزِّع حياته بين هليوپولِس حيث سكن وعائلتَه وفَتَح عيادةً لأبناء الطبقة الوسطى، وبين عمله الخيريّ في عيادته القديمة في شُبرا وفي مستشفى «كلية القاهرة الطبية»، ونشاطه السياسي المتزايد سرّيةً. وعندما بلغتُ الثامنة عشرة وكنتُ في سنتي الأولى في جامعة پرنستون، أَمْزج على نحوٍ غريب بين مظهر الجامعيّ الأميركيّ ذي قصة الشعر البَحْرية وبين عربيٍّ كولونياليّ من أبناء البرجوازية الكبرى يَحْدب على فقراء الفلسطينيين، أَذْكر ابتسامته الأنيسة كلما سألتُه عن «معنى» عمله وحياته السياسية: «لنلتقِ حول فنجان قهوة ولنناقش الأمر»، يقول فيما هو يتوجه صوب الباب مغادرًا. لم نلتقِ مرةً في مناسبة اجتماعية.

ولكني، حين كنتُ أثقّف نفسي تدريجيًا في التاريخ والسياسة العربييْن، بنيتُ تفسيرًا متكاملاً لما حصل له فاعتبرتُه ضحيةً للقلاقل وللتيارات القومية المغالية التي سادت إبّان السنوات الأولى من العهد الناصريّ. كان مناضلاً شيوعيًا ملتزمًا، وطبيبًا يواصل عمل أبيه، ونصيرًا لقضية وطنية واجتماعية لم نكن نستطيع أنا وهو أن نتناقش فيها، بل ولا أن نتلفّظ باسمها، لولا وقائعُ ولادتنا الفلسطينية.

لم يخطر في بالي أنه تعرّض عام ١٩٥٨ لضغط متزايد من عائلته وعائلتي للانسحاب من الحزب، في وقت كان الحزب فيه يمارس عليه ضغطًا لا يقل حدةً لبذل المزيد من أجل القضية أيًا تكن العواقب الشخصية. وكنتُ في الكلية في يوم من أواخر أيام كانون الاول/ديسمبر ١٩٥٩ عندما استُدعي من شقته في هليوپولِس للتحقيق معه لدى جهاز أمن الدولة. وبعد أسبوعين، دخلتْ زوجتُه آدا، شعثاءَ الشَعر، شبهَ عارية، تَزْعق في كنيسة هليوپولِس الأنغليكانية، مقاطِعةً القدّاسَ الأسبوعيَّ باللغة العربية: «طرقوا الباب وقالوا لي أن أذهب للإتيانِ بفريد من قسم الشرطة في الحيّ. ظننتُهم أطلقوا سراحه ولكني عندما وصلتُ إلى المكان، قال رجلٌ خلف مكتبه إنّ عليّ أن أعود ومعي ثلاثة رجال أو أربعة. سألته لماذا، فاكتفى بالقول إني سوف أحتاج إليهم لحمل نعش فريد». كانت في حال من الهياج الشديد فلم تستطع إضافة المزيد، فأعادها قسُّ الرعية إلى منزلها، بينما سار ابنُ عمي يوسف، مع ثلاثة من رفاقه، إلى قسم الشرطة، ومنه اقتيدوا إلى مدفن موحِش في العبّاسية حيث التقاهم ضابط مع جنديّيْن شمّرا عن زنديهما وكانا يحرسان حفرة فاغرة ينتصب في طرف منها صندوقٌ من الخشب الخشن. «يمكنكم إنزالُ النعش في الأرض بشرط أن يوقّع أحدكم إيصالاً بذلك. ولن يُسمَح بفتح الصندوق أو إلقاء أيّ سؤال». نفّذ أصدقاء فريد الفلسطينيون ما أُمِروا به، ذاهلين محزونين، فأهال الجنديان بعض التراب بسرعة في الحفرة. «والآن عليكم أن تغادروا»، قال الضابط باقتضاب، مكرّرًا أنه لا يحق لهم فتحُ نعش صديقهم.

ظلت حياةُ فريد، وموتُه، موضوعًا رئيسيًا ضامرًا في حياتي لأربعة عقود من الزمن، لم تكن كلُّها فتراتٍ من الوعي أو من النضال السياسيّ النشط. ولما كنتُ أعيش في الولايات المتحدة في عزلة كاملة عن الأوساط الاجتماعية والسياسية التي قد تكون على صلة بالأوساط التي عرفها فريد، فقد شعرتُ أنه يتوجب عليّ محاولة

اكتشاف ما جرى له بالضبط بعد اعتقاله، ولو اقتضى الأمرُ سنوات. وفي عام ١٩٧٣، حين كنتُ في باريس، عرّفني الممثل السياسيّ الفلسطينيّ فيها الى شيوعيَّيْن مصريَّيْن من تلك الفترة قالا إنّ فريد قُتِل جراء التعذيب في السجن. ومع أنهما لم يَشْهدا الجريمة بأم العين، فقد أكدا لي أنهما واثقان من «مصادرهما»، وهي عبارة تنضح بغباء المباهاة العالمثالثية وبتقاليد العمل السرّي وبالادعاء الموارب بالأهمية الذاتية التي كانت سائدةً في تلك الفترة. وبعد عشرين عامًا من ذلك، كنتُ في زيارة إلى القاهرة وقد باشرتُ العمل على هذه السِيرة الذاتية، فقدّمتني الصديقةُ منى أنيس إلى رجل قُبطيّ مسنّ هو أبو سَيف وزوجته، «طانط أليس»، وكانا صديقيْن مقربيْن لفريد، بل اتضح لي، لاحقًا خلال تلك الزيارة، أنّ أبو سَيف كان المسؤول المباشر عن فريد في التراتب الحزبيّ. ذهبتُ ومنى لمقابلة الزوجين المسنّين، وقد تقاعدا وانزويا في شقة أرضية مُكربِة في مجمّع سكنيّ مبنيّ على النمط الرومانيّ، على النيل في ما يتعدى بولاق، كأنما حُكِم عليهما هما أيضًا أن يطويهما النسيان. كان الجو داكنًا ومغبرًا وقانطًا لا يخفف منه إلا الأثاثُ المرتّب بعناية وشايُ «طانط أليس» وكعكُها اللذيذُ المذاق.

سألتُ ما إذا كانت زوجة فريد وأولاده قد خلّفوا وراءهم أيَّ عنوان أو اتصلوا بأيٍّ من أصدقائهم القدامى، بعد هجرتهم إلى اوستراليا. فنفيا بحزن، كأنما يقولان إنّ تلك صفحةٌ طويتْ بعد موت فريد. ثم أخرجتْ أليس صورة فوتغرافية محفوظة بعناية لعرس الزوجين الشابين يبدو فيها فريد البدين متهندماً في بذلة أنيقة، وآدا الحلوة ترتدي فسطانًا من الـ«تافتا» الأبيض. فأخذنا نتأمل معاً برهةً زائلة من الهناءة الزوجية نعما بها ذاتَ مرة. أهدياني الصورة تقديرًا لاستمراري في الاهتمام بقضيةٍ طواها النسيان لسنوات عديدة. «ثم أخذوه مباشرةً إلى السجن – وقد شاهدتُه شخصيًا – وجعلوه يتجرّد من ثيابه، كما كان شأننا جميعًا. وتحلّق حولنا الحرّاسُ وانهالوا علينا بالهراوات والعصيّ. إنه «حفل الاستقبال» الذي يعرفه جميعُ المعتقلين. ثم سِيق فريد مباشرةً للاستجواب، مع أنه تأذى كثيرًا جرّاء الضرب وبدا مصعوقًا يرتعد بشدة. سألوه ما إذا كان طبيبًا روسياً – وكنا جميعًا من اليساريين وننتمي إلى مجموعات شيوعية مختلفة، وكانت مجموعتنا، أنا وفريد ، تسمى «العمال والفلاحين» – فأجاب: «لا. بل أنا طبيب عربي». فشتمه الضابط وأخذ

يضربه على رأسه خلال ما لا يزيد عن عشر ثوانٍ. ثم انتهى كل شيء. تدحرج فريد وقد فارق الحياة».

بعد مغادرتنا شقةَ آل ابو سيف، خطر في بالي أن أسألهما ما إذا كانا يعرفان أنّ والد فريد كان فلسطينيًا، ولكنّ أوان السؤال كان قد فات. افترضتُ أنهما اعتبراه، أساسًا، رفيقًا وعضوًا مثلهما في أقلية مسيحية، ولعلهما كانا يعتبرانه من «الشوام». وجازفتُ في التفكير في أنه نظرًا إلى كثرة اليهود في الحركة الشيوعية المصرية، فالأرجح أنّ فريد لم يرد التشديد على أصله الفلسطينيّ ذي الطاقة الشِقاقية. وكان عجزي عن أن أناقش فريد في قضية فلسطين مثالاً آخر على قمع تلك القضية بما هي قضية سياسية في حياتي المبكرة.

لعبتْ فلسطين دوراً أكثر إشكالاً في النزاع النامي ببطء بين أبي وشركائه في العمل : عمتي نبيهة وأبنائها. وقد ازداد ذلك الدور غموضًا بسبب الصمت المطبِق على قضية فلسطين وجهلي الجزئيّ بها. وَفَدَ ابنها الثاني جورج إلى القاهرة مع زوجته هدى قبل شهور قليلة من سقوط فلسطين، في منتصف العام ١٩٤٨. وعندما قدِم يوسف وزوجته عائدة من طريق عمّان، بعد ذلك بوقت قصير، توتّر الجوّ كثيرًا بين الشابين وأبي. كعائلة، ازددنا التصاقًا بعضنا ببعض، بعد أن لم يعد من قُدسٍ إليها نعود. على أنّ السؤال الكبير كان: مَنْ هو المسؤول الأول في الشركة؟، وهو سؤال ارتكز إلى سرد وإلى تأويل للسرد اختلفا اختلافًا بيّناً بين فرعهما العائليّ وفرعنا. بالنسبة إليّ، لعبتْ أمي دور المؤرخ الرئيسيّ وبالطبع، المترجم الأمين. صحيح، قالت، أنّ العم بطرس (ابن عم والدي المباشر وزوج شقيقته) هو الذي أسّس التجارة في القدس حوالى العام ١٩١٠. على أنه كان آنذاك محلاً صغيرًا يقتصر على بيع الكتب والقرطاسيات. ولما عاد وديع من الولايات المتحدة، حوالى العام ١٩٢٠، وَظّفَ مبلغًا من المال في «شركة فلسطين التعليمية» العائدة لابن عمه –لم يدرِ أحدٌ مقداره بالضبط لأنه، كما تروي أمي دائمًا، لم يكن يحتفظ بقيود أو سجلات – فصارا شريكين متساويين. وبحسب رواية امي، فإنّ وديع حمل معه العديد من الأفكار الأميركية الجديدة، وهذا ما دفع الشركة في مسالك المجازفة وحقق لها ازدهارًا غير متوقع.

وما إنْ مضت سنوات معدودات، حتى غادر وديع إلى مصر، وقد ضاقت فلسطين بطموحاته. وفي القاهرة أنشأ «شركة الراية للقرطاسيات»، واستحصل لها

على وكالات لشركات عديدة، مثل شركة «رويال» للآلات الطابعة وأقلام «شيفرز» و«آرت ميتال» للمفروشات المكتبية وحاسبات «مونرو»، وهي أسماء أَلِفتُها جميعًا منذ الطفولة. وسريعًا، فاقت مبيعاتُ القاهرة مبيعات فلسطين. وزعم ابنا عمي الأكبران لاحقًا – وأحسب أنّ عمتي نبيهة شاركتهم ذاك الزعم – أن العمّ بولس ظل هو المسؤول عن الشركة طوال تلك الفترة (١٩٢٩–١٩٤٠). وإثباتًا لذلك، احتفظا بمئات الصفحات من الرسائل المكتوبة بخط اليد أرسلها بولس إلى أبي في القاهرة. أذكر أني شاهدتُ واحدة فقط من تلك الرسائل. ذلك أنّ ابي، المنكبّ على عمله، لم يرَ حاجة للاحتفاظ بسجلات، خلافًا لابن عمه المهووس هَوَسًا مَرَضيًا بتدوين كل شيء والاحتفاظ بكل شاردة وواردة حتى أدنى التفاصيل. وبالطبع، احتفظ ابنا عمتي بنسخ كاربونية عن تلك الرسائل المطوّلة الرنانة. وبواسطتها استطاع الشابان، في المناخ المشحون الذي ساد فترة ما بعد ١٩٤٨، أن يبرهنا لمصلحتهما أنّ أبي كان يُعتبر دائمًا إداريًا من الدرجة الثانية وشريكًا يتوجب لجمُه باستمرار على يد مدير تنفيذيّ أكبر سناً وأوفر حكمةً هو الممسك فعلاً بزمام الأمور ويَعْرف كيف يدير الشركة على نحو سليم، ولو من بعيد.

أثار جورج ويوسف الأزمة تلو الأزمة في مكتب أبي، تحرِّضهما عمتي على خوض هذا الصراع المَقِيت مع احتفاظها بصِلة وثيقة جداً بشقيقها. ولم تسنح لنا إلا لمحات خاطفة إلى تلك النزاعات من خلال روايات أمي التي غالبًا ما تكون ضمنية ومجزوءة عن قصد. فبسبب امتناع أبي، الحسابيّ والمتهرّب والصامت إلى درجةٍ ما، عن الخوض في الماضي بما هو رواية تروى فتكون من ثم عُرضةً للتحليل والتقويم، لم يعبّر إلا لزوجته عن ردود فعله المصدومة والحانقة تجاه استفزازات أبناء شقيقته. وقد تبيّن أنهما يحاسبانه دوريًا لمبالغته في الاستدانة باسم الشركة وفي لعب دور «البائع» – فيكتسب النعتُ هنا معنى سلبياً بل تحقيريًا، إذ ينطبق عليه – ولممانعته منحَ الشابين المزيدَ من الصلاحيات. وأذكر أنّ أبي سألني ذات مرة، في إشارة دونما شكٍّ إلى تعيير ابنَيْ شقيقته البيروقراطيَّي النزعة لـ«الباعة»: «ما نحن، بحق الجحيم، إنْ لم نكن بيّاعين، نستخدم باعة ذوي خبرات تسويقية لتنفيذ ما علينا تنفيذه». وبعد حين من وصوله القاهرة، كلّف يوسف بإدراة فرع الإسكندرية، على أنه عاد إلى العاصمة بعد بضعة شهور تعسة قضاها في ما

اعتبره أريافًا. في تلك الأثناء، ونتيجةً للعادات الاجتماعية الشديدة التكتّم والعظيمة الشكلانيـة التي تميِّزنا كعائلة، كنا نَعْقد الاجتـمـاعات العائليـة الدورية من غدوات وعشـوات، في بيتنا أو بدعوات من أبي، ناهيك عن النزهات، دون أن نشـعـر نحن الأطفالَ خلالها بأيّ أثرٍ للتوتر.

وعندما غادرتُ القاهرة عام ١٩٥١ إلى ما اعتبرتُه منفاي الأميركيّ، كانت مجمل العلاقات بين فرعيْ عائلتنا في القاهرة والقدس قد أصيبت بصدوع غير قابلة للإصلاح من الناحية التجارية. فشعرتُ إذّاك أنّ اختفاء فلسطين هو المسؤول عما جرى. على أني لم أستطع التعبير عن سبب ذلك ولا عن كيفية حصوله بالتمام، ولا استطاعه أيُّ فرد آخر من أفراد العائلة. كان ثمة نشاز خبرناه جميعًا بوصفنا أجانب في القاهرة لا نستطيع الاستعانة بوطن لنا. فالإشارات المتكررة إلى جوازات السفر وبطاقات الإقامة أو الهوية والمواطنة والجنسية تتزايد تزايُدَ هشاشاتنا تجاه الوضع المتغيّر في مصر والعالم العربيّ. فخلال الاعوام ١٩٤٨ و١٩٤٩ و١٩٥٠، تقلّص الوجود البريطانيّ في مصر، ومعه ضعُفتْ سلطةُ المَلَكية وتدّنتْ سمعتها. وفي تموز/يوليو ١٩٥٢، قامت ثورةُ الضباط الأحرار وشكلتْ تهديدًا مباشرًا لمصالحنا بما نحن عائلةُ أجانب ميسورةٌ لا يملك أمثالُنا كبيرَ معين داخل المجتمع المصريّ. ويخيّل إليّ أنّ ابنَيْ عمتي - لِصِغَر سنّهما، ولمعرفتهما باللغة العربية بأفضل من معرفتي أبي بها، ولاستعدادهما (أول الأمر) لمراعاة الأمر الواقع - كانا أقل غربة في مصر مما كانه أبي. وهذا ما ضاعف التوتر بينه وبينهما إلى حد كبير. غير أنّ أبي لم يكد يُفصح لأولاده بشيء عن ذلك الموضوع..وقد علمتُ من أمي ذات مرة أنّ جورج وأبي تضاربا بالأيدي. كان جورج يجيئنا لتناول الغداء ويعزف على البيانو الڤالسَ الكبرى اللامعة لشوپان على مقام «إي» الأدنى والنشيدَ العسكريَّ لشُوبِرت، وكان يبدو لي كائنًا يرتدي النظارات، عديمَ الضرر، وعلى شيء من الاحترافية. أثارني الخبرُ غايةَ الإثارة وصرتُ موزّعًا بين شعوري بالارتياح لأنّ أحدًا غيري تلقّى ضربات أبي، وبين الأمل غير الواقعيّ أن يكون أبي قد وقع أخيرًا ضحيةَ خصمٍ أقوى منه.

ظل موضوع النزاع يدور حول صلاحيات اتخاذ القرار. ولأنّ السلطة لم تكن مستمدة كليًا من القدس ولا من الماضي (كما هو حال سلطة يوسف) فقد كان أبي

أكثر فأكثر جهوزيةً للمعارك، في حين كنا (عمتي وأولادها ونحن السبعة) بوصفنا جماعةً ذات موقع وطنيّ شاذ، مدفوعين لأن نزداد التصاقاً بعضنا ببعض. وقد أدركتُ أنّ ماضي أبي وماله (وقد بتّ معقود اللسان كليًا بالخجل والنواهي المذنبة عندما يتعلق الأمر بالتحدّث إليه عن المال) وفلسطينَ والنزاعات المضطرمةَ داخل العائلة، هي مجموعة من القضايا - مثلها مثل الجنس - تقع في دائرة المحظور، يُمنع عليّ إثارتها أو حتى الإشارة إليها بأيّ شكل من الأشكال.

تكراراً أبدتْ أمي أسَفَها لأنّ «والدكم» - أو «دادي» - لم يُجِب قط على رسائل بولس التهديدية الواردة من القدس ولا هو احتفظ بأيّ منها، لأنه رجل خَلُوق، وهو ما سمح ليوسف بأن يضايقه باستمرار بإبرازه نصاً من النصوص، فأوقع ذلك أبي في حال من الارتباك دائمةٍ، ولبّد جوّ العائلة بالتلميحات وبالتهم والتهم المضادة المضمرة، إلى درجة أنّ الأهل أخذوا يحذروننا مما يجوز ولا يجوز التفوّه به في حضرة عمتي وينهوننا عن قبول دعواتها لتناول الغداء. وفجأةً، في أواخر ربيع العام ١٩٤٨، فيما معاركُ العائلة يَستعرُ أُوارها والوضعُ السياسيّ يتدهور، أعلن أبي أننا ذاهبون إلى أميركا، باستثناء شقيقتيّ الصُغرييْن، جويس، في الخامسة، وغريس، في الثانية. فلم أستوعب تمامًا دلالات تلك الخطوة الاستثنائية التي أزمعنا عليها.

ذاك الربيع، ازددتُ التصاقًا بزملائي من الطلبة الأميركيين في المدرسة الأميركية بسبب من مسرحية غنائية أنتجَتْها المدرسة وأُعطيتُ فيها، ويا لَعَجَبي، أحد الأدوار (وقدّرتُ أنّ ذلك تمّ لسُمرةِ بَشَرتي). اسم المسرحية «الجزيرة المسحورة»، وهي رواية متأمركة، عاطفية وثقيلة الوطأة، لإقامة شوپان في جزيرة «مايوركا» مع جورج صاند، وقد جرى التشديد فيها على الجانب الغراميّ من خلال حضور زوجيْن إسبانييْن -مثّلتُ دور «پاپا غوميز»، ومثّلتْ مارغريت أوزبورن، التلميذةُ في الصف العاشر، دورَ «ماما غوميز» - تقع ابنتهُما الشابة مؤقتاً في غرام شوپان الدنيويّ والمحسود على لمعانه، ويمثّله بوب فاوست، وهو أميركيٌّ تعلو وجهَه البثورُ ويتمتع بصوت «تينور» صافٍ.

بدت فكرةُ اعتبار المسرحية «نشاطًا مدرسيًا» جديدة عليّ برمّتها. كانت «إعدادية الجزيرة» تقدّم العروض المسرحية هي أيضًا، لكنّ معظم الجهد العضليّ

فيها يبذله الخدم، والتمثيل يسيطر عليه بإحكام معلّمٌ واحد، ويُعامَل التلامذةُ فيها (بمن فيهم ميشلين ليندل الموهوبة) وكأنّهم بيادقُ شطرنج يحرّكها معلّمٌ – مُخرجٌ واحد لا يخلو من الدعة. أما بالنسبة إلى «الجزيرة المسحورة» فالأطفال الصغار أنفسهم أعطيتْ لهم فيها مهماتٌ يؤدونها، مساعدين على خشبة المسرح أو أفرادًا في «الكومبارس»، في حين تولّى التلامذة مهامٌ النجارين والدهانين والملقّنين وأفراد الكَورس، تراقبنا جميعًا (والكلمة أقوى بدرجة واحدة من الواقع) مِسْ كِتْشُم، معلّمةُ اللغة الإنكليزية، النشطةُ، الناتئةُ الأسنان، ذاتُ الستة والعشرين ربيعًا، التي تشرف على الفاعليات المدرسية المختلفة. وأذْكر بحرج كيف أني ذاتَ مرة بدّدتُ صمتَ قاعة المطالعة (وهي فترة من فترات اليوم الدراسيّ لا تعرفها المدارسُ الإنكليزية) إذ سألْتُها بصوت مرتفع عن معنى كلمة «اغتصاب». قادتنا مِسْ كِتْشُم – تساعدها بين الحين والآخر مِس غَايل، الأكبر سناً والشديدة النزق – عبر ترّهات «الجزيرة المسحورة» حيث يتلخّص دَوْري، بصفتي الوالد العجوز لكونشيتا المغناجة، في أن أَحْرف اهتمامها عن شوپان وأدفعها نحو خوان، ابنِ القرية شبهِ المتخلف عقليًا، الذي يُفترَض أنه في مثل مستواها الاجتماعيّ. وتَعْقب كلَّ حوار قصير بين الممثلين «وصلاتٌ» غنائيةٌ قائمةٌ، في رأيي، على نُسخٍ معدّلة ومبسّطة وإنشادية فجّةٍ لأعمال شوپان: «التنويمة» و«البولونية 'العسكرية'»، و«الفالس اللامعة» على مقام «إي» الأدنى ولحن آخر على مقام «دي» الأدنى مقتطف من «النشيد الجنائزيّ» وقد تحوّل في «الجزيرة المسحورة» إلى أغنية ثنائية غرامية حيوية لكنها لا تخلو من الغرابة.

وجدتُ مجريات الأحداث غايةً في الإحباط، أنا ابنَ الاثنتيْ عشرة سنة ونصف السنة أتلبّس شخصية أب وزوج إسبانيّ في منتصف العمر على خلفية من موسيقى شوپان المشوّهة الصاخبة، ناهيك عن الشعور الأميركيّ الجمعيّ الذي نبذني وتركني متقلقلاً أكثر مما كنتُه قبل «الجزيرة المسحورة». وسط كل هذا، أُعلِن عن سفرنا الداهم، فنقلتُ الخبر، بجبنٍ، إلى زملائي الممثلين الذين قابلوه باللامبالاة. قُدِّم عرضان للمسرحية، حضر أهلي ثانيهما، وأعلن أبي أنّ ما أثار إعجابه هو أن لي زوجة لأول مرة. حضنتني أمي بدفئها الغامر المميّز وأنا يمتلكني شعورٌ بالانزعاج والحرج مما قاله أبي. ثم انضممنا إلى الأهل والممثلين الآخرين نحتسي الـ«پانش» ونتحادث بودّ مع المعلّمين الخجولين. وحدها مِسز كلارك المرهوبة الجانب

حافظتْ على صرامتها المضجرة، تدخّن وتشرب بمنأى عن سائر الحضور، وقد جَمَرَتْ شعرها الأحمر في كعكة متوعِّدة ترزح على قمة رأسها. وقضى أبي الوقت بطوله يبحث عن «المندوب الاميركيّ» المسؤول عن «البعثة الأميركية»، وكان هذا موضوعه الأثير على الغداء، إذ إنّ البعثة لم تكن قد ارتقت بعدُ إلى مستوى السفارة؛ فالحضور البريطانيّ في القاهرة كان لا يزال هو الأقوى وإن يكن في حالِ تقلّصٍ مستمرة.

تمّ كلُ ذلك عشيةَ إبحارنا من الإسكندرية. يومَها، ساقتنا أمي أنا وروزي وجين مهرولين إلى الباخرة الإيطالية «ساتورنيا» من على رصيف الميناء الإسكندرانيّ المزدحم الرازح تحت الشمس القائظة، وأبي لاحقٌ بنا يلقي أوامره على مفرزة من الحمّالين المخطيين ينوؤون تحت ثقل حقائبنا الجلدية العديدة. ومع أني سمعتُ قبلاً عن بواخر النقل الأميركية من زملائي في المدرسة، فإني لم أكن قد شاهدتُ شيئًا أجنبيًا، ضخمًا وغريبًا مثلَها. سحرني كلُّ شيء فيها، من اللغة إلى الأزياء اللمّاعة البيضاء التي يرتديها الخدم والضباط على حد سواء، ومن أواني المائدة البرّاقة إلى الكميات غير المحدودة من الأطعمة غير العربية، وصولاً إلى المهاجع المرتَّبة على نحو حاذق ذواتِ الكوى الصغيرة والمراوح المتدلية من السقف تُخَرخِرُ خرخرةً مهذبة. وما إنْ خرجنا إلى السطح لمشاهدة إبحار الباخرة المهيب، حتى أعلن أبي أنّ «زوجتك على الباخرة»، مسبوقةً بعبارةً «إيدي بوي» بذلك المزيج من التحبّب والتهكّم وقد درج على استخدامها بُعيد انتسابي إلى المدرسة الأميركية. كانت عيناه تنضحان بالشرّ حين كان يبلغني الخبر السارّ، وهو على أتمّ الإدراك لمدى الحرج الذي يسببه لي. والحال أني كنتُ غافلاً كليًا عما تعنيه الزوجة، خلا الرفقة العادية التي أشاهدها بين والديّ، وبين أصدقائهما أيضًا. غير أني أحسستُ أنّ المفردة تُضمر سلوكًا شائناً حين تنطبق عليّ، أنا بابا غوميز المثيرَ للضحكِ الذي صدف أن تكون زوجتُه في المسرحية، مارغريت اوزبورن، هي أيضًا على ظهر «ساتورنيا».

شاهدتُها مرةً واحدة وهي تتجاوزني واثبةً على السلالم، ولكننا لم نتبادل التحية ولا مجرد إشارةِ تعرّفٍ واحدِنا على الآخر. أكثرَ أبي من السؤال عنها، فزاد ذلك من الجفاء بيني وبينه. وبصعوبةٍ استوعبتُ أنا وشقيقتاي أنّ غرض الرحلة

الفعليّ هو حاجة أبي إلى العناية الطبية. فهو لم يَذْكر شيئًا عن مرضه مع أنّ أمي لمحَّتْ بغموض إلى طبيب أميركيّ شهير يعتزمان مقابلته، ولكنها فعلت ذلك على طريقتها الخاصة، التي تعني «ولكنّ هذا، في الحقيقة، أمرٌ يجب أن لا يشغل رأسك الصغير». ولم يؤتَ على ذكر الغرض من رحلتنا مرةً ثانية على «ساتورنيا». أكثر أبي من لعب البريدج، وكان ينضم إلينا للغداء والعشاء في مطعم الدرجة الأولى ويشاركنا، بوتيرة أقل، تناول «الكُونْسُوميه» في الحادية عشرة على سطح الباخرة الرئيسيّ. وما إن استقلّنا الباخرة، حتى أخذتُ أتقلّب بين لحظات من القلق على صحة أبي (وهو ما أعادني إلى أيام رام الله المضطربة لصيف ١٩٤٢) ـ وهي لحظاتٌ يضاعف منها تهكُّمُه المباغت ومحاضراتُه عن مخاطر «العبث بالجسد» واعوجاجِ قامتي وتبذيري ـ، وبين برهات أطول أستسلمُ خلالها لما توفّره الحياةُ على الباخرة من تسليات باذخة. فشاركتُ في لعبة «شافلْبُورد[1]» وكرةِ الطاولة ولعبتُ «البِنغو» كلَّ ليلة تقريبًا، واستمتعتُ بجولات استكشافية مديدة على الباخرة الوافرة التجهيز التي اختبرتُها على نحوٍ غريب بما هي حضورٌ أُنثويّ مضيافٌ وكريم إلى أبعد الحدود.

وشدَّ ما أبهجني اكتشافُ مناعتي ضد خطوب الطقس الهائج. ففيما سائر أفراد العائلة مبتئسون يلازمون مهاجعهم خلال عبورنا مضائقَ مسّينا، والباخرةُ تعلو بنا وتهبط بلا رحمة، تنعّمتُ بترف التجوال وحيدًا في قاعات الاستراحة والبارات وفسحات التسلية والسطوح الخالية، حيث العددُ الوافر من المجلات الأميركية، والعروضُ السينمائية الليلية، وفرقةٌ موسيقية مصغّرة تزعق أنغامها الراقصة أمام حلبة خاوية، وعشراتُ الخدم الإيطاليين المتزيّين بالأبيض، مجهولين يسلّون شاباً مجهولاً ويُغْدقون عليه أطيب المأكولات.

توقفتْ «ساتورنيا» في أثينا ونابولي وجَنَوَا ومارسيليا وجبل طارق. وباستثناء هذه الأخيرة، كنا نُقاد في جولة لبضع ساعات في أنحاء مدن كئيبة خرّبتها الحرب، يَعْقبها غداءٌ مضجر في مطعم محليّ قبل أن نعود إلى الباخرة لاستئناف الرحلة. وحدها نابولي أمتعَتْنا، لأننا، بعد زيارة عجولة لپومپاي مُنِعنا

---

١ ـ لعبة تقوم على دفع أقراص خشبية فوق سطح أملسٍ نحو أهداف معيّنة. (م)

خلالها من النظر إلى الفسيفساءات «غير المناسبة للأطفال»، تناولنا وجبة من السپاغتّي قرب الميناء حيث ترامى إلينا صوتُ بحّار يغني «سانتا لوتشيا»، وهي من الأغاني الأثيرة لدى أبي في تسجيل بصوت كاروزو. إلا أني أكثر ما أستذكر من تلك الجولات النهارية إحساسُنا بأننا زمرة صغيرة مغلقة على نفسها، بل ما كان أشبَهَنا بمنطادٍ معلّقٍ فوق أمكنة غريبة نجتاز مُدنًا أجنبية من غير ما تماسٍّ فعليٍّ معها.

عند وصولنا نيويورك، عاودتنا بإلحاح مسألةُ الوضع القانونيّ لأمي التي أضحت شخصاً بلا جنسية بعد سقوط فلسطين. والصعوبة الرئيسية في الأمر أنه كان يتوجب عليها الإقامة في الولايات المتحدة سنتين متواليتين لكي يحق لها الحصول على تأشيرة أميركيّة طويلة المهلة، وهذا ما كانت ترفضه. وقد أفادتنا كلُّ دائرة حكومية وكلُّ مكتبِ محاماةٍ في نيويورك أنّ الإقامة ضرورية. ومفهوم أن يَلْقى هذا الشرط معارضةَ أمي وأبي معًا. وإذا ببحثنا عن وسيلةٍ ما للتحايل على شرط الإقامة لمدة سنتين يجري بحماس لا يلين على مدى السنوات السبع أو الثماني اللاحقة.

والمفارقة في أمر سعي أمي العبثيّ إلى الجنسية أنها نجحتْ بعد العام ١٩٥٦ في الاستحصال على الجنسية اللبنانية بتدخلٍ من السفير اللبنانيّ في القاهرة. وإلى حين وفاتها عام ١٩٩٠، ظلّت تسافر بجواز سفر لبنانيّ استُبْدِل فيه مكانُ ولادتها، على نحو ملغز، فحلّت القاهرة محلّ الناصرة. تأملتُ في الأمر: ففي الخمسينيّات نفسها، وقد بُذِرتْ فيها بذورُ الحرب الأهلية قبل اندلاعها بعشرين سنة، كان أقلُّ إثارةً للاعتراض أن يكون المرء مصريّ الأصل من أن يكون من أصل فلسطينيّ. ثم سارت الأمور على أتمّ وجه إلى أواخر السبعينيّات، بعد عقد من الزمن على وفاة أبي أو يكاد، عندما صار حاملُ جواز السفر اللبنانيّ يتعرض لمضايقات جمّة للحصول على تأشيرات دخول إلى أوروبا أو الولايات المتحدة الاميركية ولاجتياز صفوف الانتظار أمام مكاتب الهجرة. أنْ تكون لبنانيًا أضحى فجأةً معادلاً لمشبوه بممارسة الإرهاب. وهكذا، لسبب غير مفهوم، وجدتْ أمي المكابِرةُ الصعبةُ الإرضاء نفسَها تحوم حولها الشبهاتُ من جديد. عاودْنا الاستفسارَ عن إمكانية حصولها على الجنسية الأميركية؛ فهي، في حصيلة الأمر، أرملةُ أحد قدامى محاربي الحرب العالمية الأولى وأمٌّ لخمسة

مواطنين أميركيين، ولذلك تبدو مستحِقةً كلَّ الاستحقاق لذلك الشرف. ومجددًا، قيل لها إنّ عليها الإقامة في الولايات المتحدة الأميركية. فرفضتْ مرةً أخرى، مُؤْثِرةً مشقّات الحياة في بيروت المحرومة من خطوط الهاتف والكهرباء والماء على رفاهية نيويورك أو واشنطن. ثم عاودها سرطانُ الثدي، وقد أجرت له جراحةً في كانون الثاني/يناير ١٩٨٣ على يد جرّاح بيروتيّ. ولعلها أدركتْ أنّ النهاية قد دنت، مع أنها رفضت العلاج الكيميائيّ مجددًا، مخافة مضاعفاته الجانبية، حسبما أسرّتْ لي. فابتاعت لنفسها شقةً في بناية في «تشيفي تشايس» في ولاية ماريلاند عام ١٩٨٧. وكانت تأشيرة الدخول المؤقت لها بوصفها زائرةً تسمح لها بقضاء مُهَل متطاولةٍ من الوقت. ثم أخذتْ تزور بانتظام طبيبهَا الذي تكنّ له المحبة لكنها ترفض نصائحه بعناد. وقد انقضت مهلةُ إحدى التأشيرات حين كانت في غيبوبة، في آذار/مارس ١٩٩٠، فإذا شقيقتي غريس، الساكنة معها والمعتنية بها بتفانٍ كبير، تجد نفسها في غمرة دعاوى قضائية لترحيل أمي من البلاد، وهي تشارف أيامها الأخيرة. أخيرًا، حَكَمَ قاضٍ غضوب برفض الدعوى وأنّب دائرة الهجرة وإدارةَ التجنيس لمحاولاتهما ترحيلَ امرأةٍ في الغيبوبة تبلغ منتصف السبعين من العمر.

توفيتْ أمي وقد رفضتْ تأشيرةَ إقامة قصيرة الأجل، فدُفنتْ في أميركا التي كانت تتحاشاها دومًا وتكنّ لها الكراهية أساسًا، وإنْ تكن ارتبطتْ بها ارتباطًا لا فكاك منه من خلال زوجها أولاً، ثم من خلال أولادها، قبل أن ترتبط بها من خلال مرضها الأخير.

بدأ ذلك كله مع دخولنا مرفأ نيويورك على متن الباخرة «ساتورنيا» مطلع تموز/يوليو ١٩٤٨. كانت فلسطين قد سقطتْ ونحن غافلون عن حقيقة أنّ حيواتنا تقودنا إلى الولايات المتحدة حيث سنعيش أنا وأمي ونُصاب بمرض السرطان الذي سوف ينهي حياتيْنا في «العالم الجديد». لستُ أملك صورة واضحة عن وصولنا إلى الرصيف الخاص بخطوط النقل البحريّ الإيطالية في نيويورك. وليست لديّ فكرة عن شعوري تجاه مشهد فضاءٍ أجنبيّ جديد نَلِجُه لأول مرة. كل ما أذكره هو الكآبة الرازحة على ردهة الاستراحة لمسافري الدرجة الأولى وقد تحولتْ إلى مكان رثّ تملأه المكاتبُ والكراسي المعدّة لمفتشي الجمارك ولمجموعة لا يستهان بحجمها من الركّاب الداخلين إلى البلاد وقد تجمّعوا معًا لأول وآخر مرة.

في المقابل، أَحتفظُ بانطباع قويّ عن الفجائية والإحباط (والتعبير لأبي) اللذيْن هيمنا على أول مشهد رأيناه لأميركا الشمالية، بسبب الريح والضباب يجرفان باخرتنا نحو أقصى الشمال على نحو غير متوقع. في الصباح الباكر، قبل يومين أو ثلاثة أيام من نزولنا إلى نيويورك، صعدنا أنا وأبي إلى سطح الباخرة وهي تدخل مرفأ هاليفاكس. كان الضباب كثيفًا، إلى درجة أنّ الرؤية لا تتجاوز بضعة أمتار من قَيدُوم السفينة، وكان جرسٌ يُقرع حزينًا في البعيد. على خريطة عبورنا المحيط، المعلّقة قرب الجسر، شاهدتُ انعطاف سيرنا نحو نوفا سكوشيا الشديدَ الانحراف عن مسارنا الجنوبيِّ الوجهة. كنا ندخل الغرب الاميركيّ الذي طالما حلمتُ به. لكنه لم يكن «غرب» هوليوود ولا «غرب» المضائق الأسطورية لمدينة نيويورك، بل بلدة صغيرة يلفّها الصمت، تبدو غير مأهولة، استحال عليّ تمييز طابعها في ذلك الصباح من على سطح ساتورنيا.

في نيويورك، أقمنا في فندق كومودور الحديث، ذي الإدارة الكُفُؤة، في الشارع رقم ٤٢ الشرقيّ، وقد أقام فيه أبي عام ١٩٤٦ لقربه من مكاتب شركة «رويال» للآلات الطابعة الواقعة عند تقاطع رقم ٢ پارك آڤِنيو مع الشارع رقم ٣٤. انبهرنا جميعًا بالكفوف البيضاء في أيدي عمال المصاعد، وطبعًا بالسرعة المذهلة التي بها نصعد إلى الطبقة الخامسة والثلاثين وننزل. وكانت حنفية الماء المثلّجة موضع اندهاش.كبير («وديع»، قالت أمي، «لماذا لا يكون لنا مثلها في القاهرة؟ إنها تجعل الحياة أكثر يسراً بكثير». ولكن أبي، كعادتي به وعادة أمي، طوال حياتنا، لم يكن يجاوب إذا اعتقد أنّ السؤال سخيف). الطرقات المستقيمة وغابات البنايات الشاهقة والمِترو الضاج السريع واللامبالاة العميقة لمُشاة نيويورك، وطبعُهم الجلف أحيانًا – كل هذه تتناقض تناقضًا شديدًا مع طابع القاهرة الانسيابيّ، اللاهي، الأقل تنظيمًا من نيويورك وإنْ يكن أكثر منها أمانًا. في نيويورك، لم يأبه بنا أحد، وهو إنْ فعل، كما تقول أمي، فإنه سوف يعاملنا باستعلاء بسبب الإعاقة التي تنمّ عنها لهجتُنا ومظهرُنا الفائق التأنق. وهذا ما شعرتُ به عند زيارتنا الخامسة إلى محلات «هورن وهاردارت للخدمات الآلية» في الشارع رقم ٤٢، حيث قمت برحلات متكررة إلى آلة تصريف الحليب ونسيتُ لمرتين متتاليتين أنْ أضع كوباً تحت الحنفية، فصرت فرجةً لمن يتفرّج فيما أنا أشاهد الحليب يتبدد في وعاء التصريف،

ولمرتين متتاليتين أيضًاحسبتُ الزبدةَ المصفّاة حليبًا عاديًا فتركتُ الكوب الذي دفعتُ ثمنه قابعًا بلا سبب على الكونتوار.

قمنا بجولات سياحية أسبوعًا بأكمله زرنا خلاله متحفَ المتروپوليتان ومرصدَ هايدن الفضائيّ وكاتدرائية القديس پاتريك وسانترال پارك. وحدها قاعة الاحتفالات الموسيقية في راديو سيتي استحوذتْ على اهتمامي، لا للعرض المسرحيّ الباهر بقدر ما كان ذلك لفيلم «موعد مع جولي» من تمثيل جين پاول وجورج برِنت وكارمن ميراندا ولوريتز ميلتشيور. هذا ما توسمته في أميركا: عالم مصوّر بالتكنيكالر الباذخ. وفيما انا أهرع لاحتلال مقعدي المخمليّ الوثير في الظلمة المغرية، سرعان ما نسيت أميركا البرّانية وقد باتت إشكالية بسبب الخبر عن حاجة أبي لإجراء عملية جراحية في أيلول/سبتمبر والضرورة الملحة لتدبّر أمر الأولاد خلال الشهر أو الأسابيع الخمسة القادمة. وأذكر زيارة طويلة إلى مجلة پيرانتس في جادة ڤاندربلِت، تصفحتْ أمي خلالها دليليْن للتخييم، واحدهما للصبيان والآخر للبنات، واختارت فيهما معسكريْن اثنيْن (ماراناكوك، في ولاية ماين، لي، وموپمادايو، أيضاً في ماين، لرُوزي وجين) وسجّلتْ طلبات سريعة بواسطة الهاتف ثم قمنا بالتسوّق في محلات «بِستْ آند كو» حيث تجهزنا بما يلزم من معدات التخييم. وفي اليوم التالي، كنا نستقل قطار بوسطن آند ماين الليليّ، المتجه نحو پورتلاند، من محطة غراند سانترال.

ذاكرتي عن وصولنا إلى مقصدنا باكرًا صبيحةَ اليوم التالي يشوبها التشوّش. لم يَعْلق بها غيرُ نوع من الخَدَر، هو شعورٌ بالوهن باهت، لأنها أول مرة في حياتي أنفصل فيها عن والديّ كليهما لفترة من الزمن. قارنتُ بين زيّ والديّ ولهجتهما ووقفتهما المطمئنة وبين آي. بي. دُول (مساعد قائد المخيّم، المكنّى آي. بي) والمستر هايلمان، اللذين استقبلانا في پورتلاند لاصطحابي إلى ونثروب، على مسافة بضعة أميال من المخيّم، وهما مرحان بالتأكيد ولكنهما منفّران كليًا، كلاهما يرتدي بذلة قطنية مخطّطة وحذاءً أبيض. تمت عملية التسلّم والتسليم: قبلة من أمي، وعناق وجيز ومعانقة غامرة من أبي مرفقة بـ«حظًا سعيدًا، يا بُنيّ». ثم قادني الرجلان في صمت كامل، أنا في مؤخرة سيارة الستايشن، وهما في المقدمة.

أمضيتُ شهرًا كاملاً في ماراناكوك وصلني خلالها من والديّ ما لا يزيد عن رسالتين وبطاقة بريدية واحدة (من شيكاغو). أقمتُ في كوخ خشبيّ مع ستة صبيان آخرين من مثل عمري (١٢ سنة)، والمستشار جيم موراي في السابعة عشرة. وجدتُني أنساق مسرورًا مع الروتين اليوميّ: ممارسة الحِرَف، ركوب الخيل، السباحة، لعبة الحدوة والوتد، السوفت بول، التجديف. وبدا التتابع المتواصل للأحداث كأنه تكرار لحياتي العجولة المرتبكة في القاهرة. ولما كنتُ أضخم وأقوى بُنيةً من معظم المخيِّمين «التكميليين»، فسرعان ما اكتسبتُ سمعةَ اللاعب القويّ في فرقة السباحة والسوفت بول وسُمّيّتُ «إدْ سعيد، المعجباني». اثنان من زملائي في الكوخ تركا انطباعًا طويل المدى عليّ، هما جون بايج، النيويوركيّ الحنون، وتوم ميسّر، المتكلّف العصبيّ والمهذار الذي يبلّل سريره كل ليلة فيَلْزَم تزويدُه بخدمةٍ خاصة لتغيير الأغطية. وساد التجربةَ لونٌ من البلادة، إلى أن أعاد حوارٌ مقتضبٌ تذكيري بهويتي الأجنبية القلقة والموقتة جدًا.

ففي بعض الأماسيّ، كنا نجدّف إلى جزيرة في وسط بحيرة ماراناكوك للنزهة ورواية الحكايات والغناء حول النار. وكانت تلك الليلة بالذات داكنةً، كئيبة، صقعة، رطبة، بل مجافية. وقفنا ننتظر إشعال النيران وتجهيز المارشميلوز والهوت دوغز للشواء، وأنا يتملكني شعور بالوحشة اللاهادفة. أين أنا؟ ما الذي أفعله هنا في مخيّم أميركيّ لا صلة له البتة بهويتي أو حتى بما صرتُ إليه بعد ثلاث سنوات من ارتياد مدرسة أميركية في القاهرة؟ والطعام شحيح: نقانقة هوت دوغز واحدة، وأربع قطع مارشميلوز، وسكبة من سلطة البطاطس. بعد أن توزعنا الطعام، طافت المجموعة نحو الشاطئ حيث كان بعض الغناء المتقطع. أحد المستشارين الاكبر سنًا – وهو رجل في منتصف العمر تخترم شعرَه خطوطٌ من الشَعر الأبيض تُذكِّر بالهنود الحمر الأميركيين الأشرار في أفلام رعاة البقر الهوليوودية – أخذ يروي حكايةً عن مستعمرة من النمل الأحمر تخترق أذن المرء وهو نائم ثم تنخر له دماغه.

ابتعدتُ على قلق عن الحدود الكريهة الغريبة للحلقة المتحلّقة حول الراوي، واتجهتُ نحو نار العشاء التي يتوهّج جمرُها بهدوء. ألفيتُ بقية من الهوت دوغز على المائدة، وكنتُ جائعًا، فلم أجد غضاضةً في أن أفترس نقانقة منها، وأقدمتُ على فعلتي بخفة حتى لا ألفت انتباه أحد. وعندما جدّفنا عائدين إلى المخيم أشار إليَّ

موراي أن أتبعه خارج الكوخ على طريق البحيرة. «اِسمعْ، لقد شاهدتُك تلتهم نقانقة الهوت دوغز»، هكذا بدأ حديثه فيما أنا مسمّر في مكاني في خجل معيب أعياني عن الكلام. «تلك فعلة جبانة. جميعنا تناول نقانقة هوت دوغز واحدة، فما يجعلك تعتقد أنك تستطيع الإفلات من سرقة نقانقة ثانية؟». صمت لثوانٍ معدودات. لم أستطع تمييز وجهه في الظلمة، ولكنني كنتُ على يقين من أنه حانق، مستنكِر، بل يغلي حقدًا. «إذا أنت لن تنضبط وتتصرّف كسائر الصبية، فسوف أُبْلغ دُول وهايلمان أن يعيداك إلى أهلك. لا نريد هذا النوع من التصرّفات هنا».

وجدتُني كمن يتعثر على حافة هاوية، أتأتئ الاعتذارات وآتي الأعذار الغبية وأتضرع إليه ألا يطردني وبئس المصير. وتخيّلتُ دموع أمي وغضبها القاطع المتوقع، وتراءى لي أبي يشير إليّ أن أدخل الغرفة لتلقّي الفلقة. في تلك اللحظات، لم أكن أدري أين والداي، على أني تصوّرت أنهما سوف يقضيان أيامًا عدة من الهواجس المروِّعة في الطريق إلى پورتلاند لاستعادتي، كما تصوّرتُ المزيد من التعيير والعقوبات الأشد قساوةً ومزيدًا من القلق والشعور بالذنب.

لكنّ هذا كان آخر تأنيب تلقيتُه من موراي، الذي طوته ظلمةُ الليل وتركني لأعود أدراجي وحيدًا إلى سريري الرطب القاسي. واقتضى الأمر سنوات عدة لأكتشف، بعد مطالعتي ستاندال، أنّ جوليان سوريل يعاني انحرافًا مشابهًا، فهو إنْ جابَهَتْه تحديقةٌ مباشرةٌ من قسيس، يشيح بنظره عنه. وشعرتُ أني أجنبيّ مَعيبٌ في عالمٍ تَرْغب مسّ كلارك وموراي في إقصائي عنه. فالانتماء القوميّ والبيئة والأصول الحقيقيّة والأفعال السابقة هي مصادر مشكلتي، فلم أعثر على طريقة ناجعة لطرد الأشباح التي ظلّت تطاردني من مدرسة إلى مدرسة ومن جماعة إلى جماعة ومن حال إلى حال.

وهكذا فمنذ إقامتي الأميركية، صممتُ أن أعيش وكأنني نفسٌ بسيطة شفافة، فلا آتي على ذكر عائلتي أو أصْلي إلا حسب الأحوال وباقتضاب شديد. بعبارة أخرى، قررتُ أن أكون مثل الآخرين، مجهولاً قدر المستطاع. فتعاظَمَ الانشقاقُ بين «إدوارد» (أو «سعيد»، كما سوف أُسمّى قريبًا) أيْ بين شخصي البرّانيّ العموميّ، وبين التحولات المتسيّبة والمضطربة والمسكونة بالاستيهامات لحياتي الذاتية الجوانية. لاحقًا، تزايَدَ هيجانُ نفسي الجوانية بوتيرة متسارعة وصارت أكثر استعصاءً على الضبط.

أما باقي الأوقات في ماراناكوك فكانت روتينية إلى حد كبير، فلم أعد أستمد أية متعة من المكان ولا من زملائي في المخيّم. لم يعاود موراي الحديث معي، وإنْ فعل فبشقّ النفس، وأنا لم أبادره بالكلام. وقد رمزتْ تجربة لاحقة إلى خاصية مخيّم صيفيّ فَقَدَ متعته أو مبرره بالنسبة إليّ وبات فارغًا بل مرهقًا. فقد كنا في رحلة ليلية في القوارب لأترابي، تضمنتْ حمل القوارب من بحيرة إلى بحيرة عبر غابات ماين الموحشة، كما تضمنت التجديف لمسافات طويلة عبر مساحات شاسعة حارقة من البحيرات ذات المياه البُنّية اللون. كنتُ أجدِّف في مؤخرة القارب فيما أحدُ أعضاء المخيّم يجدف في المقدمة، وبيننا تَمَدُّد مرتاحًا المستشار آندي، ذو اسم العائلة التشيكيّ الطويل، في ثوبِ سباحةٍ أحمر لَمّاع يحتذي «الموكاسان» ويدخّن الغليون وقد ظل قابعًا في مكانه لساعات يطالع كتابًا لم أستطع فك رموز عنوانه ولا التعرّف إلى محتوياته. والغريب في أمره أنه بعد أن ينهي قراءة صفحة بتمرير إبهامه اليسرى عليها بسرعة من فوق إلى تحت، ينتزع الصفحة بانتظام من الكتاب ويكوّرها في يده ثم يرمي بها بلامبالاة في البحيرة. تأملتُ، لبرهة، ذلك الموكب من الكُتل الورقية المتماوجة على سطح الماء من ضحايا عادات آندي الغريبة في المطالعة، متسائلاً باندهاش عما تعنيه. ولما لم أحر جوابًا، معقولاً أو محتملاً على الأقل (عدا عن أنّ الشاب لا يريد لأحد أن يقرأ الكتاب مِنْ بعده)، عزوتُ فعلته إلى وجه من وجوه الحياة الأميركية يستعصي فهمُه. وفي أيّ حال، أذْكر أني فكرتُ لاحقًا في أنّ تلك التجربة تكتسب دلالتها من عدم رغبة المرء في أن يَتْرك أية آثار تخلفه، وفي العيش بلا تاريخ أو بلا إمكانية للعودة إلى الوراء. وبعد اثنتيْ عشرة سنة، قدتُ سيارتي إلى موقع ظننتُ أنه كان موقع مخيم ماراناكوك، فكان كل ما تبقى من أبنيته مجموعة أكواخ خشبية مهجورة وقد حُوّلتْ إلى «موتيل» ثم إلى منتجع صيفيّ للمتقاعدين، ثم أُهملتْ، حسبما روى لي الحارس الطاعن في السن في داون إيست ولم يكن قد سَمَعَ عن مخيّم ماراناكوك من قبل.

أمضينا النصف الثاني من آب/اغسطس وأول أسبوعين من أيلول/ سبتمبر في نيويورك. خلالها أقام أبي في جناح هاركْنِس في مستشفى كولمبيا البرسبيتيريّ، وأقمتُ أنا وأمي في شقة مفروشة في بناء مجاور. أما شقيقتاي فنزلتا عند إميلي، أرملة عمي آل، وأولادها الثلاثة، آيب (آيبي) وتشارلي ودوروثي،

وجميعُهم يكبرونني بعدة سنوات، وينتقلون يوميًا من منزلهم في «كوينز» للعمل في مهن مختلفة في مانهاتان. وكان أبيي موظفًا في أحد المصارف، وتشارلي عند «فوسترز» وهو محل بيع أقلام الحبر في الشارع رقم ٤٢، ودوروثي في شركة «دونيللي» (لطباعة أدلّة الهاتف) في «وال ستريت». تمحورتْ رحلتنا الأميركية حول العملية الجراحية التي أُجريتْ لكُلْية أبي. على أني لم أدرك رهبة الخطر الذي تنطوي عليه المجازفة التي نوشك على خوضها، إلا عشية إجراء العملية. كانت تلك هي الأزمةَ الصحيةَ الثانية التي يتعرّض لها أبي خلال حياتي المبكرة، ولكنها المرة الأولى التي أحسستُ فيها باحتمال وفاته والعيش من دونه. ووقعت الأزمة الثالثة بعد ذلك بثلاث عشرة سنة فكانت الأسوأ بما لا يقاس. على أنّ أزمة العام ١٩٤٨تلك أربكتني أيما ارباك وملأتني بالتوجّس والتألم لحاله واستحوذتْ عليّ لما أَرْهصتْ به من احتمالات اليأس والوحشة اللاحقيْن.

قبل الجراحة بيومَين، دعا والداي فؤاد صبرا، الطبيبَ اللبنانيَّ الشاب الذي يتخصص في طب المسالك البولية والمقيم في مستشفى كولمبيا البرسبيتيريّ، إلى العشاء في مطعم «أرز لبنان» في الشارع رقم ٢٩. وقد رتّب فؤاد لوالديّ أن يلتقيا، بعد العشاء، بزميلٍ له أوستراليّ يدعى فْرِد، على ما أَذْكر، يعمل في جراحة المسالك البولية برئاسة جون لاتيمر، الجرّاح المرموق الذي سوف يجري العملية لأبي. بحماس الخبير المبتدئ، تبرّع فْرِد أن يَبْسط أمامنا كلَّ الأخطاء المتوقع حصولُها خلال الجراحة كلها، من التهابات ومضاعفات قلبية ونقصٍ في الدورة الدموية. فأَرْعب أبي الذي كان، وفقاً لطبعه، يرى إلى المحنة الداهمة أمرًا مثيرًا للقلق الشديد لكنه ضروريّ، فيما رأينا إليها، أنا وأمي، أمرًا ينبغي تجنّبه أو تأجيله بأيّ ثمن. بذل فؤاد المسكين محاولات يائسة لإسكات صديقه أو على الاقل للتخفيف من رغبته العنيدة في إعطاء الانطباع الجيّد عن نفسه، أو حَرْفها في اتجاه آخر، ولكنْ عبثًا حاول. ولسنوات لاحقة، وبعد أن عاد فؤاد إلى لبنان وتزوج إيلين بدر، ابنةَ عم أمي الصغرى، وصار أستاذًا مرموقًا ومتخصصًا في طب الأعصاب في الجامعة الأميركية في بيروت، ظلت الأمسيةُ التي قضيناها مع فرِد أمثولةً تُحتذى عما لا يجوز إتيانُه قبل إجراء عملية جراحية، وهي أمثولة راح يتندر بها فؤاد وأبي معاً وتثير لديهما الضحكَ الصاخب والمزاحَ العابث.

على أنّ الجراحة تكللتْ بالنجاح. فقد وجدوا كيساً في الكُلْية وما من ورمٍ خبيث، لكنهم قرروا استئصال الكلية كلها، مخلّفين جرحًا كبيرًا يزنّر خصر أبي من وراء إلى امام. بعدها، مكث أبي أسبوعين في جناح هاركنِس واستخدمتْ أمي ممرضًا إنكليزيًا يعتني به، وكنتُ أرافقهما في نزهة أبي على الكرسيّ النقّال. عدا ذلك، لم يبقَ لي غير المراقبة الصامتة، قابعًا في غرفة الانتظار المجاورة ساعاتٍ طويلة، في حين كانت أمي تجالس أبي قرب سريره. وهكذا فإنّ مقاربتي الدرامية لحدثٍ على جانب كبير من الخطورة ما لبثتْ أن تراجعتْ ثم تحولّتْ، مثلها مثل سقوط فلسطين، إلى ظروفٍ ما بعد جراحية تستدعي الاهتمام الكبير بصحة أبي وتعافيه، وما لبثتْ أن استوعبتها وتيرةُ حياتنا المستمرة. فسرعان ما تحولتُ الى مراقب هامشيّ للممرّض وأبيَ يسيران إلى جنب الكرسيّ النقّال يتبادلان الحديث بعبارات مقتضبة. وتاليًا، عندما انتقلنا لقضاء شهر في إسِكس هاوس الفخم من أجل «نقاهة» وديع (وهي مفردة جديدة راح يلفظها أبي بشغف كبير) وأخذ يستقبل زواره من جماعة شركة «مونرو» و«رويال» للآلات الطابعة و«أقلام شيفرز»، مصرًا على أن أكون «هناك» مع أني لا أملك أن أقدِّم شيئًا لاجتماعاته، وجدتُني شاردًا ومستسلمًا لأحلام اليقظة، لا آتي إلا القليل مما يحمل تشويقًا أو فائدة ما .

حذّرنا بَوّابٌ مُوَسْوَسٌ من التنزّه في سانترال پارك. فكنتُ كلما استطعتُ التفلّت من فروض الأهل، ألجأ إلى شوارع نيويورك المنظمة والصاخبة (أو هكذا بدت بعد تجربة ماراناكوك): المشاة، والمحال التجارية المنتشرة في كل مكان، وسرادق المسارح ودور السينما، والصالات المنمنمة التي تَعْرِض الأشرطة الإخبارية، والأعداد الطاغية من السيارات والباصات الجديدة، والضجيج الاستثنائيّ للمترو، والبُخار المتصاعد من أغطية فتحات المجارير، وأفراد الشرطة الخدومون (ونظراؤهم في القاهرة فلاحون، كما يقول والداي، وهو ما يفسّر جهلهم أسماء الشوارع). حوّلتني ضخامةُ نيويورك الهائلة، وبناياتُها الشاهقة الصامتة والمغْفلة، إلى ذَرّة تافهة، فأخذتُ أتساءل عن موقعي من كل هذا، فإذا عدمُ اكتراث أحدٍ بوجودي يمنحني شعورًا غريبًا، وإنْ يكن موقتًا، بالتحرّر لأول مرة في حياتي.

وكانت فلسطين تلوح كلمح البصر ثم تختفي سريعًا من حياتنا النيويوركية. في ذلك الصيف، سمعتُ لأول مرة عن تأييد الرئيس ترومان للصهيونية، حين كان

أبي يقلّب صفحات الجرائد ذاتَ صباح في إسِكس هاوس. منذ ذاك الوقت اكتسى اسمُ ترومان عندي طاقة تعويذية شريرية، ما أزال أستشعرها إلى الآن. ذلك أني، مثلي مثل جميع فلسطينيي الأجيال الثلاثة الأخيرة، ألومه على دوره الحاسم في تسليم فلسطين للصهاينة. وخلال ما لا يزيد على ساعة من عودتنا إلى القاهرة، نهرني أحدُ أقربائي اللاجئين الأكبر سناً بنبرة اتّهام: «كيف لك أن تحبّ ثورمانَك هذا؟ كيف تحتمل كائنًا من أمثاله؟ لقد دمّرنا!». (لفظ اسمه بالعربية وكأنه يتحدث عن «ثور» وهو الوصف الذي نستخدمه في بلادنا لامرئ عنيد وماكر). وروى لي أحدُ عمومتي، ولم تطأ قدماه أرضَ نيويورك، أنّ المراهقين في «روكفلر سنتر» كانوا يجمعون المال تحت يافطة تقول: «اِدفعْ دولاراً، تقتلْ عربيًا». وأراد مني أن أتحقق له من تلك الرواية، فلم أستطع ذلك.

لما عدتُ إلى الولايات المتحدة بعد ذلك بسنوات وأقمتُ فيها منذ ذلك الحين، صرتُ أشعر بتمايز أكبر في العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل أكثرَ مما يشعر به أبناءُ جيلي من الفلسطينيين الذين لا يرون في الولايات المتحدة إلا قوةً صهيونية وحسب. وهم لا يجدون، في المقابل، أية غضاضة في أن يرسلوا أبناءهم إلى الكليات الأميركية وأن يتعاملوا تجاريًا مع كبريات الشركات الأميركية. إلى العام ١٩٦٧، نجحتُ في أن أفْصل ذهنيًا بين الدعم الأميركيّ لإسرائيل وبين كوني مواطنًا أميركيًا يمارس مهنته في الولايات المتحدة وله أصدقاء وزملاء يهود فيها. إنّ عيشي بعيدًا عن فلسطين التي نشأتُ فيها، وصَمْتَ عائلتي عن دورها في حياتنا، ثم اختفاءَ فلسطين لفترة طويلة من حيواتنا جميعًا، ومجاهرَةَ أمي بانزعاجها من الموضوع وكراهيتها العدوانية اللاحقة لفلسطين وللسياسة في آن معًا، وانقطاعَ صلتي بالفلسطينيين خلال أحد عشر عامًا من الدراسة في الولايات المتحدة – هذه كلها سمحتْ لي بأن أعيش حياتي الأميركية المبكرة على مسافة بعيدة من فلسطين النائية الذكرى، بما هي حسرة مستمرة وغضب مبهم. ولقد كرهتُ ترومان على الدوام، على أنّ هذا الشعور يوازنه إعجابي المستغرَب بمواقف آيزنهاور الحاسمة عام ١٩٥٦. ولقد أثارت اليانور روزفلت استنكاري لتأييدها الحماسيّ للدولة العبرية. وعلى الرغم من نزعتها الإنسانية التي كثيرًا ما تباهتْ بها، بل روّجتْ لها ترويجًا، فإنني لم أستطع أن أغفر لها عجزَها عن توفير نُتْفَة صغيرة من نزعتها الإنسانية

للاجئين الفلسطينيين. ويصح الأمر ذاته على مارتن لوثر كِنغ الذي حملتُ له إعجابًا حقيقيًا، ولكنني لم أستطع أن أسبر أغوار حرارة حماسه لانتصار إسرائيل في حرب حزيران ١٩٦٧، ولم أغفر له.

وأظنّ أن رحلة العام ١٩٤٨ شرّعت الأفق السياسيّ الأميركيّ أمام حياتنا القاهرية. وهو موضوع كان والداي يشيران إليه كثيرًا. وأضحت دوروثي طومسُن كاتبةً مهمة بالنسبة إلينا، لأنها ظهرتْ في القاهرة لمناسبةٍ حضرها والداي من جهة، ومن جهة ثانية، لأنّ أمي اشتركتْ في مجلة **لايدِز هُوم جُورنَل** تقرأ فيها بين الحين والآخر مقالاتها المؤيّدة للعرب. ومع أني لم أقرأ لها أيّ نص، فإنّي أذْكُر جيدًا التقديرَ الإيجابيّ الذي ارتبط باسمها وأيضًا باسم إلمر بُرغر وبعد بقليل، باسم ألفرد ليليانثال، وكلاهما يهوديّ مناهضٌ علناً للصهيونية. على أنّ ذكرياتي عن هذا كله ضعيفة ومتقطعة. فأنا أستذكر بحيوية ومباشرةٍ أكبر محلات «دافيغا» التي تعجّ بها منطقةُ وسط المدينة، حيث كنا نشتري قمصان وكُرات البيزبول من صنع ڤان هاوزن أو الردهات الواسعة لشركة بِست آند كومباني في الجادة الخامسة حيث نتجهز أنا وشقيقاتي للمخيّم أو مقاهي شرافْت المتنوعة التي تؤْثِرها أمي لتناول الغداء أو احتساء قهوة بعد الظهر.

عدنا إلى مصر على متن باخرة إكسكاليبور ذات الدرجة الوحيدة التابعة لشركة اميركان إكسپورت لاين، وهي أصغر حجمًا من ساتورنيا وأقل فخامة. مقصوراتها متواضعة عديمة الجاذبية، تنقسم إلى مضاجع عليا ومضاجع سفلى شحيحة النور ولا متّسع فيها للجلوس. وما إنْ أبحرنا من نيويورك في أواخر أيلول/سبتمبر حتى دهمتنا عاصفة استوائية متوحشة أقعدتْ أبي في مهجعه، وجرحُه لم يندمل بعد، وأمي وشقيقاتي في مهاجعهنّ، يتشاركون في الأنين من دوّار البحر الحَادّ. فوجدتني وحيدًا تقريبًا خلال ثلاثة أيام ونصف اليوم. ومجددًا، لم يؤثِّر ترجّح السفينة في معدتي أو نفسيتي، مع أنّ وجودي وحيدًا في مثل ذلك الوقت على ظهر سفينة تدار بطريقةٍ أكثر صرامةً من «ساتورنيا» منعني من مغادرة المكتبة أو قاعة الاستراحة للصعود إلى السطوح حيث تعوّل الرياح. فاضطررتُ إلى تناول وجبات الطعام من ساندويتشات وأكواب حليب وحيدًا في «البار» برفقة نادلٍ مكتئب المظهر. على أنّ الأيام الأخيرة من رحلتنا إلى ميناء الإسكندرية كانت رائقة

بلا أحداث تُذْكر، وبدت فيها الولايات المتحدة تتوارى بعيدًا عنا مثل محطةٍ انتقالٍ توقفنا فيها برهةً قبل أن نستأنف رحلتنا الرئيسية التي هي رحلتنا في القاهرة وفي لبنان على نحو متزايد.

نادراً ما ذُكِرَتْ فلسطين، الوطنُ الضائع، مجددًا، إلا مرة واحدة خلال عامي الأخير في المدرسة الأميركية عندما أدركتُ فجأةً، إثر حوار صاخب عن جو لويس وجيرسي جو والكوت، معنى إشارة صديقي ألبرت كورونل عندما تحدث باحتقار عن «ستة ضد واحد»[1]. صدمتني العبارة لأنها ناقضتْ ما اعتقدتُه ضمنًا من أنّ فلسطين سَلَبنا إياها أوروبيون جاؤوا مع الإنكليز (وجاؤوا بعدهم أيضًا) وكانوا أقوى منا وأفضل تنظيمًا وأكثر حداثة بما لا يقاس. وقد صعقني أنّ صديقًا حميمًا مثل ألبرت - زاملني لفترة مع شقيقته الكبرى كوليت في «إعدادية الجزيرة» وانتقل بعدها إلى «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» لخشية عائلته (اليهوديةِ الحاملةِ جوازات سفرٍ إسبانيةً) من مخاطر فترة ما بعد ١٩٤٨ على أطفالها في بيئة عربية - يبدو له سقوطُ فلسطين مجرّد فصلٍ آخر من فصول العداء لليهود. وما أزال أذكر إلى اليوم شعوري المباغِت والمبهم بالنفور منه، يرافقه شعورٌ مرتبك (ومتناقض) بمشاركتي إياه رأيَه في تقاعس أولئك الـ«ستة» وتوحشهم. فقد كنتُ أعاني أنا نفسي فصامًا تجاه فلسطين، ولم أنجح في محاولاتي تجاوزه ولا أنا أدركتُه تمامَ الإدراك إلا مؤخرًا، عندما أقلعتُ عن المحاولة. وحتى في هذا الوقت الحاضر، فإنّ ذلك الازدواج المستمر في نظرتي إلى المكان وإلى خسارته المحزنة بالاقتلاع المركّب والتمزيق (كما يعبِّر عنها العديدُ من الحيوات المشوّهة، بما فيها حياتي)، ونظرتي إلى موقع فلسطين بما هي بلد رائع لهم هم (وطبعًا ليس لنا)، يوجعني على الدوام ويورثني شعورًا محبطًا بأني وحيد وأعزل ومعرّض لاعتداءاتِ أشياء تافهةٍ، تبدو مع ذلك هامة وخطيرة، ولا أملك تجاهها أيَّ سلاح.

ومن أسفٍ أن سَنَتي الأخيرة في المدرسة الأميركية عام ١٩٤٨-١٩٤٩ في الصف التاسع كانت محدودة من الناحيتين المدرسية والاجتماعية. كان لي اربعة

---

١ - لويس ووالكوت ملاكمان اميركيان. اما معادلة «ستة ضد واحد» فهي تشير الى الدول العربية الست التي دخلتْ جيوشُها فلسطين رداً على إعلان دولة إسرائيل في أيار ١٩٤٨.

زملاء صف فقط ومعلّمة رئيسية واحدة، هي مِسِ بْرِيز، الكهلة التي تصاب برعدات مخيفة عندما تغضب. علّمتنا علم الأحياء والحساب واللغة الإنكليزية والتاريخ، في حين أنّ اللغة الفرنسية واللغة العربية كان يعلّمنا إياهما معلمون محليون يَصْعب وصفهم، لأنّ محلّهم في البرنامج أقرب إلى الاستراحة منه إلى التعليم. ولما لم يكن في المدرسة صفٌ عاشر، فقد تقرر نقلي إلى مدرسة أواجه فيها «التحدي»، بحسب تعبير مِسّ بْرِيز في رسالة إلى أبي. فتقدمتُ لامتحان دخول إلى «المدرسة الإنكليزية» في هليوپولِس، ذكّرتْني أسئلتُه العديمة التشويق بمدى تخلّف معارفي عن «مروج إنكلترا الخضراء» قياسًا إلى المستوى المطلوب. فلم تحمل سنواتي في المدرسة الأميركية فائدة ترجى لتأهيلي لتلك البيئة الجديدة. فآثرتُ الانتساب إلى «ڤكتوريا كولدج»، بجوّها الذكوريّ المشاكس (وقد قَبِلَتْني بلا عناء) على الموقع المتقدم الذي تُمثله «المدرسة الإنكليزية»، الغالية الأقساط ولكن المجافية، أو هكذا بدا الأمرُ لي. هكذا، حُرِمتُ، لأنني الأجنبيّ والمختلِف، من الاستئثارية النخبوية لـ«المدرسة الإنكليزية» خلافاً لشقيقاتي اللواتي كنّ أمثلة باهرة على الطالبات المجتهدات، المحبوبات، اللائي لهنّ صديقاتٌ عديداتٌ يزُرننا في البيت لتناول الشاي أو الاحتفال بأعياد الميلاد.

كنتُ متعبًا أكثر من أيّ وقت مضى في ذلك الربيع الأخير في «المدرسة الأميركية» التي بدت لي أشبه بمَدْرسة من صف واحد تديرها بجلبة مِس بْرِيز، الكلّيةُ الحضور والغريبةُ الأطوار، منها بمؤسسة حقيقية. وقد غادرها جميعُ التلامذة الكبار – ستان هنري، ودوتش فون شيللِنغ وشقيقته، وبوب سيمحا، ومارغريت اوزبورن، وجان بادو – ومثلهم فعل العديد من المعلمين خلا، طبعًا، الكائنات التي تجاوزتْ سنّ التقاعد ولم تعد تجد عملاً من أمثال مِس بلو ، كما كنا نسمّيها.

في الوقت ذاته، كنتُ أُعالِج الجوانب الأخلاقية والروحية من شخصيتي بحضور دروس التعليم الدينيّ الأسبوعية في «كاتدرائية جميع القدّيسين» في شارع ماسپيرو. والكنيسة جزءٌ من مجمّع كبير يواجه النيل إلى الشمال قليلاً من ثكنة الجيش البريطانيّ في قصر النيل (وهي الآن موقع فندق النيل– هيلتون). تقع أمامها ساحةٌ مهيبة يفضي إليها طريق احتفاليّ خاص يَسْمح للسيارات بالوصول إلى بوابات الكاتدرائية الرئيسية. والمكان كله يوحي بالجبروت والثقة التامة، وهما أبرز

السمات المميزة للحضور البريطانيّ في مصر. وعلى جانبي الكاتدرائية ملحقاتٌ للمكاتب ولسكن العاملين، بمن فيهم أسقفٌ ورئيسُ شمامسة وعددٌ من القساوسة، وجميعُهم من البريطانيين. وقد اختفت تلك الأبنية جميعها في أواخر الثمانينيّات عندما بُني محوّلٌ للسَير عبر النيل.

على يد الأب فيدِن، الذي قدّمه لي والداي رجلاً قدسيًا يحسده الآخرون أيما حسد، والأسقف آلان، المسؤول الرسميّ عن التعليم، تعلّمتُ أن أحب (وأن أستذكر إلى الآن) كلاً من «كتاب الصلوات للعموم» والمقاطع الأساسية من الأناجيل، ومن إنجيل يوحنا خصوصًا. وبدا فيدِن أقرب إلى القلب وأكثر إنسانية من الآخرين، على أني ظللتُ أشعر أنّ الهوة بين الرجل الأبيض والعربيّ تفصل بيننا في نهاية المطاف، ربما لأنه في موقع السلطة ولأنّ التعليم يتم بلُغَته هو لا بلُغتي. لستُ أذكر شيئًا من مضمون التعاليم الدينية الأسبوعية، لا شيء إطلاقًا. ولكنّي أذكر بالتأكيد سيماء الصدق والإخلاص على وجه فيدِن وهو يتلو «في البدء كان الكلمة»، مثلاً، أو يشرح قانون الإيمان كما ورد في الرُسُل: «وفي اليوم الثالث، قام من بين الأموات وصعد إلى السماء وجلس على يمين الآب»، أو يحلّل أوجهًا من الثالوث الأقدس. ولا أزال أحتفظ بنسختي من «كتاب الصلوات للعموم» منذ ذلك الحين، مع أني لا أقرأ فيه إلا كوسيلة للتحسّر على ابتذال «النسخة المعتمدة الجديدة والمنقحة»، أو أياً ما باتوا يسمّونها الآن.

زميلي في التعليم الدينيّ طالبٌ في الجامعة الأميركية يكبرني بثماني سنوات أو تسع. إنّه القبطيّ ذو النظارات، جيمي بيشاي، الذي دفعه اهتمامُه بعلم النفس، لسبب ما، إلى السعي لاعتناق المذهب الأنغليكانيّ. يتساجل وفيدِن، بين حين وآخر، في مسائل [دينية] يعتقد بيشاي أنها تستطيع أن تكون أكثر «تجريبية» (وهي كلمة لم أكن أعرف معناها حينها فشرحها لي بصبر ذاتَ يوم ونحن نغادر الصف) وأقلّ اعتمادًا على الإيمان أو الرؤيا؛ في حين يدافع فيدِن دومًا، وبنفاد صبر في النهاية، عن الغموض والعنصر الدراميّ للنص الدينيّ واستعصائه على التفسير. أعجبتُ بعقيدة فيدِن وإنْ لم أوافقه عليها موافقة تامة، لاسيما أنّ اهتمامي بالأمر كان ناجمًا عن تصميم أهلي على طقس التكريس هذا، لا لأنّ إرادةً ربانية تحركني.

نادرةً كانت إطلالاتُ الأسقف آلان، وكانت تكتنفها الكآبة وتثبيطُ الهمم. علمتُ أنه درّس في جامعة أُكسفورد او أنه كان شخصية دينية جليلة ثم ترقّى مع الوقت ليصير الأُسقف جِفْري آلان، رئيس أُسقفية مصر والسودان وبلدٍ آخر غاب عن بالي (ولعله اثيوبيا)، يتمتع بسلطة واسعة وموقع تنفيذيّ. لم أشاهده مرة إلا مرتديًا إحدى جُبَبه القرمزية، يوحي بالبُعاد المتعالي، بل اللامبالاة، وبصِلات وثيقة له بالسفارةالبريطانية وبسواها من الشؤون الدنيوية. يبدو رجلاً تنفيذيًا بالكامل، وهو ما يتفارق مع حماس فيدِن للشؤون الدينية. وإذ تشاهد الرجليْن معًا، يتضح لك أنّ آلان لا يكاد يكترث برئيس الشمامسة الأصغر منه سناً. وعندما يتفحصنا (وقد يبدأ بقوله: «فلنلقِ نظرة على معنى القربان المقدّس») ترفرف عيناه بنزق غريب فيما هو منشغلٌ بتناول الشاي، مع أنّ الواضح أنّ المواد الدينية طوع بَنَانه وأنه يستطيع أنْ يلي بيُسر شديد الوقائعَ العينيةَ والمميزات عن جيمس الأول وهوكر وهذا ما تفتقر إليه مجادلات فيدِن. وكان كل ذلك يجري في بلد لا يأتي أحدٌ على ذكر ما يختزنه من تاريخ عريق وزاخر إلى حد مدهش، من الفراعنة وصولاً إلى الملك فاروق.

حصلتُ على التكريس وتقدمتُ لمناولتي الأولى في يوم أحد من مطلع تموز/يوليو ١٩٤٩ في جناح مهيب من أجنحة الكاتدرائية، وإلى جانبي عرّابتي، العمة نبيهة. حضر فيدِن، إلا أنه لعب دورًا ثانويًا في الاحتفال الذي ترأسه الأسقف آلان بما يشبه الأبّهة الشرقية: شموع، وصلوات مرتّلة، وصلبان وصولجانات وتراتيل تجاوبية، وأرغن وخورس وزيّاح وموكب العودة وعدة مراتب من القساوسة الأدنى رتبةً. وكل ذلك من أجلي ومن أجل جيمي بيشاي. وبعد أن تلقّيتُ المناولة بصحبة القدّيسين والمشاركين العاديين، وجدتني أجهد للشعور بأني بتّ كائنًا مختلفًا عما كنته من قبل، فلم أختبر غير شعور متنافر. إذ تبيّن أنّ أملي في اكتساب نفاذٍ ما إلى طبيعة الأشياء، أو إدراكٍ أعمق للإله الإنغليكانيّ، مجردُ أضغاث أحلام. فسماء القاهرة القائظة الخالية من الغيوم، وقبّعةُ عمتي نبيهة الأكبر من المعقول والتي تتربع على رأسها وجسمها المنمنمين، والنيلُ ينساب هادئًا مباشرةً أمامنا في ضخامته اللامبالية فيما نحن وقوفٌ على مصطبة الكاتدرائية – ظلّت هذه الأمور كلها، مثلها مثل حالي، هي هي لم تتغيّر ولم تتبدّل. ويخيّل إليّ أني كنتُ أبحث، ولو على نحو غامض، عن شيء يشيلني من تلك الحالة الانتقالية الغريبة

التي سقطتُ فيها مع نهاية العام الدراسيّ في المدرسة الأميركية وبداية الدروس في ڤكتوريا كوليدج في تشرين الأول/أكتوبر القادم. غير أنّ المناولة لم تكن ذلك الشيء الذي عنه أبحث.

ازداد انغماسي في دوّامة مربكة بين أمي وأبي (وقد ازدادا بعدًا وتطلبًا في آن معًا). والقاهرة آنذاك تعجّ بالأنباء عن اغتيالات واختفاءات. ومع أني كنتُ أُشرِف على عامي الخامس عشر، فقد ازداد القلق في نبرة صوت أمي وهي تحذّرني من التأخر في العودة إلى البيت وتدعوني إلى الامتناع عن تناول أيّ طعام من عربات الباعة أو الجلوس قرب الناس في الحافلة أو الباص. باختصار، كان عليّ أن أقضي معظم وقتي في المنزل، فيما جوعٌ جنسيٌ مستيقظ يثير فيَّ أحلاماً متزايدة التوحُّش عما تغريني القاهرةُ بارتكابه من أفعال. وظل الموضوع الرئيسيّ الثابت، والضامر، في حياتنا هو نشاطَ العمة نبيهة الفلسطينيّ. وعلى رغم التوتر الناشب بين أولادها وأخيها (أبي) فقد ظلت تزورنا كلَّ يوم جمعة لتناول الغداء، وتواصل الاهتمام بتعليمي الدينيّ، كما رمز إليه خاتمٌ حُفِر عليه حرفان – «إ. س.» – أهدتني إياه بعد القدّاس، في ذلك النهار القائظ الخالي من الغيوم. وما أزال أحتفظ بهذا الخاتم إلى الآن.

الفصل السابع

بدءًا بالصيف الذي تلا انهيارَ أبي العصبيّ عام ١٩٤٣ ولسبع وعشرين صيفية متتالية، قضينا معظم تموز وآب وأيلول في قرية ضهور الشوير الجبلية اللبنانية. فهي قرية أحبّها أبي وادّعت أمي أنها تكرهها مع أنها مسقطُ رأس أسرة أمها، آل بدر. وضهور الشوير مصيفٌ مشرورةٌ بيوتُه وفنادقُه على جانبَيْ طريق ضيّقة تتلوى صعودًا حول ثلاث تلال في لبنان الأوسط. أما الشوير ذاتُها فبلدةٌ صغيرة تقع على جانبَيْ طريق تنحدر انحدارًا سحيقًا في الاتجاه المعاكس، تبدأ من ساحة الضهور الرئيسية، وهي المكان العام الوحيد الجدير بالاهتمام، وتنعطف إلى اليسار قرب كنيسة الروم الأرثوذكس، ثم تتعرّج نزولاً إلى الوادي وصولاً إلى قعره حيث تقع عين القسيس. والشوير بلدة مسيحية بالكامل، تمدّ الضهور بالحانوتيين والمستخدَمين خلال موسم الصيف. ولذلك افترضتُ، وأنا طفل، أنّ أهلها يكتفون بملازمة بيوتهم طوال أيام الشتاء الداكنة المثلجة. وكان أقرباء أمي يسكنون في بيروت ويعملون فيها، ولا يزورون مسقط رأسهم إلا في الصيف، عدا واحدًا منهم يلازم الشوير على مدار السنة، هو عمّ والد أمي المسنّ، فارس بدر ذو الشارب الكثّ الذي يرتدي دائمًا وأبدًا نظارة سوداء وبذلة سوداء ويعتمر طربوشًا أحمر ويحمل مظلة سوداء عتيقة.

أمضينا صيفيتنا الأولى عام ١٩٤٣ في الفندق «الكبير» الوحيد في الضهور، فندق القاصوف، الذي يَشْمخ باستعلاء وادعاء فوق تلة قرب نهاية الطريق المؤدية

شرقًا، مسافةَ مِيلَيْن، من الساحة إلى غابة بولونيا، القريةِ المجاورة. والواضح أنّ القاصوف مبنيّ على طراز القصور، بسلالمه الطويلة المنداحة والدربزونات، ويهيمن بكتلته الحجرية الثقيلة الوطأة على القرية والوادي. وفي مطعم القاصوف الرسميّ علمتُ لأول مرةٍ الفارقَ بين النبيذ الأحمر والخلّ، ولمحتُ أول غرفةٍ لِلعِب الروليت والباكاراه. والفندق ملتقى السيّاح السوريين-اللبنانيين القادمين من مصر (الشوام)، أيْ أناس من طبقتنا، إذ يظهر أنّ نهارات الضهور المشمسة الجافة والأصائل والأماسيّ الضبابية الباردة تتفارق كثيرًا عن صيف القاهرة القائظ. مثلنا، كان هؤلاء القوم يقضون أوقاتًا طويلة يذرعون سطيحات القاصوف جيئة وإيابًا، ويجازفون بين حين وآخر بالنزول إلى الطريق الوحيدة التي لا أرصفة لها وعلى جانبيها منحدران سحيقان، مغامرِين بأن تهرسهم سيارةٌ أو حافلة مسرعتان. لا حوانيت بين القاصوف والساحة، والفندق بعيد عن البلدة بما يكفي للحيلولة دون نزهة عرضية إليها. فكنا نلازم أماكننا مع سائر الأطفال والمربّيات والأهل. وفي ذلك الصيف، كانت أمي حبلى بأختي جويس وتقضي معظم أوقاتها في غرفتها، وكان أبي - الذي تكرّس مدمِناً على لعبة البريدج - يقضي الصباح وبعد الظهر في إحدى غرف لعب الورق في الفندق، بل يقضي فيها جلّ أماسيه أيضًا، على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع.

عام ١٩٤٤ بدأتُ أتلمّس الخطوط العريضة لخطة أهلي للعطلة الصيفية، والتي يباشران تنفيذها مع انتهاء الفصل الدراسيّ، مطلعَ الربيع. وإذ يشارف أيار على نهايته، أحدس موعد المغادرة الداهم حدساً، من دون أن يفصح عنه أحد، حين نبدأ بشراء الشُورتات والصنادل الجديدة. ثم نقضي فترات معذّبة في طولها ومُغيظة لكثرة تفاصيلها التافهة في التقاط الصور العائلية مع عجوزين شقيقتين عانستين وصمّاوين صمماً كاملا، ينحصر الاتصال بهما في شخرات ملهوجة وإيماءات محمومة، في شقة من غرفة واحدة شديدة الحرارة في الطبقة الثالثة من مبنى مجاور لفندق شيپارد. ويمرّ علينا الدكتور حداد لوجبة من اللقاحات المضادة للتيفوئيد. وفي يوم محدّد، فجأةً يتشّح أثاث غرفة الجلوس والصالونات بالأغطية القرمزية والبيضاء والخضراء الشاحبة. وحتى العام ١٩٤٨، كنا نتجمّع يوم السفر عند مدخل رقم ١، شارع عزيز عثمان ننتظر قافلة من سيارتين (زيدتا إلى ثلاث

سيارات مع نمو عدد أفراد الأسرة) تقلاننا، ومعنا خادمتان والطبّاخ، إلى محطة باب الحديد حيث نستقل قطار الليل إلى الإسماعيلية أو القنطرة، على قناة السويس. ومنها نَعْبر سيناء في رحلة طويلة إلى حيفا تستغرق الليل بطوله فنصل المدينة في ظهيرة اليوم التالي.

كانت الرحلة في القطار رومانسية وممتعة بما يفوق الوصف. أحببتُ فيها الجدرانَ الخشبية المصقولة، والمقعدَ الأنيق أجذبه إلى أسفل لأجلس عليه قرب النافذة، والمصابيحَ ذات الأغطية الزرقاء تُضاء عند الغسق، والنوادلَ اليونانيين وسائقَ القطار (الذي خيّل إليَّ أنه فرنسي) يجلسون في مؤخرة الممر حيث مقصوراتنا الثلاث أو الأربع، ويأتون، بعد العشاء، لإنزال أسرّتنا العلوية وترتيب السُفلية منها. وكنت أنتظر بفارغ الصبر موعد الانتقال إلى حافلة السُفرة التي تتألق في بهرجتها بأوانيها الفضيّة وأغطية المصابيح الموشّاة بالخَرَز تُهَسهِس، فيما القطار يتهادى من ميل إلى ميل ومعه يتمايل السُفرجيّة اللابسون الأزياءَ البيضاءَ والميتر دوتيل الإيطاليّ أو الأرمنيّ يرتدي التاكسيدو. تحتوي لائحة الأطعمة دومًا على وجبة أولى من الأرزّ، تليها وجبة ثانية مما يشبه لحم الضأن مع المَرَق، وأخيرًا قصعة صغيرة من الكْريم كارامِيل الزائدة الحلاوة. وهذه كلها أطعمة ممنوع حضورها على مائدة والديّ حيث يسود نظام صحّي صارم يقتصر على السبانخ والجَزَر والكَرَفْس والبازلاء، يحييها قليلاً الدجاجُ المسلوق أو لحمُ العِجل المشويّ والمعجّنات الإيطالية الخالية من الطَعم، وهي بالغة الأهمية لما نسميه «نظام الحماية» الذي يتّبعه أبي. وإذ أندسّ بين الأغطية الطازجة لسريري العُلويّ المرتّب بإحكام، أضيء مصباح القراءة الخاص وأستلّ كتابي من الشبكة الصغيرة الغريبة الشكل المعلقة على طول الجدار حيث أحتفظ بمقتنياتي بإحساس نادر من السرّية، مَحميةً من كَبْسات الوالديْن المباغتة. يأتي النوم متأخرًا، وباكراً ينبلج الفجر الصحراويّ. فتثير فيّ كآبةُ الفلوات الصحراوية الغاطّة في الدغشة إحساسًا إضافيًا بالسكينة، وإذا بي، في رتابة ذلك المشهد، وفي توحدي الكامل إذ يغطّ الباقون في النوم، أتحرر من الضغوط الرازحة عليّ ومن هجسي الدائم بأني لا آتي أيّ عمل صحيح.

في حيفا، تكون في انتظارنا سيارتان عموميتان من ذوات المقاعد السبعة تابعتان لشركة «العَلَمَين» تقلاننا إلى القدس، حيث نقضي نحو الأسبوع، وغالباً ما

تقودانا عبر الطريق الشمالية الغربية خروجًا من فلسطين عبر عكا إلى الناقورة، القريةِ الحدودية اللبنانية. وعلى مسافة كيلومترات معدودة من الناقورة تقع الصرفند، قريةُ الصيادين، حيث نتوقف عند مطعم بحريٍّ نقضي فيه ما يخيّل إلينا أنه ساعات طويلة بانتظار أن يتم شواءُ السمك على مهل، بحسب رغبة أبي، ونَفْرغ من تناوله، فنواصل الرحلة عبر الطرقات الخالية إلى صيدا. ثم ننعطف عن بيروت سالكين طريق بكفيا-الضهور التي ترتقي بنا فجأةً فوق أنطلياس والبحر المتوسط الغامق الزرقة الذي ينبسط تحتنا بكامل غموضه المتلألئ.

في الماضي، غالبًا ما كان ينخفض عددُ السيارات حين نرقى الطريق ذات المنعطفات الحادة على نحو دراماتيكيّ إلى بكفيا، البلدةِ الكبيرةِ الواقعةِ تحت ضهور الشوير، التي كنتُ أتعرّف إليها من خلال درّاقنها المشهور ومحل ألعاب «قيصر عامر» الغرائبيّ ذي الألوان والأشرطة الحمراء. ولم أعلم إلا لاحقًا، في السبعينيّات، أنّ بكفيا هي مسقط رأس آل الجميل. وبيار الجميل هو مؤسس حزب الكتائب اللبنانية، الحزب المارونيّ اليمينيّ المتطرف، تأثُراً بشبيبة القمصان السود الألمان الذين شاهدهم إبان الألعاب الاولمبية عام ١٩٣٦. وبيار هو أيضًا والد رئيسين للجمهورية اللبنانية: بشير، الذي أَطْلق اغتيالُه في أيلول ١٩٨٢ مجزرةَ مخيمَي اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا التي ارتكبها أتباعُه المؤيدون لإسرائيل، وأمين، الذي ترأّس بعد أخيه عهدًا غارقًا في الفساد والعجز. إذّاك اكتسبتْ بكفيا عندي سمعةً مشؤومةً بما هي بلدة معادية للفلسطينيين عداء مسعوراً، فتفاديتُها هي والضهور قرابةَ عقديْن من الزمن.

فوق بكفيا تزداد الطريقُ انحدارًا وخطورةً، ويقلّ عددُ السيارات أكثر من ذي قبل، وغالبًا ما تغشى الرؤيةَ مسحاتٌ شاسعة من غطيطة الأصيل تنداح حول القمم، فيما سيارتانا المثقلتان بأحمالهما تهدران عبرها في نضالهما ضد المنحدرات السليطة على نحوٍ دراماتيكيّ. وإذ ندخل الضهور أخيرًا، عبر ضاحية الدُوّار الصغيرة، ينتابني شعورٌ يثيره فيّ المكانُ باستمرار، هو مزيج من الأسى والرعب الداهم.

قضينا صيفياتنا في بيت مستأجر غير مؤثث من بيوت الضهور. ذلك أنّ أبي، على رغم ثرائه، أسرّ لي ذات مرة أنه لا يثق بالمُلكية العقارية، فأمضى من ثم

حياته كلها خارج فلسطين في مساكن مستأجرة. وكان هذا جزءاً هاماً من خطة أهلي لقضاء فصل الصيف. فكانت بيوتنا هي أبسط البيوت المتوافرة وأقلّها زينةً وأكثرها تحرراً من التزويق ومن مظاهر البذخ. في صيف ١٩٤٤، وصلْنا منزلنا الصيفيّ وراحت شاحنة تفرغ حمولتها من الأثاث الخشبيّ. وعلى النقيض التام من أسباب الراحة والترف التي خلّفناها وراءنا في القاهرة، شاهدتُ مجموعةً من الخزائن والطاولات والكراسي الخشبية المتخلخلة والمليئة بالنُّتيرات الناتئة كان أبي قد أوصى عليها من بيروت. وقد طاردَنا ذلك الأثاثُ القشيب البشع إلى البيوت المختلفة التي استأجرناها في الضهور حتى العام ١٩٤٦ عندما انتقلنا للسكن في الطبقة الثانية من منزل مربّع كبير على مدرّج مهيب سوف يكون منزلنا الصيفيّ خلال السنوات الأربع والعشرين التالية. الأسرّة السبعة مزوّدة بإطارات معدنية متماثلة مدهونة على عجل بلون أبيض لا يني يتقشّر، ونوابضُها الضخمة تبدو كأنها خارجة من قبوِ تعذيبٍ قروسطيّ. أما أثاث غرفة الاستقبال فكناية عن سريرين منخفضين غطّتهما أمي بأغطية حملتْها من القاهرة، إضافةً إلى بضعة مساند مركونة إلى الجدار خلفهما. وقد خلا المنزل من أية لوحة فنية.

وكان القصد من كل هذا أن نعيش حياة ريفية متقشفة لا توفِّر أكثر من الحد الأدنى من أسباب الراحة، مجرّدة من أية تجهيزات يعتبرها أبي مدينية أكثر مما ينبغي أو باذخة. فلم يُسمَح لنا باقتناء جهاز راديو حتى العام ١٩٤٩. وأذْكر بوضوح أني بعد ظهر يوم بارد من أيام آب ١٩٤٩، سمعتُ على جهاز راديو صغير خاصّ بي، وهو أول راديو أقتنيه، نعي ريتشارد شتراوس على البي. بي. سي. ، ثم أخذ الجهاز يطقطق إلى أن انقطع الإرسال؛ وأذكر كيف أني، عند عودتي إلى القاهرة، سجلّتُ تاريخ الوفاة قرب اسمه في موسوعتي الموسيقية ذات المجلّد الواحد. وسُمح لنا بخط للهاتف حوالى العام ١٩٥٤ وبسيارة عام ١٩٥٦. وباستثناء خادمتينا، إنصاف ولاحقاً شقيقتها سعاد، كان على الطبّاخ حسن (الذي أَطْلق عليه أهلُ القرية عموماً لقب «العبد» على سبيل التعيير) أن يتدبّر أمره بمفرده خلال خمس سنوات في الضهور، قبل أن يجيز أبي لأمي استخدام خادمةٍ محلية، هي عجوز شمطاء مجعدة الوجه تسمى أم نجم كانت تتولى الغسيل والخبيز، وخادمةٍ أخرى شابة وأصغر سنًا تتبدل كل سنة لأعمال تنظيف البيت عمومًا والمساعدة في

المطبخ. ولما لم يكن بالإمكان الاعتمادُ على تواصل التيار الكهربائيّ لتزويدنا بالماء الساخنة، فقد كان الاستحمام يتطلب ساعات عدة من وَقد الحطب في الموقدة (القازان). في العام ١٩٥٣، استأجروا لي بيانو صغيرًا لأعزف عليه، بعد إلحاح شديد من أمي، غير أنه وُضِع في غرفة نومي مخافة أن يعطي انطباعًا حضاريًا صارخًا إذا ما احتل مكانه في غرفة الاستقبال. من الكتب في بيتنا القاهريّ، حملنا كميات محدودة جدًا، لأنّ الوزن والحجم كانا من الاعتبارات الهامة خلال السفر. أما المكتبة الوحيدة في الضهور فكناية عن فرع لمكتبة «ستيماتازكي» في مرأب للسيارات لم يطرأ عليه أيّ تحويل، يعمل فيها رجلٌ إكليريكيّ المظهر يبدو واسع الاطلاع، ينتعل صندلاً مفتوحًا ويضع نظارتين سوداوين سميكتي الإطار ويَعْرض كمية واسعة من كتب الكومِكس ومجلات السينما إضافةً إلى عدد قليل من الروايات البوليسية، في طبعات شعبية، أَعترف بأنني لم أستسِغها مرة. وقد نقَّبتُ عن الكتب أيضًا في منازل أقارب أمي وسُمِح لي لاحقاً بأن أشتريها من بيروت. فقد دفعتني الضهور إلى التوغل في عالم المطبوعات. وبسبب حرماني من وقتٍ للقراءة في القاهرة، صارت المطالعة استراحة ثمينة من الفراغ الذي لا قرار له لحياتي فيها.

تصوّر أبي فصلَ الصيف في الضهور على أنّ عليه أن يكون أبعد ما يمكن، وبكل معنى الكلمة، عن عالمه التجاريّ في القاهرة، بكل ما يرتبط به من سيارات وموظفين واتصالات هاتفية وأزياء رسمية وأوراق، وعن المدينة ذاتها. الراحة ثم الراحة ثم الراحة. وهذا يعنى قضاءه ساعات وساعات إما إلى طاولة البريدج في فندق سلوى صباحًا أو في قهوة السيرك في الأصائل، وإما أن يلعب «الطاولة» على سطيحة البيت مع صديق محلّي أو زائر من بيروت أو من القدس أو حتى من القاهرة. ولولا إلحاح أمي لما بدّل سترته الرياضية الخضراء أو البنّية البالية أو سرواله البنّيّ الفاهي المتهدّل أو حذاءه البنّيّ البالي وقبعته وعصاه، وهي تشكل زيّه اليوميّ من الصباح الباكر إلى موعد النوم. ولما لم يكن هناك صحف يومية يقرأها، فقد كان يبدأ نهاره بالتخطّر إلى البلدة لزيارة نقولا توما، وهو رجل دمث جذّاب في منتصف العمر، تشكل عائلته كبرى عائلات الشوير. ومحل توما للبقالة زاخر بكل أنواع السلع، من الفواكه والخضار إلى ورق الحمّام والصابون والزيت والبهارات. وشدّ ما كان يحيّرني أننا لم نكن ندفع فيه نقدًا، وإنما نقول عوضًا عن ذلك: «سجِّلْ

على الحساب». وعندما تصل الفاتورة بين يديْ أمي كل أسبوعين تستثير لديها صيحاتٍ من نوع: «يا له من لصّ. لا أذكر أبداً أياً من هذه المشتريات!».

أما أبي، رجل الأعمال المحنّك، فلم يكن يأبه لما يضعه نقولا في الفاتورة؛ فالعلاقة بينهما علاقةُ التزام اجتماعية في المقام الأول. تلقاه جالسًا وراء مكتب نقولا، حاملاً فنجان قهوة تركية، يستعرض بلامبالاةٍ البضاعةَ ويأمر بخمسة كيلوات من هذا الصنف أو ذاك، وببطيختين وخمسة مرطبانات من المربّى وكيلو من التين (النادر الوجود) وثلاثة كيلوات من الجبن يتولى صبيٌ نحيلٌ تسليمَها إلى البيت على درّاجة مزودة بثلاث عجلات، وهو ما يضطره إلى دفع المركبة المحمّلة فوق طاقتها أمامه بدلاً من ركوبها لصعود الطلعة الشديدة الانحدار نحو بيتنا. وبعد أن يزور أبي نقولا، يجتاز ثلاثة محلات نزولاً إلى محل آ. بي. سي. لصاحبه إدمون الحلبي، ويروح يوصي على كميات من ورق الحمّام لا حاجة لأيٍّ منا بها. ثم يعرّج على اللحام، ومنه إلى بائع القهوة، فالصيدلية. وفي كل من تلك المحلات، تشكل مشتريات أبي المبذّرة كفايتها من المبيعات ليوم كامل. وأخيرًا، يقتعد طاولة البريدج إلى أن يحين موعد عودته المتمهلة إلى البيت لتناول الغداء. في تلك الأثناء، يقع على أمي، وقد تركها وحيدةً مع أولادها بلا هاتف أو وسيلة نقل، وأمام عبء استقبال مواكب لامتناهية من صبيان تسليم البضائع، كلُّ توصيلةٍ تستثير لديها صيحاتِ استهجانٍ وكدرٍ أعلى من الأخرى. ترفض تسلّم معظم البضائع المرسلة، وعندما يظهر أبي أخيرًا للغداء، تستقبله بتأنيب يوميّ مكرور تسوقه بنبرة شجارية لا هوادة فيها، فيجيبها باقتضاب شديد، في الوقت الذي يلتهم فيه قطعة دجاج متليّفة أو شواء لحم قاسٍ غيرَ آبهٍ بما أثاره لديها من غضب. وبعد القيلولة، يعاود تجواله بحثًا عن المزيد من البريدج ولكنه هذه المرة يمتنع عن ممارسة ترف التوقف عند المحلات التجارية، إلى أن يستأنفه بحتمية بزوغ الشمس في اليوم التالي.

كان أبي يرى في الضهور فرصته للتحرّر من دوره المرهِق في القاهرة أبًا ومربيًا وسيّدًا مستبدًا. وفي الضهور، تصير أمي هي رفيقتي باستثناء انقطاعات قليلة عندما أعقد صداقات صيفية، قصيرة الأمد وموقتة، مع صبيةٍ من أبناء جيلي يسكنون الجوار. يترك لها أبي المسؤولية اليومية عن تدبير المنزل، وهي مهمة شاقة خصوصًا أنها حُرمتِ المساعدة التي تحظى بها في القاهرة. ولغياب الهاتف وسيارة

مع سائق، خلال الصيفيات الأولى، عشنا في عزلة وفُرِض عليها شعورٌ بالعجز استنكَرَتْه أشدَّ الاستنكار. ولأنها لم تكن تجيد غير الانصياع لدورها بما هي ربّة بيت، فإنها لم تلقَ وسيلة للاحتجاج ولمطالبة أبي بتحسين وضعها. وقد ولدتْ شقيقتي الصغرى، غريس، في آذار/مارس ١٩٤٦ وجويس لم تتجاوز بعدُ السنتين ونصف السنة، فكان على أمي الاعتناء بطفلتَيْن اثنتَيْن، إضافةً إلى أولادها الأكبر سناً.

كان العام ١٩٤٦ عامًا شاقًا على أمي. فقد قرر أبي أنّ أعماله تستوجب قيامه بأول زيارة أميركية له منذ أن غادر الولايات المتحدة ليعود إلى فلسطين عام ١٩٢٠. وبعد أسبوعين من وصولنا إلى الضهور واستقرارنا بسرعة في البيت الكهفويّ غير المضياف، سلك الطريق البرية المتعِبة إلى مصر، عبر القدس، ومنها أَقْلع إلى الولايات المتحدة على متن طائرة تي. دوبل يو. اي في أول خط جويّ تجاريّ بين القاهرة ونيويورك.

غاب أبي شهرين أرسل خلالهما الرسائل المتقطعة والبطاقات البريدية خصوصًا، وترك غيابُه أمي في حال من الذعر المحموم. فكأنّ غاية يومها أن تخرجني من البيت بعيدًا عن شقيقاتي المزاجيات لأطول فترات ممكنة. وابتكرتْ لذلك سلسلةً متواصلة من «المهمات»، كما كان كلانا يسمّيها، أخشاها أيما خشية، وأنا لم أتجاوز بعدُ العاشرة والنصف من عمري. فقرابة الثامنة والنصف ترسلني إلى بقالة نقولا وإلى الملحمة والمخبزة. لا حركة في البلدة في تلك الساعة. ولم يظهر بعد أبو بحبوحة، الأشيب الفظ المقطوعة أصابع عدة من يده والذي يأتزر الوزرة الوسخة فوق قميص موشّى بالمربّعات، ويبيع الفول السودانيّ الساخن خارج الكنيسة من على عربة صغيرة لها مدخنةٌ قزمة. أما أبو فارس، الواضع دومًا أكثر النظارات سوادًا، المرتدي السروالَ الخاكيّ الخشن، فيكون قد بدأ يلمّع دراجاته القديمة ويركنها إلى سور الكنيسة عارضًا إياها للإيجار. سوف يمرّ عام كامل قبل أن يُسمَح لي بأن أستأجر إحداها، وحتى عندما حصل ذلك، لم يرَ أبي فيه تصرّفًا «حكيمًا»، في أيّ حال. المغادرون يوميًا إلى أعمالهم في بيروت يكونون قد تجمعوا في الساحة ليستقلّوا سيارات السرفيس، فتخلو الساحة من السيارات إلا سيارة نجيب فارس الفورد ماركة ١٩٣٦ التي كانت لا تزال تَعْمل كسيارة تاكسي داخل

الضـهور. ولا يبقى إلا مـحسوبُكم وبعضُ الحـانوتيين وكتلُ طانّة من الذباب والنحل تتنقّل بـين ثمـار المشـمش في أحـد الحـوانيت وبـين اللحم النيء المتـدلّي عند بوابة حانوتٍ آخر.

أعود إلـى البيت بعد ساعـة، لا أحمل غـير بضـعـة أرغفـة من الخبـز. وفور وصـولي، تطالبني أمي بمطاردة السَمكريّ لتصليح حنفيـة المطبخ. وبعـد تسلمـهـا البقالة، ستجد حُكماً بينها حبّتيْ بندورة وثلاث باذنجانات وأربع بطيخـات صفراء وعشر خَوخـات يجب إرجاعُها واستبدالُها بأفضل منها. «أفْسَدَ أبوك الرجلَ إلى درجـة أنه بات يعـتـقـد أنه يسـتطيع أن يرسل إلينا بأسـوإ مـا عنده والإفـلاتَ من المحاسبة. إدوارد، قل له إني غاضبة جدًا عليه!». تسـتغرق مـهمتي الثالثة إلى البلدة وقتًا أطول من سابقتـيْها خصُوصًا لشدة قلقي من أن أتفوّه بما يسيء إلى نقولا السمح الذي يحتـفظ بكامل حـفاوته ومـزاجه الرائق لأبي، وهـذا كـان أفضـل زبائنه إطلاقًـا. وإذ أضـع البـضــاعــة المردودة على طاولتـه، لا يكاد يرفـع نظره عن دفـتـر حسـاباته للنظر إليـها، ثم يسـألني ببرود: «ما بالها؟». عبثاً أحـاول إخراج الكلمات المناسبة، فلا أقوى على غير التلعثم ببعض العبارات غير المفهومة التي يرد فيها ذكرُ «أمي». فيـجيب ببـرود أيضًا: «أتركها هنا. سوف أنظر في أمرها لاحقًا»، وهو مـا يعني أنه لا ينوي استبدالها حالاً؛ فإما أن أعود إلى البيت خـاليَ الوفاض فتُرجعني أمي من حـيث أتيتُ، وإمـا أن أواجـه البـقّـال الفطِن وأنا لست واسع الحيلة في مـا أطالبه به. فـأقرّر التـهرّب كليًا من الخيار ببراعة مباغتة لا تزال تثير دهشـتي إلى الآن. «هل لـي بسندويتش جبن مـع المخلّل، من فـضـلك؟»، أقـول بحـزم لنقـولا الذي يومئ بفتورٍ إلى أحد معاونيه بأن يحضّره لي. «و...سجّله على الحساب»، أضـيف بشطارة وأنا أغادر وفي يدي الشيءُ اللذيذُ الطعم.

لاحقًا في ذلك اليوم، يستبدل نقولا البضاعة المردودة. فتتفتق أمي عن مهمات عدّة إضـافـيـة لـي إلى أن أجـدُني، عند المـغيب، منهكَ القـوى لا أسـتطيع أكـثـر من الاسـتـرخـاء مـتعبًا بصحبة روايةٍ قبل أن آوي إلى الفراش. على أنّ التـعب لم يكن مبعث اضطرابي الأكبر، بل الجفاء الراعب الذي تبديه أمي تجاهي. فسرعان ما تحوّلتْ علاقتنا الحميمية إلى علاقةٍ عبّر عن جوهرها مشهدٌ ما أزال أذْكره بوضوحٍ حزين. ففي صبيحة يوم قائظ من أيام الأسبوع، أرسلتني كل تلك المسافة الطويلة

إلى فندق القاصوف لحمل مكواة كهربائية ملفوفة في ورقة بنّية إلى مصطافة من أهالي القاهرة هي صديقتها أوجيني فرج الله. عدتُ إلى البيت بعد ساعة ونصف الساعة، وقد أنهكني التعبُ وأضناني العطش من مسيرة طويلة عبر مشهد طبيعيّ أقل ما يقال فيه إنه قليل الإثارة: لا أرصفة، ولا بقع فيء، ولا سبيل ماء، ولا مقهى أو مطعم، أمشي وحيدًا متثاقلاً على الطريق الجرداء الضيقة اللامتناهية نحو الشرق، وكلها طلعاتٌ كأداء. وأذْكر أيضًا أنّ أبي اشترى لي في ذلك العام خوذة فلّين ثقيلة وأصرّ على أن أعتمرها. وقد نصحه بها بائعٌ في محل ڤيرينو للرجال في حي الأزبكية في القاهرة عندما كان يشتري قبعة پاناما أنيقةً لنفسه. تشبّع الشريط الداخليّ للخوذة بالعَرَق إلى حد مُقرف، فيما بقي الشيء العبثيّ الذي حُكِمَ عليه أن يبقى على رأسي، لأنّ بقاءه كان أقل إرباكًا من انتزاعه وحملِهِ باليد وأنا أسير مجهد الخطى. وفيما كنتُ أرقى مرهَقاً السلالمَ المغبّرةَ الطويلة المؤدية من الطريق الوحيدة في الضهور إلى بيتنا، ألفيتُ أمي واقفةً على الشرفة تلوّح لي، مرتديةً ثوبًا بيتيًا رماديًا بلا كسم، ووجهُها خالٍ من مساحيق التجميل، وشعرُها معقوص بواسطة عمامة كانت تداوم على اعتمارها في تلك السنوات. أملتُ أن يكون ذلك تحيّةً لعودتي، لكنها كانت تلفت انتباهي وتستوقفني قبل أن أبدأ واثقَ الخطى في ارتقاء المجموعة الأخيرة من الدرجات إلى سطيحة البيت. كانت تحمل شريطًا كهربائيًا أسود في يدها اليمنى: «دارلينغ»، نادتني بالإنكليزية – وهذا نداء لا يبشّر دوماً بالخير – «لقد نسيتُ أن أعطيك شريط المكواة. ما عساها تظن بي أوجيني؟ أرجوك أن تعود به إلى القاصوف فورًا». فاجتاحني للتوّ شعورٌ رهيب من الإعياء والقنوط.

وهكذا فإنّ ما خبِرتُه من حميمية داعمة من طرف أمي، خلال قراءات شيكسپير مثلاً، أخذ يتحول فجأةً إلى شيء آخر تمامًا، مع أنها تشير، بين حين وآخر خلال الأشهر التي نقضيها في ضهور الشوير، إلى أنّ شيئًا ما من حياتنا السابقة لا يزال قائمًا. بالإضافة إلى كتاب التراتيل بالعربية، حوى بيتُ الضهور ما يسمّى «كتاب الأغاني العائلية»، وهو مجموعةُ أغانٍ، معظمُها بالإنكليزية، لعلّنا حملناها معنا من القدس أو القاهرة. ولما كنتُ أجيد قراءة النوطات الموسيقية بما يمكّنني من تأدية بعض الأغاني، فقد كنتُ غالبًا ما أدندن أو أغني لنفسي «ذي

مينِسترل بُوي» أو «جُون پيل» من أغاني الكتاب. وإذ تسمعني أمي من غرفتها، تطلق عبارةَ استحسان محبّبةً، سرعان ما تنتشل يومًا مضجرًا أو خالياً من الإثارة وترقى به إلى حال من السعادة الموقتة. كانت غرفتي هي الغرفة الوحيدة التي تقع جهة المطبخ من غرفة الاستقبال الضخمة العالية السقف وغرفة الطعام الملحقة بها. وهذا ما ضاعف إحساسي بالعُزلة العقيمة وظل يرمز دائمًا عندي إلى مناخ الضهور السلبيّ الضامر، على الرغم من تجهيزات الحديقة الصغيرة في الأسفل: طاولة كرة القدم، وعُدّة الكروكيت، والأرجوحة ذات الصرير التي وافق أبي عليها، بعد لأي، بما هي جزء من عملية تريبفنا.

وإذ أستعيد ذكرى تلك السنوات، أتبيّن القلق الحقيقيّ الذي ساورني نتيجة انغلاق أمي عني. والمفارقة فيّ الأمر أنّ حاجتي إلى تجديد الاتصال بها ظل متّقدًا بسبب العراقيل التي كانت تضعها في وجهي. فقد أضحت أمرتي التي يتوجب عليّ طاعتها. على أنّ الفراغ الذي كنت أتهاوى فيه خلال تنفيذي «مهماتي» وبعدها، إذ لا يبدر منها إلا دفءٌ قليل وشكرٌ أقلّ، كان يُذْهلني حقًا. هكذا انحسر الذكاء موقتًا عن علاقتنا لتحلّ محلّه سلسلةٌ من الأنظمة المرصوصة لا غرض لها غير إبعادي عن درب الجميع. وبعد سنوات، سوف تروي أمي حكايات عن طاقتي على الشَغَب، عندما كنتُ طفلاً، وكيف أنها كانت تبتكر لي «مهمات» سخيفةً، ومفيدةً في ما ندر، لتشغلني بها.

ولعلّ ذلك الإشغال كان يعود جزئيًا أيضًا إلى تخطيط والديّ لإبعادي، خلال الصيف، عن إغراءات ملاهي القاهرة المزعومة (لأنّ أحداً منهما لم يشاهدها فعلاً ولا هو اختبرها) وإحلالي في مكان لا توجد، بل لا يمكن أن توجد، فيه أيةُ إغراءات. اقتَصَرَ حضور الفتيات، في أيام الضهور المبكرة تلك، على بعض صديقات شقيقاتي، وما من واحدة منهنّ اكترثتْ بي أصلاً. وفي أواخر تموز/يوليو ١٩٤٦، جاءنا شقيقُ أمي الأصغر من فلسطين. ولأنه أكثر مَيلاً إلى المغامرة من شقيقته، فقد دعانا جميعًا ذات ليلة إلى حضور الـ«نيمرو» (هكذا كانت تسمى عروضُ الكاباريهات في تلك الأيام) في مقهى نصر، وهو أحد مكانين فسيحين في البلدة - والآخر هو مقهى حاوي - والمقهيان متقابلان يبعدان نحو مئة متر عن الساحة. كلاهما مؤسسة عائلية، يدير مقهى نصر إلياس نصر وشقيقتُه، وهي عانس جذّابة في أواسط العمر لها رِجْلٌ متورّمة لإصابتها بالتهاب في الوريد. أما مقهى حاوي

فهو بإدارة الأخويْن إسكندر ونقولا حاوي. وكانت المؤسستان في غمرة حرب تجارية مميتة بينهما.

زاوَد مقهى نصر باستقدامه مَنْ أعلن أنهم فنانو منوّعات «عالميون»، معظمُهم من البهلوانيين والراقصين، تتلخّص جاذبيتهم الرئيسية، إذ أَستعيدُ الأمر الآن، في ارتداء النساء مِنْ بينهم أزياءً تَكْشف الكثير من مفاتنهنّ. في تلك الليلة انحشرنا حول مائدة صغيرة في الصف الثاني من باحة الرقص لمشاهدة الاستعراض الرئيسيّ الذي سوف يؤديه البهلوانان، جورج وآديل، اللذان يوحي اسمُ عائلتهما بأنهما من أبناء المَجَر. هو رجل مفتول العضلات، قصير القامة، في منتصف الأربعينيّات؛ وهي أصغر منه بقليل، شقراء، ترتدي بيكيني معدّلاً ذكّرني بكاليتا، ولاسيّما أنها كانت تتلوى بجسدها بطريقة غير طبيعية شبيهةٍ بطريقتها. وعلى رغم الإعلان عن أنّ عرض «السواريه» سوف يبدأ في التاسعة مساءً، فإنّه لم يبدأ فعلاً إلا بعد الحادية عشرة بقليل، سبَقَته عدةُ بدايات خُلّبية ولحظات من الاستعجال افتعلها النادلون لأنهم تلقّوا، طبعًا، أوامر صارمة لحثّ الزبائن على طلب المزيد من الطعام والمشروبات «قبل أن يبدأ النيمرو». وبعد فترة انتظار أتعبتنا جميعًا، خرج النجمان، على قرع متواصل للطبول، في كامل زينتهما، من عباءات فضيّة طويلة وابتسامات لمّاعة عريضة تنمّ عن أسنان مذهّبة. وأذكر أني أصبتُ بخيبة أمل لندرة تقديمهما للعروض الجسورة حقاً – كان يرفعها فوق رأسه، فتقوّس جسدها إلى وراء، ثم يؤرجحها تحت ذراعيه – إلى أن حانت الحيلة الأخيرة التي حذّرنا قائدُ الأوركسترا الأرمنيّ من خطورتها البالغة التي تستدعي التزامَنا الصمتَ الكاملَ. فقد جيء بعمود قصير رفَعَ جورج آدال عليه وأخذ يديره حول نفسه ببطء، وآدال متشبثة بطرفه، تلوح عليه مثل عَلَم إذ أخذتْ ترتفع وتلفّ تدريجيًا بجسدها لتشكل زاوية من تسعين درجة بالقياس إلى العمود. وأذكر أنّ ذلك العرض ترافق مع تعليق لا مبرّر له من المايسترو الأرمنيّ يشرح لنا فيه ما يجري أمام أعيننا. عُدنا متثاقلين إلى البيت حوالى منتصف الليل وجميعُنا معجبٌ بالاستعراض الأخير الذي أدّاه الثنائيّ المِقدام. لكني أذكر أنّ أمي التزمتْ صمتًا يشي بالاستهجان. فقد كان اللحم العاري يدعوها دائمًا إلى العُبوس وإطلاق «تكتكة» يائسة بين أسنانها بنفورٍ بَيِّن.

الآن أدرك أنّ مسلسلاً تافهًا مثل حرب «النيمِروهات» بين حاوي ونصر، وهما يتصارعان في حلبة الحفلات الأسبوعية، بدا أشد إثارةً مما كانه فعلاً بسبب خلوّ صيفياتنا كلياً من الأحداث، خلال أعوام الضهور الأولى. كذلك أذكر اللامبالاة التي كنتُ أشعر بها عند استقبال أمي الضيوفَ لتناول قهوة الصباح أو شاي بعد الظهر، حين تستدعيني من غرفتي لمصافحة روتينية ثم تعيدني من حيث أتيتُ أو ترسلني في «مهمة» من المهمات. فقد كانت تلك زياراتٍ تدور كلّها مدارَ الشكليات الطقوسية. في العادة، كان الزوّار يبعثون برسول في اليوم السابق للإبلاغ عن قدومهم، مع أنّ الزيارات قد تتم أيضًا دون سابق إشعار. والمقصود أن يكون من نصيب كل عائلة زيارةً اجتماعية واحدة خلال الصيف من عائلة ترتبط بها بصلةٍ ما: طبيب الأسنان، ابن عم من الدرجة الثانية، الوجهاء المحليون، القسيس البروتستانتيّ، وما إلى ذلك. ويكون موعد الزيارات الصباحية في الحادية عشرة دومًا. ولا يأتي الزوار فرادى، وإنما يتجمعون على الممرّ الصخريّ، ثم يرتقون سلّم الدرجات الحجرية المؤدية إلى بيتنا في طابور واحد يتقدمه رجلٌ أو رجال عدة تلحق بهم النساءُ بصمت. للتوّ، تُقدَّم القهوة، تليها الشوكولاتة أو قطعةُ راحةِ حلقومٍ بين قطعتيْ بسكوت، وهذه الأخيرة تكريم مميّز تعلّمته أمي من ماري نصر. ثم تدار على الضيوف أكوابُ شراب التمر الهندي أو التوت وعلب السجائر. وبعد حوالى الساعة، ينهض الزوار استعدادًا للانصراف، ويقضي التهذيب بأن يقال لهم: «بهذه السرعة؟ ما زال الوقت مبكرًا»، وهو تقليد التزمتْ أمي به على الدوام. أما ضيوف بعد الظهر، فيَفِدون في الرابعة والنصف ويقدَّمُ لهم الشاي، وهم من العائلات التي يغادر رجالها يوميًا إلى أعمالهم في بيروت ويعودون منها بعد انتهاء يوم العمل.

يسود تلك الزيارات نظامٌ صارم لا مبرر له، لا يقضي على أمي بأن تلازم البيت لاستقبال الزوار يومًا بعد يوم فحسب، وإنما يرتّب عليها أيضًا القيامَ بزيارات مماثلة هي نفسها. فكأنّ ثمة مَن يحتفظ بسجِلٍ دقيق في مكان ما، يسجّل فيه أننا لم نَزُرْ بعدُ السيدةَ حداد مثلاً في حين أنّ الزيارة واجبة. وكانت حياتنا في القاهرة، على ما فيها من جلبة، أكثر خصوصيةً مما غدت عليه خلال تلك السنوات في الضهور، على رغم إحساسي أنّ أمي قد تَحَرّك لديها شعورٌ بالواجب الاجتماعيّ تجاه بعض العائلات، أمثال آل ديرليك وآل الجندي. ومهما يكن، ففي الضهور بَدَتْ

أمي مهووسةٌ بما نُفِّذ أو لم يُنفَّذ من واجبات، وما قاله «الناس» أو قد يقولونه، ومهووسةٌ خصوصاً بالمظاهر. ومع تقدمها في السن، ازدادت أهمية تلك الأمور لديها، وهو ما حدّ من إمكانية قيامها بما يحلو لها، وصارت تُلزم نفسَها التقيّدَ بمقياسٍ خارجيّ كانت تكرهه، في حال ضهور الشوير، كرهًا واضحًا وإنْ تكن تتشبّث به بعناد.

شعرتْ أمي بالأسر ذلك الصيف أكثر من أيّ وقت مضى، لاسيما أنّ ابي لم يكن يعود من سفرته الطويلة إلا ليستقرّ وراء طاولة البريدج. ولما لم يكن يروق لها لاعبو البريدج الصباحيون – وبينهم سائق تاكسي ومستخدَمٌ في مصبغة يجمّعهم أبي من مختلف مقاهي البلدة ولا يأتون البتة إلى بيتنا – فقد أخذتْ تحثّه على اختيار رجال محترمين لأماسيّ البريدج في البيت. ومن تلك المجموعة كان الأكثرَ انتظامًا من حيث الحضور إميل نصار وابنُ عمه فايز، يضاف إليهما أصدقاء جدد أمثال أنيس ناصيف وسليم قربان، ابن عم خالتي فريدا من سكان بيروت، وينضم إليهما، بين الحين والآخر، أنيس مقدسي، أستاذ اللغة العربية الصارم في الجامعة الأميركية في بيروت، ويقع بيته مباشرةً فوق بيتنا على التلة. هناك تعرفتُ إلى سمير، ابنِه الأصغرِ المجايل لألفرد ناصيف، وهو الذي سوف يتزوج شقيقتي جين في ما بعد. وقد بذلتْ أمي محاولات متقطعة للانضمام إلى اللاعبين، فتعلمت الكاناستا بل تعلمتْ لعبةَ ورقٍ أخرى تدعى كونكان، غير أنها لم تصبح لاعبة بريدج جدية، وإنْ لم تكن قوية بما فيه الكفاية، إلا بعد وفاة والدي.

لم يكن يومُ وصول أبي من الولايات المتحدة في نهاية آب/أغسطس ١٩٤٦ يومًا مبهجاً لسبب هو أتفه الأسباب قاطبةً. فقد كَتَبَ إلى أمي أن تبعث إليه بمقاساتنا بالإنشات ليشتري لنا ثياباً من محلات «بِسْت». ثم شحن صندوقين ضخمين إلى القاهرة وعاد براً من هناك إلى بيروت. استقبلتُه وأمي عند موقف «سفريات العَلَمين» في وسط بيروت واستقللنا السيارة معًا إلى ضهور الشوير. بعد العناق بادرني بقوله: «لقد سمنتَ كثيرًا، أليس كذلك؟». وإذ أعربتُ له عن دهشتي مما يقول، أضاف: «مقاس خصرك أربعة وثلاثون إنشًا. لقد استغرب العاملون عند "بِست" أيما استغراب». ولكنّ حقيقة الأمر أنّ أمي أخذتْ مقاساتنا بواسطة شريط قياس مِتريّ، ويبدو أنها حولّتها إلى الإنشات بطريقة أقل ما يقال فيها إنها مرتجلة.

وهكذا بعد شهرين، عندما أفرغنا محتويات الصندوقين في القاهرة، وصلني ما لا يقلّ عن ستة شورتات صوف بُنّية غامقة يستحيل ارتداؤها في حرّ القاهرة أصلاً، وقد اضطرت أمي إلى التخلّص منها لأنها أكبر من مقاسي بكثير. وتبيّن أنّ معظم ما اشتراه لنا، طبعاً على طريقته في شراء البقالة والمنتجات من عند نقولا غيرَ مكترثٍ بالكمية أو النوعية، قد لقيت المصيرَ ذاته. «هل هذا من الألبسة التي اشتريتُها لك من عند "بست"؟»، ظل يسألني على مدار السنة، فأومئ مؤكّدًا، وغنيٌّ عن القول إني لم أضع على جسمي شيئًا مما حمله معه.

«اِذهبْ والعبْ في الغابة»، كانوا يقولون لي. كأنما أشجار الصنوبر المهزولة وأَجَمَات العلّيق الشائكة ملعبٌ طبيعيّ مليء بالتسليات المبهجة أو حتى بما ينوّر الأذهان. صدمني المشهدُ الطبيعيّ لكونه جرِدًا حارًا وماحلاً يعجّ بذبابات الخَيل الضخمة وبالنحل الطنّان الذي يهدّد باللسع. ثم إنّ السمة الطبيعية الغالبة على الضهور وعلى جوارها الحُرجيّ هي الغياب الكامل للماء: جفاف، جفاف، لا تُلطِّف منه بركةٌ طبيعية أو بحيرةٌ أو جدولُ ماء أو حتى بركةُ سباحة. وإذا بالمكان يثير شعورًا حادًا بالضيق لا يُسهم في تبديده نسمةٌ جَبَلية منعشة، تهب بين حين وآخر، ولا غيابُ التلوّث المدينيّ.

كانت فرصتَنا الوحيدةَ للإفلات من جفاف الصيف يومٌ سعيدٌ طويل نهرب فيه إلى بحر بيروت في رحلة سنوية نعتزمها في أواخر تموز. تبدأ الرحلة دائمًا بركوب سيارة تاكسي إلى «سان سيمون» و«سان ميشال»، المسبحَيْن الرمليّيْن المتجاوريْن إلى الجنوب قليلاً من المدينة حيث نسبح الصباح بطوله في بحرٍ كثير الأمواج لكنه ضحلُ المياه. أحيانًا، يُسمَح لنا باستئجار «حَسَكة» لا تنفكّ تنقلب بنا في المياه المضطربة والمثيرة. وكان إحساسي الدائم أني لن أَشبع من البحر الأبيض المتوسط، وقد كان عليّ أن أحتفظ بفيضه الغامر وفورانه المنعش البليل في ذاكرتي عامًا بأكمله. ولما لم يكن أيٌّ من والديّ يجيد السباحة، فقد كانا يكتفيان بقضاء اليوم تحت سقيفة مقهى المسبح القشيّة حيث نتناول غداءنا. وكانا يُبْرقان أحيانًا لأصدقائنا القاهريين آل ديرليك لينضموا إلينا من مصيفهم في بحمدون، فيتمتع والداي برفقتهما إلى مطلع الأصيل على الأقل. خلال أحد الأغدية في السان سيمون، قفز أبي فجأةً من على كرسيِّه وهَمّ بالهجوم على شاب يجلس إلى مائدة

مجاورة. «لا، وديع، أرجوك، لا»، ناحت أمي متشبثةً بذراعَيْ أبي المفتولتيْن العاريتَيْن من الأكمام لمنعه من الانقضاض على الشاب الذي استفزّه. «سوف أَقْلع لك عينيك الاثنتين»، صاح أبي بالشاب فيما هو يعاود الجلوس. ثم التفتَ إليّ مُضيفًا: «لن أسمح لأحد بأن ينظر إلى شقيقتك بهذه الطريقة». ولأني وجدتُ قوله غير منطقيّ، فقد علّقتُ قائلاً أنْ «لا ضرر من مجرد نظرة»، فردّت لوريس ديرليك بحكمة: «نظرة عن نظرة تختلف»، لأنه بدا واضحًا للجميع، باستثنائي أنا، أنّ الشاب قد تجاوز خطًا أحمر متخيَّلاً.

أما شقيقتي جين، وهي مصدر كلّ هذه الجلبة، فكانت لاهيةً عما يجري. لكنْ ساورني حينها شعور أكيد أني لن أستطيع محاكاة حسّ التملّك عند أبي. فأنا شديد التردد، يستحيل عليّ المبادرة بعراك، ثم إني أفتقر أصلاً إلى المفردات والمشاعر المتعلقة بالشرف المثلوم لكي أُقْدم على ذلك الفعل، وأخيرًا، لم أكن أبالي إذا اكتفى أحدُهم من شقيقتي بالنظر. مرّت الحادثة بسرعة، إلا أني فكّرتُ حينها أنها سمحتْ لي بنفاذٍ أكبر إلى رجولية أبي المغالية، فانكفأتُ عنها مرتاعًا. فماذا لو حَوّل أبي نظره إليّ؟ فمن يدري ما سوف يكتشفه من مشاعري تجاه أمي، أو من شبقٍ سرّيٍّ أكنّه لهذه أو تلك من نسيباتي؟ وفي غياب عزلة المدرسة والروتين اليوميّ في القاهرة لم يكن يوجد مكان أخبّئ فيه هشاشتي تجاه رجل يثور بمثل تلك القوة البُركانية المخيفة.

ما إنْ تحين الثالثة والنصف حتى نكون قد استحممنا وارتدينا ملابسنا وأخذنا نسلك الطريق الى رأس بيروت لزيارة ابن خالٍ، أو ابن خالةٍ، من آل بدر لتناول الشاي مع قطع «الكيك». ثم تكون محطتنا الأخيرة في المدينة في «پاتيسيري سويس»، وهو مقهى ومحل لبيع الحلويات يقع في محلة باب إدريس، في قلب المدينة، حيث نلتهم الـ«شوكولا مو» وقصعاتٍ عامرةً من البوظة مع الكريم المخفوق. وهكذا، بعد أن تكون حرارة الشمس قد لوّحتنا أكثر مما ينبغي، وأَتْخَمَنا غداءٌ ووجبةُ شاي وحفلةُ حلويات بعد الظهر، وأَنهَكَنا يومٌ نادرٌ تجاوَزنا فيه حدودَ الضهور الضيّقة وتنعّمنا بمتع البحر الأبيض المتوسط وزرقته الشاسعة المالحة المائجة، نعود أدراجنا بحزن إلى القرية لقضاء أسابيع عدة من الفراغ المتواصل.

في مناسبات نادرة، ربما مرةً أو مرتين في الصيفية، يقصد أبي بيروت لصَرف العُملة؛ فضهور الشوير ضعيفة التجهيز بمثل هذه الخدمة كما بمثيلاتها من الخدمات المدينية إذ ليس فيها ولو مصرفٌ واحد. وكان يصطحبني معه في رحلة تنحصر في منطقة وسط المدينة الصارخة الألوان، العابقةِ بالعَرَق، الناضحةِ بالروائح والزاحمة والضاجّة، أيْ على النقيض مما هو الحال على شاطئ البحر. نقصد بنك سورية ولبنان، وهناك نلتقي موظفاً شاباً غريب الشكل، أملد، هو بالخصيان أشبه، يتفارق صوتُه الأنثويّ الحاد تفارقًا بيّناً مع سروالِه الرماديّ الكئيب وقميصه الأبيض الذي يرتديه بلامبالاة مدروسة. كانت تلك أيام أوراق الاعتماد المصرفية الضخمة الحجم، يقصّ منها الموظفُ ما يملأ علبًا صغيرة عدّة، ثم يتنقّل بين مكاتب عدة متنوعة للاستحصال على التواقيع، ليعود أخيرًا برُزمة غليظة من الليرات اللبنانية، يعدّها بإبهمه المكسوِّةِ بغطاء مطاطيّ قبل أن يدسّها لأبي من تحت النافذة الفولاذية. فيعاود أبي عدَّ الرزمة كلها للتأكد من أنه حصل على المبلغ الصحيح.

نقضي نحو ساعة ونصف الساعة في البنك، نمضي بعدها للتحوّج بالبضائع الثقيلة غير المتوافرة في الضهور - سِلال القصب، الصحون والفناجين والشراشف والمناشف وأكياس السكّر والأرزّ زنة ٢٠ كيلو - ثم نستأجر حمّالاً حافيًا يرتدي «الشروال»، يقعي بين الحمّالين المتبطلين عند سكة الترامواي، ليحملها لنا. تتسع سلّة الحمّال المستطيلة لأغراض يصل وزنُها إلى ١٢٠ كيلو، يحزّمها على ظهره المكسوّ بلُبّادة بواسطة شريط يلتفّ حول جبينه، فأجزع عليه من أن ينفلق جبينُه تحت وطأة الضغط. وفي العادة، نعرّج على مقهى الأوتوماتيك الصاخب ذي الأرضية المفروشة ببلاطات زاهية الألوان، والذي يبدو كأن روّاده من الذكور حصرًا، ويحتشد فيه مستخدمو المحلات التجارية والمتسوّقون وموظفو البنوك وأمثالهم. هناك ألتَهِمُ بسرعة قرناً من البوظة بينما يرتشف أبي فنجان قهوة صغيرًا قبل أن نمضي، والحمّالُ يتهادى بمحاذاتنا حافي القدميْن، إلى موقف سيارات ضهور الشوير، في أسفل ساحة البرج، لرحلة العودة إلى الجبال. أَذْكر تلك المناسبات بسبب الحرّ الدبق المزعج طوال النهار، وانحباسِ الهواء، والمللِ الخانق الذي تتخلله بعض الملذات الوجيزة إلى جانب أبي، لا آتي أمرًا عدا «أن أكون هناك» وأن أكتفي بالأحاديث الأشد اقتضابًا تُحْيي الصمتَ المخيّم علينا.

في بيتنا المتدرّج على السفح، كان لنا جيران من آل نصّار يسكنون الطابق الأرضيّ. وكان آل نصار على العكس منا تمامًا. رب العائلة هو إميل نصّار الذي يسمّونه مِنْ خلف ظهره «اللورد غْرِيشام» لأنه، بصفته الوكيل المحليّ لشركة غريشام للتأمين اللندنية، لا ينفكّ يتحدث عن الشركة التي يعمل فيها، ساعيًا على الدوام إلى إقناع زملائه إلى طاولة البريدج أو راكبٍ معه في التاكسي أو مجرد زائر بأن يشتري بوليصة تأمين على الحياة من عند غريشام. يغادر إلى مكتبه في بيروت عند انبلاج الفجر ويعود إلى بيته في الأصيل لغداء متأخر وقيلولة ولعب البريدج. وخلافًا لوالدي، كان دائم الارتداء للبذلة الرسمية، يَفْرش بيته على اعتبار أنه نسخة عن منزله الأصليّ في المدينة. فكان لآل نصّار أثاث حقيقيّ وهاتف وجهاز راديو وآلة تشغيل الأسطوانات (يسمّونها «پيك آپ»)، ونوافذهم تغطّيها الستائر، والأرضية مفروشةٌ بالبُسط والسجاد، ولديهم طاولة سُفرة ثقيلة شديدة الزخرفة تغطيها أطباق من الطعام الحقيقيّ المطبوخ مرتين في اليوم. أيْ أنها تختلف كليًا عن الوجبة المسائية اليتيمة في الطابق العلويّ المسماة «عشاءً بروتستانتيًا»: وهي أبداً باردة وأقرب طعمًا إلى الأدوية، تتكوّن من أجبان وزيتون وشاي وبعض الفواكه والخضار النيئة والكعك «القرشلّي»، على غرار سائر حياتنا الصيفية المتقشفة التي فرضها علينا أبي. باختصار، كانت حياة آل نصّار أكثر إثارةً وتقدمًا من حياتنا.

يَكْبرني أبناءُ نصّار الصبيان، رجا وألفريد ومنير، بعشر سنوات وستٍ وثلاثٍ على التوالي. توفيتْ والدتهم «الحقيقية» وهم أطفال، فتزوج والدهم من ماري، وهي امرأة مرحة ترطن بالفرنسية تعذّر عليّ سبرُ أغوار علاقتها بالأولاد. وكانت تلك أول عائلة مشروخة، أو منقسمة على الأقل، أتصلُ بها. فلم يكن قد خطر في بالي من قبل أنه يمكن وجود عائلة مختلفة عن عائلتنا من حيث بُنيتها الأساسية. وكنت وشقيقتيّ الكبريَيْن نربط بين الطلاق وبين الإغراء الجنسيّ والجريمة (وليس أدلّ على ذلك من تلك «المرأة المطلّقة» التي نشاهدها في شارعنا القاهريّ، بشعرها الأصهب والسيجارة المتدلية بين شفتيها). ينادي رجا والفريد ماري بـ«طانط»، أما منير، وقد كان رضيعًا عندما تزوج والده للمرة الثانية، فكانت ماري هي «الماما» بالنسبة إليه. أضفْ إلى هؤلاء وداد الصغيرة، ابنة ماري من إميل، التي تتصرّف

بوصفها الأخت الصغرى، ويعاملها منير على هذا الأساس، في حين يرى إليها الولدان الأكبران بما هي ابنةُ أخت.

لم أكن أشعر بالراحة التامة مع آل نصار، على محبتي لهم وانجذابي إليهم، وذلك بسبب اختلافهم الكبير عنا، وأيضًا بسبب إلحاح والديَّ اللجوج عليّ في أن لا أقضي وقتًا طويلاً عندهم مخافة أن ينزعجوا من حضوري، بحسب تعبير أمي. فكنتُ دائم الشعور بأني متطفّل عليهم، مع أنهم لم يعبّروا مرةً عن أيّ انزعاج، ولو تلميحًا. وقد أدركتُ في ما بعد أنّ القصد من أوامر الأهل التخويفية هذه هو الإبقاءُ علينا محبوسين نفسياً داخل قوقعتنا العائلية الضيّقة. لذا فالإثارة التي تنتابني عندما يدعوني منير أو ماري للانضمام اليهم لتناول عشاء لذيذ كان يشوبها دوماً إحساسٌ بالضيق وشعورٌ بأنيّ لا ينبغي أن أكون عندهم أصلاً. وقد تتضمن مائدة العشاء سَلَطات متنوعة وبقايا من الكبّة أو من يخنة الفاصولياء البيضاء وأكوامًا من الأرزّ وحلوياتٍ باذخةً ألتهمها بمتعة شَرِهة. وكانت أمي تحدجني بنظرة استهجان دورية كلما صعدت السلالم من عند آل نصار إلى بيتنا بعد تلك المناسبات: «الطعام الثقيل في الليل يضرّ بك»، قد تقول، «وسوف يضطرب نومك». وهذا ما كان يحصل بالفعل.

ما خيّب أملي خلال الأربعينيّات ومطلع الخمسينيّات أنّ منير وإخوته نادرًا ما وُجدوا في الضهور خلال أيام الأسبوع، إما لأنهم يعملون وإما لأنّ منير يستمتع بالحرية في بيروت وفي البيت العائليّ في غياب والديْه. توثقتْ صداقتي مع منير نصار خلال أيام دراستي الثانوية، وكان شديد الإيجابية تجاه مدرسته والجامعة في بيروت، وهذا شعور لم أكن أكنُّه تجاه مدرستي، أنا الهامشيُّ فيها. ولا شك في أنَّ الموضوعات الرفيعة المستوى التي كان منير يثيرها خلال مناقشاتنا من الوزن الثقيل – معنى الحياة والفن والموسيقى – قد أسهمتْ في بلورة شخصيتي الفكرية، غير أنها حالت دون أن تنشأ بيننا علاقة حميمية حقًا. وأعتقد أنّ هذا كان مناسبًا لكلينا معًا. فالأحاديث الدائرة بيننا تقصّدناها متروّيةً وجادّة. ولكنْ، لما كان منير وصديقه الحميم نقولا صعب طالبَيْ طبّ مجتهديْن، فقد كانت لتلك المناقشات، على الأقل، فضيلةُ إبقائي مدركًا للتعقّد الذي كانت كافةُ مناحي الحياة في الضهور تتواطأ على طمسه. كانت «الفلسفة» موضوعنا الأثير، وإنْ كنتُ لا أفقه منها شيئًا.

غير أنّ منير كان متأثراً بمفكّريْن أميركييْن، ديك يوركاي وريتشارد سكوت، وكلاهما من نتاج الفنون العقلية العَلمانية، لا التقوى التبشيرية، وهو ما شرّع آفاقًا فكرية جديدة أمامي. اتخذ ردُ فعلي الأول تجاه تلك الآفاق منحى دفاعيًا، ثم أخذتُ أرتادها بحماس مدهش. خلال تلك المناقشات، سمعتُ لأول مرة بكانط وهيغل وأفلاطون. وكما حصل لي عند سماعي مقطوعات موسيقية بقيادة فورتڤانغلر ومسارعتي للاستماع إلى تسجيلاته من أجل ترسيخ معرفتي بها، بدأتُ أستعير كتبَ منير الحاويةَ مقتطفاتٍ من أعمال كبار الفلاسفة الغربيين للغرض ذاته.

إنّ مثل هذه الفواصل المتواضعة، بل الخفية، التي تَقْطع البلادة والرتابة الإلزاميتين لـ«استجمامنا» في الضهور، منحتني شعورًا ناميًا بالتعقُّد، التعقّد لذاته، لا يتوخى أيّ حلّ له، ولا المصالحةَ بين عناصره المختلفة، وربما كان أخيرًا تعقّداً لم أستوعبه الاستيعاب الكافي. غَلَبَ على حياتي، كما أرادها لي أهلي، موضوعٌ رئيسيّ يتلخّص في أنّ كل شيء يجب حشره في قوالب معدّة سلفًا يفضّلها أبي وتتجسد في أقواله المأثورة: «اِلعبْ الكريكيت»؛ «لا تكن مَدينًا ولا دائنًا»؛ «اِعتنِ بأمك»؛ «اِحمِ شقيقاتك»؛ «ابذلْ قصارى جهدك». ولقد توجّب على «إدوارد» أن يجسّد هذه المأثورات كلها، مع أنّ أمي كانت تتفهم بعض دوافع الشرود عن تلك القيود، غير أنها، بروح المناكفة التي لها، لم تتخلَّ عنها جهارًا أبدًا. ولعلّ وصفات أبي لم تكن تتفق وأسلوبَها في النظر إلى الأمور، غير أنها غالبًا ما كانت تدعمها بقولها «أنا وأبوك نعتقد...». ومع ذلك، ظلّ يربط بيني وبينها عهدٌ مُضمَر يشجعني على الموسيقى والأدب والفن والاختبار، على الرغم من المهمات السخيفة والكليشيهات الاختزالية. وأذكر أني حدثتُها عن **الأبله** عندما كنتُ في الخامسة عشرة بعد أن سمعتُ بالرواية من منير وأصدقائه. وكانت قد قرأت الرواية وأَسَرَتْها طيبةُ ميشكين المربِكة، وحثّتني على قراءة **الجريمة والعقاب** وقد فعلتُ ذلك من بعدُ، مستعيرًا الكتابَ أيضًا من منير.

لازمني هذا الشعور بالتعقّد بما يتجاوز قيود الضهور المروّعة، وظلّ ينمو في داخلي بعد مغادرتي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥١. والمفارقة في الأمر أنّ بذور ذلك التعقّدُ بذِرتْ في زمن حرماني الأكبر، عندما كنتُ أتجول في طرقات المصيف الجرداء لا يشغلني سطحيًا غيرُ الحرّ وشعورٌ عميم بالاستياء. وقد ابتكرتُ تدريجيًا

الوسائل لاستعارة الكتب من معارف متنوعين. ومع انتصاف مراهقتي، بدأتُ أعي أني أقيم الصلات بيُسْرٍ كبير بين كتب وأفكار متباعدة، فصرتُ أتساءل، مثلاً، عن الدور الذي تلعبه المدينة الكبرى في أدب دوستويفسكي وبلزاك، وأقارن بين شخصيات مختلفة تعرّفتُ إليها في الكتب التي أحببتُها (مرابين، مجرمين، طلابًا) وبين أفراد التقيتهُم أو سمعتُ عنهم في الضهور أو القاهرة. وكانت مَلَكَتي الأقوى هي ذاكرتي التي سمحتْ لي بأن أستعيد بصريًا مقاطع كاملة من كتب، وأن أتصوّرها كما وردتْ في الصفحة ذاتها، ثم أروح أتلاعب بالمشاهد والشخصيات واهبًا إياها حياة متخيّلة تتجاوز صفحات الكتاب. فاختبرتُ لحظاتٍ من غبطة الاستذكار تسمح لي بأن أتجاوز بحرًا من التفاصيل، لأعيّن أنساقًا وجُملاً وكتلاً من الكلمات أتخيّلها تتمدّد متسلسلةً إلى ما لا نهاية. خلال مراهقتي، لم أستطع الإحاطة بذلك النسيج بأكمله أو اكتناه معناه الفعليّ. فكل ما عرفته عنه أنه موجود وأني أستطيع أن أحدس أولياته المركّبة وأن ألتقط العلاقات الحيوية القائمة بين الكولونيل فايز نصّار، مثلاً، وابنِ أخيه هاني وعائلةِ بدر ونوعٍ معيّنٍ من الأثاث وبيني أنا وشقيقاتي ومدرستنا والمعلمين والأصدقاء والأعداءِ والثياب وأقلامِ الرصاص وأقلامِ الحبر والأوراق والكتب.

كنتُ أنسج تلك العلاقات، وأُعيد نَسجها في ذهني، سُداها سطحُ الواقع المبتذل ولكنّ لُحْمتها مستوى أعمقُ من الإدراك لحياة أخرى مليئة بعناصر جميلة مترابطة – شَذَرات أفكار، مقاطع أدبية، مقطوعات موسيقية، نبذات تاريخية، ذكريات شخصية وملاحظات يومية – تتغذى لا من «إدوارد» الذي يُسْهم في إنتاجه أهلي والمعلِّمون والملهِمون الفكريون، وإنما تتغذى من ذاتي الجوّانية الأقل طواعيةً، ذاتي السرّية التي تستطيع أن تقرأ وأن تفكّر بل أن تكتب باستقلال عن «إدوارد». وأعني بـ«التعقُّد» نمطًا من التفكُّر ومن التفكُّر بالذات يملك تماسكًا خاصًا به، رغم عجزي عن التعبير عن ذلك المسار خلال بضع سنوات. وكان التعقّد شيئًا خصوصيًا ومتفرّدًا يهبني القوة عندما تخور قوى «إدوارد». كثيرًا ما حدثتني أمي عن «برودة» آل بدر، وهي لونٌ من التحفّظ والتشامخ ينمّ عنه بعضُ أبناء أخوالها وخالاتها وأبنائهم، وعن خصائص ورثتُها عنهم (تقول لي «ورثتَ حَدَبَة بيت بدر» أو «أنت مثل إخوتي، لن تكون رجلَ أعمال ناجحًا، لستَ حاذقًا في هذا الميدان»). وقد عزوتُ هذا

التشامخ وذاك التفرّد في شخصي إلى حاجتي لأن أبني دفاعات لحماية تلك الذات الأخرى التي ليست هي «إدوارد». وخلال القسط الأوفر من حياتي، أحببتُ وذممتُ على نحو ملتبس تلك النواةَ الصلبةَ من الانعزال الجليديّ التي أثبتتْ مناعتَها تجاه بلايا الضياع والحزن وعدم الاستقرار أو الإخفاق التي حلّت بي.

وذاتَ صيفيّةٍ، دخل حياتي في الضهور صديقان جديدان يناسبان الرقيَّ العقليَّ المتزايد، وغيرَ المعترف به، لحياتي الجوانية. جون الراسي، الابن البكر لإحدى زميلات أمي في المدرسة، كان مثلي طليقًا على نحو استثنائيّ في اللغة الإنكليزية، يهوى الموسيقى، وموهوبًا في الألعاب والحِرف. أمضت عائلة الراسي صيف العام ١٩٤٧ في منزل وراء فندق المدوّر، إلى يسار الساحة الرئيسية، على مسافة مِيل أو أكثر من بيتنا. أَعجبني في جوني (وكان يكبرني بأربع سنوات أو خمس) عباراتُه الإنكليزية المصوغة بتأنٍّ ودقة وتماسكه الاستثنائيّ. وكان يحدثني عن الكتب والموسيقى – وقد تعرّفتُ منه إلى «الصيد»، سوناتا بتهوفن للبيانو على مقام «إي» الصغير، يؤديها كلاوديو أرّو – وعن الأوجه الأكثر رقيًا للعبة الشطرنج، وهي لعبة لم أتمكن منها ولا استمتعتُ بها بنوع خاص، اللهم إلا عندما كان جوني يتحدث عنها وعن كتاب ستيفان زفايغ **لعبة الملوك**. ولستُ أذكر أنّ حديثي مع جوني تعدى قولي «نعم» أو «لا» وطرحي الأسئلةَ لاستدراجه إلى المزيد من الكلام، فيما أنا أصغي إليه في حال من الجَذبة. وما لبث جوني أن تخرّج طبيبًا نفسانيًا وتزوج من ممرضة أميركية وعاش في روتشستر (حيث زرتُه في «مستشفى سترونغ التذكاريّ» عام ١٩٥٦) ثم في أريزونا ولم أره بعد ذلك. بعد سنوات عديدة، ذكّرتني والدتُه سُميّة، كيف أني، في عام ١٩٤٩ أو ١٩٥٠، قلتُ لها شاكيًا، بعد إقلاعهم عن الاصطياف في الضهور، «أين جوني؟ إني مشتاقٌ إليه». ولعلّ ما كان بيننا لم يرقَ إلى مستوى الصداقة، بكل ما في الكلمة من معنى، لأنها علاقةٌ وحيدة الجانب، لكنّ جوني فتح لي عالمًا غنيًا من أين لي أن ألقاه في مكان آخر من ضهور الشوير.

صديقي الآخر، من أيام الضهور الأولى أيضًا، هو رمزي زين، وكان والده زين زين، مدرّس مادة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت، أحد أعضاء طائفة البهائيين. ولم نكن نراه كثيرًا في الضهور بقدر ما نراه خلال زيارتين يقوم بهما سنويًا إلى القاهرة. والبروفسور زين راوٍ موهوب، اصطحبني في أول زيارة لي إلى

متحف، هو متحف الشمع في القاهرة. وفي الغرف الخاوية، الهامدة همودَ الموتى، التي تؤطِّر مشاهدَ مُتقَنَةً من تماثيل الشمع لحقبات من تاريخ مصر الحديث، شرع زين يروي لي حكايات أسرة عن محمد علي باشا وبوناپارت وإسماعيل باشا وثورة عُرابي وحادثة دنشواي. لم ألتقه أو لم أكد ألتقيه بعد بلوغي السادسة عشرة لكني علمتُ أنه خلال الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥-١٩٩٠ كان سافِراً في عدائه للمسلمين والفلسطينيين، وأنه رفض أن يغادر بيته طوال الثمانينيّات، إلى أن توفي وحيدًا وله من العمر تسعون عامًا.

كان رمزي زين ولدًا وحيدًا مثلي. على أنّ عائلته ابتنت له كوخًا خشبيًا صغيرًا أخضر اللون في كَرْم عِنَب على مرمى حجر من بيتنا الحجريّ الثقيل الوطأة. ولم أكن قد شاهدتُ مكانًا كذلك المكان من قبل. غير أنّ رمزي، في صحبة أرانبه الداجنة ومقلاعه الصغير الذي لا يخطئ هدفه، والذي صنعه بنفسه من غصن سنديان التقطه أمام البيت، كان يمثّل كلَّ ما رغبتُ في أن أكونه: طفلاً للطبيعة، سعيداً، مطمئنَّ البال في بيئة الضهور الماحلة. فقد أضفى رمزي على جفاء المكان بعدًا تأمليًا نادرًا. ولكنّ حضوره في الضهور، مثله مثل حضور جوني، كان وجيزًا جدًا، وإذ تنقضي الصيفيات وأسترجعها الآن بحزن، فلا بد من أن أضيف أنه كان حضورًا ثمينًا جدًا. لم أبقِ على علاقة مستمرة بجوني أو رمزي تتعدّى طفولتي المتأخرة، وقد توارى كلاهما عن حياتي بعد ذلك.

وكأنّ أبي أراد أن يعوِّض عن غيابه، فأخذ ينظّم سلسلة من الرحلات العائلية عبر الأرجاء اللبنانية، بعد عودته من الولايات المتحدة الأميركية في أواسط صيف ١٩٤٦. تعرّف إلى جميل يارد، مالك سيارة تاكسي قرنفلية اللون ذات سبعة مقاعد. وفي تلك السيارة اللافتة للأنظار زرنا شلال حمانا ومرتفعات صنّين وغابة الأرز في الشمال، المخيّبة للآمال بعضَ الشيء، وعين زحلتا وكسروان ووادي قاديشا وبيت الدين. ولا شك في أنّ تلك الرحلات أتاحت لنا فرصةً مغادرة ضهور الشوير خلال النهار. غير أنّ قضاء ثلاث ساعات أو ست على الطريق، في كل اتجاه، والوصولَ إلى مقصدنا حيث نتناول الغداء في مطعم يختاره يارد قبل أن نُقْفل عائدين إلى الضهور، تَصعب تسميته نزهةً. ثم اكتشفنا أنّ شقيقتي جين، وكان لها من العمر ست سنوات، تصاب بدوار السيارات، فيهيمن توعّكُها على الرحلة

ويُفْسدها علينا جميعًا إلى حد ما، ما عدا أبي الذي كان يحافظ على لامبالاته العنيدة. أما الطعام فكان هو نفسه تقريبًا، مع تنويعات محلية تمنحنا الانفراج المُسلّي: في عين زحلتا، قيل لنا إنّ مياه النبع صَقِعة إلى درجة أنها تَفْلق البطيخة. وفي بشرّي - حيث قمنا بزيارة عابرة، في خمس وعشرين دقيقة، إلى منزل جبران خليل جبران «كما غادره»، بفِراشه غيرِ المرتّب وسلّةِ المهملات الملأى - كان المطعم المحليّ متخصصًا بتقديم الدجاج المشويّ. وبينما نحن نتجوّل في طول البلاد وعرضها افترضتُ أنّ عدم اقتدائنا بخريطةٍ أمرٌ بدهيّ. والحقيقة أنه لم يكن من خرائط أصلاً، ، وجميل يسوق سيارته بالسليقة، معظمَ الأوقات، وهو ما كان يستدعي غالبًا وقفاتٍ عديدةً للسؤال عن اتجاه السَير. فلم يكن في لبنان آنذاك إعلاناتٌ او إشاراتُ مرور أو خدمات سياحية. تصل رَيْفونَ فكأنك تدخل فجأة بلدًا جديدًا، يحدّق إليك الأهالي محاولين استيعاب معاني ذلك الخليط الغريب من العاميتَيْن المصرية والفلسطينية الذي يلهج به أبي. وفي المقعد الخلفيّ، تَسْخر أمي بلطف من عثراته اللغوية: «مَنْ قال له إنّ هؤلاء القوم يفهمون كلمات من نوع "هالقَيتْ" ("الآن" في اللهجة الفلسطينية) او "بَدْري" ("باكرًا" في اللهجة المصرية)؟». وإذ نترجّل من السيارة الطويلة القرنفلية اللون، كنا نبدو بلا شك مثلَ عائلةٍ من الأجانب الغريبين الممرّغي الثياب القادمين من وراء المحيطات، لشدة ما لقينا من تحفظ وحذر في ردود الفعل تجاهنا. فاكتسبتُ من تلك الجولات عادةَ أن أرتدي دومًا ثيابًا مختلفة عن ثياب السكان المحليين، كائنًا مَنْ كانوا، وهي عادة رحتُ أنمّيها لاحقًا.

وإني ما أزال أندهش لا من مواظبتنا الدؤوبة على تلك الرحلات وحسب، وإنما أيضًا من قلة ما تعلمناه خلالها عن لبنان عمومًا أو عن الأمكنة التي زرناها خصوصًا. اعتمدنا كثيرًا على السائق الذي كانت معرفته، على محدوديتها، متفاوتة وفولكلورية وطَعَامية أساسًا: «العِنب هنا من أجود ما يكون» أو «حقاً، هنا عليكم شراء جَوزهم الأخضر». ولم يكن يملك إلا النزر اليسير من المعلومات التاريخية يفيدنا به، فاكتفينا بـ«الحقائق» الجغرافية مِنْ مثل أنّ عين زحلتا أقلّ ارتفاعًا من ضهور الشوير. وفي أحيان متباعدة كنتُ أستشف من أحاديث متبادلة بين أهلي وبين أحد النُّدُل أو الـ«ميتر دوتيل» أنّ قرية بعَينها مارونية أو أرثوذكسية أو درزية.

غير أنّ الشعور الطائفيّ المستعِر في الأنحاء اللبنانية، الذي سوف أكتشفه لأول مرةٍ في منتصف الخمسينيّات، كان لا يزال في حال ضمور آنذاك.

بدا الموقع المخصوص لأقارب أمي البروتستانتيين، آل بدر، موقعًا جدّ متميّز، على أنّ تحوّلهم المستغرَب لاحقًا إلى المذهب الكاثوليكيّ لم يتكشّف بشكل كامل إلا بين أواخر الخمسينيّات والسبعينيّات. وآل بدر من الخنشارة أصلاً، وهي بلدة متوسطة الحجم في الشمال الشرقيّ، وقد انتقلوا إلى الشوير منذ حوالى المئتيْ سنة. وشغل جدّ أمي يوسف بدر منصبَ القِسيّس البروتستانتيّ الإنجيليّ في مرجعيون (الواقعة الآن تحت الاحتلال الاسرائيليّ*) ثم في بيروت. يتحدث المرسَل الأميركيّ هنري جيسوب في سيرته الذاتية وعنوانها: **ثلاث وخمسون سنة في سورية**، عن يوسف بدر بصفته أول قسيس من «السكان المحليين» في لبنان، سِيْمَ قسيسًا حوالى العام ١٨٨٠. وقد ظل آل بدر، وأبناء فرعهم البروتستانتيون في فلسطين، تابعين للإرسالية البروتستانتية الأميركية في لبنان، ويتبنَّوْن أيضًا تفسيرًا صداميًا، بل عدوانيًا، لمعنى أن يكون المرءُ مسيحيًا في الديار الإسلامية. درس أبناء أخوال أمي، وكذلك أخوالها أنفسهم، في الجامعة الأميركية في بيروت (الكلية البروتستانتية السورية سابقًا) وكانوا جميعُهم، ولا يزالون، متمسكين بأهداب الدِّين، وقد عزّزوا انتسابهم المذهبيّ من خلال زيارات متكررة إلى الولايات المتحدة ومتابعةِ دراساتهم العليا فيها، وإني أرى الآن، في نظرة استرجاعية، ضرورةَ أن أضيف إلى ذلك تماهيهم الوثيقَ جدًا مع الآراء الأميركية عن الإسلام بوصفه ديانةً منحرفةً غيرَ قابلةٍ للتجدّد.

لمحتُ إرهاصات مُبكرة لذلك العداء للإسلام تحت الأجواء المرحة التي سادت الاجتماعات العائلية في الضهور. وبدت لي تعبيراً عن حماس متزمّت للمسيحية، وهو حماسٌ غيرُ عاديّ لن تلقاه حتى بين الأتقياء المقدسيين. ولأنّ اسمي «ادوارد سعيد»، فقد اعتبروني مسيحياً في لبنان، مع أني، إلى يومنا هذا وبعد سنوات من الاقتتال الأهليّ، أعترف بعجزي عن الشعور بأيّ تمامٍ على الإطلاق مع الفكرة القائلة بأنّ المسيحية ديانة يهدّدها الإسلامُ. ولكنْ عندما أخذتِ ابنتا خال أمي

* ـ تحررتْ مرجعيون في أيار ٢٠٠٠، بعد صدور الكتاب. (الناشر)

وزميلتاها في المدرسة وصديقتاها الحميمتان، إيفا وليلي، تُبديان بعضَ التشكيك في العرب عمومًا وفي العروبة معتَقَدًا، لم يحيّرني الأمرُ، لأنّ لغتهما وثقافتهما وتربيتهما وحبّهما للموسيقى، وتمسكهَما بالتقاليد العائلية، وطريقةَ تصرّفهما، كانت كلها عربية قحّة أكثر مما كانته هذه كلها في عائلتنا. في ما بعد، رأيتُ تلك الإيديولوجية المسيحية العدوانية متفارقة جدًا ومرفوضة، لافتقاري، ومعي الجميع في محيطنا العائليّ المباشر، إلى أيّ شعور بالعداء الدينيّ أساسًا تجاه المسلمين.

ومهما يكن من أمر، فقد طغى جوّ من الأُلفة المحببة على علاقاتنا بأقرباء أمي اللبنانيين، على امتداد الأربعينيّات ومطلع الخمسينيّات. فالخال حبيب، شقيق تيتا منيرة وأنطي ميليا، جنتلمان معتدل المزاج، ذو سخرية ملطّفة، أمضى سنوات عديدة مع زوجته وأولاده يعمل موظفًا في الإدارة المدنية البريطانية في السودان. وزوجته هناء امرأة فائقة البراعة، سريعة الخاطر، تحظى، كما زوجُها، بإعجاب ومحبّة كبيرين. فؤاد، ابن خال أمي، هو النسيب المفضّل من عائلتنا جميعًا. كان يَكْبرني بسنوات أكثر من أن أستطيع أن أعتبره صديقًا لي، ومع ذلك نشأتْ بيننا علاقةٌ وثيقة. في الخمسينيّات، كنا نلعب الزوجي في التنِس معاً، وقد أعجبتُ على الدوام بجسارته وبفروسيته مع النساء، وبودّه، وفكاهته الساخرة التي تصل حد السخرية من النفس. أما سائر أبناء بدر المجايلين لأمي، فكنا نلتقيهم بين الحين والآخر عندما يصطافون في الضهور: ليلي وزوجها ألبرت (وهو ابن خال أمي أيضًا) وإيلين، الصغرى، وزوجها فؤاد صبرا، شقيق وداد وصديقنا من أيام مستشفى كولمبيا البرسبيتيريّ، وأخيرًا إيفا، الكبرى، وزوجها الفيلسوف والدبلوماسيّ شارل مالك، الذي سوف يلعب دورًا هامًا في حياتي وتطوري الفكريّ في ضهور الشوير.

ما لبثت الصداقة المريحة والودية التي تمتعنا بها مع آل بدر في لبنان أن بَرَتْها الأمراضُ والوفياتُ والسفراتُ والخلافاتُ وفتراتُ الانقطاع الطويلة. ولكنها، خلال الأربعينيّات والخمسينيّات، خفّفتْ من صرامة الحياة اليومية في الضهور ومن مَحْلها. فزيارةٌ عَرَضية إلى خال أمي المسنّ حبيب كانت توازي لوح شوكولاتة وكأس ليموناضة إضافةً إلى رواية مثيرة عن الحياة في الخرطوم بُعَيد الحرب العالمية الأولى. وعندما كان بعضُهم يزورنا للغداء أو العشاء، تَغْمر المائدة بطعام لذيذ للكبار ويسود جوّ من الوفرة الاحتفالية ومن الشعور بزوال الحواجز، وهو ما

يضفي شيئًا من الحيوية على صيف بلا حياة. في عام ١٩٤٧، أجرتْ أمي عملية زرع للأنسجة لتحديدِ ما إذا كانت مصابة بسرطان الثدي أم لا، وتبيّن أنها سليمة من المرض. فاحتفلنا بالنبإ السارّ في غداء عائليّ باذخ بدعوة من أبي في عين النعص، وهو نبع مشهور قرب بكفيا يجاوره مطعم ممتاز. حضر جميع آل بدر، كبيرُهم وصغيرُهم. ولعلها كانت آخر مناسبة عائلية سادها الانسجامُ قبل العام ١٩٤٨ وما تلاه من الاضطرابات اللبنانية المتنوعة. شربنا العرق جميعًا، ودخّن البعض النارجيلة، ونظّم أبي لعبةَ بريدج في إحدى الزوايا. أما نحن، فوجدنا أرجوحات النعص مثيرةً بنوع خاص لأنها مزوّدة بسلاسل أطول ومقاعد أوسع وتبلغ ارتفاعًا أعلى من أيٍّ من مثيلاتها في الضهور.

في ذلك العام بالذات، علَى ما أعتقد، قرر أبي ممارسة صيد العصافير لأنّ زميلاً له من لاعبي البريدج أبلغه أنّ الصيد مفيدٌ صحيّاً له. فعاد إلى البيت ذاتَ مساء من لعبة البريدج حاملاً بندقية فرنسية نحيلة وسوداء اللون في يد، وفي اليد الأخرى علبةَ خرطوش وحزامًا. وأذكر أنه أعلن بحماس: «قالوا إنّ الصيد يساعد على الاسترخاء». بعد فطورنا الباكر جدًا في الصباح التالي، تنكّب بندقيته من عيار ٩ ملم، وتحزّم بحزام الخرطوش وخرج قاصدًا بُستان تِينٍ يبعد بضع مئات من الأمتار عن بيتنا، بحثًا عن طير كبير وسمين بنوع خاص يتردد على تلك الأمكنة ويُفترض أنّ طعمه لذيذ. وبعد ساعة أو ساعتين، عاد خالي الوفاض، فبدّل بزته المرّغة ببذلة لا تقل عنها رثاثةً ومضى إلى ساحة البلدة لمواصلة روتينه العادي: «قال لي أحد البساتنة إنه يتعيّن عليّ تحقيق أمرين: أولهما، أن آتي في حوالى السادسة، والثاني، أن لا أتجول بحثًا عن الطيور بل أَجلس بهدوء تحت شجرة وأنتظر قدومها». في صباح اليوم التالي، غادر أبي باكرًا مزوّدًا بمسند برتقاليّ اللون من المساند التي صنعتها أمي لغرفة الجلوس وبكتاب، ما دام لم يكن في حاجة إلى أن ينزعج في جلسته أو أن يتبطّل خلال نوبة الانتظار. وقد واظب على تلك العادة أسبوعًا، على ما أعتقد، وكان يعود دائمًا بلا عصافير، بل هو لم يكد يُطْلق النار من بندقيته. وخلال الأيام الأولى، كان ينظّف ماسورة البندقية لبضع دقائق بفرشاة طويلة من الوَبر الأخضر، يغمّسها بالكاز. لكنه ما لبث أن أقلع عن ذلك إذ تبين له أنّ قلة استخدامه للبندقية تكاد لا تستوجب مثل هذا المجهود.

وأخيرًا، عاد إلى البيت، بعد عشرة أيام، حاملاً ستة عصافير سمينة فاعترضته أمي سريعًا، يَدْفعها قرفٌ لم تستطع إخفاءه إلى حمل تلك الأشياء الميتة إلى المطبخ بأسرع من المعتاد. أكلناها على الغداء - كائناتٍ منمنمةً قاسيةَ اللحم وبحجم الضفادع. ثم أحطنا جميعنا بأبي - أنا وأمي وشقيقاتي - كأنه بطلٌ من الأبطال، لانبهارنا بنجاحه المدهش وإنْ يكن مباغتًا. وبقدر ما ألححنا عليه بالأسئلة طلبًا للتفاصيل عن أين وكيف حقق ذلك الفتحَ العظيمَ، ازدادتْ أجوبته اقتضابًا، وقد بدا مُفحَماً بلجاجة استفساراتنا، إلى أن تملّص منا أخيرًا وتوارى في غرفته. وبعد ذلك، اعترف لأمي بأنه اشترى العصافير من صيّاد شاب كان أكثر احتياجاً للنقد الجاهز منه إلى ستة عصافير ميتة.

أدى ذلك الحدثُ عمليًا إلى توقف أبي عن ممارسته هوايةَ الصيد القصيرة العمر، وانتقلت البندقيةُ إليّ. وخلال السنة الأولى من مجازفتي التوغُّلَ في الأحراج خلف بيتنا، كانت مشكلتي الرئيسية أني لا أستطيع إغماض إحدى عينَيّ، فاصطنعتْ لي جدّتي عصبةً من منديل يدويّ أعصُبُ بها عيني اليسرى عند الاستعداد لإطلاق النار. على أنها كانت عملية معقدة بحيث انّ العصفور كان يطير على الدوام قبل أن أستطيع تعيينه في جهاز التصويب. وأَذْكر أني أمضيتُ ساعات وساعات أتمرّن فيها على رَبط العُصبة على عيني أولاً ثم رَفْع خدّي الأيسر لإغماض عيني. وقد ظللتُ عند هذا المستوى البدائيّ خلال السنوات الأربع أو الخمس التي مارستُ فيها الصيد، توافقني أمي عليه على مضض (إذ عدّت الأمر استمرارًا للمهمات المستهلِكة للوقت التي كانت تفرضها عليّ). لم أعتبر أني صيّاد ماهر، ولكنّ مجرد عودتي إلى البيت حاملاً بعضَ العصافير القتيلة كان إشارة إلى أني أَبْليتُ أحسن من أبي. صحيح أني تعرفتُ إلى مختلف البقع الحرجية المجاورة لبيتنا، غير أني وجدتُ التجربة باهتةً ومملّة، على العموم. وحين نجحتُ مرةً في إقناع شقيقتي جين بمرافقتي، ألفيتُها تستمتع بالغزوة أكثر مني.

جاءتْ أولُ مناسبة صيفية للدراسة عام ١٩٤٩ عندما طُلِب مني أخذُ دروس استلحاق في الهندسة تمهيدًا لدخولي فكتوريا كولِدج في الخريف التالي. تولى المهمة أحد زملاء أبي في لعبة البريدج، وكنتُ أقصده إلى بيته الواقع في منتصف الطريق إلى عين القسيس ثلاثةَ صباحاتٍ في الأسبوع لتلقي ساعتين من الدروس

الخصوصية. والأستاذ عزيز نصر، الفائق اللطف، مهندس متقاعد عمل في العراق سنوات طويلة قبل أن يعود إلى قريته. ولاعتقادي أنه ابنُ عم صاحب المقهى، ازدادت أوراقُ اعتماده جاذبيةً في نظري. وقد بهرني بحركاته المختصرة والدقيقة لا لرجاحة المنطق الهندسيّ الذي تروم توضيحه، بقدر ما كان ذلك لبراعته الاستثنائية في التخطيطات والرسوم التي كان يُنتجها خلال الدرس. استحصل لي أبي على كتاب **الهندسة لشهادة أُكسفورد وكمبردج المدرسية** – وهو كتاب رماديّ سميك راعب الجدّية لا يلطِّفْ منه أيٌّ من الصور التي أَلِفتُها في كتب التمارين في «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» – فقادني الأستاذ نصر عبره صفحةً مرعبة بعد صفحة مرعبة. خلال الامتحانات نصف الشهرية، كان للسيد نصر مَيلٌ يتعذّر تعليله إلى أن يعيّن لي لا الأسئلة والمسائل العادية التي يوردها مؤلِّف الكتاب، وإنما ما يسمى «الملاحق»، وهي مسائل بالغة الصعوبة كان يظن أني قادرٌ على حلّها. ولم أتمكن من ذلك إلا في ما ندر. ففي معظم الأحيان، كنتُ أتخبط على نحو رديء، ثم أروح أنتظر بهدوء مراجعته لمجهوداتي غير الوافية، إلى أن ينفد صبرُه فيمزِّق، بحركة مباغتة، الصفحةَ المُغيظة من دفتر التمارين ويتولى حلّ المسألة بنفسه على صفحة جديدة وبطريقة لا تخلو من الأناقة، على ما اعتقدتُ حينها. وبعد عشرة أسابيع من ذلك، كتب تقريرًا عن تطوري الذي لا يخلو من الشواذ، شدّد فيه على ذكائي ولكنْ أيضًا على ضعف التركيز لديّ وعدم رغبتي في بذل أفضل ما عندي في جميع الأوقات، الخ. وقد كلّفني هذا التقرير (غيرُ المنصِف لإغفاله ذكر «الملاحق») تأنيبَ أبي المألوف: «إنك لا تقدّم أبدًا أفضلَ ما عندك، يا إدوارد». أما أمي فكانت لها نظرةٌ اكثر دراماتيكية، حتى لا أقول كارثية، إلى فرصي في النجاح في المدرسة الجديدة التي أتأهب لدخولها والتي يُفترَض أنها اكثر جدية وتطلبًا من سابقاتها: «إلى أيّ مصير، يا إدوارد؟ هل ستظل تفشل وتسيء التصرّف دائمًا؟ تذكّرْ مِس كلارك: لقد فهمتُكَ أفضل من أيّ شخص آخر. متى سوف تتحسن؟».

خلال صيفيات الضهور تلك، أعترف بأني مارستُ ألوانًا من السلوك البغيض، هي في معظمها نتاج فترات الوحدة القسرية التي فُرضتْ عليّ في غرفتي الكئيبة بعد أن يصدر إليّ الامر: «اِقلعْ ثيابك واذهبْ فورًا إلى الفراش وممنوع عليك المطالعة». وأذْكر بوضوح أني، خلال الساعات التي كنتُ أستلقي فيها على الفراش،

غطيّتُ ذات مرّة الجدار ببقع من البصاق، ممطراً المساحةَ المحاذية لي - المغريةَ بفراغها ولونها الأبيض - بوابلٍ من القذائف المحكمة التصويب. وغنيٌّ عن القول إنّ هذا زاد من غضب أمي عليّ. فحُرِمتُ لحظاتِ حنانٍ كثيرةً ذلك الصيفَ الطويلَ. أضفْ إلى هذا أنّ علاقتي بشقيقتيّ الكبريَيْن، جين وروزي، كانت في العادة شائكة وخصامية، وقد شعرتُ بأني فقدتُ تدريجيًا الحميميةَ، بل الوفاقَ، اللذين كانا قائمين بيننا.

ظلّت أمي، إلى يوم وفاتها، ثنائية العلاقات، أيْ كانت تشجعنا على أن نتعامل واحدُنا مع الآخر من خلالها هي. لم أكن واعيًا حينها أني دخلتُ مدارها ولا أني سعيتُ إلى ذلك سعيًا، ولكنّي لاحظتُ أنها تخص برعايتها كلَّ واحدٍ منا على حدة. «لماذا لا تكون أكثر اجتهادًا مثل روزي؟» قد تسألني، أو عكسًا تقول: «لا تملكُ أيٌّ من شقيقاتك موهبتك الموسيقية». فإذا جين في نظرها أكثر مرحاً من روزي، وروزي أقوى عزيمةً من جين، وإدوارد يسيء التصرّف عندما نكون معًا. هكذا، عشنا في دنيا أساطير أمي، نؤدي الأدوار التي تعيّنها لنا. ولستُ أدري إلى الآن كم من الشكاوى الصادقة التي بُحتُ لها بها قد احتفظتْ بها لنفسها فعلاً، وكم منها أَفْشتْ به إلى أبي وشقيقاتي. كنتُ في حاجة إلى أن أفتح لها قلبي، وأنا مدرك، في الآن ذاته، أنّ ذلك يجعلني أضعف مناعةً أمام تلاعبها بي لاحقًا. ومع ذلك، ظللتُ أحاول التقرّب منها واستدراجَ حنانها نحوي. وهي، من جهتها، لم تكن تتركني لحالي في الضهور، وأعتقد أني، في نهاية المطاف، تمثلتُ تبرّمَها، وانشغالَها الذي لا يكلّ بالتفاصيل، وعجزَها عن أن تركن مرةً إلى السكينة، وطريقتَها المميزة في أن تحرم نفسها باستمرار من صبّ اهتمامها على أمر معيّن أو التركيز عليه. كانت أمي ذات ذكاء حاد ومرهف انجذبتُ إليه، ولكنها كانت تعمل على حجبه لتصوِّرَ نفسها امرأةً مغلوبةً على أمرها ومخدوعةً أو متحايَلاً عليها وملحَقَةً بجَبَروت أبي. وأذكر إعجابي بجهودها المتقطعة وغير المكتملة لمواصلة دراستها في اللغة الفرنسية والإنسانيات والاختزال، بيد أنها على رغم سنواتٍ من التسامح الناقم تجاه إدمان أبي لعبَ الورق، لم تَدْرس بجديةٍ إلاّ لعبة البريدج، فصارت لاعبًا مكرّسًا بعد وفاته.

في اسوإ الحالات، يمكن وصف ذلك أنه عَرَضٌ من أعراض ضهور الشوير، أصيبت به أمي لأنها شعرتْ أنها تُرِكتْ على نحو مجحف لتتدبر أمورها بنفسها،

بصفتها كائنًا غير مكتمل توجَّب عليه أن يحاول، بطريقة محمومة ولكنْ بلا كبير نجاح، التعاملَ مع كل شيء يراه أمامه، مثلَ بهلوان السيرك الذي يتوجب عليه أن يمنع عدداً أكبر مما ينبغي من الصحون الدوّارة من أن يسقط من فوق عددٍ أكبر مما ينبغي من القضبان. غير أني لم أشكَّ مرةً في أنها تعرفني حق المعرفة، على رغم مقدرتها غير المحدودة على التلاعب بنا دائمًا. غريزيًا، وجدتُني منجذبًا إلى أشخاص من معارفنا لا تعرفهم أمي معرفةً جيدة، وصار اكتشافي لحيوات أخرى، وحكاياتٍ أخرى، وسيلتي غيرَ الواعية للبحث عن بدائل لسيطرة أمي. وهكذا، فإنّ الدكتور فايز نصار، وزوجته الثانية، فينا، وهي امرأة مرحة مغناج كنتُ أجدها شديدة الجاذبية، سرعان ما صارا مصدرًا أثيرًا من مصادر المعرفة التقليدية الغرائبية بالنسبة إليّ، بما يتجاوز آفاق الضهور المُضجرة. التقينا فينا ووالديْها أصلاً في القاهرة مطلع الأربعينيّات، وكانت آنذاك متزوجة من رجل مصريّ ما لبث أن توفّي. فعاشت في القاهرة أرملةً شامية، إلى أن التقتْ فايزًا فتزوجته وجاء بها إلى بيروت مع ولديها. أما هو فقد تعرفنا إليه بواسطة إميل نصّار، ابنِ عمه وجارِنا في الطابق السفليّ. وقد انعقدتْ صلتي بفايز عندما بدأ يزورنا دوريًا للعب البريدج أو «الطاولة» مع أبي.

رأيتُ إلى معظم آل نصّار، بعين البروتستانتية المحدّقة، على أنهم أشبه بشبكة واسعة من أبناء عشيرة نابضة بالحياة ولكنها تدعو إلى الشبهة بعض الشيء لما فيها من مطلّقين وإخوة غير أشقاء. وكان فايز نصار مثلهم رجلاً صغير القامة، مائلاً إلى البدانة، له شارب مقصوص بعناية على شكل فرشاة، يتحرك ويتكلم بوقار وبطء مؤثِّرين. عرفناه أصلاً «الدكتور فايز»، ولكنْ ما إنْ أصبح هو وأبي شريكين منتظمين في البريدج حتى تبيّن لنا أنه كان كولونيلاً في الجيش المصريّ في السودان، فصار أبي يناديه «الكولونيل» من قبيل المزاح، وسرعان ما حذا الجميعُ حذوه. وعلى رغم مظهره الجدّيّ، ولأنه لم يكن يتعالى عليّ في الحديث، فقد صار الوحيدَ بين الكبار في ضهور الشوير الذي أَعتبرُه صديقًا لي. بهرتني فتراتُ صمته المدروسة وتحفّظه. وكثيرًا ما كان «الكولونيل» يَسْعد لتأجيل لعبة بريدج مسائية في بيتنا ليقصّ عليّ حكايات عن صيد الحيوانات الضارية بإنكليزيةٍ مفخّمة تتخللها مفرداتٌ وعباراتٌ كولونيالية من مثل حديثه عن «حاملي محفّتي من

السكان المحليين» أو «فِيلي المحبّب»، وهي مفردات وعبارات تثير الذكريات عن افريقيا الأسطورية التي لمحتُ مشاهد منها في كتب وأفلام طرزان التي شُغفتُ بها على الدوام. وعندما كبرتُ، اكتشفتُ أنه ابتكر بعض قصصه، عن «القطط الكبيرة» مثلاً، لتسليتي أكثر من صدورها عن تجارب محدّدة خاضها هو نفسه. على أنّ هذا لم يغيّر من مهابته في شيء، ولا تغيّرتْ فتراتُ صمته الطويلة والجليلة. وخلال سنواتي المبكرة، ساورني الانطباعُ بأنه يروي تلك القصص التي يتخلّلها ذلك العددُ الكبير من فترات الصمت والكثيرُ من التروي لكي يستحضر التوتر الذي يسود مطاردةً حقيقةً في الأدغال، ولكنْ ما إن تقدَّم بنا العمرُ كليْنا حتى أدركتُ بحزن أنّ ذاكرته وذهنه بدأا يخذلانه تدريجيًا.

لاحقًا، أبلغني أحدُ أقربائه، وربما بقصد خبيث لا غير، أنه امتلك امرأةً سودانية سوداء وكان أيضا مشهورًا بأنه ضابط صارم. ولا شك في أنّ الصرامة كانت من خصائص طبعه، غير أني اعتبرتُ ذلك جزءًا من لغزه الجليل، وأنه أمر نادر جدًا في مجتمع مهذار مثل مجتمعنا.

كانت صداقتي لـ«الكولونيل» بمنزلة الترياق من الجوّ المسموم الذي أشاعته أمي، وقد وهبتني النظام والمعرفة والتسلية. ولكنْ مع مرّ السنين، صار بيتُنا أكثرَ حركةً وازدحامًا، ويعود ذلك جزئيًا، على ما أعتقد، إلى قدوم عدد كبير من أقرباء أمي لاستئجار بيوت في الضهور لقضاء عطلة الصيف كلها. وإذ تقدّم العمر بـ«الكولونيل» صرتَ تلقاه يسير متثاقلاً على أرصفة الضهور الضيّقة وغير المرصوفة وهو لم يتخلَّ عن طربوشه الأحمر، الذي بات شاذًا تمامًا، ولا هو تخلّى عن زرّ الورد يزيّن به عروةَ سترته.

توارى «الكولونيل» تدريجيًا من حياتنا، ولم يحتلّ مكانَه أيٌّ آخر يشبهه، بل حل محلّه شبانٌ صغار أقرب مني سنًا، وُجدتْ فيهم رفقة، فيما الضهور تنمو وتصير أكثر دنيويةً. في مراهقتي المبكرة، كانت سينما فلوريدا العتيقةُ، القائمةُ بمحاذاة مقهى السيرك، ذاتُ آلة العرض الوحيدة، تتطلب وقفةً كلَّ عشرين دقيقة لتغيير بكرة الفيلم، وكانت أفلامها مليئة بالكسور والهسهسة والمشاهد السيئة التظهير، وقد سبقتْها سينما سيتي الأكثرُ أناقةً والأوفرُ راحةً التي تعرض أفلامًا جديدة نسبيًا دونما تقطّع. وقد يذهب ثلاثةٌ منا إلى السينما ويلتقون هناك مجموعة

من أبناء أخوالنا وخالاتنا، أو شخصًا تعرفنا إليه ذلك اليوم في ملعب التنس، أو ربما واحدًا من أبناء نصّار يرافقه صديق له من بيروت. وقد بدأتِ البلدةُ تتحوّل إذ أخذتْ تنير قتامتَها العادية قاعةٌ أو قاعتان للعب البليار وملعبُ تنسٍ جديد وبعضُ المحلات المتجددة التي تبيع الأدوات والقمصان بدلاً من المفرقعات وصوف الحياكة، ناهيك عن قدوم مصطافين جدد ومعهم سياراتهم.

ولكنْ مع كل اتساع في الأفق كان يجيء ما يذكّرني مؤنِّبًا بأنّي غريب، وبأنّ الضهور ليست بيتي ولا لبنان هو بالتأكيد وطني. ففي أصيل يوم مُشرق، دعاني منير نصار إلى بيته للقاء زميلِ دراسةٍ له من بيروت، اسمه نقولا صعب، وهو ألمعُ تلامذة صفّه (وقد انتحر بعد ذلك بعشر سنوات وهو على عتبة مهنة طبية لامعة). كانت بينهما سنواتٌ عدة من صداقة حميمة ونوعٌ من اللغة المشتركة المليئة بعبارات سريعة وثمينة تستثني الغرباء من أمثالي. وأَذْكر أني في لقائنا الثاني، دخلنا في نقاش عاصف عن المزايا التفاضلية لبرامز، وكانا يقدِّرانه عالي التقدير، وموتزارت، وهو الأثير لديّ. وكنتُ قد اكتشفتُ للتوّ سيمفونية «لينز» لموتزارت، واعتقدتُ أنّ وضوح سياقها وأناقتها النقية يجعلان منها الذروة في التعبير الموسيقيّ. دافعتُ عن قضيتي بأفضل ما استطعتُ، فصدّني الصبيّان الأكبر سنًا اللذان عرفا موتزارت بأنّه «خفيف» وخالٍ من البُعد الفكريّ. والمفردة التي أذكر أني سمعتُها بوضوح في تمجيد برامز هي أنه «عميق»، فلم أفهمها تمامًا ولم أستعملها قط. عميق، عويص، غامض، مربِك، مثير، معبّر: هكذا وصِفتْ سمفونية برامز الأولى، ثم وُضعت الأسطوانةُ على «بيك آپ» آل نصار، وكان كثيرٌ من طأطأة الرؤوس وتبادلِ النظرات والمصافحات الحماسية. لم أردّ على أيّ منها. كان برامز الخيار المكرّس للمطَّلِعين؛ أما أنا، المحتقرَ بعضَ الشيء، وموتزارت، فكنّا الغريبيْن اللذين لا يتمتعان بجدية كافية. في نهاية الأمر، وكأنما للتعويض عن تعدد أصواتهما المتناغم، بل المدبّر، التفتَ إليّ صعب في نبرة مصالحة وقال: «ولكنْ، أنت تعلم أنّ موتزارت تمامُ التمام فعلاً». وهي أيضًا عبارة غير مألوفة، لم أفقه معناها كليًا، «تمام التمام»، وجعلتِ الأمورَ تسوء أكثر فأكثر بالنسبة إليّ، كأنما «التمام» هو أعلى مراحل السطحية.

عندمـا شـارفتُ على الخـامسـة عشرة من العـمر، سُمح لي بأن أذهب إلى بيروت برفقة منير نصّار. فأخذني إلى مسبح جامعيّ مغطى بالإسمنت وكالح بعضَ الشيء حيث احترقتْ أقدامنا ونحن نسعى لمجرد الوصول إلى الماء. وهناك عرّفني إلى زملائه في الجامعة، الذين استقبلوني بمودّة، لكنهم بعد ذلك أخذوا يتبادلون النكات والنوادر بمرح وبعامية عربية كانت لغتَهم هم ولكنها لم تكن لغتي أنا بالتأكيد. وكانت تلك من اللحظات المبكرة التي شعرتُ فيها باللغة حاجزًا، مع أني فهمتُ الحديث الدائر بينهم. فقد كانت لهجتهم لبنانية، ولهجتي مصرية تغلّف ترسباً رقيقاً من اللهجة الفلسطينية. وبيروتهم هي بيروتي فقط لأنه صدف أنْ كنتُ برفقة منير. فتخلفتُ عن الآخرين الذين انشغلوا في اللغو الناشط في ما بينهم. وعندما ذهبنا لحضور حفلة «ماتينيه» لأحد الأفلام في سينما كابيتول، في وسط بيروت، سمحتْ لي ظلمةُ المسرح الباردة بالمزيد من الاحتجاب ورحتُ أتساءل ما إذا كنتُ أستطيع أن أرقى أبدًا إلى مستوى الشابَيْن الجالسيْن بقربي. ولاحقًا، أفصحتُ إلى أمي عن شعوري بالعزلة وأنا أسمعهما يثرثران واحدهما مع الآخر. فتحدّثني بقولها: «هل سألتهما عما كانا يتحادثان؟ ولماذا لم يشركاكَ في الحديث؟».وهو ما زاد شعوري سوءًا بسبب خجلي، وزاده تحسناً لمسارعتها إلى مساعدتي في آن معًا. طبعًا لم أسألهما ذلك ولا استطعتُ حتى أن أتصوّر طرحي سؤالاً كهذا.

في منتصف الخمسينيّات، عندما حصلنا أخيرًا على سيارة وهاتف في الضهور، وكنتُ قد صرتُ طالبًا جامعيًا في پرنستون، انحسر عني فجأةً الإحساسُ بالانحباس والضجر اللذيْن كنتُ أعزوهما إلى عطلة الصيف. لم تعد الحياة في الضهور تقتصر على الساحة وجوارها، وإنما امتدت بعيدًا لتصل إلى برمانا، على مسافة عشرة كيلومترات إلى الأسفل منا جنوبًا، وإلى المروج، التي تبعد بضعة كيلومترات عن فندق القاصوف.

كان ملعبُ التنس المحورَ الاجتماعيَّ لنشاطنا الجديد. في البدء كان هناك ملعب التِنس التابع لآل حلبي، والمفتوحُ لكلّ مَنْ هو مستعدٌّ لدفع رسم الدخول المتواضع. على أنّ العناية بالملعب كانت سيئة، ولكنّي تعرّفتُ فيه إلى سامي صوايا (وهو نسيب بعيد لبقّالنا)، وإلى شوقي دمّوس، وهو رجل قويّ البنية، في الأربعينيّات من عمره، يَعْمل أستاذًا للرياضة في الإنترناشيونال كولدج، المدرسةِ الإعدادية التابعة للجامعة الأميركية.

وكان سامي شابًا طويلاً ونحيلاً يكبرني بخمس سنوات تقريبًا. ولأنه يقضي جلَّ وقته في ملعب الحلبي، وكان اجتماعيًا ووَدوداً في طَبعه، فقد أمّن لي مباراةً أو مبارتين وديتين. عرّفني سامي إلى المناخ الخشن للمكان البعيد جدًا عن الوحشة الفاترة التي اعتدتُ عليها. وما أذكره منها الخصاماتُ الصباحية التي نقضيها عند الحلبي حيث المعارك الكلامية العديدة التي يتوسّطها جميعها شوقي المتواضعُ الذي لا ينال منه التعبُ، يَرْشح رأسُه الكبيرُ المهيبُ عرقاً وهو يقيم العدل، وسط الصراخ، بين مختلف المطالبين بدورهم في اللعب. أحيانًا، تجري مبارزات حماسية من وراء خطوط الملعب الخلفية بيني وبين سامي الهادئ الأعصاب، وأحيانًا نلعب مباراةً زوجية عشوائيًا مع صبايا أكون قد تعرّفتُ إليهنّ لأول مرّة، ناهيك عن المباريات الاحتفالية التي يتواجه فيها فريقُ الضهور ـ ويُمثّله غالبًا ابنُ خال أمي فؤاد، الأنيقُ ومحبوبُ الجماهير ـ مع فريق الآي. پي. سي. (شركة نفط العراق) من طرابلس أو مع فريقٍ من برمانا، في سلسلة مباريات فردية وربما في واحدة أو اثنتين من المباريات الزوجية.

أخيرًا، وهبني التنس حياةً مستقلة عن أهلي في الضهور بعيدًا عن تحديقة أمي المسيطرة. وطرأ تحسن كبير على حياتنا الاجتماعية عام ١٩٥٤ عندما اشترى آل طبارة، العائلةُ المسلمةُ الكبيرة، بيتًا أنيقًا وابتنوا إلى جواره ملعبَ تنس ما لبثوا أن حوّلوه إلى نادٍ كان النفوذُ الرئيسيُّ فيه لشوقي دمّوس هو أيضًا. ولما كان النادي يقع على مسافة كيلومتر من فندق القاصوف، فقد تطلّب الانتقال إليه سيارةً، مع أنه كان يمكن عادةً إقناعُ سيارات السرڤيس أو الحافلات بنقلنا إليه للعب التنس أو كرة الطاولة أو لمجرد المشاركة في النشاطات الاجتماعية في الأصائل.

بُعَيد إنشاء نادي طبارة، التقيتُ الشقيقتين إيڤا ونيللي عماد، الابنتين الصغريين لنايف باشا العماد، المتحدِّر من عين الصفصاف (البلدة التابعة للشوير). على أنه كان آنذاك صاحبَ مصنع صابون ثرياً يسكن في مدينة طنطا الصناعية حيث يملك المصانع، شماليَّ القاهرة. سكن آل عماد عبر الشارع من نادي طبارة في بيت ضخم أشبه بالقصر يتميّز بنوافذه الخضراء ويحيط به سورٌ حجريٌ مرتفع. لم أدخل قط منزل آل عماد ولا التقيتُ عماد باشا، على رغم صلتي الوثيقة ببعض أولاده. وإيڤا الأكبر بقليل من نيللي، والتي تكبرني بسبع سنين تقريبًا، عزباء، ثرية،

معزولة اجتماعيًا عن محيطها، وهي أول امرأة كانت لي معها علاقةٌ حميمة فعلاً، مع أننا لم ننفرد معًا خلال صيفيتين وإنما كنا جزءًا من مجموعة منتظمة تحضر يوميًا للعب التِنس وتعود ظهرًا إلى البيوت للغداء ثم تعود ثانيةً بعد الظهر للمزيد من التنس وكرة الطاولة ولعبِ «دقٍّ» ورقٍ صاخبٍ.



والدي وديع سعيد خلال خدمته
في «فوج التدخل الأميركي»
بقيادة الجنرال پيرشنغ، فرنسا، ١٩١٧.

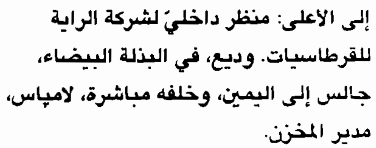


صورة زفاف والديّ، وديع وهيلدا،
في الكنيسة المعمدانية بالناصرة
٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٢.



إلى اليمين: والداي خلال شهر العسل في لندن، كانون الثاني/يناير ١٩٣٣.

أسفل: مَنْظر خارجيّ للفرع الرئيسي في القاهرة لـ «شركة الراية للقرطاسيات» التي أسسها وديع في شارع الملكة فريدة. وديع عند الباب يرتدي ربطة العنق المقوّسة، وإلى يمينه سكرتيرته أنّا ماندِل، ١٩٣٢.



إلى الأعلى: منظر داخليّ لشركة الراية للقرطاسيات. وديع، في البذلة البيضاء، جالس إلى اليمين، وخلفه مباشرة، لامپاس، مدير المخزن.



إلى اليمين: أنا في سن الواحدة، مع أمّي في حدائق مينا هاوس.



مع أبي على
شاطئ الإسكندرية، ١٩٣٦.

أنطي ميليا معتمرة قبّعتها التقليديّة،
القاهرة، أواخر الثلاثينيّات.

ادوارد سعيد نمّ عن مواهب مبكرة
في قيادة الأوركسترا على سطيحة
شقتنا القاهرية بشارع عزيز عثمان.



فوق أحد الأهرامات خلال نزهة عائليّة إلى الجيزة، ١٩٣٩. الصف الأمامي، من اليسار: ابنا العم جورج وروبرت، وأنا وألبرت؛ الصفّ الخلفي: إيفلين ويوسف.

خلال مشوار عطلة نهاية الأسبوع في حدائق السدود شمال القاهرة على الدلتا، ١٩٣٩ ومعنا عائلة أمي آل موسى. وفقاً لحركة عقارب الساعة، من أسفل: روزي، شكري موسى، مروان تحمله لطيفة، زوجها منير، هيلدا، البرت، روبرت، انا، وديع.



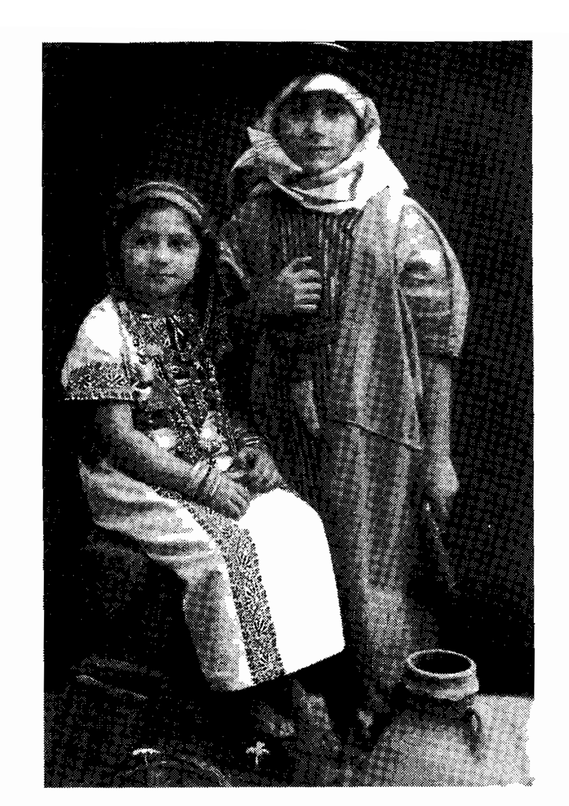


عمتي نبيهة وولداها روبرت والبرت.
فلسطين ١٩٣٩.



في عمر الخامسة،
في نادي المعادي الرياضي ١٩٤٠.

مع شقيقتي روزي في الزيّ الفلسطينيّ التقليديّ، القدس، ١٩٤١.





انا في السابعة مع روزي
في زي الإعداديّة على سطيحة شقتن
في القاهرة.



صورة عائليّة لآل سعيد وآل منصور، ابناء خؤولة ابي من الدرجة الثانية. التُقطت قبل تفرّقنا جميعاً أمام منزل آل منصور، حوالى ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧.



صورة عائلية حوالى ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧. من اليسار: جين، روزي، انا في الحادية عشرة، جويس، الطفلة غرايس.

قرير عن علاماتي بخط كيث بولين، لشاعر النكد ورئيس إعدادية الجزيرة.

GEZIRA PREPARATORY SCHOOL

JUNIOR DEPARTMENT

Name: Edward Said Average Age of Form: 6 yrs 6 mths

Report for term ending: March 25th Form: Transition Position:

Subject	
Reading	Fair. Could do better with more effort. [illegible]
Writing	Very fair. [illegible]
Dictation Spelling	Very good. Is making satisfactory progress. [illegible]
English Grammar	
Poetry	Good, shows interest. [illegible]
Scripture	Very good. [illegible]
Geography	Very good. Shows interest. [illegible]
Drawing	Very fair. [illegible]
French	Very fair. [illegible]
Arithmetic	Too careless and untidy. [illegible]
History	Very good. [illegible]
Drill – Rhythmics	Should try to hold himself better. [illegible]
Handwork	
Nature Study	Good. [illegible]

General conduct / Remarks: Edward has settled down well and is making good progress. He must try to concentrate more and be less fidgety and restless. Mademoiselle Fanis

[illegible] Butler, Principal.

Next term begins: April 8th

Next term ends: June 17th



على أرجوحة عين النعص، منتره ومقهى قرب ضهور الشوير، حوالى ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ من اليسار: روزي، جين (على الارجوحة)، إنصاف (المربيّة)، وأنا.



خارج كاتدرائيّة القديس جوارجيوس في القدس خلال زفاف ابن العم جورج سعيد في ١٤ نيسان/ابريل ١٩٤٧. في الصف الأمامي، من اليسار: البرت، أنا، روبرت. في الصف الخلفي: العم اسعد (آل) وابن العم يوسف ووديع. دهستْ شاحنةٌ العم آل بعد أسبوعين من التقاط الصورة وتوفي إثر الحادث.

أسفل: زفاف أليف موسى، شقيق والدتي البكر في حيفا، ١٩٤٦. جدتي لامي، منيرة، تعتمر العمامة وتقف مباشرة أمام ابنها العريس.

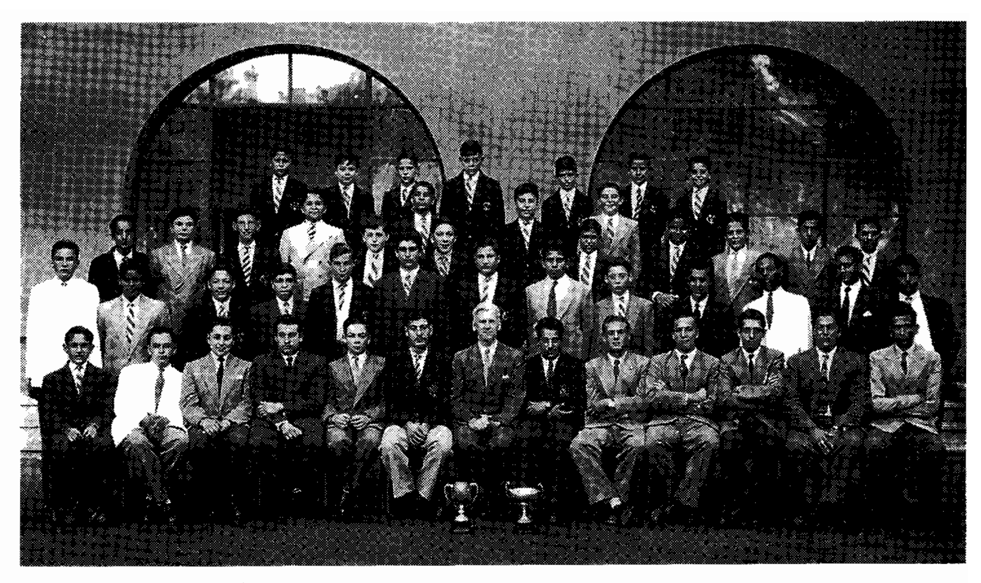




زملائي في الكوخ والمستشار جيم موراي
في مخيّم ماراناكوك، مقاطعة ماين، ١٩٤٨.
أنا في الصف الخلفي إلى اليسار.



الدكتور فريد حداد وعروسه آدا خلال حفل
زفافهما، القاهرة حوالى العام ١٩٤٩. مات
حداد في السجن جرّاء التعذيب عام ١٩٥٩.



صورة من عام ١٩٥٠ أمام كتشينير هاوس في ڤكتوريا كولدج حيث درستُ خلال صفَّي الحادي عشر والثاني عشر. أنا السادس من اليسار في الصف الثاني.
كيث غاتلي، مدير المدرسة، يجلس في وسط الصف الأمامي.

VICTORIA COLLEGE
CAIRO

UPPER SCHOOL

Report for SUMMER Term 1951 Name E. Said
Form U VI Av. Age of Form 15.7 Age 15.4

SUBJECT	POSITION IN CLASS			NUMBER OF BOYS	REMARKS
	SET	TERM	EXAM.		
English		A	2	24	Has an excellent knowledge and command of English [illegible]
History		B	3	9	Very good. [illegible]
Egypt. History					
Geography		C+	6	20	Good [illegible]
French	IV	D+	20	36	Feeble. [illegible]
Arabic					
Mathematics		C-	9	12	Fair [illegible]
Physics		B[illegible]	5	31	Satisfactory [illegible]
Chemistry		C	16	21	[illegible]
Biology		A	3	22	V. G. [illegible]
General Science					
Diction					
Drawing					
Music					

ABSENT Morning 20 Afternoon Times LATE 1 Times

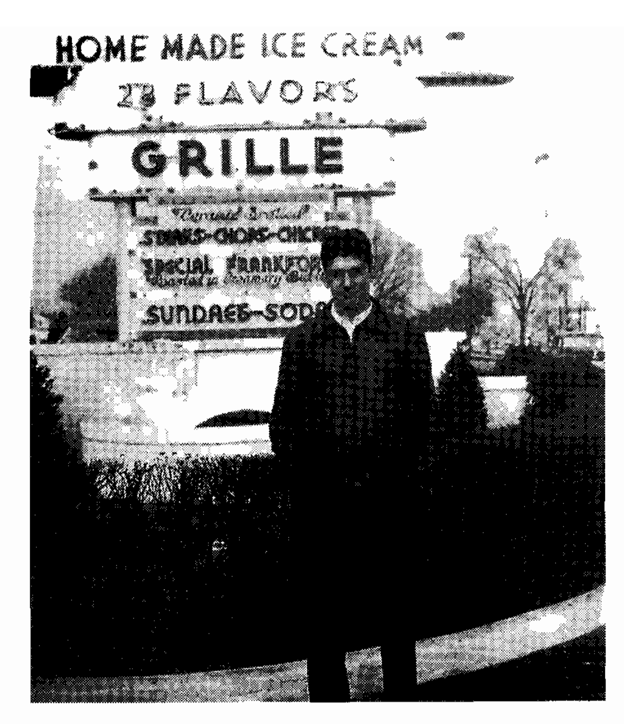
HOUSEMASTER A very keen boy. [illegible]

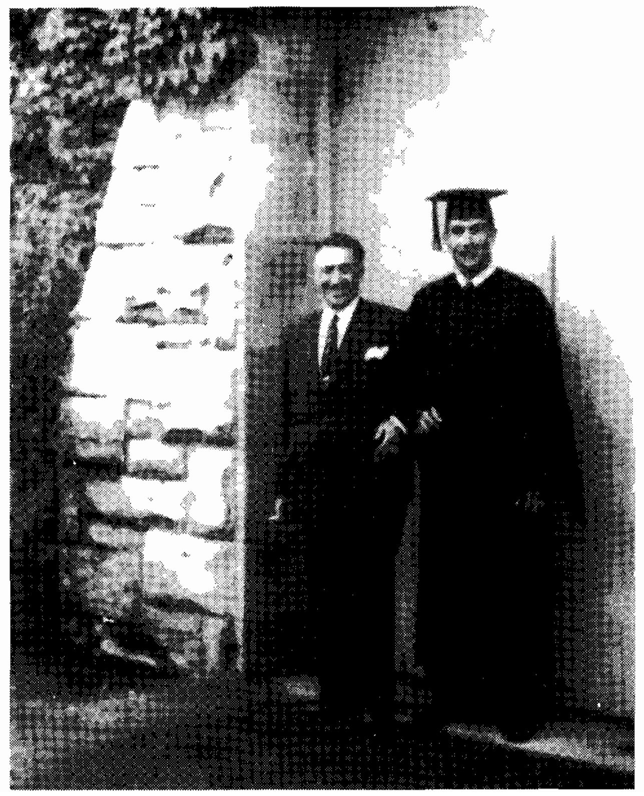
HEADMASTER Satisfactory progress [illegible]

Next Term begins on 5 OCT 1951
Boarders return on the previous day.

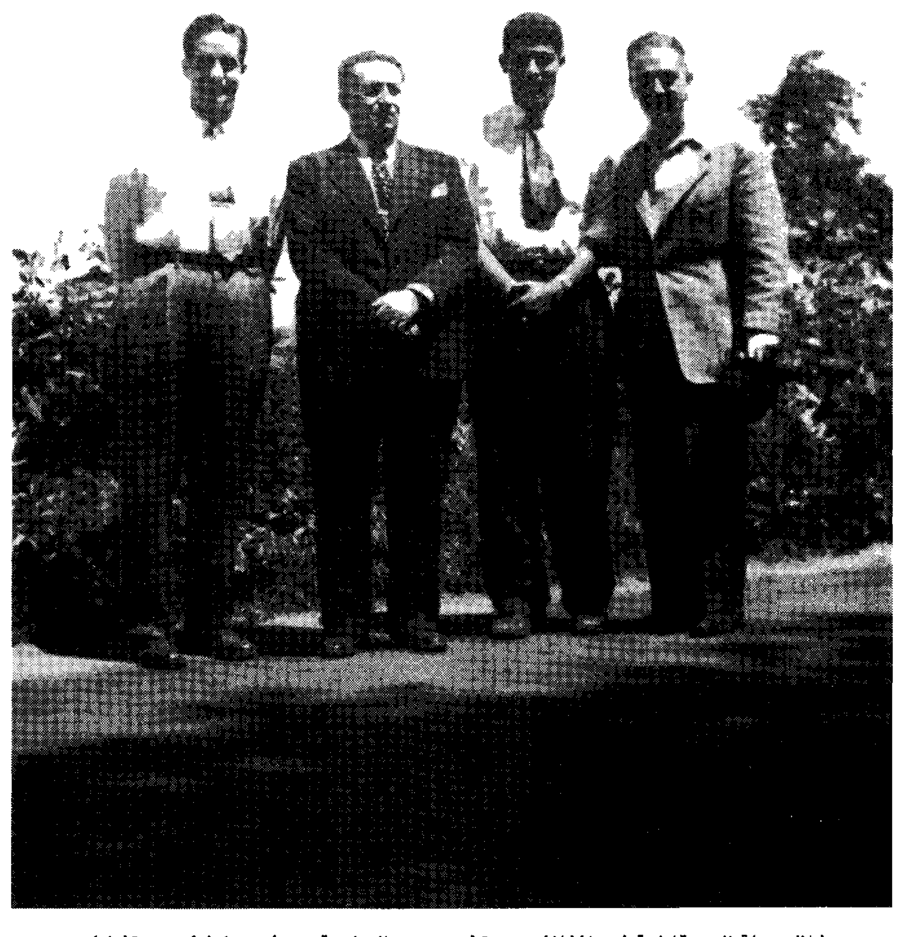
تقرير عن علاماتي في ڤكتوريا كولدج عام ١٩٥١. وردَ فيه : «معرفة ممتازة وملكة تامة في اللغة الانكليزية» بتوقيع مستر غريفيث، المدير الذي طردني لأسبوعين في شباط/فبراير من ذلك العام.

أمام محل هاوراد جونسون في جامايكا
بنيويورك، آذار/مارس ١٩٥١.



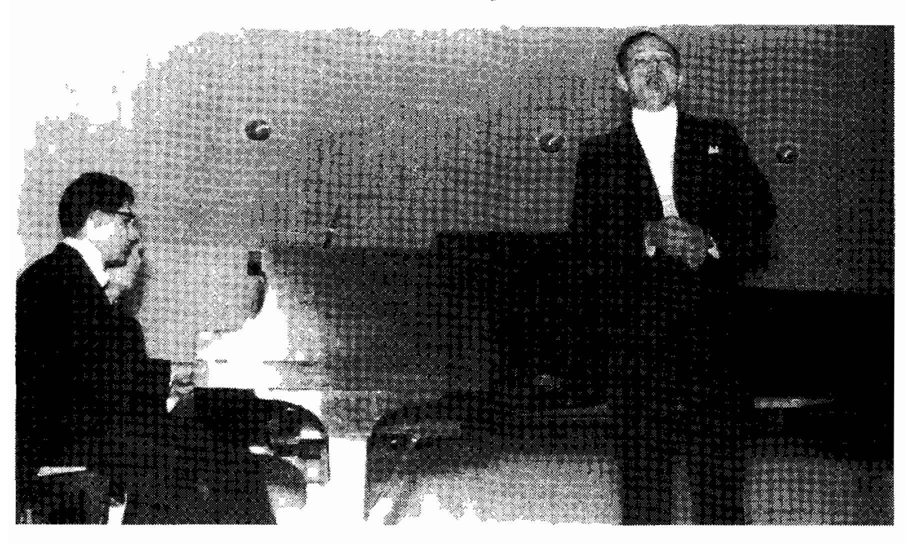


مع ابي عند تخرجي من ماونت
هيرمون، حزيران/يونيو ١٩٥٣.

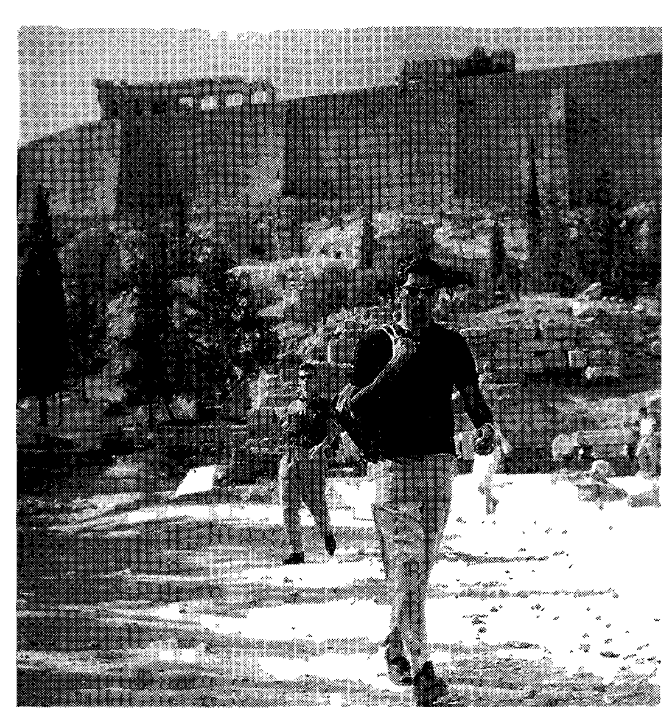


خلال رحلة إلى مقاطعة نيو إنغلاند بعد تخرجي من الجامعة، مع ابي وابنيْ عمي تشارلي (أقصى اليسار) وآبي (أقصى اليمين)، اللذين كنت أمضي عطل أعياد الميلاد في شقتهما في جاكسون هايتس.

صورة عائلية لمناسبة عيد زواج والدي الخامس والعشرين.
في الصف الأمامي: جويس، هيلدا، وديع، غرايس.
الصف الخلفي: أنا وروزي وجين.



على البيانو، مرافقاً عفيف بولس خلال حفلة موسيقية في باين هول، هارفارد ١٩٥٩.



خلال دراستي العليا في هارفارد، رحلة إلى الأكروبول، أثينا، صيف ١٩٦٠



صورة ملتقطة عام ١٩٨٠ للمنزل الذي كنا نستأجره في ضهور الشوير بين ١٩٤٦ و ١٩٦٩. الفجوة التي أحدثها الصاروخ خلال الحرب الأهلية اللبنانية اخترقتْ غرفة النوم الرئيسية.

الفصل الثامن

كيف كان لي أن أدري، حين دخلتُ ڤكتوريا كولِدج في خريف العام ١٩٤٩، وقد قاربتُ الرابعة عشرة، أنني سأقضي آخر سنتيْن لي في القاهرة. لأول مرة، صار اسمي «سعيد» حصرًا، مجهولَ الاسم الأول أو مختصرَه إلى «إ». وبصفتي مجرد «سعيد»، دخلتُ عالمًا هجينًا من أسماء العائلات المتنوعة - زكي، سلامة، موتيڤيليان، شالوم - أصولها شديدة الاختلاط، تَسبقها جميعاً حروفٌ أولى متدلية بل سخيفة: سلامة، س.، وسلامة، ا.، مثلاً، أو زكي، وقد صارَ الحرفان الأوّلان لاسمه لقبًا استهزائيًا معكوسًا ومتنافر الأصوات: «زكي، آي. آي.» أو «زكي، آك. آك.».

قبل أن تبدأ الدراسة، أعربتُ لأمي عن رغبتي في أن أصير طبيبًا، فأجابت أنه سوف يُسعِدها هي وأبي أن يشتريا أول عيادة لي. وفهمنا كلانا أني سوف أتسلّم هديتي في القاهرة، مع أننا كنا ندرك في الوقت ذاته أنّ القاهرة لا يمكنها أن تكون، على المدى البعيد، وطنَ «المستقبل» كما نتخيّله. ذلك أنّ الأنباء عن اغتيالات وأعمال خطف غامضة، معظمُها لرجال مرموقين معروفين بجمال زوجاتهم، تَشْهد على سطوة ملكٍ بَدينٍ وشهوانيّ أدت مغامراتُه الليلية وإجازاتُه الأوروبية المديدة إلى تفكيك أواصر البلد، كما تضافرتْ فضائحُ حرب فلسطين عام ١٩٤٨ - من صفقات الأسلحة الفاسدة إلى الجنرالات العديمي الكفاءة - ووجودُ عدوّ قويّ على إسداء هزيمةٍ للجيش المصريّ وإيقاع الدولة المصرية المترنحة، التي لم تكن قد حققت

استقلالها الناجز بعد، في مأزق عسير. واذا بالصعود المفاجئ لجماعة الإخوان المسلمين يضاعف من قلقنا، نحن العربَ غيرَ المصريين وغيرَ المسلمين. ثم إنّ حرب الغِوار المسلحة في منطقة قناة السويس، بعد أن انكفأت القواتُ البريطانية إليها، أخذت تَرْفع الفدائيين الذين يقاتلون الأجانب إلى مصاف الأبطال وتَسِمُ علاقاتنا بالأطباء والمرضين والمعلّمين والموظفين الإنكليز في القاهرة بتوتر أشدّ بكثير من ذي قبل.

هذا ما شعرتُ به حين وطئتْ قدماي حرم ڤكتوريا كولِدج التي وصفها لي مستر هِل، معلّمُ الجغرافيا، بأنها مدرسة معدّة لأن تكون «إيتون» الشرق الأوسط. جهازها التعليميّ كله من الإنكليز، باستثناء معلّمي اللغة العربية واللغة الفرنسية، مع أنه لا يوجد فيها تلميذٌ إنكليزيٌّ واحد خلافًا لما هو الحال في «إعدادية الجزيرة». وكان أبي يوصلني بالسيارة إلى المدرسة التي تحتلّ مباني مؤقتة ليست بعيدةً عن عيادة الدكتور حدّاد، كانت تابعة لـ«المدرسة الإيطالية» سابقًا في شبرا، وهي أشبهُ مناطق القاهرة بمدن الصفيح وأكثر اكتظاظًا. تركني في اليوم الأول عند البوابة الأمامية وودّعني وهو يغادر مع السائق بعبارته المرحة المعتادة «حظًا سعيدًا، يا بُنَيّ». للمرة الثانية في حياتي، بعد «إعدادية الجزيرة»، وجدتُني أرتدي سترة مدرسية وسروالاً رماديًا وربطةَ عنقٍ وقلنسوةً موشحتيْن بالأزرق الفضيّ وهو زيّ (اشتريناه من عند «اڤييروني») يعلنني صبيًا من صبية VC [Victoria College]. فسرى في أوصالي شعورٌ بالوحشة البائسة والتقلقل العميق فيما أنا أُقحم نفسي في الممرات الصاخبة قبل دقائق خمس من قرع جرس المدرسة في الثامنة والنصف. وتبيّن أنّ المكتب الذي دخلتُه بوَجَل بحثاً عمن يرشدني إلى صف الخامس المتوسط هو مكتب الرئيس. أشار إليّ «فرّاش» خدوم بالتوجه إلى نهاية الممر، ومنه إلى باحة المدرسة المزدحمة التي يقع في إحدى زواياها مبنى صغير من طبقتين: «ذاك هو المبنى»، قال، «وإلى اليسار، يقع صَفّ الخامس المتوسط، الفرع الأول». وإذ أخذتُ أشقّ طريقي بتردد وسط مباراة كرة القدم وعدة مباريات مصارعة ولعبة «كُلَل» صاخبة، وجمع صغير من التلامذة الأكبر سنًا يقهقهون، داهمتني الغرابةُ الوقحة للمكان فأربكتني، إذ خلِتني وحدي التلميذَ الجديدَ والمختلِف.

وعندما عثرتُ على الصف الذي أبحث عنه، وجدتُ فيه صبيّاً صغير القامة منهمكًا في الكتابة على مقرئته وإلى جانبه مرجع ضخم، وصبيين آخرين متجاورين على مقعد واحد يطالعان بصمت، وثلاثة إضافيين يقارنون بين فروضهم. بخجل، سألتُ الكاتب المجتهد (وقد عرّف عن نفسه باسم عائلته، «شكري») ما الذي يفعله. «أكتبُ سطورًا احتياطية»، أجاب باقتضاب. ولما سألتُه ما هي تلك السطور، شرَحَ لي أنّ العقاب التقليديّ هو نقل خمسمئة أو ألف سَطر من كتاب مزعج جدًا مثل دليل الهاتف أو قاموس أو موسوعة. ومن هنا كان إعدادُ البعض من تلك السطور سلفًا والاحتفاظُ بها على سبيل الاحتياط يخفّف من العبء لاحقًا. واكتشفتُ للتوّ أنّ هذه المدرسة مكان أكثر جديةً من أيّ مكان آخر ارتدتُه، وأنّ الضغط فيها أكبر، والمعلّمين أقسى، والتلامذةَ أكثرَ تنافسًا وأحَدّ ذكاءً، والجوُّ يعجّ بالتحديات والعقوبات والمتنمّرين والمغامرات. وفوق ذلك كله، شعرتُ أنْ لا شيء في منزلي أو عائلتي قد أعدّني لكل ذلك. كنتُ وحدي حقًّا: شخصيةً مجهولة وغريبة سوف تبتلعها قريبًا الآلياتُ المقْعِدة لمكانٍ واسعٍ مثبّطٍ للهمم، هو أكبر بعشرة أضعاف من أية مدرسة ارتدتُها من قبل.

ينقسم كل صف من صفوف المدرسة العليا إلى فرعين: الفرع الأول للألمعين والمجتهدين نسبيًا، والفرع الثاني للصبيان الأبطأ فهمًا والأقل إنجازًا الذين يُرى إليهم عمومًا على أنهم سقطات في معارج النشوء والارتقاء البيولوجييْن ويستحقون مصيرهم الدونيّ. وتقسيم الصفوف على هذا النحو بمثابة الإعداد للشهادة المدرسية لجامعتَيْ أُكسفورد وكمبردج (الشهادة الثانوية) أو «الماتريكولايشن» التي يقدّمها صِبيةُ الصف السادس الأدنى. وأما الشباب المميّزون في الصف السادس الأعلى فيتابعون دراستهم ويتقدمون لنيل شهادات «الدرجة ألف» والانتساب إلى الجامعة. وبدا لي هؤلاء الشباب جميعًا نجومًا رياضيين ومساعدي أساتذة وعباقرة ننادي كلاً مِنْهم عادةً بـ«كابتن»، وهو لقب يزيد من صدقيته الشريطُ الفضيّ على ستراتهم وقبعاتهم. في البدء، بدا لي كبيرا التلامذة، الكابتن ديدي باسانو والكابتن ميشال شلهوب، شخصيتَيْن نائيتَيْن جدًا، ولكنْ مع الوقت صار حضورُ شلهوب أليفًا على نحو مزعج، وقد اشتُهرَ ببراعته الأسلوبية وبتفننه وابتكاره في اضطهاد الصِّبية الأصغر سنًا.

ولفرض الانسجام على نحو ألف صبيّ يَدْرسون في فكتوريا كولدج، وَزّعتنا الإدارة إلى «فرق» لمزيد من غرس إيديولوجيا الإمبراطورية البريطانية وتوطينها فينا. كنتُ عضوًا في فريق كِتشينر، وباقي الفرق هي فريق كرومر وفريق فروبيشر وفريق درايك[1]. وحقيقة الأمر أنّ فكتوريا كولدج القاهرية كانت بالجملة أقل فخامةً من شقيقتها الإسكندرانية، القائمة منذ ثلاثة عقود والتي تضم قائمة من الطلاب (أمثال الملك حسين وآخرين) ومن المعلمين الأكثر مهابةً ومجموعة من الأبنية الدراسية والملاعب الفائقة الجمال في العاصمة الصيفية المتوسطية الكبرى. وفي المقابل، كان الحَرَم المدرسيّ في شبرا موقتًا استؤجر أصلاً خلال سنوات الحرب لإيواء الفائض من التلامذة المنتقلين من الإسكندرية، وهي المؤسسة المعدّة أساسًا للطلاب الداخليين. ومعظم الصبية تلامذة خارجيون من سكان القاهرة، وهم أدنى مستوى من الناحية الاجتماعية من تلامذة الإسكندرية وأفترض أنهم أيضًا أقلّ إنجازًا. الصفوف وقاعة الاجتماعات داكنة وضيّقة، تخيّم سحابةُ غبارٍ على المكان باستمرار، مع أنّ ملاعب التنِس وملاعب كرة القدم المتعددة منحتنا تسهيلات خارجية مسرفة وغير مسبوقة.

وإذْ وقفتُ أنتظر بدء الصف في ذلك اليوم الأول، بدأتِ المقاعدُ تمتلئ تدريجيًا بصبية ضاجين، يحمل كلٌّ منهم حقيبة ضخمة مليئة بالكتب والأقلام والدفاتر. ولما كنتُ صبيًا جديدًا فقد، افترضتُ أني سوف أظل غريبًا لشهور كاملة بسبب كثافة نسيج العلاقات والعادات التي تربط بين زملائي الخمسة والعشرين. ولكن ما إنْ أشرف اليوم الأول على نهايته، حتى كنتُ قد تأقلمتُ مع بيئتي الجديدة. كان مستر كيث غاتلاي، معلّم الصف، أبيض الشعر، بدينًا، يحمل ندبة مائلة كبيرة تشطب وجهه، وقد رمت به الأقدار في مصر، مثله مثل سائر البريطانيين هنا من خرِّيجي

---

١ ـ جميعهم من شخصيات الفتوحات الكولونيالية البريطانية. السير فرانسيس درايك (١٥٤٣ ـ ١٥٩٦) مكتشف وبحّار بريطانيّ هو اول إنكليزيّ يطوف حول العالم. عاش في عصر القراصنة فكان واحداً من القراصنة الأشد هيبةً في عصره. خدم في عهد اليزابيت الأولى واشتُهر بمعاركه البحرية ضد الإسبانيين، المنافس الكولونياليّ الأول للإنكليز، وهو ما مكّن بريطانيا من أن تصير قوّة بحريّة رئيسيّة في العالم. والسير مارتن فروبيشر (١٥٣٥ ـ ١٥٩٤) مكتشف بريطانيّ، بحث عن طريق إلى آسيا عبر اميركا الشمالية. وهوراشيو هربرت كيتشينر (١٨٥٠ ـ ١٩١٦) موظف كولونياليّ بريطانيّ كبير، خدم في فلسطين وقبرص والسودان، وعُيِّن حاكماً عاماً على السودان ثم قائداً عاماً للجيش المصري، وهو الرجل الذي أعاد احتلال الخرطوم عام ١٨٩٨.

أُكسفورد وكمبردج، بسبب الحرب، أو هو أَمَّها بعد الحرب لغياب العمل اللائق به في بلاده. ويتكوّن معظمُ أعضاء الجهاز التعليميّ من العازبين، وتسري شائعات بين التلامذة أنهم لوطيون فاسقون يُشْبعون شهواتهم المحرّمة من بين أفراد طاقم الخدم الكبير وربما أيضًا من بين تلامذة المدرسة الأصغر سنًا. وغاتلاي معروف بلقب «الخَوَل»، ويشاع أنه تلقّى ندبته الكبيرة خلال معركة مع قوّاد حاول غاتلاي خداعه (على ما يقول التقرير البذيء نفسه). وبالطبع، لم يكن من طريقة للتحقق من مدى صحة هذه الشائعة.

اكتشفتُ معظم هذه «الخلفية» خلال درس اللغة الإنكليزية الذي خُصّص لقراءة «الليلة الثانية عشرة»، وهي مسرحية لا تلائم إطلاقًا مراهقين فظّين لا تستحضر عبارةُ «موسيقى الحب» لديهم غير إيقاع أيدٍ تمارس العادة السرّية. طَلَبَ منا غاتلاي أن نقرأ بصوت مرتفع ثم أن نشرح سطورًا منوّعة من المشهد الأول. فلم يحصل إلا على الضحك المجلجِل وعلى بربرة غير مفهومة وبذاءات مروِّعة باللغة العربية جرى تقديمُها وكأنها المعادلات «الكلاسيكية» لأقوال دوق إليريا[1]. هكذا شُرِحَ كل ما ورد في المشهد من «سقطات مميتة» و«وولوج» و«إنهاك» شَرحًا إباحيًا فاضحًا، فيما كان غاتلاي، الذي يَحْجب عنه قِصَرُ نظره معظمَ حركات التلامذة، يطأطئ رأسه تأييداً ناعِسًا واستحسانًا غامضًا لما ظن أنه يسمعه.

في غضون ساعات، تساقطتْ عني سنواتٌ من التعليم الصارم الصادق، إذ رحتُ أنضمّ إلى المراوحة المتواصلة بين تلامذة تَجْمع بينهم عصبيةُ الانتماء إلى «الووغز»[2] نواجه معلّمينا المضحِكين أو المشوّهين، من البريطانيين القساة المعدومي المميزات الشخصية والاستبداديين. ذلك أنّ الاعتقاد السائد هو أنّ معظم معلّمينا هم

---

١ ـ «الليلة الثانية عشرة» مسرحية لشكسبير يمزج فيها بين الرومانسية والواقعية وبين الحُب والمرح. تجري أحداثها في إيليريا التي استوحى شكسبير اسمها من مملكة قديمة في مقدونيا كانت مركزاً لمقاطعة رومانية بالاسم ذاته قبل الميلاد. للمسرحية حبكة معقّدة تنحلّ إلى نهاية شبه سعيدة. ومن العِبَر الأساسية فيها ضرورة الاستمتاع بالحاضر لأن ما من احد يدري ما الذي يخبّئه الغد. (م)

٢ ـ مختصر لعبارة «السادة الشرقيون الافاضل» وهو لقبٌ تعييريٌ عنصريٌ بريطانيٌ يُطْلَق على العرب وعلى الشرقيين عموماً. (م)

من مشوّهي الحرب وأنهم، في نظرتنا غير الودية إطلاقًا إليهم، يستحقون ما يعانونه من رعشات وعَرْجات وتشنجات. قرابةَ نهاية الدرس، انتصب غاتلاي واقفًا، وقد أفاق فجأةً من خدره، تتدلى كرشه الكبيرة من تحت قميصه الضيّق وسرواله الفضفاض المبقّع، ومال صوب تلميذين يثرثران منعهما استهتارُهما من رؤية الكارثة الزاحفة عليهما. لم أرَ مشهدًا مثل هذا من قبل: رجل جسيم، واسع الذراعين، يخبط خبطَ عشواء باتجاه صبيّيْن منمنميْن، وينجح في إيصال إحدى ضرباته إلى هدفها بين حين وآخر وهو يقاوم السقوط، والتلميذان يتراقصان بخفّة بعيدًا عنه ويزعقان بأعلى الصوت: «لا، أستاذ، لا تضربنا، أستاذ»، وتلامذة الصفّ جميعهم متجمّعون حول منطقة الاضطرابات يحاولون صدّ ضربات المعلّم عن التلميذيْن المُذْنبيْن.

تلت صفَّ غاتلاي مباشرةً ساعةٌ من الرياضيات يَحْشرها في أدمغتنا ماركوس هايندز، وهو معلّم نحيل وعصبيّ بقدر ما كان غاتلاي متثاقلاً وباردًا. ويَعتبر المستر هايندز نفسه سريع الخاطر، يعزِّز من حِدّة ذكائه الأكيد لسانٌ لاذعٌ لا يرتضي أيّ كسل أو بلادة فكرية. ومهما يكن من أمر، فإنّ الجَبر والهندسة يتميَّزان بدقةٍ يفتقر إليها التحليقُ العاطفيّ لغاتلاي بصدد ما اعتبرناه شعرًا «أجنبيًا». فإذا الصف يستقرّ لبذل الجهد الجديّ في غضون دقائق. على أنّ صمت هايندز شكّل لنا عقابًا أشد من بلادة غاتلاي. فهو مزوّد بممحاة ضخمة للّوح الاسود صُمّمتْ خصيصًا بحيث إنّ إحدى حافتيها مبطنة بقطعة خشبية تربو سماكتها على إنش واحد، ينقضّ بها هايندز على التلميذ المسيء، الهامسِ لجاره أو العاجزِ عن استيعاب معادلة جبرية - وهذه اساءة خطيرة هي أيضًا - فيضربه بهذا السلاح المؤذي على رأسه والكتفَين واليدين. ومن سوء طالعي أني، في أول حصة من حصص الدرس، سألتُ جاري جورج كردوش عن أيّ من الكتب الثلاثة التي نحمل يجب أن نقرأ فيه، فرماني هايندز بممحاته مثل قذيفة، وكان هذا أشد فاعليةً من أن يقتحم قاعةَ الدرس إلى صف المقاعد الأخير لينهال عليّ بالضرب. وشفع لإساءتي أني تلميذ جديد، ومن هنا كان العقاب البَرْقيّ الذي أخطأ عيني اليسرى بقليل لكنه خلّف كدمةً بنفسجية بشعة على خدّي. ولما لم ينفعل أحدٌ لما تعرّضتُ له من عسف على يد هايندز، فقد أحجمتُ

عن الردّ عليه واكتفيتُ بتدليك خدّي الموجوع. هكذا انتصب الميزان «بيننا» و«بينهم».

لأول مرة في حياتي كنتُ جزءًا من جماعة مدرسية مشاغبة، وأنا لست مصريًا ولا إنكليزيًا مع أني عربيّ بالتأكيد. وقد قامت بيننا، نحن التلامذةَ، وبينهم، هم المعلمين، هوة عميقة لا يمكن تجسيرُها، يرى الطاقمُ التعليميّ البريطانيّ المستورَدُ إلى تعليمنا مهنةً كريهة كُتِب عليهم ممارستُها أو يرون إلينا مجموعةً من الجانحين يتوجب تكرار معاقبتهم كلّ يوم.

فجأةً حوّلَنا كرّاسٌ صغير بعنوان **دليل المدرسة** إلى «سكاّن أصليين». تقول القاعدة رقم واحد فيه: «الإنكليزية هي لغة المدرسة. كل مَنْ يُقْبَض عليه متكلمًا لغات أخرى يتعرّض لعقاب صارم». فصارت العربيةُ ملاذَنا، لغةً مُجَرّمةً نلجأ إليها من عالم الأسياد ومساعدي الأساتذة المتواطئين ومن زملائنا المتأنكليزين الأكبر سنًا الذين يتجبرون علينا باسم فرض التراتب المدرسيّ وتطبيق قوانينه. وبسبب القاعدة رقم واحد صرنا نتكلم العربية أكثر، بدلاً من أن نتكلمها أقلّ، تحدّيًا لما اعتبرناه، وأَعْتبره الآن أكثرَ من ذي قبل، رمزًا اعتباطيًا لسلطتهم يَبْلغ درجةً من السخف تثير السخرية. فما كنتُ أخفيه سابقًا في «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين»، تحوّل إلى تمرّد أفاخر به، وأعني قدرتي على التكلّم بالعربية دون أن يُلقى القبضُ عليّ، بل اندفعتُ في المغامرة إلى حد استخدام العبارات العربية في الصفّ جوابًا على سؤال أكاديميّ وهجومًا على الأستاذ في آن معًا. وكان بعض الأساتذة أقل مناعة تجاه تلك التقنية من غيرهم، وخصوصًا مستر موندريل، أستاذ التاريخ المسكين والرث الثياب الذي يرجَّح أنه عانى صدمةَ انفجار قنبلة. كانت قامته القزمة البليدة ترتعد وهو يتمتم المعلومات عن الملوك من عائلة تيودور، وعن العادات في عهد الملكة اليزابيث الأولى، أمام جمهور مُغلَق ولامبالٍ أساسًا. وجوابًا على سؤال من أسئلته، يتفوّه أحد التلامذة بنبرة مهذّبة بمسبّة عربية («كـ... أُمك، أستاذ») يَعْقبها فوراً بترجمة «حرّة» («بكلمة أخرى، أستاذ») لا علاقة لها بالعبارة البذيئة. وإذ يَهْدر الصفّ تقديرًا، ينتخع المستر موندريل إلى الخلف خوفًا واندهاشًا. وكنا نلاعبه أيضًا بلعبة «آخر كلمة» فنردّد معًا، في صوت واحد، آخر كلمة من كل عبارة من عباراته. «تميّزَ عهدُ الملكة اليزابيث بالثقافة

والاستكشافات»، كانت واحدة من عباراته الكسولة النموذجية، فنردد كما في كورس: «استكشافات». فيتجاهل موندريل الإساءة بعد ست عبارات تقريبًا ثم ينفجر صارخًا وهو يرتعد ويتشنّج غيظًا، فتتعالى منا موجةٌ من الهتافات المهلِّلة. وما إن ينتصف الفصل الدراسيّ حتى يكون قد تخلى عن محاولاته التواصلَ معنا، فتراه متجهمًا في كرسيّه يغمغم الكلمات عن ثورة كرومويل وإعدام الملك البريطانيّ.

هكذا كنا نَحْكم على الأساتذة إما أنهم ضعفاء (كموندريل ومستر هِل، أستاذ الجغرافية) وإما أقوياء (كهايندز، وغاتلاي أحيانًا)، ولم نحكم عليهم أبدًا بناءً على أدائهم الأكاديميّ. وكان فريق صغير من الأساتذة يتولى تعليم العربية في صفوف منقسمة إلى فروع للمبتدئين والمتوسطين والمتقدمين. ولكنّ التلامذة كانوا يحتقرونهم جميعًا، عدا واحدًا. وقدّرتُ أنّ سبب ذلك يعود إلى أنهم بكل بساطة مواطنون من الدرجة الثانية داخل المدرسة، وإلى أنّ معظمنا يَعْتبر دراسة الشعر العربيّ من خلال القصائد الوطنية المقيتة في مديح الملك فاروق مجردَ هراء. أستاذي في الفرع المتوسط سيّد قبطيّ يُعرف باسم توفيق أفندي، وزميله في الفرع المتقدم هو ضبع أفندي وهو الأستاذ الوحيد الذي أدى التزامُه العميق بقداسة اللغة إلى نيله احترامَ تلامذة صفه، إنْ لم أقل حبَّهم. وتبيّن أنّ توفيق أفندي رجل مداهن بحاجة ماسّة إلى المزيد من المال، فقرّر منذ وقت مبكر أني مرشّح مناسِب لتلقّي «الدروس الخصوصية» ونجح في أن يكسب ثقة أمي فصار يزورنا في البيت مرتيْن في الأسبوع لتعليمي. وبعد نصف دزينة من محاولاته التافهة لتدريبي على تعقيدات القواعد العربية – وهو ما أدى إلى تنفيري من الأدب العربيّ، لأكثر من عشرين سنة، قبل أن أعود إليه بشيء من المتعة والحماس – صرنا أنا وتوفيق أفندي نقضي ساعات احتجازنا المشترك في الثرثرة عن الكتب، ولا نَدْرس أبدًا، وهو لا همّ له إلا أن يقبض ماله ويرتشف فنجانَ القهوة مع البسكوت ثم يغادر إلى درس خصوصيّ آخر لا يقلّ عبثيةً دون أدنى شك. واعتدنا أنا وأحمد أن نسخر من التمنّع الطقوسيّ الذي يمارسه توفيق أفندي عندما تُقدم إليه القهوةُ مع البسكوت – «لا، شكرًا، سبق أن تناولتُ قهوة بعد الظهر مع أصدقائي عند "غروبي"»، المقهى المرموقِ في وسط المدينة، في محاولة عبثية لإقناعنا بأنه من روّاده الدائمين – ثم

قبولِه الأطايبَ بطريقةٍ لا تقلّ طقوسيةً عن سابقتها، فيكرع قهوته ويلتهم البسكوت بنهم شديد.

اتسمت حياتنا في ڤكتوريا كولدج بتشوّه كبير لم أدركه حينها. كانت النظرة السائدة إلى التلامذة أنهم أعضاءٌ، تمّموا دفع اشتراكاتهم، في نخبة كولونيالية مزعومة يجري تعليمها فنونًا إمبريالية بريطانية قضتْ نحبها، مع أننا لم نكن ندرك ذلك تمامًا. علّمونا عن حياة إنكلترا وآدابها، وعن النظام الملكيّ والبرلمان، عن الهند وإفريقيا، وعن عاداتٍ واصطلاحات لن نستطيع استخدامَها في مصر أو في أيّ مكان آخر. ولما كان الانتماءُ العربيّ وتكلُّمَ اللغة العربية يُعَدّان بمثابة جنحةٍ يعاقِب عليها القانونُ في فكتوريا كولدج، فلا عجب أن لا نتلقّى أبدًا التعليم المناسب عن لغتنا وتاريخنا وثقافتنا وجغرافية بلادنا. وكانوا يمتحنوننا بصفتنا تلامذةً إنكليزًا، نجرّ أذيالنا متخلّفين سعيًا إلى تحقيق هدف مُبهم، يستحيل تحقيقُه أصلاً، من صف إلى صف آخر ومن سنة دراسية إلى سنة دراسية تالية، يواكبنا أهلُنا طوال ذلك المسار منشغلي البال علينا. ثم إني أدركتُ في قلبي أنّ ڤكتوريا كولدج قَطَعَتْ نهائيًا الأواصرَ التي تشدّني إلى حياتي السابقة، وأنّ ادعاء أهلي أني مواطن أميركيّ قد تهافت، فقد بتنا ندرك جميعنا أننا دونيون نواجه قوة كولونيالية جريحة وخطرة بل وقابلةً لأن تؤذينا، ونحن مُجبَرون على تعلّم لغتها واستيعاب ثقافتها لكونها هي الثقافة السائدة في مصر.

وخيرُ تجسيدٍ لتلك السلطة الكولونيالية المتهاوية هو رئيس المدرسة، المستر جي. جاي. إي. پرايس، وترمز غابةُ الأحرف الأولى التي يحملها إلى الهوس بالنَسَب الرفيع والمباهاة بالنفس، وقد اعتبرتُ ذلك على الدوام، منذ ذلك الحين، من الصفات المميزة للإنكليز. لستُ أدري أين تعرّف إلى والدي، ولعلّ لذلك صلةً بودّه الأصليّ تجاهي. وكان پرايس رجلاً قصير القامة، مربوعها، له شاربٌ أسود مثل الفرشاة، يمشي مشية ميكانيكية وهو يرافق كلب صيده حول الملاعب. وهو رجل منعزل، من جهة لأنّ معظم صلاحياته توزّعَها الأساتذةُ ومساعدوهم من التلامذة ورؤساء الفرق، ومن جهة أخرى لأنّ صحته كانت تتدهور بسرعة، وهو ما اضطره إلى الاستقالة أخيرًا بعد أن قضى عدة أسابيع مختبئًا في مكتبه.

في نهاية أول شهر لي في المدرسة، كنتُ قد اشتُهرتُ بصفتي مشاغبًا مثيرًا للاضطرابات، أثرثر خلال الدروس، وأتآخى مع سائر قادة التمرُّد من قليلي الاحترام للأساتذة، أضفْ إلى كل ذلك أني دائم الاستعداد لجوابٍ ساخر ملغز، وهو كان عندي شكلاً من أشكال المقاومة للبريطانيين. والمفارقة هنا أني كنتُ، في الآن ذاته، مليئًا بشتى الهواجس، ودائمَ التقلقل لأنّ جسدي صار فجأةً رجوليًا أكثر مما ينبغي، ومكبوتًا جنسيًا، والأهم أنه كان خائفًا دائمًا من الانكشاف والفشل.

كان صخب المدرسة مذهلاً: نداوم فيها من الثامنة والنصف حتى الخامسة والنصف أو السادسة، لا يقطع تلك الساعاتِ إلا استراحةُ الغداء والرياضة. يلي ذلك فروضٌ مسائية طويلة، ينظمها دفترُ ملاحظاتٍ صغيرٌ وسميكٌ نشتريه بحسٍّ رفيع بالواجب من مكتبة المدرسة ونسجِّل عليه واجباتنا يومًا بيوم. والبرنامج الدراسيّ مضغوط جدًا، يتكون من تسع مواد - الإنكليزية والفرنسية والعربية والحساب والتاريخ والجغرافية والفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء ـ وقد أوقعني في حالٍ من التزعزع وذلك لشعوري بعدم جهوزيتي الكاملة لتلبية المواعيد النهائية ومتطلبات الامتحانات كافةً.

وذاتَ يوم في مطلع الفصل الدراسيّ، أُلقي القبضُ عليَّ وأنا أتقاذف [مع زملائي] بالحجارة خلال استراحة الغداء، فساقني للتوّ أحدُ مساعدي الأساتذة، وكان رطب اليدين، إلى مكتب پرايس لتلقّي العقاب المناسب. في غرفة ضخمة مجاورة لمكتب الرئيس، مؤثّثةٍ بطريقة مهملة، ألفيتُ سكرتير پرايس، وهو موظف محليّ قويّ البنية نعرفه فقط باسم مستر لانيادو، جالسًا وراء مكتب، منهمكًا بالطباعة على الآلة الكاتبة. همس مساعد الأستاذ شيئًا في أذنه، وسرعان ما وجدتنا معًا في الغرفة الثانية واقفين أمام مكتب پرايس الفارغ والفائق الاتساع. «ماذا في الأمر، لانيادو؟»، سأل المديرُ العليلُ المتجهم، «لماذا هذا الصبي موجود هنا؟». تركني لانيادو في مكاني وسار خلف المكتب ليهمس شيئًا سريًا في أذن پرايس، تمامًا كما فعل مساعد الأستاذ من قبل. «هذا غير مسموح عندنا»، قال پرايس بحزم. «تقدَّمْ إلى النافذة، يا ولد»، أمرني ببرود. «اِنحَنِ. حسناً. هلمّ، لانيادو». ومن طرف عيني لمحتُ پرايس يناول مساعده خيزرانة طويلة، وإذ أمسك

پرايس بي من رقبتي، أبصرتُ لانيادو يرفع السوطَ الشريرَ المنظرِ ويوجِّه بمهارةٍ ستًّا من أجود ضرباته إلى مؤخرتي.

كان پرايس أضعف جسديًا من أن يقوم بالواجب بنفسه، فأوكل الأمر إلى الموظف المحليّ الذي نفّذ المهمة بفاعلية حيادية، فيما كان الرئيس إلى جانبه مطأطئًا رأسَه مع كل ضربة. «هذا كل شيء، سعيد» قال لي پرايس. «أُخرُجْ. ولا تعاودها ثانيةً»، كانت كلماته التوديعية. وإذ غادرتُ حرمه مررتُ بلانيادو الذي انسلّ قبلي وعاد إلى مكتبه ليواصل الطباعة على الآلة الكاتبة كأنّ شيئًا لم يكن. كان الوجع مبرِّحًا. فلانيادو رجل فظ، ولعلّ قساوة ضربه الشديدة جاءت إرضاءً لسيّده، أو لعله، وهو اليهوديّ الشرقيّ المتغرّب، أراد بذلك إذلال التلميذ «العربيّ» (فقد سمعتُه مرةً يقول لتلميذٍ أرمنيّ يغمِّس لقمته في المَرَق: «لا تأكل مثل العرب»). على أني شعرتُ أنّ هذا أمر متوقع في زمن الحرب الذي كنا فيه. فتملّكني غيظ لا يرحم وأنا أعاهِد نفسي على أن أجعل حياتـ«ـهُمْ» جحيمًا لا يطاق من غير أن يُلقى القبضُ عليّ، وأن أمتنع عن أية صلة حميمة بأيٍّ منهم، مكتفيًا بأن أنتزع منهم ما يملكون تقديمه لي بجهدي الشخصيّ فقط.

ومع أنه كانت لي عمليًا مدرسةٌ كاملةٌ من الشركاء والحلفاء، فقد ظلت قواعد أهلي وأنظمتهم تمارِس عليّ سطوتَها. ويعود ذلك جزئيًا إلى أنهم اعتقدوا بنجاح تجربة ضهور الشوير في الصيفية الفائتة عندما علّمني عزيز نصر الهندسة، فقرروا أنّ إحدى وسائل زيادة تكيّفي مع الروتين الصارم لڤكتوريا كولدج هي زيادة الدروس الخصوصية كمًا ونوعًا (وكنا نسمّيها «الدروس الإضافية»). وعلى الرغم من امتلاكي الاستعدادَ الذهنيّ لدراسة الحساب والعلوم، فقد أُخضعتُ للدروس الخصوصية في كلٍ من الحساب والفيزياء، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنّ مؤهلاتي الحسابية كانت متخلفة عن مؤهلات أبي وشقيقاتي. وقد تبرّعتْ هدى سعيد، زوجةُ ابن عمي الأكبر جورج الرائعةُ الجمال، بتعليمي الحساب. وجنّد أبي فؤاد أُتيِّم، اللاجئ الفلسطينيّ الشاب واللامعَ الذي يواصل دراسته في الجامعة الأميركية في القاهرة، لتعليمي الفيزياء. جرت الأمور بيني وبين هدى على أروع ما يكون، إذ كنا نتحادث أساسًا عن الموسيقى ولا نَصرْف على الجبر إلا وقتًا قليلاً، لاستيعابي قواعده بسرعة معقولة. وكان فؤاد يتخصص في الصحافة وصديقًا لابن عمي

روبرت (وهو أيضًا طالب في الجامعة الأميركية في القاهرة)، وتبيّن أنه يتعلّم المادة حين كان يعلّمني إياها. وأذْكر ساعات مملة عدة نجاهد فيها معًا حول استخدامات وحدات قياس الحرارة البريطانية. غير أنّ اهتمامي بالوقت الذي قضيتُه مع فؤاد يعود إلى مناقشاتنا عن بؤس الصحافة العربية حيث كنتُ أُصغي إلى سخريته اللاذعة وهو يفكّك البلاغةَ الفارغة والاديولوجيا المفلسة لصحافيي **الأهرام** و**الأخبار**.

أخيرًا أَسْرَرْتُ إلى عمتي نبيهة بالمصائب التي تحاصرني من كل صوب، وبشعوري بالضياع والارتباك في المدرسة، وطغيانِ تعلّم اللغات وسواها من المتطلبات، والجوِّ الاقتصاصيّ، والاستخدامِ المتفارق للدروس الخصوصية ودروس البيانو التي تشغلني بلا طائل من الفجر إلى النجر، سبعةَ أيام في الأسبوع، وهو ما يتعارض على نحوٍ دراميّ مع الملذات المحرّمة التي يدفعني إليها جنوحي. فكان هذا كله فوق طاقتي على الاحتمال. ولكنّ عمتي نبيهة ارتقت إلى مستوى الحدث على نحو رائع: «إذا كنتَ تعتقد أنّ كل الموجبات حاضرة أمامك الآن تتطلب تنفيذها كلَّها في آن واحد، فسوف تشلّ نفسك لا غير. إنّ الزمن يَفْرض عليك أن تنفّذ تلك الأمور بالتتابع، واحدًا منها في المرة الواحدة»، وأردفتْ بثقة كأنها هي التي انتصرتْ في تلك المعركة: «وهذا ما يخفف من الأعباء إلى أبعد حدّ. فأنت شاطر جدًا وسوف تتدبر أمرك». وما أزال أحتفظ بكلماتها الهادئة، التي تكاد أن تكون خالية من العاطفة، وإنْ تكن حريصةً كلَّ الحرص، تفاجئني بفائدتها إبان الأزمة المباغتة والكارثة الزاحفة، وإنْ تكن متوقعة، عندما تداهمني كافةُ أنواع المواعيد النهائية. فكان لهدوئها ولسلطتها وقعٌ إيجابيّ عليّ مع أنّ تلك المناسبة كانت، مع الأسف، آخر مرة تحادثنا فيها بشيء من البوح الحميم. فقد كانت على مشارف تقاعدها من «الأميركان كولدج» وتحولّتْ كائناً آخر بعدما انتقلتْ للإقامة الدائمة في لبنان.

لم يفاجئني، أو كاد ألا يفاجئني، أنّ العمة نبيهة على حق، بل على حق أكثر مما ينبغي. فخلال شهرين أخذتُ أتطلع إلى المدرسة مَهْرَبًا إلى واقع أكثر طواعيةً وأخفّ وطأةً من التمثيل العجيب الذي أمارسه في البيت (حيث صارت تحديقةُ والدَيّ أكثر ارتيابًا بعد اكتشافهم خرقي المحرّماتِ من خلال ممارستي «العبث

بجسدي »، فصار سلوكي ووقتي أكثر عرضةً للمراقبة ولتحميلي المهمات البغيضة).
والصف الخامس المتوسط الفرع الأول هو الوضع الاجتماعيّ، وبالطبع الأكاديميّ، الأكثر تعقيدًا الذي كان عليّ التعامل معه. وقد استمتعتُ بتحدياته من نواحٍ عديدة. لم يكن الأكاديميون شديدي الإثارة، فلا أساتذة مرموقون ولا أصحاب مواهب بارزة، مع أنّ واحدًا منهم، مستر ويتمان، وهو رجل مسِنّ ونيّق يعلّم الصف الخامس الأدنى الفرع الأول، بدا لي مختلفًا من حيث اهتمامه غير العاديّ بالموسيقى الكلاسيكية وقد أقنعني (وأقنعتُ بدوري أهلي) بإعارته تسجيلنا لمقطوعة شتراوس «رقصة الغلالات» ليُسمعها لأفراد نادي الموسيقى الكلاسيكية الذي كنتُ عضوًا فيه وأشارك في نشاطاته بين الحين والآخر. وباستثناء ذلك، كنتُ أعيش حالةً من الوعي المتيقّظ، وقد انقشعتْ عني المخاوفُ والهواجسُ السابقة مثلما ينقشع ضبابُ الصباح الباكر عن مشهد يتطلّب العناية الفائقة بالتفاصيل الاجتماعية، وبالتفاصيل السياسية في حالتها البدائية أيضًا.

ينقسم صفّي إلى عدة عصابات وشلل. قائدنا جورج كردوش، وهو شاب صغير القامة، نحيلها، يَمْلك مهارات رياضية جمّة ولسانًا سليطًا، ويتمتّع بمحبّة الجميع. ومع أني كنتُ أنا وهو ومصطفى حمد الله ونبيل عبد الملك ننتمي إلى عصابة واحدة، فقد كان كردوش يتجوّل بين عدة شلل أصغر حجمًا بفضل سرعته وطريقة تعامله اليسيرة والناضجة مع الطلاب الأكبر سنًا. كنا متجاورَين على المقعد الخلفيّ، ومصطفى حمد الله وتلميذ آخر أو تلميذان آخران مباشرةً أمامنا. وقد تجاوزنا خطًا أحمر مطلع كانون الأول/ديسمبر خلال إحدى حصص مستر غاتلاي الرتيبة التي لا تطاق، عندما أَشْعل كردوش النار مصادفةً في كومة صغيرة من الأوراق المبللة في القسم الأيسر من مقرئته وهو يطفئ سيجارته. وللتوّ غمرتنا غيومٌ نفّاثة من الدخان الرماديّ البشع، فيما هو راح يحاول إطفاء ألسنة النار بيده ثم بحقيبته. كان غاتلاي المتعجرف يهمهم برتابة عندما اشتمّ فجأة رائحة غريبة، فرفع عينيه عن كتابه، وهو أمر لم نألفه منه، ليشاهد منظرًا غريبًا: مقرئة يتعالى منها الدخان. «كردوش»، هَدَرَ غاتلاي بصوته الأشد تهديدًا، «ما هذا الدخان؟ كُفّ عن ذلك فورًا، يا ولد!» وبسرعة خاطر كبيرة، أجابه المذنب المفجوع وهو يكشح الدخان بذراعيه ويقحّ ويشهق ويكاد يختنق ويحمي عينيه في الآن ذاته: «دخان، يا أستاذ؟

أيّ دخان؟»، إذّاك، ردّد الصفُ كله من بعده في جوقة واحدة: «أيّ دخان؟ أيّ دخان؟ لا نرى أيّ دخان!». ارتعب غاتلاي وفوجئ في الوقت ذاته، فَعَدَلَ عن متابعة الأمر وعاد إلى القراءة بصوت مرتفع مع عدد من الصبيان الأعقل تصرّفًا الجالسين في الصف الأماميّ. ولما كنتُ وكردوش جالسيْن قرب الباب، فقد تمكنّا من إطفاء الحريق بعد قدر كبير من الجرجرة الضاجة (من تحريك المقاعد وإطلاق صيحات تنسيق ثاقبة وما شابه، وقد تغاضى غاتلاي عنها كلها) واستجلاب الرمل من الخارج.

وحوى صفُّنا أيضًا مجموعةً من الشبان الفرانكوفونيين، معظمُهم من اليهود: اندريه شالوم، اندريه سلامة، روجيه شيوتو، جوزيف ماني (وقد شاركتُهم الاهتمام الكبير بوالتر سكوت) وكلود سلامة الذي كان يسكن في بناية «إيموبيليا» في قلب الحيّ الفخم من وسط المدينة. وهم من أذكى تلامذة الصف. ثم كانت مجموعة الناطقين بالعربية أساسًا، ومعظمُهم من المصريين غير المتغرّبين - مَلَواني، ا. ا. زكي، نبيل اياد، شكري، أسامة عبد الحق، وغيرهم. وما أذهلني ولا يزال يبهجني بصدد تلك الجماعات أنّ ما من واحدة منها كانت استئثاريةً أو مُحْكَمَةَ الإغلاق، وهو ما أنتج متاهةً من الشخصيات واللهجات والبيئات والديانات والقوميات كأنها في حالة من الرقص وتبادل الشركاء فيما بينهم.

لفترة من الزمن كان بيننا صبيّ هنديّ هو ڤاشي پوهومول، ابنُ صاحب محل كبير لبيع المجوهرات في فندق شيپارد أو بالقرب منه. وخلال العام الدراسيّ، انضم إلينا اللبنانيُّ جيلبرت خوري؛ والنصف أميركيّ علي حليم، الذي كان والده من أصل ألبانيّ وابن عم الملك فاروق؛ والتركيُّ بُلَند ماردين، من سكان المعادي؛ وآرثر ديڤدسون، وأبوه كنديّ وأمه مصرية؛ وسمير يوسف، وأبوه قبطي وأمه هولندية. فتكوّن منهم صف غير متجانس ولكنه مثيرٌ إلى حد مذهل، نكاد جميعنا لا نأبه كليًا للوجه الأكاديميّ الإنكليزيّ للأمور، مع أنّ هذا كان سببَ وجودنا هناك في الأصل.

وكانت هناك فرق رياضية داخلية، ولكني كنتُ عضوًا غير بارز في فريقنا، غير أني كنتُ أفلح أكثر في ما يسمى «ألعاب القوى»، أي حلبة العَدْو والميدان. هناك، تحت عين المستر هايندز الصارمة، تطورتُ لأصير عدّاء جيدًا، دون أن أكون

لامعًا، في مسافات المئة متر والمئتيْ متر. وأَذْكر أني سألْتُه بشغف أن يطمئنني ما إذا كنتُ سأُفْلح جيدًا في ألعاب المدرسة القادمة، فقال: «سوف أفاجأ إنْ أنتَ كسبتَ مسابقة المئتيْ متر، ولكني لن أفاجأ إن أنتَ كسبتَ مسابقة المئة متر». غير أنّني لم أكسب هذه ولا تلك، وقد وقعت الفاجعة خلال مسابقة المئة متر تحديدًا. فبعد لحظات من مغادرتي خطَّ الانطلاق بحذائي الأسود الأنيق ذي الكعب المسماريّ والشورط الأبيض الجديد، الأوسع كثيرًا من قياسي- مع أنّ أمي أصرّت على أنه المقاس المناسب - شعرتُ بأنّ الشُورط يَسْلت من على خصري. فأخذتُ أشدّ به إلى أعلى بحركات مسعورة، بينما رجلاي تهرولان ببسالة، وإنْ يكن بلا طائل، وسمعتُ هايندز يصيح بي: «لا تهتم بالشُورط، يا سعيد. أُركضْ وحسب». فركضتُ مترًا أو مترين إضافييْن قبل أن أقع على وجهي بعد ثانية، وقد التفّ الشورط اللعينُ حول كاحلَيّ، فانطلقتْ قهقهةٌ جَذلة من صبيان «فريق كرومر» الذين سخروا مني بوقاحة.

هكذا انتهى نشاطي الرياضيّ في حلبة السباق، مع أني واظبتُ على لعب التنس ومارستُ السباحة وركُوب الخَيل خارج المدرسة. ودون أن أتوهّم أني سبّاق أو نجم رياضيّ، أحسستُ بأني عند عتبة فتح جديد، خصوصًا في التنس. لكنّ الشكوك والارتيابات بصدد جسمي التي زرعها فيّ أبي كانت تكبّلني على الدوام. وغالبًا ما كنتُ أتساءل بعد كل هزيمة نكراء في التِنس: هل يعقل أنّ «العبث بجسدي» هو الذي يهدّ صحتي ومن ثم أدائي الرياضيّ؟ أَضِفْ إلى هذا إحساسي بنفسي شخصًا غير طبيعي بسبب خلفيتي البالغة التعقيد، وبنيتي وقوتي الكبيرتيْن (قياسًا إلى زملائي) وميولي الموسيقية والأدبية السرّية.

وقع حادث دالٌّ على وضعي الأكاديميّ الشاذ في ربيع العام ١٩٥٠، في حرم المدرسة في شبرا خلال حصة الفيزياء. فلما كانت المدرسة الإيطالية القديمة تفتقر إلى مختبرات العلوم، فقد كان أفراد صفنا يُنْقلون بالحافلة مرتيْن في الأسبوع إلى «المدرسة القبطية» في الفَجالة، وهو حيّ رث من أحياء الطبقة الوسطى الدنيا يقع قرب محطة «باب الحديد». هناك كنا نتلقى أولاً حصةَ كيمياء لمدة ساعة يقدّمها رجلٌ في منتصف العمر شبهُ متخلف عقليًا نسيتُ اسمه (إذ أَجْهد لإعادة تركيب انطباعاتي)، يكاد ألا يتكلم الإنكليزية على الإطلاق ويمثّل على العديد من النقاط

الأكثرِ أهميةً التي يوردها بأن يلفّ نفسه بماسورة طويلة من مطاط أنابيب الاختبار. أما عزمي أفندي، أستاذ الفيزياء، الدمث والبارد كالثلج عمومًا، فقادنا بمنهجية وهدوء عبر الميكانيك والضوء والجاذبية وما شابه، وقد سَهُلَ عليّ استيعابُ معظمها. ولما كانت روحية تلامذة الصف لا تجيز الخضوع الظاهر لإرادة الأستاذ – لاعتبارهم عزمي إلى حدٍّ ما إنكليزيًا متخفيًا في لبوس محلية – فقد آثرت التحفظ كلما أثير سؤال للمناقشة أو للإجابة. وفي اليوم الذي أعاد لنا فيه امتحانات نصف السنة، قدّم عزمي لإعادته دفاترَ الامتحانات، المستّفة بعناية تحت يده، بهجوم كاسح على بؤس أداء الصف وانعدام الكفاءة الذي يعمّه والإهمال المخزي. «تلميذ واحد فقط يعرف مبادئ الفيزياء وقد قدّم امتحانًا لامعًا، امتحانًا لامعًا جدًا. إنه سعيد». ثم أردف بعد وقفة قصيرة: «تعال إلى هنا». وأذكر أنّ صبيًا يجلس قربي في أعلى رواق المدرّج نخعني وقال: «إنه يقصدك أنت»، وبعد لحظة كنتُ أتعثر نزولاً على الأدراج ثم صعودًا نحو عزمي أفندي لتسلّم امتحاني «الباهر» ولأعود متثاقلاً إلى مقعدي.

لم تترك الحادثة أيّ أثر في زملائي في الصف، أو حتى فيَّ أنا شخصيًا، فالجميع يعهدني عضواً في عصابة المشاغبين. وإني متأكد من أنّ علامتي النهائية في الفيزياء كانت «ب» محترمة ولكنْ يصعب وصفها بأنها لامعة. وقد واصلتُ الانجرافَ أبعدَ فأبعدَ عن أيّ موقع من مواقع الامتياز الأكاديميّ، مستنفدًا كل ما أملك من كفاءة وعلم في أداء مهمة معقدة تقضي بالتفلّت من قبضة الأساتذة ومساعديهم والمتنمّرين، وتجنُّبِ الفشل، وتدبيرِ أمري عبر برنامج إضافيٍّ مميت مفروض عليّ في البيت، يضاف إلى يوم طويل جدًا أقضيه في المدرسة. راق لي كثيرًا عرضٌ مدرسيٌّ لمسرحية «تنقضّ لتنتصر؟»[1] مثّل فيها ميشال شلهوب (الذي صار الممثل عمر الشريف) دورَ السيدة هاردكاسل، ومثّل دور كايت جيلبير دي بوطون (وقد برز لاحقًا بصفته واحدًا من كبار رجال المال العالميين). وبواسطة سمير يوسف وآرثر داڤيدسون تعرّفتُ إلى العادات الشعبية المصرية وإلى الأدب الإباحيّ على التوالي. ولكنْ على الرغم من عادة المقاومة

---

١ ـ كوميديا للأديب البريطانيّ، الإرلنديّ المولد، أوليڤر غولدسميث (١٧٣٠ ـ ١٧٧٤). (م)

الصلبة لكلِّ ما هو ثقافيّ أو تعليميّ، ظللتُ مراهقًا حيياً ومكبوتًا جنسيًا إلى حد كبير.

شاركنا آرثر دافيدسون عمومًا كتبه الإباحيةَ المطبوعةَ على ورق رديء جدًا وداعرِ المظهر، والمكتوبة بانعدام كامل للأسلوب، الأمر الذي يوحي بالاستعجال وبالافتقار شبه الكامل إلى حرفة الكتابة، وإنْ تكن مليئةً بأوصاف تصويرية ملتهبة. وفيما بعد، دسّ لنا أحدهم صورًا فوتغرافية فظة، سيئة التظهير، لرجال ونساء يتجامعون، أمدّتنا بجرعات معقولة من الجنس المحظور والبذيء. ولغياب الفتيات عن أفقنا، أخذنا نطرّز تلك الكتابات والتمثّلات الخرقاء والسادية لتصير ما ظننا أنه حديث يلقيه «لوثاريوس» [كنية أخرى عن رجل بليغ] زقاقيّ. فكانت عبارات من مثل: «هاتوا ليَ اللحم الأبيض» أو «إنها رطبة من شدة الشهوة» تستثير قعقعة من الضحك والسخرية، لكنها أورثتني، شخصيًا على الأقل، الإحباطَ المباغت والكبتَ المميت. ومع الوقت، اكتشفتُ موهبتي في تأليف أدب إباحيّ من عندياتي، ألعب فيه دور الراوي الكليّ الحضورِ والعِلْم، حشوتُه بأحداث تقع لي مع عدد متنوّع من النساء الأكبر مني سنًا معظمهنّ من صديقات العائلة أو حتى من القريبات. وكأنما لتعزيز الشبهات وسوء السمعة المحيطة بي في البيت بصفتي مريضًا جنسيًا – أو هكذا كنتُ أظن – أخذتُ أُخفي كتاباتي في أماكن مختلفة من البيت مثل كومة الحطب على شرفة أو جيبِ سترةٍ غير مستعملة، يساورني شعورٌ مرتبك بأني بذلك أورّط نفسي أكثر من ذي قبل. والغريب في الأمر أنّ مَيْل أمي للتنقيب في كل مكان – «وقعتُ على هذه الرسالة بمحض الصدفة» أو «حين كان أحمد ينظّف غرفتك، اكتشفَ هذه الورقة»، كانتا من بين عبارات تتكرر أسبوعيًا – لم يثنني عن تخبئة الأوراق التجريمية في تلك الأماكن التي نسيتُ بعضها كليًا أو كنتُ أتذكر فجأةً، وأنا على مقعد الدراسة، أني عاجز عن منع انكشاف بعضها الآخر، فتنتابني نوباتٌ من الذعر موقتة. وأحسب أني على طريقة «كاد المريب أن يقول: خذوني» كنتُ أتمنى أن أواجَه بذنوبي لأتمكن أخيرًا من خوض مغامرات حقيقية في العالم الحقيقيّ دون معوِّقات الأهل التي تجعل التحركَ على تلك الجبهة بالغَ الصعوبة. غير أنّ المجابهة لم تقع، مع أني أذْكرَ بغموضٍ تلميحَ الوالدَيْن في مناسبات عدة، أو بدا لي أنه تلميح، إلى أنهما قد

كشفا أمري، وقرأا النثر التجريميّ. وهذا ما زاد حالي سوءًا وانفعالاً وفاقَمَ إحساسي بالمطاردة.

لم يكن من مَخَارج لشهواتي المكبوتة غيرُ السينما والمسرح الراقص وعروض الكاباريهات. وفي إحدى أماسيٍّ ربيع العام ١٩٥٠ الشديدة الحرارة، تدبّر سمير يوسف أمر حجز طاولة في «مسرح بديعة» في الهواء الطلق الواقع على حاجز صغير للماء تحت ما هو اليوم فندق شيراتون الجيزة. ولأول مرة في حياتي اهتززتُ إثارةً لمشهدٍ إيروسيّ بامتياز لم أشاهد مثيلاً له من قبل. إنها تحية كاريوكا، أعظمُ راقصات زمانها، ترقص، ويرافقها جلوسًا المطرب عبد العزيز محمود، فتلتفّ حوله وتتلّوى ثم تدور حول محورها باتزان محكَم إلى حد الكمال. وكان ردفاها وساقاها ونهداها أبلغ بَوحاً مِنْ كلٍّ ما حلمتُ به أو تخيّلتُه في نثري الاستمنائيّ الفظ، وتَنْضح بشهوة فردوسية. ولمحتُ على وجه «تحية» بسمةً تنمّ عن لذة متفلّتة من كل قيد، يعبّر فمُها المفترّ قليلاً عن نعيم النشوة، يلطّف منها مزيج من السخرية والتمنّع يصلان حد الاحتشام. تسمّرنا أمام ذلك التناقض الفتّان، مفاصلُنا مرتخية وأيدينا متشبّثة بالكراسي، يشلّها التوتر. رقصتْ تحية ثلاثة أرباع الساعة، مؤدِّية تأليفًا طويلاً ومتواصلاً يتكوّن في معظمه من الدوران البطيء ومن إيماءات اليدين، فيما الموسيقى تعلو وتهبط بنغماتها المتجانسة، فتكتسب معناها لا من تكرارات المطرب أو من تفاهة كلمات أغنياته، وإنما من أداء تحية النورانيّ والشهوانيّ إلى حد مستبعد التصديق.

وفّرت الأفلامُ الموسيقية تجربةً مشابهةً للمحاكاة الجنسية، وإنْ تكن أقلّ زخمًا من تجربة تحية كاريوكا. وقد تألّقتْ فيها كلٌّ من سيد تشاريس، وفيرا آلان بدرجة أقلّ، ثم آن ميلر في مرتبة أدنى، وهنّ راقصات هوليووديات ينبعثن من عالم استيهاميّ لا تدانيه حياةُ القاهرة العادية من قريب أو بعيد. وبعد عدة سنوات من ذلك، قرأتُ لسِد تشاريس في مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز قولها إنّ الأفلام الموسيقية مثل فيلم «جوارب الحرير» قد استَخْدمت الرقص وسيلةً لإدخال الجنس الذي كانت تحرّمه أجهزةُ الرقابة آنذاك. وهذا بالتحديد ما استجبتُ له بشغف عنيف، أنا المراهقَ المحجوزَ والمرتبك، الذي كنتُ أسرق وزملائي في المدرسة ساعاتٍ طويلةً في السينما لمشاهدة ريتا هايورث وجين راصل بل وبيتي غرابل أيضًا، وقد

بدأتْ تذوي، متشوّقين، بلا طائل، لأن نلمح ولو سُرّةَ امرأةٍ، ولاسيما أنّ مثل هذا المشهد اللاهب يحرّمه «قانونُ هايز»[1].

ولكنْ ما من ممثلٍ سينمائيّ ترك أثره في حياتنا الاستيهامية كما أثّر فيها نجومُ التِنس. يأتي اللاعبون الأجانب إلى القاهرة مرتين في السنة - ياروسلاف دروبني وإريك ستورجس وبادج پاتي، والبارون غولفريد ڤون كرام، الذي لا يضاهى، وآدريان كويست - وسرعان ما صاروا أبطالَ صفنا، نتمثّل في الخيال حيواتهم الغنيةَ المليئةَ بالمباهج والرحلات الفخمة. كذلك جسّد نيكولا پيترانجيلي وهود وروزويل، وطوني موترام، عالمًا من الأناقة بعيدًا جدًا عن واقعنا اليوميّ.

في البيت، تقلّص الترهّب والانحباس من حياتنا بعض الشيء وقد تجاوزنا جميعًا سنيّ الطفولة واتسعت دائرةُ حياة أهلنا الاجتماعية إلى حد كبير. فقد تحلّقتْ حولنا مجموعةٌ جديدة من الأصدقاء، حافظنا عليها إلى مطلع الستينيّات عندما أدى التقدّم في السنّ وخطوبُ السياسة والاضطرابات الاقتصادية إلى تفكيك أواصرها إلى غير رجعة.

أقرب الأصدقاء وأوثقهم علاقةً بأهلي هم آل ديرليك، الذي كنا نلتقيهم في لبنان. الأم، رينيه، امرأة ذكية وخفيفة الدم، هي أقرب الصديقات إلى أمي، وزوجُها الصيدليّ، لورِس، خيّال ماهر وطاهٍ ممتاز ورفيقٌ ساحر. أما الولدان الأكبران، أندريه، وهو في مثل عمري تقريبًا، وكلود، شقيقته الأصغر، فكنا نراهما بدرجةٍ أقل، لأنهما يَدْرسان في مدارس فرنسية ولهما حلقتُهما الخاصة من الأصدقاء. ولا أزال أذكر آل ديرليك بلذة استثنائية، وزياراتُهم لنا متعةٌ خالصة مختلفة كليًا عن القتامة الفلسطينية المريرة المحيطة بنا، أو عن لاعبي البريدج الصامتين (أمثال السادة فرج الله وسوقي وصبرا وغيرهم) من زملاء أبي [الغارقين] في وصلات طويلة من تلك اللعبة التي كانت تغيظني أكثر فأكثر. ورينيه ديرليك تلميذة سابقة لآنطي ميليا، أبوها لبنانيّ - مصريّ وأمها أميركية، أما لورِس فنصفه أرمنيّ ونصفه تركيّ،

---

١ - نسبةً إلى ويل هايز (١٨٧٩ - ١٩٥٤) السياسيّ الجمهوريّ الأميركيّ الذي عُرِفَ باسم «قيصر» صناعة السينما الأميركية لأنّه خلال الأعوام ١٩٢٠ - ١٩٤٥ شغل منصب القاضي المولج بالرقابة على الأفلام فوضع وطبّق على السينما مجموعةَ قوانين صارمةٍ أخلاقياً. (م)

وكلاهما كوزموبوليتيّ، طليق في الفرنسية والإنكليزية وأقل طلاقة في العربية. ويبقى أنّ حفلات العشاء في بيتهما أو في بيتنا، وسهرات الأوبرا، والأماسيّ في مطعم «الكورسال» أو «الاستوريال»، اللذين كنا نرتادهما بين الحين والآخر، والرحلات إلى الإسكندرية، من أعذب ذكريات شبابي.

لكنهم مثلنا كانوا محكومين بالانقراض في بيئة القاهرة الدنيوية التي بدأتْ تتزعزع من أُسسها. كنا من «الشوام»، مخلوقاتٍ مشرقيةً برمائيةً تتحايل على ضياعها الوجوديّ موقتًا بواسطة النسيان وأحلامِ اليقظة التي تتضمّن حفلاتِ عشاءٍ فاخرةً مُوصًى عليها من عند متعهدي الحفلاتِ وسهراتٍ في المطاعم الفخمة أو في الأوبرا والباليه والحفلات الموسيقية. ولكنْ مع حلول الأربعينيّات، لم نعد مجرد «شوام»، بل صرنا «خواجات»، وهو اللقب التبجيليّ الدال على الأجانب الذي يَحْمل دائمًا لَسْعَة عداء عندما يستخدمه المسلمون المصريون. وعلى الرغم من أني كنتُ أتكلم باللهجة المصرية ولي مظهرُ المصريّ الأصليّ، فقد كان ثمة ما يشي بي. وكنتُ أستنكر التلميح إلى أني أجنبيّ نوعًا ما، مع أني أدرك في العمق أنهم يعتبرونني أجنبيًا، على الرغم من أني عربيّ. وكان آل ديرليك أقلّ اندماجًا منا في المجتمع المصريّ، وخصوصًا لورِس والأولاد، فهم أوروبيون من حيث اللغة والسلوك، ومع ذلك لم يكونوا يشعرون بأية إعاقة من جراء ذلك. بالتأكيد كنتُ أحسد أندريه على دنيويته وتدبيره - إنه «دَبِّير» كما تقول أمي تشجيعًا لي على أن أكون أكثر اجتهادًا في الحياة، والنتيجة أنّ ذلك جعلني أقل اجتهادًا بدلاً من العكس - يعتزم رحلات طويلة عبر أوروبا وآسيا، ويسافر مجانًا في سيارات الآخرين حاملاً النزر اليسير من المال ويعود دائمًا وقد بقي بحوزته البعض منه. وبدا لي أنه ارتضى لقب «الخواجه» في حين كان هذا اللقب يقرّحني تقريحًا، فقد رفضتُ هذا التعبير من جهة بسبب نمو إحساسي بهويتي الفلسطينية (بفضل العمة نبيهة) ومن جهة ثانية بسبب وعيي الناشئ لنفسي بوصفي، على العموم، كائنًا أكثر تعقيدًا وأصالةً من أن أُختزل إلى مجرد نسخة ممجوجة للشخصية الكولونيالية.

ومن أفراد حلقة الأصدقاء أيضًا كمال وإلسي مرشاق. هو مصريّ شاميّ من الجيل الثاني، وهي متحدرة من أصل فلسطينيّ، وكلاهما أصغر سنًا من أبي (وهذا شأن حلقتهم جميعًا) ولكنهما أكثر حداثة وأكثر «لحاقًا بالدّرْجات» من حيث

ارتياد الملاهي الليلية والمطاعم. وعلى الرغم من الفارق في السن، نشأتْ بيني وبين كمال صداقةٌ حميمة، خصوصًا أنه كان يتحسّس كبتي الجنسيّ. عندما بلغتُ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، غادرتُ إلى الولايات المتحدة ولكني كنتُ أعود بانتظام خلال فصل الصيف وأحيانًا لقضاء عطلة الميلاد. خلال تلك الزيارات، كان كمال يشجّعني على التفكير بإقامة علاقات جنسية مع نساء متزوجات. وهي فكرة ألهبتني كثيرًا مع أني لم أحققها لضعف ثقتي بنفسي ولغياب المرشّحات. ثم كان هناك جورج وإيمّا (ابنة عم كمال) فاهوم. هو أسمر رياضيّ المظهر على نحو لافت، رقيق الشفتين، وعلى جانب كبير من الأناقة، إضافةً إلى كونه رجل أعمال ناجحًا جدًا يشارك والد إيما، الياس مرشاق، الملاكَ العقاريَّ الفاحشَ الثراء، في استيراد وبيع الآلات الثقيلة، وبخاصة الزراعية منها. وخلال أيام الدراسة في الكلية في بيروت في الثلاثينيّات، كان جورج نجمًا في حلبة السباق ومباريات العدْو، حيث سجّل أرقامًا قياسية في المئة متر والمسافات المتوسطة والقفز الطويل ظلت سارية المفعول حتى الستينيّات. وكان إلى ذلك لاعب تِنس شَرِهاً دفعتْ براعتُه الفائقة في هذا المجال وثقتُه بنفسه إلى حد الغرور بأبي إلى أن يتحداه باسمي للنزال في مباريات عديدة. فاز عليّ جورج بسهولة في كل مرة لعبنا فيها معًا، وهو ما أذلّني إذلالاً شديدًا. وكان ذلك يحصل دائمًا بعد تمريني سنةً على اللعب في المدرسة أو الكلية في الولايات المتحدة، أقول لنفسي خلالها إني تحسنتُ بما فيه الكفاية لكي أتغلب عليه. استنكرتُ نيابةَ أبي عني، مع أني كنتُ أشتهي دائمًا ذلك التحدي وطبعًا أخجل من نفسي بعد كل مباراة. وكنا نلعب دائمًا في ملعب آل فاهوم المعتاد في «النادي الأهلي» حيث نثرثر لاهين، خلال مواجهتنا التي تستغرق ثلاثة أرباع الساعة، مع الصِّبْية المولجين بالتقاط الكرات ومع المدرّبين الذي يتجمعون لمشاهدته يفوز عليّ.

كانت إيما، ولا تزال، امرأة لطيفة واجتماعية لم تصطنع أيَّ كبرياء أو أيَّ تكلّفٍ زائفٍ على الرغم من ثرائها. تزوجتْ أَخواتها رِين وإيڤيت وأُوديت من «شوام» من نمط دنيويّ مختلف كليًا وأنتجن، مثل إيما وجورج، عددًا كبيرًا من البنات، عقدتُ مع بعضهنّ، مثل أميرة وليندا، صداقة محتشمة لا تخلو من بعض المغازلة. وما لبثتا أن تزوجتا باكرًا، الأمر الذي ضاعف من شغفي المكبوت.

الإضافة الجديدة إلى المجموعة كانت آل غُرّة، فرانسوا ومادلين، اللذين يجدان صعوبة في تكلم لغة غير الفرنسية (فيما الباقون جميعًا من خريجي المدارس البريطانية أو الأميركية). أعترفُ بأني وجدتُ آل غرة ساحرين على نحو غريب لانتمائهما إلى عالم لا مدخل لي إليه – هو، في حالة مادلين الشديدة التديّن، عالمُ البرجوازية الكبرى السورية–اللبنانية – مع أني كنتُ أُلقي نظرات خاطفة عليه خلال زياراتنا لهم في البيت. وأذكر أني التقيتُ عندهم آل زغيب وآل شديد، الحاملي ألقاب النبالة من باباوات روما. وبعد ما يقارب العقد من الزمن، خلال السنوات الناصرية، صدمني تمسّكُ حاملي تلك الألقاب بها من جيل إلى جيل وعددتُه سلوكاً عديم اللياقة إلى حد الفظاظة. وخلال تلك الأيام المبكرة، مثّل إولئك القوم لي نوعًا من الرومانسية البروستية، خصوصًا أنّ أحدًا منهم لم يدّعِ أيَّ تماسٍّ بمصر أو بما يتعلّق بها. ومع أني لم أكن قد زرتُ باريس بعد، فإنّ آل غرّة وأصدقاءهم منحوني نعمةَ زيارتها بالمحاكاة، على الرغم من أنهم كانوا يتكلمون فرنسيّة أبناء المشرق الثقيلةَ بالـ«راء» المشددة والتركيبات غير الاصطلاحية وما يتخللها من كلمات أو جمل عربية مثل «يعني» و«يالله».

خارج المدرسة عشنا حياة بذخٍ وتمايزٍ مغاليةً ومعاكسةً للتيّار. كانت للعائلات القريبة منا أطقُمُها من السائقين والبُستانيين والخادمات والغسالات والمكوجية، وبعضهم على ألفة معنا جميعًا. فأحمد هو تَبَع«نا»، وحسن تَبَعُ آل ديرليك، ومحمد تَبَعُ آل الفاهوم، ذوو حضور شبه تعويذيّ يَردون في أحاديثنا بما هم عناصر رئيسية من حياتنا اليومية، مثلهم مثل الحديقة أو المنزل، فكأنهم جزء من ممتلكاتنا، شَبَهَ مدبّري البيوت المسنّين في روايات تولستوي. نشأنا على تحذيرالأهل لنا من عدم الألفة مع الخدم، وهو ما يعني تحاشي الكلام معهم أو المزاح، وتلك قاعدةٌ لم أقاوم إغراء خرقها. وأَذْكر أني كنتُ أتعارك وأحمد، وأحادِثُ حسن عن المعنى الأعمق للحياة والدين، وأتكلم في شؤون السيارات والسائقين مع عزيز، ما يثير استنكار أهلي الشديد. وكنتُ أشعر أني، مثل هؤلاء الخدم، طاقة ملجومة ممنوعة من التعبير عن نفسها خلال ساعات الخدمة الطويلة. لذا كان الحديث معهم يمنحني إحساسًا بالحرية والانفراج، وهو إحساس وهميٌّ، طبعاً، لكنه كان يُسعدني فترة دوام تلك اللقاءات.

كان أهلنا يتسوّقون الأطعمة من عند غروبي، ويتحدثون إلى الموظفين العاديين، اليونانيين أو المصريين، الذين يَخْدمون في مطعم الأطعمة المعلّبة الأنيق بفرنسية تُكْثر من طقطقة الأحناك، بينما كان من الواضح جدًا أننا قادرون على تدبّر أمورنا على نحو أفضل بالعربية. وقد كنت فخورًا بأمي لأنها تتحدث العربية، ولاسيما أنها تنفرد بين سائر أعضاء الحلقة الاجتماعية التي ننتمي إليها في أنها تُحْسن اللغة، بل هي بليغة فيها، ولا تشعر بأيّ عائق اجتماعيّ يمنعها من استخدامها، مع أنّ الاعتقاد السائد هو أنّ التكلّم بالفرنسية يرفع من المقام الاجتماعيّ للمرء (بل يَرْقى بالمتكلِّم إلى أرفع المقامات قاطبةً). من جهتي، حصّلتُ المحكية الفرنسية باكرًا، أيام إعدادية الجزيرة وڤكتوريا كولدج، وبالطبع من خلال النادي أيضًا، غير أني لم أشعر مرةً بالثقة الكافية لاستخدامها لغةً يوميةً، مع أني أفهمها على نحو ممتاز. وهكذا، فعلى الرغم من أنّ الإنكليزية أضحت لغتي الأساسية، وحصص اللغة الفرنسية في ڤكتوريا كولدج ليست أكثر تنويرًا من حصص اللغة العربية، فقد وجدتُني في وضع غريب مفتقرًا إلى أيّ موقع طبيعيّ أو قوميّ يحدوني إلى استخدام الفرنسية. وأضحت اللغات الثلاث مسألةً حساسة جدًا بالنسبة إليّ عند بلوغي الرابعة عشرة. فالعربية محرّمة، ومن شأن «الووغز»، والفرنسيةُ لغتهم «هم» لا لغتي أنا، أما الإنكليزية فمُجازة ولكنني أرفضها لأنها لغة البريطانيين المكروهين.

منذ ذلك الحين، سحرتني أواليات اللغات بطريقة مغالية وأنا أتنقّل تلقائيًا في ذهني بين احتمالات ثلاثة. فحين أتكلم الإنكليزية، أسمع المعادِلَ العربيَّ أو الفرنسيَّ للمفردات، وغالبًا ما أنطقه. وحين أتكلم العربية، أسعى إلى المترادفات في الفرنسية والإنكليزية، فأحزّمها تحزيماً فوق كلماتي مثل حقائب مستّفة على رفٍّ للأمتعة، فإذا هي موجودة ولكنها هامدة ومربكة نوعًا ما. والآن فقط، وقد جاوزتُ الستين، أشعر براحة أكبر لا في الترجمة وإنما في التحدث أو الكتابة في تلك اللغات، بطلاقةِ ابنِ البلد تقريبًا وإنْ لم يكن ذلك كليًا. والآن فقط تغلبتُ على نفوري من العربية الذي سبّبه النظامُ التعليميُّ والمنفى، وصرتُ أستمتع بها.

أَسهم كلٌّ من ڤكتوريا كولِدج ونادي التوفيقية، الذي انضم إليه أبي متأخرًا عام ١٩٤٩، في زيادة الفرص أمامي لاستخدام اللغة الفرنسية. أعضاء النادي مزيجٌ

مشرقيٌّ استثنائيٌّ التنوّع إلى حد مذهل يضم اليونانيين والفرنسيين والإيطاليين والمسلمين والأرمن واللبنانيين والشركس واليهود - بالمقارنة مع الطابع الإنكليزيّ الغالب على نادي الجزيرة - يحتشدون في مكان صغير نسبيًا في أمبابا، الضاحية الصناعية والعمالية الواقعة شرقيّ المدينة والمواجهةِ للزمالك عبر النيل. يفتقر النادي إلى ملاعب للبولو أو لكرة قدم أو الكريكيت أو البولينغ أو السكواش. ولا يوجد فيه ميدان لركوب الخيل كما هو الحال في نادي الجزيرة. وتقتصر تجهيزاتُ التوفيقية على حوالى عشرين ملعب تِنس وبركة سباحة ذات حجم معقول، وعلى صالةٍ للعب البريدج طبعًا. وكان العديد من أصدقائي في ڤكتوريا كولدج أعضاء في النادي - كلود وأندريه سلامة وأبناء سيتون ومحمد عزب وألبرت كورونيل وستافي سالم. ولما لم يكن الأعضاء يتكلمون من العربية إلا المحكية الموجَّهة للخدم الذين ينوؤون تحت كثافة الطلبات ويعامَلون فوق طاقتهم، فإني أذْكر لغوًا فرنسيًا من الجمل الاعتراضية والكليشيهات زوّدني لسنوات بترسانة بدائية من العبارات الجاهزة لكل مناسبة، المفيدة والبذيئة منها، ممزوجة أحيانًا بنتف من العربية والإنكليزية: Figure-toi. Ferme ta gueule. Je rentre en ville. Va te faire pendre. Crétin. Je suis esquinté. Je crève.[1]. على أني كنتُ أحسّ أيضًا أنه خَلْفَ واجهة الأنس والمرح الصاخب، حيث يختلط بسهولة رجالٌ ونساءٌ يرتدون الشورطات القصيرة وأثوابَ الاستحمام المختصرة جداً، كان يجري تيارٌ جوفيّ من القلق الغريب تجاه ما تؤول إليه الأمور في مصر. إذ لم يعد المكان مضيافًا كما كان من قبلُ تجاه الأجانب، وبخاصةٍ تجاه بؤر مرفّهة من أصحاب الامتيازات، مثل نادي التوفيقية الذي يعيش أعضاؤه حياةً غير عربية وغير إسلامية، مفتوحةً على الخارج، ولكنها ليست أوروبية تمامًا لأنها متشبّثة بالبذخ الشرقيّ والخدمة الشرقية والشهوانية الشرقية، ويتمتعون بحرّية نسبية بمعزل عن أيّ تدخل خارجيّ. والعربية الوحيدة التي سمعتُها هناك هي الأوامر التي يَنْبح بها روّادُ النادي في وجه السفرجية النوبيين الذين يَرْشحون عرقًا في جلابيبهم البيضاء الثقيلة وهم يهرعون لجلب أباريق

١ - على التوالي «تصوّر/ي»، «إخرسْ/ي»، «أنا عائد/ة إلى المدينة»، «إذهب/ي واشنق/ي نفسك»، «قمي‌ء/ة»، «أنا متعب/ـة»، «أكاد أموت من الإنهاك». (م)

«الشاندي» وأطباق الـ«ري فينانسيير»[1] (تضرعتُ إلى أمي أن تطبخ لنا هذه الوجبة في البيت لكنها رفضتْ) إلى سابحين لوحّتْ أجسامَهم الشمسُ على نحو رائع، أمثال كوكو حكيم وأصدقائه، يرقصون ويلعبون البِنغ بونغ قرب «البيسين» المزدحمة وقد صرتُ أنا نفسي أسمّيها بذلك الاسم أيضًا.

إنه الاضطراب: موقتاً وقصيرَ المدى وغيرَ دائم ولكنه عدائيٌّ بطريقةٍ ما تجاه مصر، وقد كانت ذاتَ مرةٍ فردوسَ الأجانب المضيافَ والمنفتحَ والباذخَ والشهوانيَّ ينعمون بمناخه وما يوفّره من المتع الجسدية التي لا تضاهى، والأهم من ذلك، أنهم كانوا يَنْعمون بخنوع سكّانه الأصليين. في أواسط الخمسينيّات، حين كنتُ في پرنستون، نقلتْ جريدة **التايمز** نبأً عن خطة إسرائيلية لنسف عدد من دُور السينما والمكتبات في القاهرة ذات الصلة بالأميركيين، مثل سينما «مترو» ومركز «وكالة الإعلام الأميركية» حيث تعمل صديقتنا ليلى أبو فاضل (ابنة حليم، زميلِ أبي القديم في التِنس). وكانت الخطة ترمي إلى تخريب العلاقات بين حكومة عبد الناصر الجديدة والأميركيين. كانت تلك «قضية لاڤون» التي نفذّها أفرادٌ من الجالية اليهودية المحلية، أَذْكر أني كنتُ أشاهد بعضهم حول بركة السباحة في نادي التوفيقية. ولعلّ ذلك أثّر في ذكرياتي عن تلك الفترة، ولكني متيقنٌ من أنّ توقعي المصيبةَ في ذلك الوقت كان حقيقيًا، ذلك أنّ بداية النهاية لجاليتنا من «الشوام» واليهود والأرمن وسواهم كانت تلوح في جوّ التوفيقية الملبّد وإنْ يكن مُسرّاً في الآن ذاته. تدريجيًا، أخذ أفراد تلك الجالية يختفون: بعضهم رحل إلى إسرائيل أو أوروبا، والبعضُ الآخر، وهم القلة، قصد الولايات المتحدة. وبدأ الانتشار المحزن، لجاليات القاهرة المشرقية، بل تفكّكُها المفجع، مع مغادرة البعض استباقًا لما قد يأتي. وفي ما بعد، اضطُرّ آخرون إلى المغادرة وهم لا يحملون معهم أيَّ مبلغ من المال أو أيّ متاع بسبب حربَي السويس و١٩٦٧.

لم تكن ڤكتوريا كولدج ولا حلقتنا من أصدقاء العائلة تتعاطى السياسة بأيّ شكل من الأشكال. على أنّ خطاب القومية العربية والناصرية والماركسية قد دَهَمَنا بعد خمس سنوات أو ست، ونحن لا نزال نرفل في أوهام مبدإ اللذة والتعليم

---

١ ـ «الشاندي»، مُسْكِرٌ من البيرة وشراب الزنجبيل. و«ري فينانسيير» وجبة من الأرز المطبوخ مع الخضار. (م)

البريطانيّ والثقافة المترفة. في مقصورة والدَيّ في دار الأوبرا، حضرنا موسم الأوبرا الإيطالية وباليه الشان-ز-إيليزيه والكوميدي فرانسيز، وحفلات كراوس وفورتڤانغلر في الريڤولي، وكمبف وكورتو في قاعة إيوارت. وفي المدرسة كنا نعيش حياة موازية للبرنامج البريطانيّ الوهميّ [المفروض علينا] من خلال تبادلنا المنتظم لمسلسلات طرزان وكونان دويل ودوما. وفي الوقت الذي كان غاتلاي يقودنا فيه بصرامة عبر صفحات **ميكاه كلارك**[1]، كنتُ وصديقي حمد الله نتمتع بروايات شرلوك هولمز ونتناوب على تمثيل أدوار فايكروفت ولِستراد وموريارتي. ثم اكتشفنا وودهاوس وجيفز[2]. على أنّ مفردات روايات طرزان هي التي فتحتْ دنيا غنية أمامنا. «إنّ بَشَرتكَ ملساء مثل جلد الأفعى 'هِستاه'»، قد يقول واحدنا للآخر، فيجاوبه «وهذا خيرٌ من أن تكون لي بدانة 'طانطور'». ومع آرثر داڤدسون، كنتُ أجري نقاشات مطولة وحصيفة عن «كابتن مارڤِل»[3] فأسأله: «لو أننا قابلنا ماري، هل سنجدها امرأة شهوانية أم لا؟»، فيجيبني جازمًا: «لا، لأنّ 'فَرْجها حَديد' حتماً. سوف نجد أن واندروومان أشهى منها بكثير». وقد تحدثنا عن عائلة مارڤل وذريتهم المتنوعة وأنسبائهم أكثر بكثير مما أتينا على ذكر عائلاتنا. وأَفترض الآن أننا كنا جميعًا بالغي السعادة لأننا قد تحررنا منها، ونتمنى لو أنها تشبه العائلات في مسلسلات الكومِكس. استمتعنا كثيرًا بكتب الكومِكس البريطانية أمثال **خاص بالصبيان وبيللي هانتر وجورج فورمبي وسِكستون بلايك**. وبين مدرسة بانتر الفوضوية والسادية و«الأصدقاء» الأُوستراليين المستقيمين والباسلين الذي يعجّ بهم مسلسل «خاص بالصبيان»، كان يجمح بي الخيالُ إلى عالم رعويّ بعيدٍ كل البعد عن ڤكتوريا كولدج.

وكنتُ بين الحين والآخر أتمرّد على النزعة السلطوية المتأصلة في المدرسة التي يجسّدها رئيسُ التلامذة، شلهوب. وعندما جرّوا صفنا لمشاهدة مباراة كرة

---

١ - رواية لآثر كونان دويل.

٢ - پ.ج. ودهاوس (١٨٨١ - ١٩٧٥) كاتب انكليزيّ اشتهر برواياته الفكاهية ذات الحبكات المعقّدة والأحداث المفاجئة تدور معظمها في إنكلترا مطلع القرن العشرين. ومن ابرز الشخصيات التي ابتكرها شخصية الأرستقراطيّ البليد الذهن ووستر وخادمة جيڤز الفطِن والأنيق. (م)

٣ - من شخصيات كتب الكوميكس. (م)

قدم تُشارك فيها مدرستُنا وسمحوا لنا بارتداء ثيابنا الشخصية، أثار مظهرنا المرّغ والرثّ استنكارَ صبْية الصف السادس الأعلى المتأنقين وهم لا يزالون يرفلون بزيّهم المدرسيّ المبهرج. سار شلَهوب بمحاذاتنا على حافة خطوط الملعب، كأنه مَليكٌ يتفقد حرس الشرف المخيِّبَ لأمله بسبب مظهره الزريّ، فلم يُخفِ وجهُه القرفَ واللامبالاةَ اللذين نمتّ عنهما مشيتُه المختالة. وكان شلهوب، بالقرنفلة الضخمة البيضاء في عروة سترته، وحذائه الأسود الملمّع ببراعة، وربطةِ عنقه المقلّمة المتألّقة، نموذجًا لرئيس التلامذة المتعجرف. فنعب حمد الله بصوت على شيء من الارتفاع: «ما هذا؟ من أين كل هذه الأناقة، يا كابتن شلهوب؟»، فتوقف شلهوب المستفَزّ وأشار إليّ وإلى حمد الله بأن نخرج من الطابور ونلحق به، إذ بدا أننا تعرّضنا بالإساءة إلى الذات الملكية.

ساقنا شلهوب إلى مكتبه الواقع فوق بركة السباحة الداخلية، التي يجري تسخينُها أكثر مما ينبغي. وبعد أن صفعني صفعتين، لوى ذراع حمد الله ورفعها خلف ظهره. ومع تزايد الضغط والوجع، أخذ التلميذ الأصغر سنًّا يئن شاكيًا وذراعه على وشك أن تنكسر: «لماذا تفعل هذا، كابتن؟» فأجابه شلهوب بإنكليزيته الطليقة الخالية من أيّ عيب: «بصراحة، لأني أستمتع بذلك». لم تنكسر ذراع حمد الله وما لبث شلهوب أن ضجر من تلك التسلية المتعبة فأصدر أمره إلينا: «عودا إلى مباراة كرة القدم، ولا أريد أن أسمع كلمة واحدة تَصْدر عنكما».

لا أذكر أني رأيته بعد ذلك إلا عن بُعدٍ خلال الاحتفال بنهاية العام الدراسيّ وهو يرافق وفدًا من الموظفين البريطانيين المهمّين، بينهم روي تشاپمان ـ اندروز، الشخصية المرموقة في الخارجية البريطانية الذي لم أنبهر، طبعًا، بمركزه الرفيع ولا راقني التبجيلُ الكبير الذي أُغدق عليه. وكان الافتراض الدائم، في مناسبات كتلك، أنّ السكان الأصليين سوف يدركون تلقائيًا أنّ شخصية رفيعة المقام تشرّفهم بحضورها، مع أننا لم نبلُغْ بالوظيفة المحددة التي يشغلها الرجل، أو أنهم – أي السكان الأصليين – لا شأن لهم أصلاً بمعرفة تلك الوظيفة. اعتلى شلهوب المنصّة فألقى كلامًا مُداهِنًا، بل متزلِّفًا، فأعرب عن «استحسانه» لحظنا الكبير لأننا تلقينا مثل ذلك التعليم الإنكليزيّ العظيم ولأنّ تشاپمان–آندروز يشرّفنا بحضوره بيننا. فتعالت موجةٌ من هتافات التعييش يقودها شلهوب نفسُه (ونظيرُه باسانو يقف وقفة

تزيينية إلى جانبه على المنصّة)، ثم دلفنا نجرجر أقدامنا إلى خارج القاعة. ولم أسمع عن شلهوب ثانيةً إلا بعد عقد من الزمن عندما سمّي عمر الشريف وتزوج فاتن حمامة وصار نجمًا سينمائيًا افتتح نشاطَه في الولايات المتحدة في عام ١٩٦٢ في فيلم «لورنس العرب» من إخراج دايڤيد لين.

كان أهلي دائماً في قلق، حتى لا أقول في توجّس، من لامبالاتي في المدرسة وعجزي عن الأداء «الجيّد» لمدة طويلة وكسلي وموقفي الارتجاليّ من الامتحانات والترقيات. وخلال إحدى عمليات فراري من المدرسة، مطلعَ ربيع ١٩٥٠، فكّرتُ في غرابة أمري، إذ بلغ بي القلق على مستقبلي ذاتَ يوم حدّاً حَرَمني النومَ الليلَ بطوله.

وبدأتُ في ذلك الوقت أدرك أنّ مشاعري تجاه العائلات، تجاه عائلتي والعائلات الأخرى، ليست كما يُفترض بها أن تكون. فعدا عن اتكالي العام على والدَيّ، وحبي وتوقي المديدين والمحبطين والمتفاقمين لأمي، فوجئتُ بأني لا أكنّ إلا القليل مما ألمسه عند الآخرين من حب وإخلاص عضويين ومستداميْن تجاه شقيقاتي وسائر أفراد العائلة الموسّعة - وهي العائلة الموسعة التي يجلّها أبي بصفتها «عائلتنا نحن» وكذلك تجلّها شقيقاتي، على ما أبلَغْنَنِي. وهناك مثال آخر على النزوع إلى الانعزال وصعوبة الإرضاء اللذين اكتشفتُهما في نفسي ولم أستطع إزاءهما تغييرًا أو أنسنة. فعلى الرغم من كل ما قالوه وفعلوه بحق أبي، ظللتُ أحب أبناء عمتي لأني أحبهم، لا لأنهم موضع رضى أبي، أو عدم رضاه، عندما يختلفان معه، ولا لأنّ «العائلة» تَفْرض عليّ منظومةً معيّنةً من المشاعر. وينطبق الأمر نفسه على موقفي من عمّتي نبيهة التي أغاظت أمي، لفترة من الزمن، لعدم وفائها لأخيها وديع.

لذلك كان اللفيف العائليّ يمدني بمقدار متناقص من المؤازرة، قياسًا إلى السابق، وقد خسرتُها بطريقة ما ولم أستَعِدْها أبدًا. فلم يبقَ لي إلا تلك الجدلية المعذّبة، وإنْ تكن تعضدني إلى درجة الخَدَر، القائمةُ بيني وبين أمي، وقد غذّيناها معًا وتركناها ملتبسة لأطول مدة ممكنة. وخلال دراستي في ڤكتوريا كولدج بدأتُ ألاحظ الانفصام شبه المطلق بين حياتي السطحية في المدرسة وبين حياتي الجوانية المعقدة، وإنْ تكن هامدةً غالبًا، والتي تعلقتُ بها وعشتُها من خلال المشاعر

والأحاسيس التي تزوّدني بها الموسيقى والكتبُ والذكرياتُ المجدولة بالاستيهامات. فكأنّ الاندماج والحرية اللذيْن أحتاج إليهما للتوفيق بين حياتَيَّ الاثنتيْن محكومٌ عليهما بالتأجيل الدائم، على الرغم من تمسكي بالاعتقاد المتسامي أنهما سوف يلتحمان ذات يومٍ بطريقة أو بأخرى. وقد شكَّلتُ أنا وجورج ومصطفى وسمير وآندي وبيلي وآرثر وكلود عصابةً من الأوباش تعذِّب الأساتذة وتستهتر بالبرنامج الدراسيّ. لا نتجمع إلا في المدرسة لتباعُدِ أماكن سكننا، مع أننا قد نلتقي بين حين وآخر في إحدى دور السينما أو في نادي التوفيقية. كنا جيلاً لا يزال ارتيادُ المقاهي مبكرًا عليه، والحشيشةُ لذةً نادرةً وصعبة المنال، فاكتفينا بالفكاهة الفظة لـ«التحشيش»، أيْ بالأكثر فسقاً من لعبة «إشمعنى؟» التي يلعبها الحشّاشون وقد بلغوا التعتعة، وتعبِّر كلُّ مبادلاتها الكلامية تقريبًا عن القبول المستكين بالعجز البشريّ وعن الحماقة بشكل عام.

وهكذا كنا نتسكع معاً بين حصص الدرس قرب محل بيع المرطبات وفي غرفة الطعام وفي السرادق نشاهد إحدى المباريات الرياضية. فلم توفِّر لنا المدرسة أيَّ إطار معنويّ أو ثقافيّ، مرئيّ على الأقل، نقوِّم بواسطته درجةَ تطوّرنا. فشعرتُ معظم الأحيان أنّ الحكم صدر علينا قبل أن ننتسب إلى المدرسة، وقضى بأننا ناقصو الكفاءة، أو بأننا مادة بشرية منحطة أساسًا. فلا نحن من معشر الإنكليز ولا نحن ننتمي إلى صنف الجنتلمان تمامًا، ولسنا من ثمّ أهلاً لتلقي العلم أصلاً. وقد أورثني هذا الإدراك راحة غريبة، لأني أستطيع، أخيرًا، أن أكون كما أنا، دون أن أجهد لتحسين وضعي أو لبذل المزيد من النشاط. فالمجهود، والحالة هذه، لا طائل تحته. وكانت النتيجة حياة خفيفة على نحو غريب لا مبدأ لاواعيًا أو أخلاقيًا ضامرًا تحت سطحها. ولا أذكر أني تبادلتُ حديثًا شخصيًا واحدًا مع أستاذ أو تلميذ طوال سنواتي في تلك المدرسة. هكذا امّحتْ حياتي الشخصية، خلا كوني صبيًا في الصف الخامس المتوسط انتَقَلَ ليصير صبيًا في الصف الخامس الأعلى. أما الباقي فمجرد ديكور.

غالبًا ما كان آل ديرليك يزورونا في البيت، ولم أجد أيَّ سبب لكي لا أرتاح مثلهم إلى فكرة تناول الشاي أو العشاء «في الخارج». فآل ديرليك يَنْضحون بالمرح والمتعة، وهما من النوادر في حياتي العائلية التي ظلت صارمة وسافرة الشكلانية.

اندريه مغامر مكتمل، ساقاه مليئتان بالندوب من جروح تلقّاها على الصخور المرجانية في البحر الأحمر. ولورِس حسن الهندام ولائق التصرّف (وقد لاحظنا جميعُنا مهارته في تجريد دجاجة عجفاء مِنْ كُلِّ ما عليها من لحم بواسطة الشوكة والسكّين). أما رينيه فالنكتة عندها حاضرة أبدًا وكذلك اقتراحاتها اعتزامَ نزهةٍ أو ارتياد دار للسينما في الهواء الطلق. صحيح أنّ نمط حياتهم المرح تعرّض للشبهات جراء شائعات تقول إنّ صيدلية العائلة، ذاتَ الموقع الملائم في شارع قصر النيل، التي ورثها لورِس وأخوه عن والدهما، واقعةٌ تحت عجز ماليّ بسبب الإهمال، غير أنّ هذا لم ينغّص مرةً الأوقات التي كنا نقضيها معًا إلى أواخر الخمسينيّات عندما انتهى الأمر بلورِس إلى العمل في الأمم المتحدة في الكونغو بعد أن شهر إفلاسه وخسر الصيدليةَ. وهناك، توفي لورِس فجأةً وحيداً، في صيف ١٩٦٢، وحزنّا عليه جميعنا حزنًا عظيمًا.

في أواخر الربيع، اكتمل تشييد المبنى المدرسيّ الجديد وقد طال انتظاره. لستُ أدري إلى الآن من أين جيء المال، ولكنْ بالمقارنة مع مستوى مباني شُبرا المزرية والمزدحمة والعجولة، كان الحرم الجديد فخمًا ذا موقع ممتاز عند حدود الصحراء، جهةَ المعادي، وكانت ما تزال ضاحية حصرية يسكنها الأجانب وأبناءُ الطبقات العليا وأعرفها من خلال ناديها وطبعًا من خلال المدرسة الأميركية، وهي أقرب إلى مركز المعادي الهادئ وإلى محطة سكة الحديد. فجأةً أدركتُ أننا نبلغ نهايةَ حقبةٍ بأكملها (وهذا لا يعني أني كنتُ أعرف معنى ذلك على وجه الدقة) يمكن أن تَشْهد أحداثًا مباغتة ومدهشة، وقد وقعتْ بالتأكيد، ستَفْرض علينا جميعًا متطلبات جديدة. ولستُ أذكر أني كنتُ أفكرّ حينها بنفسي بصفتي الفردية – ولا أزال أندهش كيف أنّ الوشائح بيننا، نحن أفرادَ صف الخامس المتوسط، الفرع الأول، لم تكن قائمة إطلاقًا على العائلة ولا على الطبقة، ذلك أني أذكر بوضوح أنّ هذه وتلك لم تكونا تغْنيان لنا الكثير – وإنما كنتُ أفكر بمنظومة مشتركة، وإنْ تكن معرّفَةً على نحو ضيّق، من الأمور والعبارات بل ومن المفردات، تتحرك كأنما في مدار آمن باعثٍ على الطمأنينة، بالنسبة إليّ على الاقل. فثمة أولاً شيفرة اللباس، من القلانيس وربطات العنق والسترات الرياضية، التي سُحِبَتْ من التداول تدريجيًا في شبرا. تليها «دفاترُ الفروض» المغلّفة باللون القرمزيّ الرسميّ، والمقلّماتُ الجلدية أو

الخشبية، ومختلفُ أنواع أقلام الحبر (لم تكن أقلامُ الحبر الناشف قد ظهرتْ بعدُ) بما فيها قلم حبر يقلّد قلم پاركر (حُفِر إسم "پ. آركر" على مشبكه) شاع استعمالُه وكان يبيعه على الطرقات باعةٌ ضاجون، ودفاتر التمارين الزرقاء عليها شعار ڤكتوريا كولدج. ثم هناك ما لا يقلّ عن دزينة من الكتب المدرسية بالإنكليزية لمواد الفيزياء والتاريخ والحساب، باهتة وغير شخصية، بقدر ما كان نظراؤها من الكتب الأميركية في «مدرسة القاهرة للأطفال الأميركيين» حوارية وسردية (مثلاً: «دفع مورطون إلى شيللي ١٢،٢٣ جنيهًا تسديدًا لحصته من مصاريف رحلة الصف التي شارك فيها ١٨ تلميذًا. فماذا لو ظنّ مورطون أنّ عدد التلامذة ١٥ تلميذًا، وأنّ على كل واحد منهم أن يدفع حصة تبلغ....؟»)، إضافةً إلى كتابين أو ثلاثة كتب في الأدب: مسرحية شيكسپير المُقررّة لذلك العام، ورواية من روايات القرن العشرين - مثلاً، رواية سي. إس. فورستر التي تقع دون مستوى الأدب وعنوانها **الكومودور** - و«نص كلاسيكيّ» من النثر غير الخياليّ (مقالات ماكولي) ومختارات مما كنا نعتبره شعرًا أكاديميًا مملاً (أشعار غراي وكاوپر). وكان علينا أن نرتّب معظم هذه المواد، إنْ لم يكن كلها، في حقيبة جلدية قياسية بُنّية اللون لها مشبكان، وأنْ نحفر باليد على رفرفها الداخليّ اسمَ عائلتنا (دون الأسماء الأولى) بحروف متأنية سوداء أو زرقاء كبيرة.

والأكثر إثارةً من ذلك هو سلسلة كاملة من الأشياء المعدّة للّعب والمبادلة: «الكُلل»، بما فيها «كلّة» العقيق الرفيعة القدر، وسكاكين الجَيْب (المقدّرة ولكنها ممنوعة)، ومضارب كرة الطاولة، ورباطات المعاصم، ونماذج السيارات المصغّرة من ماركة «دينكي» (لا أزال أملك نموذجًا لسيارة هامبر سيدان الحمراء كسبتُها في رهانٍ فزتُ فيه بمصادفة غير معقولة بسبب معرفتي لمعنى عبارة «توقيت غرينيش» التي كانت تتردد كثيرًا على البي. بي. سي. في تلك الأيام دون أن نفقه تمامًا معناها)، وأمشاط للجيب، وقوارير صغيرة من الكولونيا المحلية من إنتاج «شبراويشي»، وأطواق مطاطية، وعلاّقات للمفاتيح، وأقلام رصاص جديدة ذات أغطية براقة ومشابك لمّاعة، ومباري أقلام رصاص، و«مطاط» (وهو الاسم الإنكليزيّ لـ«ممحاة» الأميركية، التي كان أبي لا يكلّ عن مطالبتي بأن استخدمه) ومقالع، وأسلاك معدنية ملولبة، وأحجارٌ مفرقِعة ملبّسة بالورق (وهي مقدّرة وممنوعة

أيضًا)، وشتى أنواع الكتب الپورنوغرافية الشنيعة الطبع على أردإ أنواع الورق وأكثرها قتامةً وتنفيرًا، والمكتوبة بإنكليزية منحطّة وسافرة في أوصافها التصويرية وبذيئةٍ إلى درجة أنها تصير هادمة للّذات، مع أننا كنا نختلق التلذّذ اختلاقًا مُطْلقين الأصوات المرتفعة والداعرة، بالإضافة إلى صور فوتغرافية محبحبة ومشوّشة لرجال ونساء يتناكحون وتعلو وجوهَهم تكشيراتٌ مُحرَجة. «هل جئتَ بزوجيْن من الخدم يأتيان تلك الفعلة أمامك، يا داڤيدسون؟»، سأل أحدُنا الشاب المجدّ، على ما أذكر، ويتبيّن في ما بعدُ أنه إنما اشترى الصوَر من حارس في موقف للسيارات.

لم يكن عالمنا الثقافيّ الجمعيّ تنافسيًا بنوع خاص، على الرغم من التركيز الرسميّ على العلامات وعلى مقياسَي النجاح والسقوط. أما أدائي أنا فلا يكاد يستحق الذكر - فقد كنتُ مشاكسًا، متقلّبًا، ممتازًا أحيانًا، وفوقَ المقبول بقليل معظم الأحيان. بعد سنوات، عندما صرتُ معروفًا كناقد أدبيّ، قال زميلُ دراسةٍ لآخر نَقَلَ إليّ التعليق: «هل هذا سعيد ذاته الذي نعرفه؟ لم يكن يختلف بشيء عنا جميعًا. مدهشٌ أن يصل إلى تلك المواصيل». ولا أزال أفاجأ بأنّ العالم الذهنيّ أو الثقافيّ الفعلي الذي عشنا فيه كان قليل الصلة بالشؤون الذهنية بأيّ معنى جديّ أو أكاديميّ للكلمة. كانت لغتنا وفكرنا الجمعيان، مثلهما مثل الأشياء التي نحملها ونتبادلها، تسيطر عليهما قبضةٌ من الأنظمة التافهة ظاهريًا مستمدةً من أشرطة الكومِكس والأفلام والروايات المسلسلة والإعلانات والحِكَم الشعبية ذات المستوى الزقاقيّ أساسًا، لا أثر فيها للتربية البيتية أو الدِّين أو التعليم. وآخرُ أثر تنويريّ يمكن اقتفاؤه للحساسية أو للثقافة «الراقية» نسبيًا، وَرَدَنا، على ما أذكر بوضوح، من فيلمين دينيين عن قدّيستين فرنسيتين، برناديت قدّيسة «لورد» وجان دارك، من تمثيل جينيفر جونز وإنغريد برغمان في قَصّة شَعر صبيانية. لسببٍ ما، شاهدتُ فيلم برناديت خلال عرضه الثاني أو الثالث في سينما ديانا، وكانت آنذاك ملْكًا لعائلة يونانية، هي آل رايپسيس. تقع السينما في الطرف الأقل فخامةً من شارع عماد الدين، وبرامجُها الباهتة عمومًا لا تساوي شيئًا إذا ما قيست بالإثارة التي توفرها سينما مترو أو سينما ريڤولي، وهذه الأخيرة هي الوحيدة في الشرق الأوسط المزوّدة بأُرغُن مُشعشع بطريقة معمية. فالميزة الرئيسية لسينما ديانا أنها مسرحٌ مضجرٍ تؤدي فيه أم كلثوم حفلاتها الطويلة اللامتناهية من جهة، وأنها

تَستقبل الحفلات الخيرية من جهة أخرى (وقد حجزتْها عمتي نبيهة، في محاولاتها اللامتناهية لجمع التبرعات للاجئين الفلسطينيين، لحفلة خيرية عُرِض خلالها فيلم «الكولونيل الصغير»، الفيلم الأول والأخير الذي شاهدتُه لشِيرلي تِمپل في حياتي كلها، وقد كرهتُه منذ ذلك الحين بسبب نظافته المداهنة، وسذاجته المزوَّرة، ونزعته العنصرية) إضافةً إلى عرضها الأقل إثارةً من أفلام هوليوود. ملأتني جان دارك وبرناديت، في صيغتهما الأميركية، بحماس كبير، لكنه جدّ غامض، لشيء يصعب تحديده، وهو ما دفعني إلى التنقيب بشغف في المصادر الأدبية والتاريخية، ومعظمُها على رفوف مكتبة أهلي الجامعة. فقرأتُ كتابَيْ فرانتس ورفل **اغنية برناديت وأربعون يومًا من موسا داغ**، ألحقتُهما بمؤلفات تشيسترتون (أم تراه هيلاير بِلّوك؟) وهارولد لامب عن «عذراء اورليان».

في خريف العام ١٩٥٠، وصلتِ الحافلةُ أبكر من المعتاد لتُقلّنا إلى المعادي، الواقعة في قلب القاهرة، ذلك أنّ المسافة إليها هي ضعف المسافة إلى شُبرا. وإذا أول نظرة نلقيها عن بُعد على المدرسة الجديدة، وهي لا تزال في طور البناء، تملؤنا جميعاً بأمل كبير. فقد اكتمل بناء ثلاثة مبانٍ وباتت جاهزة لاستقبالنا ابتداء من تشرين الأول/أكتوبر. وهي مبانٍ حداثية مستطيلة، قائمة على عُمُد، ومزودة، كما هو حال بنايتنا، بصفَّين طويلين من النوافذ، الواحد منهما فوق الآخر. في الطريق إليها، يقع المطعم ومبنى الألعاب الرياضية، ومسكنُ الطلاب الداخليين، والمستوصفُ، وتقع مساكن الأساتذة على زاوية مستقيمة منها. والتصق بمبنى الدرس ملحقٌ مربّع الشكل هو مقرّ الإدارة. كانت الأراضي المحيطة بالأبنية شاسعة تحوي ميادين رياضية عدة وحلبات سباق وملاعب التِنس. ولما كانت المدرسة محاذية للصحراء، فقد زُوِّدتْ بإصطبل للخيل مع طاقمه من السُّوّاس وميدان لركوب الخيل. وبالجملة، كانت أجمل مدرسة شاهدتُها شخصيًا أو زارها سواي من الزملاء. فنزلنا من الحافلة يساورنا شعورٌ بأننا نبدأ بداية جديدة.

ولكننا أدركنا، بعد أقلّ من خمس دقائق، أنّ المدرسة الجديدة قد لا تحمل أيَّ تحسّن في نهاية المطاف. فالمِستر غريفيث الأصلع ذو العينين الخَرَزيّتَين وربطة العنق الأنشوطية هو في آن معاً رئيس المدرسة والمعلِّم الذي يعلِّمنا «دروس الحساب الإضافية» في علم المثلثات وحساب التفاضل والتكامل (الكالكولوس) والهندسة

الجامدة. وسوف يكون بُعبُعاً بالنسبة إليّ، وستلازمني إدانتُه الصارمةُ فترةً طويلة بعد مغادرتي ڤكتوريا كولدج.

المكان الجديد مؤسسة بريطانية فخيمة ولكنها في الآن ذاته تعلن غطرستها وازدراءها، وهذا ما زاد من إحساسنا الجمعيّ بالنفور والعداء. ولم يقتصر التغيير على ذلك. ففي غياب القوة المحفِّزة لجورج كردوش، الذي غادرنا إلى «المدرسة الإنكليزية» في هِليوپوليس، نَزَعنا إلى الانحلال إلى شلل انشقاقية.

المستر لوي، أستاذ الصف ومادة اللغة الإنكليزية، معلّم متبجّح بقدر ما هو ضعيف وعديم الكفاءة. كانت قاعات الدرس الجديدة مزوّدة بمستودع صغير يقع خلف اللوح الأسود يَحْفظ فيه المعلّمُ طباشيره ودفاتره وسواها من الإمدادات، ولبابه إلى يسار اللوح، قفلٌ، وتحت اللوح مباشرةً طاقةٌ جرّارة تفضي إلى قاعة الدرس. فخطرَ لي أن نحبس مستر لوي داخل المستودع ونكتب على اللوح الأسود فوق الطاقة: «متِّعْ نظرَك بخمسة قروش»، فيصطف التلامذة لمشاهدة الإنكليزيّ العاثر الحظ مأسورًا «في بيئته الطبيعية»، حسب تعبيري وأنا أصيح معلنًا بدء الاستعراض. فتدخّل أحدُ مساعدي الأساتذة، وقد استدعاه عويلُ مستر لوي وجَلَبَتُنا، ووضع حدًا سريعًا للمغامرة. ثم جرى الإبلاغ عني لغريفيث الذي حملق فيّ خلال حصة الحساب وعيناه تشعّان ببريقٍ لا يعبّر تأكيدًا عن الاستحسان. «حدث شغبٌ كبير بالأمسِ في هذا المكان»، قال وهو ينظر إليّ وإنْ كان يتوجه بحديثه إلى الصف كله. وبعد أسابيع، أبلغ غريفيث أهلي بشيء من الأسف، والأحرى بمرارة، أنّ ذكائي يمنعه من طردي من المدرسة. ومن سخرية الأمور أنّ يَشْعر أستاذٌ أنّ تلميذًا لامعًا يشكّل معوِّقًا لسلطته.

هكذا حلّ اتساعُ المكان الجديد محلّ ضيق حرم شُبرا الذي كان يسمح لنا بالتواصل مع الصفوف الأخرى. يجول المعلمون في الممرات في دوريات منتظمة، وهذا أمر مستحيل في شبرا حيث الفوضى اللامركزية. فبدا لي تدريجيًا أنّ الحرم الجديد قد صُمّم لمراقبتنا والسيطرة علينا أكثر منه لفائدتنا وتعليمنا. ولم يمر أكثر من شهر حتى بدأتُ أشعر بالضيق في المدرسة الجديدة، حيث أخذ التلامذة الكبار يعتدون علينا في الممرات هجومًا وشتمًا ودفرًا. وبينهم برميلٌ من الدهن يزِن ما لا يقلّ عن ثلاثمئة رطل إنكليزيّ، يُدعى بيللي فوزي، تملّكته كراهيةٌ عمياء تجاهي

فقضيتُ وقتي أتهرّب منه. ولكنْ كيف لي أن أتهرّب كليًا منه وهو قادرٌ على سَدّ ممر بأكمله بقامته العظيمة؟! مرةً، أَمْسك برقبتي بإحدى يديه الغليظتين وقال بالعربية: «سعيد، كنتُ أراقبك. حذار. لا تتذاكَ عليّ». ثم أردف بالإنكليزية: «لا تتواقحْ»، ذلك أنّ الذكاء والوقاحة من الخِطايا المميتة التي يتّهمنا بها لا الأساتذةُ وحسب وإنما التلامذة الأكبر سنًا، والأضخم بنيةً، هم أيضًا.

وما الكابتن بيللي إلا الأسوأ بين الصبيان الكبار الذي هددوني وعذّبوني. وأما معظم الآخرين فلم أكن أعرف منهم ولو اسمهم، غير أنهم كانوا قوى مرهوبة الجانب، منمّشي البشرات، زائدي الوزن، ولا يتكلمون غير العربية. ولسبب لم أدركه تمامًا، استفردتني تلك المجموعة، التي حلّت محل شلهوب الراحل، وقد نصّبوا أنفسهم مؤدِّبي المدرسة غيرَ الرسميين مع أنهم يتمتعون بتواطؤ سافر من قبل الأساتذة. ولما كنت معروفًا بأني حاضر البديهة، ومتورطًا عادةً في مشكل ما، إلى كوني تلميذًا ناجحًا، فقد كنتُ أجد نفسي، أيامَ الامتحانات، محاطًا دوريًا ببعض عمالقة «رحلات غوليفر» هؤلاء يسلّمونني أوراق امتحاناتهم في اللغة الإنكليزية لأكتبها نيابةً عنهم، فيما أنا أجهد محمومًا لكتابة امتحاني. إنها لعبة «الجزرة والعصا». الجزرة: «سعيد، كُنْ شهمًا»؛ أما العصا، وهي الأشد فاعلية، فلسانُ حالها: «أُكتبْ، وإلا سأنـ... أمّك». وهكذا كنتُ أكتب لهم امتحاناتهم على الدوام. ففي مثل هذا الحالات، يصير الجُبن والانصياع نمطَ حياة.

في عيد الميلاد من ذلك العام تقرَّر أن أسافر وأمي بالقطار إلى صعيد مصر لقضاء بضعة أيام للسياحة في وادي الملوك والكرنك ومواقع أخرى أدى صمتُها المطبق وفراغُها الكئيب المروّع إلى تنفيري من مصر القديمة إلى الأبد. قضينا معًا أربعة أيام رعوية أو خمسةً شكلت استراحة مسترخية من فوضى المدرسة والمدينة الكبرى، وكانت آخرَ مرةٍ أحظى فيها بقضاء فترة مديدة من الوقت وحيدًا مع أمي. في صالونات «فندق كاتاراكت»، علّقنا كلَّ الأعمال وأخذنا نقرأ واحدنا للآخر، دونما توتر أو مجادلة، في أوقات الأصيل والأماسيّ الشتوية الطويلة، متحررين من البرامج والمُهَل النهائية والفروض. ولما كانت أمي قد ازدادت وعياً لمؤهلاتها الاجتماعية، فغالبًا ما كانت تُفسد الأحايين المريحة والمغذية والبسيطة التي كنتُ أستمتع بها معها، بغريزة الاختلاط النامية لديها، أو بقضائها بعض الوقت مع

معارف أميركيين ينزلون في الفندق ذاته. وأَذْكر مدى انزعاجي وحسدي من ذلك، ولكني متعلّق أيضًا بالفكرة المجردة عن تلك الأيام التي زوّدتني بذكرى لا تُنسى مدى الحياة - لم تعادلها ولم تتجاوزها أية ذكرى أخرى - هي ذكرى التحرر المتسامي من ضغوط الحياة اليومية في ڤكتوريا كولدج التي لم تلبث أن أهلكتني وأبعدتني فعليًا عن البيت إلى الأبد.

الأقصر وأسوان: الهدوء الوجيز الذي يسبق العاصفة الهوجاء. في أصيل يوم خميس من أوائل شباط/فبراير، طلب منا مستر لوي إخراج كتب شيكسپير. فصرخنا في كورس واحد «نريد أن نقرأ سْكُوت بدلاً منه»[1]. فصمّم على التمسك بشيكسپير، وفي سعيه العدوانيّ غير المألوف نحو هدفه، انقضّ على تلامذة الصف الأول من المقاعد، ضاربًا مقاومي تكليفاته، مصرًا على فرض إرادة مناقضة كليًا لهدفه المزعوم وهو جَعْلُنا نقرأ أغاني الحب الشيكسپيرية. حاصرَتْه حلقةٌ من التلامذة الثائرين فإذا بمستر لوي أشبه بشمشون في هيكل الفلسطينيين القدامى، تنهال عليه الضرباتُ من كل حدب وصوب وهو لا يميّز على مَنْ تقع ضرباتُه ومدى تقدمه في معركته، على افتراض تقدُّمه حقًا. فجأةً، ترنّح إلى امام وطوّق الصبيَّ الأقرب إليه بذراعيه الضخمتين. فألفيتُني بغتةً في أسْر معانقته الرطبة، وجهه المحمرّ يتصبّب عرقًا وجسمه البدين يشدّني إلى أسفل لكي يعتليني. «لقد قبضتُ عليك الآن، يا سعيد»، بَقبَق قائلاً، «وسوف ألقّنك درسًا لن تنساه». حاول تجليس ذراعه ليضربني بها فانقضّ عليه ثلاثة أو أربعة من التلامذة وتشبثوا به وهم يمطرونه بوابل من الشتائم العربية المسعورة. «قفوا» صاح، «قفوا، وانفكّوا عني هذه اللحظة». فارتدّ مُنقِذِيَّ وقد صَعَقهم هذا التأكيد المذهل لهيبته المتداعية. أخذتُ أتخبّط محاولاً الإفلاتَ من قبضته، فعاود الإمساك بي وساقني بحزم إلى الباب ثم قذفني من قاعة الدرس وصفق الباب خلفي.

لمحتُ غريفيث يحدّق إليّ من باب مكتبه الذي يبعد نحو ثلاثين مترًا عنا، لكنه لم يتفوّه بكلمة ولا أتى حركة، بل اكتفى بالنظر إليّ ووجهُه خالٍ من التعبير. وعند بداية الاستراحة، خلال صف الحساب في اليوم التالي، طلب منا غريفيث أن نلازم

---

١ - المقصود انهم يؤثرون قراءة رواية للكاتب البريطانيّ والترسكوت مؤلف روايات المغامرات التاريخية. (م)

أماكننا. «والآن، سعيد»، قال لي، بطريقة عرضية، وأنا جالس في الصف الثاني، «سمعتُ أنك أسأتَ التصرّف البارحة بعد الظهر. هذا صحيح، أليس كذلك؟». كان يعلم أنه صحيح وقد شاهدني خارج الصف. لم أقل شيئًا. «لماذا لا تجاوب، يا ولد؟»، صرخ بي فجأةً وقد فقد السيطرة على نفسه لأول مرة أمامنا. «نعم، سيدي» جاوبتُ بحياد. «حسناً، لن نسمح بمثل هذا التصرّف هنا. لن نسمح به». قلتُ أيضًا بحياد: «لا، سيدي». فجاوب بطريقة بدهية: «إذاً خيرٌ لك أن تغادر». لم أفهم تمامًا ما الذي يجول في خاطره، فسألته: «أغادر، سيدي؟ الآن، سيدي؟». «غادِرْ فقط، سعيد. لا يهمني أين تذهب. غادر فقط. فورًا».

باشرتُ بتروٍّ في توضيب حقيبتي المبعثرة أغراضها، بدقة المُفاجَأ المصدوم وبقلق راجف فيما كان الجمّيع لابِدين في صمت، باردين، متجمّدين. ألقيتُ نظرة جانبية نحو صديقي حمد الله فخَفَض عينيه حرجًا. هكذا وجدتُني فجأةً قد خرجتُ من كل دائرة سكنتُها من قبلُ، معزولاً، مَعيبًا، مذهولاً. مرفوضًا في المدرسة، خائفًا من العودة إلى البيت، لا مال في جيبي، ولا مشاريع للمستقبل القريب غير بطاقة قطار، لست أدري كيف نجحتُ في الخروج من قاعة الدرس يساورني شعور غريب بأني غير مرئيّ، فيما غريفيث قابع بلا حراك على مكتبه ينتظر رحيلي. لا أذكر الكثير عن مسيرة الكيلومترات الخمسة إلى محطة القطار، عدا اجتيازي القنوات بتباطؤٍ شديد، راميًا بتكاسل حجرًا أو حجرين على سطحها الداكن بلون الاعشاب البرّية، منتقلاً إلى قناة أخرى لأعاود الحركات ذاتها. لم أصل إلى البيت إلا في الواحدة والنصف بعد الظهر، بعد أن تسكعتُ في باب اللوق، ودرتُ حول ميدان الإسماعيلية، وعبرتُ جسر قصر النيل، نزولاً إلى حديقة الأندلس وميدان السباق التابع لنادي الجزيرة، وصولاً إلى حديقة الأسماك. باختصار، كانت مسيرة متعبة مسافة ثمانية كليومترات وجدتُني خلالها أتقصّد ألا أفكر بما ينتظرني من مصير. اختبرتُ إحساسًا عائمًا وطوباويًا بالمعنى الحرفيّ للكلمة بأني خارج المكان، وقد تحرّرتُ من جسدي، وانعتقتُ من كل الارتهانات والواجبات والقيود المعتادة. لم أشعر قط أني حرٌّ وبمنأى عن أيّ توجيه على ذلك النحو الخطير الذي شعرتُ به حينها. كنتُ ببساطة أمشي باتجاه البيت دونما هدف غير معرفتي بأني سوف أنتهي إليه عاجلاً ام آجلاً.

قرعتُ جرس البيت لأنّ أهلي لم يكونوا قد سلّموني مفاتيحي بعد. فتحتْ أمي الباب، وهو أمر غير مألوف لأنه مهمة متروكة للخدم: «إدوارد»، نبرتْ مفاجأةً قبل أن يحلّ عليها الذعر: «ماذا تفعل هنا؟ هل وقع لك مكروه؟ هل أنت مريض؟». ثم قادتني مكتومًا ومرتبكًا لمقابلة أبي، الذي كان وجهه محتقنًا بالقلق والغضب. ودون أن ينبس بكلمة، ساقني إلى غرفته لتلقي حفلة جَلْد افتتاحية بمهماز الخيل.

لم نتبادل كلمة. أويت إلى غرفتي وانفجرتُ باكيًا، يتداخل وجعي الجسمانيّ مع إحساس عميق بالأسى والهجران. مكثتُ في البيت أسبوعين مثل شبح بائس، ممنوعًا من الكتب والموسيقى والأصدقاء ومن أيّ تسلية بأمر من والديْن مذهوليْن وحانقيْن ارتضيا الانتظار ريثما يقرّر غريفيث أن يقابلهما. ولما عادا من موعدهما معه، تحدثتْ أمي وحدها، وكان معظمُ حديثها يدعم رأيَ غريفيث فيّ بصفتي «عديم النفع» مع أنه أضاف بأسفٍ شكواه المستجدة من أني «أكثر ذكاءً» من أن أُطرَد نهائيًا من المدرسة مع أنّ تلك هي رغبته الأكيدة. ويبدو أنّ أمي، مثلها مثل غريفيث، اعتبرتْ ذكائي - الذي سوف يصير قريبًا يقيني الوحيدَ عن نفسي - موضعَ استنكار، وعلامةً على استحالة إصلاحي وعلى طبعي الشرير المتأصل، أو على الأقل المستعصي على التعليم. فذكائي، في نظرها، يشكّل عائقًا يمنعني من أكون تلميذًا جيدًا، لكنه يكفي، تلك المرةَ، لأن يشفع لي بإعفاءٍ غير حماسيّ من الطرد. يمكنني العودة إلى المدرسة، قال غريفيث، محذِّرًا من أنه لن يَحْتمل أيَّ سوءِ تصرّفٍ جديد.

وكان غريفيث قد أشار بوضوح إلى أنّ مستقبلي تلميذًا وباحثًا داخل النظام الإنكليزيّ لم يكن مضمونًا، فهو مضطر لأن يعطيني توصية مشروطة إذا ما قررتُ البقاء ونيل شهادة الجي. سي. إي (الشهادة الثانوية التي تُمنح لجميع خريجي المدارس ذات الإدارة البريطانية) وتقديم طلب انتساب إلى أوكسفورد أو كمبردج (جامعته هو). وحقيقة الأمر أنّ والدي كان يخطط لتسفيري إلى الولايات المتحدة حتى بعد عودتي إلى ڤكتوريا كلودج ودون معرفتي. الرواية الرسمية التي تبلغتها هي أني مضطر لمغادرة مصر لأنّ قانونًا أميركيًا غامضًا يقضي، لكي يحق لي أن أصير مواطنًا أميركيًا، بأن أعيش خمس سنوات على الأقل في الولايات المتحدة قبل

بلوغي الحادية والعشرين، على الرغم من أنّ أبي أورثني الجنسية. فصار الانتقال محتومًا لأني سوف أبلغ السادسة عشرة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥١.

أفترض أنّ إرساله إياي إلى مؤسسات ذكورية تمامًا ومتطلّبةً، مثل «ماونت هيرمون» [«جبل حرمون»] وبرنستون تاليًا، إنما كان ليحميني لا من «العبث بجسدي» فحسب وإنّما أيضًا من البذخ العاطفيّ الفائض والجيّاش الذي يشلّني بسبب الشكوك والانفراجات التي تتناوب فيه.

في الوقت الذي كان يجري فيه تكييفي مع مشروع أبي لإرسالي إلى الولايات المتحدة في ربيع ١٩٥١، وردتنا فجأةً بطاقة بريدية من أخيه داڤيد الضائع منذ زمن طويل، وكان أبي قد عمل على تسفيره بحرًا من مصر عام ١٩٢٩، لإسرافه المَرَضِيّ في معاشرة النساء ونفاه إلى البرازيل وانقطعتْ أخباره منذ ذلك الحين. وردتْ بطاقة داڤيد، المكتوبة بخربشة طفولية كبيرة الحروف، من «لُورد»، وأعلنتْ «لقد شفيتُ. وأنا قادم لرؤيتكم»، تلتها بعد أسبوع برقيةٌ تحدد رقمَ رحلته الجوية وموعدَ وصوله إلى القاهرة. كان داڤيد نسخةً أكثر سمرةً وحيويةً من أبي وأكثف شاربًا مزيّنًا على الطريقة الأميركية اللاتينية، أيْ مزيجًا من أنا ثانية لوديع ومن مسخه الساخر معًا. وقيل إنّ طاقات داڤيد الغرامية لا تقاوَم، خصوصًا في أوساط النساء المتزوجات اللواتي كنّ السبب المباشر لترحيله أصلاً. يتكلم خليطًا غريبًا من عربية عتيقة رثة عفا عنها الزمن مع بضعة دزينات من العبارات الاميركية ("Gee Bill, you should see how much money I made one evening in Bahia")[١]، وقليلاً من البرتغالية غير المفهومة. انجذبنا جميعًا إلى حضوره البسيط والمسرف عاطفيًا: أخوه وديع وأخته نبيهة وأولادهما وأمي، التي سَحَرَنا بمغازلته إياها على نحو أخرق ولكنه نبيل. مكث في البيت وأمضى شهرًا في القاهرة لا يفعل شيئًا سوى الناجحة إقناعَ أبي بأن يأخذ بعض الوقت من العمل لكي يجلس الأشقاء الثلاثة معًا يثرثرون عن طفولتهم المقدسية التي اشتركوا فيها منذ زمن بعيد. الأعماق الدوستويفسكية التي تصوّرتُها في أبي (وإنْ لم تتجلَّ لي عيانيًا) كانت واضحة عند داڤيد: الكآبة، اللسان الذرب، التقلّب المزاجيّ بين حدّي الحبور

---

١ ـ «اه، يا بيل، ليتكَ رأيتَ كم ربحتُ من المال خلال ليلة واحدة في باهيّا». (م)

والإحباط العميق – ترسم علاقاته بأخيه وأخته الصاحبين حدودًا لها، ولكنْ دون أن تسيطر فعلاً عليها.

لم أتبيّن حقًا ما هي مهنته. جرى حديث عن مناجم ماس، وعن موهبته دليلاً سياحيًا مثل أبيه. كان يقامر ويحتسي الكحول، يعاشر النساء ويجول في الأرياف البرازيلية. أهدانا صرّة جلدية مليئة بالأحجار نصف الكريمة ذات القيمة المتدنية، إلا أنها في بريقها وغزارتها المتدفقة وتنوعها تروي كلَّ قصة حب لقارة بأكملها. نشأتْ بيني وبينه صداقة حميمة: «يا ديني» كان يناديني على غير محمل اصطلاحيّ. وقد أدركتُ بعد سنوات أنّ شخصيته الغريبة العاصية والغامضة كانت تجسيدًا بالنسبة إليّ لشخصية كونراد – فهو مشاركٌ سرّيّ مثل كورتس، أو هو شبيهُ كانِغهام غراهام[1] فيما أبي أشبه بنبيل بريطانيّ. ثم اختفى مجددًا في مجاهل البرازيل. وفي أيلول/سبتمبر ١٩٦٧، التقيتُه لساعة فقط في نيويورك، وكان في جولة مع فريق كرة القدم الوطنيّ البرازيليّ بصفة ظلّت ملغزة لي. وقد ذهبت عمتي نبيهة لمقابلته، قبل وفاتها في ربيع ١٩٧٣ بعد أن اشتدّت عليها وطأة السرطان، فاكتشفتْ عنده «ما يشبه الزوجة»، واسمها آديلا، وولدًا معوّقًا في سن المراهقة، لعله ابنٌ بالتبنّي. فغمرتْ أيامَ نبيهة الأخيرة موجةٌ من الغم الملحميّ حين هي تتنقّل عبر خرائب عائلتها المبعثرة، ولم يُسْعفها ماضيها البطوليُّ في تدبير أمر حياتها المفككة المتهاوية في عمان حيث توفيتْ في اليوم ذاته الذي اغتال فيه الإسرائيليون كمال ناصر في بيروت. وقد رأيتُ في دايڤيد ونبيهة وأبي متاهةً من الإيابات والمنافي والعودات القصيرة، ففهمتُ محاولة أبي المزجَ بين خليطٍ غيرِ واعٍ من الغريزة الخفية الجامحة وبين تصميمه المحافظ في جهوده لتوفير حياة لائقة لعائلته. وقد حافظ على إيمانه واجبٌ تربويٌّ بسيط ظل يعود إليه: «إذا كانت فيه فائدة تعليمية ترجى»، يقول لي، «اِفعلْه». وإني أحاول منذ ذلك الوقت أن أعرف إلامَ يعود ذلك الضمير المتصل، وهذا الكتاب سِجِلٌّ يُثْبت أني قد حاولتُ. فقط بعد مضيّ عقود من الزمن على وفاته، أستطيع أن أستبيَن وجهَيْ ميراثه لي وقد ارتبطا دونما فكاك في مفارقة مطلقة لا جدال فيها، حيث ينفتح القمع والتحرّر واحدُهما على الآخر في لغزٍ بدأتُ أعترف به للتوّ، وإنْ كنتُ لا أفهمه تمام الفهم.

---

١ ـ مغامِر بريطانيّ اكتشف مناطقَ عدةً من اميركا اللاتينية. (م)

بعد حرب السويس ١٩٥٦ صدر قرار بتأميم مدرسة ڤكتوريا كولدج وأعيد تسميتها ڤكتوري كولدج[1]. لم تكن لي أية علاقة بها إلا بحلول العام ١٩٨٩ عندما كنتُ في زيارة إلى مصر لإلقاء سلسلة من المحاضرات ترافقني عائلتي، فاعتقدتُ أنه سيكون مسليًا أن أريهم المدرسة التي طردتني في ما مضى. فقصدنا المعادي في صباح يوم جمعة في أواسط آذار/مارس واستقللنا السيارة إلى المدرسة، سالكين طريق الحافلة القديمة. وقد ساءني أن أكتشف أنّ المساحة الفاصلة بين المدرسة والصحراء، حيث كانت كثبان الرمل الخالية تمتد بعدها أميالاً، قد تحولتْ إلى فسحات شاسعة من المباني السكنية تعجّ بالبشر والغسيل المنشور والسيارات والحافلات والحيوانات. وكانت المدرسة ذاتها مقفلة لعطلة يوم الجمعة، إلا أني أقنعتُ البواب بأن يسمح لنا بالدخول. وقفنا في قاعة الدرس القديمة، التي بدت أصغر بكثير مما أذكر، فأشرتُ لهم إلى مقعدي، وإلى منصّة غريفيث المعلّم الذي طردني وهو متربّع فوقها، وإلى المستودع الصغير حيث حَبَسْنا مستر لوي المسكين.

في تلك اللحظة، داهمتِ الغرفةَ امرأةٌ تشتاط غيظاً تعتمر المنديلَ الشرعيّ والجلباب الإسلاميّ تريد معرفة ما الذي نفعله في المكان. حاولتُ أن أشرح لها الظروف («استخدِمْ سحرك»، قالت ابنتي نجلا) ولكنْ دون جدوى. لقد دخلنا إلى المدرسة بطريقة غير مشروعة، وهي، بصفتها مديرة المدرسة، تطالبنا بأن نغادر فورًا. رفضتْ يدي الممدودة للمصافحة، وأخذتْ تحدّق إلينا بفائض من العداء القوميّ ومن الحماسة التي لا تلين، ونحن نتدافع خارجين تحت وطأة غضبها البيِّن. فقد تحوّلتْ «إيتون» البريطانية في مصر إلى حَرَم من نوع جديد، إسلاميٍّ هذه المرّة، وقد طُرِدْتُ منها مجددًا بعد ثمانٍ وثلاثين سنة على الحادثة الأولى.

١ ـ Victory College: «كلية النصر». (م)

الفصل التاسع

في مطلع أيلول ١٩٩١، بعد أربعين سنة تمامًا على مغادرتي الشرقَ الأوسط إلى الولايات المتحدة، كنتُ في لندن للمشاركة في ندوة دعوتُ إليها مثقفين وناشطين فلسطينيين عشية مؤتمر مدريد. في أعقاب حرب الخليج، والموقفِ الانتحاريّ الذي اتخذته القيادةُ الفلسطينية بوقوفها إلى جانب صدام حسين، كنا في موقع تفاوضيّ ضعيف جدًا. فكان غرضي من الندوة إثارةُ مجموعةٍ من الموضوعات المشتركة التي من شأنها دفعُ مسيرتنا إلى أمام نحو تحقيق حقنا كشعب في تقرير المصير. توافدنا من كل أصقاع العالم الفلسطينيّ - من الضفة الغربية وغزة، ومن الشتات الفلسطينيّ في البلدان العربية المختلفة، ومن أوروبا وأميركا الشمالية. على أنّ المؤتمر انتهى إلى خيبة مروّعة: التكرار اللامتناهي لحُجج مألوفة، وعَجْزُنا عن تحديد هدف جمعيّ، والرغبة الظاهرة في ألا نصغي إلا لأصواتنا. باختصار، لم يَنْجم عنه شيء خلا الشعور الاستباقيّ المخيف بالإخفاق الفلسطينيّ اللاحق في أوسلو.

وسط هذه النقاشات، وخلال إحدى الاستراحات المقررة، خابرتُ زوجتي مريم في نيويورك مستفسرًا عن نتائج تحليل الدم الذي أجريتُه لفحوصي السنوية. كنتُ منشغل البال بصدد مستوى الكولستيرول، فقالت لي: «لا، كل شيء ممتاز من هذه الناحية»، غير أنها أضافت مترددة: «شارل حزّي (طبيب العائلة والصديق) يرغب في التحدث إليك عند عودتك». شيء في صوتها أوحى إليّ بأنّ كل شيء ليس

على ما يرام، فاتصلتُ فوراً بشارل في عيادته. «لا شيء يثير القلق»، قال، «سوف نتحدث عندما تعود إلى نيويورك». دفعني رفضُه المتكرر إخباري ما الخطب إلى نفاد الصبر أخيرًا: «يجب أن تصارحني، شارل. أنا لست ولدًا، ولي الحق في أن أعرف». وبعد سلسلة كاملة من محاولات التملّص – «الأمر ليس خطيرًا، وأيّ أخصائيّ في أمراض الدم يستطيع الاعتناء بك بكل سهولة»، «إنه مرض مزمن في كل الأحوال» – أبلغني أني مصاب بسرطان الدم اللمفاويّ المزمن، مع أنّ الأمر اقتضى أسبوعا كاملاً لكي أستوعب الوقع الأول للتشخيص استيعابًا كاملاً. ولما كان مرضي خالياً من الأعراض، فإنّ التأكد من الاكتشاف الأصليّ يستدعي تقنيات تشخيص متطورةً لا تتوافر إلا في مراكز علاج السرطان في نيويورك. وهكذا مرّ شهر إضافيّ قبل أن أدرك مدى الصدمة التي أحدثها لي «سيفُ ديموقليطس» المسلّط فوق رأسي، كما أسماه طبيبٌ قاسي القلب ومهذار، وستةُ أشهر إضافية لكي أعثر على الطبيب الاستثنائيّ كانتي راي الذي يعالجني منذ حزيران/يونيو ١٩٩٢.

بعد مضيّ شهر على ذلك التشخيص، وجدتُني أكتب رسالةً إلى أمي المتوفاة منذ سنة ونصف السنة. وهي عادةٌ دَرَجنا عليها منذ مغادرتي القاهرة عام ١٩٥١. فكأنّ الدافع إلى التواصل معها تغلّبَ على حقيقة موتها، وهو ما قطع عليّ رغبتي التخييلية في منتصف الجملة وتركني على شيء من الارتباك بل من الحرج. كانت ثمة غريزة سردية غامضة تعتمل في داخلي لم أُعِرْها كبيرَ انتباه، وأنا أتخبّط في الهواجس والتوترات الناجمة عن اضطراري للعيش مصابًا بـ«سرطان الدم اللمفاويّ المزمن». خلال تلك الفترة من عام ١٩٩٣، فكّرتُ في إجراء عدة تغييرات في حياتي وقد أدركتُ، دونما خوف ظاهر، أنها سوف تكون أقصرَ وأصعبَ من الآن فصاعدًا. وخطرتْ لي فكرةُ الانتقال إلى بوسطن، للعودة إلى مدينةٍ عشتُ واستمتعتُ بالحياة فيها عندما كنتُ طالبًا، ولكنْ سرعان ما اعترفتُ لنفسي بأني إنما أفكّر على نحو استرجاعيّ في إيجاد مكانٍ لأُدفن فيه، لأنّ بوسطن مدينة هادئة قياسًا إلى نيويورك. فتخليتُ عن الفكرة.

كان جوابي الثابتُ على مشقّات مرضي المتزايدة هو الإكثارَ من الاستذكارات ومحاولات إحياء نُتفٍ من حياةٍ عشتُها أو استحضار بشرٍ غابوا. في عام ١٩٩٢،

ذهبتُ مع زوجتي وولدَيَّ إلى فلسطين في أول زيارةٍ لي منذ ٤٥ سنة وكانت تلك زيارتهم الأولى. وفي تموز ١٩٩٣، زرتُ القاهرة بمفردي متقصدًا، خلال تنفيذي إحدى المهمات الصحفية، أن أزور مطارحي القديمة. طوال تلك الفترة، كنتُ قيد مراقبة الدكتور راي، دون علاج، وهو يذكّرني بين حين وآخر بأني قد أحتاج إلى علاج كيمائيّ في وقتٍ ما. وحين باشرتُ ذلك العلاج في آذار/مارس ١٩٩٤، أدركتُ أني دخلتُ إنْ لم يكن المرحلة الختامية من حياتي، فعلى الأقل المرحلةَ التي لا عودة عنها إلى حياتي السابقة، مثلي مثل آدم وحواء عندما غادرا الجنة. وفي أيار/مايو ١٩٩٤ بدأتُ العمل على هذا الكتاب.

هذه التفاصيل مهمة لأنها الوسيلة التي أفسِّر بها لنفسي وللقارئ مدى ارتباط زمن هذا الكتاب بزمن مرضي، بحقباته وطلعاته ونزلاته وتقلباته كافةً. فمع تزايد ضعفي، وتكاثُر الالتهابات وطفرات الآثار الجانبية للمرض، ازداد اتكالي على هذا الكتاب وسيلةً أَبْتني بها لنفسي شيئًا ما بواسطة النثر، فيما أنا أعارك في حياتي الجسمانية والعاطفية هواجسَ التدهور والآمه. وقد انحلّت المهمتان إلى مجموعة من التفاصيل: فالكتابة انتقال من كلمة إلى كلمة، ومكابدةُ المرض اجتيازٌ لخطوات متناهية القِصَر تنقلك من حالة إلى أخرى. ولما كنتُ خلال أعمالي الأخرى - كتابة المقالات وإلقاء المحاضرات والتدريس والمهمات الصحفية - أَعبُرُ المرض موقّتاً تلك الأعمالَ، بما يشبه القَسر، بواسطة مواعيد التسليم ودورات بدايات النصوص ومتونها والنهايات، إذا أنا، في هذه السيرة، تَجْرفني فتراتُ العلاج والإقامات في المستشفيات والألم الجسديّ والكَرَب الذهنيّ، وتتحكم بكيفية الكتابة وموعدها ودوامها ومكانها. وكانت فتراتُ السفر في الغالب فتراتٍ منتِجة، لاسيما أني كنتُ متأبِّطاً مخطوطتي، المكتوبةَ بخط اليد، أنَّى ذهبتُ، مستغِلاً كلَّ غرفة فندق أو منزل صديق أنزل فيه لأكتب. ومع أني لم أكن على عجلة من أمري لإنجاز مقطعٍ بدأتُه، فقد كنتُ أعرف بدقة ما الذي خططتُه للكتابة فيه. والغريب في الأمر أنّ كتابةَ هذه السيرة ومراحل مرضي تتزامن تمامًا، مع أنّ معظم آثار تلك الأخيرة قد امحت من هذه السيرة عن حياتي المبكرة. وعلى الرغم من ذلك، فسجلُّ حياتي ذاك ومسارُ مرضي هذا (الذي عرفتُ منذ البداية أنْ لا شفاء منه) هما كلٌّ واحد، بل يمكن أن يقال إنهما متماثلان ومختلِفان قصدًا.

وبنموّ العلاقة بينهما، وتعاظُم أهميتها بالنسبة إليّ، بدت ذاكرتي مضيافة وكريمة إزاء غزواتي الملحاحة غالبًا - لا يسعفها إلا التأملُ المركّز والتنقيب الأرخيولوجيّ في ماضٍ سحيق لا يستعاد أصلاً. وعلى رغم أوجاع المرض والقيود التي فرضتها عليّ مغادرتي أماكنَ يفاعتي، أستطيع أن أقول مع الشاعر:

«... ولا تحت هذه العريشة/

عريشة الزيزفون الصغيرة/

حقّقت/

الكثير مما يبلسم لي جراحي»[1] .

فإلى سن الستين، لم أكن أطيق مجرد التفكير في ماضيّ، خصوصًا ماضيّ في القاهرة والقدس، وقد احتجبت المدينتان عني لمجموعتين مختلفتين من الأسباب: الأخيرة لأنّ إسرائيل حلّت محلّها، والأولى لأني مُنِعتُ من دخولها لأسباب قانونية نتيجة صدفة من أقسى الصدف[2]. ولتعذّر زيارتي مصرَ خلال خمس عشرة سنة، بين ١٩٦٠ و١٩٧٥، أخذتُ أقنّنُ الذكريات المبكرة عن حياتي هناك (وهي ذكريات متقطعة جدًا وإنْ تكن مليئة بمناخات توحي بمشاعر الدفء والسكينة، قياسًا إلى شعوري بالغربة القاسية خلال إقامتي في نيويورك) فاعتمدتُ تلك الذكريات وسيلةً للإخلاد إلى النوم، بعد أن ازداد صعوبةً مع مرّ الوقت، الذي بدّد هالة السعادة التي غمرتْ حياتي المُبكرة فظهرتْ فترةً أكثرَ تعقيدًا وعسرًا. فأدركتُ أنّ استيعاب تلك الفترة يتطلّب مني حالاً من الصحو والنباهة وتحاشي الوَسَن الحالِم. والواقع أني أحسبُ أنّ محور هذا الكتاب هو الأرق، وأنّ موضوعه الرئيسيّ هو اليقظة، أيْ حاجتي إلى الاستذكار الصاحي وإلى التعبير، وهما عندي البديل من النوم. لا، ليس بديلاً من النوم وحده، بل من العُطَل والاستراحات وكلِّ ما هو في عُرف الطبقات الوسطى والغنية ضربٌ من ضروب «التسلية»، وقد أدرتُ لها ظهري بطريقة لاواعية منذ حوالى عشر سنوات. ولما كان هذا الكتاب أحد الأجوبة عن مرضي، فقد وجدتُ فيه نوعًا جديدًا من التحدي، لا

---

١ ـ من قصيدة للشاعر الإنكليزيّ صامويل تايلور كولردِج بعنوان «هذه العريشة من شجر الزيزفون، سجني». (م)

٢ ـ راجِع الفصل الحادي عشر. (م)

مجردَ نوعٍ جديد من اليقظة، وإنما مشروعًا أبتعِد بواسطته أبعدَ ما أستطيع عن حياتي المهنية والسياسية.

ثمة موضوعان ضامران في كتابتي هذا الكتاب. أولهما، انبثاقُ ذاتٍ ثانيةٍ كانت مدفونة لمدة طويلة جدًا تحت سطح خصائص اجتماعية، غالبًا ما تُكتَسَب بواسطة العادة والإلزام، وتنتمي إلى تلك الذات التي حاول أهلي تركيبَها؛ وأعني بذلك «إدوارد» الذي أتحدث عنه هنا بين الحين والآخر. والثاني، هو الكيفية التي أدى بها عددٌ متزايد جدًا من المغادرات إلى زعزعة أركان حياتي منذ بداياتها الأولى. وفي نظري أنّ ما من شيء يميّز حياتي على نحوٍ أشدُّ إيلامًا - والمفارقة أنه هو ذاته ما أتوق إليه توقًا - أكثرَ من تنقلاتي العديدة عبر البلدان والمدن والمساكن واللغات والبيئات، وهي تنقُّلات ظلت تحرّكني خلال تلك السنوات. منذ ثلاثة عشر عامًا، كتبتُ في كتابي **وراء السماء الأخيرة**، أني عندما أسافر أصطحب معي دائمًا كميةً لا حاجة لي بها من الأمتعة. وحتى لو كانت رحلتي لا تتعدّى وسط المدينة، فإنها تتطلب توضيب حقيبة يدوية محشوّةٍ بأغراض أكبر حجمًا وأكثر عددًا مما يتطلبه زمنُ الرحلة الفعليّ. وفي تحليلي لذلك، استنتجتُ أني مدفوع بخوف سرّي لا فكاك منه، هو خوفي من عدم العودة. وقد اكتشفتُ منذ ذلك الحين أنني، على الرغم من ذلك الخوف، أخترع المناسبات اختراعًا لكي أغادر، فأستثيرُ ذلك الخوف استثارةً بملء إرادتي. بات هذا وذاك من ضرورات وتيرة حياتي، وقد تفاقما على نحو دراميّ خلال فترة مرضي. أقول لنفسي: إذا أنت لم تعتزم هذه الرحلة، ولم تُثْبت قدرتك على الحركة، ولم تنغمس في خوفك من الضياع، ولم تتجاوز الوتائر العادية للحياة المنزلية الآن، فالمؤكد أنك لن تُقْدم على ذلك في المستقبل القريب. ثم إني أعاني أيضًا اكتئابَ السفر الحُصاريّ (الذي يسمّيه فلوبير «كآبة البواخر»، ويسمّى بالألمانية «باهنهوفستيمونغ»، أيْ كآبة محطات سكك الحديد) يصاحبه شعورٌ من الحسد تجاه المتخلّفين عن السفر، الذين سوف ألقاهم عند عودتي ولا أثر على وجوههم للتجهّم أو لإجهاد الحركة الإلزامية، سعداءَ مع عائلاتهم، يرفلون في بذلات ومعاطف مطرٍ مريحة، لابدين في أماكنهم، رؤيةً للناظرين. ففي اختفاء المغادِر وكونه مفقودًا، وربما مُفتَقَدًا أيضًا، إضافةً إلى ذلك الإحساس القويّ والتكراريّ والمتوقَّع بالنفي الذي ينتزعك مِنْ كلِّ ما هو أليف

ومريح، ما يستثير لديك الحاجةَ إلى المغادرة بسببِ منطقٍ مُسبقٍ لكنه مِنْ صُنْعِكَ أنتَ، ويمنحك شعورًا عارمًا بالنشوة. وفي كل الأحوال، فإنّ أعظم ما يخيف في المغادرة أنها حالة من الهجران، على الرغم من أنّ الهاجِر هو أنتَ.

في صيف ١٩٥١ غادرتُ مصر لقضاء أسبوعين في لبنان، وثلاثة أسابيع في باريس ولندن، وأسبوعٍ واحدٍ على باخرة «نيو امستردام» بين ساوثهامپتون ونيويورك. وخلال تلك الرِّحلة أتممتُ الدراسةَ الثانوية ونلتُ الشهادةَ الجامعية فشهادةَ الدروس العليا، أيْ قضيتُ ما مجموعه إحدى عشرة سنة، بقيتُ بعدها في أميركا ولا أزال فيها إلى يومنا هذا. ولا شك أنّ ما جعل من تجربة الانفصال المديدة تلك، ومن العودةِ خلال فصول الصيف، تجربةً مُكربة، هو علاقتي المعقّدة بأمي التي لم تنفكّ تذكّرني بأنّ هجري إيّاها هو الأمر الشاذّ العظيم («الجميع أبناؤهم حولهم إلاّ أنا») وإنْ يكن قدرًا محتومًا على نحو فاجع. ففي كل سنة، كانت عودتي إلى الولايات المتحدة في آخر الصيف تنكأ الجراح القديمة، فأعيد اختبار انفصالي عنها كأنه الانفصال الأول؛ وهو ما يُورثني الحزنَ الذي لا يبرأ، والالتفاتَ اليائسَ إلى الماضي، والخيبةَ والتعاسةَ في الحاضر. وكان العزاء الوحيد هو رسائلنا المتبادلة المتوترة والمهذارة في آن. ولا أزال أجد أني أعيش من جديدٍ بعضَ جوانب تلك التجربة اليوم، وتحديدًا إيثاري أن أكون في مكان آخر – وتعريفُه أنه المكان الأقربُ إليها والمُجازُ منها هي، والمغمورُ بحبها الأموميّ الخاصّ، المتسامحِ والمضحّي والمعطاءِ إلى أبعد الحدود – لأنّ وجودي «هنا» يعني أني لست حيث أريد أنا، أو يريد كلانا، أن أكون؛ فـ«هنا»، تعريفاً، هو المنفى والانزياح والاقتلاع القسريّ. ولكنْ، كما هو الحال دائمًا، كانت رغبتها في أن أكون معها مشروطةً نوعًا ما، فلم يكن عليّ أن أتكيّف مع أفكارها عني وحسبُ، وإنما أن أكون «لها» أيضًا، في حين أنّها قد تكون هي «لي» أو لا تكون اعتمادًا على مزاجها.

بعد عودتي المحبَطة إلى ڤكتوريا كولدج لقضاءِ ما تبقى من العام الدراسيّ ١٩٥٠–١٩٥١، وضِعتُ في حالِ إنذار، كما سارع غريفيث إلى إبلاغي محرَجًا. وقد عنى ذلك إبلاغَ كل معلّم من المعلّمين بوضعي المهدّد، فإذا هو يذكرني بانتظام، عند أية بادرة تململ: ««خيرٌ لَكَ أن تتذكر ذلك وتُحسن التصرّف». في مثل هذا الوضع المزعج، تعرضتُ للنِّقار والتنمّر والسخرية أو العزل من قِبل بعض زملائي. وحدهم

مصطفى حمدالله وبيلي عبد الخالق وأندي شارون ظلوا يتصرفون تجاهي كما في السابق، وهو ما حصرني في حلقة ضيّقة من الأصدقاء الأُلَفاء، معزولاً ومتقلقِلاً. خلال تلك الفترة وجدتُني أستنجد بأمي أكثر من ذي قبل، وهي ـ بما تملكه من طاقة خارقة على تحسس مزاجي، بل وقراءته ـ تُظْهر لي ما أحتاج يائسًا إليه من العطف والحنوّ.

ثمة حدثٌ توّج أقامتي في فكتوريا كولِدج في ذلك الربيع وقرَّبَنا كثيرًا واحدَنا من الآخر. بدءاً، كانت حفلات فورتفانغلر الموسيقية التي انضم إلينا أبي لحضورها على مضض لأنه لا يستسيغ إلا «الكونشرتو»، وهو صنفٌ لا تقدِّمه اوركسترا برلين الفلهارمونية. وأَذْكر التفاتتي إليها أو لكزي إياها خلال مقطعٍ أثير من الحركة البطيئة في سمفونية بتهوفن الخامسة ثم خلال وصلة الانتقال إلى الحركة الاخيرة، وقد عاودني الشعورُ بذلك المزيج المميّز من الحميمية والتفهّم الذي تستطيع هي وحدها منحي إياه، خصوصًا أني كنتُ أنا نفسي أعيش حالةً انتقالية في المدرسة بصفتي تلميذاً شبهَ منبوذ. خلال استراحة الغداء في المدرسة، في يوم الأحد الذي تلا تلك الحفلة الموسيقية، تجمّع بعضُنا على أطراف الملعب الرئيسيّ للتناوب على قذف كرة الحديد، مسجِّلين علامةً لكل محاولة، ساعين برصانة إلى تصنيف الزملاء الستة المشاركين في المباراة. وإذ تقدمتُ لِلَعِبِ دوري، إذا بثلاثة من الكبار في الصف السادس الأدنى يقودهم جيلبرت داڤِدسون يطلبون السماح لهذا الأخير برمي الكرة، وهو ولدٌ صاخب ومتنمّر بقدرِ ما كان أخوه الاصغر سنًا، آرثر، هادئًا ومتواضعًا. «لا»، قلتُ حازمًا، «إنه دوري الآن. انتظِرْ إلى أن أرمي رميتي». فأجابني: «أيها النَّيـ... التافِه، هاتِ الكرة فورًا»، ووجهُه محتقِنٌ غيظًا كأنه على شفير سكتة قلبية. ثم هجم عليّ محاولاً انتزاع الكرة الثقيلة من يدي. اخطأني كليًا، ولكنْ علقتْ يدُه في فتحة قميصي، فإذا هو في حركته العنيفة المواربة يشقّه شقّاً، فتطايرتِ الأزرار وتمزّق النسيج، وإذا العنف الغضوب والمفاجئ لتدخله يُفْقدني توازني. مترنحًا، أَسقطتُ الكرة من يدي والتفتُّ إليه وهو يوجّه لكمةً التفافية قوية لرأسي أخطأتني كليًا وقد بات في حالة هياج فَقَدَ فيها السيطرة على نفسه. وإني أذكر الطريقة المدروسة الباردة الذي جمّعتُ بها كلَّ ما أوتيتُ من قوّة خلف قبضةٍ أصابت أنفه فتدفق منه سَيلٌ من الدم الأحمر مثيرٌ للقلق. هوى على ظهره يحيط به

رفاقُه مشجِّعين ومحفِّزين، وهو يهدّد بقتلي وقتلِ أمي حالما ينهض. سريعًا، جرّني زملائي بعيدًا عنه، وأنقذني قرعُ جرس معلناً بدء الدروس.

في نهاية بعد الظهر ذاك كان عليّ أن أزور المستوصف لغرض تقرير طبيّ عن الحادث تَضَعه المرضةُ السكوتلاندية العجوز التي كان تعليقُها الوحيد بعد معاينة يدي: «إنك تملك قبضةً مثلَ كتلة حديد». في تلك الأثناء، أُخِذ داقِدسون إلى منزله، وظَهَرَ بعد أسبوع يُطلق التهديدات البشعة على أنواعها، وقد أخذتُها على محمل الجدّ كليًا، وهو ما أوقعني في ارتباك عظيم. ذمّني غريفيث وصرفني بقوله إنّي ميؤوس مني كليًا – «تلاحقك المشاكل حيثما تكون، يا سعيد، أليس كذلك؟». لم يتّخذ أيَّ إجراء تأديبيّ بحقي. ولكني لازمتُ البيت وأمي، طوال شهرٍ على الحادث، وأنا مقتنعٌ تمامَ الاقتناع بأنّ داقِدسون سوف يقتلني أو أنه سوف يستعين بأحد الرعاع ليقوم بالمهمة نيابةً عنه.

لا تزال ذكرياتي عن حنان أمي خلال تلك الأشهر الأخيرة في القاهرة في منتهى القوّة، وقد شكلّتْ مصدرَ عزاء لي خلال سنواتي الأولى في الولايات المتحدة. شجعتني أمي على ممارسةِ ما لا تألفه بيئتنا القاهرية، أيْ مطالعة الكتب والاستماع إلى الموسيقى تحديدًا، متجاوزًا الواجبات المدرسيةَ الفارغة والتفاهةَ المتذبذبة لحياتنا الاجتماعية. فأهدتني عددًا من الروايات الروسية لأقرأها فاكتشفتُ فيها، خلال أسابيع عزلتي، عالمًا ضاجًا، لكنه منغلق على ذاته، في نهاية المطاف، الأمر الذي شكّل بالنسبة إليّ سدًا منيعًا في وجه هواجس الواقع اليوميّ. وفيما أنا أطالع رواية **الإخوة كارامازوف**، اكتشفتُ فيها تصويراً للخلاف ألعائليّ الدائر بين أبي وشقيقته وأبنائها، وقد دخل طوره النهائيّ من الصدامات وتبادل الاتهامات ومَشاهد الصُراخ والمشاجرات شبه اليومية مع المستخدَمين أو عليهم. وأدركتُ أيضًا أنه على الرغم من دماثة أصدقائنا من أفراد حلقة الشوام التي نشأنا فيها، فإنّ العديد من تعليقاتهم لأبي، أو عنه، تتضمّن سخرية لطيفة وإن تكن بيّنة – كاستخدامه الذي لا يكلّ للإنكليزية (وكانت أمي قد أضحت طليقة في الفرنسية تثرثر مع إيما فاهوم ورين دياب مستخدمةً عبارات شهيرةً من مثل ma chère وj'étais étonée[1] وما إلى

١ ـ بالفرنسية في النص الأصليّ: «يا عزيزتي»، كم ادهشتني...». (م)

ذلك)، وتركيزهِ الدائم على عمله، وميلِهِ إلى الأطعمة الأميركية من مثل «آبل پاي» و«پان كايكس» التي وجدوها أغلظ مِنْ أن تعبّر عنها الكلماتُ، ولباسِهِ الرياضيّ نوعًا ما، بما في ذلك ارتداؤه القمصانَ القديمة والسراويلَ ذات الثنيات المهترئة خلال العطل.

وإذ أَلتفتُ إلى تلك الفترة الأخيرة في القاهرة، لا أستذكر إلا الإحساس بالراحة والمتعة الذي كنتُ أستمده من حدب أمي عليّ. كانت تفكّر تأكيداً برحيلي الداهم وتسعى إلى جعل تلك الأيام الأخيرة أيامًا مميزة جدًا لنا كلينا، فيما أنا، العاجزَ عن تخيّل القطيعة المروّعة التي ستأتي، أستمتعُ بوقتي بما هو تحرّر من البرنامج الضاغط الذي كنتُ أتّبعه سابقًا. فلا توفيق افندي بعد الآن، ولا فؤاد أُتيَم، وقد انتهت دورسُ ركوب الخيل وتخليتُ عن دروس البيانو ووضعتُ حدًا للتمارين الرياضية عند مراد. وإذ أعود من المدرسة في نهايات الأصيل، ألقاها غالبًا جالسةً على السطيحة المشرفة على حديقة الأسماك، فتدعوني إلى الجلوس قربها وتقدِّم لي كوبًا من الليموناضة معطّراً بماء الورد، وتحوطني بذراعيها مستذكرةً أيامَ كان «إدواردو بيانكو» ولدًا لامعًا نَضِجَ قبل الأوان، ومعلنةً أنها إنما تعيش حياتها من أجلي. ثم نصغي معًا إلى سمفونيات بيتهوفن، وخصوصًا التاسعة، وهي الأغلى على قلبيْنا معًا. وأَذْكر ارتباكي بصدد طبيعة علاقتها بأبي، ولكني لا ألبث أن أطمئِنّ لأنها تسمّيه دومًا «دادي». وهكذا كان كلانا يُطْلق الاسم ذاته على الزوج والأب. ولعلها توسلتْ ذلك كله لانتزاعي من أميركا قبل سفري إليها، ولاستعادتي من مشاريع أبي التي عارضَتْها عندما أرسلني إلى الولايات المتحدة وعنّفته على ذلك. على أنّ تلك الآصال خلقتِ اتحاداً لا ينفصم بيننا، سوف تكون له، إجمالاً، نتائجُ مدمِّرةُ على حياتي اللاحقة رجلاً يسعى إلى إقامة علاقات حُب ناميةٍ وناضجةٍ ومتواصلةٍ مع نساء أخريات. ليست المسألة أنّ أمي قد اغتصبتْ موقعًا في حياتي لا حقّ لها فيه، وإنما المسألة أنها نجحتْ في أن تَدْخل حياتي وأن تبقى فيها إلى آخر أيامها، بل إني أشعر، معظمَ الأحيان، أنها بقيتْ فيها بعد ذلك.

أُدرك الآن أنّ تلك الأحاديث التي سبقتْ مغادرتنا إلى الولايات المتحدة كانت بمثابة حفلة وداع. فقد تقول لي «لنذهبْ إلى غروپّي لتناول الشاي لآخر مرة» أو قد تسألني «ألا ترغب في أن نتعشى مرة أخرى في الكورسال قبل أن تغادر؟». على أنّ ذلك كله كان يجري في متاهة معقدة المسالك نَسَجَتْها هي نفسُها، وكانت ترتّب، في

الوقت نفسه، علاقتها بشقيقاتي على اعتبارِ أنها سوف تبقى وحيدة معهنّ بعد مغادرتي. كانت معطاء، على نحو مذهل، في الأسبوع الأخير قبل أن نوضّب البيت للمرحلة الأولى من رحلتنا عبر لبنان. وكما أدركتُ لاحقًا، كانت ترى إلى ذلك العطاء على أنه مدفوع كليًا بدافع الحبّ الغيريّ، والحال أنّ «أناها» السيّدةَ لعبتْ دورًا كبيرًا في ما تخطّط له، أعني نضالها داخل بيتٍ يكبّلها سعيًا إلى وسيلة تعبّر بها عن نفسها وتحقّق فيها ذاتها وتطورها. كانت تلك، على ما أعتقد، حاجاتِ أمي الأساسية، مع أنها امتنعتْ عن الاعتراف بها علنًا. ولما كنتُ وحيدَها، أشاركها سهولةَ الاتصالِ بالناس وشغفَها بالموسيقى والكلمات، فقد أضحيتُ أداتها للتعبير عن نفسها وتطويرِ نفسها فيما هي تكافح ضد إرادة أبي الحديدية التي لا تلين والتي تكاد أن تكون خرساء. وكان انكماشُها المباغت عن التعبير عن عاطفتها، وهو أخشى ما أخشاه، وسيلتَها للرد على غياباتي. فمن العام ١٩٥١ إلى حين وفاتها في العام ١٩٩٠، عشتُ أنا وأمي في قارتين مختلفتين، ولم تكفّ عن ندب حظها العاثر لكونها الوحيدة بين صديقاتها التي تعاني آلامَ الانفصال عن أولادها، وخصوصًا انفصالي أنا عنها. فشعرتُ بالذنب لأني هجرتها، مع أنها رضختْ أخيرًا للأمر الواقع بعد مغادرتي الأولى والأكثر حسمًا بين مغادراتي المتعددة.

وإني ما أزال أندهش إلى الآن من مجرد خطورة المغامرة التي انطوى عليها قدومي إلى الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٥١. لستُ أملك إلا فكرة غامضة جدًا عما كانت ستؤول إليه حياتي لو أني لم أجئ إلى أميركا. ولكنّ الذي أعرفه أني بدأتُ فيها بداية جديدةً، متناسيًا، إلى حدٍ ما، ما تعلّمتُه من قبلُ، لأعيد تعلّم الأشياء ابتداءً من الصفر، مبتكِرًا، مخترعًا ذاتي، أحاول وأفشل، أَختبر وأُلغي ما اختبرتُه، لأعاود البدءَ من جديد، سالكًا سُبلاً مباغتة هي، في الغالب، أعسرُ السبل قاطبةً. ولا أزال، إلى هذا اليوم، أشعر بأني بعيد عن البيت، مهما بدا الأمر مضحكًا. ومع أني لستُ متوهِّمًا أني كنتُ سأعيش حياة «أفضل» لو بقيتُ في العالم العربيّ، أو عشتُ ودرستُ في أوروبا، فلا يزال يلازمني بعضُ الندم. وهذه المذكرات هي، في وجه من وجوهها، استعادةٌ لتجربة المغادرة والفراق إذ أشعر بوطأة الزمن يتسارع وينقضي. ولما كنتُ قد عشت في نيويورك بإحساس موقت على الرغم من إقامة دامت سبعة وثلاثين عامًا، فقد فاقم ذلك من ضياعي المتراكم، بدلاً من مراكمة الفوائد.

اعتزمنا انتقالنا السنويّ إلى لبنان في أواخر حزيران/يونيو ١٩٥١ لقضاء شهرين في الضهور. وفي الخامس عشر من تموز/يوليو، غادرتُ وأهلي من مطار بيروت (مطار خلدة، كما كان يسمّى آنذاك) على طائرة پان أميريكان، العالية التحليق، قاصدين باريس. ومنذ أنْ حطّت بنا الطائرة في باريس إلى حين مغادرتنا إلى لندن بواسطة قطار الليل، ابتُليتُ بشحاذ العين في عينيّ الاثنتيْن، فأُغمضتا كليًا إلاّ فتحتين ضيّقتين. وقد ضاعف ذلك من إحساسي بالانجراف والتقلقل الذي أَعقب انسحابي من عالمي الأليف، بمعالمه كافةً، إحساسًا بأني لستُ أدري حقًا ما أنا مُقْدِمٌ عليه ولا في أيّ اتجاهٍ أسير.

في غضون ساعات قليلة من وصولي إلى لندن، حيث حللنا بأُبّهة في جناح ضخم وفاخر من أجنحة فندق ساڤوي، استُدْعي ابنُ عمي من برمنغهام، حيث يدرس الهندسة الكيمائية، وأُنزل معنا في غرفة فخمة من الفندق ذاته. بدا غير مكترث للتوتر القائم بين أبي وأشقائه، لشدة مرحه وفسقه المثير للإعجاب خلال إقامته بيننا. أمضيتُ ساعات عديدة أتذوّق أولى وجبات السمك مع البطاطس مع ألبرت، وزيارة مدينة الملاهي في باترسي، وارتياد عددٍ لامتناهٍ من المقاصف بحثًا عن الفتيات وعن الإثارة، وأنا أحاول أن أتعلّم منه فنون التسلية دون الشعور بالذنب أو الوحدة. وهو النسيب القريب الذي حاولتُ، في السنوات العشرين الأولى من حياتي، التمثُّلَ به لأنه نقيضي في كل شيء. كان مستقيم القامة، ولاعبَ كرة قدم، وعدّاءً بارعًا، وبدا ناجحًا مع النساء، إضافةً إلى كونه قائدًا بالسليقة وطالبًا لامعًا. ولا شك في أنّ لندن كانت أمتع محطة في رحلتنا. وما إنْ غادرَنا ألبرت حتى تبدَّد أثَرَهُ المنشِّط، وانتكستُ مجددًا إلى حال من التوجّس الواجِم من الرحلة.

من ساوثهامپتون، استقللنا الباخرة «نيو آمستردام»، وهي نسخة عن «ساتورنيا»، لكنها أوسع منها وأفخم. وكانت أيام الإبحار الستة إلى نيويورك مملّة ومكتظة بوجبات الغداء والعشاء الفاخرة، وعروضِ السينما المسائية، وحضورِ والدَيّ الكليّ. «أكره أميركا والأميركيين»، تقول أمي، «ما الذي نفعله هنا، يا وديع؟ أرجوك أن تَشْرح لي هذه القصة المجنونة. هل نحن مضطرون إلى أخذ الولد إلى هناك؟ أنتَ تعلم أنه لن يعود. إننا نسرق أنفسنا بأنفسنا». كانت أمي في جوٍ شجاريّ وحزين، فيما أبي يستمتع بأقراص الـ«پانكيك» والقهوة والـ«آپل پاي آلا

مود»، مليئًا بالحماس لأميركا وبالتصميم على شراء بيت فيها، بعد أن تَقَرَّرَ أن أقيم أنا هناك. وباستثناء أوقات العشاء، صرتُ أتحاشى الأمزجة المتناقضة لوالدَيَّ اللذين لا يملكان فكرةً ثابتة إلى أين أنا ذاهب ولأيةِ مدةٍ من الزمن.

ما إنْ وصلنا إلى نيويورك، العابقةِ بالبخار والملبّدة بالغيوم الداكنة، حتى أَقنعتْ أمي أبي بأن يسمح لنا بزيارة ابنة خالها إيڤا مالِك في واشنطن. وبعد حوالى ساعة من وصولنا إلى فندق المايفلاور، قَدِمَتْ إيڤا بسيارة زوجها الدبلوماسية الليموزين السوداء. وعلى الفور، تجاهلتِ الاعتراضات كافةً، وانتزعَتْنا من الفندق، ومعنا حقائبنا المترعة بالملابس الفاخرة، وأخذتْنا الى منزلها الدبلوماسيّ الأنيس والوثير. ولما كان شارل مالك هو الوزير المطلق الصلاحيات في الولايات المتحدة، فقد كان غائبًا لحضور اجتماع للأمم المتحدة في سان فرانسيسكو. فتفرغت الخالة إيڤا لنا خلال بضعة أيام قضيناها في السياحة والاستجمام بشكل عام. وقد أصرّت أيضًا على أن تكون وزوجها الوصيَّيْن عليّ خلال إقامتي في المدرسة الداخلية، وهو اقتراح رحّبتْ به أمي مثلما رحبّتُ به أنا، ما دام يعني قضائي العُطَلَ في رحاب منزل السفير اللبنانيّ ذي الفخامة في جوٍّ يُشْبه ما ظننتُ أنه نمطُ الحياة الذي خلّفتُه ورائي في القاهرة. لم يعطِ أبي جوابًا حاسمًا لأسباب لم أكتشفها إلا فيما بعد. على أني شعرتُ بأنّ والدَيَّ كليهما سرعان ما بدأا يتضايقان من إقامتنا وأخذا يذكّران ايڤا مرارًا بأنها طالت أكثر مما ينبغي. أما إيڤا، الوحيدة وغير المقيّدة بالواجبات المنزلية ولا هي مضطرة إليها أصلاً، فكانت تستمتع بوجودنا على نحو بَيِّن. كان أبي وأمي من دعاة الفكرة القائلة إنه لا يجوز أن يكون المرء «ثقيلاً» بالمعنى العربيّ للكلمة، وهذا يعني عمليًا أنْ لا يقيم في ضيافة أحدٍ أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة، وأن يدعو خلالها مضيفيه إلى العشاء خارج البيت كلَّ مساء، ويُغْرِقَهم بكمياتٍ من الزهور والشوكولاتة، «مخفِّفاً» بذلك من عبئه عليهم.

ارتحلنا فجأةً إلى ماديسون في ولاية وسْكُونسِن، التي وُصِفتْ في عدد أخير من مجلة **ناشيونال جيوغرافيك** بأنها «ألطف» بلدة في الولايات المتحدة، وهو ما أثار غبطة أبي. أمضينا يومين في البلدة الجميلة، نزور برفقة وكلاء العقارات بيتًا مهيبًا تلو بيت مهيب آخر، ونتخيّل أنفسنا، نحن الثلاثةَ، في كل واحد منها وكأننا قد

سكنّاه: «هذا هو مكتب أمك» يقول أبي، مشيرًا إلى زاوية باهتة تَقْبع فيها، متكاسلةً، طاولةُ بريدج متخلِّعة. «هنا نستطيع وضع البيانو»، تقول أمي بحماسٍ أخذ يتناقص مع مَرّ الساعات. جمعْنا عددًا كبيرًا من المنشورات الدعاوية ومن بطاقات التعريف ما لبث أبي أن رماها كلها، بحركة فروسية، في سلة المهملات في الفندق ذلك المساء. كان ثمة أمر متفارقٌ وخفيٌّ في بحثنا عن البيوت في ماديسون، على أنني وأمي جارينا أبي في لعبته، مع أني لم أفقه أبدًا أيَّ تخييل مثّلْته ماديسون بالنسبة إليه، خلا كونها فرصةً للمجيء إلى الولايات المتحدة، مثلما فعلتُ أنا، وللاستقرار فيها، رغم من أنه قد حقّق مقدارًا من الثبات في حياته الزوجية، ورغم أنّ تجارته مزدهرة ويعيش حياة زاخرة في مصر كما في لبنان. وكان يقول دائمًا، وغالبًا ما تردده أمي مِنْ بعده، إنه لو كان أصغر بعشرين سنة، بعيْد الحرب العالمية الثانية، لأقام في الولايات المتحدة. كان قد بلغ السادسة والخمسين عندما قصدنا ماديسون، ولكني أعلم أنّ اهتمامه بالولايات المتحدة هو من قبيلِ الوطنية النظرية، من جهة، وهو ناجم، من جهة اخرى، عن الانتعاش الذي يَشْعر به عندما يكون خارج قبضة عائلته، ثم إنه، أخيرًا، تعبيرٌ عن رغبته في إشعاري بأنه يتيح لي أعظمَ فرصةٍ في حياتي وبأنّ كآبتي المتأصلة وفزعي مما هو آت سوف يتبددان مع مرّ الوقت. فهو يكنّ كرهًا إيديولوجيًا للنزعة العواطفية، التي تتمثل بالأثر المشؤوم لِلَحاجة أمِّهِ التي كانت تطالبه بالعودة إلى الوطن، وتتمثَّل أيضًا بتصرُّف أمي تجاهي قبيْل سفرنا.

عدنا إلى نيويورك عبر خط سكة حديد ميلووكي وطائرة تي. دوبل يو. آي. من مطار مِدْواي. ووجدنا أنفسنا أخيرًا، في اليوم الذي تلا عيد العمال، على متن قطار يغادر محطة غراند سَنترال باتجاه ماونت هيرمون. القسم الوحيد الذي لا يزال عالقًا في ذهني من الرحلة الطويلة على قطار وايت ريڤر جانكشن هو وصولُنا إلى محطة ماساتشوستس الصغيرة جدًا والريفية حصرًا، حيث كانت تنتظرنا سيارةُ تاكسي وحيدة أَقلَّتنا الأميالَ القليلةَ المتبقيةَ للوصول إلى المدرسة. لم نكد نمكث ساعة معًا، لأنّ والدَيَّ كانا مضطريْن للحاق بالقطار العائد إلى نيويورك. وعندما عثرنا على غرفتي، وانفَرَدَ أهلي بمقابلة قصيرة مع المدير، أمضت أمي ربع ساعة تساعدني على تفريغ أمتعتي وترتيب سريري (وكان شريكي المجهول في الغرفة قد

استقرّ فيها ورتّب أغراضه بعناية). ثم غادرا بسرعة وتركاني وفي حلقي غصةٌ، عند مدخل مبنى السكن المهيب، كروسلاي هُول، وتواريا عن الأنظار. لقّني فورًا فراغٌ لا يطاق، ضاعَفَ منه إدراكي أنه سوف يلازمني طوال العام الدراسيّ في ماونت هيرمون. ولكنني كنتُ أعلم أيضًا أنّ عليّ أن أعود إلى غرفتي علّني أستعيد شيئًا من حضورِ أمي الحديثِ فيها: شميمَها، آثارَ يديها، وربما حتى رسالةً منها.

ولما عدتُ إلى غرفتي وجدتُ فيها صبيًا أشقر، أزرق العينين، في مثل عمري، يرحّب بي بلطافة: «هاي. أنا شريكك في الغرفة، بوب سالزبوري»، مفوِّتًا عليّ فرصة استعادة بعضٍ من الهالة التي خلّفها حضورُ أمي فيها، فأيقنتُ حينها أني قد وصلتُ فعلاً إلى المدرسة.

تأسستْ مدرسة ماونت هيرمون، وهي أكبر من ڤكتوريا كولدج، على يد الإنجيليّ دوايت إل. مودي في أواخر القرن الثامن عشر. وهي الرديف الذكوريّ لـ«معهد نورثفيلد للشابات». المدرستان منفصلتان، رغم كونهما فرعين لمؤسسة واحدة، وتشغلان عدة آلاف من الإيكرات على ضفتَيْ نهر كونيتيكات، يصل بينهما طريقٌ من ستة أميال وجسرٌ. على أنّ ماونت هيرمون، خلافًا لنورثفيلد، ليست جزءًا من بلدة أو قرية وإنما هي قائمة بذاتها ومكتفية ذاتيًا تمامًا. يسكن المعلمون العازبون مع الطلبة في دُورهم، وأما المتزوجون فلهم بيوتهم الصغيرة المتناثرة عبر أرجاء الحَرَم المدرسيّ. ومع أنها موقع من مواقع نيو إنغلاند يُعتبر جميلاً ووريقًا وكثير التلال ومحافَظًا عليه على نحو ممتاز - إذا نظرتَ إلى الأمر من منظار المَشاهد الطبيعية التقليدية كما تراها في ألبومات الصُوَر - فقد وجدتُها منفِّرةً ومقفرةً إجمالاً. لم تكن جمالات الطبيعة تعني لي الكثير، على أنها لم تكن تثير الانتباه في ماونت هيرمون بل هي مطموسة إلى حد كبير.

كروسلاي هُول، أكبر عمارات الحرم المدرسيّ، مبنى قرميديّ مستطيل وشاهق، شُيّد في العهد الڤيكتوريّ، وكان يمكنه ان يكون مصنعًا بدلاً من مدرسة. سكنتُ وسالزبوري في الطابق الثاني. وفي الطابق الأرضيّ، تقع دورات المياه والحمامات، وهي صفٌ مفتوح، كلُ مستحِمٍّ فيه مكشوفٌ أمام الآخر. وكان يتعيّن على كل تلميذ أن يمارس العمل اليدويّ خلال عشر ساعات أو اثنتيْ عشرة ساعة في الأسبوع، بناءً على تعاليم الدكتور مودي الراميةِ إلى غرس «كرامة العمل

اليدويّ» في نفوسنا – والاستشهادات من أقواله تشكّل المثيل المبكر لكتاب ماو تسي تونغ الأحمر الصغير. فكُلِّفتُ وأربعةَ صبيةٍ آخرين باقتلاع «عيون» حبّات البطاطس. ونظراً إلى الكميّة المطلوب معالجتها كلَّ مساء، كانت المهمة تستغرق ساعة وثلاثة أرباع الساعة على الأقل، نعمل خلالها بلا انقطاع، ونغنّي ونُطْلق النكات، وفيما عدا ذلك، نتفرّغ كليّاً لعملنا الذي يبدأ بعد الفطور، في تمام السابعة والربع، وينتهي في التاسعة، قبل أن يحين موعد درسنا الأول. الناظر إيدي بيني رقيب سابق في الجيش، وهو رجل قصيرٌ، مربوع القامة، في منتصف العمر، عاملَنا بصفتنا مجنّدين متمردين، كيْ لا أقول عاجزين، ينبغي الاستبدادُ بهم على الدوام.

ولم يكن الروتين اليوميّ صارمًا وحسب وإنما طويلاً وتكراريًا أيضًا، لا يخفِّف منه أيٌّ من التسليات المدينية التي اعتدتُ عليها في القاهرة. وماونت هيرمون مزوّدة بمكتب بريد، ومتجرٍ يفتح بضع ساعات في اليوم وتستطيع منه شراء معجون الأسنان والبطاقات البريدية والطوابع والحلويات وقلةٍ مختارة من الكتب. تدوم الصفوف حتى الظهر. وتُفتتح جميعُ الوجبات بصلاة الشكر، والغداءُ تعقبه الإعلاناتُ عن الأحداث الرياضية واجتماعات النوادي. وعند الواحدة، نأخذ استراحة لساعتين نمارس خلالها الألعاب الرياضية.

تُستأنف حصصُ الدراسة بين الرابعة والسادسة بعد الظهر. وتلي العشاءَ مباشرةً استراحةٌ قصيرةٌ للنشاطات المختلفة. ثم نُودَع (والأَحرى القول «نُحبس») في غرفنا بين الثامنة والعاشرة والربع، لساعتين وربع الساعة تُخصَّص للمذاكرة، يراقبنا خلالها خُفراءُ الطوابق، وهم تلامذة رُفِّعوا إلى ذلك الموقع لا بسبب الأقدمية أو الإنجاز الأكاديميّ وإنما لأسباب غامضة تتعلق بـ«القيادة»، وهي كلمة سمعتُها لأول مرة في ماونت هيرمون. الكلام ممنوع خلال المذاكرة. وفي العاشرة والربع يُسمح لنا باستراحة ربع ساعة لدورات المياه وتنظيف الأسنان، ثم تطفأ الأنوار ويسود الصمت.

خلال الفصل الدراسيّ، يُسمَح لكل تلميذ ببعد ظهر يومَيْ سبت للذهاب إلى غرينفيلد، وهي بلدة صغيرة بائسة تقع على مسافة حوالى عشرة أميال من المدرسة. وفيما عدا ذلك، نظلّ محبوسين في نظام ماونت هيرمون المطبِق الخانق لثلاثة أشهر كاملة، باستثناء ما يتيسّر من الرحلات التي تنظِّمها الفرقُ الرياضية. المكالمات

الهاتفية صعبة ونادرة. اتصل بي أهلي مرةً واحدة من نيويورك قبل عودتهما إلى القاهرة ليعلنا: «نعتقد، نحن والدكتور روبندال، أنه يجدر بك أن تُعيد سنةَ الجونيور، مع أنك قد نجحتَ عمليًا في الصف الخامس الأعلى». جاء أبي على الخط وقال: «إذا تخرجتَ في الربيع القادم، ستكون في السادسة عشرة، وهذه سن صغيرة جدًا لدخول الجامعة. لذا يجب أن تبقى في تلك المدرسة...» - كان ينسى اسمها دائمًا - «... لسنتين. أنت ولد محظوظ!». وأردف بحبور خالٍ من السخرية: «ليت لي حظَّك». أعرف أنه كان يعني ما يقول، على الرغم من أني أدركتُ أنه، بصفته رجلاً كافح كثيرًا في مطلع حياته، يشعر أيضًا بشيء من الامتعاض من الحياة الزاخرة بالامتيازات التي يوفّرها لي. فتذكرتُ الصدمة التي أصابتني قبل أسابيع في لندن حيث أنزلَ العائلةَ وابنَ عمي ألبرت في غرف فندق ساڤوي وأجنحته دون أن يَبْخل بأيّ مصروف. كان يأخذنا إلى المطاعم المترفة والمسارح أو الحفلات الموسيقية كلَّ ليلة (بما في ذلك حضورُ أكثر الكوميديات الموسيقية التي شاهدتُها في حياتي تشبُّثًا بالذاكرة، «قبّليني يا كايت»، من تمثيل ألفرد درايك وپاتريسيا موريسون، وعرضٍ رائع للمسرحية الغنائية «باخرة جلالة الملك: پينافور» من تمثيل مارتين غرين على مسرح ساڤوي). ومع ذلك، فقد أنّبني غاضبًا لأني أنفقتُ ستة بِنسات على شراء برنامج مسرحيّ: «هل تظن نفسك ابن رجل ثريّ لتبذير المال على هذا النحو؟»، قال بقسوة. وعندما التفتُّ نحو أمي طلبًا للعون والمواساة، شرحتْ لي الأمر قائلة: «لقد تعب كثيرًا من الشغل أيام شبابه»، فأخرستْني وعابتْني، فعجزتُ عن أن أشير إلى المفارقة بين غضبه لإنفاقي ستة بِنْسات وبين المصاريف الباهظة التي أنفقها بلا حساب في الفنادق والمطاعم الفخمة.

«وداعًا، يا حبيبي. إذا شعرتَ بالاكتئاب»، أنهت أمي المكالمة بنبرة حماسية، «حاولْ ألاّ تبقى وحيدًا. جِدْ لك أحدًا وأجلسْ معه». ثم بدأ صوتها يرتجف على نحو مؤرِّق: «وفكِّرْ فيَّ، وفي مدى شوقي إليك». فازداد الفراغ من حولي. «يقول دادي إنّ علينا أن نغادر. أحبك، يا حبيبي». ثم لا شيء. أَذْكر أني تساءلتُ في سرّي: لماذا أبعدوني كل هذه المسافة إلى هذا المكان المروّع المهجور؟ فبدَّد أفكاري صوتٌ أجشّ له نبرةُ أهالي نيو إنغلاند، هو صوت مستر فرِد ماك ڤاي، أستاذ اللغة الفرنسية، الذي تلقّيتُ للتوّ مكالمة أهلي في شقته الصغيرة في مبنى كروسلاي. «اوكي؟»

سألني باقتضاب كأنما ليقول: اذا كنتَ أنهيت المكالمة، فالرجاء العودة الى غرفتك. وهذا ما فعلتُه، وقد هبط عليَّ الإدراك أنَّ المكان لا يحتمل الاتصالات المتباطئة والعاطفية، وإنما فقط مبادلات قاطعة ومختصرة تعني ما تقوله. ولكني اكتشفتُ أنّ تلك المبادلات لا تقل تشفيرًا وتعقيدًا، على طريقتها الخاصة، عن نوع الاتصالات التي يُفترَض أني خلّفتُها ورائي في الوطن.

في اليوم التالي، تجولّتُ في أرجاء المكان لمقابلة مستر إدموند ألِكزاندر، مدرّب التنِس وأستاذِ اللغة الإنكليزية. فعلاوةً على الدكتور روبِندال، كان «نيد» ألكزاندر صلتي الأخرى الوحيدة بالقاهرة في ماونت هيرمون. حدّثني عنه فريدي معلوف، وهو صديق مقرّب للعائلة كان زميل دراسة لـ«نيد». الكزاندر الصغير الأسمر النحيل الذي يرتدي كنزة تنِس من الصوف الأبيض لم يُبدِ أية حفاوة تجاهي على الإطلاق. تواجهنا عبر سيارة ستيشن واغن صفراء داكنة متوقفة في الطريق المؤدي إلى بيته الخشبيّ الكبير. «نعم؟» سأل بفظاظة. «أنا من القاهرة»، قلتُ بحماس، «وقد أَصرّ فريدي معلوف أن أبحث عنك وأُبلغك تحياته». لم ينفرج غَضَنٌ واحد من تعبيره الجِلديّ الصارم: «آه، نعم، فريدي معلوف»، هو كل ما قاله، دون إضافة أيّ تعليق. لم أرعوِ، بل انتقلتُ إلى العربية ظنًا مني أنّ لغتنا الأم قد تَفْتح سبيلاً أرحب للتواصل بيننا. فإذا النتيجة عكسية. فقد قاطعني في منتصف عبارتي رافعًا يده اليمين: «لا، يا أخي» – فكّرتُ بيني وبين نفسي: هذه عبارة عربية صرفة، مع أنه نطق بها بالإنكليزية – «لا نتكلّم اللغة العربية هنا. لقد خلّفتُ كل هذا ورائي. نحن هنا أميركيون» – وهذا تعبير عربيّ آخر، بدلاً من أن يقول «إننا في أميركا، الآن» – «يتوجب علينا أن نتحدث وأن نتصرّف مثل الأميركيين».

كان الأمر أسوأ مما تصوّرتُه. كل ما كنتُ أسعى إليه هو اتصال ودّي صادر عن الوطن، يَخْرق نسيج الوحدة والفراق الشاسع الذي يلفّني. ولم يقتصر الأمر على انعدام الودّ في موقف الكزاندر، وإنما ناصبني العداء أيضًا. فقد صنّفني فوراً في فريق الاحتياط لمنتخَب المدرسة في التنِس، وهو ما عنى أسابيعَ من مباريات التحدي التي تهدف إلى حماية المنتخَب من القادمين حديثًا. وعند انتهاء تلك المباريات، مع أول هطول للثلوج في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر، جرى تكريسي – ظلمًا، على ما اعتقدتُ – عضوًا في فريق الاحتياط للمنتخَب المدرسيّ. ثم لم يكن لي

أيّ تعاطٍ مع الكزاندر خلال عام كامل، كنتُ خلاله أشاهده مع زوجته، وهي ابنةُ كبيرِ المزارعين في الأراضي التابعة لماونت هيرمون، يتجولان في أرجاء الحرم المدرسيّ، في سيارتهما الستايشن واغن، وهو يبدو أميركيًا قدر ما يستطيع المرءُ أن يكونه. وصار المسؤول عني المدرِّب الإنكليزيّ لفريق الاحتياط وأستاذ التاريخ الأميركيّ، هيو سِيلك، الذي جابهتُ «تدريباته» بكل ما هو ضامر لديّ من مشاعر العداء للإنكليز. وعلى الرغم من فوزي بالمرتبة الأولى، فقد أبقاني في المرتبة الثانية، لأني، حسبما قال لي ذات مرة مؤنِّباً، لستُ أهلاً لأن أكون في المرتبة الأولى. فكثرة حركاتي، واعتراضاتي، وسوراتي المزاجية، تُبرهِن أني لستُ «رصينًا بما فيه الكفاية» على حد تعبيره.

أكّد سلوك الكزاندر حصافةَ تحذير أبي القائل بضرورة تحاشي العرب في الولايات المتحدة: «لن يقدِّموا لك أيّ خدمة أبدًا، بل سوف يعملون دومًا على شدّك إلى أسفل». وقد مثّل لي على ذلك بأَنْ بَسَط يديَه ثم أنزلهما إلى مَقربة من الأرضية. «لن ينفكوا يشكلّون عائقًا أمامك. لم يحافظوا على ما هو إيجابيّ في الثقافة العربية، ولا هم يُبْدون أيّ تضامن واحدهم تجاه الآخر». لم يعطِ أية أمثلة، ولكنّ الصورة التخطيطية التي رسمها بيديه والنبرةَ الجازمة لقوله أوحتا بأنْ لا استثناء أو تلوين لتلك القاعدة. ومهما يكن من أمر، فقد تبيّن أنّ ردة فعل ألكزاندر على مبادرتي المتواضعة ونهجَ سيلك التأديبيّ الذي يَعْتمد القبضة الحديدية المغلّفة بالقفّاز المخمليّ شكلان من أشكال الضغط المعنويّ أخبثُ من ذلك الذي واجهتُه في مدارسي المصرية أو الفلسطينية. ففي تلك المدارس، تَعْرف علىَ الأقل أنهم أعداؤك. أما في هيرمون، فالعُملة الدارجة هي «القيم العامة أو المشتركة»، والحرصُ على التلامذة والعناية بهم، والاهتمامُ بمجرَّداتٍ من مثل «القيادة» أو «المواطَنة الصالحة» وعبارات التشجيع والنصح والمديح التي تُقدَّم بطريقة نيّقة لم أكن لأحلم بها في ڤكتوريا كولدج حيث الحرب هي السمة الأساسية للحياة اليومية ولا يلطِّف منها ما يقدّمه الأساتذة ولا ما نرتضيه، نحن التلامذةَ. أما التقييم في الولايات المتحدة فكان مستدامًا، لكنه يتوارى خلف نسيج سميك ومُضنٍ من الكلمات والعبارات المعسولة التي تتكئ كلها في نهاية المطاف على السلطة المعنوية للأساتذة الذين لا يأتيهم الباطل من أمام ولا من وراء.

كذلك تعلمتُ أنكَ لن تعرف أبدًا لماذا، وعلى أيّ أساس، يجري الحكمُ عليك بأنك غير صالح لاحتلال موقع أو لعبِ دورٍ ما، كما حصل معي، مع أنّ المؤشرات الموضوعية نسبيًا، مثل العلامات والنقاط أو الانتصارات في المباريات، تؤهلك لذلك. فخلال دراستي في ماونت هيرمون، لم أعيَّنْ مرةً خفيرَ طابقٍ أو رئيسَ مائدةٍ أو عضوًا في مجلس الطلبة أو الأولَ، أو حتى الثانيَ، في الصف، مع أني كنتُ جديرًا بذلك، وذلك لأسباب لم أعرفها قط. فسرعان ما اكتشفتُ ضرورة الاحتراس من السلطة وحاجتي إلى بلورة آليةٍ ما أو اندفاع معيّن حتى لا أفقد الأمل بسببِ ما اعتبرتُه جهودًا مبذولة لإسكاتي أو حرفي عن أن أكون مَنْ أنا لأصير مَنْ يريدونني أن أكون. وأثناء ذلك، بدأتُ نضالاً سوف يستمر طوال حياتي لفضح الانحياز والخبث الكامنيْن في السلطة التي تعتمد في مصادر قوتها اعتمادًا مطلقًا على صورتها الايديولوجية عن ذاتها بوصفها فاعلاً أخلاقيًا يتصرّف بقصد شريف وبنوايا لا يَرْقى إليها الشك. وفي نظري أنّ ظلم السلطات إنما يعتمد بالدرجة الأولى على صلاحياتها في أن تغيّر قواعد حكمها. فقد تجدك كامل الأوصاف في يوم، وتصير جانحًا أخلاقيًا في اليوم التالي، على الرغم من أنّ سلوكك لم يتغيّر قيد شعرة. فمثلاً، نهانا سِيلك وألكزاندر عن قول اللياقات من مثل «ضربة موفقة!» لخصومنا في مباريات التِنِس. «لا تقدِّموا لهم شيئًا ولا تتنازلوا لهم عن أيّ شيء أبدًا. أَرهِقوا خصومكم بإجبارهم على بذل الجهود الإضافية». لكني أذكر أنه انتحى بي جانبًا، خلال مباراة محشورة ضد معهد ويليستون، وأنّبني لأني أَجبرتُ خصمي على التقاط كرة ربما كانت أقرب إليّ منها إليه. فقال لي: «كان باستطاعتك أن تخطو خطوة إضافية...»، وهو ما أثار حنقي الصامت على قواعد الحُكم المتغيِّرة التي يعتمدها. غير أنّ مواجهاتي مع السلطات المنافقة في ماونت هيرمون بلورتْ لديَّ إرادةً مستعادة، لا علاقة لها البتة بـ«إدوارد» السابق، وإنما هي إرادة تتكئ إلى الهوية المتكوِّنة ببطء لذاتي الأخرى، ذاتي الجوّانية.

سرعان ما اتضح لي، في حنيني إلى الوطن الذي يتوّهني، ضرورة أن أتعاطى مع الروتين اليوميّ لماونت هيرمون بالاتكال على نفسي، خلا النصائح التي تصلني بالبريد في رسائل أمي الأسبوعية. من الناحية المدرسية، كان المسار ميسّرًا نسبيًا وأحيانًا مسليًا حقًا. ففي حين لم يكن لدينا غير المادة الجافة نعالجها في

ڤكتوريا كولدج، ولم يكن أيُّ جزء منها مجمَّلاً أو معلَّبًا، فإنّ معظم المواد في ماونت هيرمون كانت محضّرة بواسطة تعليمات متقنة ومبسّطة. وهكذا قادنا مستر جاك بولدوين، أستاذ اللغة الإنكليزية النشيط والواضح التعبير (وهو أيضًا مدرّب الغُولف) خلال شهر كامل من قراءة مسرحية «ماكبث» وتحليلها عبر دراسات دقيقة للشخصيات والدوافع وطرائق الإلقاء واللغة الاصطلاحية ونمط الحبكة، ثم أعاد تقسيم تلك العناصر إلى عناوين وخطوات ومسارات فرعية أدى تراكمُها إلى ملء دفتر ملاحظات كامل بالمقالات القصيرة يتوِّج كلاً منها مقطعٌ تلخيصيٌّ أو مقطعان حول معنى المسرحية. وهو نظام كان أكثر عقلانية وتفكّرًا، على الإجمال، مما عهدناه في المدارس السابقة. فحفزني على النشاط وتحدّاني، خصوصًا بالمقارنة مع الأسلوب الأنكلو-مصريّ في دراسة النصوص الأدبية حيث كان كلّ ما يُطلب منا هو تقديم الأجوبة «الصحيحة»، بالمعنى الأضيق للكلمة.

خلال الأسابيع الأولى عَيَّنَ لنا بولدوين عنوانًا لبحثٍ من نوع لا يبشّر بالخير إطلاقًا: «في إشعال عُود كبريت». فقصدتُ المكتبة بشعور رفيع بالواجب، ورحتُ أراجع الموسوعات وتواريخَ الصناعة وأدلةَ المواد الكيماوية بحثًا عمّا تكونه أعواد الكبريت. ثم لخّصتُ ودوّنتُ، بانتظام شديد، ما وجدتُه، وقدّمتُ البحث وأنا فخور جدًا بما جمّعته. فطلب بولدين للتوّ أنْ أجيء لمقابلته خلال ساعات دوامه في المكتب، وذلك مفهوم جديد كليًا بالنسبة إليّ، إذ إنّ الأساتذة في ڤكتوريا كولدج لم تكن لهم مكاتبُ أصلاً، ناهيك عن ساعات دوام. كان مكتبًا صغيرًا فرحًا تغطي جدرانَه البطاقاتُ البريدية، وإذ جلسنا متجاوريْن على كرسيّيْن مريحين، هنأني على بحثي. «ولكنْ هل هذه هي الطريقة الأكثر إثارةً لدراسةِ ما يَحْصل عندما يُشعل المرءُ عودَ كبريت؟ ماذا لو سعى لإشعال حريق في غابة، أو إضاءة شمعة في قبو، أو، اصطلاحيًا، إضاءة ظلمات لغز مثل لغز الجاذبية، كما فعل نيوتن؟». لأول مرة في حياتي شرّع لي أستاذٌ آفاقَ موضوع بحثي بطريقة استجبتُ لها فورًا وبحماس. فاستيقظ لديّ كلُّ ما كان سابقًا مقموعًا ومخنوقًا في الدراسة الاكاديمية - مقموعًا بحيث تأتي الأجوبة المجتهدة والصحيحة تلبيةً لبرنامجٍ دراسيّ منمّط وامتحانٍ روتينيّ مصمَّم أصلاً لاستظهار قدرات الحفظ عند التلامذة، لا مقدرتهم على النقد أو التخيّل. وإذا مسار الاكتشاف الفكريّ المعقد (واكتشافُ الذات أيضًا) لم يتوقف

منذ ذلك الحين. ولأني، في البيت أو في ماونت هيرمون على الأقل، لم أكن خارج مكاني من جميع النواحي، فقد حفزني ذلك على البحث عن مداي الخاص، إنْ لم يكن على الصعيد الاجتماعيّ، فعلى الصعيد الفكريّ، على الأقلّ.

وفّرتْ لي غرفةُ المطالعة في الطابق الأرضيّ من المكتبة مَهْرباً من الروتين اليوميّ، وهو غالبًا لا يطاق. فقد كانت تضم جهازَ إدارة الأسطوانات (كانت اسطوانات الـ ٣٣ دورة في الدقيقة قد نزلتْ حديثًا إلى السوق) ورفوفًا عدةً من الروايات والأبحاث والترجمات. أصغيتُ وأعدتُ الإصغاء المرةَ تلو الأخرى إلى ألبوم كبير من ثلاث أسطوانات لـ«زواج فيغارو» بقيادة ڤون كارايان، يؤدي فيه إيريش كونز، وإليزابيث شوارتزكوپف وجورج لندن، وإرمغارد سيفريد. وقرأتُ بإثارة عظيمة بعض المسلسلات العديدة من كلاسيكيات الأدب الأميركيّ (مثل **حكايات الجَوْرب الجِلديّ** لكوپر ورحلات توين وروايته، وقصص هوثورن وپو) لأنها كشفتْ لي عالمًا كاملاً موازيًا للعالم الأنكلو-مصريّ الذي كنتُ منغمساً فيه خلال إقامتي القاهرية.

على أنّ الفتح الكبير الذي حققتُه كان في الموسيقى التي تحتلّ موقعًا هامًا في البرنامج الدراسيّ، جنبًا إلى جنب مع الدين. وسعيتُ للانضمام إلى كورس الكنيسة بمثل سعيي لعضوية نادي الطرب، وهو نادٍ علمانيّ تمامًا. كان علينا جميعًا حضورُ القدّاس أربع مرات في الأسبوع (بما فيها يوم الأحد) حيث عازف الأُرغُن، المدعوّ كارلتون لْهُومْديو، يعزف مقدمةً وخاتمةً غالبًا ما تكونان متينتين، عادةً لباخ، وأحيانًا لمؤلفينِ أميركيين من الدرجة الثانية أمثال جون نولز پاين وجورج شادويك. وخلال أحد القداديس الأولى، وجدتُني أندفع غريزيًا للتحدث الى لْهُومّي، كما يسميه الجميع في غفلةٍ عنه، طالبًا منه إعطائي دروسًا خصوصية في البيانو. لقد قضت سنواتي المبدَّدة في ڤكتوريا كولدج على حرفة عزف البيانو لديّ، غير أنّ الإصغاء إلى الأسطوانات وإلى عزف لْهُومِّي ألهمني البدءَ من جديد.

لا يتعدى لْهُومّي خمسَ أقدام وثمانية إنشات طولاً، وهو نحيل إلى درجة أنه أشبه بجثة، يهوى ربطات العنق المتصالبة والقمصان المخططة، وهو متأنّق باستمرار (لم يشاهده أحدٌ دون ربطة عنق أو مرتديًا الشُورط)، يمشي مشية متكلّفة ومحيّرة، غالبًا ما يمدّ يديه النحليتين والرقيقتين جدًا إلى أمام (مثل الأرنب) وهو يخطف الخطو برشاقة. لكنه عندما يجلس على الأرغن يكتسب شخصية واثقة من نفسها

إلى أبعد الحدود، بل سلطوية. وأنا مَدين له بأخذي على محمل الجدّ وعدم نفاد صبره مني مرةً واحدةً بما أنا عازف بيانو. ومع ذلك، كان لْهُومّي نموذجًا لذلك النوع من المعلّمين الحذِرين والمدّعين معظم الأحيان، الذين يحاولون دومًا شدّ التلميذ إلى الخلف. ومهما يكن من أَمرِ أسلوبه التعليميّ، فإنّ عزفه الرائع ودروسه في تاريخ الموسيقى ملأتني بالحماس. ولم يمضِ وقت طويل، حتى استغرقتني الموسيقى بالكامل، علماً وممارسةً. فلأول مرة في حياتي، أخذتُ أصغي إليها وأعزفها وأقرأها وأقرأ عنها بانتظام (في **قاموس غروف للموسيقى والموسيقيين** الموجود في المكتبة) ولا أزال على هذه الحال منذ ذلك الحين. وأُدرك الآن كم كنتُ بحاجة إلى شخص من نمط لْهُومْديو لأمارس ردود فعلي ضده، شخصًا تمنحه مؤهلاتُه الحقَّ في إطلاق الأحكام عليّ بهذا القدر أو ذاك من «التوازن» (بديلاً من الأحكام الحماسية الجامحة). لم تتطابق آراؤنا إلا فيما ندر، ولكنّ أقل ما يقال إنه كانت له أذنُ وكيلِ أعمالٍ قاسٍ يحثّني حثّاً على المضيّ في طريقي، وضد طريقه هو، ويلْجمني دائمًا كما في عبارته الفائقة التهذيب مثلاً: «آه، نعم، ممتاز! يا إد. ولكنْ ألا تعتقد أنّ عليك أن تعالج التردّد في عزفك المقطعَ الإفتتاحيّ؟»، تعليقًا على عزفي الغافوتية[1] في المتتالية الإنكليزية لباخ على مقام جي الادنى، بوتيرة خفيضة بعض الشيء. وأذكر أني كنتُ أتمرّن على الغافوتية في أصيل يوم أحد قائظ ورطب، والنوافذُ مشرّعة، وبعد تدقيقات جمّة في هنات صغيرة اكتشفها أستاذي في عزفي، قررتُ أن أتفلّت من كل القيود وأن أعزف المقطوعة بشغف كما أحسّها، من أولها إلى آخرها. في تلك اللحظة، مرّ لْهُومّي ومستر ميرتز، أستاذ اللغة الإنكليزية المسنّ، من تحت نافذتي فسمعا العزف وشاهداني طبعًا. «هيه، هذا عظيم، يا إد»، كان تعليق ميرتز غير المتحفّظ، فيما صدر عن لْهُوميّ «اوه، اوه»» هو رد فعله الاعتراضيّ إلى حدٍ ما. فواصلتُ العزف باندفاع أكبر. وأذكر أنه في لقائنا التالي انتقلنا فجأةً من باخ إلى سوناتا رنّانة وثانوية الأهمية (حسب رأيي) لهايدِن على مقام سي الأعلى، قائلاً: «ادّاها سولومون، أمهر عازف بيانو بريطانيّ، في حفلته الأخيرة». وهكذا كان الأمر: سولومون تَبَعَةُ في مقابل رُوبِنشتاين تَبَعي.

---

١ ـ مقطع من الموسيقى الريفية الراقصة. (م)

ومهما يكن، فإنّ الخشونة البالغة لحياتي اليومية في المدرسة الداخلية الحاوية ستمئة تلميذ لم تكن رضيةً بل كانت أحيانًا لا تطاق. فما من خلفية ثقافية للصداقات من النوع التي اختبرتُها في ڤكتوريا كولدج. صحيح أنّ بوب سالزبوري (وهو أدنى مني بصف واحد) شريكي في غرفة النوم لكننا لم نكن مرة حميمَيْن، اللهم إلا بالمعنى السطحيّ للكلمة. وكنتُ أشعر بأنّ الأميركيين يفتقرون إلى العمق أو راحة البال، وأنهم لا يملكون غير روح نكتة سطحية ورواية النوادر المضحكة عن أعضاء الفرق الرياضية، وهو ما لم يُرْضني قطّ. وكان يساورني شعورٌ دائم بأنّ ما أفتقده في صحبة مجايليّ الأميركيين هو استخدامُ لغاتٍ أخرى، والعربية خصوصًا، تلك اللغة التي أعيش وأفكر وأحسّ فيها، جنبًا إلى جنب مع الإنكليزية. ثم إنّ الأميركيين بدوا لي أقل شغفًا وحماسًا عند تعبيرهم عن مواقفم وردود أفعالهم. وهذه جميعها وليدةُ طاقةِ المجانسة الاستثنائية التي تَمْلكها الحياةُ الأميركية حيث تتماثل البرامجُ التلفزيونية والملابسُ وتسود الوحدانيةُ الإيديولوجية في الأفلام والصحف ومسلسلات الكومِكس، وغيرها، فتحِدّ من التفاعل المركّب للحياة اليومية وتحطّ بها إلى حدها الأدنى الطائش حيث ينعدم دَوْرُ الذاكرة. وفي المقابل، كنتُ أشعر بأني مثقلٌ حدَّ التخمة بالذكريات. أما خيرة أصدقائي في ماونت هيرمون فكانوا من المهاجرين الحديثين أمثال غوتفريد بريغر، التلميذ الألمانيّ اللاذع السخرية، ونِيْل شيهان، الأخرق اجتماعيًا ولكن الفضوليّ فكريًا.

كانت ايديولوجية دي. إل. مُودي تهيمن على المدرسة وتخفّض من مستواها كمدرسة من الدرجة الأولى، حسبما تدّعي. ثمة معزوفة «كرامة العمل اليدويّ» التي ألفيتُها سخيفةً إلى أبعد الحدود. وبدا لي أنّ ثمة تسليمًا أعمى بأهمية مودي الاستثنائية، فكان ذلك أول لقاء لي بالتخدير الجمعيّ الحماسيّ الذي يمارسه دجّال. ذلك أنه باستثناء تلميذين، لم يكن من أستاذ أو تلميذ يعبّر عن أدنى شك في أنّ مُودي جديرٌ بأرقى درجات الإعجاب. والمنشقّ الآخر هو جيف بْرِيغر الذي حاصرني ذاتَ مرةٍ في غرفة المطالعة قائلاً بالفرنسية: «لكنه مُقرِف» في إشارة إلى واحد من الأبحاث التبجيلية العديدة التي كان علينا أن نقرأها عنه.

وينطبق الحكمُ نفسُه على الدِّين – في قدّاس الأحد والقدّاس المسائيّ يوم الأربعاء وخطبة ظهر يوم الخميس – فقد كان مروّعًا، ومتكلّفًا في تقواه، من غير ما

تخـصـيص لمذهب مـعين (كـرهتُ هذا اللون من الذبذبة خـصـوصًـا) يعجّ بالمواعظ والنصائح والإرشـادات عن كيفية عيشك لحياتك. وكانت الملاحظات العـادية مشفّرة في لغة مسيحية راسـخة، على طريقة مودي، حيث تكتسب مفرداتٌ مثل «الخدمة» و«العمل» دلالات سحرية (وإنْ لم تكن محددة، في نهاية المطاف) يتعيّن علينا ترديدُها وترنيمُها على اعتبار أنها تمنحنا «مبرّر وجودنا الأخلاقيّ». لم نـألف شيئًا من هذا في ڤكتوريا كولدج، وها نحن الآن متخمون به. ولكننا هنا لا نعرف الضرب ولا تنمُّرَ مساعِدِي الاساتذة كما في ڤكتوريا كولدج، فنحن كلنا أولاد هيرمون، ستمئة منا يسيرون إلى امام خلف راية مودي وصديقته الحميمة، إيرا سانكاي.

وكانت لي مشكلة مع الملابس أيضًا. هنا يرتدي الجميع الكوردروي والجينز وسترات الحطّابين والبوطات. أمـا أنا، فقد أخذني أبي في لندن إلى مؤسسة من النمط الذي تلقاه في قصص ديكنز، تقع إلى جوار فندق سـاڤوي وتدعى «خياطون بثلاثين شيلين». وهناك، اشترى لي بذلة رمادية داكنة جدًا. وحملتُ معي أيضًا زيّ ڤكتوريا كولدج الكامل، من سراويل رمادية وسترات رياضية وقمصان بيضاء وضّبتُها جميعها في حقيبتين ضخمتين من اللون البنّي الفاهي، ومعها مجموعة من الطوابع البريدية وألبومات الصور العائلية ورزمة متضخمة من رسائل أمي، أحافظ على كل منها بعناية فائقة. وقد اضطررتُ للكتابة إلى أهلي واستئذانهم تجهيزي بملابس أكثر ملاءمةً للوضع الجديد. وبحلول تشرين الأول/أكتوبر، أضحيتُ مثل سائر التلامذة تقريبًا، وإنْ يكن ليس تمامًا. واقتضى الأمر شهرًا إضافيًا لكي أتمكن من النظام التعليمي كليًا، وفوجئتُ في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر بأنني أُدهِشُ زملائي في الصف بإنجازاتي الفكرية. لست أدري إلى اليوم لماذا وكيف أحسنتُ الأداء، ولاسيما أني خالفتُ نصيحة أمي بأن لا أكون حزينًا أو وحيدًا، فكنتُهما معًا، منبوذًا من الجلسات الذكورية الطويلة في الـ«بلو كلاود» (غرفة التدخين ولعب البليار) ومن الشلل الصغيرة التي تتكون في كروسلاي أو تتحلّق حول الفِرَقِ الرياضية المختلفة. كنتُ أتشوّق للعودة إلى القاهرة، وأظل أحسب الفارق في الوقت من سبع ساعات بيننا وبينها (تاركًا الساعة المزودة بجهاز الإنذار قرب سريري بحسب توقيت القاهرة)، وأفتقد طعامَ أهلي القاهريّ خلال وجبات الأكل المدرسية، وهي نظام حماية غير مشهّية تبدأ بالدجاج «آلا كينغ» يوم الاثنين

وتنتهي بشرائح اللحم الباردة مع سَلَطة البطاطس، مساء الأحد. والأهم من ذلك كله أني كنتُ أفتقد أمي، وإذا كلُ رسالة من رسائلها تعمِّق جرحَ الهجران والفراق الذي ينزّ في داخلي. أحيانًا، أسحب حقيبة ضخمة من تحت السرير وأروح أقلّب في ألبومات الصور أو الرسائل ثم أروح أبكي بصمت، لكني أذكّر نفسي فورًا بأقوال أبي: «افرحْ، يا ولد، لا تكن مخنَّثًا. استقِمْ! شُدّ ظهرك إلى خلف، ظهرَك، ظهرَك».

اختبرتُ تغيّر الفصول غير المألوف من الخريف إلى الشتاء بفزع القادم من مناخ دافئ وجافٍ أساسًا. ولم أفلح في تجاوز نفوري من الثلج الذي شاهدتُه لأول مرة في عيد ميلادي السادس عشر، يوم الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥١. ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز عن أن أجد في الثلج ما يدعو إلى البهجة أو الإعجاب، مهما حاولتُ. فالثلج عندي ضَربٌ من ضروب الموت. على أنّ عذابي الأكبر كان معاناة الفراغ الاجتماعيّ الطاغي على بيئة ماونت هيرمون. فقد أمضيتُ كل حياتي في حاضرتين غنيتين مزدحمتين وكثيفتين بالآثار التاريخية هما القدس والقاهرة، وها أنا محروم من كل شيء خلا الغابات البدائية وبساتين التفاح ووادي نهر كونتيكات والتلال المجرّدة من تاريخها. أقرب البلدات إلينا، غرينفيلد، ترمز عندي، منذ زمن بعيد، إلى الوحشة القسرية لأميركا الوسطى.

من جهة ثانية، منحني عدد محدود من الأساتذة والتلامذة، إضافةً إلى مواد الأدب والموسيقى، لحظاتٍ من المتعة العظيمة، مع أنها كانت مشوبة عادةً بالشعور بالذنب. «لا تنسَ كم أفتقدكَ وكم أحبكَ، كل شيء حولي فارغ بسبب غيابك»، تكرز عليّ ذلك أمي عبر السنوات، فتُشعرني بأني لا أستطيع، بل لا يجوز لي، أن أشعر بالاطمئنان إلا إذا كانت معي، وأنّ إتياني عملاً أستسيغه في غيابها خيانةٌ خطيرة. وهذا ما مَحَضَ أيامي الأميركية إحساسًا بعدم الديمومة. وعلى الرغم من أني أمضيتُ ثلاثة أرباع السنة في الولايات المتحدة، فإنّ القاهرة كانت دائمًا هي المدينة التي تقترن في ذهني بالاستقرار.

كانت الحياة الاجتماعية التي تجيزها لنا المدرسة تنحصر بـ«معهد نورثفيلد للشابات» على بعد ستة أميال عبر النهر. هناك يُمْكننا لعبُ كرة القدم ومشاهدةُ الأفلام أو عقدُ مواعيد الرقص مع الفتيات أيام السبت فقط. ولما كنتُ تلميذًا جديدًا وخجولاً إلى حد مستبعد التصديق ومفتقرًا إلى التجارب الجنسية، فلم يكن لي أكثر

من التلصص على الآخرين يتماسكون بالأيدي ويتلامسون ويتباوسون ويتداعبون بشكل عام. وهي أمور بعيدة عني بُعدَ بلاد الصين، ذلك أنّ القاهرة لم توفّر لنا قطّ مثل ذلك الزنى المحلّل عمليًا (وقد صَوّر لي ذهني المكبوتُ المعانقةَ على أنها هي الزنى عينه). ولافتقاري إلى المعارف في نورثفيلد، كنتُ أسند الجدارَ أسبوعيًا هناك، برفقة بريغر وواحد أو اثنين من أمثالنا من النفوس المهجورة. وعندما قُدِّمتْ لي فتاة أو فتاتان، نادرًا ما كان الموعد الأول يعقبه موعدٌ ثانٍ. ولم أُحرز أيَّ نجاح، ولو كان محدودًا، مع الفتيات، إلا في عامي الثاني والأخير.

أحزنني كثيرًا أني، منذ مطلع كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١، صار الجميع يؤمركني بصفتي «إد سَئيد»، باستثناء بْرِيغر الذي ازددتُ تقديرًا لسخريته الطليقة وفكاهته المتعددة اللغات يومًا بعد يوم، فيما المزيد والمزيد من ماضيّ يتوارى وقد بَرَتْهُ ببطءٍ ولكنْ بثبات شكلياتُ الروتين الأميركيّ الناظم لأيامنا ولياليناً. حتى طوني غلوكلر، وهو معرفة قديمة نشأتْ في بيروت، حوّلته آلةُ التغيير تحويلاً. فقد كان يحادثني بالعربية والفرنسية، لكنه ما لبث أن أحجم عن ذلك وسرعان ما مضى كلٌّ منا في سبيله. ولحرماني من الأصدقاء المقرّبين، أخذتُ أشقّ طريقي بالنضال، ساعيًا، بنجاح متزايد، إلى التمسك بحساسية خاصة، بل إلى تنميتها، حساسيةٍ غرضُها مقاومةُ التسويد والسَوس الايديولوجيّ الأميركييْن وقد فعلا فِعْلَهما في العديد من زملائي في الصف.

لم يكن الشوق إلى القاهرة ما حفز مسيرتي لأني كنتُ لا أزال أتذكر بحدةٍ كبيرةٍ المفارقةَ التي لازمتني دائمًا هناك بصفتي اللاعربيَّ، والأميركيَّ اللاميركيَّ، وقارئَ الإنكليزية ومتكلِّمَها الذي يناضل ضد الإنكليز، أو بصفتي الابنَ الذي يُضرَب ويدلَّل في آن معًا. بديلاً من ذلك، شعرتُ بانبثاق قوة مستقلة جديدة وأنا أقطع بركة السباحة خمسين مرة خلال تمارين السباحة، ذراعاي كأنهما من معدن على أهبة التساقط من شدّة الإعياء، ونَفَسي يزداد ضيقًا، ورجلاي تتجرجران أكثر تثاقلاً من ذراعيّ، وأنا أضخّهما ضخًّا على نحو يائس. هي بذرة مكّنتني من التفكير بكيفية تحويلي «برميلَ نبيذ امونتييادو»[1] إلى سيناريو إذاعيّ لِصفّ بولدوين ، وكيف أَضبط الأصوات ومستوى جَهَارتها، وأين أُدخِل الموسيقى (وقد

١ ـ قصة للشاعر والقاص الأميركيّ إدغار الان پو (١٨٠٩ ـ ١٩٤٩). (م)

اخترتُ الحركة الثالثة من «موسيقى ليلية قصيرة» لموتزات لأني أريد أن يصغي المستمعون إلى إيقاع الرقص الكيِّس كخلفية لتضاؤل صوت البطل المسكين وهو يدفَن حيّاً خلف جدار). وسواء أكان الأمر قوة مستقلة أم إرادة وليدة، فقد أُعلنتْ بدايةُ رفضي لاستكانة «إد سئيد» الذي ينتقل من فرض إلى فرض ومن موعدِ تسليمٍ نهائيّ إلى آخر دونما بادرة احتجاج.

انصرف معظمُ تلامذة الصف إلى منازلهم للاحتفال بعيد الشكر، وهي عطلة لا أعيرها كبير اهتمام إلى الآن، مع أنّ أبي كان يَفْرض علينا يومَ العيد في القاهرة أن نتناول وجبة عشاء من ديك الحبش، لأسباب سمّاها «تقليدية». أما بالنسبة إلى عطلة الأسابيع الثلاثة في عيد الميلاد، فقد اتصل أبي لهذا الغرض بابنَيْ أخيه الأكبر آبي وتشارلي في نيويورك، اللذين انتقلا مع أمهما المترمّلة، إميلي، وشقيقتهما، دوروثي، إلى كوينز بعد وفاة عمي أسعد بقليل عام ١٩٤٧. إذن، لا عطلة في واشنطن، في نهاية الأمر.

آبي رجل ذو شعر فاتح اللون، اجتماعيّ ومنفتح ولطيف، يَكْبرني بحوالى عشر سنوات، تعتقد أمي أنه الأكثر شبهًا بأبيه من حيث الكرم والإخلاص والشفافية. والواقع أنّ عائلة عمّي آل تشكو من عِرق إشكاليّ موروث من إميلي – وهي من آل صيدح في يافا – ويبدو أنّ آبي هو وحده الذي أُعفي من تلك النقيصة الوراثية التي تثير الكثير من التعليقات، وتتمثّل في لون من المراوغة ترافقها قَوْقأةٌ بَلْهاءُ تنطلق على نحوٍ مربكٍ بلا أيّ سبب ظاهر.

تقع شقتهم في محلّة جاكسون هايتس، في الطابق الثاني من البيت رقم ٧٢–٧٤ على الطريق الواحد والخمسين، في صف من البيوت المدينية المتماثلة التي ترصف تلك الطرقات مِيلاً بعد ميل إلى ما لا نهاية. ضاقت شقة آل سعيد أيّما ضيق بعد وصولي حاملاً حقائبي الضخمة (كان بإمكاني تركها في المدرسة ولكني كنتُ أرفض رفضًا قاطعًا، لأسباب عُصابية، أن أذهب إلى أيّ مكان دون أن أصطحب معي جميع ممتكلاتي). ولا بد أنّ نزولي عندهم حوّل حياة امرأة عمي وأبنائها جحيماً لا يطاق، ولكني أسجّل لهم مدى الحياة أنّ أيّا منهم لم يتخلّف عن الحفاوة بي أو أشعرني بأني أزحم المكان.

كان كلٌّ من آبي وتشارلي يعمل في وظيفة ثابتة، الأول في مصرف والثاني في شركة تأمين، إضافةً إلى ارتيادهما الصفوفَ الليليةَ في جامعة نيويورك للتخصص في إدارة الأعمال. أما دوروثي فلا تزال تعمل سكرتيرة عند روبن دونيللي، شركة الطباعة الضخمة المسؤولة عن إصدار دليل الهاتف. يغادر ثلاثتهم في حوالى السابعة والنصف ولا يعودون إلا في الثامنة أو التاسعة ليلاً. أما إميلي فإنها تجوس أنحاء الشقة معظم فترة ما قبل الظهر، وتتحدث باستمرار إلى نفسها بالعربية وتَقْطع أحاديثها بجلجلة من الضحك الملغز، وهي ترتِّب الأسرّة (إلا سريري الذي كنتُ أرتِّبه منذ أبكر وقت ممكن) وتلمّ الثياب، وتعبث بالمطبخ، الذي هو أيضًا قاعة طعام، مُكثِرةً من القعقعة والتكسير وصَفقْ الأبواب، وكل ذلك بدون منطق أو نسق واضح. وتبدو فوق ذلك صمّاء كليًا للأصوات من حولها. لذلك فرغم أنها تدير الراديو على برنامج أحاديث أو موسيقى، فقد كنتُ أستطيع في العادة أن أنقله على محطة WQXR مع أنّ تلك المحطة النخبوية – حيث يذاع برنامجي المفضّل «شخصيات البيانو» في التاسعة والنصف – كانت تُغْرقها الدعاياتُ التجارية لبارنيز وروجرز بيت، على نحو مجنون، في اعتقادي أنا على الأقل. أحيانًا تلفت تلك الدعاياتُ انتباهَ إميلي، فتروح ترافقها بالغناء، ثم تَصْدح بمفردها بلا مسوِّغ: «إنك توفّر المال عند بارنيز، أنت توفّر المال عند بارنيز»، وهي لا تَفْقه بالتأكيد معنى ما تقول. وفي حوالى العاشرة تسألني ما إذا كنتُ أرغب في أن آكل شيئًا، ذلك أني لم أكن أجازف بالذهاب من تلقاء نفسي إلى البرّاد أو معجن الخبز، ومن أسباب ذلك انها حتى وهي ترتِّب الأسرّة أو تعبث بالحمّام، تقاطع نفسَها فجأةً وتهرع إلى المطبخ مثل ثور هائج في حلبة مصارعة الثيران. فأدركتُ سريعًا حرصها على مطبخها وحِراستها له أيضًا كأنه يخبِّئ كنزًا ثمينًا من كنوز الأقدمين.

حوالى الظهر، تُعلن عادةً أنها خارجة وتشعرني بأني بعد مغادرتها لا يَجْدر بي البقاء في البيت بمفردي دون أن يقوم أحد على خدمتي. فغالبًا ما أَستقلّ حافلةَ وُدسايد إلى محطة جاكسون هايتس للمترو ومنها أنطلق مسرعًا إلى تايمز سكوير حيث أتناول غدائي اليومي من الهوت دوغز مع كوب من عصير البرتقال، عند نيديكس، ثم أروح أتسكع خصوصًا بين دُور الأشرطة الإخبارية أو دور السينما التي تَعْرض الأفلام التي سبق عرضُها أو أكتفي، في بعض الأحيان، بالتنقيب في

الصحف عن عمود «صدّقْ أو لا تصدّقْ» للرسّام الكاريكاتوريّ ريپلاي. لم تكن المتاحف أو المكتبات أو الأماكن التي تُجنى منها فائدة أو علمٌ ما، من ضمن اهتماماتي. ولكني اكتشفتُ بواسطة دوروثي أنّ برامج «سؤال وجواب» تقدّم بطاقاتِ سينما مجانيةً للمستمعين الذين يحضرون إلى استوديوهاتها، فصرتُ أرتاد روكفِلِر سكوير لفترة قبل حضور المزيد من الأفلام والأشرطة الإخبارية (وكانت متواصلة في تلك الأيام) ومن ثم أَسْلك طريق العودة إلى جاكسون هايتس عند المغرب. وفي يوم عيد الميلاد، تلقّيتُ مكالمة هاتفية قصيرة من القاهرة، ولكنْ لما كان أهلي يطالبون بإميلي وأبناء عمي لإلقاء تحيات المجاملة عليهم، فقد هزّتني أمي بشعور وجيز جدًا قَدْرَ ما هو مُشبِعٌ وهي تلقي عليّ بحرارة لا تصدَّق: «عيد ميلاد مجيد، دارلنغ». ثم انقفَل الخط.

عادةً ما كنا نترافق، أنا وعشيري أبي، في أماسيّ نهايات الأسبوع عندما لا يكون منشغلاً في محفله الماسونيّ. ينتمي أبناء عمي إلى كنيسة بروتستانتية عربية في راي بريدج، بروكلين (على مسافة ساعتين وعدة تنقلات-في المترو)، وتوفِّر للجالية «السورية»، حسب تسمية العرب الأميركيين في تلك الأيام، مركزًا اجتماعيًا حيث يحيون فيه حفلات العشاء والرقص حول صحون الكبّة والحمّص. صرنا أنا وأبي نرتاد تلك الحفلات معًا دون الآخرين، وأنا أذهب إليها على مضض، لأني أجد العرب الأميركيين الكبار في السِنّ غارقين في عالمهم التجاريّ الذي يدور على بيع السجّاد والبقالة والأثاث. كانوا كائنات غريبة، أشبه بشخصيات طالعة من روايات جوناثان سويفت، يملكون بيوتاً صيفية في پوكونوس، ويلهجون بعربية مكسّرة من أيام العشرينيّات، ويفتعلون الوطنية الأميركية افتعالاً، وتتردّد عبارة «آنكل سام» بانتظام في أحاديثهم، ويتكلمون عن «الخطر الشيوعيّ» أكثر بكثير من كلامهم عن خطر إسرائيل (وهو ما يثير خيبة المراهق الفلسطينيّ الذي يستمع إليهم). أما نساؤهم التعسات لمبارحتهنّ قراهنّ ورميهنّ في بروكلِن فيرتدين الملابس الزرية، فيما بناتهنّ مبالِغات في التهندم ويمضغن العلكة ويتكلمن بأصوات ذات صرير ويرتدين الجوارب القصيرة التي ترتديها المراهقاتُ الأميركيات.

وقد نذهب أنا وأبي لحضور الفيلم العربيّ الأسبوعي المعروض في آتلانتيك آفنيو، أيام السبت عند منتصف الليل، ونعود إلى كوينز منهَكين كليًا في الرابعة

فجرًا. ولكن ما يعوّض عن مجهودي هو مشاهدةُ الممثلات المثيرات أمثال نعيمة عاكف وسامية جمال أو تحية كاريوكا يرقصن، أو الاستماعُ إلى النكت البلهاء، وإنْ تكن محببة، يُطْلقها إسماعيل ياسين وهو يكشر عن أسنانه الناتئة. فيوقظ فينا اللحنُ القاهريّ في حواراتهم الحنينَ إلى البلاد، ونحن في طريق العودة إلى البيت في القطار المصلصِل الفارغ. ولكنْ بعد ثلاثة مشاوير من ذلك النوع أَقْلعنا، منهكين، عن الاستزادة من تلك الأفلام.

ذاتَ مرة خلال العطلة قصدتُ راي بريدج بمفردي ضيفًا على الخال أمين بدر وامرأة الخال سليمة. هي امرأة في الأربعينيّات من عمرها، حيوية، فكهة، جميلة، ولا شك في أنها شهوانية. وهو الأخ الأصغر لفارس بدر، يسكن الولايات المتحدة منذ ما لا يقلّ عن خمسين سنة، دقيق إلى حد لا يصدَّق، وبالغُ التأنق (لم أشاهد في حياتي شبهًا لثنْيات سراويله الحادة مثل حد شفرات الحلاقة ولا قمصانًا مكويةً بمثل تلك الطريقة النيِّقة)، يبلغ منتصف السبعين من العمر، وقد أحيل على التقاعد بعد عمر قضاه في بيع الأغطية والمناشف. وجدتُ ذرابة لسان سليمة ووقاحتها، اللتين تضخِّمهما لمزيد من استظهار درامية فارق السن بينها وبين أمين، غايةً في التسلية، لما فيهما من مفارقة كبيرة مع حياتي في كوينز. أَضفْ إلى هذا أني تعاطيتُ مع مصاهرة سليمة لعائلة أمي على نحو متسامٍ بوصفها ترياقًا للصرامة السعيدية التي تَطْبع عائلةَ أبي التي تقل عنها حيويةً بكثير.

أزور سليمة في متجرها في الجادة الرابعة، «محل السيدة بدر للصُدَيريات والمِشدّات» حيث تكدح مع معاونتين من الفجر إلى النجر. وأنا أعلم أنّ أمي في عداد زبائنها وكذلك إيفا مالك، مع أنّ الاثنتين تجدان تذمرات سليمة الدائمة من تابعتيْها المستغلّتيْن مسلّية ومستبعدة التصديق. «تظلان تطالبانني بالمزيد من المال لقاء يوم من ثماني ساعات عمل. هل تظنانِ أني أعمل ثماني ساعات فقط؟ هودي («هذه» بالمحكية الجبلية اللبنانية) أفكار شيوعية»، تقول، ولكنْ دون كبير جدّية، حتى لا أهبّ للدفاع عن الفتاتين. «أنت متساهلٌ جدًا»، تقول لي مبتسمة، «تحتاج إلى المزيد من شجاعة أبيك». أحببتُ فيها براعتها في ترويج تجارتها، إضافةً إلى طبخها السخيّ الرائع على العشاء تلك الليلة، والسريرِ الوثير الذي جهّزتْه في غرفة خاصة بي، والمزاحِ بينها وبين «الختيار» كما تسمّيه. هناك، في وسط واجهة المتجر، نصبتْ

مانيكاناً [تمثالاً لعرض الأزياء] بلا رأس ولا رجلين، وزيّنتْ صدرَها العارم بواحدة من صُدَيراتها القرنفلية اللون، الفظيعة المنظر. وتحت النهدين وضعتْ إعلانًا ساخرًا يقول: «متّحدَيْن نَصْمد، منفصلَيْن ننهار». وقالت: «ألا تعتقد أني أعرف ما الذي أفعله هنا؟ خالك أمين يعتبر الموديل فضيحة، ولكنْ لا تظننّ لحظةً أني أعير رأيه أيَّ اهتمام. إنه لا يَقْرب من المحل. ولكن انتظرْ حتى أعرض المشدّات!».

في اليوم التالي، انطلق كل منا، هي إلى العمل وأنا إلى جاكسون هايتس، وقد حَشَتْ حقيبة سفري الصغيرة بمرطبان من المخلّل وعبوة زيتون أخضر وكيس كبير من الفطائر بالسبانخ من طبخ يديها. «سلِّم على أهلك»، قالت، «وخصوصا على أبي. إنه يصلح زوجًا جيدًا لإحداهنّ». مرّت سنوات قبل أن أكتشف فيها شخصية أشبه بـ«زوجة باث»، بدائيةً وعاصيةً، وفي غير مكانها إطلاقًا بين المتجنّسين السوريين الوقورين في راي بريدج، تندفع في طاقة وفكاهة نادرتين أنشأتا بيني وبينها رابطةً وثيقةً لا تزال قائمةً إلى الآن وهي متقاعدةٌ في فلوريدا وشبهُ خرفة.

تفاقمتْ وحشتي الكاملة في ماونت هيرمون بعد أسابيع ثلاثة من عودتي إلى المدرسة مطلعَ كانون الثاني/يناير. شَعَرتُنا مدفونين، في أعقاب عاصفة ثلجية جديدة كاسحة، الأشجارُ محنيةٌ تحت وطأة انزياحات الثلوج التي بلغت سماكتُها حوالى عشر أقدام، والحرارةُ تحت الصفر، والشمس البرّاقة تضيء البياض العنيد فتكاد تُعمي العيون. حاسرَ الرأس، أتنقّل من مهجع المنامة إلى الصف، ومنه إلى قاعة الرياضة، فقاعةِ الطعام، ملهوجًا محمومًا أَلعنُ الشعور بالحَجْر والإعاقة الذي يطوِّقني. فلم أكن مستعدًا على الإطلاق للرسالة التي وصلتني وأنا أغادر صف الكيمياء عند الغروب يدرّسنا إياه الدكتور پول باومان، الرجل المنمنم ذو النظارتين. عند الباب كان ينتظرني تلميذٌ يعمل في مكتب المدير، فقال: «يودّ الدكتور روبِندال مقابلتك حالاً». وفيما نحن نهرول تساءلتُ بشبه ذهول ما عساها تكون الإساءةُ الجديدة التي ارتكبتُها، على الرغم من ظني أنّ سلوكي العام في ماونت هيرمون لا مأخذ عليه. فلا عصابات فيها ولا أساتذة مكروهون ولا أوضاع سياسية متقلقلة. وروبندال هو الرجل الوحيد الراقي والأنيس في المدرسة بسبب ذكرياته الحنونة عندما كان مدرِّبًا لكرة السلة في القاهرة من جهة، ومن جهة ثانية، لأني كنتُ أرى أنّ الرجل الذي يزيد طولاً عن ست أقدام، والقويّ البنية والرشيق في آن، يَمْلك

سحرًا عظيمًا ويوحي بثقة لا صلة لها بميراث الدكتور مودي الذي يَرْزح تحته الآخرون.

صَعُبَ عليّ تصوّرُ صلةٍ ما تربطه بنيد الكزنذرالكالح، مع أنّ كليهما ذو خلفية قاهرية. ثم إني أفرح دائمًا عندما ينتقيني روبندال وسط حشدٍ من التلامذة – «إد»، يناديني مستخدمًا اسمي المتأمرك الجديد، «كيف الحال؟ آمل أنك تستمتع بوقتك في هيرمون. بلّغْ سلامي إلى أهلك وإلى القاهرة. مُرَّ علينا إلى البيت ذات أمسية». وهذا طبعًا ما لم أفعله على الرغم من أنّ ترحيب الرجل ودماثته الصادقيْن أعاناني على تحمّل الوجوم اليوميّ للمدرسة لمدة طويلة. فلم أدخل منزله خلال سنتين من وجودي في المدرسة إلا في تلك المرة.

رحّب بي روبندال بحرارة. «وصلتْني للتوّ أخبارٌ من القاهرة، إد. عائلتُك في حالة ممتازة. الأخبار، أو ما بَلَغني منها، تدعو إلى القلق الشديد. لكنّ الجميع بخير». ولما كنتُ لم أدرِ ما يشير إليه، فقد استزدتُه في التفصيل. «قامت اضطرابات، وشَبَّت الحرائق في معظم أنحاء المدينة، ولا أحد يدري مَنْ وراءها. تعال إلى منزلي في السابعة، وسوف نشاهد ما على التلفزيون من أخبار». طبعًا جئتُه الى منزله، ولكنّ التقاط التلفزيون كان رديئًا جدًا: الصور صور جموع حاشدة وأبنيةٍ محترقة تتناوب مع صور غير واضحة لمسؤولين وجنرالات وسياسيين يترأسهم الملك فاروق في صورة مشوّشة التُقِطَتْ قبل مدة طويلة من تحوّله إلى ذلك المسخ الذي يزن ٣٥٠ رطلاً إنكليزيًا. كان ذلك يومَ الاثنين مساءً، وقد اندلع الحريقُ قبل يومين، ونجح أبي بطريقةٍ ما في الاتصال بروبنداك على الهاتف وإبلاغه الأمرَ.

فزعتُ فزعًا شديدًا لمصير أهلي، وأبي خصوصًا، في هذه الجائحة المباغتة، بقدر ما فزعتُ من احتمال أَنْ لا يبقى لي ما أعود إليه في القاهرة. عرفتُ أنّ شيئًا ما قد تغيّر إلى غير رجعة. كانت مشاهد الدمار المروّعة التي لم تستغرق أكثر من عشرين ثانيةً على تلفزيون عائلة روبندال – وقد وقف هو وزوجته الى جانبي حادبَيْن عليّ، فيما أنا قابع في مواجهة قطعة الأثاث البُنّية الكبيرة – صادرةً عن مكان آخر وعن قوم آخرين لم أكن أتخيّل أنهم يسكنون القاهرة الأليفة لأيام طفولتي: «عناصر مجهولة»؟ جموع ثائرة؟ جواسيس أجانب؟ عجزتُ عن تخيّل الأسباب الكامنة وراء ما أشاهده أمامي وعن التعبير عنها. وفي اليوم التالي، وأنا أقرأ في عدد الثلاثاء

من صحيفة **بُوسطن غلُوب** في ردهة مبنى كروسلاي، صُعِقتُ لورود اسم أبي في تقرير من ثلاث صفحات يفصّل في الدمار العظيم الذي وقع يومَ السبت الأسود.

كانت تلك هي أول مرة يتخذ فيه وجودُنا شكلاً موضوعيًا إلى هذه الدرجة، وكان في نظري توكيدًا صارخًا لهشاشة ذلك الوجود. وَرَدَ في المقطع المعنيّ: «تعرّضتْ "شركة الراية للقرطاسية" لصاحبها المواطن الأميركيّ، وليام أ. سعيد، للنهب الكامل على يد الغوغاء، التي واصلتْ تحرُّكَها في شارع الملكة فريدة حيث دَمَّرتْ أيضًا "نادي ركوب الخيل البريطانيّ"، وهو مؤسسة بريطانية مرموقة...». ومن الأماكن الأليفة الأخرى الوارد ذكرُها محلاتُ پاپازيان للآلات الموسيقية، حيث كنتُ أشتري الأسطوانات والكتب الموسيقية، وكوداك، والصالون الأخضر، وغاتينيو. والواضح أنها كلها متاجر أجْنبية فخمة، تقع في قلب المدينة الكولونيالية الحديثة. وقد تولى ضابطُ شرطة مقدام، على رأس قبضة من رجاله، وَقْفَ تقدّم الحشد عند بداية جسر قصر النيل المؤدي عبر النهر إلى الزمالك، حيث نسكن (وكان جزاؤه فيما بعد الطرد من الخدمة). ولولا ذلك النقيب في الشرطة لاستمر الحشدُ في تدفقه... لم أستطع الإحاطة بكل مجريات الأمور، بأيّ شكل من الأشكال، على الرغم من أنّ رسالة أمي التي وصلتني بعد عشرة أيام ملأتْ بعض الفراغات. المهم أنّ متجريْنا الأساسييْن تحوّلا ركامًا (كذلك دُمّر الفرع «ب»)، وقد أرسلتْ لي صورَ الدمار بعد شهر من ذلك، ولم أستطع التعرّف فيها إلا على بعض طاولات وكراسي من إنتاج شركة «سيبيل» وقد التوت في أشكال سوريالية وتحتها بقايا آلات طابعة وناسخات «إلامْز» وخزنة «شوب» ضخمة يبدو أنها لم يمسّها سوءٌ (وقد صوّرها أبي لاحقًا واستخدمها في إعلاناته) وكمية هائلة من الورق المتفحّم. وأفادت أمي بحزن أنّ عمتي وأبناءها أعربوا لأبي في تلك الأثناء بالذات عن رغبتهم في الانفصال عن الشركة. فَجَمَعَ كلَّ موارده المالية (لم أفهم حقًا من أين) واشترى حصتهم، فصار المسؤول الوحيد عن مؤسسة منكوبة تمامًا. كذلك نقلتْ أمي قولَه للمدير العجوز: «حسناً، لامپاس، فلنشمّرْ عن سواعدنا» – وقد عَلقتِ العبارةُ في رأسي أكثر من ست وأربعين سنة – «ولنبدأْ من جديد». وهكذا كان. أزاحوا الركام بمساعدة بعض المخلصين، وأعلنوا أنّ العمل مستمر كالمعتاد من مكتب أبي الذي لم يتضرّر والذي يقع عبر الشارع. واستحصلوا على القروض المصرفية اللازمة،

إضـافةً إلى تعـويض زهيـد عن الأضـرار دفـعتْـه لجنةٌ حكومـيـة تشكلتْ على عـجل، وشرعـوا في إعـادة البنـاء على مـسـتـوى أوسـع وأكـثـر فـخـامـة من ذي قبل. وعـندمـا وصلتُ الى البلاد في ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، لم يكن قد بقي على شركته من آثار الحريق - الذي تبيّن أنه من صُنع الإخوان المسلمين - إلا مـجمـوعةٌ من صـور الخراب جرى تأطيرها وتعليقها خلف مكتب أمين الصندوق وفي مكتب أبي.

لا أزال أندهش من نهوضه من كبوته، بما يفوق طاقة البشر. لم أسمعه مرةً يتـحدث بندمٍ عن أيام مـا قـبل الحـريق، أو عن المبـالغ التي خـسرهـا، أو عن الكارثة التي ألّمت به. وظلت رسائله المرقّنة على الآلة الكاتبة تصلني مـرتين في الشـهـر في موعدها المحدد تمامًا، كأنّ شيئًا لم يكن، عدا عن أخبار وصول «البضائع»، على حد تعـبيـره، التي يرسلهـا الموزّعـون الأوروبيون والأمـيـركيـون على جناح السرعـة إلى شركة «إس. إس. كو». وربما سعياً مني لكشف الستار عن لغز قوته الجبارة، كتبتُ إلى أمي مـتذمـرًا من أنّ رسـائله الرسـمـيـة، المطبوعـة، والواضـح أنهـا مملاة إمـلاءً، والموقّـعـة بعبـارة «المخلص، و.أ. سـعـيـد» تبعث على الحيرة، ومن أني «لم أعد أفـهم» لماذا لا يكتب لي رسالة شخصية حقًا؛ فأنا مشغول البال عليه بسبب الضغوط التي يتعرض لها، وأرغب في إشارة إنسانية واحدة تدلّ على حضوره المستمر والمضمون في حياتي. «عزيزي ادوارد»، بدأتْ رسالةٌ من صفحة واحدة وصلتني بعد أسبوعين مكتـوبةً بخـربشـة لا تطاق، «قـالت لي أمك إنّ رسـائلي المطبوعـة لا تروق لك، ولكني منشغل كثيرًا كما قد تتخيّل. في كل الأحوال، إليك هذه الرسالة بخط اليد. المخلص، و. أ. سـعـيـد». احـتـفـظتُ بالرسـالة عـشرين سنة على الأقل، لأنهـا خيـر تعـبيـر عن شخـصـيـة أبي وعن موقـفـه تجـاهـي. فكأنه يؤمن أنّ التـعبيـر والشـعـور يسـتحيل أن يتساويا أو يستحيل أن يحلّ واحدُهما محلَّ الآخر، وأنه، إذا حصل ذلك، فهذا يعني أنّ ثمة عَيْبًا ما في واحدهما أو في الاثنين معًا. وظل متمسكًا برأيه موفِّراً جهوده لعمله الذي كان يحـميه بالصـمت أو بأسلوبه المقتضـب، وهذا وذاك يغيظانني حد الجنون.

طوال حياته، ظل أبي مقتّراً في الإفصـاح عن ممتلكاته أو ثروته . أما بـعد أن اضطر إلى إعـادة بنـاء شـركته، ورتّب على نفسـه دَينًا كبيـرًا، فـقد صـار، على غيـر عادته، مهذارًا في موضوع التزامـاته المالية. «ألا ترون»، كان يردِّد لنا يائسًا عشرات

المرّات، «كم أنا مثقل بالديون؟» مستخدمًا صيغة الجمع للدَّيْن، لمزيد من تذكيرنا بأنّ المبالغ المعنية لا يستهان به. وحقيقة الأمر أننا، كعائلة، ابتُلينا بـ«الديون» لثلاث سنوات أو أربع، إلى أن جاء يومٌ خلال عطلة الصيف كنتُ أداوم فيه نيابةً عنه في مكتبه فأخذتُ أتصفح بتكاسل تقرير المحاسب للعام الماليّ المنقضي. فصُعقت للآلاف المؤلفة من الجنيهات التي يجنيها في كل فصل. وعندما فاتحتُه بالأمر، رمقني بنظرة ازدراء شديد: «أقلِع عن هذه السخافات، يا إدوارد. ربّما يأتي يوم تتعلّم فيه قراءة ميزانية شركة. وإلى أن يحين ذلك، ركّزْ على دروسك ودعني أهتمّ بالتجارة». ولكنْ، كان يصعب عدمُ ملاحظةِ أنه في أواسط الخمسينيّات، ازدادت وتيرةُ الحفلات التي يقيمها الأهل وتكاثر عدد المدعوين إليها، وأخذوا يشترون التحف الجميلة، ثم إننا انتقلنا من شقتنا في شارع عزيز عثمان إلى شقة أوسع وأفخم تجهيزًا في البناية المجاورة التي تحوي مساكن لأعضاء السلك الدبلوماسيّ. ومع ذلك، لم يكفّ أبيَ عن الشكوى من «الديون».

في أوائل ربيع ١٩٥٢، كنتُ قد نفضتُ عني الشعور بالوحدة الذي كان يشلّني – مفتقدًا أمي وغرفتي والأصوات والأشياء الأليفة التي يتجسّد فيها جمالُ القاهرة – وأسلمتُ أمري لذاتٍ أخرى أقل عاطفية وأقل إعاقة. وبعد أربعين سنة من ذلك، اختبرتُ تجربة مماثلة عندما تلقيتُ تشخيص إصابتي بسرطان الدم واكتشفتُ لبرهة أني تحت سطوةِ أشدِّ الأفكار سوداويةً عن العذاب والموت الداهميْن. فكان هاجسي الأكبر هو رهبة اضطراري إلى الانفصال عن عائلتي، وطبعًا عن كامل عمارة حياتي، وقد أدركتُ، وأنا أفكّر في الأمر، أني متعلقّ جدًا بهما. وفقط عندما اكتشفتُ أنّ هذا السيناريو الكئيب يشكّل كتلةً تشلّ مركز وعيي، بدأتُ أتبيّن معالم تلك الكتلة، وهو ما ساعدني على تخمينها ومن ثم تحديد تخومها. ولم يَطُلِ الوقتُ قبل أن أعي مقدرتي على إزاحة تلك الكتلة الشالّة من المركز والاهتمام، ولو لفترات وجيزة أحيانًا، بأشياء أخرى أكثر عيانية، بما فيها الاستمتاع بإنجازٍ ما أو بقطعة موسيقية أو بلقاء أحد الأصدقاء. لم أفقد شعوري الحاد بالهشاشة تجاه المرض والموت الذي أحسستُ به عند اكتشافي وضعي الصحيّ، على أنه صار بإمكاني – كما في مرحلة نفيي الأولى– أن أعد كل ساعات اليوم ونشاطاته (بما فيها هجسي بمرضي) موقتةً إجمالاً. من هذا المنظار، صار بمقدوري أن أقوِّم النشاطات التي

يجدر الاحتفاظُ بها وأداؤها والاستمتاعُ بها. لم أفقد أبدًا كرهي وانزعاجي من ماونت هيرمون، لكني تعلّمتُ أن أخفف من أثره فيَّ، وانغمستُ في الأشياء التي يمكنني الاستمتاعُ بها بما يشبه إنكار الذات.

وكانت تلك الأشياء ثقافيةً في معظمها إنْ لم أقل جميعها. خلال سنتي الأولى كان علينا جميعًا أن نَحْضر صفًا سخيفًا (لا شك أنه من بنات أفكار الدكتور مودي) الغرضُ منه تنميةُ التقوى لدينا. لم يقتصر الأمر على تكرار المواد التي راجعتُها لنيلي التكريس، وإنما كان التعليم موغِلاً في نزعةِ تفسيرٍ حرفيةٍ، بل أصوليةٍ، للعهد القديم لم أكن أتخيّل أنها ممكنة بشريًا. يَعْلق في ذهني عاموس وهوشع وأشعيا وميخا: لم نُعِد قراءة نصوصهم، تلميذًا بعد تلميذ، وحسب، وإنما لخّصنا بلا كللٍ أقوالَهم حرفيًا وتكرارًا وبطريقة خالية من الخيال. ولولا علاماتي الجيّدة لفُرِض عليّ الأستاذُ ذاتُه - تشيستر الفلاني - في الصف التالي، ولاضطررتُ إلى دراسة العهد الجديد. ولكنْ سُمِح لي بدلاً من ذلك بالانتقال إلى درس التوارة رقم ٤ الذي يعلّمه قسيسُ المدرسة، ومساعدُ مدرِّب السباحة، الأب وايت، المعروفُ لدينا جميعًا باسم «الراهب تاك»[1] لبدانته وشعره الأحمر وروحه المرحة بشكل عام. كنتُ في السابعة عشرة، ولكنْ بفضل انفتاحه وتحرره الكامل من الجمود العقيديّ، حصلنا منه على درس قراءة رائع في الفلسفة الكلاسيكية من أفلاطون إلى أرسطو مرورًا بعصر الأنوار وصولاً إلى كييركيغارد.

لم أُفلح رياضيًا، مهما حاولتُ. ومع أني نجحتُ في الانضمام إلى فريقَي السباحة والتنس وكسبتُ المباريات ونلتُ الجوائز في الدورات الرياضية، فإنّ المنافسة الحقيقية كانت تمرضني جسديًا. أثناء الغداء، في ربيع سنتي الأولى، كان أحد التلامذة الكبار (دايل كونلاي، رئيس مجلس الطلبة وكابتن فريق كرة القدم) يتنقّل من مائدة إلى مائدة ويدسّ قصاصات ورق صغيرة تحت كل صحن من الصحون. وقد كَتَبَ على قصاصتي فقط «١٤ من ١٥٧»، وهو تصنيفي في الصف الذي ألفيتُه أعلى مما تخيّلتُ. خلال السنة الثانية، تراوح تصنيفي بين المرتبة الاولى

---

١ - راهب سمين ومرح من أفراد عصابة روبن هود، اللص الإنكليزيّ الشريف الذي عُرِف عنه أنه كان يسرق من الأغنياء ويوزّع على الفقراء. (م)

والمرتبة الثانية، ومع ذلك، ففي نهاية الصيف، أمضيتُ الليلة التي سبقتْ عودتي في سريرٍ أقيم على عجل في غرفة نوم أهلي في ضهور الشوير، أتوسل إليهما إلاّ يعيداني إلى المدرسة. حصلت المغادرة المحتومة عند الفجر، وقادتْنا السيارةُ إلى بيروت في صمت مطبق. وما إنْ عدتُ إلى المدرسة، حتى كُلّفتُ بمهمة كريهة هي كَيُّ القمصان في المصبغة، ولكنْ بعد أن أعلنتُ احتجاجي، وجزئيًا بسبب نجاحاتي المدرسية، رئفوا بي فنقلوني إلى وظيفة بلا عمل في المكتبة.

في منتصف السنة الثانية، وفيما نحن نفكّر في تقديم طلبات الانتساب إلى الجامعات، كنتُ قد أدركتُ أنْ لا عودة سريعة إلى القاهرة. فحسدتُ شقيقاتي في «مدرسة القاهرة الإنكليزية»، للراحة عندما نكون معًا وفي بلادنا، ولِمَا تخيّلتُ أنه صلابة اليقين الوثير، التي سوفَ أُحرم منها جميعِها، اللهم إلا في عوداتي القصيرة في الصيف. ثم قامت ثورةُ الضباط الأحرار في تموز/يوليو ١٩٥٢. ولكنْ بسبب وجود الجنرال محمد نجيب في السلطة، وهو جنرالٌ أبويٌّ ومدخِّنُ غليون – وكان الملك قد رُحِّل إلى ايطاليا – فقد تكوّن لديّ، كما لدى أهلي وأصدقائهم، الانطباعُ بأنّ العهد الجديد لن يكون مختلفًا كثيرًا عما سبقه، سوى أنّ رجالاً أصغر سنًا وأكثر جدّيةً سوف يتولون الأمور الآن ويضعون حدًا للفساد. لا أكثر من ذلك. وهكذا فإنّ جاليتنا الصغيرة – آل ديرليك وغُرّة ومِرشاق وفاهوم – وجميعهم من الشوام الذين يَجْنون أموالاً طائلة ويعيشون حياة باذخة، ظلوا يعيشون كأنّ شيئًا لم يكن. وبعد بضعة أسابيع في القاهرة، بين حزيران/يونيو والنصف الأول من تموز/يوليو، انتقلنا، كما العادة، لقضاء الصيفية المملة الطويلة في الضهور. لحظةَ وصولي القاهرةَ، خلال الصيف، كنتُ أعيش الجزء المصريّ من حياتي بطريقة طائشة بل مخادعة، فيما أخذتْ حياتي الأميركية تكتسب حقيقةً أكثر ديمومة واستقلالاً، منفصلةً عن القاهرة وعن عائلتي وعن العادات القديمة الأليفة ووسائل الراحة الجسمانية التي توفِّرها لي أمي.

في بعد ظهر يوم ربيعيّ نيّرٍ من عام ١٩٥٣، وفيما كنتُ أتدرّب على التنس، مرّ بوب سالزبوري بالملعب في طريق عودته إلى كروسلاي هول من مكتب البريد وصاح بي أنه سمع أنّ بلاغات القبول في الجامعات قد وصلتْ. هُرعتُ إلى مكتب البريد لأكتشف أني قُبلتُ في كلٍّ من پرنستون وهارفارد، مع أني لم أزر الثانية قط

ولم أكن أعرف الكثير عما تمثّله، باستثناء الانطباع الدمث الزلِق التي خلّفه سكيدي فون ستاد، الجنتلمان المسؤولُ عن الانتسابات في هارفارد، لدى زيارته لنا. وقد عرّف به لُهُومي تعريفًا إضافيًا بصفته «لاعبَ پولو من لونغ ايلاند». وعندما عدتُ إلى الملعب حاملاً رسائلي، قال المدرّب نيد الكزاندر: «حسناً، من الآن فصاعدًا سوف تلعب في منتخب الفرشمان في هارفارد». ولكنْ لأسباب غريبة جدًا، أجدها الآن جدّ واهية، حزمتُ أمري بسرعة وقررتُ الذهاب إلى پرنستون، التي زرتُها مرةً مع أهلي في الصيف الذي سبق انتسابي إلى ماونت هيرمون. كنا قد قصدناها من نيويورك لزيارة أقرباء لجيران لنا في ضهور الشوير، وإذا حضورُهم هناك ـ مع أني لم أعد لزيارتهم مرةً ثانية ـ وفترةُ الأصيل الذي قضيناه معهم تحت الأشجار، إضافةً إلى رائحة التبّولة ووجبة ورق العريش المحشوّ في بيتهم، جذبتني إلى پرنستون لأسباب خرافية تمامًا. فقد بَدَتْ لي، في استيهامتي الهادئة والسطحية، أنها النقيض من ماونت هيرمون: فهي ليست في منطقة نيو إنغلاند، وهي مريحة غير متقشفة، وإنْ تكن رعوية، وباختصار إنها انعكاس لحياة القاهرة في الولايات المتحدة.

بعد شهر من ذلك علمتُ أنّ أبي سوف يتكبد مصاريف باهظة للمجيء من القاهرة لحضور حفل تخرجي، وأني سوف أقوم بعدها معه ومع ابنَيْ عمي، آبي وتشارلي، بجولة في نيو إنغلاند في سيارتهما الفورد من طراز ١٩٥١. وكانت تلك الرحلة هديَّته لي بمناسبة تخرجي.

خلال أسابيعي الأخيرة في هيرمون، فكرّتُ أنه على الرغم من تميّزي في نشاطاتي كافة، ظللتُ صبيًا شاذًا منبوذًا. فقد نلتُ رسائل التنوية وكسبتُ مباريات هامة في السباحة والتنس، ولمعتُ في أدائي الأكاديميّ، وتميّزتُ عازفًا للبيانو، ومع ذلك بدوت عاجزًا عن تحقيق المنزلة المعنوية – لست أجد عبارةً أخرى لوصف الأمر – التي يمكن للاستحسان المدرسيّ العام وحدَه منحي إياها. كنتُ ولدًا حاد الذهن له ماضٍ غير عادي، ولكني لم أكن جزءًا من حياة المدرسة المشتركة. كان ينقصني شيء ما. شيء اكتشفتُ فيما بعد أنه يسمّى «الموقف السويّ».

في المدرسة تلامذة امثال دايل كونلاي، أو غوردي روبّ وفْرِد فيشر، من أبناء صفي، يختلفون عني وعن بْريغر. لا زوايا ناتئة في شخصياتهم، ولا يسيئون إلى

أحد، والجميعُ يحبهم، وهم يتحلّون بقدرة مدهشة على تحاشي إطلاق الكلام الخطإ أو المسيء. باختصار، كان انطباعي عنهم أنهم متكيِّفون كليًا مع بيئتهم، وذلك ما يجعلهم الخيار الطبيعيّ لتلقي المهمات الفخرية والجوائز التقديرية – رؤساءَ فرق رياضية، أعضاءً في مجلس الطلبة، خفراءَ طوابق، أو رؤساءَ موائد الطعام. لا صلة لكل هذا بذكائهم البدهيّ، ولا بأدائهم الأكاديميّ، وهو فوق المتوسط لكنه ليس ممتازًا. ومع ذلك، كانت تحيط بهم هالةُ القوم المختارين، وهذا ما كنتُ افتقر إليه تأكيدًا. على أنه لا يُمْكن وصفُ هؤلاء الطلبة بأنهم المفضّلون لدى الأساتذة، ولا القولُ إنهم يحتلّون مواقعهم بفضل النبالة المتوارثة أو الثروة، كما قد يكون الحال في العالم العربيّ.

قبل أسبوع من التخرج، أعلنتْ طرقةٌ على الباب قدومَ فْرِد فيشر، وهو عضو مجلس الطلبة وزميلي في فريق السباحة وخفيرُ طابقٍ في كروسلاي هول وواحدٌ من الصبية الأوفر نجاحًا على نحو بيّن في المدرسة. أذكر أني وسالزبوري كنا ننهي كتابة بحثنا الفصليّ. ومع أني كنتُ على اهبة التخرج، فقد كنتُ لا ازال حبيس غرفتي تنفيذًا لعقوبتنا الليلية. على أنّ فيشر، بصفته خفير الطابق، كان يُمْكنه التجوّلُ في المهاجع على هواه. «هِيه، وَاز»، قال مستخدمًا نداءً ودّيًا شائعَ الاستعمال آنذاك، «ألم تكن الأول أو الثاني في صفك، اقصد، من الناحية الأكاديمية؟». أجبتُه، «بلى، تناوبتُ أنا وبيرن على المرتبة الأولى. إنه الأول الآن على ما أعتقد، ولكني لستُ متأكدًا كليًا من ذلك. لماذا؟»

هنا بدت ملامح الانزعاج على فيشر، الجالس على سريري: «لم أصل إلى مرتبة أعلى من السادسة أو السابعة، ولكنهم أبلغوني للتوّ أني سوف ألقي خطبة الترحيب في حفل التخرّج وسيُلقي بِيرن خطبةَ الختام. يَصْعب عليّ تصوّر الامر. ماذا جرى؟». لا شك في أنّ حيرة فيشر لترقيته غير المتوقعة كانت صادقة. أما أنا فقد صُعقتُ للنبإ. لم أحر جوابًا لفْرِد الذي تلقّى تكريسه للتوّ، فغادر الغرفة بعد لحظة وقد علت وجهَه علامةُ انزعاج وحيرة. شعرتُ بأني أنا الذي يستحق مثل هذا التكريم عند التخرّج وقد حُرِمتُهُ، ولكني كنتُ أعرف، بطريقة غريبة ولكنها صحيحة، أني لا يجوز أن أُعطاه. فتألمتُ، عاجزاً عن قبول المظلمة، وعن الاحتجاج عليها أو عن فهم ما قد يكون، في نهاية المطاف، قرارًا له ما يبرره ضدي. فخلافًا لفيشر، لم أكن

قائدًا ولا مواطنًا صالحًا ولا تقيًا ولا حتى مقبولاً بشكل عام. فأدركتُ أنه قد حُكِمَ عليّ أن أبقى اللامنتميَ، مهما فعلتُ.

وهنا أيضًا شعرتُ بأنّ قدومي من جزء من العالم في حال من المخاض الفوضويّ، صار يرمز إلى أني في غير مكاني. كانت ماونت هيرمون مدرسةً للبِيض أساسًا، تضم قبضةً من التلامذة السود معظمُهم رياضيون موهوبون، وتلميذًا واحدًا هو راندي پايتون الذي برع في الموسيقى والفلسفة. غير أنّ الأساتذة جميعهم من البِيض (أو من لابِسي الأقنعة البيضاء، كما هو حال ألكزاندر). إلى حين وقوع حادثة فيشر وحفلِ التخرّج، كنتُ أحسبني بلا لون، لكنّ ذلك ألزمني بأن أرى إلى نفسي هامشيًا، وغيرَ أميركيّ، ومنبوذًا ومَعِيبًا، تحديدًا في الوقت الذي صارت فيه السياسةُ في العالم العربيّ تلعب دورًا متزايد الأهمية في الحياة الأميركية. جلستُ خلال حفل التخرج الفاتر معتمرًا قلنسوتي ومرتديًا العباءة السوداء، أشعر بلامبالاةٍ تصل حدَّ العداء. فهذا هو حفلُهم هم، لا حفلي، مع أني فوجئتُ بمنحي جائزة دروس الكيمياء ولكني اعتقدتُ جازمًا أنها لا تعدو أن تكون جائزة ترضية. ظننت أنّ أبي الواصل من القاهرة سوف يَخِيب أملُه فيّ، فإذا به منتشٍ ومَزُوح. وفي غياب أمي (التي اضطُرّت إلى ملازمة البيت مع شقيقاتي) صار مهذارًا وجذّابًا على غير عادته، مستغنيًا عن خبرتها الاجتماعية، وقد أمضى لحظات مسلّية مع والد بريغر، الألمانيِّ جدًا والأستاذِ في كلية الطب في هاهنيمان.

أما سرّ مزاج أبي فهو ابتهاجه بمدرسةٍ نجحتْ أخيرًا في تحويلي إلى مواطن يَعْتمر قلنسوةً على رأسه. دلف إلى حفلة ما بعد التخرج، المقامة في الهواء الطلق، حاملاً علبة أسطوانية كبيرة ملفوفةً بالورق البُنّي. أَسرف عاطفيًا مع روبندال، الذي اكستح سحرُه الاستثنائيُّ كلَّ ما في طريقه. بدا شاهق الطول قياسًا إلى أبي، وصاح بنا معًا: «ما أروعَ أن تَقْطع كلَّ هذه المسافة من القاهرة. آسف جدًا لأنَّ مِسزْ سعيد لم تستطع المجيء. أليس عظيمًا ما حققه إد؟». عندها، ناولني أبي كأس المشروب، وبطريقته المرتبكة والهوجاء المميزة شرع يمزّق ورق اللفّ ليكشف عن صحن فضيّ كبير مزخرف لا شك في أنه وأمي أوصيا عليه عند صائغ فضّة في إحدى أسواق القاهرة، وقدّمه، بأفضل أسلوبه الاستعراضي وبأبّهة تشارف حدَّ الغرور، إلى روبندال الذي غمره فرحٌ عظيم: «نرغب أنا وزوجتي في إهدائك هذا،

للشكر والعرفان بالجميل لما قمتَ به من أجل ادوارد». وقفة. «للشكر والعرفان بالجميل». وقد أُحرجتُ بسبب إسراف الهدّية والإهداء وغرابتهما، ولاسيّما أنّ روبندال وزملاءه لم يجدوني أهلاً لأن أُلقي كلمة الترحيب باسم صفّي ولا كلمةَ الختام.

خلال أسبوع، قمنا أنا وأبي وابنَيْ عمي، آبي وتشارلي، بجولة إلى أماكن متنوعة مثل كين ونيوهامشِرْ وبوسطن. ساق تشارلي السيارة معظم الوقت، ودفع أبي الفواتير عنا جميعًا، إسهامًا منه في التعويض عن الشابين لوقتهما وجهدهما. أما أنا فكنتُ مستعجِلاً العودةَ إلى القاهرة والبيت. فقد أُتخِمتُ من الموتيلات ودُور السكن المدرسية. وحتى بعد أسبوعين إضافيين قضيناهما في نيويورك، في فندق ستانهوپ الفخم، كانت تتملكني رغبةٌ كاسحة في العودة إلى القاهرة التي غادرتُها منذ سنتين.



الفصل العاشر

كانت العودة إلى القاهرة في الصيف تعني أيضًا العودة إلى ضهور الشوير. وما إنْ صرت طالبًا جامعيًا في پرنستون، حتى كاد ينحصر معنى الضهور عندي بإيڤا عماد، التي أَعتمد على وجودها هناك. ونظرًا لما حلّ بلبنان قبل ذلك بسنوات قليلة – حرب ١٩٥٨ الأهلية، والعقدان الفلسطينيان في السبعينيّات والثمانينيّات، والحرب الأهلية الكارثية عام ١٩٧٥ التي استمرت ١٧ سنة، والاجتياح الإسرائيليّ عام ١٩٨٢ – فقد بدت صيفياتنا المتواصلة في الضهور، قبل تلك الاضطرابات، أشبهَ بحلم يقظة مديد صار محورُه، بعد لقائي بإيڤا، النموُّ البطيءَ جدًا لقصة حبّنا. لم أُقدم على شيء آخر يمنع أو يعرقل تركيزي على مشاهدتها ومرافقتها خلال معظم ساعات النهار، باستثناء أيام الآحاد.

انجذبنا واحدنا إلى الآخر على نحو لاشعوريّ. دائمًا نلعب الزوجيّ في التِنِس معًا، ونجلس واحدنا قرب الآخر، ونتشارك في ألعاب «الطرنيب»، وهو نوع بدائيّ من أنواع البريدج، ونتبادل الأسرار الحميمة الصغيرة. وكانت إيڤا، الصبيّة المتحدرة من أسرة عربية محافظة، متحفظة ومستقيمة، كما يُفترض بالنساء في مثل عمرها أن يكنّ في منتصف الخمسينيّات. وكانت قد انقطعتْ عن الدراسة بعد الثانوية، ومع أني لم أدرك ذلك في حينه، فقد كانت تنتظر الزواج. لم يَعْرض عليها أحدٌ عملاً ما، ولا هي سعت إليه. ورغم إدراكي أني منجذب إليها ومتعلّق بها أكثر من أية امرأة عرفتُها من قبل، فإنّه لم يكن لمستقبلنا معًا من مكان في تأملاتي أو

أحلام يقظتي. وعلى امتداد ثلاث صيفيات أو أربع، ازددتُ انجذابًا إليها، لكني كنتُ عاجزًاَ عن أن آتي أمرًا أو أن أقول شيئًا أكثر مما قد يقوله المرء في الثرثرة اليومية المرفوعة الكلفة.

أن أكون على مقربة منها دونما تماسٍ جسديّ أو حتى بوحٍ كلاميٍّ بيننا، كان أشبه بلذة محرّمة. كنتُ أحتاج إلى رؤيتها كل يوم، وإلى قضاء كُل لحظة برفقتها، بحثًا عن أدنى إشارة، مهما تكن باهتة، تعلن أنها ترغب فيَّ قدرَ ما أرغب أنا فيها. ومع أنّ تعلُّقَ واحدنا بالآخر لم يكن معلنًا، فقد فشا سرُّنا لدى الآخرين، وإنْ يكن بطريقة جدّ عرضية. «هل لعب إدوارد وإيڤا الزوجيَّ في التنس؟»، قد تسأل نيللي. «أنت وايڤا سوف تجلسان هنا»، قد يقول أحدهم في السينما. «هل شاهدتْ ايڤا مضرب تَنِسِكَ الجديد؟». لم يعلم أهلي بصداقتنا ولا عَلِمَ أهلُها. وعلى الرغم من أننا نفترق تسعة أشهرٍ في السنة – هي في طنطا وأنا في پرنستون – فقد كنا نستأنف علاقتنا في الصهور وكأننا التقينا البارحة. نتراسل، على نحو متقطع، نكتب رسائل ودّية ولائقة، وأنا ـ من جهتي ـ كنتُ أحمل رسائلها في جيوبي أسابيع عديدة، فأتصوّر نفسي وقد ازددتُ قربًا منها.

وكان محتومًا أن تَسْمع امي بإيڤا. وأذْكر أنّ أبي تطرّق إلى سنّ إيڤا قائلاً: «عندما تبلغ إيڤا الستين، تكون أنت ما تزال في مَيعة شبابك. هل تدري كيف سيكون الأمر إذّاك؟». ثم أضاف واحدةً من عباراته المعلّبة، وهي بمثابة أمثولة تحذيرية: «عندما تكون عازبًا، يدعوك الجميع إلى بيوتهم، ولكنْ عندما تتزوج، لن يعود أحدٌ يأبه لك». على الأقل، كنتُ أعلم موقفه مني، خلافًا لَلحال مع أمي. ففي البدء، كان سلوكُها حذرًا، لا يوحي بأكثر من فضولٍ حياديٍّ تجاه إيڤا وتجاه شعوري نحوها. ولكنّ نبرتها أخذتْ تقسو تدريجيًا إلى أن بلغتْ حد التهديد في تساؤلها: «... وأفترض أنّ إيڤا كانت هناك أيضًا؟». ثم بدا لها أنّ إيڤا تخطّت بعض حدود التصرّف اللائق والحشمة إذ علّقتْ قائلة: «ما الذي يظنه والداها من قضائهامعظم وقتها مع شباب من أمثالك؟ ألا يعلمون أنها تفرِّط في فرص عثورها على عريس؟».

ما إن استقرّتْ علاقتي بإيڤا في تقدمها الأشبه بزحف جبل الجليد، ما يزيد على ثلاث سنوات، حتى ساورني إدراكٌ ضمنيٌّ بأنه يترتّب عليّ تحاشي الحديث إلى أمي عن ايڤا أو الإجابة، ولو باقتضاب، عن تعليقاتها غير المطلوبة. فلا شك أنّ

سنُّ ايڤا، ونمطَ حياتها المختلف والمتبطِّل بعض الشيء، ومذهبَها (روم أرثوذكس)، وفرانكوفونيتها، قد افزعتْ امي، ولكنِّي لم أخمّن أنها مصممة على معارضة استمرار علاقتي بها.

في صيف ١٩٥٦، عندما كنتُ في العشرين وايڤا قد أشرفتْ على السابعة والعشرين، نظّم نادي طبّارة نزهة جماعية إلى الشاطئ في بيروت تختلف كليًا عن نزهاتنا العائلية في العقد السابق، فلا أهل معنا ولا مواقيت معينة يجب الالتزام بها. قصدتْ مجموعتُنا في تلك السنة مَسبح الإيدن روك، وهو برْكة على شكل كلوة، مبنيّةٌ على الطراز الكاليفورنيّ، مُلحَقةٌ بمطعم وملهى ليليّ على صخرة مطلّة على البحر، إلى جوار صخرة الروشة والسبورتنغ كلوب؛ وهذا هو نادي السباحة الجديد المبنيُّ على الصخور إلى الأسفل قليلاً من الإيدن روك، والمزوّدُ بمقهى مفعم بالحيوية وبمناطق عدة للتشمّس وبار. ولل«سپورتنغ»، كما يسمّونه، عدةُ مداخل تتدفق منها مياهُ البحر حيث يستطيع المرء استئجار قارب، عندما لا يكون البحر هائجًا جدًا، ويجدّف باتجاه صخرة الروشة والكهوفِ الباردة فيما يتعدّاها بقليل. فاقترحتُ على ايڤا رحلة بحرية، وقد كان البحر رائقاً على نحو رائع، ونورُ الشمس برّاقًا وثاقبًا، والمشهد كله يوحي بسكينة رائعة مهدّئة. جلستْ على مقعد قبالتي، ورحتُ أجدّف خارجًا من محيط السپورتنغ منحرفاً خلفاوياً باتجاه الصخور تلبيةً لرغبتنا المشتركة في الالتجاء إليها بعيداً عن أعين الفضوليين.

في ثوب السباحة المؤلّف من قطعة واحدة، بدت ايڤا أكثر إثارة للرغبة من أيّ وقت آخر. لها بشرة سمراء ملساء، وكتفان تامتا التكوير، وساقان مسمورتان. ومع أنّ وجهها ليس جميلاً بالمقاييس التقليدية، فقد كان ينمّ عن لهفة لا تقاوَم. تحت صخرة داخلة في البحر، تعانقنا لأول مرة. فجّر العناقُ كل عواطفي المكبوتة، فأعلنّا الحبَّ واحدنا للآخر، وعلى طريقة رواةٍ حلَّ عليهم الإلهام فجأةً، أخذنا نعيد رواية قصة سنوات البعاد والتوق غير المباح. صُدِمتُ لقوة شغفي. عُدنا إلى الضهور عند الأصيل. وفي المساء، التقينا سائر أفراد المجموعة في سيتي سينما، حيث جلسنا جنبًا إلى جنب نتهامس مكرِّريْن إعلان الحب مرةً بعد مرة.

عندما خرجنا من دار السينما، توادعنا بطريقة عَرَضية، لإدراكنا أنّ الجميع يحدّق إلينا، ومضت ايڤا مع نيللي. كان اليوم التالي هو موعد سفري، وهذا يعني

أني لن أراها مجددًا قبل تسعة أشهر. وفيما أنا أستقلّ السيارة مع أختي روزي، تملّكني وجعُ بطن رهيب. فحصني طبيبُنا في اليوم التالي، فوجد بطني رخوًا لكنه لم يعثر على أية أعراض أخرى. فكتب تقريرًا طبّياً لپرنستون يشرح فيه أني سوف أعود بعد أسبوع بسبب الوعكة الصحية. لستُ أدري ما إذا كان الحب هو المسؤول عن مرضي، ولكن الأكيد أني لم أكن أريد مفارقة ايڤا.

بعد أن أوصلتُ ايڤا إلى منزلها في آخر ليلتي الحقيقية معها، وجدتُ أمي تنتظرني في غرفة الجلوس. وفي الغرفة التي قلّل من خوائها بعضُ الكراسي اللائقة من ذوات الذراعين والسجادات العجمية على الأرضية ومناظر عن لبنان معلّقة على الجدار اشترتها من بائعِ تحفٍ في بيروت، ادّعت أمي أنّ بالها قد انشغل لأني كنتُ على طرقات الضهور المهجورة والضعيفة الإنارة، وأقلقها أني تأخرتُ كثيرًا، علمًا أنه يجب أن أستيقظ باكراً في الغد للقيام برحلة العشرين ساعة إلى نيويورك. فاجأتني نبرتُها غيرُ الودية وهي تستنطقني أين كنتُ. في العادة أكون أكثر من سعيد لأشاركها جيئاتي وغدواتي، ولكنّي وجدتُني أجيب متبرّمًا وبعبارات جد مقتضبة محاولاً حماية نفسي وإيڤا. لقد عادت إليّ هشاشتي القديمة كأنها أتت من حياة أخرى غير مستحبّة. «وأظن أنكَ قبّلتَها أيضًا؟» سألتْ، وإذا بإثارة الحب الأول تتحوّل شعورًا بالذنب والانزعاج.

كانت تتحدث بنفور وبنبرة تظهر لديها كلما وَرَدَ موضوعُ الجنس أو العلاقات الجنسية في الأحاديث. وبغضب رددتُ على سؤالها بأنّ الأمر لا يعنيها، وأنا أحاول تجاهل شعور ملحّ بأنه يعنيها بمعنى ما. انفَلَتَ زنبركُ الالتباس عند امي. فحبُّها لي يعني أنها تعتبر أيّ ارتباط آخر انتقاصًا من سيطرتها عليّ. ومع ذلك، فإنها تقليدية جدًا بحيث تعتقد أنّ الناس يجب أن يتزوجوا وجوبًا، رغم اشمئزازها من الجنس.

دامت قصة حبي لإيڤا سنتين إضافيتين، كنتُ أرفض خلالهما، بطريقة طفولية، الاعتراف بأنّ الزواج هو عندها المآل المنطقيّ لعلاقتنا. وعندما تخرجتُ من پرنستون عام ١٩٥٧، حاولت اثنتان من صديقاتها على الأقل إقناعي بالتفكير جدّيًا في الزواج. أمضيتُ العام التالي (١٩٥٧-١٩٥٨) في مصر قبل الذهاب إلى هارڤارد للدراسات العليا. ولما كانت إيڤا تسكن الإسكندرية مع شقيقةٍ لها ترمّلتْ حديثًا، فقد صرتُ أذهب إلى لقائها بحجة متابعة أعمال أبي هناك. ظلت علاقتنا

الجسدية متّقدة ولكنها غير متحققة لأنّ كلينا يفكر أننا إذا اجتزنا ذلك الخط الأحمر صرِنا زوجًا وزوجةً بالمعنى الكامل للكلمة. فكانت إيڤا تردعني – بدافع حساسيتها وحبها المفرطيْن، على ما اعتقدتُ – قائلةً إنها لا تريدني أن أتحمل المسؤولية. وإذ استمر حبُّنا واستمرت معه لقاءاتُنا السرّية في الإسكندرية، نما إعجابي بقوة إيڤا وذكائها وجاذبيتها الجسدية. لم تكن مثقفةً، غير أنها تنمّ عن صبر واهتمام رائعين وهي تصغي إلى أحاديثي عن قراءاتي واكتشفاتي. صارت إيڤا محاوِري الجديد، وحلّت في ذلك الدور محلّ أمي، التي سبق أن لاحظتْ تحوّلَ اهتمامي بها وقربي منها إلى تلك المرأة الأخرى.

تباعدتْ لقاءاتنا، وقد باعدتْ بيننا المسافاتُ الطويلة واختلافُ أنماط الحياة التي يعيشها كلٌّ منا: فأنا كنتُ سأبدأ الدراسات العليا في هارڤارد السنةَ القادمة، وهي ـ آخر العازبات في عائلتها ـ سوف تسكن طنطا أو الإسكندرية. وقد تقلّصتْ سعادتي بمقدار اكتشافي مبلغ الضرر الذي سوف تتعرّض له حياةُ إيڤا إذا هي لم تتزوّج. كانت عائلتها تنغّص عليها حياتها. لم يسمحوا لها إلا على مضضٍ بقضاء بضعة أشهر من الراحة في روما حيث درستْ تاريخ الفن واللغةَ الإيطالية. وفي إحدى زياراتها لمصر، أبلغتني أنها صممتْ أخيرًا، وإنْ من قبيل اليأس، على زيارة أمي في القاهرة وأَخْذِ موافقتها، ظنًا منها أنّ هذا هو العلاج لترددي في مسألة الزواج. كنتُ في هارڤارد عندما زارتنا إيڤا، فاستقبلتْها أمي بحفاوة. وقد قدّرتُ براعة أمي مما روته لي إيڤا وأمي وإحدى شقيقاتي لاحقًا.

اعترفتْ إيڤا بحبّها لي وافتتحتْ حديثها بالقول إنها ترغب في معرفة ما هي مآخذُ أمي عليها. ترافعتْ إيڤا عن قضيتها باعتدال في القول وبتواضعها المميّز، مقدِّمةً معطياتٍ معقولةً ومقْنعة. أنصتت أمي بصبر، بل وبتعاطف، كما أبلغتني لاحقًا. ثم باشرتِ الجواب: «دعيني أَكُنْ في منتهى الصراحة معك. أنتِ شخص رائع يتمتع بمؤهلات كبيرة. المشكلة ليست أنتِ، بل المشكلة هي إدوراد. أنتِ أفضل منه بكثير: فقد نال الشهادة الجامعية منذ قليل، وهو متردد جدًا في ما سيفعله بحياته، ونظرًا إلى ميله إلى قضاء سنوات في مواصلة دراسته أو إلى مجرد إضاعة الوقت، فهو لا يَمْلك أن يعيل نفسه فكيف بإعالة زوجة وأولاد؟». قاطعتْها إيڤا فورًا بالقول إنها تَمْلك ما يكفي من المال لكلينا. لكنّ أمي آثرتْ تجاهل تلك النقطة: «أنتِ امرأة ناضجة

وبارعة جدًا وتملكين حياة زاخرةً أمامك. إدوارد طبعًا ابني الذي أحبّه حبّاً جمّاً، ولكنني موضوعية بشأنه أيضًا. إني أعرفه تمام المعرفة. إنه غير ناضج، ونظرًا إلى سجلّه في الشرود وضعف التركيز، يجب أن أقول لكِ إني مهمومة جدًا، بل قلقة، على مصيره. لا أستطيع أن أنصحكِ، بضمير مرتاح، أن تَعْقدي الكثير من الآمال عليه، مع أني طبعًا أعتقد أنه يتمتع بطاقات عظيمة. فلماذا تضحّين بمستقبلك من أجل شخصٍ غير مستقرّ مثله؟ اسمعي نصيحتي، يا إيڤا، تستطيعين أفضلَ من ذلك».

عندما لُمْتُ أمي على ذلك كله، لم أستطع أن أتبيّن تمامًا أية ملاحظة من ملاحظاتها جرحتني أو أراحتني أو أغضبتني أكثر من سواها. من الناحية التكتيكية، نفّستْ أمي من اندفاعة إيڤا التي جاءت لتدافع عن نفسها فوجدتْ نفسَها تحاول إقناع أمي بفضائل ابنها. وشدّ ما أغاظني إلحاحُ أمي على أنها، بسبب حبها لي، إنّما هي الوحيدة التي تَعْرف ما أنا الآن وما كنتُه في الماضي وما سوف أبقى عليه أبدًا. «إني أعرف ابني» تقول منافقةً، فتسمّرني باستنكارها وبإلحاحها على أنها تعرف ما سوف أكونه دائمًا – خيبةَ أملٍ على المدى البعيد. فلا جدوى من كل المحاولات لزعزعة إحساسها باليقين المحتوم بشأني. والحال أني لم أكن أطلب رأفتها قَدْرَ ما كنتُ أطالبها بأن تعترف بأني قد أكون تغيّرتُ، وبأن تعدّل من آرائها التي تتمسك بها بمزيج مثبِّطٍ للهمم من الوثوق الهادئ والبهجة المنيعة. فكأنّ ابنها ثابتٌ في جَرْدةٍ من الرذائل والفضائل لا تَحُول ولا تزول أبدًا، هي مؤرِّخها الأولُ ومرجِعُها الثقةُ.

لكني شعرتُ أيضًا في الآن ذاته بشعور خفيّ وحقير من الانفراج لإحباطها مشاريعَ إيڤا للزواج. كان إنجار أمي غير المعلن أنها أعادتني من جديد إلى مدارها، وسمحتْ لي بأن أَنْعم بحبّها، مهما يكن غريبًا وغيرَ مُرضٍ، غير أنّها في الوقت نفسه جعلتني أنظر إلى علاقتي بإيڤا نظرةً جديدةً ولكنها سلبية. فلماذا يتوجب عليّ أن أتحمل مسؤولية عائلةٍ الآن (وأمي تصوِّر الزواجَ نشاطًا هامدًا وغير مبهج أساساً، يُفترَض به أن يدوم إلى الأبد)؟ ولماذا لا نستطيع أنا وإيڤا أن نحافظ على علاقتنا كصديقين؟ والحال أنّ تحذيرات أمي لإيڤا شكّلتْ دعمًا ضمنيًا لي كي أقيم علاقاتٍ غيرَ مسؤولة لا تنطوي على جدّية الزواج المروّعة ولكنها تسمح، في الآن ذاته، لعلاقتها هي بي أن تظل العلاقةَ الغالبةَ.

بعد بضع سنوات في الضهور، أرتني أمي نبذة في **الأهرام**، اليومية المصرية، تُعْلن خطبةَ إيڤا إلى ابن عمها. فأدركتُ مفاجأً أنّ إيڤا لعلها سمعتْ بأني أنا أيضًا على علاقة بإحداهنّ وأخطط للزواج منها - وهذا ما حصل خلال الأسبوع ذاته الذي علمتُ فيه بخطوبة إيڤا. ولكنّ حقيقة الأمر أنّ زواجي الأول كان قصيرًا وبائسًا، وهو ما عمّق من شعوري المحبِط بأني لا أستحق إيڤا، التي لم ألتقها مجددًا خلال السنوات الأربعين التي تلت.

انقطعتْ صلتي بإيڤا مع حلول صيف ١٩٦١ عندما كان أبي، في منتصف تموز/يوليو، يهمّ بإجراء عملية صغيرة لاستئصال دمّلة نازّة فوق كاحله، عَرَضها على أطباء متنوعين خلال سنوات عديدة في مصر والولايات المتحدة ولبنان، لكنّ فريد حداد هو الوحيد الذي حذّره منها في وقت مبكّر وحثّه على استئصالها في مناسبتين على الأقل. وظلّ أبي، لنفوره من الإقدام على أيّ خطوة بشأنها، يستشير أطباء آخرين، إلى أن تقيّح الجرحُ وصار موجعًا جدًا، فقصد بيروت لاستئصال الدمّلة في مستشفى الجامعة الأميركية. كنتُ في الخامسة والعشرين حينها وفي خر أيام دراستي في هارڤارد. وفي نهاية أسبوع جراحته، عَلِم أبي من طبيب الجلد أنّ زرع العيّنة من النسيج المستأصل أبان وَرَمًا قتامينيًا خبيثًا في حالة متقدمة من النموّ الانبثاثيّ. وفي الأسبوع التالي، تولى سامي عبيد، الجراح العموميّ الشاب والمشهور الذي نَعْرف أهله من ضهور الشوير، عمليةَ شقٍّ واسعةً في رجله، واحتفر له حفرةً كبيرةً أورثتْ أبي عرجةً دائمة، إضافةً إلى استئصاله كتلةً كبيرةً من العُقَد اللِمفاوية المُصابة في موضع أعلى من جسمه.

كان منير نصّار يتخصص في أمراض القلب في تلك الأيام. وفي أواخر أحد الأصائل، بُعَيد عملية الشقّ المحلية لغرض زَرْع الأنسجة وقبل العملية الجراحية، كنا واقفيْن معًا قرب بيتنا في الضهور إلى جانب شجرة الكرز المزهرة، وهو يَشْرح لي بمهابةٍ طبيعةَ النموّ الانبثاثيّ وتطورَه المتوقع. أردته أن يؤكد التشخيص ففعل، ولكني رغبتُ أن أعرف من منير أيضًا ما إذا كان ذلك يعني نهاية أبي. كنتُ آنذاك أتبحّر عميقًا في قراءة كونراد وڤيكو وهايدغر، وسواهم من الكتّاب القاتمين القساة الذين ظلوا يمارسون تأثيرًا قويًا في عملي الفكريّ. غير أني وجدتُ نفسي ضعيفَ

المناعة إلى حد مدهش إزاء الأخبار الأليمة عن جراحة أبي وعن العلاج بالأشعّة والاشتراكات المحتملة لكل ذلك. وكنتُ مدفوعًا بالفضول المكرب ذاته الذي تولّد لديّ في الساعات الطويلة التي قضيتُها وأنا في العاشرة من عمري أحدّق إلى الأوعية الزجاجية في متحف القاهرة الزراعيّ التي تَعْرض نسخًا تفصيليةً بالشمع للأمراض التشويهية مثل الفُيَال والبلهارسيا والمصْع. فسألتُ منير أخيرًا ما إذا كان لأبي فرصةٌ للبقاء على قيد الحياة بعد كل هذا. لم يَحرْ جوابًا. «ولكنْ، هل سوف يموت؟» ألححتُ في السؤال، فانخفض صوتُه وتجهّم وجهُه مع هبوط الظلمة السريع، وأجابني ببطء شديد: «ربما».

في عام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٨ أقلقني مرض أبي، ولكني لحسن الحظ لم أكن مدركًا لمدى خطورته إلا جزئيًا. كنتُ جاهلاً بحقائق الموت، بل بحقائق الأمراض الجسمانية المطوّلة والمعوِّقة. خلال تلك الحادثتين السابقتين، أذكر أني كنتُ أراقب أبي على مسافة وقائية، قلِقًا ولكني منعزل. وأما الآن فكنتُ أستطيع، في سلسلة من الومضات المتخيلة، أن أشاهد جسده يتعرّض لاجتياح الخلايا الخبيثة المقيت، تأكل أعضاءه تدريجيًا، ويمزّق المرضُ المخيفُ، بل الوخيمُ، نخاعَه وعينيه وأذنيه وحنجرته. فكأنّ الدعائم المشيّدة بعناية، والتي تَدْعم حياتي وتغذيها، تتهاوى فجأةً وتتركني في فراغ مظلم. فتملّكني إحساسٌ بأنّ صلتي البدنية المباشرة بأبي يتهددها خطرُ الانصرام الكامل، وهو ما يتركني بلا حماية ولا مناعة على الرغم من كُرهي أغلبَ الأحيان لحضوره المتطلِّب. ما مصيري في غيابه؟ وماذا سيحلّ محلّ ذلك المركّب، من القوة الواثقة والإرادة التي لا تُقهر، الذي صرتُ متعلقًا به بطريقةٍ لا عودة عنها وقد أدركتُ أني أتغذى منه بطريقة لاواعية؟

لماذا في اللحظة التي أمكنني فيها استشرافُ إمكانات تحرري، صرتُ أرى إلى موت أبي كارثةً رهيبةً ومستفظعة إلى أبعد حد؟ «ولكنْ، لا يزال هنالك أمل في أن يخرج حيًا من الجراحة ويعيش فترةً من الزمن، أليس كذلك؟»، سألتُ منير بما يشبه التوسُّل. وبعد برهة صمت لا يستهان بها قال ما معناه: «إني أفهم وجهة نظرك: أن يعيش بعد الجراحة. بلى، طبعًا. لكنَّ الورم القتامينيّ خؤون جدًا، وهو أخبث أنواع السرطان. ومن هنا فإنّ التكهن على المدى البعيد بشأنه لا بد أن يكون» -وصَمَتَ مجددًا - «هزيلاً جدًا». فانصرفتُ عنه فورًا وأخذتُ أرتقي السلالم ببطء

باتجاه بيتنا المظلم الهجور وأنا آمل أن يَظْهر مَنْ يساعدني على التخفيف من قنوطي الموحِش.

أدركتُ فيما بعد أنّ اجتياح السرطان هو أول تدخّلٍ لا عودة عنه في حميمية عائلتي التي كنتُ أعتقد أنها لا تُمسّ، على الرغم مما قاسيتُه فيها من مصاعب. ولم تكن ردودُ أفعال شقيقاتي مختلفة عني: «إنه زحف المرض الذي يرعبني»، قالت لي روزي مرةً بكرب عظيم. وحين سمعتْ جويس بأنّ حياة أبي في خطر، لدى وصولها إلى المطار، أصيبت بنوبة من الحُصار المدمِّر. وحدها جين بدت قادرةً على التماسك، فلازمتْ أبي، خلال الأشهر الثلاثة التي قضاها في المستشفى، مبديةً شجاعةً فائقة، أعترفُ ببساطة أني لم أكن أملك شجاعةً تجاريها.

طغى على جراحته التاليّة لاستئصال العقد اللمفاوية وما تبقى من آثار الورم القتاميني، الدراما والعذابُ اللذان أعقباها. تعافى أبي من العملية ببطء، وخلال أسبوع بدا وكأنه يتحسن يومًا بعد يوم. وكان المؤشِّرَ إلى تقدمه حلاّقٌ صغيرٌ مرحٌ يظهر في حوالى العاشرة كل صباح: فإذا كان أبي في حالة جيدة، سَمَحَ له بأن يَحْلق له، وإلا عاد الحلاق أدراجه بحيوية دون أن ينبس ببنت شفة. والعادة في العالم العربيّ أنه عندما يكون المرء في المستشفى، يلازمه أفرادُ عائلته من الصباح حتى المساء، فيتدفق الزوارُ في سيل متواصل للإعراب عن تضامنهم مع العائلة، ولا يزورون المريض نفسه إلا نادرًا، ويتناولون لقاءَ ذلك قطعةَ شوكولاتة أو قطعة بسكوت. كنا مقيمين في الضهور آنذاك، لكننا نأتي إلى المستشفى في بيروت في حوالى التاسعة كل صباح ولا نغادر إلا في المساء. وبسبب خطورة وضع أبي، طَلَبَ عنايةَ الممرضات على مدار الأربع والعشرين ساعة. وقد أمّنتْ ذلك عانساتٌ أرمنياتٌ عجائز، صارت إحداهنّ، وهي الآنسة آريڤيان، صديقةً حميمةً للعائلة إلى حين وفاة أبي بعد ذلك بعشر سنوات.

خلال صيف ١٩٦١، مات أبي نصف دزينة من المرات على الأقل. في تلك الحالات، كنا نغادر حوالى الثامنة مساءً فتوقظنا مكالمةٌ هاتفية في الضهور في الثالثة بعد منتصف الليل: «"تعالوا فورًا"، يقول صوتٌ، "إنه يُشْرف على النهاية"». فنحشر أنفسنا في سيارة تاكسي ونصل إلى المستشفى قرابة الفجر لنجده في حال صدمةٍ وغيبوبة. ويبدو أنه أصيب بكل الاشتراكات التي يمكن تصوّرها. ففي

البداية، أصيب بالتهاب مخيف في المسالك البولية، شفي منه بما يشبه الأعجوبة، ثم ما لبث أن انتَكَسَ من جراء نزيف داخليّ قويّ. ولكنّك بعد يومين، تراه جالسًا على سريره يَحْلق له الحلاق الصغير ذقنه وهما يثرثران. كانت تلك المناسبات تغمرني بشعور عارم بالحرية، فأروح إلى المسبح، أو حتى إلى السينما، ثم أمرّ لألقي عليه تحية المساء، قبل أن أقفل عائدًا إلى الضهور. وبعد يومين، يصلنا هاتف آخر في الرابعة فجرًا. وإذ أصل المستشفى، أسمع الطبيب يقول إنّ أبي مات سريريًا لأربع دقائق، لأنّ قلبه قد توقف كليًا عن الخفقان، ولكن صَدفَ مرورُ اَلِكْس زخريا، الطبيبُ الداخليّ الشاب، قرب غرفته، فهرع إليه وأنعشه بسرعة، غير أنّ جسمه أصيب بضرر فادح، وظل يتراوح بين الانطفاء النهائيّ وبين حالة قلقة شبه واعية، على امتداد أسبوع كامل.

وقد تستمر تلك الحالة يومين إضافيين تلقاه بعدهما يَحْلق له حلاقُه مجددًا، وكأنّ شيئًا لم يكن. ويعود إليه طبعُه الاستبداديّ: «يجب أن تذهب لتناول الغداء عند وديعة مقدسي»، قال لي ذات يوم، «سوف تكون ممثلي هناك»، مضيفًا ذلك من قبيل التبرير. ولكنني لم أذهب، فمنعني يومًا كاملاً من دخول غرفته عندما علم بالأمر من أمي. وخلال ما لا يقلّ عن أسبوعين، ظل يعود إلى الموضوع ذاته، مشدِّداً على المخالفة، كأنني أسأتُ التصرّف أو تحدَّيْته، أنا الطفلَ ذا السنوات الخمس والعشرين، وهو الأبَ الصارمَ. كانت له طريقةٌ لجوجة للعودة تكرارًا إلى موضوع من الموضوعات، مكرِّرًا الأسئلة ذاتها والملاحظات نفسها، إلى أن يبلغ حدودًا مجهولة يتوقف عندها، كأنه قد اطمأنّ إلى أنه واصلَ الإلحاح حسبما تقتضيه الضرورة، أو قَدْرَ ما تتطلبه الحالة المعنية. «خلاص»، هذا كل ما في الأمر، انتهينا، يقول، مقتنعًا بأنه قد عالج الموضوع بطريقة مُرضية. وفي طورٍ لاحق من مرضه، عندما ظهرتْ على إحدى شقيقاتي أعراضُ انهيار نفسانيّ حادٍ، ظل يسأل: «لماذا تتصرف على هذا النحو؟ ألم نكن والديْن صالحين معها؟»، ثم يعيد صياغة أسئلته تلك مرةً بعد مرة دون تحسُّن يُذكَر. ثم إنّ الصعوبات المزمنة – والتي صارت خرافية – التي يعانيها أبي في نطق الكلمات غير المألوفة (فيقول «فيتا بيتا» بدلاً من «فاي بيتا كاپا» و«روتجيرس» بدلاً من «راتجرز»، الخ.)، تجعله يتعثر على نحو مدهش عند كلمة «سايكاياتريست» التي قد ينطقها «پسايپساي» أو «پيسپيس» أو

«كاياتريست» أو «فلان-تريست». غير أنه كفّ عن طرح أسئلته فجأةً عندما اعتبر أنّ قضية شقيقتي قد حلّت وأنّ حالتها إلى تحسُّن: «خلاص»، يقول لي، «ارتحنا»، وفعلاً يصير بإمكاننا نحن أن نرتاح[1].

استمرت تعقيداتُ مرضه خلال شهر آب/أوغسطس: مزيدًا من المشكلات المعوية، ومزيدًا من الالتهابات في المسالك البولية، ومزيدًا من التضرّع انشباحًا على الأرض، ومزيدًا من الاتصالات الهاتفية بعد منتصف الليل، ومزيدًا من الصدمات، ومزيدًا من التشبث بحياته بأظافرنا جميعًا. وقد اضطررتُ إلى تأجيل موعد فحص طبيٍّ مع مجلس الخدمة العسكرية ثلاث مرات منذ أزمة جدار برلين عام ١٩٦٠. فتصلّبوا أخيرًا ورفضوا منحي تمديدًا آخر. فجهّزتُ نفسي كما يجب للمغادرة في نهاية آب/أغسطس. وفيما يشبه الأعجوبة، انقشعتْ عن أبي معظمُ مشاكله، مع أنه ظل على شيء من الهزال لما عاناه من ويلات خلال الأسابيع الثمانية الأخيرة. وأذكر أني عدتُ إلى الضهور عشية مغادرتي إلى أميركا فجرًا، وأخذتُ أرتّب حقائبي وجمّعتُ الثمار المجففة والمكسّرات من البلدة ثم أويت إلى فراشي حوالى الحادية عشرة، بعد أمسية أمضيتُها عند آل نصّار. وكان الدكتور فايز، الكولونيل، بين الحضور. وعندما قلتُ شيئًا عن تأكدي من وضع أبي الصحيّ بما يكفي لكي أسافر، روى على نحو مؤثّر وبنبرة متقطعة: «عندما كان وحيدًا، وفي حالة صدمة الأسبوع الماضي، دخلتُ غرفته لبرهة وسجدتُ منشبحًا على الأرض هكذا» - فرفع ذراعيه ببطء شديد فوق رأسه ثم أنزلهما ببطء مماثل - «وأخذتُ أصلّي لله تعالى لينقذ حياة وديع». وختم قائلاً: «أظن أنّ الله قد استجاب لصلواتي»، ثم انكفأ إلى الصمت الجليديّ الذي كان يلتزمه خلال سنواته الأخيرة.

في الثالثة فجرًا من يوم مغادرتي، هرعنا إلى بيروت وقد أيقظنا هاتفٌ يستدعينا إلى المستشفى. أذكر وقوفي أمام حقيبتي المفتوحة، وقد أذهلتني وأرهقتني تقلباتُ مرض أبي، عاجزًا عن إتيان أية حركة غير التحديق إلى الحقيبة على الأرض، حائرًا، لستُ أدري ما إذا كان عليّ أن أغادر أو أن أبقى. أنجدتني

---

١ - «فاي بيتاكابا» Phi Betakappa، جمعية شرَفيّة اميركية للطلاب الجامعيين المبرّزين، و«راتجرز» Rutgers، اسم الجامعة الرسمية الأميركية في نيو جيرزي، وطبعاً «سايكاياتريست» Psychiatrist هو الطبيب النفسانيّ. (م)

ليلى، زوجةُ منير نصّار، الممرضة المدرّبة، فحثّتني على إتمام استعداداتي للسفر وساعدتني على تحميل كتبي وحقائبي في السيارة، وأصرّت عليّ أن أتوقف في المستشفى لزيارة قصيرة في طريقي إلى المطار. كانت ليلة باردة براقة على نحو استثنائيّ، سماؤها مشتعلة بالآلاف من نقط الضياء البعيدة، والضهور ذاهلة عن مشاكلنا ومآزقنا. اختبرنا جميعًا لونًا من الصمت المخدِّر، فقد بدا أنْ لا نهاية لذلك المسلسل المخيف من الأزمات التي تنقضّ علينا وتجعلنا عاجزين عن شيء غير أن نهرع إلى المستشفى ومنه، حيث يناضل أبي ثم ينتكس موقتًا ثم يعاود النضالَ في وحدة «التابلاين» المرهوبة الجانب (المسماة على اسم «شركة الأنابيب عبر الجزيرة العربية» التي تبرّعتْ بذلك العدد القليل من الغرف وجهّزتْها وزوّدتْها بأجهزة التبريد). كان عدد من أطبائه قد وفدوا لمعاينته وقد بات حالةً شهيرةً بسبب عدد الاشتراكات النادرة والمحيِّرة التي ألّمت به: «إنّ أباك سوف يَنزل اسمُه بالتأكيد في كتب الطب»، قال لي أحدهم بوقار.

ذهبتُ إلى المطار في شبه خدر، فقد كان اسهامي الوحيد في التخلّص من القنوط الملهوج هو إقناع أمي باستقدام جرّاح بريطانيّ شهير هو السِر رودني ماينغوت من لندن لاستشارة طارئة. أبدى بعض المتبجّحين من الأطباء المحليين شيئًا من الممانعة للفكرة («سوف يجيء يومين أو ثلاثة، ويكون أبوك قد تعافى كما العادة، ومجددًا يجري تحميلُ الفضل في ذلك لـ"الرجل الابيض" على حساب السكان المحليين»). لم نتزحزح أنا وأمي عن موقفنا. وفي وقت متأخر من ذلك الصباح، حين كنتُ أطير فوق أوروبا، وافق مايغوت على المجيء وطلب أجرته ألف جنيه إسترلينيّ نقدًا، إضافةً إلى سائر النفقات. وكما هو متوقع، ما إنْ وصل إلى بيروت، بعد ست وثلاثين ساعة، حتى كان أبي قد تعافى، فقضى الطبيب الشهير عطلة نهاية الأسبوع ينعم بفخامة فندق سان جورج الأسطورية. من كمبردج، تابعتُ أخبار شفاء أبي شبه الكامل يتملكني خوف متفاقم من أن أكون مصابًا بالأورام الخبيثة فألْقى العذابَ الذي لقيه. فشخصّتُ لنفسي أعراضَ عدة زوائد لحمية وأورام جلدية كان أطباءُ مصلحة الصحة في هارفرد يصرفونها دوريًا بنفاد صبر متزايد. ومهما يكن، فقد حيّرني العمقُ الطاغي للصلة التي أحسستُ أنها تربطني بأبي.

مهزولاً، نحيلَ الأطراف (ولاسيّما الرِّجْلان)، منكمشَ الوجه، مختلَّ التوازن، قرّر أبي، بعد أن شق طريقه بالنضال عبر صدمات لم يكن يتوقع خروجَه منها على قيد الحياة، أن يعود إلى تدخين السجائر والسيغار والغليون ولعب المزيد من البريدج والاستمتاع بالسفر الفخم. كنتُ متلهفًا لاستعادته عافيتَه لكي نعود الى حلبة السيطرة ومقاومتها الباطنية التي اعتدنا عليها، حيث يجري توعّد «إدوارد» والتنمُّرُ عليه، فيما ذاتي الأخرى، المنتشرة والمخبأة، تتحيّن فرصتها وهي تبحث عن مسارات خاصة لا يطاولها حضورُ أبي المهيمن. غير أني أدركتُ أيضًا أنّ قوته ومجرد حضوره، على ما أورثاني من إزعاج، قد وفّرا لي بنية جوّانية متماسكة في عالم من التقلّبات والاضطرابات، مثلما أدركتُ أني لن أستطيع الاتكال عليه مباشرةً لمحضي مثل ذلك الدعم من الآن فصاعدًا. فقد شكلتْ خطورةُ مرض أبي إنذارًا مبكرًا بفنائيته وفنائيتي أنا أيضًا، كما أشارت في الآن ذاته إلى أنّ الحِمى الشرق أوسطيّ الذي ابتناه لنا ليكون بيتًا وملجأً وملاذًا، وتوزّعتْ أركانه بين القاهرة والضهور وفلسطين، مهدّد هو أيضًا بالتصدّع والزوال. وبعد عشرين سنة على وفاته، عندما وجدتُني في جلسة تحليل نفسانيّ أركّز على تذمراتي من موقف أبي تجاهي، اختبرتُ نوعًا من التجلي. فأخذت أذرفُ دموع الحزن والأسف على كليْنا معًا، وعلى سنوات من النزاع الضامر باعدتْ خلالها بيننا ضراوتُه المهيمنة وعجزُه عن التعبير عن أية عاطفة إطلاقًا، الممتزجان بإشفاقي على نفسي ونزعتي الدفاعية. فقهرني التأثر لأني اكتشفتُ فجأةً أنه كافح طوال تلك السنوات للتعبير عن نفسه بطريقة لم يكن معَدّاً لها من حيث الطبع والنشأة. ولعلني قطعتُ قنوات الاتصال بيننا لدوافع أُوديبية، أو لعل أمي هي التي سحبت البساط من تحت قدميه، بمهارتها في التلاعب على الالتباسات. ومهما يكن نصيبُ ذلك من الصحة أو الخطإ، فها انّ الفجوة القائمة بيني وبين أبي قد خُتم عليها بالصمت المديد. وهذا ما واجهتُه، في عيادة محلّلي النفسانيّ، بدموع سمحتْ لي بإلقاء نظرة غفران على سلوكه الأخرق وعلى العناية الرعناء، ولكن الفعلية، التي أبداها تجاه ابنه الوحيد.

شكلّت انتكاساتُ أبي المديدة خلال السنوات العشر من حياته خاتمةً لحقبة من تجربتنا اللبنانية، فيما الانزياحاتُ الزلزالية التي ضربتْ منطقة الشرق الأوسط تسجّل آثارها على بيئتنا المصغّرة في الضهور، وتغيّر العالم الذي نعيش فيه بطريقة

نهائية. خلال المرحلة الأولى من الثورة المصرية (تموز/يوليو ١٩٥٢) كنا لا نزال نقيم في القاهرة، فأُصِبنا بعدوى الشجاعة والخطابة اللتين كان ينمّ عنهما جمال عبد الناصر وهو يتحدث عما يحققه لشعبه... إلا أبي، الذي كان يتحيّن فرصًا أخرى ملائمة. صارت أمي بشكلٍ خاص مؤيِّدًا حماسيًا لنزعة عبد الناصر القومية، لا تطلق العنان لحماستها إلا أثناء الزيارات التقليدية المملّة في ضهور الشوير، ببلاغة واندفاع يقلقان مستمعيها. ولم ندرك حينها أنّ الاصطفافات السياسية في لبنان – الطائفية منها والنزاعات البيزنطية التي غالبًا ما تكون متوارية – بدأتْ تنظم ردود أفعالها على ارتفاع مكانة عبد الناصر ليصير المارد العربيّ. فلم نلاحظ أنه بدا لحلقتنا المسيحية الصغيرة في الضهور طالعًا لا من القاهرة وإنما من مكة، لابسًا لبوسَ الداعية الإسلاميّ الذي يحمل مخططاتٍ شريرة لا تجاه اليهود الإسرائيليين وحدهم وإنما أيضًا تجاه المسيحيين اللبنانيين.

في صيف ١٩٥٨، اندلعتْ حرب أهلية صغيرة في لبنان بين أنصار كميل شمعون، الرئيس المسيحيّ آنذاك الذي كان يرغب في تجديد ولايته (على نحو منافٍ للدستور)، وبين أفراد الأحزاب العروبية، المسلمين في غالبيتهم، الذين هبّت لدعمهم إذاعةُ «صوت العرب» القاهرية بضجيجها الصاخب. كان ذلك هو الصيف الوحيد منذ العام ١٩٤٣ الذي لم نقصد فيه الضهور كالمعتاد. فالهضاب المشرفة على البلدة تعج بالجنود الأميركيين الذين أرسلهم جون فوستر دالس إلى هناك لتعزيز القوى «الموالية للغرب» من أنصار شمعون، على اعتبار أنّ خصومهم، بحسب الخطاب التهييجيّ السائد آنذاك، هم عملاء موسكو من الماركسيين اللينينيين. في صيفيات سابقة، حددنا أنا وأهلي موقفنا بسهولة، وهو أننا، على الرغم من صلات الدم التي تربطنا بأقربائنا اللبنانيين من آل بدر، لا نشعر بالعداوة المسلمة – المسيحية التي تقض مضاجعهم ولا بالنزاع العربيّ–اللبنانيّ الذي يضعهم في مواقع دفاعية جدًا. وما زاد الأمور تعقيدًا هو الحقيقة المزعجة أننا نحن أيضًا مسيحيون، غير أنّ عروبتنا وتحررنا من كل نوع من أنواع التغرُّض كانا ضربًا من الغدر إنْ لم نقل الخيانة.

عند هذا التقاطع القلق، والمزعج معظم الأحيان، من التيارات، سرعان ما اكتسبتْ أمي موقع الناصرية المؤمنة الصادقة، على العكس تمامًا من أبناء خؤولتها وأصدقائها من المنضوين في تنظيمات اليمين المتطرّف والذي لا يقلّون عنها جمودًا

عقائديًا. أحيانًا، تَستفزّ الجميعَ، بمن فيهم أنا، بخطبها التبشيرية عن قومية عبد الناصر الاشتراكية. وما زاد الطينَ بلّةً أني غافلتُ ذات مرة أحدَ أبناء خؤولتها وهو يرمقها بنظرة استنكار مزدرية. أعتقد أنّ خوضها تلك السجالات الحامية، وهي التي تعيش حياةَ يُسرٍ بمنأى عن السياسة، يعود إلى أسبابٍ اجتماعية من جهة، ويعبّر، من جهة أخرى، عن ذهنية نازعة إلى العدالة وعن مقدرة على التفكير فيما يتعدّى مصالحـ«نا» الأقلوية الضيّقة: «نحن لا يُحسب لنا كبيرُ حساب»، كانت تقول دائمًا، «الذين يُحسب لهم حسابٌ هم البوّاب والسائق والعامل الذين غيّرتْ إصلاحاتُ عبد الناصر حياتهم ومنحتهم العزةَ والكرامة». ولا شك أنّ السير عَكْسَ تربيتها وعائلتها تطلّب مقدارًا لا بأس به من الشجاعة. فبعد العام ١٩٥٨، صارت الضهور تبدو لنا أكثر جفاءً، وصار أصدقاؤنا أقل وثوقًا، والشروخُ أوسعَ، وغربتُنا أوضحَ. وبحلول عام ١٩٦٢، جزئيًا بسبب تعافي أبي البطيء، استأجر أهلي وشقيقاتي شقة في بيروت، تاركين القاهرة تتوارى مع الاضمحلال البطيء لعالم طفولتنا.

ظهرتْ شخصية شارل مالك الجذّابة والكارزمية أيضًا خلال تلك الفترة. لم يكن السفيرَ اللبنانيّ السابق في الولايات المتحدة وحسب، ولا مجردَ زوج ابنة خال أمي إيفا، وإنما أيضًا وزيرَ الخارجية في عهد شمعون، وهو منصب جعله مسؤولاً مباشرةً عن مناشدة دالس إرسالَ قوات أميركية إلى لبنان. لم يكن كبيرَ القامة مع أنه يوحي بالوقار والضخامة العظيمين اللذين استثمرهما خلال السنوات التي عمل فيها أستاذًا جامعيًا ودبلوماسيًا ورجلَ سياسة. كان له صوت جهوريّ، وثقة لا تتزعزع بنفسه، ومشية جازمة، وشخصية طاغية على نحو استثنائيّ، انجذبتُ إليها، بدايةَ الأمر، ولكنها أقلقتني على نحو متزايد مع مرّ الوقت. مع حلول السبعينيّات كان قد تحوّل – بدعم من أقرباء أمي، وأقرباء زوجته وأصدقائهما في الضهور – إلى رمز وناطق فكريّ باسم كلّ ما هو متغرِّض وسجاليّ ومتنافر مع الشرق الاوسط العربيّ ذي الأكثرية الإسلامية. بدأ حياته العامة في أواخر الأربعينيّات ناطقًا باسم العرب بصدد قضية فلسطين في الأمم المتحدة، وختمها بصفته مهندسَ السياسة المعادية للفلسطينيين في التحالف المسيحيّ مع إسرائيل خلال الحرب الأهلية اللبنانية. وإذ أَستذكر مسيرة شارل مالك الفكرية والسياسية – بكل ما تضمنته

بالنسبة إليّ بصفتي الشابَ المعجب به والمرافِقَ له، والنسيبَ، ومرتادَ الدوائر التي يرتادها - أرى إليها بمنزلة الدرس الفكريّ السلبيّ الأكبر في حياتي، ونموذجًا تصارعتُ معه خلال العقود الثلاثة الأخيرة وتعايشتُ معه حتى النهاية وحلّلتُه مرةً بعد مرة بأسى وذهولٍ وخيبةٍ لا قرار لها.

التقيتُ شارل مالك في القاهرة زمنَ الحرب حيث تسكن أمه المترملة. كان حينها أستاذًا للفلسفة في الجامعة الأميركية في بيروت ومتزوّجًا من إيڤا، ابنةِ خال أمي. تعلّق كثيرًا بأهلي، وقال لي ذات مرة إنّ أبي هو الذي أعطاه أول آلة طابعة. أما إيڤا، التي كانت تقضي عطلها في الناصرة في منزل أمي، فامرأة عاطفية، وسيمة، قوية الشخصية، سرعان ما انعقدتْ بيني وبينها صداقةٌ حميمة، على رغم الفارق الكبير في السنّ. والزوجان آنذاك ينمّان عن البراءة والخشونة معاً. كان يرطن بلكنته اللبنانية الشمالية (الكورانية)، تنضاف إلى لغة إنكليزية أوروبية رنانة تعكس خبرته التعليمية الغنية التي بهرتني. تتلمذ على يد هايديغر في فريبور، ووايتهيد في هارڤرد في الثلاثينيّات، ولُقِّب باكرًا «شارل السماويّ» لألمعيته كما لميوله الدينية. فهو أرثوذكسيّ المولد، كاثوليكيّ الميل. أما إيڤا، وهي حفيدة قسيس بروتسطانتيّ راسخ الإيمان، فقد تحولّتْ إلى الكاثوليكية عند زواجها من شارل، وحَذَتْ حذوَها أختُها الأصغر ليلي، وهي أقرب صديقات أمي بين نسيباتها.

بعد أن عُيّن شارل مالك في لايك صاكسيسَ سفيرًا للبنان في الأمم المتحدة، تسلّم منصبًا إضافيًا هو منصب مبعوث لبنان فوق العادة في واشنطن، ثم رُقّي إلى منصب السفير. وعندما بدأ والد إيڤا، حبيب، وبعضُ أبنائه يصيّفون في الضهور، استأجر آل مالك هم أيضًا بيتًا لهم هناك يأتون إليه من واشنطن لقضاء بضعة أسابيع في العام. انجذبتُ لحضورهما أيما انجذاب. ففي مناخ الضهور الماحل الذي لا يرحم، إذا بيتهما وأحاديث شارل ومحبّة خالتي الواضحة لي تزيدني تعطشًا للأفكار وللقضايا الكبرى المتعلّقة بالإيمان والأخلاق والمصير البشريّ وبمجموعة كاملة من الكتّاب. «خلال صيف إحدى سنوات الثلاثينيّات»، قال لي شارل مرة، «جلستُ على ضفاف النيل وقرأتُ مؤلفات هاردي وميريديث بأكملها. وقرأتُ أيضًا **الميتافيزيقيا** لأرسطو و**الصومّا** لتوما الأكويني». لم يكن أحدٌ من معارفي يتحدث عن مثل تلك الأشياء. وعندما كنتُ في الثانية عشرة، أذكر أني

وجدتُ مالك على شرفة منزله المطلّة على وادي الشوير المغطّى بالضباب وبين يديه مجلّد ضخم: «إنه يوحنا الذهبي الفم»، قال، وهو يرفع الكتاب لأتفحصه، «مفكّرٌ رائع وحاذق، لا يختلف كثيرًا عن دانص سكوتوس». في حوالى تلك الفترة بدأتُ أتحسّس الطابع المعذِّب إلى حدّ مثير للاستغراب لملاحظاته التي يُطْلقها عن الكتب والأفكار. كان له ميل (رحّبتُ به في حينه) لرمي الأسماء وعناوين الكتب، فأروح أنقّب عنها وأَشْرع في مطالعتها، لكنه يلجأ أيضا إلى عبارات وحيدة السطر، وإلى التصنيفات التفاضلية والأسئلة الاختزالية. «كييركيغارد جبّار، ولكنْ هل كان يؤمن بالله حقاً؟»؛ «دوستويفسكي روائيّ عظيم لأنه مسيحيّ عظيم»؛ «لكي تفهم فرويد عليك أن تزور محلات المطبوعات والصور الإباحية في الشارع رقم ٤٢ [في منهاتن]»؛ «پرينستون نادٍ ريفيّ يقضي فيه طلابُ الصوفومور من جامعة هارڤارد عطلَ نهاية الأسبوع». لعله شعر أني لا أزال غرًّا أو قليلَ الجهوزية للحجج المنشّطة التي ألمع إليها في تعاطيه مع هايديغر ووايتهيد في جامعتيهما. لكني أحسستُ عنده أيضًا بشيء من الاستعلاء يمتزج بمهنته كأستاذ يوجِّه ويعلِّم.

خلال السنوات الأولى من عهد عبد الناصر، كان مالك يشجعني على أن أُخبره عن حماسي لإصلاحات هذا الزعيم الشعبيّ. وكان يُنصت إلى كل ما أدلي به، ثم يقول ناقضًا حججي من الأساس: «ما تقوله مثير للاهتمام. الدخل الفرديّ في مصر هو الآن ثمانون دولارًا في السنة. أما في لبنان فهو تسع مائة. إذا سارت كافة الإصلاحات على ما يرام واحتشدتْ كافة الموارد، فسوف يتضاعف الدخل الفرديّ المصريّ. هذا كل ما في الأمر». من الخال شارل، كما كنا نسمّيه، تعلّمتُ عن إغراءات الدوغما، وعن البحث عن الحقيقة التي لا يرقى إليها شك، وعن المرجعية التي لا تقبل أيّ جدال. ومنه علمتُ أيضًا عن صدام الحضارات، والحرب بين الشرق والغرب، وبين الشيوعية والحرية، وعن المسيحية وسواها من الديانات الأقل شأنًا. وبالإضافة إلى إخبارنا عنها جميعها في الضهور، لعب دورًا مركزيًا في التعبير عنها في المحافل الدولية. عمل مع اليانور روزفلت على صياغة «الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان»، وكانت أسماء غروميكو ودالس وتريغفي لي ورروكفلر وآيزنهاور عملة دارجة في أحاديثه، مثلها مثل كانط وفيخته وراسِل وأفلوطين ويسوع المسيح. وكانت له ملكةٌ مذهلة للغات - فالإنكليزية والعربية والألمانية

واليونانية والفرنسية بين يديه أدواتُ شغل ممتازة، والأكيد أنه متمكّن من الثلاث الأوائل على نحو لافت. بكتلة شعره الأسود الكثّة، وعينيه الثاقبتين، وأنفه المعقوف، وقامته العريضة الراسخة، وقدَميّ المشّائين الكبيرتين اللتين يملكهما، كان يسيطر على الغرفة دون أيّ أثر للتردد أو الخجل المُشِلّ. خلال الأربعينيّات ومطلع الخمسينيّات، كان يقين مالك الأخلاقيّ المحفّز، وقوته المقدودة من حجر الصوّان، وإيمانه العنيد بالله تعالى، تمنحنا الأمل وتذكّرنا بملاحظة غوركي أنه ينام نومًا أهنأ عندما يعرف أنّ تولستوي حيّ يرزق في العالم ذاته.

ارتقى شارل مالك أكثر فأكثر في الحياة العامة لأمم العالم، ولكنه كان يعود دائمًا هو وإيفا إلى الضهور: فالقرية أشبه بـ«هايمات» (الوطن) الذي يتكلم عنه هايديغر، ولكنها كانت تجسّد البساطة الأرضية بالنسبة إلى مالك. وظل يُعْرب عن إعجاب وعاطفة دائمين تجاه أبي: «لا أحد مِن الذين عرفتهم قاطبةً»، قال لي مرة بشيء من الاستغراب والاستعلاء، «لا أحد يبّزه كرجل أعمال متكامل. إنه يملك غريزة تجارية مدهشة». فكرتُ فيما بعد أنه كان يوحي بأنّ أبي رجل أعمال ممتاز لا أكثر، وقد أكون أسأتُ فهم قصده. ومهما يكن، فقد استمتعتُ بحوار بين شارل وأبي على شرفة منزلنا في الضهور ذات ليلة مشعشعة الأضواء. «كيف يمكنهم [يعني العلماء] قياسُ المسافة التي تفصل تلك النجوم عن الأرض؟» تساءل أبي بصوت مرتفع. «شارل، هل تعلم؟» «أوه»، قال الفيلسوف، «إنهم يفعلون ذلك ببساطة كلية. يحدّدون نقطة معيّنة على سطح الأرض، ويخصمون منها الزاوية، ثم يقيسون المسافة»، كان جوابه الفوريّ والصادّ بعض الشيء. إنه لعبة أطفال. لم يكن ذلك ليرضي أبي، فتحركتْ مؤهلاته الجبارة للحساب – أو على الأقل للمبادئ الكامنة خلف الحساب – فاعترض بحماس: «لا، لا، أعني كيف يقيسونها بدقة. أية زاوية يعتمدون؟ أين؟ أكيد أنه يوجد في الأمر أكثر مما تقول». خيّم الصمت على الحضور: فقد بدا أنّ أبي أطلق تحديًا غير متوقع للمرجعية. شاهدتُ الارتباك ومعالم نفاد صبر غير مستحبّ على وجه مالك، كأنه يحاول تخمين ما يرمي إليه رجلُ الأعمال الصغير. ولكنّ الواضح أنه لم يستطع الإتيان بجواب يرضي فضول أبي المتحيِّر حقًا. ولما كان التبجح لا يجدي نفعًا، فقد آثر تغيير الموضوع والحديث عن برداييف. صباحَ تشييع أبي بعد ذلك بخمس عشرة سنة، قَدِمَ شارل مالك إلى

بيتنا في بيروت للتعزية ومعتذرًا عن حضور الجناز والدفن: «لديّ موعد هام على الغداء مع القاصد الرسوليّ»، قال لي من قبيل التفسير.

لكنّ قوته الروحية، التي دفعت الناس ذاتَ مرة إلى التحوّل عن مذهبهم، ما لبثتْ أن انحرفت، وقد أوغل في السياسة، معتمداً التغرّض والسخط تجاه أولئك الذين لا يَقْبلون فكرةَ لبنان المسيحيّ (ولا يمكنها أن تكون أكثر من مجرّد فكرة، مادام لبنان متعددًا طائفيًا) ولا فكرةَ لبنان البلد العربيّ المنحاز كليًا إلى المعسكر الأميركيّ. لا بد أنه كان أستاذًا ومحاضرًا ممتازًا في أيامه الأولى في الجامعة. وقد أبلغتني ليلي، شقيقة زوجته، أنه بعد عودته من هارفارد إلى بيروت، تولى بمفرده رفع الخطاب السائد إلى مستوى المناقشات عن الحقيقة والمثال والخير والجمال. وكان ابن عمي جورج في عداد طلّابه في الأربعينيّات، ومع أنه كان يُعدّ نفسه للعمل في التجارة أولَ الأمر، فما لبث، بعد عقد كامل من ذلك، أن تخلى عن كل شيء ليتحوّل إلى الكاثوليكية ولينتقل للإقامة في فريبور، بسويسرا، مع عدد من الذي يشاركونه آراءه من مريدي شارل مالك. هناك أسسوا جالية من الأتقياء، رجالاً ونساءً، يُعدّون أنفسهم للعودة إلى العالم الإسلاميّ من أجل هداية الناس إلى طريق يسوع المسيح. جميع هؤلاء، الذين لا يزالون في سويسرا إلى يومنا هذا، وفشلوا بشكل محزن في تحقيق رسالتهم السامية، شهودٌ على النفوذ العميق الذي كان يمارسه شارل مالك، هذا المثقّف الذي لم تكن أهدافُه تنتمي إلى هذا العالم، على حد تعبير الكتاب المقدّس. وقد تلقّيتُ أنا أيضًا نصيبي من ذلك النفوذ، لا من حيث الآراء التي عرّفني إليها والآفاق التي شرّعها أمامي فحسب، وإنما أيضًا من حيث الكرامة التي ينطوي عليها نوعُ البحث الأخلاقيّ الفلسفيّ الذي كان يخوض فيه، وهو ما افتقرتُ إليه في دراستي الرسمية كما في بيئتي العائلية. متى انتهت عملية التنشيط هذه، لتحل محلها قوةٌ نقيضة، تتعاكس كليًا مع ما كان ذاتَ مرة انفتاحًا وشجاعةً وابتكارًا في ميدان الفكر؟

أُخمِّن أحيانًا أنّ ضهور الشوير – في تجسيدها المغري، لكن المزيّف في نهاية المطاف، للأصالة الريفية – قد ضللتنا جميعًا فاعتقدنا أنّ خِفتها العقيمة، وبساطةَ حياتها المضبوطة، والإجماعَ المسيحيّ القسريّ فيها، قد لعبتْ دورًا ما في تطرّفها السياسيّ اللاحق كما في التطرّف السياسيّ لشارل مالك نفسه. لكنني

أعتقد في الآن ذاته أنّ الانسحاب الناعس من الحياة الذي كانت تعِد به، خلال أشهر الصيف، إنما كان أيضًا نقضاً للبيئة العربية التي تنتمي إليها. فبعد انقضاء الحقبة الكولونيالية بزمن طويل، ظللنا نعتقد أننا جميعنا قادرون على عيش حياة بديلة تستوحي النموذج الأوروبيّ للمنتجعات الصيفية، ذاهلين عما يجري حولنا. حاول أهلي إعادة إنتاج شرنقتنا القاهرية في الجبال اللبنانية. فمن يستطيع أن يلومهم على ذلك، إذا أخذنا في الاعتبار موقعنا الخاص المصدّع بما نحن كسرات فلسطينية - عربية - مسيحية - أميركية هشمّها التاريخ، وقد تمكنتْ نجاحاتُ إبي التجارية من أن تعيد إليها شيئًا من التماسك، وهو ما سَمَحَ لنا بهامشية شبه خرافية، مريحة وإنْ تكن سريعة العطب. وعندما أدت الاضطرابات في مصر ما بعد المَلَكية إلى تفكّك البلاد من حولنا، حملْنا آثارَها أنّى ذهبنا، بما في ذلك إلى ضهور الشوير. هناك كان شارل مالك أول رمز لمقاومتنا، رمزاً لرَفْض لبنان المسيحيّ مسايرةَ القومية العربية وقراره الانضمام إلى المعسكر الأميركي في الحرب الباردة واعتماده لغةَ القتال والتصلّب بديلاً من الحماس لاستدعاءات عبد الناصر المتصاعدة ومن السعي إلى التكيّف معها.

أذكر بانزعاج كبير صدمة الهزيمة العربية الشاملة الأولى عام ١٩٦٧ وكيف أني، في أواخر كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام المشؤوم، قُدتُ سيارتي إلى عند «الخالة» إيفا و«زوج الخالة» شارل في منزلهما المهيب في اتساعه وتراصّه في الرابية، وهي الضاحية الواقعة على سفح إحدى التلال إلى الشمال الشرقيّ من بيروت. في ذلك المنزل، تمكنوا أخيرًا من إيداع الكتب والأثاث والأوراق التي راكموها خلال سنواتٍ قضوها في بيوت مستأجرة وسفارات ومنازل موقتة بما في ذلك مختلف البيوت التي سكنوها في ضهور الشوير. كان الثلج البكْر يغطي الطريق، وكانت السماء داكنة، والرياح عاصفة، والطقس بمجمله متجهّمًا وقاسيًا. ولم أكن متأكدًا من المهمة التي جئتُ من أجلها، عدا طلبًا غامضًا إلى شارل بأن يخرج، إذا جاز التعبير، ويساعد على قيادة العرب للتخلص من هزيمتهم المنكرة. لعلها فكرة سخيفة ولكنها في حينها بدت أنها تستحق العمل من أجلها. أما ما لم أكن مستعدًا له فهو جوابه المستكين، على غير عادته: ليس هذا الوقت المناسب، وهو لا يشعر بأنّ له دورًا ما يلعبه بعد الآن، وأنّ عودته إلى النشاط السياسيّ تنتظر قيام

وضع جديد في المنطقة. صُعقتُ لِما سمعتُه، ودُهشتُ لأنّ رجلاً كنتُ ما أزال أؤمن بآرائه والتزاماته لا يشاركني في ما افترضتُ أنه حاجة جماعية للمقاومة وإعادة البناء. خلال الحرب الأهلية اللبنانية، صار شارل مالك القائد الفكريّ لليمين اللبناني. وبعد انقضاء وقت طويل على وفاته عام ١٩٨٨، لا أزال أشعر بالأسف العميق للهوة السحيقة التي فصلتْ بيننا، وللجائحة العظيمة المعقدة التي عصفتْ بالسياسة العربية وزرعتِ الشِقاقَ بيني وبينه، فلم يبق لنا إلا النزر اليسير من التاريخ والتجربة الإيجابيين يدلّ عليهما.

يصعب عليّ الآن أن أقرأ استرجاعيًا، في السنوات التي قضيناها في الضهور، العناصر التي أسهمتْ في الخراب المسرف للحرب الأهلية اللبنانية، التي اندلعتْ عام ١٩٧٥ وانتهت رسْميًا بعد حوالى سبع عشرة سنة. فبسبب عزلتنا عن عمق التيارات الطائفية والسياسية المتناقضة التي قسّمت اللبنانيين خلال عقود من الزمن، كنا نعيش حياة رعوية مزيفة على شفير هاوية سحيقة. والأغرب من ذلك هو إحساس أبي بأنّ الضهور هي الملاذ من المتاعب المتزايدة للحياة التجارية في مصر الناصرية. وفي مطلع العام ١٩٧١، عندما كان يُشرف على الموت، أعرب لنا عن رغبته في أن يُدفن في الضهور. ولكنّ ذلك لم يتحقق أبدًا، لأنه لم يكن أيّ من أهالي البلدة مستعدًا لبيعنا قطعة أرض صغيرة نحقق عليها رغبته. فعلى الرغم من سنوات من إخلاصه للبلدة، والعديدِ من الإسهامات في حياتها المشتركة، وحبّه لأهلها وللمكان ذاته، كان لا يزال يُعتبر غريبًا، في موته، فلم يُسمح له بالدخول إليها. ذلك أنّ الحياة الرعوية التي ظننا أننا ننعم بها، ورفعناها إلى مستوى المثال، لم يكن لها من موقع في ذاكرة البلدة الجمعية.

ومن الصور الراسخة في ذاكرتي عن حياتنا المعزولة إلى حد مخيف خلال تلك السنوات السبع والثلاثين هي صورة إميل نصّار يجلس متوحدًا في الليل يكتب على طاولة وسط غرفة الجلوس المقفرة في بيته. فمهما تأخرتْ لعبة البريدج التي يشارك فيها، ومهما كان عدد الضيوف الذين استضافهم للعشاء، لا بدّ له من إخراج دفتر ملاحظاته الكبير المغلف بالجلد وكدسة من الصحف والشروع في الكتابة. لم نعرف أبدًا ما كان يكتبه، إلى أن سأله أبي ذات مرة مباشرةً ما إذ كان يكتب مذكراته. «نعم، نوعاً ما. الواقع أني أنقل مقاطع من صحافة اليوم. وهكذا

أحتفظ بسجلّ لما جرى»، أجاب السيد نصّار. «لكنك تعلّق عليها، أليس كذلك؟» أردف أبي. «لا، لا أعلّق عليها إطلاقًا. أكتفي بالتسجيل الأمين لما جرى». فقال أبي، الإداريّ الفعال، ونفادُ الصبر يتسلل إلى نبرة صوته: «ولكنْ لماذا لا تكتفي بمجرد قصّ المقالات ولصقها في دفاترك بدلاً من كل هذا العناء؟». بدا نصّار كأنّ السؤال أخذه على حين غرّة، لكنه أجاب فورًا أنه يتجشّم كل هذا العناء لكي يرث أولادُه سجلاً عن الأزمنة يدوم بعد مماته. إلا أنّ أبي لم يرعوِ فالتفت إلى ألفْرِد، الابن الأوسط الذي كان يستلقي على الصوفا القريبة: «هل تقرأ تلك الدفاتر بعد وفاة والدك؟»، فأجابه ألفْرِد دون أدنى تردد: «لا، لا أمل في أن أقرأها».

احتفظتُ بذلك المشهد العجيب في ذاكرتي طوال تلك السنوات لأنه يرمز إلى تفاهة التجارب التي عاشها معظمُنا في الضهور وطابعها الموقت، مثلما يرمز إلى محاولاتنا، غير المتبادلة ولا المجزية، للانتماء إلى مكان والتشبّث به كيفما كان، فيما هو، في نهاية المطاف، يسير في مجراه الخاص بما هو جزء من بلد أشدّ تقلّبًا وتذرّرًا وأكثر مرارة في انقساماته مما توقّعه أيٌّ منا. كنا غرباء فاقدي الاتصال بالمشاحنات والعداوات التي محضت الضهورَ هويتَها المميّزة. لا يزال لنا بيت هناك، غير مسكون، مرشومةٌ جدرانُه بندوب الرصاص وبالفجوات الفاغرة التي اخترقتها قذائفُ الهاوِن وصواريخُ الكاتيوشا. وفي عام ١٩٩٧، بعد سبع وعشرين سنة على صيفيتنا الأخيرة هناك، قصدتُ الضهور لمشاهدة ما تبقى منها فألفيتُها لا تزال موقعا سوريًا محصنًا، يسكن الجنودُ والضباطُ في مساكنه المصادَرَة. والضهور واحدة من قرى الاصطياف الشعبيّ القليلة التي لم يُعَد إعمارُها ولا امتلأتْ بمصطافين جدد يتوافدون إليها بعد الحرب الاهلية هربًا من ورشة الإعمار البيروتية الصاخبة والمحمومة والمفتقرة إلى أيّ تنظيم مدينيّ. ومعظم بيوت الضهور من أيامنا لا تزال خرابًا، ومعظم مقاهيها ومحالها التجارية مقفلة أو متقلّصة حجمًا. وقد ابتاعت شقيقتي جين وزوجها وأولادهما بيتًا في الشوير وأعادوا ترميمه، وهو يقع إلى جوار البيت الذي كنتُ أتلقّى فيه دروسي الخصوصية في الجغرافيا على يد الأستاذ عزيز نصر لثلاث وأربعين سنة خلت. حديقتهم ودواخل البيت مصممة بعناية ومزوّدة بكافة التجهيزات الحديثة، في مفارقة كبيرة مع بيوتنا الجرداء الخشنة فيما مضى. وفيما أنا مستلقٍ لقيلولة قصيرة بعد الظهر، دفعتني المقارنة

إلى الاستذكارات الكئيبة عن آخر أيام الصيفية عندما كنا نهيِّئ أنفسنا لرحلة العودة إلى القاهرة، فيما قساوة الشمس في الضهور تُخْلي المكان أمام الضباب المنعش للخريف الآتي.

تذكّرتُ أيام نهاية الموسم بمتعة كبيرة: معظم المصطافين الآخرين قد حزموا أمتعتهم وغادروا قبلنا، وأصحاب الحوانيت المحليّون، اللابسون السترات الرثة، يتمهلون في عملهم، بسبب تقلّص عدد الزبائن، وبسبب حاجتهم، على ما كنتُ أفترض، إلى حساب أرباحهم والتخطيط لأرباح الموسم القادم. وفي الساحة يدور الحديث عمّا إذا كان الموسم ناجحًا أم لا. وذات مرة سمعتُ السيد عفيش، الصيدليّ السمين المتكاسل، وبو فارس، الرجل الذي يؤجّر الدرّاجات، يتفجّعان على الصيف المنصرم بسبب كثرة عدد البيوت التي ظلت بدون إيجار. «ستكون البلدة أكثر ازدحامًا العام القادم، إنْ شاء الله»، قال واحدهما للآخر في آن معًا. لا يبقى في الساحة، خلال شهر أيلول/سبتمبر، إلا فرفر، سيارته المتبعّجة وصوته الأجش يملآن الجوّ الرائق بصوتهما الصاخب المتنافر، وقد غادر زملاؤه من فوج سيارات التاكسي الضهورَ بحثًا عن رزقهم في شوراع بيروت. وعند فجر اليوم الأخير، بعد أن نحزم حقائبنا ونعيد أغراض الفطور إلى أمكنتها للمرة الأخيرة، نقف في هواء الصباح البارد فيما سائقان يحمّلان أمتعتنا على سيارتَي التاكسي الكبيرتين، ونسلك طريق الساحل متعبين باتجاه بيروت، ومن بيروت إلى القدس، فالقاهرة. أما بعد ١٩٤٨ فصرنا نستقلّ الطائرات من بيروت.



الفصل الحادي عشر

لما وصلتُ إلى القاهرة بعد التخرّج، اكتشفتُ بسرعة أنّ ذكرياتي عنها، خلال منفاي الأميركيّ، بأنها مكان آمن، لم تعد صحيحة. كان غموض مستجدّ يلفّ جنة الأجانب الهانئة وقد بدت مهددة بالزوال. في غضون أشهر قليلة، حلّ جمال عبد الناصر محل الجنرال محمد نجيب على رأس الحكومة. فإذا «بيئتنا» نحن تصير «بيئتهم هم». و«هم» تعني المصريين الذين أوليناهم اهتمامًا سياسيًا أقل من اهتمامنا بإطار مشهدنا المسرحيّ الهامد. تكشّف لي ذلك بعد بضع سنوات عند قراءتي شِعر كافافي: اللامبالاة ذاتها، واستخفاف أجانب ذوي امتيازات بالعالم فيما هم يسعون إلى أمورهم ولا يكترثون إلا بمشاريعهم التجارية دونما اعتبارٍ يُذكر للأكثرية الساحقة من السكان. ومن سخرية الأمور أنّ ثروة أبي تضاعفتْ على نحو كبير، خلال الخمسينيّات، ونما نفوذه كرجل أعمال بعد أن انفصل عن أبناء شقيقته وشركائه السابقين (الذين توزّعوا على أعمال متنوعة، من صنع الغسّالات إلى تصدير عُبوات للنقانق وخياطة الثياب). في عام ١٩٥٥-١٩٥٦، فتح أبي فرعاً لشركته في بيروت لم يُكتب له النجاح، وظل يضخّ فيه الأموال دون أيّ مردود على الإطلاق. وخلال العطل الصيفية من المدرسة والجامعة، ازداد انجذابي إلى تجارتنا في القاهرة، وأبي يضغط عليّ للعمل مساعدًا له خلال فترات بعد الظهر، دونما تحديد لواجباتي أو مسؤولياتي. هكذا، كان يدعوني للدخول إلى عالمه ويغلق البابَ من ثم في وجهي لكي يبيّن لي أنْ لا موقع وظيفيًا لي. قيّدني أبي وأمي بقيد مزدوج إذ ظلا يلحّان عليّ بالقول إني مسؤول

عن شقيقاتي، بصفتي رجل العائلة، مع أنّ شقيقاتي الأربع كنّ مساويات لي في كافة المجالات. هكذا فرضا عليّ واجبات ذلك الموقع دون منحي أيًا من امتيازاته. بل العكس هو الصحيح، إذ كنتُ أشعر بأنّ شقيقاتي حظين بعناية أكبر من التي أحظى بها. وأنا، من جهتي، لم أقبل تحمّل أعباء تلك المسؤولية ولا وافقتُ عليها من حيث المبدأ. وكان إيثار أبي لشقيقاتي ضربًا من ضروب الفروسيّة، منسجمًا في ذلك مع تصالحه المدهش مع شقيقته وأبنائها بعد عداوتهم الطويلة له. فما إن استقلّوا عنه تجاريًا، حتى عادوا أبناء شقيقته الصدُوقين، إلى درجة أنّ واحدًا منهم أبلغني مدى شعوره بتأنيب الضمير لِما قاله لأبي ولما قام به ضده خلال نزاعهما التجاريّ.

عندما كنتُ في صفّ الصوفومور في پرنستون وقدِمتْ شقيقتي الكبرى لمتابعة دراستها في الولايات المتحدة، امتلكني شعورٌ حادٌ بصعوبة الوصل معها والارتباط بها. وأدركتُ آنذاك انقطاعي عن عائلتي وعن بيئتي الأصلية في القاهرة ولبنان في آن معًا. فقد فطمَتني سنواتي في الولايات المتحدة تدريجيًا من عادات القاهرة – عادات الفكرِ والكلام والعلاقات. وببطء، تبدلّتْ لهجتي وملابسي واختلفتْ مقاييسي في المدرسة وبَعْدَها في الكلية، وشهد حديثي وتفكيري تحولاً جذريًا نأى بي بعيدًا جدًا عن الثوابت المطمئنة لحياة القاهرة. فرأيتُ إلى وجود شقيقتي في المدرسة الإنكليزية، مثلاً، أمرًا بعيدًا جدًا وغريبًا جدًا.

بعد ماونت هيرِمون، انتقلتُ بمجهودي الخاص إلى پرنستون في خريف العام ١٩٥٣، وقد بتّ أكثر استقلالاً وتدبيرًا مما كنته لسنتين خلتا. وفوجئتُ باكتشافي أني أستطيع، في وقت قصير وفي مكان غريب، شراء الأثاث والكتب والملابس والسكن مع ثلاثة زملاء صفّ متنافرين في غرفةٍ مشتركةٍ ما لبثتُ أنْ غادرتُها للسكن بمفردي مع حلول عيد الميلاد. وقد وقعتْ أول تجربة نموذجية لي في پرنستون في اليوم التالي من وصولي إليها. فبينما أنا أبحث عن غرفة الطعام في «هولدِر» (مسكن طلاب الصوفومور) انقضّ عليّ شاب ضخم البنية، وعلى شيء من السُكر، يرتدي قميص پولو أسود وشُورتًا من طراز برمودا قرمزيًا وقبعة قشّ وحذاءَ تنس أزرق يحمل رأس مُوظ[1] ضخمًا: «هيه»، قال في نبرة جذلة، «يعزّ عليّ مفارقة

١ ـ أكبر الحيوانات من فصيلة الغزلان في اميركا الشمالية. (م)

"سام" هذا، ولكني واثق من أنه سيبدو رائعًا في غرفتك». قلتُ ما معناه أنّ الغرفة لا تتسع له – فهو برأسه الغليظ وقرونه الضخمة في حجم سيارة ڤولكسڤاغن – على أنه ألحّ: «أعطني عشرين دولارًا مقابل "سام" وأنا أوصله إلى غرفتك، حتى لو اضطررتُ إلى استخدام رافعة لإدخاله عبر النافذة». نجحتُ أخيرًا في إقناعه بأني و«سام» يصعب أن نتعايش. فكان ذلك أول لقاء لي بالمزاح البِرِنْستُونيّ الذي يصعب تمييزه عن مزاح المدارس الداخلية. فالمؤسستان تتشابهان إذا استثنينا مزيج البِيرة والتعليم العلمانيّ في پرنستون.

في الخمسينيّات، كانت پرنستون لا تزال جامعةً محض ذكورية. السيارات كما النساء ممنوعة من دخولها، باستثناء أيام السبت إلى السادسة مساءً. والإنجاز الجمعيّ الكبير الذي حقّقه صفّيّ خلال سنواته فيها (١٩٥٣–١٩٥٧) هو السماح بـ«الجنس بعد الساعة السابعة» أيام السبت تحت ضغط النضال الطالبيّ. وكانت رؤيةُ الفتيات أو مواعدتهنّ تقتضي إما دعوتهنّ للمجيء من جامعتَيْ سميث أو ڤاسار لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عندك، وإما أن تذهب أنتَ إليهنّ على أمل نيل موعد مع إحداهنّ بتلك الطريقة. وقد سجلّتُ إخفاقات فاجعةً في هذا الميدان خلال سنتيَّ الأوليَيْن، وإنْ تكن قصتي الغرامية الصيفية مع إيڤا عوّضتْ عما حرمتني إياه پرنستون. لم أنجح في إقناع فتاة واحدة بأن تأتي بمحض إرادتها تمامًا ولا أنا اعتزمتُ الرحلة إلى كليّة للبنات على أملٍ، ولو ضئيلٍ، بأن أتعرّف إلى إحداهنّ فيها.

كان الطلاب من حولي متجانسين بشكل عام. فما من طالب أسود واحد بينهم، ومعظمُ الطلاب الأجانب هم طلاب الدراسات العليا، بينهم قلة من العرب لا يتعدّون أصابع اليد الواحدة ألتقيهم بين حين وآخر. وكان زملائي في الصف يسيرون على طراز واحد، أو هم يسعون إلى ذلك. وكما في ماونت هيرمون، كان الجميع في پرنستون تقريبًا يرتدي النوع ذاته من الثياب (أحذية جلد الغزال، السراويل الخاكية، القمصان ذات الياقات المزّررة وسترات الصوف الخشن – «التويد») ويتكلم بالطريقة ذاتها إلى حد كبير، ويمارس الممارسات الاجتماعية ذاتها. وجميعنا محبوسٌ في نظام نوادي الطعام الكريه. فبعد سنة الصوفومور، إما أنْ تنضم إلى نادٍ من تلك النوادي، من خلال نظام مروّع يسمى نظام بِيكر، وإما أن يُقضى عليكَ عمليًا. من الناحية الاجتماعية، كان نظام بِيكر يَفْرض عليك الانعزال في

غرفتك أماسيٌ بأكملها، خلال أسبوعين كاملين في شباط/فبراير من سنتك الثانية، تنتظر زيارة وفود النوادي. ويتناقص عدد الوفود تدريجيًا إذ تجري تصفية أعداد متزايدة من المرشحين (وجلّهم من اليهود والفتيان الذين لم يحضروا المدارس الإعدادية والذين لا يرتدون الثياب اللائقة) فيما تتزايد الزيارات، وتصير مزعجة، للرياضيين («الخصيان»، كما كنا نسمّيهم) ولخرّيجي ساينت پول وإكزيتر أو لأبناء العائلات المشهورة (أمثال آل باتيستا وفايرستون ودوپون). وتنتظم النوادي السبعة عشرة العاملة وفق تراتب هرميّ قوامُه مَرْتبةُ الخمسة الكبار (آيڤي، كوتيج، كانون، كايپ آند غاون، وكولونيال) تليها المرتبة المتوسطة (كوادرانْغل، طاور، كامْپوس، دايال، إلم، الخ.) وأما المرتبة السفلى فيُحْشَرُ فيها أساسًا الطلابُ الذين نسمّيهم حاليًا «البَصّيمين» والمنبوذين، والحقيقة أنّ معظمهم كانوا من اليهود.

تَحْدث الفظائع خلال أسابيع بيكر، بتواطؤ الإدارة، بل بتشجيع منها. ففي العام ١٩٥٥، وهو عام بيكر بالنسبة إليّ، مثلاً، قرّر رؤساء النوادي وإدارة الجامعة دعوة جميع طلاب الصوفومور إلى الترشح لعضوية النوادي، حتى لو كانوا غير مؤهلين لذلك اجتماعيًا. فكان محتومًا أن تجري تصفية مجموعة لا يقل عددها عن عشرين أو ثلاثين طالبًا في نهاية المطاف. وانعقدت الجمعيات العامة لتوزيع «جماعة المئة بالمئة»، أي الطلاب الذين لا يرغب فيهم أحد، ومعظمُهم من اليهود، على رؤساء النوادي المختلفة الذين اتّسعت صدورُهم لقبولهم. ونشرت الصحافة الطالبية التقاريرَ والتفاصيلَ المشوّقة عن تلك العملية البشعة. ولم يكن يقل عنها بشاعةً منظرُ أولئك الطلاب الذين كانوا يعرفون أنهم لن يُقبَلوا في النادي الذي اختاروه، بسبب الجنس أو البيئة أو الطباع، فإذا هم يحوّلون أنفسهم إلى نماذج للـ«واسبس» بنتائج غالبًا ما تكون باعثةً على الشفقة. ورمز التحويل هو دَرْجة ارتداء القمصان الزرقاء ذات الياقات الناسلة السائدة بين طلاب السنة ما قبل الأخيرة والسنة الأخيرة. وأذكر أني شاهدتُ مشدوهًا اثنين من زملائي في الصف في شقة مجاورة منهمكيْن في حفّ زوج من القمصان الزرق ذات الياقات المزرّرة بورق الزجاج محاولين، خلال دقائق، إحداث أثرٍ مشابهٍ للقميص الأرستقراطيّ البالي، لكيْ يُسمح بإدخالهما إلى نادٍ أرفع مستوى.

فوجئتُ بمدى تساهل أساتذتنا مع إحجام الطلاب عن المذاكرة خلال أسبوعَيْ بيكر. على أني أدركتُ من أول نقرة على الباب أني كائن شاذٌ يحيِّر

المندوبين المتجولين، لأنّ المدرسة الإعدادية التي درستُ فيها لم تكن دارجة، ولأنه يصعب تنسيب ثيابي ولهجتي إلى أيّ مصدر معروف، ناهيك عن استحالة العثور على اسمي بين أسماء أبناء الذوات المتخرجين من مدارس أمثال داريان وشيكر هايتس. قضت صدفةٌ أن يصادِق والداي زوجيْن من المسنّين المتقاعدين من بوكا رايتون وسانت كروا تعرّفا إليهما على سطح باخرة «آندريا دوريا» وفي مطعمها. وقد نجح الزوج، وهو من قدامى نادي كايپ آند غاون، في إقناع وفد من ذلك النادي بزيارتي بضع مرّات. لكنْ لم ينشأ بيننا أيّ انسجام. ثم إنّ زميلي في الغرفة، وهو موسيقيّ موهوب ولكنه، للاسف، متخلّف اجتماعيًا، نفّر جميع مندوبي النوادي تقريبًا، مع أنّ ثلاثة من وفود النوادي المتوسطة ظلوا يعودون لزيارتي ويحشرونني في زاوية من غرفة الجلوس المنمنمة تاركين إياه وحيدًا في الزاوية الأخرى. أخيرًا، في الليلة التي نزل فيها الصفّ بأكمله إلى شارع پروسپكت قاصدين النوادي لسحب دعواتهم، تلقّيتُ دعوات للانضمام إلى ثلاثة نوادٍ، في حين لم يتلقّ زميل الغرفة المسكين ولو دعوةً واحدة.

إذّاك، تلقّيتُ صفقة غير مغرية من الناطق باسم أحد النوادي، وهو شاب بدين كان بطلاً في لعبة الغولف أيضًا: «انضمّ إلينا، وللمزيد من تشجيعك سوف نأخذ زميلك في الغرفة معك». وإذ رحتُ أتأهب لرفض العرض ومغادرة المكان، سمعتُ عويلاً يقطّع شغاف القلب: «إيه، إِد، لا تتركني، أرجوك. أرجوك أن تقبل عرضهم. ما الذي سوف يحلّ بي؟». فقبلتُ عضوية النادي دون أن أنضم إليه، وأنا نافر ومستاء من طقس جامعيّ مكرّس رسميًا يُذلّ الناسَ على هذا النحو. ومنذ تلك اللحظة، لم تعد پرنستون تعني لي أكثر من مكان للدراسة. تاليًا، حاضرتُ مرارًا هناك. على أنّ وجود الأساتذة الجدد، وتقلُّصَ تلك النوادي البائسة، دوراً وأهمية، وَفَسْحَ المجال أمام انتساب النساء وأبناء الأقليات، حوّلتْ پرنستون من تلك الكلية الريفية الضيقة الأفق التي دَرَستُ فيها بين ١٩٥٣ و١٩٥٧ إلى جامعة بكلِ ما للكلمة من معنى.

وباستثناء رفقة البعض من الزملاء اللامعين والموهوبين على نحو استثنائيّ، مثل المؤلف الموسيقيّ جون إيتون، وآرثر غولد، وبوب مايلز وآخرين، كان انغماسي في القراءة والكتابة بمثابة الترياق ضد مناخ پرنستون الاجتماعيّ المسموم. لم أتخصص في الآداب وإنما في الإنسانيات، وهو برنامج للحاصلين على درجة

الامتياز أتاح لي أن آخذ عدة دروس في الموسيقى والفلسفة واللغة الفرنسية كما الإنكليزية، مرتَّبةً جميعها حسب المساق الزمنيّ، تعجّ بالمعلومات، وقد أثارتني أيما إثارة لما وفّرتْه من مواد للقراءة. وثمة أستاذان استثنائيان تركا أثرًا دائمًا عليّ (عرفتُ واحدًا منهما فقط ودرستُ معه). أولهما الناقد الأدبيّ آر. پي. بلاكميور، أستاذ اللغة الإنكليزية (رغم عدم حيازته الدكتوراه ولا حتى الشهادة الثانوية). وهو كاتب ومحاضِر متوحد تصعب متابعته، وجدتُ تحديًا كبيرًا في عبقريته في الكشف عن طبقات المعاني في الشِعر والرواية الحديثين (على رغم لغته النكدة وغير المفهومة معظم الأحيان). شكّل بلاكميور بالنسبة إليّ قدوةً كشفتْ لي البهجة السرّية الكامنة في تأويل النصوص بما يتعدى مجرد التلخيص أو التفسير. لم آخذ أيّ درس معه ولا أنا قابلتُه شخصيًا، ولكني قرأتُ كتاباته بشراهة، وكنتُ أتردد إلى محاضراته عن الشعرية والرواية الحديثتين. وكان بلاكميور واحدًا من قارئين اثنين لأطروحة التخرّج التي وضعتُها عن أندريه جِيد وغراهام غرين – وهي نصٌ مرهق، مع الأسف – فكتب مادحًا «طاقات التحليل القوية» لديّ. وتوفي عام ١٩٦٥.

أما الشخصية المرموقة الثانية فهو بروفسور الفلسفة آرثر سزاثماري، الكائن الصغير النشيط الذي ينعر الجميع، أطلابًا كانوا أم زملاء له أم كبار الكتّاب. وقد مثّل سزاثماري بالنسبة إلى العديد من المتمرّدين من أمثالي الحياةَ الثقافيةَ في پرنستون، بل هو جسّدها تجسيدًا. كان عظيم التشكك، وقح الاسئلة، يشعرك عمومًا بأنّ التمفصل الدقيق بين الاعتراضات والنواقص إنما هو نشاط فلسفيّ من أرقى المستويات. ثم إنه كان براء من روح پرنستون «التويدية» أو مما يشير إلى الوصولية أو النجاح الدنيويّ. ولم يستطع أحد تعيين مصدر لهجته الأوروبية الغائمة إلى أن اعترف لنا بأنه صبيّ من أبناء ماساتشوسِتس لم يغادر البلاد أبدًا، على الرغم من أنه عمل محقِّقاً مع سجناء الحرب اليابانيين خلال الحرب. وهو أخو الكاتب والممثّل بيل دانا، المشهور بشخصيته التلفزيونية خوسي خيمينيس.

كانت دروسي في الإنسانيات تاريخيةً وعديمة التفكّر من حيث التنظيم، يدرّسها رجال يتمتعون بالكفاءة العظمى والتطلّب اللغويّ. وقد أسّستْ قراءاتي في تاريخ الموسيقى والأدب والفلسفة لكلِّ ما حققتُه فيما بعدُ باحثًا ومدرِّسًا. إذ أتاحت لي الشموليةُ الرزينةُ لبرنامج الدروس في پرنستون فرصةَ التحرّي الذهنيّ في حقول

كاملة من المعرفة، وبحد أدنى من الحرج. وفقط عندما اتصلتْ تلك المعارف بنقد سزاثماري المحفّز أو بالتمكين الرؤيويّ الذي منحنا إياه أستاذٌ من طراز بلاكميور، وجدتُني أنقّب أعمق فأعمق من مستوى الإنجاز الاكاديميّ الرسميّ وبدأتُ، بطريقةٍ ما، في بلورة منحاي الفكريّ المتماسك والمستقلّ. وخلال الأسابيع الأولى من سنتي الثانية أدركتُ ضرورة المزيد من تنمية انبهاري المبكر بالتعقّد وبالفجائية – وخصوصًا بالتعقّدات والالتباسات المتعددة التي تنطوي عليها عمليتا الكتابة والخطابة، وهو انبهار لازمني مدى الحياة. والمفارقة في الأمر أنّ الذي حفّزني إلى ذلك هم الأساتذة الأكثر تقليدية من حيث المقاربة والمزاج، بمن فيهم كواندرو في اللغة الفرنسية أو أُوتس في الكلاسيكيات وطومسون ولاندا وبِنتلي وجونسون في اللغة الإنكليزية. في الموسيقى، أَجبرتُ نفسي على اقتحام عقبة درس الهارموني والطِباق، ثم انتقلتُ لمتابعة السيميناراات التاريخية والوضعية الغنية عن بيتهوفن وڤاغنر خصوصًا، حيث صار إليوت فوربز وإد كُون مثاليْن يُقتدى بهما في البيداغوجية العلمية والموسيقانية.

كنتُ شديد الإدراك لقصوري الفكريّ، خصوصًا بالقياس إلى آرثر غولد، ألمع طلاب صفنا، الذي كان يتمتع بموهبة رائعة في قراءة الأدب كما في كتابته... علمًا أنّ بقاءه على قيد الحياة الفكرية، وبقائي أنا وإنْ بدرجة أقلّ، في مناخ پرنستون خلال تلك الأيام، كانا أشبه بالمعجزة. وقد خطر لنا كلينا الانتقال إلى هارڤارد في سنة الجونيور [ما قبل الأخيرة]، لمعارضتنا نزعة العداء للمثقفين المنتشرة بين العديد من الأساتذة والطلاب على حد سواء، من صنف اللامبالين ومدخني الغليون ولابِسِي «التويد». خلال سنتَيّ الأخيرتين في پرنستون، صرتُ أكره النادي الذي أنتسب إليه – رغم اضطراري الى تناول الطعام فيه لعدم توفر خدمة أخرى خلا المطاعم الغالية الثمن – ولم أعد أشعر بأية صلة تشدّني إلى الحياة الاجتماعية خلال عطل نهاية الأسبوع، بحفلاتها الراقصة في بيوت الطلاب وارتداء المعاطف الجلدية واحتساءِ المشروبات الكحولية إلى ما لا نهاية. فإذا أنا معزول إلى حد كبير، وإنْ كنتُ في حال من التجلّي الفكريّ. فقد حرّكتْ پرنستون في نفسي سلسلةً من التيارات الجوّانية متضاربةً في معظمها، تتجاذبني في اتجاهات مختلفة بل متناقضة جذريًا. فلم أستطع التخلي عن فكرة العودة إلى القاهرة ولا عن تسلّم تجارة أبي، على أني كنتُ

أرغبُ أيضًا في أن أكون مثقفًا وأستاذًا جامعيًا. ثم إني كنتُ أتجه أكثر فأكثر نحو الموسيقى، إلى درجة أني لم أعد آتي أيَّ عمل آخر سواها على رغم سنوات من دروس البيانو غير المُرضية.

في الخمسينيّات، كانت پرنستون جامعة غير مسيّسة، مكتفية ذاتيًا، لامبالية وتفتقر إلى روح جماعية، بأيّ معنى سياسي للكلمة، عدا ما يتجلّى خلال مباريات كرة القدم والمسابقات الرياضية والحفلات الاجتماعية. وأقرب مقاربة للسياسة فيها هو تنظيم زميلي رالف شونمان (الذي صار فيما بعدُ سكرتيرًا لبرتراند راسل وناطقًا باسم منظمته) زيارةً لآلجر هيس[1] إلى الحرم الجامعيّ حضرها جمعٌ من الطلاب الفضوليين وبعض حاملي يافطات الاحتجاج. إلى حين العدوان على السويس في خريف ١٩٥٦ (وهو حدث عشته عن بُعد تحت ضغط عاطفيّ عظيم، مثله مثل حريق القاهرة، لأنّ أهلي كانوا هناك) اقتصر تعاطيّ الشؤونَ السياسية على أحاديثي مع أصدقاء من الخريجين العرب، وأبرزهم إبراهيم أبو لغد، وهو لاجئ فلسطينيّ حديث، كان يُعِدُّ آنذاك رسالة دكتوراه في الدراسات الشرقية في پرنستون. وباستثناء تلك المبادلات الشخصية، لم يكن لي متنفّسٌ آخر لانشغالي المتنامي بمجريات الأمور في مصر الناصرية. على أني خلال أزمة السويس، اكتشفتُ ما كنتُ أجهله على امتداد سنتين، وهو أن توم فارير، أحد زملائي في غرفة المنامة والذي ظل صديقًا لي، يهوديّ وإنْ يكن لا يؤيد إسرائيل ولا الممارسات الصهيونية. وأذكر نقاشًا حاميًا بعض الشيء مع آرثر غولد تبادلنا فيه الصراخ عن ظلم اسرائيل (والتعبير لي) بحقنا نحن (أي الفلسطينيين) وهو يدافع عن وجهة نظر مناقضة تمامًا لوجهة نظري (وقد تقاربتْ وجْهتا نظرنا مع مرّ السنين). لكنها كانت حادثة معزولة ومنقطعة كليًا عن أيّ نشاط آخر مارستُه في پرنستون آنذاك. وقد عومل ماكارثي في پرنستون على أنه كائن تافه، ولم نَعْلم بأيّ أستاذ من أساتذة پرنستون اضطُهد بسبب أفكاره الشيوعية. والواقع أنه لم يكن ثمة وجود يساريّ من أيّ نوع في پرنستون. فأنت لا تكاد تلقى طالبًا يقرأ كارل ماركس أو أستاذًا يعيّن كتاباته للدرس. أما بالنسبة إلى العديد منا، فأقربُ ما وصلْنا إليه من حيث التاريخ

---

١ - اتّهم بالتجسّس لصالح الاتحاد السوفييتيّ واعتُقل زمن الماكارثية. (م)

المعاصر هو آخر محاضرة في حصة التاريخ ألقاها غوردون كريغ عن هتلر (واكتملتْ بتقليده له بطريقة مقززة).

وقع لي حادث غريب جدًا في دودج هول، المبنى الذي يحوي الستوديوهات ومشغل الخياطة (الذي يديره مدرّبُ التنس لصف الفرشمان) وكافيتريا ومسرحًا صغيرًا وعدةَ مكاتب لطلاب من ديانات شتى- الكاثوليك واليهود، الخ. ففي طريقي إلى الكافيتريا، وجدتُني فجأةً وجهًا لوجه مع حاخام «مؤسسة هيليل» نازلاً على السلالم من مكتبه فتلاقتْ أعيُننا: «أنت من مصر»، قال وفي صوته نبرة حادة بعض الشيء. اعترفتُ بصحة تلك المعلومة الاستخبارية وقد فوجئتُ بأنّ الرجل لا يعرفني وحسب وإنما يعرف أيضًا أين أسكن. «ما الذي تنوي القيام به بعدما تتخرج من هنا؟» سأل على نحوٍ بتّار. فقلتُ شيئًا عن عزمي مواصلة الدراسات العليا أو حتى الانتساب إلى كلية الطب (خلال النصف الأول من دراستي في پرنستون كنتُ أتابع الصفوف التحضيرية للطب مع أني مسجّل للتخصص في الإنسانيات). استوقفني بنزق: «لا. لا. أعني بعد أن تنهي دراستك». ثم واصل تبشيره دون أن ينتظر جوابي: «يجب أن تعود. شعبك يحتاج إليك. يعوزهم الأطباء والمهندسون والمدرّسون. يوجد من البؤس والجهل بين العرب ما يجعل أمثالك رصيدًا حاسمًا لشعبك». ثم واصل سيره خارجًا من دودج هول دون أن ينتظر جوابي.

حدث ذلك قبل العدوان على السويس عندما تبرّعتُ بكتابة عمود لصحيفة الجامعة من وجهة النظر العربية. نُشِرَتِ المقالة دون أن تثير أيّ ردّ كالذي كانت ستثيره لو أنها نُشرتْ بعد العام ١٩٦٧. وكان ذلك أوّل نصّ سياسيّ أكتبه، ولكنّ الأهواء السياسية كانت هامدة والآراء الصهيونية مكتومة آنذاك إلى درجة أني تمكنتُ من نشر مقالتي بسهولة كبيرة. ويجب ألاّ ننسى أن تلك كانت الفترة التي أَجبر فيها آيزنهاور إسرائيلَ على الانسحاب من السويس. ومع ذلك، كنتُ مدركًا لتوترات الحرب الباردة والأنماطَ الإشكالية في العالم العربيّ بفضل الوقت الذي كنتُ أمضيه مع آل مالك في واشنطن.

خلال دراستي في پرنستون، قاربتُ لأول مرة لا التيارات والموضوعات السياسية الدارجة خلال تلك الفترة فقط وإنما أيضًا تلك التي سوف تؤثر، بطريقةٍ أو بأخرى، في منظوري الفكريّ والسياسيّ لبقية حياتي. آنذاك، سمعتُ من شارل

مالك عن الايديولوجيا والشيوعية والصراع الكبير بين الشرق والغرب. وكان قد صار وثيق الصلة بجون فوستر دالس وبدأ يمارس تأثيرًا ما في السياسة الأميركية. فأغدقتْ عليه الجامعاتُ شهاداتِها الفخريةَ وصار يُدعى لإلقاء المحاضرات ولمناسبات اجتماعية متكاثرة جدًا. وكان مالك يكنّ ازدراء مسلّيًا تجاه برنستون وتجاهي شخصيًا، لكنه مستعدّ للتحدث إليّ لبعض الوقت (لم يكن الحوار ممكنًا معه باستثناء سؤالٍ أطرحه عليه بين الحين والآخر). وعلمتُ فيما بعد أن تقرُّب عبد الناصر من الاتحاد السوفياتيّ مترادفًا مع معتقده الإسلاميّ هما أصل المُشكِل عند مالك، الذي يغلّف حججه بخطاب يعجّ بالإحصائيات وباتجاهات النمو السكانيّ. باختصار، كانت المشكلة هي الشيوعية والإسلام. ومع ذلك، لم أفلح في مواجهته بمحاججة متماسكة ومتواصلة. فأسلوب مالك قائم على تذكيري الدائم بأني مجرد طالب صوفومور، فيما هو يعيش في العالم «الحقيقيّ» ويتعامل مع عظماء هذا العالم ويملك رؤية أكثر سموّاً من رؤيتي، الخ.

أزعجني مالك حقًا بمزجه السياسيّ بالعائلي، أيْ إحساسنا المشترك بالانتماء إلى جماعة واحدة وبصلة قربى أصيلة نواجه معًا القوى الغريبة التي نعتقد أنها تتهدد«نا» (وهو شعور يشاركه فيه معظمُ أنسبائي اللبنانيين). ولسبب ما، لم أكن أشاطره الإحساس بأنّ التغيير الاجتماعيّ وثقافة الأكثرية تجب مواجهتهما كوسيلة للحفاظ على موقعنا كمسيحيين، ولا كنتُ أشاطره الإحساس بأننا نملك موقعًا متميزًا أصلاً. وفي مناقشات واشنطن هذه تجلّت لي استحالةُ المصالحة بين المعتَقَد الفكريّ وبين العصبية العاطفية للقبيلة والطائفة والوطن، وهي استحالة لا تزال قائمة إلى الآن. فلم أشعر أبدًا بالحاجة إلى ردم الهوة بينهما وإنما حافظتُ عليهما بما هما نقيضان. فقد كنتُ أعتقد على الدوام بأولوية الوعي الفكريّ على الوعي القوميّ أو القَبَليّ مهما أورثني ذلك الاعتقادُ من شعور بالوحدة. صعُب عليّ صياغة تلك الفكرة أيام دراستي الجامعية، مع أني بدأتُ أتلمّسها بالتأكيد على نحوٍ حادّ. كنتُ أفتقر إلى المفردات والأدوات المفهومية للتعبير عنها، وغالبًا ما طغت عليّ العواطف والرغبات – ومعظمها مصدوم في متاهة برنستون الاجتماعية – بحيث لم أتمكن من توضيح تلك التمايزات التي سوف تحتلّ لاحقًا موقعًا مركزيًا في حياتي وإنتاجي.

بقي من الضغط اليوميّ الملحاح لأيامي القاهرية شعورٌ لا يقلّ عنها حدةً هو شعوري بالاندفاع في پرنستون، إذ وظّفتُ معظم طاقاتي العاطفية المكبوتة في بذل النشاط المحموم. طوال سنة الصوفومور، واظبتُ على ممارسة الرياضة من خلال لعب التنس وعضويتي في منتخب السباحة. وصرفتُ الوقت أيضًا في نادي الكورس والطرب، حيث كنت مغنّيًا ومرافقًا، كما صرفت أوقاتًا في العزف على البيانو. وقد نلتُ جائزة قيّمة قدّمها «أصدقاء الموسيقى» في پرنستون للدراسة على يد أستاذ مرموق في نيويورك (عادة ما تكون في معهد جوليارد). وعلى أثر الموت المفاجئ لإريتش إيطور كاهن، معلّمي الاول، تعلّمت على يدي إدوارد ستويرمان، القاسي والمرهوب الجانب، وبيڤردج وبستر الودود، وفرانك شيريدان الأخرق، ولم يُثبت أيٌّ منهم، في تقليديته العديمة الخيال، فائدتَه كمعلّم قَدْرَ ما اثبتتْه لويز سترونسكي، وهي امرأة من أهالي پرنستون ذات حساسية عميقة وموهبة موسيقية عظيمة درستُ على يديها بضعة أشهر.

خلال القسم الأخير من دراستي في پرنستون، اكتشفتُ أني كائن غير ناضج ومتردد ومتخبّط ومتعدد الشخصيات (أنا العربيّ وعازف الموسيقى والمثقف الشاب والهامشيّ المتوحد والطالب المجتهد والمشاغب سياسيًا). وقد تحقق ذلك الاكتشاف من خلال زميلة لشقيقتي الكبرى روزي التقيتُها مصادفةً في فيلادلفيا عندما دعتْ نفسها للانضمام إلينا من أجل حضور عرض «موت البائع المتجوّل» من تمثيل ميكاي شوغنيسّي في دور ويلي لومان[1]. كانت زميلة روزي في صف الصوفومور في بْرين مَاور حيث تجتهد شقيقتي لتجاوز حنينها المشلّ إلى البيت دون أن تُفلح في تجاوز كرهها للمكان. أما صديقتها فزعيمة طلابية تنتمي إلى أسرة من الوجهاء الأرستقراطيين تكتسح جاذبيتُها وسحرُ شخصيتها كلّ تحفّظ قد يساورك تجاه جمالها المتواضع وغير المألوف. فهي طويلة جدًا لكنها تتهادى بأناقة مدهشة. وقد بكت طويلاً خلال العرض واستعارت مني منديلاً واعدةً بأن تعيده إليّ لاحقًا (وهذا ما سرّني). وكانت أسنانها الأمامية تعاني اعوجاجًا تحاول إخفاءه عندما تتحدث وجهًا لوجه.

١ ـ مسرحية للكاتب المسرحيّ الاميركيّ آرثر ميللر. (م)

عندما التقينا بعد بضعة أسابيع كانت قد قوّمتْ أسنانها. فادركتُ إذّاك أنها خلبتني بقوة وشغف، فشعرتُ أني أريد أن أكون معها على الدوام، وهي رغبة تغذّت دائمًا من استحالة تحقيق ذلك. فقوانين پرنستون، وبُعد المسافة بينها وبين بْرِين مَاور، والبرامج الدراسية المعقّدة، حدّتْ كثيرًا من وتيرة لقاءاتنا. ولكنّ ذلك الزمن كان زمنَ علاقتي النامية بإيڤا، وإنْ ظلّت مقتصرة على صيفيات ضهور الشوير. وهكذا كنتُ في سنتي الأخيرة في پرنستون أطارد حبّي في برين ماور - مرةً كل ستة أسابيع أو يكاد، وبنتائج أشدّ ما تكون إحباطًا - بما هي جزء من حياتي الأميركية، بمعنى ما، فيما إيڤا تشكل جزءًا عضويًا من حياتي الشرق أوسطية. ظلّت العلاقتان المتعاكستان والمبرمجتان بانتظام خبيث علاقتين عفيفتين وغير متحققتين. وكما قالت لي صديقة قديمةٌ لها بعد ذلك بعشر سنوات، كانت تلك الأميركية المدهشة شخصية من طراز الإلهة ديانا[1]، غايةً في الجاذبية وفي الصدّ معًا.

على إثر انتكاسة علاقتي بإيڤا في أواخر الخمسينيّات، واصلتُ علاقتي المتشنجة بتلك المرأة الأميركية الملغزة، الولهانة إلى حد مدهش والتي تزداد مراوغةً في الوقت ذاته. ثم عقدتُ زواجًا بائسًا مع امرأة أخرى. وعندما انفصم زواجي، بعد فترة قصيرة، عدت إلى صديقتي من بْرِين مَاور. سكنّا معًا وكنا عشيقين فعليّيْن قرابة سنتين من الزمن بعد اثنتيْ عشرة أو ثلاث عشرة سنة من علاقة متقطعة ممسوسة، إنْ لم أقل مشبعة، بالرغبة الجنسية المتصاعدة باستمرار والمحبَطة باستمرار على أعجب وجه. لم تكن مثقفةً ولا كانت لها أهداف محددة بوضوح لحياتها. تزاملنا في هارڤارد خلال السنة الأولى، ١٩٥٨-١٩٥٩، هي في كلية التربية وأنا في كلية الآداب. وذاتَ مرة خلال ذلك الخريف، أسرّت لي بصعوباتٍ تلاقيها في علاقةٍ لها مع شخص آخر، فآلمني الخبرُ وأربكني، على أني حافظتُ على هدوئي فأصغيتُ إليها وقدّمتُ النصح كصديق. وفي منتصف العام، استأنفنا علاقتنا من جديد. ثم غادرتْ إلى نيويورك للعمل معلّمةً في مدرسة خاصة لفترة من الزمن سافرتْ بعدها إلى افريقيا حيث علّمتْ سنتين أو ثلاث سنوات. كانت مهتمة دائمًا بالمسرح والسينما، ولكنها امتهنت التعليم بسبب تخصصها في التربية،

---

[1] ـ إلهة إغريقية تمثّل العفّة، إضافة إلى كونها إلهة القنص. (م)

وانطباعي أنه على الرغم من مؤهلاتها العظيمة للتعاطي مع الأولاد الصغار، فقد كان التعليم لديها وسيلةً ملائمةً لكسب العيش أكثر منه رسالةً نذرتْ نفسَها لها.

يصعب عليّ وصفُ قوّةِ جاذبيتها، ورومنسيةِ جسدها الذي حُرِمتُه جنسيًا لفترة طويلة، واللذةِ الغامرة للحميمية معها، وعجزي عن توقّع متى ترغب بي ومتى تصدّ، والفرح الطافح للقياها بعد غياب. وهذا ما قيّدني بها على امتداد سنوات عديدة. أحيانًا، كانت تمثّل بالنسبة إليّ المرأةَ الأميركيةَ المثالية التي لا أستطيع إليها وصولاً، لكنها، مع ذلك، تأسرني مفتوناً عند عتبة الوصل بها. وكان لها أيضًا وجه أخلاقيّ (على طريقة «لا تتفوّه بكلمات بذيئة») يُشعرني أحيانًا بمزيد من الغربة ويُجْبرني على إبداء أفضل ما لديّ من تهذيب، ولو على مضض. وكانت عائلتها تحتلّ موقعًا مركزيًا في حياتها، قدّمتها لي بصفتها عائلةً أرستقراطية، وإنْ تكن على شفير الإفلاس. ذلك لأنّ أباها المحامي المتهوّر يتبنى الدعاوى ضد خصوم جبارين من مثل وزارة الدفاع الأميركية، على نحو دونكيشوتيّ ولأسباب محض مثالية وهو ما يؤدي إلى إفلاسه خلال العملية. ولكنّ عائلتها كانت تنمّ عن الذوق والأصل الرفيع والأناقة ومقدار من الرقيّ الأدبيّ تخضعني أحيانًا إلى حالةٍ أقرب ما تكون إلى الإذعان. وكان أخوها البكْر أقرب الناس إليها، وهو رياضيّ مشهور ومجايل لي دراسيًا وإنْ يكن يدرس في هارڤارد. التقيتهما معًا في مناسبتين فقط على ما أظن، لكني شعرتُ من حديثها عنه، عبر السنوات، بمزيج فوق العادة من الحب والخوف والاحترام والشغف، نعم الشغف الذي ساورني شعورٌ غامضٌ بأنه يمنعنا من تحقيق ما أصبو إليه يائسًا وقد بدا في عداد المستحيلات. ولعلني تواطأتُ معها على ذلك، أو هكذا يبدو لي الأمر الآن.

يصعب عليّ الآن أن أعيد تركيب مشاعر الهجران المرعبة التي كانت تجرّني إليها وهي على أهبة تركي، وهو ما كانت تفعله غالبًا. «إني أحبك. لكني لستُ مغرمة بك»، تقول وهي تبلغني بأنها قررت الانفصالَ النهائيّ بيننا. حدث ذلك في أواخر ربيع ١٩٥٩، عشيةَ مغادرتي إلى القاهرة والعطلة الصيفية الطويلة. كنتُ في كلية الدراسات العليا في هارڤارد ولا أزال متّكلاً على تجارة أبي التي كانت تتلقى ضربات قوانين عبد الناصر الاشتراكية والتأميمات وخصوصًا تحريم حيازة الحسابات المصرفية الخارجية التي تقوم عليه تجارتُنا أصلاً. وما إنْ وصلتُ المدينة من المطار حتى ساورني شعورٌ

مباشر بالتهديد وبالتقلقل العميق إلى درجةٍ أني حسبتُه لا يتأتى إلا من شعور بالاقتلاع من الجذور، مما لنا من جذور في مصر. فإلى أين يمكن لعائلتي أن تغادر؟

بعد أيام قليلة، هدأتْ من روعي وتأثرُ المدينة الخالدة - الناس والنهر ومعارفي في نادي الجزيرة وحتى زحمةُ السير وتأكيدًا الأهراماتُ التي أستطيع مشاهدتها من نافذة غرفتي. «إنه الشرق»، قال لي أحد أصدقاء العائلة، «هنا تجري الأمور ببطء. فلا تتوقع تغيّرات حاسمة ولا مفاجآت». والمفارقة في الأمر أنه كان يقول ذلك وقوانين «اشتراكية عربية» تتتالى يوميًا. ومهما يكن من أمر التناقضات والهواجس، فقد انسقتُ بهدوء إلى روتين الدوام اليوميّ في شركة أبي، وأنا لا أملك إلا القليل القليل مما أؤديه فيها. ثم وصلتني بطاقة بريدية من شارتر. كانت منها. وبعد أسبوعين، كتبتْ تسأل ما إذا كانت تستطيع أن تزورني في القاهرة. عشتُ في نعيم إلى أن عاودَتْها غريزةُ ديانا فأعلنتْ بعد أسبوع: «عليّ أن أغادر»، ولم أستطع ثنيها. وبعد أسابيع كنا معًا مجددًا، ثم انفصلنا، وهكذا دواليك.

وبعد أشهر قليلة، غادرتْ إلى أفريقيا ولكنها اضطرّتْ للعودة سريعًا لمرض ألمّ بأخيها الذي ما لبث أن توفي بين ذراعيها بعد ثلاثة أسابيع، مصابًا بسرطان الدم الذي لم يكن له علاج لثلاثين سنة خلت. فكانت تلك أكبر صدمة تلقتها في حياتها، فعادت إلى أفريقيا حيث أمضت سنتين إضافيتين، فلم أستطع أن أسبر بدقة حجم خسارتها أو مدى فداحتها. تلى ذلك فترةٌ من البعاد، وقد نلتُ شهادة الدراسات العليا وبدأتُ العمل في جامعة كولمبيا وتزوجتُ زوجتي الأولى. وعندما بدأ زواجي ينهار، عدتُ إليها. لكنّ مشاعري تجاهها كانت قد تبدّلتْ. فجأةً انتهت تلك السنوات التي كنتُ أنتظر خلالها إلهتي ديانا، تلك التي شكلتْ جزءًا حميمًا من حياتي، وكانت ضرورية جدًا لذاتي المحتجبة الجائعة والمكبوتة، بحيث لم أكن أستطيع أن أتصوّر الحياة من دونها. فهي تخاطب مباشرةً ذلك الجزءَ السرّيّ من كياني الذي احتفظتُ به لنفسي طويلاً، لا «إد» ولا «إدوارد»، الشخصيتين المعيّنتين لي تعييناً، وإنما تلك الذات الأخرى التي أدركتُ دائمًا أنها موجودة فيّ وإنْ كنتُ لا أستطيع إليها وصولاً بسهولة أو مباشرة. فعندما أكون معها، أجدها تطاول ذلك الجزء مني. ومع ذلك، فجأةً أدركتْ نفسي المطمئنةُ - وقد استكانت بعد بضعة أسابيع من الراحة في لبنان - أننا لا نستطيع الاستمرار معًا. فقد انتهى وقتنا معًا. وهكذا انقطعت علاقتنا.

تخرجتُ من پرنستون في حزيران/يونيو ١٩٥٧ وأنا مصاب بطفح حادّ من مرض الحَصْبة. حضر أهلي احتفال «فاي بيتا كاپّا»، والتقيا بعده عددًا من أساتذتي. ومع أني أحرزتُ نتائج جيدة جدًا، فقد أصرّ أبي على سؤال أساتذتي ما إذا كنتُ قد بذلت قصارى جهدي، بنبرة توحي بأني لم أفعل. وحاولت أمي، بلا نجاح يُذكر، أن تطمئنني لاحقًا بحديثها عن مدى افتخاره بإنجازي (بما في ذلك نيلي منحةً دسمةً لهارڤارد، أجلّتُ تسلّمها لعام واحد). فتمتم معظم أساتذتي بعبارات مهذبة (كما هي عاداتهم البائسة). وحده سزاثميري هجم عمليًا على أهلي المربكين بسجال قصير عن المعنى الفلسفيّ الذي ينطوي عليه الشكل المنطقيّ، وبالأحرى اللامنطقيّ، للسؤال: «هل بذل قصارى جهده؟». ففكّرتُ بانشداه أيّ بطل للنقد الأدبيّ هو هذا وكم أتمنى أن أستطيع قريبًا أن أكون مثله.

لشدة ما كنت ممزقًا بين غرائز متضاربة، اتخذتُ قرارًا مشتركًا مع أهلي بضرورة العودة إلى القاهرة لسنة واختيار الحياة القاهرية التي سوف أعيشها فيما لو قررتُ أن أتسلّم تجارة أبي. كان ثمة «لو» في حياتي آنذاك. ولكنْ تبيّن أنّ العام ١٩٥٧–١٩٥٨ انتهى بعدد من الأبواب المغلقة. لا، لن أستطيع أن أعمل في شركةٍ أسسها أبي وامتلكها: فذلك هو ميدانه الخاص والتبعية التي أشعر بها تجاهه كريهة بالنسبة إليّ. فالمال والملكية أمران أعرف بالغريزة أني لا أستطيع انتزاعهما منه بالمنافسة. فعندما كان لا يزال يغدق عليّ المال، خلال سنواتي في پرنستون وبعدها خلال سنوات الدراسات العليا في هارڤارد، كان يومُ عودتي إلى البيت في مصر محنةً عظيمة بالنسبة إليّ. فقد كان يحوم حولي بهياج وانزعاج إلى أن يقول لكي يهدّئ من روعه: «ادوارد، هل لنا بحديث قصير معًا؟». خلال ما لا يقلّ عن عشر سنوات، كان لحديث«نا» شكل أوحد يتناسخ سنةً بعد سنة. يسحب ورقة من جيبه ويقرأ منها رقمًا بالدولارات: «أرسلتُ لك هذه السنة ٤٫٣٥٦ دولاراً. كم بقي لك منها؟». ولأني كنتُ أعرف أنه سوف يترتّب عليّ مواجهة مثل هذا السؤال لدى وصولي إلى البيت، ولأني لم أكن أحتفظ بأيّ قيد لمصاريفي، فقد كنتُ أُمضي عدة ساعات قلقة خلال الرحلة الجوّية الطويلة في طريق العودة إلى الشرق الأوسط وأنا أحاول وضع جردة بنفقاتي، ومن بينها رسوم الدراسة وإيجار الغرفة والطعام. ودومًا، كان المبلغ ينقص كثيرًا عن المجموع، فعندما أواجهه، كنتُ أرزح تحت شعور

ثقيل بالخطإ والذنب. فإذا أنا عاجز عن الكلام، وإنْ تكلمتُ خَرَجَ مني كلامٌ سخيف. «تقول إنك أنفقت خمسين دولارًا على قصّ شعرك. يبقى ألف وخمسمائة دولار لم تحدد وجهة إنفاقها. هل تدري كم من الجهد أبذل لتحصيل مثل هذا المبلغ؟». ثم يسألني: «كم بقي في حسابك في البنك؟»، كأنه يمنحني فرصةً لأنقذ نفسي. والحال أني قبل مغادرتي للعطلة الصيفية، أكون قد سحبتُ كل ما في حسابي إلا عشرة دولارات. فيؤنبني على نحو مزعج. وقد ظل على هذه العادة إلى أن بلغتُ منتصف السن العشرين.

لم أستطع مرة أن أوفِّق بين تعبيره هذا وبين كرمه الاستثنائي – فهو يدفع لي دروس البيانو الخصوصية الباهظة في بوسطن، ويسمح لي بشراء سيارة في إيطاليا لجولة صيفية طويلة عام ١٩٥٨، بما في ذلك أسابيع قضيتها في بايروث وسالزبرغ ولوسيرن، وما إلى ذلك. وحدها وساطةُ أمي تجعله يوافق على طلباتها مادام رده السريع على طلباتي هو الرفض دائمًا. ولا بد لي من الاعتراف بأني كنت معظمَ الوقت خجولاً جدًا ومحرَجًا جدًا من طلب المال منه بنفسي. والواقع أنه موّل تعليمي ونشاطاتي غير الدراسية، ومع ذلك لم أستطع التحدث معه مرةً في الشؤون المالية ولا كان هو يودّ ان يكون لي من المال الشيء الكثير.

ولا بد من القول أيضًا إنه كان لأبي حسٌّ تملّكٍ قويّ، وهو أمر يعوزني كليًا وأعتقد أنه قد حرمني اكتسابَ ذلك الحسّ بمكرٍ وعلى نحو صامت. بعد سقوط فلسطين كان هو وعائلة عمي بولس (الذي توفي عام ١٩٣٩ أو ١٩٤٠) يتشاركان في ملكية تجارتهما في مصر وفلسطين. وخلال ذلك الوقت، لم يكن أيٌّ منا، وخصوصًا أبي، يأخذ شيئًا من صالة العرض، ولو قلمًا من الأقلام، دون أن يوقّع إيصالاً بذلك. كان دقيقًا جدًا في حماية مصالحهم. تترافق دقته مع غضب منفلت من عقاله لدى أية بادرة بذخ أو هدر من طرفنا. لسنوات وسنوات، ظل ينفعل بنا صارخًا: «هل تعلمون كم قلمًا عليّ أن أبيع لكي أحصّل الخمسين قرشًا التي تبذِّرونها على شراء الكعك في النادي؟» – علمًا أنّ أرباحه خلال تلك السنوات كانت تتأتى من مبيعات ضخمة للآلات وقطع الأثاث للحكومة المصرية والجيش البريطانيّ وكبريات الشركات من أمثال شِل وموبيل أويل. والأدهى أني ظللتُ مصدِّقًا تلك الخرافةَ الغريبةَ إلى حين بلوغي الحادية والعشرين من العمر أو نحوها. ولكني أذكر بوضوح أني كنتُ أتحداه قائلاً: «عن أيّ

أقلام تتحدث؟ أنت لا تبيع الأقلام. أنت تبيع حاسبات مونرو وتحصّل ألوف الجنيهات من كل صفقة». كان ذلك يضعه عند حدّه، مع أنّ الابتسامة الماكرة على وجهه توحي بأنه يستمتع رغمًا عنه لأنّ أحدًا قد بزّه في المحاججة ولو لمرة واحدة.

ولأنّ أبي هو مَنْ خلق تجارته بنفسه وصار مالكها الحصريّ، فقد كان يلعب دور المالك الأوحد بكل ما للكلمة من معنى. ونتيجةً ذلك، لم يفلت شيءٌ من تدقيقه، ولم يكن أيّ تفصيل أتفه من أن يَعرفه، وما من زاوية من مكتبه أو صالات العرض أو المصانع أو المحترفات معفية من تفحصه النقديّ. يبدأ العمل في الثامنة صباحًا، وينقطع للغداء في الواحدة، ثم يستأنف العمل في الرابعة (شتاءً وفي الثالثة والنصف صيفًا) ويغادر في السابعة والنصف. السبت هو نصف يوم عمل، والأحد هو يوم العطلة الأسبوعية. يصل أبي إلى العمل في التاسعة والنصف دائمًا ولا يعود إليه بعد الظهر. وأيامَ الأعياد، يرفع العلم الأميركيّ على الدوام، وهي عادة أثارت حنق مستشرق أميركيّ عرفتُه من أيام پرنستون (ولا أعتقد أنه تجاوز العقبات العديدة لكي يستطيع مشاهدة أبي، دعك من مقابلته) فأخذ يحاضر لي عن مدى عدم لياقة ذلك : «هذه هي مصر»، قال كمن يفسّر الماء بالماء، «ورَفْعُ العلم الأميركيّ فيها إهانةٌ للمصريين». على أنّ حضور أبي كان يبدو عاديًا في أعين العديد من موظفيه المصريين. فهو يعرف جميع زبائنه ويظهر في ومضة عين ليأخذ العمل عن بائع متراخ. ولكنّ بنيته القوية المهيبة وهو واقف اينما كان في مباني الشركة في شارع عبد الخالق ثروت، أو في مكتبه في شارع شريف، توحي بملكية عميقة لا ينازعه أحد فيها وهو ما لم أكن أتمتع به.

فأنا الخارجيّ، والغريب العابر السبيل. طبعًا يناديني جميع الموظفين، بمن فيهم الأقدم سنًا، «مستر ادوارد» ولكني كنتُ دائمًا أجد اللقب سخيفًا ومُحرِجًا. فأنا لم أستطع قط التحدث عن «إس. إس. كو» بضمير المُلْكية كأنْ أقول «نحن» أو «لنا»، ولا كان لي فيها أيُّ عمل أقوم به، فكأنّ أبي كان يريدني أن أعمل معه لكوني ابنه فقط. والغريب في الأمر أني على امتداد السنة كنتُ أقود سيارتي بمفردي إلى العمل في الثامنة وأقضي النهار بطوله في المحترف والمكتب وأعود وحيدًا إلى هناك بعد الظهر، وهذا كله دون أن تكون لي مهمة محددة أقوم بها أو عمل أمارسه أو مسؤولية فرع أو خدمة أتولاها. وقد أسأله أن يعيّن لي عملاً منتظمًا فيقول دائمًا: «يكفيني أنك

هنا»». حتى أمي كانت تحتج أحيانًا بفكرتها الغامضة جدًا، بل النابذة، عن الرسالة التي عليّ تأديتها. فأنا، في نهاية المطاف، حامل شهادة بكاليوريوس في الآداب من پرنستون وعضو في فاي بيتًا كاپًا – ولكنها عبثًا تحاول: «يكفيني أنك هنا».

بحلول عيد الميلاد، بدأتُ أتأخر أكثر فأكثر في المجيء إلى «العمل» صباحًا. ورحتُ أقضي القيلولات وحيدًا في المكتب، فيما هو يلعب البريدج في النادي، فأروح أقرأ أو أكتب الشعر (وأنشر بعضه في بيروت) أو النقد الموسيقيّ أو الرسائل لأصدقاء متفرقين. وأذكر أني قضيتُ أسبوعًا أقرأ فيه كلَّ أشعار أُودِن، وأسبوعًا آخر أقلّب في إصدار دار پلياد لأعمال الكاتب آلان، وأسبوعًا ثالثًا أقرأ محتارًا في كييركيغارد ونيتشه، ورابعًا في قراءة فرويد. وفي أواخر كانون الثاني/يناير، بدأتُ ألازم البيت للتمرين على البيانو. غير أنّ أبي كان لاهيًا، لا يهزّه شيء من كل هذا. وكنتُ قليل الثقة بالنفس إلى حد كبير لكي أتحدّاه، ولأسباب لم أَجْلُها بعدُ تمامًا، لم أكن أشعر أني الابن البكر، ولا الابنُ الوحيد المخوّلُ بأن يرث الملكية منه. لم تكن «إس. إس. كو» ملْكًا لي في يوم من الأيام. وخلال ذلك العام، كان يدفع لي مئتيْ جنيه مصريّ شهريًا، وهو مرتّب محترم، في مقاييس ذلك الزمان، ويصرّ على أن أقف في اليوم الأخير من كل شهر في الطابور مع سائر الموظفين وأوقّع على الدفتر (وقد سُمِّيتُ «إدوارد وديع»، لأغراض ضرائبية)، وأن أقبض معاشي نقدًا. وفي كل مرة، عندما أعود إلى البيت، يطالبني بتهذيب شديد أن أعيد المبلغ إليه، قائلاً إنه مجرّد تلبية لحاجتهم إلى «حركة النقد» وإني أستطيع الحصول على أيّ مبلغ من المال أريده. «ما عليك إلا أن تسأل»، يقول. طبعًا، كنتُ أعيد إليه المبلغ بشعور رفيع بالواجب، أنا المقيَّدَ دومًا وأبداً به.

فالمال ماله، في نهاية الأمر، والشركة شركته، والتجارة تجارته. وقد تركتْ تلك الوقائعُ أثرًا قويًا فيَّ إلى درجة أني شعرتُ إزاءه بأني لا أعدو أن أكون زائدة بلا نفع، اسمها «الابن»، كما أتخيّل أنّ موظفيه يسمّونني. لم يكن لي شأن بما يَدْخل في الشركة أو يخرج منها. يصدف أني موجود حيث أنا، لكنّ التجارة تسير مجراها الخاص على عادتها، بدوني. على أني قد أفيده بين الحين والآخر كما في صيف ١٩٦٠ عندما أدت «الاشتراكية العربية» لعبد الناصر إلى تحريم المبادلات الخارجية بالعملة الصعبة والمستوردات التي تتم تلك المبادلاتُ من أجلها. فلجأ أبي

إلى اتفاقات المقايضة الثلاثية أو الرباعية، التي قد تتضمن بيع فول سودانيّ مصريّ إلى رومانيا، التي تشتري بدورها قاطرات سكك حديد من فرنسا فتجيز هذه الأخيرة صادرات إضافية من آلات الدمغ البريدية لأبي في مصر. حاولتُ تتبع تلك الترتيبات ولكني لم أفلح. كان أبي يقوم بكافة التصوّرات في ذهنه (إضافةً إلى احتسابه اسعارَ تحويل العملات والعمولات وتذبذب أسعار الدولار) فيما وسيطه المفضّل، ألبير دانيال، جالسٌ قبالته ومعه الآلة الحاسبة. فيعقدان الصفقة وأكتفي أنا بالنظر، متسائلاً عن مدى شرعية ما يقومون به، ما دامت الصفقة تتحايل بوضوح على القيود والتحريمات الموضوعة في طريق المستوردين من أمثال أبي. فمثلاً تحوّل إلى الإنتاج المحليّ للأثاث المعدني لكنه بسبب حاجته إلى استيراد المواد الخام من الخارج، كان عليه اللجوء إلى المزيد من التلاعبات المعقدة. غير أنّه كان على مستوى المهمة، وسرعان ما استحصل على ما يلزمه من تلك المواد.

وأذكر أنه كان يستمتع بتعقيد ما يقوم به. على أنّ التذاذه البيّن أورثني شعورًا بالقنوط ومقدارًا كبيرًا من العجز. فلم يكن لي أيّ شيء مفيد أضيفه، ما دام أبي ودانيال أسرع مني بكثير وأكثر وثوقًا ودربةً بما يتاجرون به استيرادًا وتصديرًا. على أنه في بعد ظهر أحدِ أيام الأسبوع، اتصل أبي من النادي - ونادرًا ما كان يفعل ذلك - وكنتُ جالسًا في مكتبه اقرأ مجلة على ما أعتقد، وقال: «سوف تصلك بعض الأوراق -العقود- بعد ظهر اليوم. أريدك أن توقّعها وتعيدها إلى دانيال مع الرسول». وشرح لي أنه قد عيّنني نائبًا لرئيس الشركة، فـ«أنت في نهاية المطاف واحد من المدراء التنفيذيين أيضًا»، حسب قوله. لم يبدُ الأمر ذا أهمية بالغة بالنسبة إليّ: فها أنا «أكتفي بأن أكون هنا» لأجله بانتظار أن أُستدعَى بين الحين والآخر لأداء هذه المهمة المفيدة أو تلك. وبعد ساعة من ذلك كانت العقود التي حدثني عنها قد وُقّعتْ كما يجب، وأَذْكر أني ما عدتُ فكرت بالعملية بعد ذلك. غير أني حُرمتُ حقّ العودة إلى مصر خلال السنوات الخمس عشرة التي تلت لأنه حُكم على ذلك العقد، وعليّ أنا، موقّعَه غيرَ الفاطن لشيء، بخرق قانون الرقابة على العملة الصعبة. فأبلغني أبي أنّ أفرادًا من الشرطة جاءوا إلى مكاتبه يسألون عني وأنّ أحدهم هدّد ذات مرة بالعمل على استحضاري من الخارج مكبّلاً بالأصفاد. ولكني، هنا أيضًا، لم أشعر خلال فترة طويلة جدًا من الوقت، أنّ أبي هو الملام على هذه

الانتكاسة المفاجئة التي ورّط فيها ابنه بارتكاب هذا الخرق الفادح للقانون. بل ظللت أفترض على الدوام أنّ الشرطة المصرية هي الملامة وأنه بسبب حماستهم الزائدة عن اللزوم، لا بسبب عدم اكتراث أبي المزعوم بمصيري، مُنِعتُ لخمس عشرة سنة من دخول المدينة الوحيدة في العالم التي أشعر فيها أني في بيتي، إلى هذا الحد أو ذاك.

وهكذا بدأ عالم القاهرة ينغلق علينا مهدِّدًا، بل بدأ يتفكك، فيما الهجوم الناصري يزحف على قدم وساق مطاولاً لا الطبقاتِ الميسورةَ وحدها وإنما أيضًا المنشقين اليساريين من أمثال فريد حداد. في سنتي الثانية من الدراسات العليا (١٩٥٨-١٩٥٩) كنتُ قد أدركتُ، إثر موت فريد ومحاكمة جورج فاهوم بتهمة «الفساد التجاريّ»، أنّ أيامنا كمقيمين أجانب في القاهرة قد أشرفتْ أخيرًا على نهايتها. ساد جوّ ثقيل من التوجس والإحباط حلقةَ أصدقاء أبي، ومعظمهم أعدّ الترتيبات للمغادرة (وسافر معظمُهم فعلاً) إلى لبنان أو أوروبا.

كانت سنواتي الخمس (١٩٥٨-١٩٦٣) كطالب دراسات عليا في الأدب في جامعة هارڤارد استمرارًا فكريًا لپرنستون في ما يتعلق بالدراسة الرسمية. وكان يسيطر على أساتذة الأدب تعليمُ التاريخ التقليديّ والشكلية الباهتة. وهكذا، تلبيةً لمتطلبات استحصالي على الشهادة، لم يكن بالإمكان أن أفعل أكثر من الانتقال من حقبة إلى حقبة وصولاً إلى القرن العشرين. وأذكر ساعاتٍ وأيامًا وأسابيع كنتُ خلالها أقرأ بنهم دون أن ألقى أيَّ أثر لقراءاتي في ما يحاضِرُ عنه الأساتذة أو ما يتوقعونه من جمعٍ من الطلاب مستكينين عمومًا. لم يكن من غضن واحد على سطح ذلك الهمود الطلابيّ، ربما لأنه، في غياب أية قدوة فكرية تحفّز جهودنا، كنا نشعر جميعنا بأننا في غير مكاننا، وأننا على قلق في تلك المؤسسة. فقد حققتُ اكتشافاتي الفكريةَ خارج نطاق البرنامج الدراسيّ المطلوب، بمعية طلاّب أصيلين وموهوبين زاملوني أيضًا في هارڤارد، أمثال آرثر غولد ومايكل فْرِيد وتُوم كارنيتشللي. ولما كان الشرق الأوسط ينأى أبعد وأبعد عن وعيي (لم أكن أقرأ بالعربية حينها ولا كنتُ أعرف أياً من العرب، باستثناء رالف نادر، وهو مختلف عني لأنه طالب حقوق في هارڤارد مولود في أميركا، وقد ساعدني على أن أقاوم التجنيد العسكريّ خلال أزمة برلين عام ١٩٦١ وأن أفلت منها أخيرًا) فقد صارت الأحداث

الهامة بالنسبة إليّ هي قراءة كتاب ڤيكو **العِلم الجديد** وكتاب **التاريخ والصراع الطبقيّ** للوكاش، ومؤلفات سارتر وهايديغر وميرلو-پونتي وجميعهم أثّروا في أطروحتي عن كونراد وقد كتبتُها تحت إشراف سلِس من مونرو أنْغَل وهاري ليڤاين. حاولت مرّتين أن أدرس بإشرف آي. إي. ريتشاردز، الشخصية الأكثر طليعيةً في هارڤارد، وفي المرتين تخلّى عنا في منتصف الطريق إذ تتدخل سكرتيرته لتعلن أنّ الصف قد حُلّ من طرف واحد. كان صورة مصغرة ومضحكة عن المفكر المغامر السابق - غامضًا، ومختالاً ومشتّتَ الذهن. وقد صدِمتُ عند قراءتي مؤلفه الأساسيّ لهزاله وعدم اكتماله، إذ ألفيتُه قليلَ الإثارة والإيحاء، بقدر ما كان كتاب بلاكميور مثيرًا وموحيًا على الرغم من لغته العويصة. وكان لنا بعض الإثارة من الأساتذة الزائرين، وهم قلة فيّ تلك الأيام، ولكنْ هزّتني محاضراتُ كنيث بورك عن «اللوغولوجيا» كما سمّاها.

تعود إلى إغنايس تيغرمان ممارسةُ أهم تأثير موسيقيّ على حياتي، حتى وأنا في هارڤارد، وهو عازف بيانو بولونيّ منمنم (لا يتجاوز أربع أقدام وعشرة إنشات طولاً) ومدير كونسرفاتوار وأستاذ مقيم في القاهرة منذ منتصف الثلاثينيّات. قليلون هم الموسيقيون، على حد علمي، الذين يملكون مؤهلاته كعازف بيانو ومعلّم وموسيقيّ. درس على ليتشيتيتزكي وإنغاتز فريدمان وجاء إلى مصر في رحلة سياحية، فأُغرم بها وبقي فيها بكل بساطة، وهو يعي أتمّ الوعي ما يعنيه صعودُ النازية ليهودٍ من أمثاله في بولونيا. كان كسولاً مدمنًا الكسلَ، وعندما تعرفتُ إليه كان قد أقلع عن التمرين وعن تقديم الحفلات الموسيقية. لكنه ظل يختزن في ذهنه ويديه كلَّ الأدبيات عن البيانو من المرحلة الوسيطة لبتهوڤن إلى المرحلة المبكرة لبروكوفييف ويستطيع أن يعزف معزوفات مثل «غاسپار دي لا نوي» أو دراسات شوپان في النوطات الثلاثية والخماسية بجودة أسطورية وبمنتهى الصقل. أما عن مقطوعات برامز المتأخرة، أو مسائيات شوپان، أو المازوركات والأهم من ذلك الأغنية الراقصة الرابعة والتقاسيم والفانتازيا البولونية، فما من عازف سمعتُه يعزفها أحسن من تيغرمان بكمالٍ في النبرة والجملة الموسيقية، وبإيقاع «مضبوط» بلا أدنى خلل، ناهيك عن التأويلات وما إليها. ولقد شجعني أكثر مما أستطيع التعبير عنه، لا بما كان يقوله لي مباشرةً وإنما من خلال عزفه على البيانو الثاني، فيريني ما الذي

يمكن تعديلُه في عزفي (وقد كان قادرًا على تقليده بطريقة ممتازة). وقد كان فوق ذلك كله زميلاً موسيقيًا، لا سلطةً مستبدّة لائمة، تشكل الموسيقى بالنسبة إليه جزءًا من الحياة. فخلال أحاديثنا المطوّلة في أماسيّ أيام الآحاد القاهرية، أو تاليًا في الداتشا الصيفية الصغيرة في كيتزبول، كنا نتقلّب، على نحو طبيعيّ، بين فترات من الحديث ووصلات من العزف على البيانو.

ومع ذلك، تضاءل اهتمامي باحتراف الموسيقى لأني لم أكن راضيًا فكريًا عن متطلبات التمرين اليوميّ ولا عن الحفلات النادرة جدًا التي أحييتُها. ويجب أن أقول إني اكتشفتُ أنّ مواهبي، على ما هي عليه، لم تكن تكفي أبدًا لنوع المسار الاحترافيّ الذي كنتُ أتخيّله لنفسي. والمفارقة في الأمر أنّ قدوة تيغرمان، المعتملة في داخلي، نهتني أخيرًا عن أن أجعل من البيانو أيَّ شيء آخر غير متعة حسّية أمارسها بمستوى معقول من الكفاءة بقيةَ حياتي. فقد أدركتُ أنه يوجد خطٌ أحمر من الاستعداد الخام لن أستطيع اجتيازه، هو الخط الفاصل بين الهاوي الجيد وبين المنفّذ المحترف الموهوب مثل تيغرمان أو غلين غولد. وقد حضرتُ حفلات هذا الأخير في بوسطن بين ١٩٥٩ و١٩٦٢ بإعجابٍ حدّ الانشداه. فمقدرته على التنقّل بين السلالم الموسيقية، أو القراءة بمجرّد لمح النظر، وذاكرته التامة، والتنسيق الكامل بين يده وأذنه، لم تكن تحتاج إلى أيّ جهد، في حين صعبتْ عليّ هذه كلها صعوبةً كبيرة، وكانت تتطلب مني مجهودات ضخمة لا تعطي في نهاية الأمر غيرَ إنجازٍ متفاوتٍ وغير مؤكد. غير أني مع صديقي الزاهر عفيف (الڤارز) بولس قدّمتُ حفلات موسيقية: هو يغنّي بصوته الباريتون، وأنا أعزف على البيانو. وعفيف هو ابن القدس، يكبرني بخمس عشرة سنة، ويدرس لنيل شهادة في الألسنيات، وكان مَثَليّ الجنس ومبهرجًا على نحو غير مألوف ويكاد أن يكون متكلّفاً إلى حد مضحك قياسًا إلى تلك الأيام. وهو واحد من النادرين بين مجايليَّ من أيام هارڤارد، ممن ظللتُ ألتقيهم في بيروت حيث كان يعلّم إلى حين مقتله المقزّز طعناً بالخناجر في ربيع العام ١٩٨٢. فكان موته إنذاراً مسبقاً ومروّعًا بالغزو الإسرائيليّ الذي تم بعد ثلاثة أشهر من ذلك، وبالحرب الأهلية اللبنانية التي استعر أُوارها في رأس بيروت، حيث يسكن عفيف.

في كمبردج، كنتُ أنا وعفيف نتمرّن في غرفة من بيت يقع في نهاية فرانسيس آڤنيو لصاحبته السيدة ثايس كارتر، المرأة اللطيفة التي كانت ابنتها

زميلة لشقيقتي روزي في بْرِين مَاور. وثايس امرأة مطلّقة متوسطة العمر تعيش وحيدة، خلا أشهر الصيف عندما يجيء أبوها الساكن في فلوريدا، المستر آتوود، للإقامة معها. تؤجّر غرفتين في الطابق العلويّ، سكنتُ إحداهما لثلاث سنوات رضيةٍ حقًا بفضل ظرفها المتواضع وضيافتها وصداقتها. كانت ثايس في مثل عمر أمي تقريبًا، لكنها صبورة في حين أنّ أمي نزقة، ومنهجيّة بخلاف أمي التي تستمتع بالمفاجآت وبالخروج على كل الأنظمة، ودنيوية هادئة بالمقارنة مع أمي التي هي مزيج من السذاجة ومن الحنكة المحمومة. وقد أصبحتا صديقتين حميمتين على الرغم من أنه يستحيل تخيّل زوج من الأضداد المتفارقة أكثر منهما. وكانت ثايس تتسامح مع مثلية عفيف الجنسية المبهرجة بل تعامله بعاطفة لاهية، في حين تنزعج أمي أيما انزعاج منه. وأذكر أني أبلغتها عام ١٩٥٩ أنّ عفيف مثليّ الجنس فدهشتُ لاكتشافي أنها لا تعرف معنى الكلمة، ولكنّ هذا لم يمنعها من أن ترتعد بتقزّز بيّنٍ كما تفعل في كلّ مرة يأتي فيها ذِكرُ الجنس.

ظلّت أمي تشكل مرجعًا لي معظمَ الأوقات وبطرائق لا أعيها تمام الوعي ولا أفهمها على نحو محدد. وفي صيف ١٩٥٨ بينما كنتُ أقُود سيارتي في سويسرا، اصطدمتُ اصطدامًا وجاهيًا دمويًا مرعبًا بسائق دراجة نارية، فقُتل السائق وتأذيتُ أنا كثيرًا. لا أزال أذكر مرتعدًا الصوتَ المدوّي والشامل المرعب للارتطام الذي أفقدني الوعي. وأذكر أني ألفيتُ قسيساً يحدب عليّ محاولا إعطائي المسحة الأخيرة حين استيقظتُ متمدداً على العشب. في لحظة، أزحت القسّيس المتطفّل عني، ودفعتني غريزةٌ لا تخطئ إلى أن أخابر أمي التي صدف وجودها آنذاك في لبنان مع سائر أفراد العائلة. كانت أول إنسان شعرتُ بالحاجة إلى أن أقصّ عليه قصتي. وقد فعلتُ ذلك لحظةَ أوصلتني سيارةُ الإسعاف إلى مستشفى فريبور. ذلك أنّ شعوري بأني أبدأ حياتي بأمي وبها أنهيها، وبحضورها الداعم وبطاقتها غير المحدودة على تدليلي - أو هذا ما كنتُ أتخيّله - كان بمثابة الضمان الرفيق والخفيّ لحياتي خلال سنوات وسنوات. فعندما كنتُ أعاني تحوّلاتٍ جذريةً - فكريةً أو عاطفية أو سياسية - كنتُ متأكدًا من أني أستطيع الاعتماد اعتمادًا كاملاً على شخص أمي المثاليّ وصوتها واهتمامها وحنوّها الأموميّ الغامر. وعندما وقع الطلاق بيني وبين زوجتي الأولى، اعتقدتُ أنّ أمي هي التي أخرجتني من الارتباك

العظيم الذي وقعتُ فيه، على الرغم من التباساتها الاستثنائية التي شئت أن أتجاهلها أو أن أتجاوزها: «إذا كانت الأمور بهذا السوء بينكما، إذّاك، نعم، يجب أن تطلّق بالتأكيد». غير أنّها أردفتْ فورًا: «ولكنْ، من جهة ثانية، الزواج عندنا (نحن المسيحيين) عقدٌ أبديّ، وسرّ من الأسرار المقدسة. وكنيستنا لن تعترف أبدًا بالطلاق». وتلك أقوال غالبًا ما كانت تصعقني إلى حد الشلل.

على أني استطعتُ لسنوات أن أتجاوز تردّدها وأن أستحصل على الدعم الذي تمنحني إياه، خصوصًا بعد أن حرمتُ القاهرةَ وبتّ قادرًا على أن أتبيّن بوضوح أكبر وقعَ خسارة القاهرة ووقع الخسارة المستمرة لفلسطين على حياتنا وحياة سائر أقربائنا. وحمل العام ١٩٦٧ المزيد من التفكك، وقد بدا لي أنه يجسّد بامتياز التفككَ الذي يختزل سائر الخسائر الأخرى: العوالمَ المتوارية لنشأتي وصباي، سنواتِ دراستي غير المسيّسة، والدراسةَ والعلمَ المتحرريْن افتراضًا في جامعة كولمبيا، وسواها. لم أعد الإنسان ذاته بعد العام ١٩٦٧. فقد دفعتني صدمةُ الحرب إلى نقطة البداية، إلى الصراع على فلسطين. فدخلتُ من ثم إلى المشهد الشرق أوسطيّ المتحوّل حديثًا بوصفي جزءًا من الحركة الوطنية الفلسطينية التي انبثقتْ في عمّان ومنها انتقلتْ إلى بيروت في أواخر الستينيّات وعلى امتداد السبعينيّات. كانت تلك تجربة تغذّت من ذلك الجانب المضطرب والمحتجب من حياتي السابقة -وأعني نزعتي المعادية للسلطوية، وحاجتي إلى كسر الصمت المفروض قسراً، والأهم من ذلك حاجتي إلى الانكفاء إلى حالة أصلية ترفض أيّ شكل من أشكال المصالحة وتَرُوم تدميرَ النظام الظالم القائم. ويعود تقلقلُ أمي في جانبٍ منه إلى خسارتها أبي، وإلى العديد من التغيرات المذهلة الحاصلة حولها، حيث كانت منظمة التحرير الفلسطينية تنمو حجمًا وأهميةً في بيروت مع نموّ الحرب الأهلية اللبنانية وتطورها. عاشت خلال الغزو الإسرائيليّ عام ١٩٨٢ مثلاً بمرح وجلدٍ عظيمين يدعوان للإعجاب، تعتني ببيتٍ تسكنه شقيقتي الصغرى غرايس إضافةً إلى صديقين بلا مأوى هما إبراهيم أبو لغد وسهيل ميعاري اللذان بَقَرَ صاروخٌ اسرائيليّ شقّتهما في مطلع الحرب. فأظهرتْ بسالةً مدهشة تحت وقع القذائف. ومع ذلك، عندما كنتُ أحاول التحدث إليها في السياسة، وخصوصًا سياساتي الانشقاقية، أو في الوقائع السياسية المعقدة التي سببت المشكلات اليومية في

حياتها منذ زواجها، كانت توبّخني قائلة: «عُد إلى كيانك الأصليّ: أنت أديب. السياسة في العالم العربيّ تدمّر الناس الصادقين الطيّبين من أمثالك»، وما إلى هنالك.

اقتضى الأمر سنوات بعد نهاية تعليمي رسميًا لكي أدرك مدى تسللها – قصدًا أو سليقة؟ لن أدري أبدًا – إلى شؤوننا الداخلية، نحن الشقيقات الأربع والشقيق، وبل ومدى تدخلها أيضًا بين واحدنا والآخر. ولا أزال أنا وشقيقاتي نعاني آثار مهاراتها المرهوبة الجانب في هذا المجال، وقد أدت إلى نشوب حواجز شائكة بيننا، تغذت بالتأكيد من مصادر أخرى، ولكنها حواجز أقامتها هي أصلاً. يؤسفني أنّ بعض هذه الحواجز غير قابل للإزالة. وربما كانت مثلُ تلك الحواجز قائمةً في كل العائلات. ولكنني أدرك الآن أيضًا أنّ شرنقتنا العائلية الغريبة في ذلك الزمان المنقضي لا تصلح نموذجًا لحيوات لاحقة، ولا العالم الذي عشنا فيه يصلح لها. وأظن أنّ أبي قد حدس ذلك عندما قرر، بكلفة باهظة، إتيان أمر غير مسبوق إطلاقًا، عندما أرسل أربعةً منا للدراسة في الولايات المتحدة (اكتفت شقيقاتي بالكلية فقط). وكلما أمعنتُ في التفكير في ذلك، ازددت اقتناعًا بأنه كان يعتقد أنْ لا أمل لي في أن أصير رجلاً إلا إذا صَرَمتُ علاقتي بالعائلة. ثم إنّ بحثي عن الحرية، وعن تلك الذات المتوارية خلف «إدوارد» والمطموسة به، ما كان ليبدأ أصلاً لولا ذلك الصَّرْم. لذا عليّ أن أرى إليه بما هو حدث سعيد على الرغم مما أورثني من وحدة وتعاسة لفترات طويلة جدًا. والآن لم يعد يهمني أن أكون «سَوِيّاً» و«في مكاني» («في مكاني» في البيت مثلاً)، بل إني لم أعد أرغب أصلاً في ذلك. خيرٌ لي أن أهيم على وجهي في غير مكاني، وأن لا أملك بيتًا ولا أشعر أبدًا كأني في بيتي في أيّ مكان، خصوصًا في مدينةٍ مثل نيويورك حيث سأعيش إلى حين وفاتي.

كثيرًا ما كانت أمي، خلال الأشهر القليلة الأخيرة من حياتها، تخبرني متذمرةً ببؤس محاولاتها الإخلادَ إلى النوم. كنا نتهاتف باستمرار هي في واشنطن وأنا في نيويورك، ونلتقي مرةً كل شهر. وكان مرضُ السرطان آخذًا في الانتشار في جسمها وأنا على علم بالأمر. ومع ذلك رفضتْ تلقّي العلاج الكيميائيّ: «ما بدّي إتعذّب»، كانت تقول. وبعد سنوات من ذلك، هدرتُ أربع سنوات تحت العلاج

الكيميائيّ من غير طائل. أما هي فلم تنثن ولم ترضخْ حتى لإلحاحات طبيبها وظلت ترفض العلاج الكيميائيّ. وقد نجم عن ذلك أن حُرِمتِ النومَ ليلاً. ولم ينفع معها شيء، كما قالت، لا المسكّناتُ ولا الحبوبُ المنوّمة ولا الملّيّنات أو نصائحُ الأصدقاء أو الأقارب، ولا القراءةُ أو الكتابة. لا شيء نفع معها. «ساعِدني على النوم، يا إدوارد»، قالت لي ذات مرة برجفة مثيرة للشفقة في صوتها لا تزال تتردد في أذنيّ وأنا أكتب هذه السطور. ولكنّ السرطان ما لبث أن غزا الرأس، فنامت كلَّ الوقت خلال الأسابيع الستة الأخيرة. وكان انتظارُنا، أنا وشقيقتي غرايس، إلى جانب سريرها لكي تصحو من نومها أكثرَ تجاربي معها إقلاقًا ومفارقةً.

والآن أخمّنُ أنّ عجزي عن النوم هو آخر ما أورثتني إياه، على النقيض من نضالها هي لتنام. ذلك أنّ النوم عندي أمر يجب الانتهاء منه بأسرع ما يمكن. وأنا لا أستطيع الإيواء إلى الفراش إلا متأخرًا جدًا لكني أستيقظ عند الفجر. فأنا، مثلها، لست أملك سرّ النوم الطويل. على أني خلافًا لها وصلتُ إلى نقطة لم أعد أرغب في النوم أصلاً. فالنوم عندي معادلٌ للموت، مثله مثل أيّ تقليص للوعي. وخلال وجبة علاجي الأخيرة – التي استغرقتْ اثنيْ عشر أسبوعًا – أزعجتني الأدوية التي أُعطِيتُها لطرد الحمى والرجفات، ولكنّ أزعج ما أزعجني هو تنويمي القسريّ، وذلك الشعورُ الذي انتابني بالعودة إلى الطفولة، وإلى العجز التي سلّمتُ به لأمي، وأنا طفل، لسنوات عديدة خلت، مثلما سلّمتُ به لأبي أيضًا، وإنْ يكن بطريقة مختلفة. فحاربتُ المسكّنات الطبية بضراوة كأنّ كياني ذاته يعتمد على مقاومتي تلك، بما فيها مقاومة نصيحة طبيبي.

إنّ الأرق عندي حالة مباركة أرغب إليها بأيّ ثمن تقريبًا. فليس عندي ما هو أكثر تنشيطًا من أن أَطرد عني فورًا ظلال الوسن لليلةٍ خسرتُها غير إعادة تعرّفي، في الصباح الباكر، على ما كدتُ أخسره كليًا قبل بضع ساعات أو استعادتي إياه. بين الحين والآخر، أرى إلى نفسي كتلةً من التيارات المتدفقة. أؤْثر هذه الفكرة عن نفسي على فكرة الذات الصلدة، وهي الهوية التي يعلّق عليها الكثيرون أهميةً كبيرة. تتدفق تلك التيارات، مثلها مثل موضوعات حياتي، خلال ساعات اليقظة. وهي، عندما تكون في أفضل حالاتها، لا تستدعي التصالح ولا التناغم. إنها من قبيل «النشاز»، وقد تكون في غير مكانها، ولكنها على الأقل في حراك دائم في الزمان

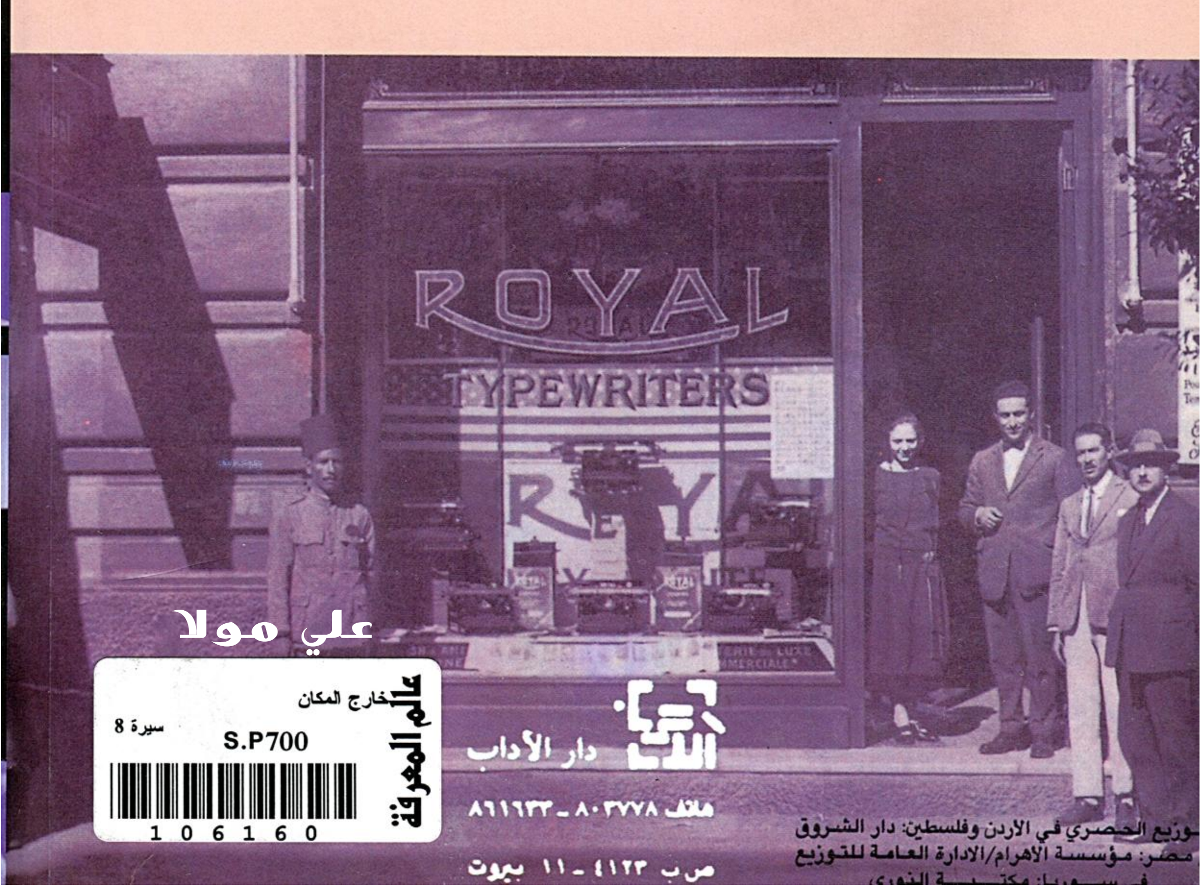
وفي المكان وبما هي أنواع مختلفة من المركبّات الغريبة، لا تتحرك بالضرورة إلى أمام، وإنما قد يتحرك أحيانًا واحدُها ضد الآخر، على نحو طباقيّ ولكنْ من غير ما محورٍ مركزيّ. إنّه ضرب من ضروب الحرية، على ما يحلو لي أن أعتقد، على الرغم من أني بعيد كل البعد عن أن أكون مقتنعًا كليًا بذلك. ونزعة التشكيك هذه هي أحد الثوابت التي أتشبّث بها بنوع خاص. والواقع أني تعلّمتُ، وحياتي مليئة إلى هذا الحد بتنافر الأصوات، أن أؤْثر إلا أكون سَويًا تمامًا وأن أظلّ في غير مكاني.

هذا الكتاب قصة استثنائية عن المنفى وسردٌ لارتحالات عديدة واحتفال بماض لن يستعاد.

عام ١٩٩١، تلقّى إدوارد سعيد تشخيصًا طبيًا مبرمًا أقنعه بضرورة ان يخلّف سجلاً عن المكان الذي ولِد وأمضى طفولته فيه. في هذه المذكرات، يعيد إدوارد سعيد اكتشاف المشهد العربيّ لسنواته الاولى - «أماكن عديدة زالت، وأشخاص عديدون لم يعودوا على قيد الحياة ... باختصار، إنه أساسًا عالم قد اندثر». فقد طرأتْ على ذلك المشهد تحولاتٌ عديدة إذ تحولتْ فلسطين إلى إسرائيل، وانقلب لبنان رأسًا على عقب بعد عشرين سنة من الحروب الأهلية، وزالت مصر الملك فاروق الكولونيالية إلى غير عودة عام ١٩٥٢.

يحيي هذا الكتاب عالمًا يصعب تخيله من الشخصيات الغنية الجذّابة. إنّه نصّ غنائيّ وجميل الصنعة، يبلغ أحيانًا درجات عالية من الصراحة بقدرِ ما هو، في الآن ذاته، حميمٌ ومرح. ويكشف إدوارد سعيد فيه دقائق ماضيه الشخصيّ، ويَستعرض لنا الأفراد الذين كوّنوا شخصيته ومكّنوه من أن ينتصر ليصبح واحدًا من أبرز مثقفي عصرنا.

إدوارد سعيد (١٩٣٥ -.....): وُلِد في القدس. وهو بروفسّور شرف في اللغة الإنكليزية والأدب المقارن في جامعة كولمبيا في نيويورك. ألّف سبعة عشر كتابًا منها: **الاستشراق**، و**صور المثقف**، و**الثقافة والامبريالية** (صدر عن دار الآداب).



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

توزيع الحصري في الاردن وفلسطين: دار الشروق
مصر: مؤسسة الأهرام/الادارة العامة للتوزيع
في سوريا: مكتبة النوري